ماركيز دو سيڭونزاك

في قلب الأطلس

رحلة إلى مجاهيل المغرب سنتي 1904-1905

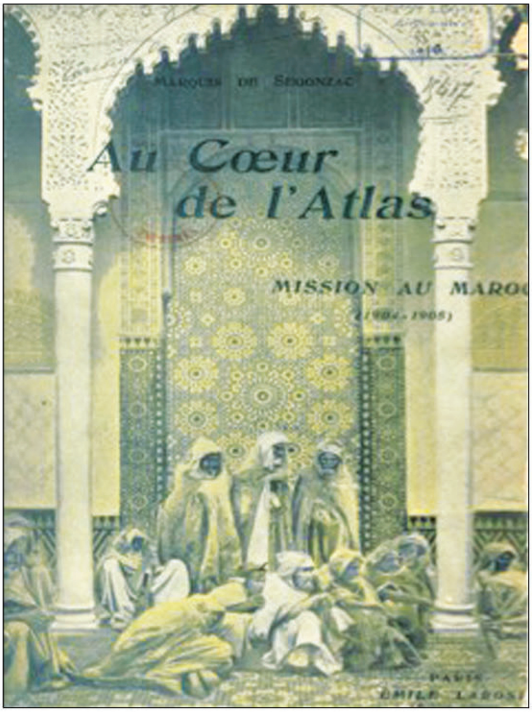

ترجمة : محمد ناجي بن عمر

2022

في قلب الأطلس
رحلة إلى مجاهيل المغرب
سنتي 1904 - 1905

ماركيز دو سيگونزاك

في قلب الأطلس
رحلة إلى مجاهيل المغرب سنتي 1904 - 1905

ترجمة : محمد ناجي بن عمر

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة ترجمات: رقم 55

العنوان:

في قلب الأطلس: رحلة إلى مجاهيل المغرب سنتي 1904 - 1905

المؤلف:

ماركيز دو سيگونزاك

ترجمة : محمد ناجي بن عمر

المتابعة والإعداد للنشر

علي بنطالب - الوافي نوحي

تصميم الغلاف :

مصطفى الحضيكي - وحدة النشر

الناشر:

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

لوحة الغلاف:

صورة غلاف الكتاب الأصلية

الطباعة:

دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط

صورة ظهر الغلاف:

صورة المؤلف ماركيز دوسيكونزاك

رقم الإيداع القانوني:

2022 MO 1110

ردمك:

978-9920-739-59-7

© الحقوق محفوظة للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مقدمة المترجم

نحن أمام مؤلِّف لعسكري، ومستكشف، وكاتب فرنسي، يدعى روني دو سيگونزاك ولد سنة 1867 بمدينة Lucy – de bois شمال فرنسا، ويعد من أهم الرحالة الفرنسيين إلى المغرب قبل الحماية بعد شارل دو فوكو الذي كان قدوته. انخرط المؤلف في مشروع فرنسا في مخططها الاستعماري، وهكذا أُرسل في بعثة إلى ساحل العاج باعتباره ضابطا شابا في الخيالة سنة 1890. ويبدو أن هذه المهمة الأولى قد فتحت عينيه على الاهتمام بالرحلات باعتبارها مصدرا هاما لجمع المعلومات، وهكذا استغل عطلته السنوية من سلك الجندية سنة 1899 ليقوم برحلة إلى المغرب- بعد إذن السلطات الفرنسية بطبيعة الحال- متنكرا باعتباره حاجا طرابلسيا رفقة دليل له جعل منه شريفا. انطلق عبر طرقات الأطلس الكبير، وسلكها عبر ممر بيباون ليصل إلى تارودانت عاصمة سوس، لينطلق بعد ذلك لزيارة أگادير، والصويرة.

جمع سيگونزاك معطيات هامة خلال هذه الرحلة التي دامت شهرا من وصف للمسار، وأكثر من خمسين صورة فوتوغرافية، ومادة كتاب ألفه تحت عنوان "رحلة إلى سوس مع معطيات أولية عن المسألة المغربية سنة 1901". وترسخت عنده فكرة الرجوع إلى المغرب مرة أخرى، فاستقال من سلك الجندية سنة 1901، وانطلق متخفيا أو متنكرا من جديد ليعبر مناطق الريف قبل أن يعبر الأطلس المتوسط عبر أزرو ليصل إلى ملوية، فقام برحلة إلى جبل العياشي، وهذا إنجاز هام من الناحية البدنية، والجغرافية قبل أن يعود في اتجاه تازة، ويصل إلى واد سبو.

وقد مكنته هذه الرحلة التي دامت تسعة أشهر من أن يجمع عينات جديدة من المعادن سيحلله بالجزائر، مع تلك التي سبق أن جمعها من قبل علماء مختصين في الفترة مثل الجيولوجي فيشر، وفلوت وركفير. واستطاع أن يدون مغامراته في هاتين الرحلتين في كتاب عنونه بـ"بعثة سيگونزاك، رحلات إلى المغرب سنوات 1899-1901-1903" نفذت طبعته بسرعة، ولم يتوقف عن الحديث عنه في المناسبات، والمحاضرات. واستطاع بفضل هذا الشيوع أن يفكر في رحلة "في قلب الأطلس" التي تعد من أكبر الرحلات التي لم يسبق أن نظمت إلى المغرب سنة 1904 بتأطير من اللجنة المغربية الحديثة النشأة على يد نائب/ حاكم وهران : أوجين إتيان، وشركة الجغرافيا بباريس. وكانت أكبر حجما من رحلة شارل دوفوكو.

كان الهدف من الرحلة أساسا جمع معلومات جغرافية. فتم التهييء للرحلة بعناية، وفتح اكتتاب في الموضوع، وأسهمت عدة مؤسسات في تموينها، وكان الأمر يقتضي أن يجمع ما بين يوليوز،

ونونبر المرشدين، والأمتعة، والاستعداد للرحلة من جديد متنكرا هذه المرة في صفة بغَال مسلم، لكن النقيب سيگونزاك لم يكن هذه المرة لوحده بل كان مرفوقا بـ السيد لويس جانتي M. Louis GentilL، دكتوراه في العلوم وأستاذ بمحاضر السوربون. والسيد رودوفلوت روكافير M. R. Flotte. Roquevaire، رئيس المصلحة الخرائطية "بالحكومة" الإقامة "العامة بالجزائر". وسي سعيد بوليفة، معيد من القبايل بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر، وسي عبد العزيز الزناگي، معيد العربية بمدرسة اللغات الشرقية مترجما.

فوزعوا كلهم المهام من أجل اكتشاف الجنوب، والجنوب الشرقي للبلاد، فانطلقت الرحلة من الصويرة في اتجاه دمنات، ثم إلى ملوية، حيث وصف بدقة القبائل التي مر منها وضيافاتها، وردود أفعالها. وحاول التوقف عند المشاكل المتعلقة بالوصول إلى الجبال ومسالكها قبل أن يعبر الأطلس الكبير ليصل إلى لصحراء، ويتعرف على واد درعة عبر تافيلالت، لكنه لم يستطع – مع كامل الأسف- أن يذهب بعيدا، لأنه كُشف أمره باعتباره مسيحيا، فعُنِّف، واعْتُقِل مدة أربعين يوما، ولم يكن في عونه سوى الأدوية التي كان يحملها معه، فأطلق سراحه بفضل صداقاته.

كان هذا الاعتقال مناسبة هامة ليتقاسم مع "البربر" حياتهم، حتى إن أحد الأعيان كاد أن يزوجه إحدى بناته. وصل إلى مراكش سنة 1905 عبر تلوات، واستطاع أن يجمع في هذه الرحلة عدة صور فوتوغرافية، ومعلومات ثمينة جدا مما جعل شركة الجغرافيا بباريس توشحه بميدالية ذهبية.

ترك سيگونزاك فضلا عن هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ الكريم قبل أن يفارق الحياة يوم 27 مارس 1962 عن سن 94 سنة بيويليو –سانت لامبير ببلجيكا، المؤلفات التالية:

- كتاب :

- Voyages au Maroc (1899-1901), Paris, Colin, 1903

- كتاب :

- Réalités et Possibilités marocaines

وهو عبارة عن محاضرة ألقاها المؤلف بمؤتمر عقد بالمعهد العالي للتجارة بباريس سنة 1908.

كتاب :

- la légende de Florinda la Byzantine (H. Piazza) 1928

- نال عنه جائزة، بعد أن قدم له المارشال ليوطي.

- محاضرة للشركة النورماندية الحضرية تحت عنوان : A Travers le Maroc

أما عن علاقتي بهذا الكتاب فلكونه شكل إحدى الدعامات الأساس لمشروع شخصي أشتغل

عليه منذ مدة ليست بالقصيرة من خلال : "زمن لمحلّات السلطانية"[1]، و"مراكش"[2]، و"الصلحاء"[3]، و"رحلة إلى المغرب"[4]، و"الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر"[5]، و"رائحة البارود" للرائد كورني[6].

وأعتقد أنه بتقديم هذا المؤلف السابع في المشروع يمكنني القول إن النظرة قد اكتملت، خاصة أن مواضيع المؤلفات السابقة مختلفة وإن اتفقت رؤية، ومنهجا، وتصورا.

وعكفت على ترجمته عدة سنوات لاعتبارات كثيرة أهمها :

أولا : هو كتاب ضخم حفل بمجموعة من المعلومات التاريخية، والسوسيولوجية، والأنتربولوجية والاقتصادية والجغرافية، والإحصائية، والجيولوجية المميزة والفريدة.

ثانيا : يشكل خزانة وثائقية هامة لكل الباحثين في بعض جوانب المغرب خلال هذه الفترة.

ثالثا : المعلومات الواردة فيه بنيت انطلاقا من الملاحظات الميدانية الدقيقة.

رابعا : حرص صاحبه على التدقيق في المعلومات التي يوردها لأنه ستبنى عليها قرارات عسكرية، وإدارية، وسياسية.

خامسا : يوثق توثيقا دقيقا الحياة الاجتماعية اليومية والفصلية والسنوية للأمازيغ بطريقة فريدة فاقت في دقتها في بعض المواضع كتابات شارل دو فوكو، وإدموند دوتي، وإديث دو لاشاريير، وروبرت مونطاني.

صحيح أن الكتاب فيه آراء شخصية للمؤلف، وأحكام جاهزة، وبعض الأخطاء في ذكر أسماء الأماكن، وبعض الاضطراب في المعلومات التاريخية، وقد يكون مرد ذلك إلى مستواه الثقافي باعتباره جنديا، وقد يكون اقتصر في أحايين كثيرة على الرواية الشفوية لمرافقيه.

لكن الهام بالنسبة لي هو أن أقدم الكتاب بهاته الحلة تاركا كل استدراك أو تصويب من المهتمين -إن وجدت- فيما يقتبل من الطبعات. ولن أنسى ما حييت الدعم الكبير من كل الأساتذة، والطلبة، وعموم الناس الذين كنت أستشيرهم في ضبط أسماء الأعلام، أو الأماكن، أو غيرها من

1- زمن لمحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912م؛ للويس أرنو، أفريقيا الشرق، 2001.

2- مراكش، قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة سنتي 1901-1902؛ لإدموند دوتي، تقديم الدكتور محمد المازوني، أنفو بْرانت، فاس 2010 (طبع هذا الكتاب بدعم من المركز الوطني للبحث العلمي والتقني **CNRST**).

3- الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر؛ لإدموند دوتي، أفريقيا الشرق 2014. (طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة).

4- رحلة إلى المغرب 1910-1911 خلال مسالك الشاوية وسوس والحوز وفاس رينولد لادريت دو لاشارير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 2016.

5- الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر؛ لروبيرت مونطاني، أفريقيا الشرق 2014 (طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة).

6- رائحة البارود، نحو احتلال الجنوب المغربي، 1912-1913، اختيارات جائزة ابن بطوطة، الرحلة المترجمة 2017-2018، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، 2018.

القضايا التي لا أكون مرتاحا لمخرجاتي لها. إليهم جميعا خالص عبارات تقديري وامتناني.

نظم هذه البعثة وأشرف عليها الجهات والشركاء الآتية أسماؤهم:

شركة جغرافيي (باريس)، والشركة الجغرافية التجارية (باريس)، وشركة جغرافيي أفريقيا الشمالية (باريس)، والشركة النورمندية (روان) Rauen، والجمعية الفرنسية من أجل تقدم العلوم، والشركة الجيولوجية الفرنسية، ومدرسة االأنتروبولوجيا بباريس وشركة إسعاف المحاربين والجنود المصابين. وتكونت البعثة من:

- السيد ماركيز دوسيگونزاك M. Le Marquis de Ségonzac، ضابط خيالة رئيسا للبعثة.
- والسيد لويس جانتي M. Louis GentilL، دكتوراه في العلوم وأستاذ محاضر بالسوربون[1]
- والسيد رودوفلوت روكافير M. R. Flotte. Roquevaire، رئيس المصلحة الخرائطية "بالحكومة" الإقامة "العامة بالجزائر"[2].
- وسي سعيد بوليفة، معيد من القبايل بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر[3].
- وسي عبد العزيز الزناگي، معيد العربية بمدرسة اللغات الشرقية.

1- نتائج السيد لويس جانتي سبق نشرها في عدة هوامش وكتب سنجد لائحة لها لاحقا في الفصل الأخير من الكتاب.

2- نشرت أعماله تحت عنوان "خمسة أشهر من المسح بالمغرب"، Jourdan، الجزائر 1909.

3- ظهرت الدراسات اللسانية لسي سعيد بوليفة تحت عنوان "نصوص بربرية في لهجة الأطلس المغربي" باريس 1909.

تقديم

يمكن هذا الكتاب الذي سنقرأه من الوقوف على الشجاعة التي تحلى بها صاحبه من أجل أن يقدم لنا المعلومات الواردة فيه بطريقة سهلة، ومريحة تجعل التعرف على ما قدمه عن المغرب مُغريا. ويعد صاحبه الخليفة الحقيقي لشارل دوفوكو، ثم إنها المرة الرابعة التي يواجه فيها "مجاهيل" المغرب (المغرب العميق). فقد كانت أول رحلة له سنة 1899 عندما تنقل بين موگادور (الصويرة) وأگادير، وتزنيت وتارودانت، وفي المناطق الداخلية للأطلس الكبير الغربي. ثم تنقل سنتي 1901 و1906 في كل شمال المغرب بالريف خاصة، والمناطق "البربرية" التي لم يصل إليها أحد، وكذلك في كل الأطلس المتوسط، وعبر هذه الجهات من أجل الوصول إلى سلسلة الجبال المغربية، ليعود إلى العرائش متتبعا سهل ملوية.

انطلق سيگونزاك من هذه النقطة في نهاية 1904 في إطار البعثة التي كلفته بها لجنة المغرب، حيث كان عليه أن يعبر شمال الأطلس المتوسط، والأطلس الكبير بدل الاستمرار في الاتجاه نحو الشمال الشرقي باتباع الطريق التي سبق أن سلكها للوصول إلى (المناطق الصحراوية). ويقف على حوض واد درعة، وصولا إلى واد نون. واستطاع أن يقوم بالشق الأكبر من الرحلة، ويحصل فعلا على نظرة عامةعن الجبال المغربية فالأطلس الكبير معزول بطريقة واضحة عن الأطلس المتوسط، كما أن واد إنّاوْن يفصل بشكل واضح الأطلس المتوسط عن جبال الريف، وأن السهول المتقابلة لملوية، وواد العبيد -الذي يعد من روافد واد أم الربيع- منبسطة لا حواجز فيها، فيتضح إذن أن هناك منطقة عبور بين منبسط مراكش والجزائر، أكثر من طريق تجارية يمكن أن تستعمل فيما بعد. وفي انتظار ذلك اليوم -الذي يبدو الآن بعيدا- يمكن أن يحل أحد المشاكل الهامة لدراسة تضاريس المغرب.

وتمكن المؤلف أيضا من أن يجمع -على طول الطريق- ملاحظات هامة جدا، لكن عدم قدرته على إكمال مغامرته إلى حدود واد نون، جعلته يختار دون أن يشعر أن يتجه نحو الطريق المباشر إلى تارودانت التي رجع إليها الگلاوي. وتمكن من معرفة كل شيء تقريبا عن "البربر"، وكيف كانوا يعيشون على النهب واستغلال ثمار "ضيعاتهم" بواسطة العبيد. وقبل سيگونزاك ذلك الوضع وحل في ضيافته، ولكن لا أستطيع قول أي شيء عن إقامته الغريبة هذه بأنزور عند بن تابية، وكيف أن هذا المسيحي الرومي لم يكن له موقف من هذه المناطق النائية لبلاد السيبة. فالكافر مرفوض وموصوف بأشنع الأوصاف، وغير مرغوب فيه خاصة إذا علم أنه قادر على الوصول إلى "الخزائن" و"منابع الماء". فلماذايخاف على حصوله على هذه الكنوز، مادامت أنها تعود في الأصل لأولئك الروميين الذين أخفوها بطريقة مميزة تحت جميع الأحجار البالية للبلد؟ وإذا نظرنا كيف يسجن بن تابية سجناءهم بإقناع الجن حراس "الإلدورادورات" الموجودة بين الأبراج والمطامير، نعلم كيف ستشكل

كل الأشياء المخبأة لجيل سيزار ممكنا Jules Lésar أو گانكلون Ganclon وأساطير عصرنا الوسيط. وتمكننا قصة أسر سيگونزاك عند "شلوح" الأطلس الصغير من التفكير في "التعصب المغربي"، فهو يفسر بإنه إعجاب أكثر منه خوف من هذا الرومي (الأجنبي) الذي يقدر على فعل العجائب. فقد أجبر الرحالة المسيحي على أن يشتغل طبيبا في المناطق المجاورة، وأن يوظف أدويته الصيدلية الموجودة في أمتعته. وكان بمجرد أن يلتقي هؤلاء "البدو" إلا وتتطور علاقته معهم بشكل سريع. ذهب به زناگة إلى الگلاوي بطلب منه قبل أن يبعث هو إلى فرنسا التي تستطيع مداواة، المرض وتجهيز قنوات السقي.

إن الانطباع الذي يخرج به قارئ صفحات هذا الكتاب، خاصة تلك المؤثرة فيه، هو أنه سيقتنع بتفاؤل أولئك المعتقدين بضرورة عدم التأخر في التدخل الفرنسي على الأقل في المناطق الساحلية الجنوبية للمغرب. فالكتاب الذي يصدره السيد سيگونزاك هام، ولا يمكن أن ينسب ما فيه إليه وحده، وليس إلا فرصة لتكريم مساعديه السيد لويس جانتي، الذي جاب الأطلس الكبير وجبل سروا، والذي سنجد دراسته الجيولوجية الرائعة في نهاية هذا الكتاب، وللسيد بوكفنير الذي وضع خريطة البلاد الممكن الوصول إليها شمال الأطلس الكبير، والسيد سعيد بوليفة وعبد العزيز الزناگي "المعلمين"، الجزائريين اللذين جمعا قدرا كبيرا من المعلومات عن السكان، وعادات "البربر" المتفرقة في القسم الثاني من هذا الكتاب، بل إنه مدين في فصل هام جدا من الكتاب لما كتبه السيد الزناگي المتعلق بالرحلة من موگادور (الصويرة)، إلى تارودانت وكيف ذهب من أجل التفاوض لإطلاق سيگونزاك الذي كاد يقتل كالمسيحي. وسيقف قارئ هذا الكتاب على أن لغته ذات نفحة شرقية إلى درجة المسحة الإنجيلية.

ويعد القسم الثاني من الكتاب الذي نُشرت فيه خلاصات البعثة، مساويا في القيمة للقسم الأول. فبالإضافة إلى المعلومات التي تحدثت عنها، فإنه يعزز ذلك بخرائط صغيرة وإشارات مقتضبة عن المجموعة البشرية، والمراكز، والآبار، والتفاعلات الدينية في المناطق التي شملتها البعثة. كما أن الدراسة الجيولوجية للويس جانتي عن معابر المناطق الداخلية الشمالية للمغرب، وكذلك التي تشمل الرحلة الأخيرة للأطلس الكبير شكلت إضافة نوعية كبيرة للكتاب. عندما ننظر إلى الظروف التي أجرى فيها سيگونزاك رحلته، سيزداد احترامنا لكتابه، فإذا كان شارل دوفوكو عبر بلاد السيبة مستخفيا في شخص يهودي، فإن سيگونزاك قام برحلته باعتباره شريفا "صغيرا" من أقارب ماء العينين الشهير.

وجمعت مواد هذا الكتاب تحت إكراهات صعبة جدا، فالأمر يتطلب وعيا كبيرا من أجل الاشتغال في مثل هذه الظروف. لقد تصرف سيگونزاك فرنسيا حقيقيا مثله مثل دوفوكو من أجل جمع معلومات عن "الوضعية الخاصة للمغرب" التي طالبت بها بلادنا.

Eul. ETIENNE

نائب رئيس مجلس النواب

تقديم

صديقي العزيز، شكرا لأعطائي فرصة تقديم كتابك، وعلى ثقتكم في الإدلاء بشهادة عنه:

أكتب الآن هذه الأسطر سنة 1904 بعد أن رافقنا "رئيسا" السيد إتيين، لقد جئتم من أقصى الشرق الوهراني، لتتعرفوا على مناطق في الشرق ستعبرون منها إلى المغرب. ووقفت على كيف كنتم صامدين بقوة، وجدية، وكثرة توثيق، في هذه البعثة التي تقترحون علينا اليوم كتابا عنها. وأدركت هذا من صديقنا جميعا، معاونكم السيد جانتي حيث كرر لي ما اتسمتم به من حيوية ودقة، وضبط علمي من أجل إنجاح هذه المَهمة. وجمعت أثناء البعثة التي قمت بها في الساحل الغربي للمغرب سنة 1907 و1908 بالرباط، والدار البيضاء عدة معلومات أو شهادات مجمع على صحتها، مكنتني من الوقوف على الصعوبات والإكراهات التي واجهتكم، فمن حقكم أن تكتبوا في الموضوع وأنتم مؤهلون لذلك مما يجعلنا نقول إننا أمام كتاب لا يحمل حقدا لأحد.

فهو كتاب غني وذو قيمة علمية، وجغرافية، وسوسيولوجية. بالإضافة إلى العناوين التي تقترحها في كتابكم، يمكن أن أُسر إليكم بأن لكم الحق بالإعجاب بالمواطنين مثلكم المرافقين لكم، سألتقي بكم في الرباط سنة 1907 عند ظهور مولاي حفيظ على الساحة، وكان إقحام مسألة جديدة غريبة عن المشهد المغربي قد صعبت الموقف وعقدته. وأتذكر معلوماتكم النفيسة، التي ضمها مؤلفكم عن ضيافتكم القديمة بمراكش، وعن هواجسكم المواطنة وعن رغبتكم، وتوظيف العلاقات التي ربطتموها مع أهالي الجنوب، وما زلتم لحد الساعة تلحون على هذا الأمر. فهذا من الماضي الذي لم يعد يهمنا أكثر من المستقبل، ومهما كانت مبرراتكم وأحاسيسكم التي عبرتم عنها في الصفحة الأولى من كتابكم، فإنه من حقنا بل ومن واجبنا أن نبقى متفائلين ولا يمكن أن تذهب الدماء التي سالت والمجهودات التي بذلت سدى. فلا يمكن أن نتجاهل أن سوء التفاهمات قد وضحت وتبددت، وأن النقطة الأكثر غموضا قد توضحت. ولا أحد يشك اليوم في صواب التزاماتنا. وأبانت التجربة أن الحيز الذي كتبه التاريخ والجغرافيا لبلادنا بارز في هذه الأرض المغربية، فالشاوية وحدودها الجزائرية المغربية، شاهدة على نبل المشروع أو العمل الذي نحققه فهي أبواب مفتوحة يكفي أن يدخلها أي أحد.

وأخيرا، فإن هذا العمل ترى آثاره المشتركة عند عناصر "الفريق المغربي" في الدار البيضاء، وطنجة، والمناطق الجزائرية، حيث هناك ترابط وتفاهم تحت رقابة سلطتنا المتيقظة في المغرب. صحيح أنه ما زالت هناك عدة نقط سوء تفاهم يجب أن توضح، وأحكام قبلية يجب أن تزاح، وأطراف العطالة يجب أن تقنع، لكن الأشخاص المشتغلين في الميدان عرفوا كثيرا أياما من الحيرة أو التخوف، والشك. وليس لهم الحق في تجاهل قيمة الكتاب الذي تشكلون أحد أهم منجزيه.

وهران 15 يونيو 1910

الجنرال ليوطي.

مقدمة

أود أن أعبر في بداية هذا الكتاب عن خالص عرفاني أولا للأشخاص الذين شرفوني بتقديم هذا العمل، من أول بعثة استكشافية فرنسية إلى المغرب. ومخافة أن أخطئ في نسيان أحدهم، فسأسجل في مقدمة الكتاب أسماء الشركات العلمية التي أشرفت على هذا العمل ومولته. خاصة "لجنة المغرب" التي مدتنا بمساعدة مادية ومعنوية هامتين جدا. وأنقل إلى معاوني بعد ذلك إعجابي بصبرهم، وشجاعتهم، التي استطاعوا بها أن يتغلبوا على كل الصعاب التي واجهتهم. وسأشرح لماذا لم يظهر هذا الكتاب إلا سنوات بعد عودتنا، فقد كان من المفروض أن تكون نتائج بعثتنا مقدمة لحملة تدخل الاحتلال العلمي، والاقتصادي والسياسي للمغرب، وكنا مستطلعين مكلفين باكتشاف حقل، أو مجال لا أحد لم يكن يفكر فيه يهم فرنسا. ونحن نعلم كيف تحولت "المسألة/ القضية المغربية"، وكيف أصبحت القضية الأفريقية "البسيطة" بالوسائل والمناهج التي تمتلكها قضية دولية هامة وصعبة. فبدا من الهام جدا نشر هذه النصوص في عز هذه الأزمة، ونرى اليوم كيف نقدم للرأي العام (الفرنسي) تأسفنا عن هذا الحصاد [1] من المعلومات التي جمعنا لبلدنا أو وطننا وحده!

وتنخرط خطتي في هذا العمل، استمرارا لرحلاتي السابقة (انظر الخريطة العامة) فقد سبق أن زرت الجنوب الغربي للمغرب، (سوس وتازروالت) سنة 1889، وسنة 1900 الشمال (الريف وجبالة)، وسنة 1901 الشرق (البرابر). ولم يبق لي من أجل إغلاق "حلقة" مساري سوى استكشاف الجنوب، والجنوب الشرقي المغربي. وكان هذا هو الهدف من أعمالنا.

تمتد المنطقة التي نقترحها للدراسة على خط الطول خمسة، وارتفاع درجتين، مقسومة إلى ثلاثة قطاعات:

تكلف السيد روكفير بتغطية المنطقة الموجودة في منطقة دمنات-موگادور –آسفي الموجودة بين المحيط وجبال الأطلس الكبير. وتكلف السيد لويس جانتي بدراسة مرتفعات الأطلس الكبير والدخول إلى المناطق المجهولة، خاصة تلك الموجودة في الجهة المحادية للجهة الغربية، والضفة المتوسطية. واكتفيت أنا بدراسة أقصى الجهة الشرقية للأطلس الكبير، وحوض واد درعة، والأطلس الصغير. ورافقني السيدان بوليفة والزناگي في بعض مراحل هذه الرحلة من أجل الحصول على المعلومات الأثنوغرافية واللسانية الضرورية لأعمالهم.

***

وشرعنا في رحلتنا على الأراضي المغربية يوم الثامن والعشرين من يوليوز سنة 1904 استغرقت الرحلة سنتين، وهي مدة قصيرة بالمقارنة مع النتائج المتوخاة منها، حيث كان علينا الصمود أمام المشاكل التي اعترضتنا من أجل إنجاحها. فطيلة هاتين السنتين [2] كان على اللجنة

المغربية المحدثة أن تكون مرتاحة أمام العموم للنتائج غير المتوقعة التي حصلت عليها، والتي فاقت توقعاتنا وحاجاتنا.

نظمت هذه البعثة ما بين يوليوز ونونبر، حيث شُرع في توظيف العمال والمشتغلين، وشراء البغال، والأمتعة، والبحث خاصة عن مرشد، لأنني أود هذه المرة أن أستعمل من جديد الطريقة التي نجحت بها إلى حدود أيامنا هذه، وهي السفر متقنعا بقناع بغّال مسلم، في حراسة شخصية دينية كبيرة. وتقتضي هذه العملية احتياطات لا متناهية، علما أنه يجب أن تكون سرية تلافيا لأي مصائب محتملة. وعلى رجال البعثة أن يكونوا أقوياء، كتومين، وشجعان وأن لا تثير الأمتعة أي انتباه حيث يجب أن تكون مشابهة للتقاليد المحلية، ويجب أن تكون الأدوات المستعملة سرية، بما في ذلك البغال التي يجب أن تكون مجهزة على الطريقة المغربية في كل شيء، حتى في طريقة وضع حذاءاتها على الحوافر.

أرادت وزارة الدفاع الاستجابة للَّجنة المغربية، -بعد بحث وزارة الداخلية- أن تعيرنا بعض البنادق وتزودنا بالرصاص، لكن وزارة الخارجية رفضت ذلك بدعوى أن البعثة ستقام على أراضي دولة حليفة، وفرضت أن تخبأ هذه الأسلحة بعناية. وهكذا عمل مدير الآلات الحربية على أن يسحب أرقام البنادق، وكنا على وشك الانطلاق وبدت لي العملية معقدة، فقصدت إحدى محلات بيع الأسلحة والرصاص واقتنيتها. لكن سوء الحظ أراد أن لا تشحن هذه الأسلحة في السفينة التي كانت تحملنا، وحملت في سفينة أخرى حيث ستفتش في جمارك المملكة الشريفة في طنجة، ووقع هذا قبل "مؤتمر الجزيرة الخضراء". وكانت تجارة الأسلحة المهربة مزدهرة [3] على السواحل المغربية، وتمر حزمات البنادق يوميا مخبأة أمام أعين "الأمناء"، ولم نكن نعرف كيف سيتعامل هؤلاء "الوطنيون" مع هذه الشحنة من الأسلحة المصرح بها، لكن لا أحد لم يعرف أي شيء عنها، لا عن مصدرها ولا عن اختفائها. وكنا نتردد طيلة شهر ونصف على المصالح من أجل المطالبة بها، كلما رأينا وصول سفينة جديدة. وكان الأمناء يتعاملون معنا بكل لباقة ومهنية. تعبنا في أحد الأيام من الانتظار، وانطلقنا في طريقنا بعد أن أخذنا بعض الأسلحة من بعض الأوربيين الذين أرادوا بيعها أو إقراضها.

وهكذا جهزنا بعثتنا بالأسلحة والبنادق الجيدة Mauser حيث جلنا بها المغرب بعد اقتراضها من القنصل الألماني، والتجار الفرنسيين والألمان بالصويرة (موگادور). ومن أجل الاستمتاع في رحلتنا درسنا شمال المغرب بفضل شاب ذكي ومثقف مثل السيد گاستون بوشي M. Gaston Buchet مكلف بمهمة علمية من وزارة التعليم العمومية، حيث أمدنا بمساعدته بخصوص ما قام به من تهيئ في الموضوع، وهكذا انطلقنا جميعا في جهة طنجة، ووزان، والعرائش حيث عبرنا راكبين بغالنا أهم قمم هذه المنطقة.

وسيقوم بعد ذلك السيد لويس جانتي M. Louis Gentil والسيد گاستون بوشي M. Gaston Buchet في هضبة الأنجرة، ومثلث طنجة تطوان سبتة. ووضع السيد Flotte Boquevaire وحدة للقياس في سواحل الصويرة يمكن أن تصبح نقطة انطلاق لأعماله عن اليهود بالمنطقة. [4]

الفصل الأول

من الصويرة إلى دمنات

24 دجنبر

أفتح مذكرتي صباحا عندما انطلقت من الصويرة، بعدما اختلفت نقط توجه معاوني. فقد توجه السيد جانتي نحو الجنوب (في الجهة الشمالية) في حين اتجهت أنا شرقا: نحو مراكش. واستمرت الأمطار في الهطول طيلة الليل، كانت الثلوج تتساقط على قمم الأطلس في شكل أخاذ، وكانت تحركات قافلتنا صعبة، والخيام المبللة تثقل حمولاتنا، الطريق موحلة وزلقة مما شكل صعوبة مضاعفة على مخيمنا في هذه الأسابيع. توقفنا بعد تسع ساعات وضربنا خيامنا وأصبحنا رحلا. كنت أنظر من أماكن عارية هضابا تشكل أحزمة عازلة، حيث تبدو الصويرة المدينة البيضاء، محاصرة بين منعرجاتها والبحر الذي لن نراه إذا شاء الله إلا بعد رحلة طويلة. انطلقنا بعد توقف قصير، وتوديع مرافقينا والذكريات الجميلة التي تركناها وراءنا في اتجاه هذه الرحلة بمشاعر رائعة متشوقة من أجل الحصول على هدف يذكيه الحماس قصد تحقيق حلم [5]. وقافلتنا ليست مجهزة جيدا، لكن تبدو بحلة جميلة، فبغالنا غليظة الجسم بعض الشيء، ومعداتها جديدة. ووجوه رجالنا مستبشرة، يحملون أسلحتهم بطريقة طفولية، فكنا كلنا مترجلين (نمشي على أرجلنا) وكنت أنا وبوليفة والزناكي ببذلة بربرية، بعد أن تخلصنامن شعرنا ولحانا وشاربينا عند الحلاق المسلم. وأخبرنا Nitu Figaro بسخرية "الله نفسه لن يتعرف عليكم".

اتجهنا نحو مراكش، كانت المسالك تتعرج في الحقول الغناء لإداوكَرْض وهي فخذة من الغرب الأقصى لقبيلة حاحا، كانت التربة حمراء وطينية يتخللها الكلس في بعض المواضع. وكانت الرؤية على مسافة بعيدة صعبة حيث تحجب الهضاب الرؤية، وتتراوح كثافة غابات الأركان بين منطقة وأخرى، وتعيش قطعان الماعز الكبيرة على غلات هذه الأشجار السخية، حيث تعود مساء إلى ساحات المنزل وترمي في الحضائر حبات الأركان التي تغذت عليها طيلة النهار، وفي الصباح تعمل الفتيات على جمعها وتأخذ ما بداخلها (لبها) وتكسرها بالحجارة بطريقة بديعة من أجل استخراج "لوزته" التي تعصر من أجل الحصول على الزيت، ورغم المذاق القوي لهذه الزيت فإن "البربر" يحبونها، ويدّعون- كما أن العلم أيضا لا يعارضهم في ذلك- أن لزيت الأركان منافع وخصائص مميزة، فهي المستعملة في كل سوس في الطهي والإنارة.

غادرنا قبيلة حاحا زوالا لندخل بلاد الشياظمة، وأرضها الغناء، مغروسة بأشجار الزيتون، وتحركنا أولا في منبسط عدة ساعات، ثم دخلنا إلى غابة أركان التي امتدت إلى سيدي عبد الله واسمين حيث سنضرب خيامنا حوالي الساعة الثالثة والنصف. وشرعنا في هذه الغابة في مشاورتنا مع "شريفين"، اخترتهما ليكونا مرشدين، وصلا من طريق أخرى بشكل حذر ومتسترين صحبة طالْب،

الكتبية- مراكش

شجر الأرگان بالكريمات بوادي تانسيفت

وطفل يبلغ من العمر خمس عشرة سنة صهر أحدهما، وخادمين، فهم في المجموع ستة رجال وأربع بغال. كانت هذه المرحلة من خمس ساعات صعبة على الرجال والبهائم غير المدربة جيدا، وكانت التغذية مختصرة وأوقات الصلاة قصيرة. وكنت الوحيد في ليلة رأس السنة ساهرا قرب منظاري الفلكي، في انتظار ظهور النجمة 55 بيازي Piazzi، من أجل الحلم بأفراح عائلية أكثر متعة.

25 دجنبر

امتدت الرحلة ثلاث ساعات فقط في المنطقة التي عبرناها البارحة متشابهة في الحقول المحصورة، وأشجار الأرگان وأرضها الحمراء، والصفائح الكلسية. وعبرنا أراضي الكريمات بعد مرورنا ببلاد أولاد سعيد، حيث وجدنا منازل محصنة في أعالي الهضبة، مما يعني أن هذه المناطق غير آمنة.

تشكل غابة كَشّولة التي نعبرها الآن نقطة التقاء القوافل التي تقف بها في هدوء، وضربنا خيامنا قرب منزل الحاج الركراكي صديق الشريفين اللذين يرافقاننا. مكنني هذا اليوم من السفر أن أجمع معلومات كافية عن هذين الشخصين الورعين اللذين سيصبحان مرافقينا ومرشدينا. فهما منحدران من القبيلة الصحراوية لأولاد بن السبع، أصغرهما سنا هو مولاي الحسن يبلغ من العمر حوالي خمسا وثلاثين سنة، يبدو عليه أنه صحراوي، فهو لطيف [7] جسما وروحا ومميز فعلا، ويتحرك بطريقة خاصة، خطواته كبيرة ويحرك كتفيه بطريقة تحيل على أنه رجل صحراء. فهو شديد السواد، وجهه طويل في نهايته لحية مشذبة أو مقلمة، عيناه جميلتان جدا، ونظراته ثاقبة وعليه علامة الاحتشام كما أن نظراته ساخرة وهو أيضا متعلم بشكل كاف... وتدل كل المحادثات معه أنه مر بتجارب سابقة تدل على أنه ليس خائفا... أما قريبه مولاي عبد الله فهو من نوع الشرفاء القدماء، ينحدر بدوره من قبيلة أولاد بو السبع، لكن من فخذة مهاجرة أكثر من قرن إلى سهول مراكش. قضى كل حياته في معسكرات المخزن يبلغ من العمر ستين سنة، أبيض الوجه، بلحية بيضاء، ولا شيء يثير الانتباه إليه، مستدير الوجه لا يتكلم كثيرا، فمه كبير بشاربين رقيقين وعينين صغيرتين، ونظراته غير حادة، متوسط القامة، سريع ردود الفعل، كثير التحكم في تصرفاته، وصوته.

أصبح مولاي الحسن القائد الروحي لقافلتنا، ومولاي عبد الله الزعيم. وكانت لهما معا بغلتان مسرجتان بـ "سريجتين" حمراوين، يتبعهما ثلاث أشخاص بأهمية أقل هم: الزناكي الذي يقوم بدور الفقيه، والآخران حافظان للقرآن لا يتعدى سن أحدهما خمس عشرة سنة، ويوجد على البعد منهم سبعة عمال يقودون ويركبون البغال. توقفت في الأخير عن المشي رفقة بوليفة الذي يعمل على جمع كل العينات في رحلتنا من صور ومعلومات.

26 دجنبر

أصبح اليوم مشمسا بعد ليلة ماطرة حيث بدأ تبخر الأوحال بفعل أشعة الشمس وأصبح الجو صافيا جدا [8] يجعل الأطلس يبدو قريبا جدا حيث نستطيع معرفة أنواع الصخور التي تزين القمم المثلجة والوديان المحظورة معا.

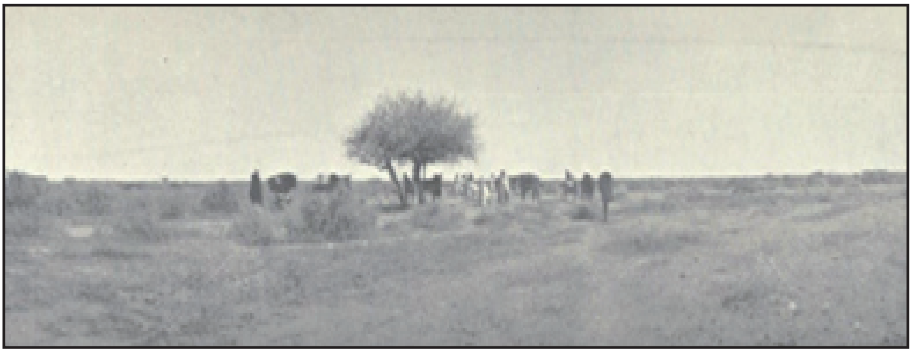

وادي تانسيفت، توقف تحت اشجار. . . . . .

وادي واد تانسيفت، توقف في ظل شجرة أركان افتراش فوق الدوم

تبدو أسواره في الأفق كأنها تتحد. فعبور الأطلس كان دائما أمرا صعبا، ومازلت أحتفظ بذكريات سيئة عن مضايق الگندافي وبيباون التي عبرتها في الخريف، فالأمر يتعلق هذه المرة بعبور السلسلة الكبرى، والدخول بين الأطلس الكبير والأطلس المتوسط دونما معرفة هل توجد لهذه المهمة طريق ممكنة لعبور بعد ذلك الكتلة الصخرية الوسطى للأطلس الكبير، في المنطقة التي تبدو صعبة وغريبة وأكثر وحشية في فصل الشتاء. ويتشكل منبسط بلاد أولاد بو السبع من أراضي كثيرة الحجارة، بعد مرورنا بالغابة الضعيفة من "الرطم" في بلاد الشياظمة التي نعبرها في حلة مخالفة تماما لجمال الأطلس.

عبرنا إلى منطقة تفتاشت حيث تناحرت فخذات قبيلة الشياظمة بعد وفاة السلطان مولاي الحسن، وتوفي خمسمائة محارب، ومادامت العادة لا تسمح بإحصاء الضحايا بعد الانتقام لأعوانهم، فستظل هذه المنطقة ولمدة طويلة تعرف اضطرابات وحروبا ضارية لا يمكن أن يمر منها أي مسافر بدون خوف كبير. وعبرنا هذه المحطة ببعض كليمترات حتى وصلنا إلى زاوية سيدي المختار في ضيافة دليلنا مولاي عبد الله.

27 دجنبر

تبدو الطريق بين أولاد بو السبع، وبلاد أحمر واضحة ورتيبة ومقفرة باستثناء بعض أشجار السدر، وبعض الأشجار الجافة، والأعشاب "الميتة". وعندما اقتربنا من بلاد أحمر أصبحت الطريق كثيرة المنعرجات والهضاب مستديرة [9] مفصولة بأخاديد سببتها التعرية وأغلبها من تراب وصلصال. توقفنا بزاوية هْديل وهي عبارة عن تجمع لخمس منازل وعشرين نوالة، مبنية حول ضريح أحد الصلحاء المحليين الذين يحظون باحترام خاص، وليس لهذه الزاوية أي هدف تعليمي، أو سياسي، أو انخراط مع أي جهة، فليست سوى مزارة حيث وجدنا استقبالا بئيسا باردا جدا مغلفا بكثير من الدعوات.

كان الناس يأتون إلينا كما جرت العادة في باقي المحطات لمعرفة الجديد، ويحكون لنا عن فقرهم ومعاناتهم مع المخزن المتجبر والمتسلط والناهب. لكن غضبهم لا يصل إلى السلطان فهو في مقام خاص وبعيد جدا، ويركزون في تظلماتهم وأحقادهم المشتركة على "القياد" والخلفان "جمع خليفة" و"لمخازنية" منفذي كل أنواع الشطط. فالكل يشتكي حيث لا يخلو منزل أو خيمة من ذكر التظلمات والتجاوزات. فهذا البلد الجميل الذي حبته الطبيعة كل شيء يحتضر، ولا أحد يهتم أو

يبالي بذلك، فالشعب يعاني ويُضطهد ويُعنف إلى أن يأتي يوم لا يستطيع فيه أن يصبر أكثر، وتظهر موجات غضب تذبح المعتدين، وتحطم أو تدمر القلاع، وبعد ذلك يعود الهدوء من جديد ويسترجع التوازن حيث يعوض قائد رديء آخر أرد أمنه. وتتجاوز الثورة وتنتصب بالقرب من حطام القصبات المدمرة حطامات قرية ما، ويتضاعف البؤس بدون حد ولا أمل في غد أفضل. فما أصعب مهمة دبلوماسيينا الذين يريدون إعادة ترتيب المخزن ومن خلاله استعادة النظام والرخاء!.

28 دجنبر

يستمر هذا المنبسط في الظهور حولنا، في حين يبدو الأطلس بقممه الثلجية شامخا الذي نقترب منه ببطء[10]. وعبرنا منذ الساعة التاسعة صباحا واد شيشاوة الذي يحمل في أعلاه اسم سكساوة حيث تغطي أشجار الزيتون جوانبه الواسعة والخصبة. عبرنا بعد ساعة ونصف واد الرقاص

وادي تانسيفت، انعقاد سوق

واد تانسيفت وجرفه

حيث توقفت قافلتنا للشرب. ولا يتعلق الأمر إلا بمجرى ماء من مترين، ويبدو أن الطريق التي نعبرها هي طريق مسلوكة، كما يظهر ذلك من كيفية ترصيص جوانبها، ورغم ذلك فإن هذا المنبسط يتخوف منه المسافرون ولم نجد فيه إلا دواوير و"نوايل" على جنباتها تقفز الغزلان، والأرانب يطاردها الرحل بكلاب صيد سلوقية، بل إن بعض زعمائهم يمتلكون صقورا من أجل سرقة فراخ الحجل والحبارى، وتوقفنا قرب قرية لا أشجار فيها جوار بئر ليست بعيدة عن "نوايل" أولاد حمادي، ووضعنا شكلا دائريا حول قافلتنا وبغالنا، وخصصنا حراسة مشددة لذلك.

29 دجنبر

استفقنا صباحا على دوي مشاجرة بين طباخنا المغربي، وأحد "ضراوة" المرافقين لنا حيث اختصما، وكان أحدهما مسلحا بخنجره، والآخر "بمخطاف" مشدود بعصا وهي الآلة التي يستعملها أهل واد درعة لتشذيب نخلهم، ويستعملونها أيضا في المنازعات. فككنا الخصام بصعوبة، لكن طباخنا أخبرنا بعد أن علم بمشروعنا للرحلة إلى الأطلس أنه سيغادرنا بمجرد الوصول إلى مراكش. كان هذا أول إخلال أو تخل في الرحلة. فبداية أي سفر يكون دائما أمرا صعبا، فلدينا شخصان مريضان وخمسة بغال مصابة.

تغير منظر الهضبة بالقرب من واد نفيس وأصبحنا نرى بدل الجفاف "البساتين والعرصات" والخضرة حيث تكثر الضيعات و"العزبان"[1] [11] والقبب البيضاء. وتستطيع بعض السواقي المشتقة من الوادي أن تحول هذه الأراضي غير المستغلة إلى حقول جميلة غناء. توقفنا في إحدى المحطات التي يجعلها المخزن محطات استراحة على جنبات الطرق الآهلة، أو ما يعرف بنْزالة اليهودي التي تتكون من حزام من الأشجار الشائكة يوجد في زاويتها مكان عال للحارس. وأرضية هذا المكان بها أزبال شأنها في ذلك شأن جميع النزالات. وضعنا رحالنا بجوار قافلة سائقي الحمير والجمال قدمت البارحة من الصويرة ووسط تشابك من الخيام والحيوان والأدخنة المنبعثة من أشجار السدر. وكان الزناكي ومولاي الحسن قد ذهبا قبلا إلى مراكش من أجل تهييئ ظروف سكننا هناك، وشراء ثلاث حمير لتعزيز القافلة، وجواد مسرج ليبدو به أحد "الشريفين" في أحسن حلة من أجل الدور الذي سيلعبه.

30 دجنبر

تفصلنا عن مراكش رحلة من أربع ساعات. حيث سنعبر سهلا منبسطا محمرا تجري مياهه العذبة بين الأعشاب، وتمتد من الأعالي بواسطة خطارات[2] عبارة عن آبار جوفية متصلة فيما بينها بطريقة تقليدية، مما يجعلنا نقف على صعوبة الصيانة التي يفرضها الأمر على خطارة من عشرين كلم طولا. وتتباعد آبارها بخمسين مترا فيما تصل في عمقها أخيرا إلى حدود خمس عشرة مترا. وعانت أجيال من هذه الطريقة من السقي غير المنصفة. فيكفي أن نقوم بقنوات ومجاري مياه من أجل تسهيل عملية السقي، وإقامة مضخات ماء من أجل جلب مياه الأطلس إلى مراكش بدل أن تبقى ضائعة في الهضبة وقابلة للتبخر، وسيكون هذا مشروع الغد... ولكن لمن سيعود شرف تحقيق ذلك؟

31 دجنبر

توقفت قافلتنا فوق ربوة قرب أحد أبواب مراكش يسمى باب أغمات قرب ضريح سيدي يوسف بن علي، أحد رجالات مراكش السبعة والذي يعد أهم المزارات قبل دخول المدينة. مرت

1- جمع عزيب وهو مكان عبارة عن بناية قارة مبنية أو ساحة محاطة بالأحجار، الشوام تقضي فيها قطعان الأغنام فترات معينة من السنة، وغالبا ما تكون في فصل الربيع.

2- نظام سقي عبارة عن آبار باطنية يفضي بعضها إلى بعض من قمم جبال الأطلس إلى السهول المجاورة.

خمس سنوات على آخر زيارتي إلى مراكش حيث كان السلطان يسكن بأكدال ودار المخزن "تشع بياضا" جدا، وتشتغل بها الحركة كخلية نحل، وكان الحاكم الفعلي هو الصدر الأعظم، وجدران ساحة جامعة الفنا "مزينة" بالرؤوس المقطوعة، والبلاد هادئة وخاضعة من الريف إلى سوس ومن تافيلالت إلى المحيط، كما أن القبائل تؤدي الضريبة. لم يتغير المنظر واستمرت صومعة الكتبية أخت صومعة الخيرالدة في إشبيلية في إرخاء ضلالها على المشهد، كما أن أشجار النخيل، وملتقيات الطرق، والأرصفة المزينة أمام المنازل، والمنتزهات يخرج إليها الناس، لكن الوضعية السياسية تغيرت بشكل جذري. فثلاثة أرباع الخلية فارغة، كما أن الساحات الواسعة لدار المخزن مهجورة، فالحكم بفاس، ولم يعد للسلطان أي امتياز، ولم يعد لخليفة مولاي حفيظ لا جيش ولا مال، ورأيناه جالسا أسفل أحد أبواب قصره يتبادل الحديث مع أحد الجنود وينظر "بشكل غريب" لهطول الأمطار. توفي باحماد، بعد أن تم الانتهاء من أشغال "قلعته" التي ضمّنها كل كبريائه، وإخافته كما تم تحييط الدار الجميلة للوزير السابق للحرب سي المهدي المنبهي، وباع كل ماله قيمة تجارية مثل النساء، والعبيد، والخيول، والبغال، والأثاث، كما امتد انتقامه إلى الحقول أيضا، وكنا نرى خلف الجدران العالية المنصات المجاورة والحقول [13] التي تم اجتياحها، والورود التي أصبحت ذابلة، والأشجار المثمرة التي أصبحت ملاذا فقط للنمل والطيور.

2 يناير 1905

توقفت قافلتنا مساء هذا اليوم جوار أحد "عزبان" عبد الحميد قائد الرحامنة، الذي قتله ابنه العام الماضي. مكنني هذا الحادث العائلي المأساوي أن أثير مسألة أن المغاربة يعطون أهمية كبرى لرابطة الدم، أو القرابة. فالانقلابات والردة ضد الأصول، جرائم معروفة ليس من الصعب الوقوف عليها ليس للبحث عن أعذار لها وإنما لتفسيرها. ومرد هذه الجرائم إلى تعدد الزوجات، حيث تتسرب أحقاد النساء إلى الأطفال من أب واحد لكن من أسرة مختلفة حيث يصبح الأخوة أعداء، ويتضح هذا الأمر جليا بعد وفاة الزعماء أو "القياد"، كما أن العادة جرت بأن يتسلم الملك الحكم بعد أن يبيد أو يأسر إخوته أو أعمامه. واستقر عدد أفراد قافلتنا أخيرا في أربعة عشر رجلا، وأحد عشر بغلا وثلاث حمير. وجمع مولاي الحسن كل خدامنا في اتجاه القبلة، وفتح المصحف وأقسم كل واحد على الوفاء والطاعة، كان حفلا بسيطا لكن مؤثرا جدا، وأصبحنا منذ الآن شركاء في هذه المغامرة الممتعة.

مرت قافلتنا خلال هذه المرحلة في مراكش بين الأسوار الصغيرة التي تتخلل أشجار النخيل الكثيرة التي توارت تدريجيا لتعود الطريق إلى رتابتها في اتجاه غرب العاصمة، حيث اقتربنا من الأطلس الذي لا تبدو فيه هذا العام - استثناء -أي ثلوج. كما تمتد الجبيلات في الشمال الشرقي لتترك مجالا لجريان واد تسّاوْت العلوي. مضيفونا الآن من الرحامنة الذين ليسوا أوفياء تماما للسلطان، وكانوا يراقبوننا باستعلاء من أجل إخافتنا [14] فقد أحرقوا حديثا في المكان نفسه الذي توقفنا به أربعة أشخاص تعساء ادعوا أنهم أوفياء للمخزن ورغم ذلك لم يبد لي هذا العنف أكيدا، لأنه إذا وقع هذا

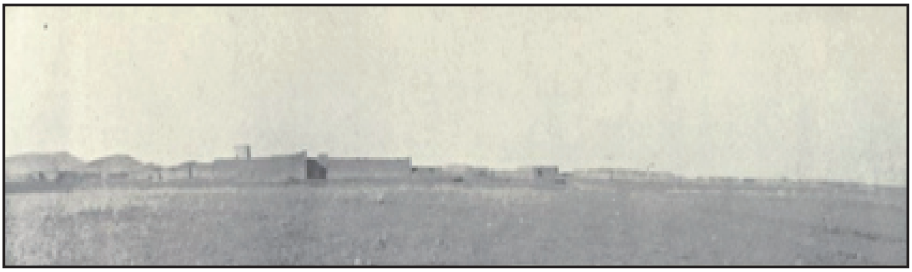

وادي واد تاساوت، زاوية سيدي رحال

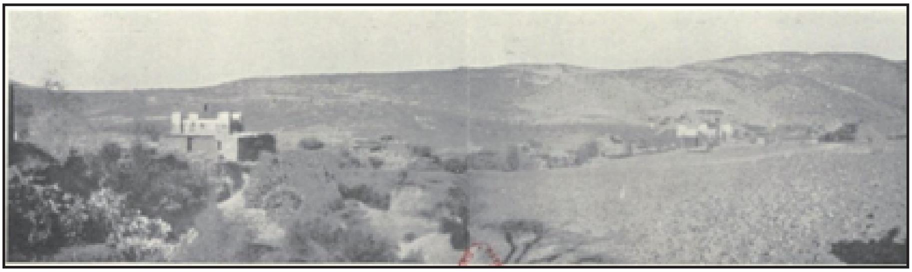

منزل القايد جاكير قرب دمنات

فلا يمكن أن يكون مرده الوحيد هذا الحقد السياسي. فالاندفاع خصلة سيئة عند المغاربة، فهم يدعون أشياء ليست فيهم. فمعتقداتهم الكبرى أسطورية وعقيدتهم خرافة، وهذا التجاذب في القوة يجعل الرحالة يحس بالخوف أكثر من اللازم.

3 يناير

استمرت قافلتنا في التحرك شرقا : وصعدنا إلى أعلى هضبة مراكش وعبرنا أراضي مسيوة، وزمران، وتگانة، وها نحن وصلنا أخيرا إلى بلاد ال"شلوح" المستقرين أسفل زاوية سيدي رحال. ويبدو الأطلس متخفيا خلف هضاب حمراء تزين سلسلته، والسهل هنا ممتع ومسقي ومستغل زراعي. وتخفي أشجار سيدي رحال تجمعا سكانيا كبيرا، مستقرين قرب مضايق واد غدّات. وتبدو دار "القايد" البيضاء مميزة بين باقي المنازل الأخرى. وتبدو في الأعلى قبة الزاوية المربعة المنمقة ببعض الصباغة الخضراء، وصومعة بيضاء، تعطيان لهذا الولي مظهر ضريح فيودالي. توالت الزيارات إلى معسكرنا طيلة اليوم، أولا من أناس عاديين دون مهمة رسمية حيث جلسوا قرب خيمة خدامنا لتبادل أطراف الحديث، وكانوا يسألون بقوة عن مقدمنا والهدف من رحلتنا. زارنا بعد ذلك اثنان من أعيانها بعد أن كان القائد مسافرا إلى مراكش، وسألا عن الأسباب التي جعلتنا نحرمهما من استقبالنا، وبعد محادثات طويلة وتبادل عبارات المجاملة استطاعا، في الأخير طرح السؤال الذي يؤرقهما أين تتجهون؟ [15]

وهذا سؤال صعب، لأن أي إجابة لا ترضي هذا الموظف قد توقف رحلتنا. فالخروج من بلاد المخزن ليس أمرا سهلا، لأنها تثير دائما عدة شكوك وتخوفات. وكان جوابنا الذي حضرناه منذ مدة أننا

نتجه نحو دمنات أولا، ثم إلى فاس عبر بلاد الشاوية الطائعة. وأصبح منذ الآن مولاي الحسن الذي يرتدي "الخنت"/ اللباس الأزرق يغطي نصف وجهه بلثام صحراوي هو أحد أبناء الشيخ ماء العينين. ويحكي أنه تلقى أمرا من أبيه من أجل تنويع علاقات مع مختلف الزعماء السياسيين والدينيين بالمغرب، وأن يزور الأضرحة الأكثر شهرة. انطلت هذه الخرافة عليهم، كما أنها تفسر أن تركيبة قافلتنا تلبي فضول زوارنا لكن شروعنا في الاتجاه نحو دمنات أظهر بعض الاعترافات "فالطريق غير آمنة، فالسراغنة وزمران سيتصارعون... كما أن حركة شريفية تعسكر قرب دار "القايد" بلمودن من أجل حمايتها... ويجب أن تعزز قافلتنا بحراس هذه الليلة... و"زطاطة"[1] غدا".

4 يناير

وعلى الرغم من النصائح الحكيمة لمضيفنا، رفعنا خيامنا على الساعة التاسعة، وتحرك معنا جندي واحد لحمايتنا غادرنا بعد أن رافقنا في ثلث الطريق فانطلقت في هذه الهضبة على حدود السراغنة حيث كنا نسمع بين الفينة والأخرى ذوي البنادق. وهذا أمر عاد في المغرب لا يثير أي تخوف، فأفضل مؤشر على أن الطريق آمنة هو ملاقاتنا لقافلة من اليهود المتسخين اللابسين لشاشياتهم[2] التي تتدلى من جنباتها خصلات شعر "نواضر" تميزهم. وصلنا إلى نهاية منبسط مراكش حيث تبتعد الجبيلات في الشمال الشرقي وتنحدر، والأطلس يقترب ويكبر، وله ثغران الأول يخرج من واد غدات الذي يفتح مضيق گلاوة، والآخر يخرج من واد تسّاوْت، ويتموقع [17] تجمع تازارت حول قصبة "القايد" الگلاوي[3] الموجود في أسفل هذه الهضاب وهي منطقة مستغلة فلاحيا بطريقة جيدة، نحن الآن في فصل/موسم الحرث حيث كنا نعد عشرين زوجا من الأبقار، والخيول، أو الحمير في الحقل الواحد، ومعلوم أن منطقة بويدة هذه معروفة بخصوبتها التي توجد بها عدة ضيعات و"عزبان" مسقية بست قنوات مأخوذة من واد تسّاوْت تقسم على ثلاث قيادات لـ گلاوة، وزمران، والسراغنة.

وصلنا مساء على الساعة الرابعة إلى تسّاوْت، وهو واد بعرض ثلاثين مترا وثمانين سنتمرا من العمق، مياهه صافية وباردة، وسريعة الجريان، وبداخله أحجار كثيرة تشكل حواجز وتشهد على قوة حركيته، وشكل وادي تسّاوْت خصوصية "تضاريسية" مميزة، حيث يعبر الواد -دون أن يتشتت مساره- الجهة العليا لحوض واد تانسفيت بعيدا عن سهل مراكش، ليمد مياهه إلى واد أم الربيع. وتدخل السكان بطريقتهم ليجعلوا مياهه تسقي منبسط بويدة ويكون من الممكن في أحد الأيام أن يضم كل واد تاساوت إلى تانسفيت، وجعل المنطقة الشاسعة لمراكش خصبة.

1- جمع "زطاط" وهي تسمية ارتبطت بفترة "السيبة" (ضعف السلطة المركزية) في مغرب القرن التاسع عشر، دوره تأمين مرور القوافل وحراستها بمقابل مادي، وقد يكون فردا أو قبيلة.

2- قبعة رجالية تلبسها العديد من الشعوب. ويرتديها اليهود خاصة لأنهم يعتقدون انها رمز لتقوى اليهودي وتواضعه أمام الرب، ويشترطون لباسها في صلاتهم.

3- عندما ترد الكلمة في كتب تاريخ المرحلة هكذا الگلاوي دون اسم فيقصد به : التهامي المزواري الگلاوي (1878-1956) انتقل من خدمة المخزن إلى معارضته وكان له دور حاسم في أحداث المغرب سنة 1953 بتولية محمد بن عرفة بدل السلطان الشرعي محمد الخامس. وعرف بتعاونه التام مع الفرنسيين استحق به صفة باشا مدينة مراكش مدة خمس وثلاثين سنة.

وقفنا على ضفاف تسّاوْت بزاوية تاگلاوة التي يتزعمها أولاد سيدي أحمد بناصر حيث يشكل ضراوة غالب سكانها. وهي قرية مبنية بالتراب والقش (التبن) على شكل حلقة حول الزاوية. فگلاوة عبارة عن فندق في وجه السكان الدرعيين الذين يذهبون إلى المغرب أو يعودون إليه، فالكل يستقبل بحفاوة، والوجوه السوداء فرحة، والأهازيج والإيقاعات على الأصول السودانية (جنوب الصحراء) مرتفعة. قضينا خمس ساعات من المشي البطيء بين تاگلاوة ودمنات، وهي محطة أقل رتابة من سابقتها، حيث كنا نرى من "عتبات" الزاوية أشجار الزيتون الجميلة لتيديلي [18] والمنازل المتفرقة بين وسط بساتين الخضر. وأكبر الملاكين بهذه المنطقة الغنية هما "القايد" الگلاوي، وزاوية تاگلاوة. ويتجه خط الهضاب نحو الشمال/الشمال شرقي مشكلا حلقة بدون منتهى التي تغذي أشجار زيتون السراغنة. كما تظهر أمامنا هضاب في اتجاه الشمال، وهضاب انتيفة والأطلس المتوسط. فهل توجد هناك طريق في هذا الاتجاه؟ معلوماتنا تنافي ذلك، كل شيء يدعوني إلى الاعتقاد بوجودها، فالاتجاه نحو وادي واد العبيد، تجعلنا نفترض أن الوادي تقابله قمة مشابهة لملوية التي سبق أن اكتشفتها سنة 1901.

وصلنا إلى درعة عبر تيديلي، حيث تزين أشجار الزيتون الهضاب الحمراء، والمنازل هنا مكعبة الشكل وكبيرة، وجدرانها من التابية[1] بها حفر صغيرة تستغل أماكن لإطلاق البارود، أو لإخراج الدخان، وأسقف هذه المنازل مكونة من الأخشاب والقصب والطين المبلل. والباقي عبارة عن منازل قلاع في ملتقى الطرق مزينة الجوانب والأطراف، وأجملها جميعا دار الخليفة Jakir ونرى من أعالي الشمال منزل "القايد" بلمودن الذي يعمل السراغنة الآن على الهجوم عليه، فكنا نسمع بوضوح دوي البنادق، ومن القريب جدا رؤية گلاوة يحرثون ويزرعون حقولهم قرب ساحة المعركة.

كنا نمر بقوافل الحمير التي تحمل أحجارا كبيرة من الملح في اتجاه مراكش جلبتها من منجم قطاب من الهضاب من العصر الترياسي "الزمن الثالث" لدرعة، كما صادفنا بعيدا من هنا أيضا مجموعة من طائفة درقاوة بعمائمهم الخضراء وسبحاتهم الطويلة المصنوعة من علف الزيتون، يبدون جديين وأقوياء، يصيحون بأعلى أصواتهم: لا إله إلا الله... وكنا نعبر من شعبة إلى أخرى صاعدين إلى أن وصلنا إلى بساتين دمنات، وهي حقول جميلة حيث كنا نصادف وسط هذه الزياتين أشجار الخروب المتشابكة، و"دوالي" العنب، والكروم على طول واد مهاصر. [18] دمنات مدينة قوية، وملتقيات طرقها متفرقة، لكن مآثرها تدل على أهميتها في الدولة الشريفة، وهذا ما يفسر جسامة مسؤولية قيادة القبائل الجبلية في الأطلس الأوسط. عبرناها نقطة نقطة، في موقعها غير المستوي. ويشكل الملاح حيا مميزا حيث يحتل مكانا سفليا ببابه الخشبي الكبير، ويمتد على طول جنباته صف من المتسولين أثارت انتباههم زيارتنا، ويبدو أن التجارة هنا جيدة والدكاكين ملأى بالسلع، والسوقة يملأون الشارع ضجيجا ويشربون الشاي تحت الأسقف الخشبية.

1- بناء طيني بواسطة ألواح في الجنبات تضرب فيه الأتربة الطينية المبللة بمدك. ولها خصائص عمرانية هامة بارد صيفا، دافئا شتاء.

نهاية سهل / مراكش، تبدو السراغنة يسارا، ودمنات في الوسط، وهضاب انتيفة في العمق

أراضي انتيفة، حرق الأعشاب لاستغلال الأرض

كانت الساحة الصغيرة للمدينة غير كافية لإقامة خيامنا، وهكذا حللنا قرب باب إفشتان. وللمدينة أبواب ثلاث أخرى وهي: باب تحت السوق الذي دخلنا منه، وباب أگداين، وباب الله. رحب بنا "القايد" الذي أُخبر بقدومنا وبعث لنا المؤونة مع أحد حراسه، وأوصونا أن نكون حذرين من هجمات اللصوص.[19]

الفصل الثاني:

من دمنات إلى واد ملوية

6 يناير

لا تشد دمنات عن القاعدة المشتركة بين كل مدن المغرب، فهي ليست سوى عبارة عن ذكريات متراكمة، فلم يبق من ماضيها الجميل، وأهميتها التجارية والاستراتيجية إلا الذكريات. وزال كل شيء إلى درجة أنه لا يستطيع أي أحد من مخبرينا أو مرشدينا أن يقول لنا متى بنيت؟ ومن بناها؟. فقد كانت إلى حدود عهد المولى الحسن الأول غنية وقوية، كما عايش ذلك دوفوكو سنة 1884، لكن الأزمات التي عرفها المغرب بعد ذلك، إضافة إلى وفاة السلطان أثر على دمنات كمثيلاتها، وهجمت القبائل على دار "قلعة" "القايد" الحاج الجيلالي الدمناتي، فقد كان "المسكين" يصلي عندما فوجئ بطلقة رصاص أردته أرضا، ثم خربت داره فيما بعد. فنهب السراغنة أسواقها وقتلوا اليهود، وأرعبوا الأغنياء من أجل أن ينتزعوا منهم مفاتيح مخازنهم، ودمروا المنازل وملتقيات الطرق، بل حتى المساجد لم تسلم من بطشهم، ثم عاد الهدوء فيما بعد شيئا فشيئا. وعاد الناس إلى زراعة حقولهم، وسقيها، وعندما عاد الهدوء إلى البلاد ظهر قائد آخر للحكم في القصبة، حيث ظل محتاطا مما وقع في الماضي، وأصبح الناس يعيشون في أمان. وحدهم اليهود هم الذين ظل الخوف مسيطرا عليهم من جراء ما عانوا منه، فبنوا ملاحا قويا ومحصنا لا يفتحون له سوى باب واحد [20] أما بالنسبة "للقايد" الذي استفاد مما وقع لسابقه-فقد أسس فرقة من حرس المداومة تتكون من خمس، إلى ثمانية عساكر في مدخل البرج، وكان عندما يصلي يحرسه خمسة حراس مسلحين. أما نحن فسننطلق غدا إلى زاوية أَحنْصال، وأخبرنا أحد اليهود -الذي يدعي أنه يعرف الطريق- أنه يلزمنا أربعة أيام للوصول، والطريق أكثر خطورة رغم سهولة مسالكها...

باب الملاح بدمنات

باب دمنات

7 يناير

كان يجب علينا -قبل أن ننطلق- أن نزور "القايد" من أجل الشكر والمجاملة، فاعتذر لنا وطلب منا أن نسامحه لأنه لم يستطع زيارتنا في خيامنا البارحة، لأن ابنه البكر توفي في اليوم نفسه صباحا. كان اللقاء وديا، وكان "القايد" هو الحاج محمد عبد الله أبلاغ الكرولي: بربري من آيت كرول يبلغ من العمر خمسين سنة تبدو عليه الحيوية، والحزم، وتاريخه يشهد على ذلك، كان موجودا في دمنات عندما اغتيل سابقه، فسارع بجمع أفراد فخذته المنتشرين في المدينة وأغلق الأبواب واحتل قصبة المخزن، ثم تنامت سلطته وعاد الهدوء إلى المدينة تدريجيا، واعترف به رسميا بعد بعثه بالهدايا على هزالتها. ولما كان "القايد" حذرا وذكيا لم يغير شيئا من مظهر القلعة التي تبدو من الخارج خربة، لكنها على العكس من ذلك بالداخل إذ بها ساحات واسعة ومجهزة أحسن تجهيز، وكل الغرف تفضي إلى حديقة جملية. كنا نسمع في الوقت الذي كنا نتناول فطور الشاي والرغيف المقلي "الاسفنج"، ضحك الحراس وأصوات سلاحهم، وتراتيل أطفال مضيفنا يحفظون القرآن. وعرف "القايد" الشيخ ماء العينين "الأب المفترض لشريفنا"، وكان قلقا من مشاريعنا. وأمدنا بعد ذلك بحارس رافقنا إلى حدود نفوذ حكمه، ونصحنا بأن نقيم خيامنا دائما قرب السكان لأن الثلوج في الجبال قد تفاجئنا في أي لحظة وتعيق تحركنا. وهكذ انطلقنا على الساعة الحادية عشرة، حيث عبرنا أراضي ولتانة/ إينولتان، وفخذات آيت وادنوس ثم قطيوة/گطيوة حيث يوجد قسم منهم من آيت ماجطن/ماجّن، والآخر من آيت بلال. عبرنا في طريقنا أول مرتفعات الأطلس المتوسط، حيث بدأت تظهر أمامنا صخور حمراء وبيضاء، والحقول على شكل مدرجات، والمنازل كبيرة ومحصنة. أفضى بنا الطريق الذي نسلكه إلى "وديان" صخرية تختفي وسط هضاب أشجار العرعار، والأرز،

وتيكيوت. توقفت "قافلتنا" بزاوية آيت امحمّد، وكان علينا من أجل الوصول إليها أن نعبر واد تسّاوْت الفوقانية، للخروج من الجبال حيث كان المنظر رائعا وسط واد متدفق بعرض ثلاثين مترا، وبعمق متر واحد. كانت مياهه الباردة والجميلة تجري في سرير متحجر وسط الأعشاب، والقصب، وعلى طول جنباته منازل متراصة، ومزارع تسقى بصعوبة أمام عرض مجرى المياه بها. وخدام الزاوية التي يعود عمرها إلى ثلاثة قرون من أولاد بن ناصر، ولم يكن أحمد الجد الشهير هو المؤسس، بل أسسها والده، وكان يسيرها أبناء المؤسس من جهة الأم، وهي كبيرة الآن وكثيرة السكان. تتكون عائلة الشيخ المؤسس من ابنين، وخدّام ومريدين في حدود العشرين، وعندما تُشاهَد من الضفة اليسرى، تبدو كتلة مزينة جدا [22] في الأسقف، والشرفات أما عندما ننظر لها من قريب فليست سوى تجمع من المنازل المبنية بالطين الأحمر.

وادي تساوت، يظهر الأطلس الكبير من المرتفع الذي يطل على زاوية ايت امْحمّد

بلاد انتيفة، المرتفع المتحجر لتامشگدان

إننا الآن في بلاد "الشلوح"، و"المثقفون" منهم فقط هم من يعرف اللغة العربية، تلا شريفنا قصيدة في مدح الشيخ ماء العينين لأحد فقهاء المدرسة، الذي أعجب بها لدرجة أنه كان يحرك رأسه طربا، لكننا علمنا في المساء أنه لم يفهم أي كلمة من القصيدة. ويعقد غدا آيت كرول الموجودين في الضفة اليمنى أمام الزاوية اجتماعا قبليا في قرية مجاورة، حيث كنا نرى مرور عدة فرسان بربر، على الهيئة نفسها برؤوس غير مغطاة ملتحفين "خياديس" صوفية طويلة تمتد إلى الكوعين، ويركبون خيولا

ذات شعر طويل معتنى به. يبدون متحمسين ويتحركون سوية، مسلحين ببنادق أسفل سروج خيولهم، أو بمسدسات من نوع "بوحبة" مزينة بالفضة، ويرافقهم أحد الخدم حيث يجري ماسكا مركوب الزعيم.

8 يناير

ليس من السهل أن تفلت من كرم "الشلوح"، فعندما تبعث لهم السماء بضيف فإنه يكون محط عنايتهم أولا، أو بإهمال كبير أحيانا. وكان الأمس مناسبة لتقديم كسكس لذيذ وساخن مسقي بالزبدة والعسل، وجاء كل رجال الزاوية، حسب العادة ليقتسموا معنا الأطباق التي قدموها لنا. جاء الإثنا عشر طفلا صحبة شيوخهم، حيث يستظهر أحدهم "منظومة" ابن عاصم[1]، في حين يقرأ الآخر "مختصر" خليل[2]، و"ألفية" ابن مالك[3]. وتقدم هذه النصوص العربية مرفقة بشروح بالأمازيغية. انطلقت القافلة من جديد على الساعة الثامنة، بشكل مختلف تقريبا من البارحة لم "نفكك" خيامنا إلا بعد تناول وجبة الفطور الثالثة. ويشير ابن خلدون أن "البربر" يأكلون بشكل سيء عند الزوال، ويبدو أن الطبائع لم تختلف قط منذ ذلك الزمان، فيجب أن تكون شهيتك مفتوحة، وبطنك مستعدا لاستقبال كل هذه المأكولات التي تشكل وجبة العيد [23].

غادرنا الزاوية وصعدنا واديا ضيقا موازيا لواد تسّاوْت، كان الصعود صعبا، والطريق ضيقة حيث سقط أحد بغالنا في الواد وكان من الواجب القيام بمجهودات جبارة من أجل إعادة البغل إلى الطريق مع حمولته، ثم إعادة تحميله من جديد، وتمت هذه العمليات دون وقوع حوادث أخرى تعرقل العملية، ولكنها كانت تنتهي ببعض الإعجاب بهذه العادات الجبلية لقافلتنا. وأوصلنا الواد الضيق إلى حدود الحوض الذي اكتشفناه إلى الأطلس الكبير من الجرف الذي تحيط بجبل آيت بوولي (أهل القطيع). ونهاية مضيق دمنات إلى حدود جبلين كبيرين، وهما: جبل أنرمر، وجبل بوْغيول اللذان يحيطان بمضيق الگلاوي.

والهضبة التي وصلنا إليها جوانبها محاطة من جهة مراكش بمرتفعات انتيفة (وب "البربرية" انتيفن)، وهي عبارة عن هضاب دائرية ذات ارتفاع يتراوح بين مائتي وخمسمائة متر تتخللها منازل مبنية بالحجارة الحمراء تبدو صلبة لكن جميلة. وتبدو هذه الهضبة البعيدة رتيبة المنظر، وبنتوءات كثيرة، فهي أولا جافة جدا وخالية، تكسوها أحيانا بعض الأعشاب الشوكية التي تتناسب ألوانها مع الأحمر الوردي للتراب.

توقفنا بالقرب من زاوية بوعنطر على أراضي گطيوة، واسم الزاوية هذا "اعتباطي" لأنه لم يكن لها أهمية عند المخزن، لأنه لو كان ذلك صحيحا لما هدمها مرتين في عشر سنوات، وفرض عليها

1- ابن عاصم القيسي الغرناطي من فقهاء المالكية بالأندلس توفي سنة 829 هـ. والمنظومة هي: "تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام." لها أكثر من شرح، وتعتبر من أساسيات مادة الفقه في المدارس العتيقة بالمغرب.

2- في الفقه الماكي لصاحبه الخليل بن إسحاق بن شعيب (ت776هـ) وللمتن أكثر من شرح.

3- لمحمد بن عبد الله بن مالك الطائي (600هـ/672هـ) وهي منظومة في قواعد النحو والصرف ومسائلهما عدد أبياتها 988 بيت. ولها أكثر من شرح.

"الضرائب". لكن الأهالي يقومون بأعمال طقوسية بجوار "الشرفاء" أو إگرامن الثلاث الذي يعتبرون صلحاء الزاوية وهم: سيدي سْعيد أوعبد الله، وسيدي عْلي أومحماد، وسيدي سيد أومحماد. ويعودون في كل مرة إلى تكرار العبارة التالية "كل شيء لله". ونحن لنا الشرف أن نكون من نسب رسوله".

تتميز بوعنطر بثلاث عادات تقليدية تجر ممارستها عواقب وخيمة منها أن استعمال [24] البندير والطبل محرم ولا أحد من أفراد المخزن يحكم فيها، ويضم هذا التجمع خمسا وثلاثين منزلا، وهناك "طالْب" بالمسجد يدرس ثمانية "طلبة" يؤدون أجره، وبعضهم يؤدي له ربع المداخيل "لاربعية"، والبعض الآخر يخصص له قسما من محاصيلهم ولا يسمح أهل بوعنطر برؤية اليهود على أراضيهم.

9 يناير

انطلقنا زوالا بعد وجبات دسمة متشابهة، وصاحبنا عشرات الأعيان إلى حدود مجال نفوذهم، ورافقنا فارس واحد بعد ذلك إلى الخارج، وصادفنا في منتصف الطريق البريد الذي ذهب يخبر آيت تاگلا بأننا سنعسكر هذا المساء عندهم بمنطقة تامشگدان، والأخبار التي يحملها ليست مطمئنة تماما ذلك أن أيت مساط يتصارعون، وأن انتيفه، ثاروا ضد قائدهم ولد سيدي عبد الله الزناگي الذي فر وعُين مكانه قائد آخر يسمى أبراح، أوقفه المخزن. ويجعلنا هذا التدخل المخزني في الشؤون الداخلية لبلاد السيبة نقف على هذا التعامل الميكيافيلي في الحكومة الشريفة، حيث تمتد العملية بخارج حدودها التي يمكن أن يصل إليها موظفوها. وهذا التدخل الذي يقع أحيانا ليس سوى دليل على عدم الاستقرار، ويكون محدودا في فض النزاعات، والاستباق ضد الضعيف، ثم توحيد المغلوبين وعسكرتهم ضد الغالب.. .

يقربنا منبسط انتيفة الذي نمر به من الهضاب التي تحيط به، وتتخلله مجاري مياه، ومنابع عيون الماء وافرة، والروافد الصغيرة التي تغذي الوديان أحدها يسمى واد تعينيت الذي ينبع في طريقنا من آبار أغبالو نتزروت ويفصل بين گطيوة وانتيفة [25] كثيرة، واستعمال هذه المياه بها هو السبب في الصراعات التي تنشأ بصفة مستمرة بين هاتين القبيلتين. تتميز الجهة الشرقية لنتيفة بكونها ذات طابع موحد، فهي غاصة بالسكان وبها أنشطة فلاحية كثيرة. وقسم المرتفعات منها مكسو بأشجار البلوط، وأرضها مكسوة بالدوم الذي يحرق أحيانا من أجل الحرث، ووسيلة الحرث متعبة جدا أمام صلابة التربة حيث يقوم بها رجال وأحيانا صبيان، وذلك باستعمال الحمير، والبغال، والخيول، والعجول، والأبقار. وأحيانا "عبيد" ورغم صعوبة العملية يكون الحصاد جيدا. خاصة أن النباتات تكون طويلة تصل في طولها إلى ركبة الفارس كما يقول المثل. ويكون من الصعب أن يقضي الحصاد يوما كاملا في عملية الحصاد ليوفر محصوله للسنة كلها.

هناك عملية حرث أكثر صعوبة تتطلب قوى وصلابة الرجال، وهي عملية قطع أشجار السدر الجبلي من أجل استعماله في أسقف منازل الدواوير. وتتم عملية القطع بآلة حديدية معقوفة ومسننة بقبضة خشبية، وتحمل هذه "النباتات" فوق ظهور الحيوانات، وأحيانا على ظهور الرجال

حيث نرى أحيانا كومات من النباتات الكثيرة تتحرك ولا نعرف من يحملها هل هو حمار؟ أم إنسان؟. وإذا كان السدر الجبلي ثمينا بالنسبة للسكان القارين، فإنه متعب للرحالة ففروعه تمزق الثياب، وكلما يتحرك فوق الدواب من "لِبد" و"وشواريات" وألبسة، ولا تزال أشواكه الملتصقة بالأغطية واللحم لا "تقلع" إلا بصعوبة. ويتكون وادي تاشگدان الذي نزلنا به، من عدة منازل مبنية بالطين الأحمر. حضينا باستقبال جيد في أول مرة، فالرجال غائبون تقريبا كلهم. صادف قدومنا أنه كان هناك خصام في سوق الخميس منذ الأسبوع المنصرم، بل كان هناك قتال بالحجارة [26] وكان هناك سبع عشرة مصابا من مضيفينا. وذهبوا الآن بأسلحتهم إلى السوق المنعقد عند أعدائهم.

فرسان من أيت مساط

في بلاد أيت مساط

هؤلاء "الشلوح" متشابهون في كل شيء مع لباس بربر الأطلس المتوسط وعاداتهم. فلهم رؤوس مستديرة وبنية قوية، ونظرات حادة، وهم كثيرو الكلام وبسطاء في حديثهم. و"خياديسهم" طويلة، ويجب أن تسمعهم كيف يمدحون إدارة المخزن وسيرة السلطان! كانوا يدفعون "الضرائب" منذ مولاي الحسن. وعندما تولى مولاي عبد العزيز الحكم تكلف "قايد" دمنات بتقديم مبالغ مالية إلى أعيان هذه القبيلة الثائرة لتظل في جبلها.

10 يناير

نتحرك منذ الساعة الثانية عشرة بعد الزوال إلى الرابعة عبر مقعر محاط بهضاب، والمياه بها ليست متوافرة وسط هذه الأحجار الكلسية الحمراء أو الرمادية. وتسمى هضاب انتيفة هضاب آيت علي أو (أومرغاد) ثم آيت بوزيد وتتجه صعودا نحو جبل أوغناين الذي نرى منه القمة البعيدة، التي قيل لي إنها بلدة واويزغت وملتقى واد أَحنْصال وواد العبيد. دخلنا إلى غابة أفرنون في تراب أيت مساط، حيث وجدنا أشجار البلوط، والعرعار في مساحات شاسعة فيها خنازير، وفهود خاصة قطاع الطرق مما يعطي لهذه الغابة سمعة سيئة.

ولأيت مساط اليوم حفل كبير قرب آيت ايخلف حيث تشكل الزاوية هدفنا من الرحلة، يرتدي الخيالة والمشاة ألبسة رمادية عبارة عن "خياديس" مصنوعة من الصوف الرمادي، أو الأسود الذي يوضع فوق القميص الأبيض الطويل يضفي عليهم طابع القوة والبأس.

ومن أهم صفات "البربر" السذاجة: حيث قدم شيخ بلحيته البيضاء يطلب من الشريف تميمة من أجل أن يرزق بولد، فجمع مولاي الحسن بيديه أطراف ستة قطع من الورق، وأضاف لها ست حبات دواء مختلفة قائلا له "[27] سترزق بولد إذا تناولت كل يوم قبل طلوع الشمس، حبة وتميمة وستسميه ماء العينين.. وستعطينا خروفا جزاء لي (ذبيحة)".

11 يناير

يوجد أيت مساط مضيفونا في حرب مع جيرانهم من الجهة الشرقية آيت امْحمّد وأيت إصحا، وجعلوا في حديثهم عدوا في هالة من التعظيم لكي يمنعونا من المرور عبر أراضيهم، وامتثلنا لنصيحتهم رغم أنها تبعدنا عن وجهتنا العامة، وتجرنا نحو الشمال شمال شرقي عند آيت بوزيد. ورافقنا زعماء زاوية آيت إخلفو جعلونا نعبر غابة البلوط بإفخدن حيث الأشجار أكثر كثافة، وجمالا من أشجار إفراون، وقطاع الطرق أقل من السابق ولا يخشون وقال لنا مرشدنا "لاخوف عليكم ما دمت في حمايتهم".

صادفنا في هذه المنطقة عدة أنواع من المنازل منها القلاع أولا، فهذه القلعة تارة تبدو جميلة وأخرى قبيحة مفقود قسمها العلوي، فيها أبراج، وتحيط بها قرى مجتمعة بمنازل سفلية تعلوها بناية عالية مدعمة بدعامات خشبية مشابهة لتلك الموجودة بالقبايل. كنا نجد في الأخير بين الأشجار أو في المناطق الخالية منازل معزولة أو مجتمعة على مثنى وثلاثا مبنية بطريقة خاصة.

وتفتح إحدى واجهاتها على البوابة المكونة من جدار بالحجارة بدون طين يعلو حوالي مترين وبقية المنزل مدفونة، وسقفها من جذوع الأشجار مغطاة بالطين، يختلط لونه بتراب أرضها، والساحة

الداخلية التي تفتح عليها الطرق المستعملة للسكن توجد بالأسفل مفتوحة إلى السماء، وهذه المساكن البيئية [28] تستعمل ملاجئ للرعاة والحراثين أثناء فترات الرعي والحصاد. واكتشفنا من جديد هضبة إفردان فوق السلسلة الجبلية للأطلس الكبير، بقممه المتشابهة، وتبدو جبال آيت بوگماز المنتصبة

إنگّرت، منزل القايد حدو نايت إشو

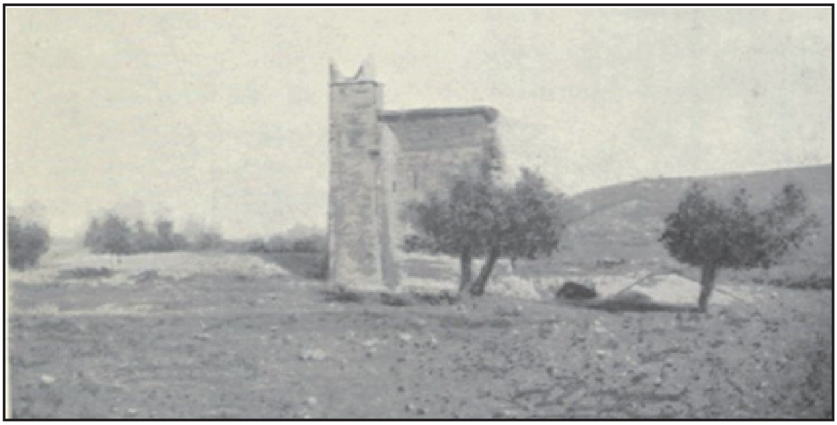

أحد منازل أيت مساط

أمامنا مثل الجرف الذي نرى منه مضيق أَحنْصال الذي يعبر تراب آيت عبدي في اتجاه وادي تودغى. ويهيمن رأس جبل كبير يحمل اسم جبل مقّورن، ويسمى الكل بأدرارندّرن الذي يعني جبل الجبال. لا تسقط أمطار أبدا في مثل هذه المرتفعات لكن عندما يسقط الثلج في القمم يصبح الوصول إلى هذه المضايق صعبا جدا، وتحاصر هذه المناطق طيلة شهر أو شهرين ويعاني السكان من التدفئة ويعيشون على اللحم المجففة/المقدد، والقمح، والشعير، ويلبسون طيلة هذه الفترة سراويل طويلة إلى الكوعين، ونعالا مصنوعة من الدوم، مما يذكرنا ببومنثل بالجزائر.

توقفنا هذه الليلة بإنگرت في منظر رائع وبمنبسط فيه كوخ عميق بمنطقة تصلح لإطلاق الرصاص بين قلعتين اثنتين. وبمجرد أن وصلنا جاء مضيفنا "القايد" حدو نايت إشو طالبا منا أن نضرب خيامنا قرب مقر سكناه، والقلعتان الآن في حرب، ونشب حقد لا يعرف سببه بين السكان، خاصة أن هناك حدث أحيى الصراع من جديد فقد أحب ابن "القايد" بنت عدوه، واستغل حبه ليستدرجه وقتله، فانتقم رجال "القايد" بذبح معشوقته. ومنذ ذلك الحين والحذر متبادل والقتال مستمر دون توقف ودون هدف [29] وعندما كنا بصدد الرحيل سمعنا إطلاق النار في عمق الوادي على بعد ألف وخمسمائة متر، فآيت عطا وأيت بوزيد يتحاربون من أجل الماء. لم تتوقف الطلقات النارية طيلة الليل ولم تتوقف إلا في بداية الصبح. وعلمنا أن هذه الخصومة قد انطلقت منذ أسبوع، وأن آيت بوزيد مات منهم في هذا المساء خمسة رجال. وليس هناك من سبب لتتوقف الحرب، والطرق ستكون مقطوعة بطبيعة الحال والسحب ملبدة في السماء والحرب مشتعلة والثلوج تسقط، يا لها من عوائق!

12 يناير

ليس من السهل أن نتحرك في الأطلس، السكان يجهلون الطرق بل حتى لو عرفوها لا يريدون المغامرة بسلكها، والبلد منهك وصعب المسالك، والحروب في كل مكان، وقبائل هذه المنطقة مجتمعة في قسمين أو لفين، وموازين القوى شبه متساوية ومواجهة بسيطة تتطور بسرعة. فبمجرد ما يسمع صدى إحدى الطلقات النارية في الجبال إلا ويعد كل واحد بندقيته ويهيئ رصاصه أو باروده ويتجه نحو المؤازرة أو الهجوم (الإغارة). ولا يمكننا نحن الذين نريد أن نعبر أراضي آيت بوزيد عبر تراب آيت عطا أن نجد بأي ثمن "زطاطا" يستطيع أن يعبر منطقة البارود. وطمأننا البعض أنه ما زالت هناك فخذة مجاورة لسوق الجمعة تحتفظ ببعض العلاقات مع آيت عطا، وذهبنا لنبحث فيها عن مرشد.

كانت مرحلة صعبة رغم قصرها، نزلنا أولا من ممرات شعبة صعبة بوادي العبيد وليست أمامنا سوى قناطر مهترئة، ومضايق تجري فيها أودية صغيرة مثل واد أسمسيل البعيد من واد أَحنْصال، المجتمع في مجرى بعرض ثلاثين مترا ويصب أماما في واد العبيد الأكثر عرضا، لكن يجري بطريقة منتظمة، والمقعر الذي يجري فيه هاذان الوادان [30] يحمل اسم واويزغت. سبق أن أقام دو فوكو سنة 1883 في إحدى المناطق المجاورة لها. صعدنا في الضفة الغربية لنطلب ضيافة آيت علي أومْحمد وهم فخذة من آيت بوزيد، لم يكن الترحاب بنا على الشكل المطلوب، البلاد كلها في اضطراب، وشارك الرجال البارحة في إحدى المواجهات قرب "الوادي" الذي نعسكر به، وتلقى شاب صغير أقرب إلى الطفل طعنة بخنجر في رئته توفي على إثرها ليلا.

ملتقى واد العبيد بواد أحنصال

وادي واد أحنصال

الواقع أن لا أحد أراد أن يستقبلنا، لكن "القايد" وهو شيخ مؤنس اتخذ الاحتياطات اللازمة وطلب منا أن نبني خيامنا في منبسط أحمر تحت أشجار زيتونه. وكلمة "القايد" التي نجدها متداولة في هذه المناطق لها دلالة تشريفية أكثر ما هي صفة، فهي تشكل امتدادا لسلطة مولاي الحسن أثناء حملته إلى تافيلالت التي انتهت بنصره الكبير سنة 1894. أمدنا مضيفنا بوثيقتين غريبتين تتحدثان عن التطور السياسي لبلاد السيبة في السنوات الأخيرة، إحداها رسالة مولاي الحسن يطلب من خلالها تحصيل الضرائب، والثانية من مولاي عبد العزيز تطالب بتطبيق الشريعة. ولآيت بوزيد طبائع خاصة، فهم لا يأكلون بتاتا لحم الأبقار سواء عجولا أو بقرات إذ يعتبرونها كلها أشياء مكروهة مثل لحم الخنزير أو الكلب، ويرقصون بشكل مختلط نساء ورجالا لكن لا يمسكون بالأيدي بل يجعلون أكتفاهم يحتك بعضها بعضا. وسبق أن شاهد مولاي الحسن هذه الرقصة أمام خيمته، وهي تحمل اسم "السباط" (حذاء الرجل) أو الريحية (حذاء النساء).

13 يناير

هذا يوم "مأساوي " و"البربر " ممثلون حقيقيون فقد مثلوا أمامنا مشهدين تمثيليين ومؤثرين. [31] كانت ليلة البارحة مقلقة، فلم يزرنا أي أحد، وكان علينا أن نشتري من مضيفنا الشعير من أجل بهائمنا، أما نحن فلم يقدم لنا سوى بعض الزبدة وقطعا من الخبز "الحافي". كان لهؤلاء "الشلوح" تخوفات من إيوائنا فالحرب ترعبهم. وصرحوا لنا هذا الصباح أن علينا أن لا نذهب بعيدا، وأن علينا تغيير الطريق. فككنا خيامنا دون أن نكترث بما قالوه وحمّلنا بغالنا بطريقة هادئة وواصلنا طريقنا في اتجاه الشرق، وتعالت الأصوات والاحتجاجات "هل أنتم حمقى!؟ هل تظنون أن آيت عطا سيتركونكم تدخلون إلى مجالهم الترابي!؟" لكن استقبال أيت عطا لن يكون أسوأ من استقبالكم، "فالمسؤولية عليكم وعلى أبنائكم". وكل ما يمكن أن نلوم أو نعيب عنه بربريا مقبول إلا سوء الضيافة فيعد أمرا صعبا. أحس مضيفونا بحسرة وهم يرون أن كل اعتراضاتهم ذهبت سدى. فاجتمعوا على شكل حلقة وجلسوا القرفصاء والبنادق موضوعة وسطهم أرضا بشكل عمودي، وتبادلوا أطراف الحديث، ثم نهض أربعة رجال منهم وتكاتفوا وأطلقوا النار جميعا وهذا إشارة إلى الدعوة "للحرب"، فخرج الناس من كل المنازل وخلف الصخور والأشجار، واجتمع المحاربون، وتسابقوا وهم يلبسون "خياديسهم" البيضاء والسوداء مسلحين ببنادقهم، وأكياس بارودهم، ورافقنا الكل من أجل حمايتنا. انطلقنا في الطريق بحذر على شكل عسكري وكان هناك من يستطيع أن يسبقنا في الأمام ثم شرعنا نصعد ونعبر جزءا ثم آخر، إلى أن وصلنا إلى الحدود المخيفة، توقفنا وبدأنا نتدارس خطة العملية. فأمامنا ينتصب منبسط واد العبيد الذي عبرناه من الجهة اليمنى. وهناك صخرة كبيرة يمينا تطل على كل السفح وعلى بعد كلمتر من هنا نرى قلعة قصيرة، بطابع صعب يخرج من أعاليها الدخان، إنها أول بلدة لآيت عطا، حيث كانت هناك تشكيلة من الحرس تراقب الهضبة كما يقوم بذلك جيش كبير. [32] تقدم أربعة رجال مسلحين من آيت بوزيد بحماس رافعين أصواتهم، ومغنيين ويصعدون مقدمات صخور تظهر أمامنا، ولما وصلوا إلى القمة توقفوا وأزالوا عن رؤوسهم قلنسوات "قبب" "خياديسهم" ونادوا على آيت عطا. فانطلقت بينهم محادثات ترجع لنا الرياح صداها عن بعد. دامت المفاوضات حوالي ثلاثة أرباع الساعة بقي خلالها آيت بوزيد واقفين جيدا يستمعون، وعيونهم حذرة يتتبعون الحوار الصعب الجاري الذي نحن موضوعه ورهانه، وأخيرا تم الاتفاق وتمت المفاوضات بتحركهم جريا فوق صخرتهم، وتلا شريفنا الفاتحة من أجل جلب رضا مضيفينا، وانطلقنا من جديد في الطريق تحت حراسة رجلين فقط في اتجاه أرض العدو.

وكان سبعة رجال من آيت عطا فوق ربوة كلسية شاهرين بنادقهم إلى الأعلى مغطين وجوههم بالأيدي، ينظرون إلينا نتقدم في اتجاههم دون أن يتحركوا كما لو أنهم أصنام، وتوجه الشريف في صمت وببطء نحوهم، وعندما اقترب منهم جاؤوه جماعة وقبّلوا "يديه" بقوة، ثم رجعوا إلى مكانهم وشُرع في الاستجواب:

- "من أين جئتم"؟ وإلى أين تذهبون؟ وماذا تريديون؟ ..."

فأجاب مولاي الحسن:

- "نحن متجهون نحو الشريف المحترم قريبنا سيدي علي أَحنْصال صاحب الزاوية القريبة منا."

ولما أيقن آيت عطا من سلميتنا منحونا من يرافقنا إلى الزاوية، وقيل لنا إن أحدهم زطاط أجره حوالي ثلاث دوروات عندما نصل إلى الهدف.

انطلقنا عشر دقائق بعد ذلك إلى واد العبيد، وفقيهنا الضعيف والجبان سي المحجوب الذي لم يتوقف طيلة الطريق عن تلاوة "الأذكار" الجنائزية يمزح الآن مع مرشدنا الجديد، ويجمع معلومات في هذه المنطقة التي يعمها الفساد، والحروب، والاختطافات، والقتلى، وتكتفي نساء أيت عطا بحياكة خياديس "عشاقهن"، وأكفان أزواجهن....

يفصلنا [33] حاجز بارتفاع ثلاثين مترا على سرير الوادي. نزلنا في منحنى عبر الحقول الغنية الحديثة، وأرض هذا الوادي رطبة ومبللة، والصفائح الكلسية تتخلل بين الفينة والأخرى الهضبة المؤدية للواد.

عبرنا واد العبيد، ثم صعدنا الصرح المقابل عبر مسلك ملتو منعرج ووجدت بغالنا صعوبة في الصعود وهي محملة، وهكذا صعدنا إلى عرف من السلسلة الأولى الذي يحيط بالوادي في أرض آيت مازيغ، ولم نفاجأ عندما وصلنا إلى القمة أن نشاهد هذا العرف المسنن من الأعلى والمقطوع وأن "الشعبة"/ المسيل التي نوجد بها تغطي قرية اجتمع جيش من الجنود، وتسمى هذه القرية تيفغيول ومحاربوها هم "أيت إصحا الذين يعقدون مجلس حرب ويناقشون خطة الهجوم الذي سيقومون به غدا على قصر آيت بوزيد الذي كنا به الليلة المنصرمة، ولم نر أي حركة طيلة مدة نزولنا وسط الصخور والأحجار المتدحرجة، ولم نسمع أية كلمة في جمود وصمت، بما في ذلك الاستقبال الذي خصص لنا، فيجب أن يعرف الإنسان الطابع الصعب والملغز لهؤلاء "الشلوح"، وبرودتهم، وأيضا الطابع الحزين لشعرهم الذي يشهد على الأساطير المخيفة التي تؤرخ للطابع العنيف لقبائلهم التي لا تكف عن النهب من أجل فهم هذا القلق والشك لمثل هذا الوصول إلى هنا.

سبقنا "زطاطنا" بخطوات إلى الأمام، وسيجلس القرفصاء وسط مجموعة رئيسة. وفي الوقت الذي كنا ننزل فيه ونزيل –ببط-، الحبال المحيطة بظهور بغالنا شرع يشرح من نحن وإلى أين نذهب، فنهض أيت إصحا، وجاؤوا لتقبيل قدم شريفنا، وبدد هذا التصرف كل ما سبق من مخاوف، وجاء الجيش كله لتشريف سلالة الرسول، وجاءت النساء جاريات بالأطفال في اتجاهنا، وخلال خمس عشرة دقيقة[34] لم يتوقفوا عن عناقنا في مشهد لا يمكن أن ينسى. وكونوا بعد ذلك دائرة كبيرة سنضرب فيها خيامنا، ووضع أمتعتنا ولست محتاجا إلى وصف السهولة التي بنى بها مخيمنا في هذا الوسط، ولم يبنوا لنا سوى خيميتين سنجتمع فيها، وكنت أسمع إلى حدود منتصف الليل الأذكار "الجنائزية" التي لم يتوقف فقيهنا المسكين عن ذكرها.

استقبال ايت عطا

في حراسة أيت بوزيد

14 يناير

يجلس كل رجال فخذة أيت إصحا من قبيلة أيت مساط على شكل نصف دائرة فوق الصخور العالية لشعبة/ مسيل تيفغيول التي يختبئ فيها آيت إيسوموغ، والمشهد غريب والرؤية من هنا رائعة، فرشنا حايكا في أرضها، أحاط به أعيانها، وجاء كل واحد من المحاربين يرمي فوقه قطعته النقدية صارخا: "الصلاة على النبي" ويشكل مدخول هذه العملية: ثمن الزْيارة "هدية"

أيت إصحا لشريفنا. والهدف من هذا الحفل طلب العون من الله الانتصار في المعارك المقبلة. وكنا نستمتع أثناء هذه الطقوس التي يقوم بها المغاربة في خشوع مثلها مثل باقي العبادات بالنظر في وجه مضيفينا. أشكالهم ليست جميلة، فرؤوسهم دائرية، وذوي سحنة قوية ووجوه عريضة، وشواربهم غليظة تكاد تكون حلقى كلها، واللحية قليلة النبات، وهم سُمر اللون باستثناء بعض الحالات، فلم أر سوى أربعة أفراد بيض البشرة ولم أعدّ سوى عشر زنوج. وليس من المفيد القول بأن كل الرجال مسلحين، فالبندقية اليدوية المصنوعة من الحجارة هي الشائعة عندهم، ورغم ذلك كنت أرى بعض البندقيات العصرية.

وكنت مرغما لأن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية[35] لأبطال هذا المشهد، وليس من السهل أن تأخذها وأنت متابع بزوج من العينين لأربعمائة خائف ومتحد، وتصبح عملية التصوير في مثل هذه الأوساط مسألة قابلة للحظ، وكان علي أن أخذ الصور خلف بغلة الشريف أو عندما كنت أتجول حول المخيم. انتهت عملية جمع النقود وجمع المنتوج في "حقيبة" مولاي الحسن الذي قرأ في الأخير سورة الفاتحة جهرا التي بقي لها "الشلوح" واقفين والأيدي مفتوحة نحو السماء لسماعها، ويرافقونها بدعوات سرية، ولا يختمون كلامهم إلا بقول آمين بجهر بعد دعاء الشريف. وبعدما اجتمعوا في القرية حاول شيوخهم، الصعود في اتجاه المرتفع الذي نزلنا منه البارحة واتجهوا نحو الحرب، وكانت صيحاتهم العالية تقاطعها زغاريد النساء اللواتي تنظرن من الشرفات وتشاهدن هذه الانطلاقة، وطلقات الرصاص تذوي في كل مكان، ومادمنا نستمتع بهذه المنظر، شرح لنا أنه لابد أن يجرب بارود بندقيته وأن تقذف نارها.

انطلقت من جديد بعد نصف ساعة على طول جبل أبادين، وأجبرنا هذا الطريق أن نعبر كل الشعاب التي تصعد وتنزل. كانت الطريق شاقة، حيث كنا نتحرك وسط غابة البلوط، التي لم نصادف فيها أي كائن حي، وكان "زطاطونا" يتوقفون بين الفينة والأخرى ويضعون آذانهم في الأرض ليسمعوا هل هناك مواجهة أم لا، أو يصعدون إلى الجرف ليشاهدوا من زاوية بانورامية تطل على الكل آثار دخان يصعد في السماء وسط هذا اليوم، الشتائي الجميل. يجري واد العبيد الذي نعبر واديه في عمق مضيق حقيقي توصل إليه طريق البغّالة.

وأُخبرنا في أعالي جبل تاگُندارت بوجود منجم حديد قديم كما تدل على ذلك بعض الحفر، وحكيت لنا الأسطورة المعتادة بأن المسيحيين كانوا يستخرجون الذهب والفضة، ولازلنا نرى في مغارة مجاورة أواني الأكل، وفرنا غازيا كانوا يستعملونها. وتمتد جبال آيت عطا، وأيت سخمان، في اتجاه الشرق دون توقف في المنحدر العميق الذي يجري فيه واد العبيد، وفوقها قمم عالية لجبل ايخناين الذي يطل على ورزازات وجبل سگاطعند آيت سعيد أوايشو.

أيت إصاح قبل المعركة

ممر صعب، الطريق من أيت بولمان إلى تانودفي

توقفنا حوالي الساعة الرابعة بتاباروشت وسط عشرات القلاع، وسط شعبة. وهي بنايات صلبة وكبيرة أسوارها بدون نوافذ، وأسقفها سميكة بها فجوة واحدة لإزالة الثلوج. وكانت هناك بناية أكبر بعض الشيء بجوانب أربعة مكونة من إسطبل وقاعة ضيافة. لأن هنا كما هو الشأن في باقي البلاد الإسلامية، فالمنزل الخاص "مقدس" ولا يمكن لأي أحد من الغرباء دخوله.

ذهب كل الرجال، للحرب والنساء تشتغلن، وتمكننا هذه الظروف من أن نلاحظهن بدقة، فهن قبيحات الوجه، ومتسخات بدون استثناء، وتضع فوق رؤوسهن مناديل حمراء وسود تغطي حلاقة "شحيحة" لرؤوس مطلية بالحناء وتخرج منها أطراف الشعر خلف العنق، ولباسهن مكون من قميص قطني "مزركش" فوقه "حنديرة" من الصوف مثل قراب به ثلاثة ثقب، الأولى للرأس والآخرين لليدين. وعندما يكون الطقس باردا يضعن "حنديرة" أخرى محزومة بقطعة ثوب ومعقودة إلى

الصدر، والنساء ترتدين مجموعة ألبسة "غير منتظرة"، وتتزينن بالحناء إلى مقدمة الأنف. والرجال يلبسون قميصا أبيض بأطراف "أكمام"، وسلهاما أبيض، أو "خيدوسا" رماديا أو أسود. ولم يطمئن مرافقي للاستقبال الذي خصص لنا، ووجدنا أحد شرفاء زاوية أَحنْصال [37] الذي استفسرنا بكثير من الشك لدرجة أن مولاي الحسن لم يتكلم في أي شيء إلا بالعودة إلى دمنات. ونشب خصام بين خدامنا، ومن استخدمناهم حيث رفضوا الخضوع لمولاي عبد الله الذي يعد قائد الحرس، ومادام أنهم أرفقوا احتجاجاتهم بالتخوف من صفتي، وجدت نفسي في وضعية محرجة، ورجال شرفائنا الذين استقدموهم معهم أصبحوا متخوفين أكثر ويتحدثون عن التخلي.

وتطبع كل هذه الأحداث المتلاحقة عادة الرحلة في المغرب، وعدم الأمن في هذه المنطقة، ومعارضة السكان مما يجعل الوضع صعبا جدا، فمصيرنا بين أيدي رجالنا، وعبارة بذيئة كافية أن تهدد رفاهنا وتكشف هويتنا. وأن أي رد فعل صعب قد يسبب الخيانة، فلابد من التحلي بالحلم والتأني. ولا يمكننا أن نحس بأننا في وضعية طبيعية، إلا إذا قمت شخصيا بنصف الواجبات المفروضة عليهم، وبالتالي لابد من التوقف يوما أو يومين من أجل أن ترتاح بغالنا، وتهيئة أمتعتنا التي يتلفها الجبل، أي "شوارينا وبلاغينا" وأحذيتنا، التي تتآكل جنباتها بفعل احتكاكها بالحجارة، لكن التوقف وسط الجبل في يناير عند أيت إصحا وآيت سخمان سيكون مغامرة حمقاء، أو غير محسوبة النتائج... واصلنا التحرك نحو الشرق مادام أن الثلج في قممه لم يوقف تحركنا.

ممر تينگرت من الأعلى

وادي واد العبيد، أراضي أيت إصاح

15 يناير

استفقنا على وقع سقوط الأمطار، التي كانت خفيفة وبللت خيامنا، كانت السماء "قريبة"، والقمم مكسوة كلها تقريبا بالثلوج، ظننت لحظة أن فصل الشتاء المتأخر هذه السنة سيبدأ، وأن زاوية أَحنْصال ستكون آخر محطة في رحلتنا الاستكشافية، وأن علينا الانطلاق مبكرا من أجل الوصول إليها قبل أن تكون الطريق غير سالكة. بزغ الصبح، كان الجو غائما لا ينذر بسقوط أمطار، والسحب تلاشت بفعل رياح الجنوب وأزالت الشمس الأخطار والشكوك.

كانت مسافة الطريق قصيرة لكن صعبة، فهي تمتد في شبه منحدر [38] لواد العبيد وتنزل إلى شعاب بها مدرجات حقيقية. توجد زاوية أَحنْصال في عمق هذه الشعاب وسط أشجار العرعار، والمنطقة هنا ليست آمنة تماما، مما جعل "زطاطين" ينبهونا إلى ضرورة أخذ أسلحتنا وإخفائها وراءنا، وهذه احتياطات دون جدوى، ومن حسن الحظ أنها لم تثر انتباه مضيفينا بزاويته، فهم عبارة عن عشرات الرجال يجلسون القرفصاء على عتبة منزل بئيس مبني بالطين، محاط ببنايات أكثر فقرا وغرابة وبؤسا. وظف رجالنا كل أساليب الحوار من أجل إقناعهم باستضافتنا، وبعد أن أنهينا كل عبارات المجاملة، والود أتونا بالتبن، والشعير، والتمر، وخبز الشعير. وهاهي السماء تمطر الآن من جديد بقوة!!

16 يناير

اجتمع "رؤوس" بلاد السيبة من جديد وبشكل أكثر فأكثر، وأكد لنا البارحة شريف زاوية سيدي حسين الحنصالي أن لا أحد يستطيع عبور المنطقة الموجودة شرق الزاوية، وأنه لا يستطيع بنفسه المرور منها إلا وهو خائف. فآيت سخمان "خدام الزاوية" لا يعرفون لا قانونا ولا سلما، وينكثون عهودهم، وينهبون، ويغتالون، ويسرقون ضيوفهم وأقاربهم، وأن القبائل الجبلية الأخرى من آيت عبدي وآيت سْري وآيت حديدو أكثر سوءا. وبطبيعة الحال يبدو المشهد مخيفا، سبق أن

سمعنا قصصا مشابهة لكن لم يتحقق منها أي شيء ولم تثن من عزيمتنا، علما أننا مستعدون لهذا التهديد غير المرئي، ولدينا في الأمثال العربية صور رائعة تجيب أولئك الذين يدعون[39] أنهم سينقصون "فالقافلة تمر، والكلاب تنبح".

وسيدي حساين شريف أَحنْصال، رجل قصير غليظ، يذكرني بقريبي البعيد مولاي أحمد شريف وزان يغلق عينه اليسرى قليلا عندما يتكلم، وتصعد الشفة العليا إلى الأعلى، ويعطيه هذا المنظر طابع ذكاء خبيث وطفولي، لا يعرف التكلم بالدارجة جيدا، لكنه يفهم بسهولة العربية الفصحى التي أنهى دراسته فيها. معلوماته العامة سطحية لكن شاملة، وتحدثنا كثيرا البارحة في الخيمة، ودارت المحادثات أولا حول الشؤون الداخلية للبلد، وكل رحالة يحكي -كما جرت العادة بذلك - مشاهداته التي جمعها في الطريق، وبعد ذلك توسعت المحادثات لتشمل الحديث عن القبائل التي تسكن في باقي العالم: فرنسا، وانجلترا، وإسبانيا، وتركيا إلى غير ذلك... وقدرنا "عمرها" بطريقة غريبة جدا، تركيا عمرها خمسون سنة،! فرنسا ثلاثون!، انجلترا عشرون سنة! العالم الإسلامي مائة سنة!. ويجب عليه أن "يقنع" أتباعه أن رحالة يركب بغلة، أو يمشي على رجليه يستغرق خمسين، أو ثلاثين، أو عشرين سنة ليعبر أراضي هذه القبائل البعيدة. تكلمنا كثيرا عن فرنسا، واحتلالها عين الشْعير، الذي صدم مؤخرا ناس الشرق، وعن بوعمامة وإجابته المليئة بالإعجاب بفرنسا حيث قال "إذا أردتم السلم فسأكون معكم، وإذا أردتم الحرب فسأكون ضدكم". ورجعنا بعد هذه "المحادثات" إلى مشاريعنا وأثار تحليلنا الهادئ الذي وظف مجموعة من الأساليب الدينية، وعدم العناية بالأسلحة النارية سريعة الطلقات راحة مضيفنا بعض الشيء. وجاء القرار النهائي في اليوم الموالي بالموافقة على أن نقيم عندهم، وأن نريح رجالنا، وبهائمنا ونستمتع بضيافة الزاوية. [40] تعرف هذه الزاوية بالزاوية الفوقية، في مقابل الزاوية الأخرى الموجودة في مخرج المضيق في سفح الجبل الجنوبي للأطلس.

مؤسس هذه الزوايا هو سيدي سْعيد من حفدة/ أتباع سيدي محمد أوصالح ولي آسفي، ونظرا لذاكرته القوية سماه شيخه: سيدي حصال أي الذي يقرأ، ويحفظ بسرعة، وأصبحت حصال تنطق بالشلحة أحصال ثم أَحنْصال.

وفي أحد الأيام أثناء رحلة الحج زار سعيد شيخه مكتبة الرسول، وأراد أن يأخذ كتابا ومنعه "القيم" من ذلك، لكن الشيخ تدخل وأخذ الكتاب و"أعطاه" إلى تابعه، وكان هذا الكتاب هو "الدمياطي" الذي يحمل تسعا وتسعين من أسماء الله. فأخذه سيدي سعيد، وحفظه وقرأه على سيدي محمد أوصالح في اليوم نفسه. ومنذ ذلك اليوم أصبح الدمياطي هو ذِكر/"وِرد" زاوية أَحنْصال الذي يقرأ يوميا. ودخل هذا اليوم سيدي حساين الحنصالي إلى القبة التي نقيم بها بنظرات فيها شيء من القلق، وكان يتقدمه خدمه الذين يحملون المأكولات من كل الأنواع، اثنان منهم يحملان خروفا حديث الذبح.

وقال: "سررت لاستقبالكم واستضافتكم، وكنت أريد أن أقدم "مونة" تليق بمقامكم ومقامي، لكن قيل لي إن البلاد تعرف تحركا بسبب إقامتكم. وأن أمتعتكم تثير انتباه أصحاب القوافل، وأن قطاع الطرق يتذاكرون من أجل الهجوم عليكم، فمن الأفضل أن تستبقوا كل هذا وتغادروا حالا".

لم نعترض على هذا الخطاب، فمضيفنا يبدو جديا، والهام بالنسبة لنا هو الحصول على زطاطة حقيقيين. ومادام الشريف قال لنا البارحة إن مرور رواده بل هو أيضا أمر محفوف بالمخاطر، فإن الوسيلة الوحيدة والكفيلة بتأميننا هو حضور شريف أَحنْصال شخصيا، وجعل هذا الطلب المدعم بساعة هدية الشريف يفكر وهو يدير الساعة بين يديه، ويتحدث بصوت خافت مع رجاله، ثم التفت ليقول بعبارة حازمة: "لن يكون لكم من مرشد سواي" [41]

انطلقنا من مضيق "ويفيفن" حيث تختبئ زاوية أَحنْصال، ووصلنا إلى وادي العبيد، واستمررنا في التحرك على الضفة اليسرى يحرسنا شريف أَحنْصال مع ستة من خدامه، واحد منهم فقط يعرف العربية، لكنه كان في كل محادثاته لا يريد أن يعطينا معلومات عن بلاده. والهدف من مرحلتنا ضعيف حيث تتحرك أولا وسط أشجار العرعار والأشجار الصغيرة للأَرز، وتفادينا المرور بالمساكن وتحولنا إلى المشي عبر الجبل حيث لم نصادف في طريقنا سوى بعض التجمعات من الرعاة وقطاع الطرق. وأخيرا وصلنا بعد أربع ساعات من الصعود والهبوط إلى قلاع آيت بولمان الذين يشغلون حوضا عميقا ذا طابع منعزل، وشكل قدومنا الذي أخبر به أحد رقاص الشريف تجمع المئات من الطفيليين الذين اجتمعوا على شكل دائري مسلحين، في حين تراقبنا النساء غير المتأكدات مما يشاهدن من الشرفات.

17 يناير

استقبلنا آيت بولمان بحفلات أحيدوس التي استمرت إلى وقت متأخر من الليل. والرقصات والأغاني هنا مشابهة تماما لبرابر الأطلس المتوسط، حيث تقف النساء والرجال متقاربي الأكتاف، ضابطين إيقاعاتهم بطبال كبير، والمغني يغني أو يرتجل، والباقي يردد وراءه اللازمة. والكل يرقص في المكان نفسه أماما ووراء، والنساء تتحركن بطريقة مميزة على ضوء النار المنبعثة من الحطب المشتعل، فالكل مضيء وسط هذا الحفل، وعندما يقل الحطب تتوقف الأهازيج ويتفرق الجمع، ويغادر المنشدون مثنى مثنى [42].

ممر تينگَرت، الوصول إلى تاسرافت (أيت عبدي)

الدخول إلى ممر تينگرت

ولا تعد المرأة وسط هذه البلاد ملكية مشتركة، لكن عندما تكون فتاة أو مطلقة أو أرملة فهي رهن إشارة من يريدها. والزواج يحفظ قليلا ماء وجهها، وهكذا يفسر أن النساء المتزوجات هن الأكثر "حيوية" في أحيدوس، فهن من تخترن رفاقهن في الرقص بكل حرية تحت نظر أزواجهن، فهن يغنين ويرقصن طيلة مدة الحفل وعندما تنطفئ آخر جمرة مضيئة يطلع النهار.

وتتداول النساء "البربريات" الحديثات العهد بالزواج: "الله لا يرى في الليل!" والرجال كذلك لا يرون شيئا، صحيح أنهم لا يعرن اهتماما كبيرا لأزواجهن، لكنه إذا أبدوا شيئا من التسامح، فإنهم عندما تكون لهم زوجات عديدات يستطيعون تحقيق رغباتهم جميعا، ومن المستحيل مراقبتهن، لأن تعدد الزوجات معروف عند "شلوح" هذه المنطقة، وأن الرجل بإمكانه أن يتزوج ما يشاء من النساء، فيكفي أن يستطيع دفع الصداق، وأن يعطي لأهل الزوجة صداقا ما بين بسيطتين إلى عشر بسيطات. وهذه الأثمنة الزهيدة تعكس حسب الشريف الحنصالي الذي يعرف حقيقة الأعراف "البربرية" تفوق الرجل، وطاعة المرأة، وأضاف بنبرة ساخرة "رغم هذا الثمن الزهيد فإن الرجل مغفل، مادام أن المرأة دائما قبيحة الوجه ومتسخة ونادرا ما تكون بكرا، وليست وفية أبدا". وهذا الكلام كله قاس في حق مضيفينا، لكن هذه المساوئ كلها نجد لها مقابلا، فهن كلهن غير مباليات ولا مهتمات. ولم يقبلن قط كما أكد لنا الشريف قرشا من أصدقائهن، كما أن حليهن بسيطة، مكونة من بعض الخواتم في مؤخرة أصابع اليد اليسرى، وأساور من فضة أو نحاس، هدايا من الزوج أو من العائلة. ويلبس الرجال في الأذن اليمنى قرطا من الفضة، وعندما يتحركون يرفعون هذا القرط إلى الأعلى رغم ثقله يكاد يجرح "حلمة" الأذن، ويمررونه فوق الأذن [43]. والأطفال بالكاد مكسوون، الذكور منهم يلبسون "خيدوسا"، والإناث ليس لهن سوى قميص من قطن أسفل "حنديرة متعددة الألوان".

استفقنا صباح اليوم على وقع مناقشة حادة، فمضيفونا يتنازعون بخصوص مسألة دنيوية، وتوجهوا نحو شريف أَحنْصال بشكل فيه كثير من التقدير، وسكان القلاع المجاورة يتابعون المناقشات

من أعلى شرفاتهم، ويتبادلون النداء بينهم بنبرات جبلية أو صحراوية "إي موحى أو ميمون، ايه" و"موحى ولد ميمون". وظهرت أخيرا "الحسوة" التقليدية، وهي عبارة عن سائل من الطحين تسبح فيه مربعات لحم الغنم. ولم يقدم الفطور إلا في الساعة الحادية عشرة. ويتكون دائما من الكسكس فوقه نصف خروف. يحضر مضيفونا لوجبة الأكل لكنهم لا يتقاسمونه معنا، وقالوا لنا إن العادة جرت بأن لا يجلس المضيف مع ضيوفه للأكل إلا إذا كان هو من دعاهم شخصيا. والحال أن القبيلة هنا هي من استضافتنا، والتفاصيل والتقاليد المتحكمة في العملية محط اتفاق جماعي، فالشيخ هو الذي يحدد الأدوار، وكل واحد من أهل القبيلة يأتي بطبق ويكون ذلك مصدر فخر له، وإذا فضل شيء يتناوله مع أصدقائه.

انتهت الوجبة بتفكيك الخيام، وتحميل البغال، وتمت هذه العمليات كلها في احترام تام وتأن واضح، فلا داعي للعجلة، خاصة أنهم يقولون: "الله أعطى الفرس أربعة أرجل والقوة، وأعطى الإنسان رجلين والشرف".

عدنا إلى المسير من جديد حتى اقترب الزوال في اتجاه الشرق دون هدف محدد، متفادين فقط واد العبيد ومنعرجاته الخطيرة، وأصبحت غابة البلوط أقل كثافة، وفي الأسفل أحجار كلسية رمادية أو حمراء، مع تربة حمراء ممتدة على طول هذا المجال الذي أقمنا فيه منذ بضعة أيام [44]. توقفنا وسط عدة أشجار كثيفة، بمنطقة "متوحشة" كثيرا وفوجئ هؤلاء الرجال المساكين بزيارة الشريف أَحنْصال الذي جاء ليضرب خيامه بالقرب منهم، وقدموا لنا الحليب الرايب (اللبن)، وخروفا، وطلبوا منا معذرتهم لأن فقرهم لا يسمح بأكثر من ذلك. هبت رياح باردة جدا من الشرق حركت خيامنا بطريقة مخيفة. هدأت الرياح، وسقطت بعض الأمطار القليلة، فوق القمم الثلجية "العريضة" مما جعل مخيمنا يبدو في صورة سيئة. وكانت بغالنا في حالة سيئة حتى إن قوائمها أصبحت غارقة في الوحل المثلج !

ساحة تاسرافت

واد واعز، مضايق تيفلوين نعطاش

18 يناير

هطلت الأمطار طيلة الليل، وهبت رياح قوية حوالي الساعة السابعة، انقشعت السحب وظهرت الشمس من جديد، وفتح الرعاة حواجزهم الخشبية التي كانت تحمي قطعانهم من اللصوص، والأسود، والفهود، والضباع. واصلنا الصعود في جبل تينگرت الذي يحجب عنا منذ يومين النظر إلى الجهة الجنوبية الشرقية. كان الصعود يتم وسط قممه الثلجية، وأصبحت أشجار البلوط أقل ظهورا، وترك المجال لأشجار العفص الجميلة المشابهة لما نجد في غابات بني مگليد. قمة الجبل ليست "جرداء" وصخرية وتختفي اليوم تحت قممه الثلجية. ونرى من تينگرت كل المنطقة الموجودة بين وادي ملوية وجبل إيخناين من هذه الجهة من الأطلس المتوسط. يتكون المجال من مكانين للتوقف، الأول الأكثر توسطا منعرج مثل جرف، والثاني الذي يكون "الصوح" الشمالي من وادي العبيد أقل ارتفاعا توجد به عدة مناطق استراحة، ويمتد على مرمى البصر في اتجاه الشرق حيث يطل "ظل" جبل كبير معزول هو جبل توجيت الذي ينبع منه واد ملوية وواد العبيد الذي يجري أحدهما في اتجاه الشمال الشرقي ليصب في البحر الأبيض المتوسط [45] في حين يجري الآخر في اتجاه الغرب ويصب في المحيط الأطلسي.

ها نحن نقترب من جديد من الهدف الذي عانينا كثيرا من أجل الوصول إليه. ولأول مرة أحصل على نتيجة الفرضية التي أسس عليها مساري وهي: أن الأطلس المتوسط والأطلس الكبير مفروقان بوادي، موجه حسب نصف الزاوية المكونة من سلسلتين، وأن اتجاههما يمتد إلى أعلى واد ملوية، وينفتح هذا الوادي بين مراكش والجنوب الجزائري وهي طريق التواصل التي نبحث عنها. اقتربنا كثيرا من الأطلس الكبير لنرى من مقدمات في الجبال التي يشكل جبل تنگرت أحدها، ولا أحد يمكن أن يتصور بؤس هذه المناطق المعزولة، وسط الصفائح الصخرية المغطاة بقممه الثلجية التي تشع بياضا في اتجاه السماء...

ويحمل مضيق تينگرت اسم مضيق الريح: أگرض نوادحو، ويؤدي إلى وادي تاسْرافت التي ننزل منها عبر الأدراج رجالا وبغالا بطريقة حذرة في قممه الثلجية. كنا نتحرك بصعوبة، وأرشدونا في الطريق إلى آثار مقبرة مختفية في هذه الصحاري... وهناك بعض القطعان ترعى وسط هذه المنحدرات الثلجية باحثة عن الأعشاب النادرة. البرد قارس تجمدت معه الطريق التي نسلكها، ويظهر قبل دخول تاسرافت دوار من خمسين ومائة كانون لآيت عبدي، وسيكون هذا المجال هو مكان توقفنا. سكان المنطقة لطفاء ومضيافون، يستغلون كل الأراضي الصالحة للفلاحة، يبدون أغنياء لكن فصل الشتاء يحاصرهم كليا في أماكنهم، حيث يصل ارتفاع الثلوج إلى كل أسقف المنازل، مما يفسر التسمية "البربرية" لهذا المنظر: تاسرافت أي الفخ أو "المطمورة".

19 يناير

بزغ الصبح، والرياح تهب في اتجاه إلى الغرب، علينا الخروج [46] بأكبر سرعة ممكنة من تاسرافت، التي استقبلنا فيها بحفاوة كبيرة، وكان انطلاقنا مصدر إشاعات وقلاقل وسط الجماعة، فالتف الرجال حول الشريف طالبين منه "الدعاء" والنساء تمد بأجسام أبنائهن في اتجاهه، ويتزاحمن على تقبيل ملابسه راجيات بركته إلى درجة أنهن يقبضن على أيدينا بحرارة بل وبقوة أحيانا. والرجال هنا قبيحو الوجه، وجوههم "قوية"، أنوفهم غليظة، وآذانهم كبيرة، وأفواههم واسعة، وأسنانهم كبيرة، وبشرة وجوههم متأثرة بأشعة الشمس التي تؤثر على التجاعيد العميقة. والنساء مخيفات ينفر منهن البصر، طلين وجوههن بالحناء، ويغطين شعرهن بمناديل بخسة الثمن.

أراضي أيت عبدي، الخروج من مضايق تيفلوين

واد واعز، مضايق تيفلوين نعطاش

وسيعيننا "المقدم" الذي ساقنا إلى تاسرافت للخروج منها، فاتجهنا في طريق إلى واد أوعز، الذي يجري بين سلسلتين كثيرتي الأشجار خاليتين من السكان تلتقيان فجأة، وتجعلان الواد محصورا في صوحها الجنوبي.

ويظهر مضيق تيفلوين نعطاش على مرتفعات ما بين أربعمائة إلى خمسمائة متر علوا وهي "حوشية" وكبيرة تهب منها الرياح بقوة تنهكنا كثيرا، لأن "الخيدوس"، (السلهام "البربري") صمم للخيالة وغير عملي أثناء المشي خاصة مع الرياح. وبالخروج من هذه المنطقة الكبيرة المفتوحة في الصخرة الحمراء، يجري واد أوعز عبارة عن ساقية طبيعية من مئات الأمتار عرضا، جوانبها مستقيمة كسكة حديد، نحتت في الصوح الشرقي متوسطة الارتفاع مربوطة بحافة من ستين سنتميرا عرضا. ولكل "مقصورة" / غرفة لها باب خشبي متين ويقفل، ولا يمكن للمالك أن يفتحها إلا بحضور الحارسين اللذين يكونان في أقصى الجانبين لهذا الإفريز "الكورنيش" الطبيعي[47]. امتدت مرحلتنا إلى مساء اليوم حيث وصلنا إلى أفرضا على ضوء القمر، وسط الأهازيج وطلقات النار والصراخ بالفرح، ويعكس هذا الاستقبال الحظوة الكبيرة التي يتمتع بها مرشدنا شريف أحنصال المحبوب والشهير كثيرا.

20 يناير

تعتبر أفرضا أو تفرضا قرية ويسمى سكانها آيت أوفرضا، ولا نرى أي قلاع ولا أي "آلة حربية". وتؤثث المنازل هذه الهضبة، بشكل متواز بطريقة ليس فيها أي هاجس دفاعي، وهي عبارة عن منازل صغيرة، بأسقف مبنية بالحجر أو التراب يتداخل لونها مع لون التراب، ولهذه المنازل كلها أبواب خشبية كبيرة تعطي الانطباع بالسخاء الكبير. ينعقد سوقها الأسبوعي الثلاثاء (العربة) أقمنا بهذه القرية ولم يخف السكان الفقراء أن قافلتنا المكونة من ثلاثة وعشرين رجلا وأربع عشرة حيوانا عبئا ثقيلا عليهم. لكن الواقع حقيقة أنه لا يمكن أن نستمر في المشي دون أن أخذ يوم راحة، فلم

تعد "لبلاغينا" أحذيتنا نعال، ولا لبغالنا حذاءات ولا مؤونة ب "شوارييننا" وأجسامنا وسخة جدا... وأفرضا قرية هادئة، في مكان جيد و كان بها خراز وحداد في خدمتنا، وأقمنا إذن لنرتاح أكثر ونستمتع بالضيافة التي نتمنى أن تطول أكثر. وجاء أحد أعيانها ليدعونا إلى إحدى وجبات الطعام الخفيفة بمنزله الموجود في ظهر الهضبة في اتجاه الشمس، وهذا من أحسن الأماكن وأحسن المنازل المبنية في أفرضا، أسوارها متينة وعريضة تبلغ أكثر من متر، مسقفة بأسقف طينية عريضة، ليس بها نوافذ ولا فتحات لرمي الرصاص، وتوجد بها ساحة قبل المدخل محاطة بغرف عالية تستعمل إسطبلات الحيوان في المراعي، والبغال والأبقار تحرث لأن العملية ما زالت مستمرة في هذا الموسم [48]، والقطعان ترعى في الجبل وكل ما يوجد في هذا المكان هو بغلة عجوز "شهباء"، وبعض الدجاجات، وكلبان ينامان في الظل.

سارعت نساء مضيفنا لتقبيل أيدينا، والترحيب بنا طالبات منا تجاوز عتبة المنزل والدخول، كان الباب من خشب البلوط، متينا يدور حول عمود خشبي، وتغلق بعمود آخر يغرس في الحائط. ويتكون المنزل من غرفتين الأولى من عشرة أمتار طولا وأربعة عرضا، وبارتفاع ثلاثة أمتار، الثانية أصغر منها على ارتفاع مترين ومعزولة عن الأخرى بجدار منخفض لا يرتفع إلى السقف، ونصل إليها عبر حفرة منحوتة في الجدار. تستعمل الغرفة الأولى مطبخا، وقاعة للاستقبال وغرفة للضيوف، والثانية قد تكون لنوم سيد المنزل، ومكان لتخزين الحبوب.

أحسسنا عند دخول هذا المنزل ببرودة وهدوء لافتين، وظلت هذه الغرفة دون نوافذ تتقاطع مع الضوء المنبعث في نصف يناير، وضوء النهار لا يدخل سوى من الباب، وعندما تكون مغلقة يتسرب الضوء من شقوق الباب الذي يخرج منها أيضا الدخان، المنبعث من نار مشتعلة في الركن الأكثر سوادا، وتوجد ثلاث نساء جالسات على ركبهن حول قصعة من الخشب تهيئ بركوكس، "بركوكش" الذي سيقدم لنا.

المشهد بئيس، وبسيط، فالرجال يجلسون على شكل نصف دائري، فوق أرض مفروشة بزربيتين كبيرتين من الصوف سميكتين، غير مصبوغتين، يوجد الجد في الوسط، وهو رجل عجوز ملتح به تجاعيد كثيرة، ومضيفنا حفيده، والآخرون هم أقاربه المقربون إخوة وأحفادا. مكننا تاجر عابر يعرف العربية من الترجمة لأن رجال أفرضا لا يتكلمون سوى لغة تامزيغت ونجد كل شيء في هذه الغرفة المشتركة، قطع الخشب الموضوعة قرب النار، وأكياس الشعير والقمح موضوعة على طول الجدار. ونلاحظ في الظلمة "المنسج" الذي تعده النساء من أجل نسج [49] حنديرات و"خياديس" صوفية، و"بطانيات" لازالت رائحة تجفيفها حديثة، ثم معدات المحارب مثل بندقية، وجبيرة من الجلد بها مسامير، وقرن عنزة أو أروي تستعمل لتخزين البارود، و"صنبور"، وحزام رصاص، وميزان بارود معلقة على الجدار. الكل أسود اللون بفعل الدخان، والسقف محمول فوقه خشبتان، ودعامتان

من البلوط. وقفنا من خلال طبيعة البناء، أن أرضها صخرية، وأن الغابة قريبة، الكل متراكم لكنه صلب، وهناك أشياء لافتة وسط هذا المنظر البدائي مثل: البندقية و"البراد الانجليزي" وعلبة السكر، وقطع السكر المكسرة بحصاة كبيرة، والصينية النحاسية المنقوشة، وكؤوس الشاي الصغيرة من صنع ألماني تحمل "قبحا" ألمانيا في شكلها. قدم لنا أولا "بركوكس"، حملته امرأة أكبرهن سنا في قصعة من الخشب كبيرة، وضعتها أمام الشريف وصبت عليها الزبدة.

شربنا الشاي المعتاد بعد "البركوكس" في أجواء من المجاملات، والمحادثات الأخوية الموزعة على كل الأقارب المجتمعين على شكل نصف دائري حتى أنهينا أطباقنا، في حين أن النساء بقين متنبهات وصامتات وهن يغلين ماء الشاي ويمررن الماء الدافئ (لغسل الأيدي). كانت إحداهن كريمة، وجميلة بعض الشيء، وثلاثتهن نظيفات بشكل لافت، ويتكون لباسهن السفلي من قطعة ثوب أبيض محزوم بحزام، ومربوطة إلى الكتفين بطريقة أنيقة وجميلة، وشعرهن مصفف إلى الأعلى أسفل منديل حريري أسود وأحمر يغطيه، ويحيط به شريط حبل حريري يمسكه، والشعر مقطع بشكل قصير في الخلف، ويحتفظن فقط بضفيرتين في جانبي الرأس، والأنيقات منهن يتركن الشعر يظهر من خارج المنديل [50].

كان الجيران والأقارب والأصدقاء طيلة الوقت الذي قضيناه في تناول وجبتنا يدخلون، ويخرجون، ويشاركون في الحديث بكل عفوية ودون شكليات، ويمكن للنساء أن تدخلن بكل حرية، وتأتين بأطباقهن لتنال دعوات الشريف، يطلبن بعض التمائم أو الأدوية. وجاء مضيفنا للشريف بزوجتيه الحديثتين في الوقت الذي كنا نستعد فيه للوقوف والخروج، وقال بكل براءة، إنهما لا تكفان عن الخصام طيلة اليوم وطلب منه أن يصلح بينهما، أنحنت أكبرهن أرضا ووضعت جبهتها على أرضها ويديها وراء العنق والثانية امرأة صغيرة السن. وقال إن زوجته الأولى تقوم بدور المدبرة المالية، وهي "القائدة" وسيدة المنزل، والثانية أرملة أخيه تزوجها من أجل تربية أبنائها، والثالثة هي المفضلة، وتعلم مكانتها عند السيد وكانت تستمتع بإغاظة الأخيرتين. انتهت أمسيتنا في كسل مريح، الكل مكتف أفرادا وأمتعة، البال وحده مشغول، حيث أصبحت شروط حراسنا لا تطاق، وكان رجالنا يحتجون في كل لحظة وحين تفاقمت الصراعات بين خدمنا وخدم الشريف، وكان موضوع خصامهم دائما هو الحراسة الليلية، والتناوب على المشي والركوب أثناء تحرك البغال في الجبل، ويحدث أحيانا أن أكون الوحيد الذي يمشي راجلا أثناء تحرك القافلة... كان مولاي الحسن منزعجا من هذه الوضعية، وكان يتنبأ بأن الوضعية ستزداد سوءا كلما اقتربنا من الجنوب ومن قبيلة رجالنا، وأنه سيُقتل مع قسم من رجاله بواد درعة، وما يهيجه هو أن يرى سلطتي تتزايد بالمقارنة مع سلطته.

وادي واد ويغين في أعالي واد العبيد

أعالي وادي واد ملوية (الضفة اليسرى)، مخيم تاونزا، غابات البلوط بأيت عيسى

والخطأ ليس بسببي أو بسببه وإنما قريبه مولاي عبد الله، العجوز الذي يكون أول المستفيقين وآخر النائمين ولا يتعب في الطريق ولا يشبع عند المائدة ويدعي أنه يقود رجالنا مثل زنجي [51] قافلته.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه التجربة أنه لا يمكن أن يكون في هذه البلاد في بعثة مثل هذه سوى نوعين من الحرس الخاص بالقوافل، الأول: هم حرس من الخدام الدينيين. وأتباع الشريف الذين يكونون تحت أوامره، ولا يتقاضون أي مقابل إرضاء لشريفهم. وأعجبت بهذا النوع من الحرس أثناء الرحلة التي قمت بها سنة 1900 مع شريف وزان. ثم إن "خداما" من خارج البلد لا تربطهم أي صلة بالمجال سيكونون أوفياء ومخلصين مثل تجريدة من الرماة، أو السبايسيين الجزائريين، أو السودانيين.

21 يناير

نستمتع -استثناء- بفصل شتاء دافئ ودون ثلوج، والناس يحيطون بشريفنا المرافق بهالة من الاحترام. وحكي لنا بعض "الغرائب" عند وصولنا من مثل أن فخذة من آيت سخمان فكرت في الأسبوع الماضي أن تهاجمنا ليلا لتنهب أمتعتنا وذبحنا، وكانت الليلة هادئة ومقمرة وسط الغابة، لما أراد قطاع الطرق القيام بذلك حل ظلام دامس جعل تحركهم مستحيلا، وحاولوا تكرار الأمر ثلاثا، وفي كل مرة كان الظلام يمنعهم، وفي هذا الصباح جاء ثلاثة منهم منحنين على أرجل الشريف مصرحين علانية بخطئهم طالبين من الشريف عفوه، ومتوسلين رضي مولاي الحسن... وهذه هي المرة الأولى التي جعلتني أحضر مثل هذه المشاهد التي لا أصل لها في العادات والتقاليد الإسلامية.

انطلقنا باكرا جدا خائفين من سقوط الأمطار، فاتجهنا نحو جبل توجّيت الذي قيل لنا عنه إنه منبع واد ملوية وواد العبيد، وللشريف أمهاوش زاوية تسمى سيدي يحيى أو يوسف. وفي هذا الطريق قطع لعدة روافد لوادي العبيد ثم واد العبيد نفسه، ويحمل هنا أسفل واد واويغين، الذي يجري بهدوء [52] فوق سرير من الحصا الكبيرة، وسط هضاب كثيرة الأشجار، ولم يصل قط عرضه إلى خمسة أمتار، ويصعب اجتيازه في فصل الشتاء عندما تسقط الثلوج كما تشهد بذلك بقايا الأحجار الكبيرة التي جلبها من بعيد وكذلك جذوع الأشجار المترامية على أطرافه. وتنتظرنا مفاجأة في الجهة الجنوبية إنها الهضبة التي وصلنا إليها بمجرد خروجنا من هذا "المستنقع" الجبلي حيث كنا نمشي كالعميان، لانرى شيئا سوى ظهر التلال التي تعج بأشجار العرعار والبلوط، والأجراف الموجودة على طرفي الهضبة، والقمم الثلجية في أعالي الجبال حيث وجدنا أفقا مستويا وهو الأول الذي صادفناه منذ خروجنا من مراكش، والواقع أن هذه الهضبة لا تبلغ سوى خمسة كلمترات عرضا (في الشمال الجنوبي) في حين يحدها في اتجاه الشرق بداية عدة تلال. وتمتد سلسلة جبال الأطلس المتوسط نحو الشمال، ويبدو أن قممها العالية لا تصل إلى ارتفاع ألفي وخمسمائة متر، يسكنها قبائل آيت سْري، وآيت إحاند، وآيت إشقيرن، وآيت اسحاق وتوجد أراضيهم في الحدود مع هضبة تادلة. وتحدها سلسلة الأطلس الكبير جنوبا، تبدو كلها بيضاء، صعبة، وغريبة يعبرها مضيق يصل بين أفرضا وتودغى.

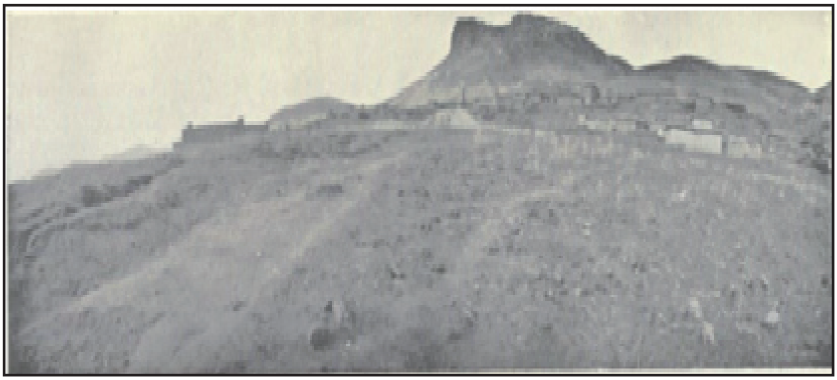

زاوية أغبالة، إقامة الشريف سي علي بن المكي أمهاوش

أعلى وادي واد ملوية، في عمق الأطلس الكبير

وصلنا بعد ساعتين من المشي سرير واد كبير، حيث توجد قرية تيغگدن فوق تلة صخرية مرتفعة، والحقول الموجودة في جنباتها مستغلة جيدا، ودخلنا هنا إلى مجال نفوذ الشريف الشهير سيدي علي أمهاوش أقوى شخصية في الأطلس وأعتاها، ومقر إقامته الرسمي هو زاوية أغبالة وسط الجبال الكثيرة الأشجار.

وأغبالة مدينة مقدسة "حُرُم" وشيخي لا يمكن أن يهاجم، فلا تحميه أي طريق صعبة توصل إليه، ولا يستطيع أي غريب أن يتعدى بابها لأنه سيوصف بالوصف الشنيع، ففيها يذبح اليهود ويحرق رسل أو مبعوثو المخزن، [53] ففي هذا المكان اغتيل سنة 1894 -وبطريقة وحشية -مولاي سْرور العم الشقيق لمولاي عبد العزيز الذي كان مبعوثا من السلطان وضيفا على الشريف.

توقفنا على بعد ثلاثة كلمترات من الزاوية لنبعث "بزطاطنا" "أمغار" بن ناصر ليطلب الضيافة من الشريف أمهاوش. ويقول له: إن هناك شرفاء وغرباء على مشارفه، وقال صارخا: أين سآويهم؟ ولما علم أن لنا مخيما، وخدما، قال لنا بأنه مرحب بنا. وأثناء هذه المفاوضات السريعة بدأت الأمطار في الهطول، ودخلنا أغبالة وسط جماعة من الرجال مغطين رؤوسهم ينظرون إلينا بكثير من الحذر. جاء سيدي أمهاوش يقبل يد مولاي الحسن ويعين لنا مكانا لنصب المخيم. وقال لنا إنه استقبل منذ يومين بريدا بعد الآخر من أجل أن يذهب عند أخيه المريض، وأن قوة غريبة كانت تمنعه... وفي اللحظة التي علم بها بقدومنا توصل برسالة تشير إلى أن أخاه شفي فجأة، وهذا الحدث المزدوج ليس من قبيل الصدفة، فقد وقف سيدي علي على "بركة" ضيفه، وها نحن مستقرون في الزاوية العجيبة في قلب الأطلس !. . .

22 يناير

لا يمكن رؤية أغبالة عن قرب مثلها مثل جميع المدن المغربية. فتبدو من بعيد مدينة منتصبة في ظل الجبال والغابات. مدينة "مقدسة"، لم تدنسها أقدام الأجانب وتعيش وسط أساطير غريبة. والواقع أنها ليست سوى تجمع منازل كبيرة، مكعبة الشكل مبنية بالطوب الأحمر، ومسقفة

بأسقف مستوية ملتفة حول قلعتين أو ثلاث قلاع. ولا شيء يفسر ما يحاك حول عادات سكانها وطباعهم من عنف. لكن إذا كذبت أغبالة أفق انتظاراتنا، فإن شريفها سيدي علي [54] أمهاوش قد عوضنا عن ذلك، فهو أحد أكبر الزعماء الدينيين للمغرب منذ وفاة سيدي العربي الدرقاوي الشخصية الدينية الأكثر قوة في الجنوب الشرقي.

وادي واد ملوية، في عمق جبل العياشي (الأطلس الكبير)

منابع واد ملوية، في العمق يسارا : الأطلس المتوسط، ويمينا الأطلس الكبير

فهو رجل يبلغ حوالي خمس وأربعين سنة، طويل القامة كثير بياض البشرة، وشعر كثيف بشكل لافت، ولحيته "متداخلة" طولا مع شعر رأسه الذي يغطيه بقطعة ثوب بيضاء، وأنفه مقوس بعض الشيء، وعيناه واسعتان ويقظتان، وفمه واسع بأسنان كبيرة، وصوته قوي ومخارج حروفه مضبوطة، وإشاراته واضحة، وتأدبه يخفي قوة طبعه. ونحس في محادثاته بنفحة المحارب السلطوي فقد خلق ليحكم وليحارب.

حكى لنا سيدي علي بن المكي أمهاوش نسبه وتاريخه، فهو من سلالة الشرفاء الأدارسة الذين أزاحتهم عائلة الشرفاء العلويين الحاكمين الآن، وهذا ما يفسر حقده ومعارضته للسلاطين. وكان أحد أجداده الأوائل الذي يحمل اسم أمهاوش هو سيدي علي أوحساين، خلف عشرة أولاد، وجمعت بركته الروحية لابنه البكر سيدي محماد أوعلي المشهور باسم سيدي محماد أوناصر الذي خلف ست عشرة ولدا، وترك بركته لسيدي طلحة الذي نقلها إلى ولده سيدي المكي والد سيدي علي أمهاوش.

وتلقى سيدي علي تكوينا فقهيا قويا من شريعة ونحو، وقضى طفولته بين أغبالة، وفاس، ومكناس، ومراكش، وقبيلته هي آيت إشقيرن، وسمى "سلطان الجبل" وأعطاه هذا اللقب شيخه سيدي الهواري مؤسس الزاوية الدرقاوية بفركلة، ويقطن أحيانا بأغبالة بفخذة آيت عبدي، وتارة أخرى بتيحونا عند آيت إيدر، وتارة أخرى بثلاث نواعراب قرب زاوية سيدي يحيى أويوسف بمنابع واد العبيد، وهو متعدد الزوجات فله في كل إقامة زوجات وأطفال وخدم. علما أن يحيى أو يوسف يعيش في البساطة التي [55] تطبع حياة درقاوة الذين يعد الآن "مقدمهم" الأكثر قوة وتفهما. ومنزله الذي استقبلنا فيه في أغبالة عبارة عن ساحة كبرى مبنية بالطوب، وأغصان أشجار البلوط. وتذكرنا طبيعة الغرف ببناء الخلوات، والمنازل الفارغة التي تمثل في كتب المناقب عند المسلمين، دليلا على العزلة والاختلاء.

وقال: انظروا إلى بؤسي فهل هذا الوضع يستحق أن يقال عنه إني "فقير" طامع في الحكم...!؟

وحكى لنا سيدي علي عن "ترتيباته" مع السلطان مولاي الحسن، وكان حريصا أن يحكي لنا قصة مقتل مولاي سْرور التي اتهم بها ويشرحها بالطريقة التالية:

"ففي السنة التي كان فيها مولاي الحسن يتحرك ضد الثوار من غياثة (1892)، اختار آيت عيسى فخذة من آيت سخمان "القايد" الدرتاتعي قائدا لهم وهو شخص معروف بصدقه واستقامته، وأراد المخزن أن يفرض عليهم أحد المحسوبين عليه الذين صنعهم سيد أوباسو وكان مولاي سْرور يعسكر عند السراغنة وتلقى الأوامر بأن يساند "مرشح" المخزن وأن يدعمه بحرْكته. ذهب عم السلطان عبر بلاد زيان مع مائتي من فرسانه فقط، ودخل دون أخذ الاحتياطات اللازمة في مضيق تيغانمين الذي يربط بين وادي ملوية وأغبالة، وكان آيت عبدي ينتظرونه خلف الأشجار، فأغاروا عليه فجأة بإطلاق الرصاص والصراخ بقوة، ذعر الفرسان المرافقون له، وارتمى بعضهم على بعض وتزاحموا وتقاتلوا في هذه الأجواء، وقُتل مولاي سرور، و"ذبحه" أحد البدو دون أن يعرف من هو. واعتبر السلطان أمهاوش مسؤولا عن هذا، فجهز في العام الموالي حرْكة من أجل "إخضاع" آيت عبدي واعتقال الشريف، فخاف البدو وتركوا سيدي علي وحده مع "القايد" محماد أولباز، ومائة وخمسين بندقية (فارس) فأحرق منازل أغبالة وصعد إلى الجبل، حيث قضى شهرا كاملا في تقتيل الفرق المخزنية [56].

ورغم ذلك كثرت المحاصيل، وكانت النساء، والأطفال، والقطعان يتحركون بحرية في الجبل وازداد عدد أتباع الزاوية. أشفق سيدي علي على أتباعه وبعث "القايد" الباز ليذبح أربعة عجول أمام قائد الحرْكة دليلا على الطاعة والخضوع، فانتهت المهمة. وعاد رجال المخزن من حيث أتوا، وأبلغ السلطان إلى الشريف أمهاوش أنه سيعفو عنه وأنه سيكون مسرورا باستقباله في القصر، لكن سيدي علي لم يكن متحمسا لهذه الدعوة، ومنذ ذلك الحين وهو يكتفي بدور المدافع علما أن جاره "قايد" زيان يراقب أدنى تحركاته، ويطلب رأسه بالثمن الغالي، وآخر من أقدم على هذه المحاولة أحد "الجنود" المخازنية الذي كاد يصيبه بطلق من بندقيته بفركلة، وأوقفه درقاوة الغاضبون وأحرق بسرعة".

هذه هي الرواية التي حكاها لنا سيدي علي، وأكد لنا "القايد" أولباز الرواية بالأمازيغية لأنه لا يعرف العربية. ومن الواضح أن علينا أن نكون متيقنين أننا في ضيافة هذا الشريف المتعصب، وأننا سنجده، وأن كل محاولاتنا تدور ببال هؤلاء الجبليين بالأطلس، لقد قلت إنه كان درقاويا، وتزوجت إحدى بنات سيدي با بن سيد الهواري الابن الأصغر لمؤسس الطريقة سيدي العربي. وهناك تفصيل لابد من أخذه بعين الاعتبار وهو أن هذا الشريف المتعصب هو من أتباع شريف تامصلوحت الذي كان درقاويا أيضا و"شيخ" آيت عطا وهو محمي أنجليزي وصديق كبير لفرنسا الذي طلب مني حمايتها.

23 يناير

انطلقت في الساعة العاشرة والنصف، رافقنا سيدي علي وأحسسنا بفخر بذلك إلى أن عبرنا القبائل الخطيرة لآيت عبدي [57] وآيت إحاند، وكان يدلنا على طوبوغرافية هذه الجهات وتاريخها التي يعرفها جيدا. صعدنا أولا إلى مضيق تيغانيمين بعد أن عبرنا العتبة التي تفرق بين الحوض الأطلنتي والحوض المتوسطي فهنا قتل مولاي سْرور. كانت الطريق سهلة حيث وصلنا في ساعة قمة المضيق الذي تبدو منه الرؤية رائعة، ويشكل الأطلس في الغرب مصدر فوضى وبلبلة لا يمكن عبوره ويمتد في عرف جبل بوگماز في تلال الأطلس المتوسط. ويوجد بجنوب الأطلس الكبير جبلان كبيران الأول: جبل مكرور في القدم الذي يمر منه مضيق أَحنْصال، والثاني جبل مْعسْكر الذي يشمل مضيق إيغيل الذي نصل منه إلى أغبالة أو تودغى. وتحمل الجبال الموجودة شمال الأطلس المتوسط أسماء القبائل التي تسكنها، ويعرفهم الشريف أمهاوش بطريقة جيدة حيث يردون من الغرب إلى المشرق على الشكل التالي: آيت سْري ثم آيت أُحودي ثم آيت ويرّا، ثم آيت اسحاق ثم آيت إشقيرن ثم بني مگليد، وتنزل من هذه القبائل في اتجاه سهلي تادلة وزيان. لكننا تعبنا من المشي في هذه المناطق الجبلية منذ أسبوعيين، ومكنتنا من الوقوف على قوة المنطقة، وأن فضولنا يتجه نحو الشرق، نحو السهل الكبير لملوية الذي بدأنا نعبره بين الأطلس المتوسط، والأطلس الكبير التي ستبدأ في الاتساع نحو اللامحدود مثل خليج.

أحسست بإحساس جميل وأنا أعبر الجبال المزينة بشجر الأرز لبنى مگيلد، وجبل حيان ثم بعد ذلك نحو الجنوب الجبال المغطاة بالقمم الثلجية لعاري وعياش، والأطلس الكبير الذي عبرته وصعدت إليه سنة 1901. وأغلقت منذ الآن مساراتنا بطريقة ملتفة ومستمرة من طنجة إلى تزنيت، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي. ورؤية تشابك الوديان العلوية لواد العبيد وملوية، وهذا حدث جغرافي هام حيث يتقاطع المجريان المائيان مفروقان بسلسلة غريبة مثل حاجز في الجنوب الذي يمر منه واد العبيد من الشرق إلى الغرب، في حين أن ملوية يجري في الشمال من الغرب إلى الشرق [58].

كان جبل تجّيط (الجرباء) هدفنا خلال المرحلتين الأخيرتين وهو العنصر الأول من هذه السلسلة، والثاني يحمل اسم أوجّيط (الأجرب). وتوجد زاوية سيدي يحيى أو يوسف فوق المرتفع الجنوبي لجبل تجيط، وينبع ملوية من الفج الشمالي عبر ثلاث عيون: سيت، وتنوت وتامجوط

نتاغبالو. وأخيرا رأينا بوضوح ثلاث محطات فتحات وثلاث فجوج في الأطلس الكبير: فج إيغيل الذي أشرت إليه سابقا والذي يؤدي إلى واد تودغى، وفج تونفيت الذي يطل على منفذ في وادي واد غريس، وفج زاوية سيدي حمزة الذي يؤدي إلى واد زيز وتافيلالت. ورسم لنا سيد علي أمهاوش نفسه الذي يعود له الفضل في جمع هذه المعلومات، مجسما يشرح فيها أماكن استقرار قبائل هذه المنطقة جغرافيا، وأمدنا كذلك بمعلومات عن بداية أسلمة "البربر" ألفها في القرن الثاني عشر عمه الأكبر بوبكر، كما تشير إلى الحرْكة التي كان السلطان مولاي الحسن يقوم بها بعد مائتي سنة ضد زاوية أغبالة، وكان سيدي علي يشرح المخطوط ويعلق بالعربية على أي كلمة "بربرية".

واد ملوية، جنوب أزرزور، ويبدو الأطلس الكبير في الأفق

سكان قصر أزرزور (أيت إحاند)

وصلنا بعد عبورنا لبعض الوقت بداية نهر ملوية الذي يسميه الأهالي هنا أسيف نملويت ويمتد في المنحدرات الجنوبية لجبل توجيط إلى الفج الجانبي الأيمن للوادي بغابة البلوط بآيت عيسى ووجد الشريف أمهاوش أن عدد الفرسان الذين جاءوا لاستقباله ضعيفا، فرفض أن يضع رجله في أراضيهم، وجعلنا نضرب مخيمنا عند آيت يحيى الذين ذبحوا بسرعة متناهية خمسة خرفان احتفالا، وبنوا خيمة كبيرة سوداء سيستقر بها الشريف وحرسه. وقدموا لنا ساعة بعد وصولنا كِلية الخروف، والكبد المشوي (بولفاف) [59] وفي اليوم الموالي استمر حفل أحيدوس، ونقر الطبول إلى حدود الفجر، في حين استمر خدامنا في أكل ما لذ من اللحم وشرب الرايب (اللبن) من فم "الشكاوي" (المماخض).

24 يناير

جاء في صبيحة هذا اليوم آيت عيسى الذين رفض "الشريف" أن يعسكر البارحة ببلادهم متوسلين وذابحين الخرفان أمام خيمته، وطالبين منه أن يقبل ضيافتهم. وكان موقفهم البارحة مفهوما وطبيعيا، فلم نخبر أن ثلثي الفخذة لم يكن على علم، قبل سيدي علي أمام إلحاحهم، ورفعنا مخيمنا من أجل أن نقيمه من جديد على بعد ألف متر تقريبا، وصحبتنا أهازيج آيت عيسى طيلة هذه المرحلة القصيرة، وسط "لعب الخيل" (التبوريدا) حيث كان يجري ثلاثون من الفرسان فوق خيولهم مسلحين ببنادق Martiny- Henry أو Remington حول المشاة الذين يحملون بنادق مغربية. سبق أن وصفت هذه الألعاب الحربية مطولا، وألعاب آيت عيسى ليس فيها جديد يذكر، وأمكنني ملاحظة أن فرسان وادي ملوية يستحقون أيضا الإشارة إليهم. عندما انتهت الحفلة جمع سيدي علي حوله الفرسان، وقال لهم بصوت مرتفع: "اصنعوا البارود ودربوا الخيول فالجهاد على الأبواب!"

25 يناير

استفقنا تحت صوت سقوط الثلج، ووادي ملوية، أبيض مثل البراري، وغادرنا فجأة مرافقنا الغالي سيدي علي ليرجع إلى بلاده. وكان قد أعطانا قبل مغادرته بغلة من آيت عيسى، ثم سلمنا لآيت إحاند الذين راسلهم في الموضوع، وهم من سيرافقونا عند آيت يحيى. اتجهنا رأسا نحو مدخل توفيقيت [60] في الدخول نحو الهضبة حيث تعيقنا الرياح الثلجية وتجعل تحركنا صعبا، وحان الوقت للخروج من وادي واد العبيد حيث يصل الثلج إلى أسقف القلاع. ضربنا خيامنا على قدم قصر أزرزور الذي بنيت حوله من قبل خيام عبارة عن دواوير آيت أحمد الخائفين من تهديد الشتاء، وحضور الأسود الذين طردوهم من الجبل. كنت على طول تحركي في هذه الأرض الثلجية أنظر إلى هذا الوادي نفسه لملوية الذي عبرته في يوليوز 1901 وهو قاحل ومجدب تحت أشعة الشمس الحارة [61].

وادي واد ملوية، القايد عزيز لبني مگّيلد

وادي واد ملوية، فرقة من أيت يحيى

الفصل الثالث

من واد ملوية إلى واد درعة

26 يناير

غادرنا صبيحة هذا اليوم أزرزور في اتجاه الجنوب. وبهذا الاتجاه بدأت المرحلة الثانية من رحلتنا التي تقتضي أن نعبر الأطلس الكبير للوصول إلى واد درعة لدراسة الأحواض الصحراوية لواد زيز، وواد غريس، وواد تودغى-فركلة، وجبل صاغرو.

البرد قارس، وتشير محراراتنا إلى تسع درجات، لكن السماء صافية بشكل رائع انتظرنا آيت إحند إلى حدود الساعة الحادية عشرة، قدموا لنا الغذاء الذي أعدوه سارعوا من أجل أن تعبر بغالنا بأسرع وقت سهل ملوية، والهدف من هذا الإسراع هو تلافي قطع أراضي بني مكليد الداخلين معهم في حرب، وأخبرونا بوجود عدة فرسان في تونفيْت في الاتجاه الذي علينا اتباعه. وينفتح فج واسع بين الجبلين الكبيرين، جبل معسكر وجبل العياشي، والأطلس رائع. فالثلوج تراكمت على الجوانب وأعطت منظرا رائعا. يبدو واد ملوية الذي عبرناه مثل رافد نهري ناصع وسريع، ونصف متجمد ولا يبلغ عرضه في أي مكان أكثر من خمسة أمتار عرضا وخمسون سنتمترا عمقا [62]. ويبدو ما بعد السهل مائلا إلى الرمادي، ولا شيء ينبت سوى نبات الشيح، و"الشيبة" وبعض النباتات القصيرة التي لا يظهر منها سوى الرأس من كثرة الثلوج. وصلنا إلى المنحدرات الأولى لفج تونفيْت، ووجدنا عدة فرسان يحرسون عبور هذه القطعان. جاءت دواوير آيت إحاند تبحث عن ملجأ من الشتاء، وشاهدت مراكز حراسة فوق القمم تراقب السفح.

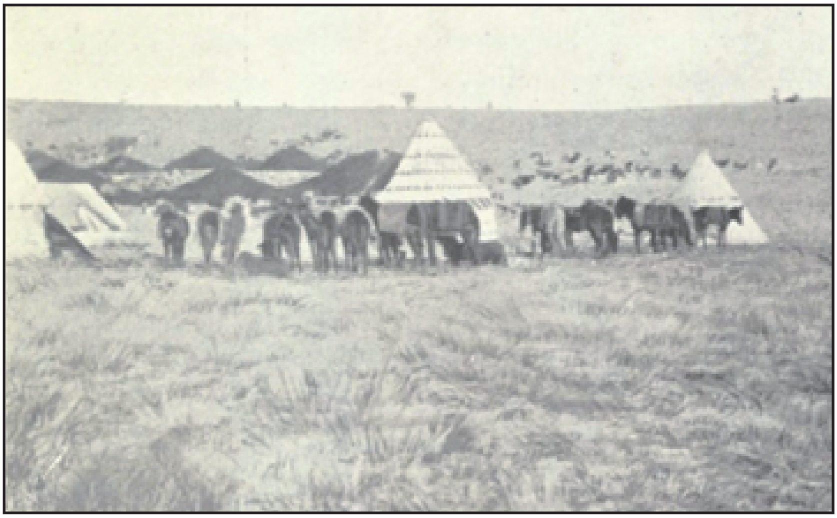

مخيم قرب دوار بوادي واد ملوية

دوار من الرعاة، مجموعة أيت علي أو أبراهيم

أثار وجودنا انتباه هذا المركز للحراسة، ورأينا فرسانا يركضون في اتجاهنا محدثين وراءهم زوبعة ثلجية، توقفنا، وتبادلنا بعض عبارات التحايا بصوت منخفض ثم تدخل "أمغار" زعيم آيت إحند ليشرح لهم أنه يحرس أگراما صديق سيدي علي أمهاوش، وأنه يحرسه باسم آيت يحيى. فوضع الرجال أيديهم أرضها وجاؤوا لتقبيل يد مولانا الحسن، وها نحن استطعنا بدون "مراحل انتقالية" المرور من الأطلس المتوسط، إلى الأطلس الكبير من آيت إحاند إلى آيت يحيى. وتمكنت في هذه الرحلة من أن أستمتع بدراسة المجال، ووجدت من جديد الطبائع الملاحظة في الأعلى عند عاري وعياش، والقمم التي تعودت على رؤيتها. يجري في الشرق في الهضبة الكبيرة واد ملوية الذي نلاحظه بوضوح يتجه نحو الضهرة وعلى ارتفاع أربعة خطوط في اتجاه الشمال الجنوبي الأكثر جنوبية والأكثر ارتفاعا. وتعرفت من جديد في اتجاه الشمال على جبال بني مگليد، وآيت يوسي، وبني وراين، وبويبلان حيث تنتصب القمة البيضاء كلها في المرتفعات المغروسة بشجر الأرز، ورغم أنني أستطيع بفضل نظارتي "الخاصة" في صفاء الجو أن أرى جبل واغيغت الذي تفصلنا عنه أكثر من مائتي كلمتر. أوقفنا مرشدونا الجدد "لتشرب" بهائمنا من غدير مجاور، ثم قادونا نحو دواويريهم وسط مقعر يسمى مجموعة آيت علي أوابرهيم [63].

وعدم الأمان في هذا المعسكر واضح جدا، إذ يعد هذا التجمع الكبير لقطعان القبيلة مناسبة سانحة للصوص، إذ يستطيع لص مسلح محظوظ من أن يسرق دفعة واحدة آلاف رؤوس الأغنام والماعز، والمئات من البغال، والحمير، والخيل. ووجدت مساء وسط هذه المجتمعات الرعوية الكبيرة للبرابر أحاسيس معاشة، وسط غابات بني مگيلد. وكُسر هدوء هذه الليلة الرائعة بدخول عدة قطعان تاركة وراءها سحابا كثيفا من الغبار، وشرعت النساء وسط صياح الرعاة بحلب العنزات والنعاج. ثم كانت عودة البغال والجمال الثقيلة الخطوات والصعبة الرعي (الساقية)، ثم ظهر أخيرا الفرسان برؤوس عارية و"خياديس" متدلية إلى الكوعين، وبنادق تحت السروج ليجمعوا الأعداد الكبيرة على شكل دائرة، ثم أشعلت أكوام النار الكبيرة التي أضاءت الأرجاء وأصدرت روائح طيبة. حل المساء، وحلت الساعة التي سيغلق فيها "وثاقنا" (خيمتنا الكبيرة) وبدأت السهرة

الجميلة، حيث شرع الزناكي في تدوين ملاحظاته، وكتابة مشاهداته المتعلقة بالطقس، وبوليفة يراقب المدخنة ويرتب معلوماتنا الجيولوجية و"البوتانية"، في حين كنت أوجه المنظار نحو النجوم التي توجد في مساري وأدون مذكرات طريقنا (رحلتنا).

يجب أن يعيش المرء حياة الترحال هذه ليتذوق حلاوتها، ويعرف الصعوبات اليومية التي يمكن أن يواجهها وسط هذا المجال الجميل الذي نعبره أخذا بعين الاعتبار نبل الهدف الذي نتبعه (نهدف إليه).

27 يناير

انطلقنا هذا الصباح لنعبر مرحلة طويلة، وما كدنا ندخل فج تونفيْت حتى كنا مضطرين للتوقف، حيث كان على بلدة تونفيْت عاصمة آيت يحيى أن تبيعنا الشعير وتقدم لنا الحراسة، رفضت ذلك اليوم، طالبة شرف [64] أن تأوينا وتعطينا غدا العلف والحراس. وليس علينا سوى الاستجابة والخضوع، فالرحالة في بلاد السيبة يجب أن يكون آخذا بعين الاعتبار هذه الأمور، وأن يكون هادئا ودبلوماسيا. فالإقامة في أي مكان مضيعة للوقت، وخطر، ومصاريف دون فائدة، لكن إذا قررنا شيئا آخر سيكون حماقة... إذن فلنستقر ونقيم. وتونفيْت مدينة صغيرة من خمسين كانونا معلقة فوق ظهر هضبة. والجهة العلوية بها قلعتان هامتان.

كل البنايات مبنية بالطوب الرمادي، وليس بالمنازل فناءات داخلية، لكنها من طابقين وأحيانا من ثلاثة طوابق، ونوافذ تطل على البادية، والأسقف مستوية وصومعة المسجد مربعة، تفتقد لأي جمالية. ويختفي الواد الذي يسقي الوادي والذي يتأخر في الجريان وسط هذه الحقول ذات التربة الرمادية، في مضايق حيث تنمو بعض أشجار العرعار.

كانت هناك مجموعة مساكن تنتصب في السفح، بنينا خيامنا قرب إحداها، قصد الاستضافة. كان الاستقبال الذي خصص لنا باردا بعض الشيء، ويفسر ما كان يقوله خدامنا عن آيت يحيى الذين يُرعبون فقد تعاملوا معنا على أننا مبعوثو المخزن، وأراد كثير من مضيفينا أن ينتقموا منا بسبب الأحقاد التي يحملونها للحكومة الشريفة. وما دام أن هذه الشكوك الخارجية، لاتكفي لتجعل وضعيتنا مقلقة، شرع رجالنا في العراك، ولم تتوقف خصوماتهم وجعلوا أحوالنا لا تطاق فتارة يتحدثون على أنهم سيغادروننا، وأخرى يأتون ليطلبوا مني الإذن بذبح الشرفاء ورجالهم. ولم يرد مولاي الحسن أن تتم الرحلة في مثل هذه الظروف وفي هذا اللاأمن، ويتحدث بأن مضيفينا يستقبلون رجالنا ويريدون أن يواصلوا الطريق بحراس من "الشلوح".

جاء مولاي عبد الله عند غروب الشمس، وطلب مني أن أعيره مسدسي ليهشم به رأس [65] أحد الضراويين أثناء رحلة الغد. وتوصلت أخيرا من هذا الضراوي نفسه بتصريح خطير مفاده أن أربعة من أصدقائه المحاربين الساكنين في تيسينت مثله، والذين كان يعيشون في موكادور، قد علموا بطبيعة مشروعنا وأنهم يعرفون نوايانا في الرجوع عبر واد درعة، وغادروها ليرجعوا إلى مساقط

رؤوسهم أياما قبل انطلاقنا، وأسرعنا الخطى من أجل أن نلحق بهم في طريقنا. فماذا سيفعلون إذا التقوا بنا؟. فأجابنا دون تردد: يسرقوننا ويقتلوننا.

غيّر هذا الحدث من برنامجنا، وبالتالي سنتفادى المرور إلى تزنيت وكل المنطقة الموجودة في مجرى وادي درعة، وسنرجع إلى حدود واد دادس بمعنى إلى حدود واد درعة العلوي، ونسير في اتجاه منحدرات جنوب الأطلس كما اتجهنا نحو منحدرات الشمال، وعندما نصل إلى دادس، سنخفف من أعداد قافلتنا فهي ثقيلة لكي تمر من هذه المناطق الفقيرة خاصة أن الانسجام لا يسود بين عناصرها. وسيصل بوليفة إلى مراكش مع أحد الشرفاء: مولاي عبد الله، وسيصحب معه رجالنا من ضراوة الفوضويين وغير كاتمي الأسرار، وسيأتي بالحصيلة الأولى للقسم الأول من رحلتنا، وجميع وثائقنا من مختلف الأنواع التي حرصت أن أضعها في أماكن آمنة، وسيحمل معه أخيرا جديدنا إلى كل الأقارب والأصدقاء الذين نقدر قلقهم علينا. وكان صعبا علينا طيلة رحلتنا أن نرسل رسالة واحدة، ولم نتوصل بأي جديد عن العالم الخارجي. أنهكتنا العزلة التي جعلت أحاسيسنا متعبة، وكذلك أجسامنا لكن تركت قلوبنا خائفة وفارغة.

28 يناير

ما أن شرعنا في نزع أول أوتاد خيامنا حتى قدم علينا وفد من أعيان تونفيْت يلح علينا بعدم المغادرة. وكان الشيخ غائبا، وأغلب الفرسان بسوقها الأسبوعي ليوم السبت، ولا أحد يستطيع [66] أن يرافقنا، ونريد أيضا أن نسلم من تأدية ما مقداره بسيطة لكل حيوان التي يأخذها آيت يحيى من القوافل التي تمر عبر الفج. ومن أجل هذا لابد من حضور الجماعة، وتجمع أعيانها، ومن أجل هذه الأسباب ولأخرى لم يقولوها لنا طلب منا "أمغار"/شيخ الفخذة التي تأوينا أن نذهب عنده من أجل تناول البركوكس، والشاي الوجبة الأساس في الصباح.

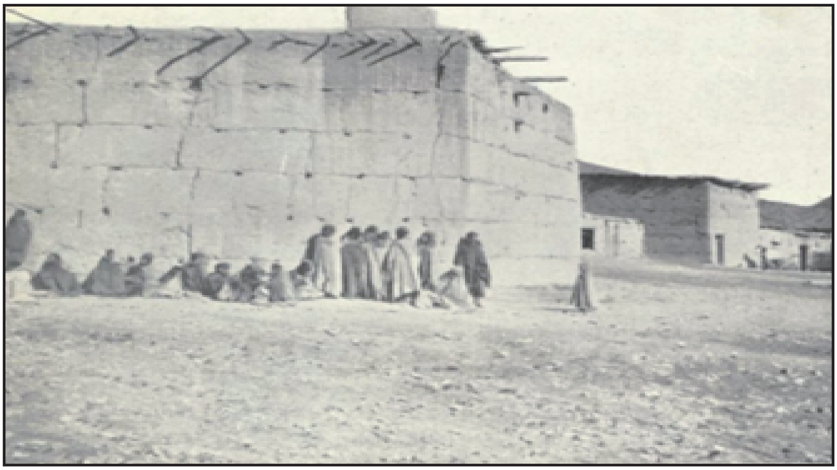

مجموعة من سكان أي يحيى بتاگوديت

نساء أيت يحيى بتاگوديت

وياله من فرق بين هذا الداخل البئيس والعفن والدخان الكثيف، وإقامتنا المريحة لمضيفنا! فالغرفة الكبرى مظلمة وسقفها منحدر، وكنا نتخطى أكوام الخشب والأدوات الفلاحية وغيرها، والأسلحة، وصناديق كبيرة مقفلة على طول الجدار. كان استقبال "أمغار" وديا، واعتذر عن فقره، وقال لنا محذرا إننا ندخل إلى بلاد "الكفار"، وهم أناس لا قوانين لهم، لن يكونوا مرتاحين لزيارتنا، وأن غريبا يعتبر أكثر الأولياء صلاحا ليس سوى ذريعة للاستغلال والحركة. ويعرف فج تونفيْت حيوية كبيرة، والقْصور هنا عبارة عن نزالات لا نجد فيها شعيرا ولا زطاطة "حراسا" إلا بأثمنة باهظة جدا. مرت ساعتان من المحادثات مع رجال تونفيت استطعنا الحصول أخيرا على مرشدين، وانطلقنا في الطريق صعودا لأدوز بالموازاة مع الاتجاه العام، واتجهنا بعد ذلك نحو الجنوب للمرور من "واد" أسيف نتودغى، وهو مجرى ماء ناصع وجرار، وصعدنا إلى السرير المتعرج الذي يفصل بين إيغيلنُ حباري الذي يوجد في آخر جبل معسكر وعاري نگوني آخر ملتقى لجبل العياشي.

كنا نتحرك بصعوبة وسط هذه المضايق الوحشية، الكثيرة أشجار البلوط، والعرعار. جاء قطاع الطرق من زاوية الطريق وحاولوا عرقلة سيرنا، كنت في المقدمة ورأيت فجأة بندقيتين طويلتين "تتصارعان" على بعد ثلاثين مترا منا... وقام أحد حراسنا "زطاطنا" بحركة رشيقة أسفل "خيدوسه "وجعل فرسه يجري بقوة في اتجاه اليمين نحو من يحاولان سرقتنا. فيا لها من توبيخات وإهانات وشتائم أسمعها! و[67]، يبدو أن إشهار أسلحتنا كانت خارج حساباتهما، مما جعلهما يغيران من رأيهما، ويأتيان لتقبيل أيدي المارة الذي كانوا يحاولان سرقتهم.

انتهت المرحلة الرئيسة، ونحن نعاني من كل شيء، وهناك غابات بلوط جميلة تغطي واجهات الجبال إلى حد الظلمة، وتنتشر أشجار الأَرز في المناطق العالية، تبدو مريضة فجذوعها الجافة تحيط بالوديان وتعانق السماء وتنحني مثل حبال مشنقة. وتتموقع تاگوديت في محطتنا في واد يفرق بين السلسلة التي عبرناها اليوم وأخرى سنعبرها غدا، وما قاله "أمغار" لنا عن سكان

الجبل بأنهم غير مضيافين وغير مكترثين صحيح. فقد وضعونا في منزل فارغ وطلبوا منا أن نتمترس فيه، وباعونا فيه بأثمنة غالية جدا المؤونات التي نحن بحاجة إليها، واندس بيننا شريف عجوز استقر هنا في هذا البلد المعزول، وخصص قسما من الليل للدعاء لنا، وقال لنا: "رجال تاگوديت لصوص وليس لهم دين أكثر من القردة. !"

29 يناير

كان الانطلاق أحسن كل مرة من البقاء في محطة استراحة، فعندما نصل متعبين وجائعين، فإن هذا المنزل يبدو "منجما غنيا"، فليست هناك خيام تنصب، ولا حراس في الليل، ولا خوف من الحيوانات المفترسة، ولا من البرد، ولا من القمم الثلجية... وبمجرد أن نستقر تظهر السلبيات: الظلام الدامس والحشرات الكثيرة، والوسخ، وشدة البرودة حسب إغلاق الباب الوحيد أو فتحه الذي يدخل منه الضوء ويخرج منه الدخان. تأكدنا من الأمر هذا الصباح، وكان علينا قضاء أكثر من ساعتين من أجل أن تنطلق القافلة. لم يقدم لنا رجال تاگوديت أي مساعدة لتسهيل مغادرتنا، يبدو أنهم يريدون أن يحتفظوا بنا قصد المتاجرة لأنهم قدموا [68] عشرين مرة يطلبون منا بيع محتوى أكياسنا. وقرروا بعد مفاوضات عسيرة أن نغادر ونؤدي خمسة وسبعين سنتيما للبهيمة، وأعطونا "زطاطا". تعبر هذه السلسلة الثانية طريقان، الأولى قصيرة وصعبة، والثانية طويلة وسهلة، واخترنا الثانية، لأنها تخفف من مشاكل رفاقنا "المكروهين" وتريح بغالنا.

ممر تونفيت، قرى أيت حطاب (أيت حديدو)

مضايق واد مصاف (واد زيز)

غادرنا منذ البداية أسيف نتوغا الذي يجري بين السلسلة الأولى والثانية ليعبر هذه السلسلة الثانية بالصعود إلى أسيف نتيملگين، ويبدو هناك خراب فوق صخور يصعب الوصول إليها تراقب الموكب، وهي عبارة عن بناية من حجر الشيست مبنية بشكل متعالق بدون إسمنت ومطلية بالطين، تبدو جدرانها عريضة قليلا نرى فيها الأبواب، والنوافذ، والدعامات من الخشب، ويسمي الأهالي هذه الأطلال إغرم نرومين "حصون النصارى" ويقال إنها كانت مسكنا للمسيحيين القاطنين بالمغرب قبل "الفتح" الإسلامي، حطمها ركراگة "الحواريون المسلمون الأوائل، لكن المسيحيين كانوا قد خبأوا كنوزهم في المغارات، والمخازن، والكهوف، حيث ينامون والتي يجهلها المسلمون ويحرسها جنيون حساد. ويحدث كثيرا أن نرى مثل هذه الخرابات في الطريق ونسمع حولها هذه الأساطير باختلافات بسيطة ليست ذات أهمية. وتؤدي السلسلة الثانية التي يصعد فيها إلى عاري نتافلانت التي نعبرها بصعوبة كبيرة وسط الثلوج، فنحن إذن أمام سلسلة ثانية أساس تحمل اسم عاري نوبردوز، وأسرعنا الخطا باتباع سرير أسيف نمصاف الذي يؤدي بنا إلى الفرع الأصلي لواد زيز، إننا إذن منذ الآن في الحوض الصحراوي لتافيلالت.

وواد مصاف شأنه في ذلك شأن جميع الأودية ينبع بين سلسلات الأطلس الكبير ومن بين صخورها، وهذه المضايق رائعة ويمكن أن يتقاطع أو يلتقي فيها فارسان [69] بصعوبة ويكاد الجداران الصخريان يلتقيان، وتشكل الصخور المكدسة قبة كبيرة، وعند الخروج من هذا الممر يجري هذا السيل ليسقي الحقول المثبتة على شكل مدرجات مدعمة بأحجار مشكلة أسوارا صغيرة ومدعمة بجذوع أشجار، وهذه هي فلاحات آيت علي أوعسو، وتمتد حوالي قرية مكونة من ثلاثين منزلا ذات طابع بئيس جدا، ثم يضيق الوادي من جديد وكذلك واد مصاف لينفتح على طريق

السلسلة الأساس عبر المضايق الأقل أهمية عن السابقة التي تقودنا إلى قرية آيت حطاب فخذة من قبيلة آيت حديدو، ذات المنازل بالطوابق الممتدة فوق المرتفع متجهة نحو السماء بتناغم.

30 يناير

قضينا مثل باقي الأيام التي نعبر فيها الجبل ساعتين من أجل مناقشة ثمن العبور. وأدينا اليوم بسيطة لكل حيوان نقدا أو مِلحا، وهذا ثمن غال إذا ما قارناه بقافلة من عشرين حيوان، مما يجعلنا نؤدي مائتي بسيطة لعشر مراحل. والمبلغ يرتفع مع مصاريف المؤونة وأجرة الحراس والمصاريف الأخرى إلى خمسمائة بسيطة لعشرة أيام من الرحلة...

واصلنا النزول حوالي ساعة في الوادي الذي يجري فيه واد مصاف ثم صعدنا جبل أبردوز، ومكننا الصعود إلى قمته من التحكم في المكان الذي يطل على كل هذه المنطقة من الأطلس الكبير. استمرت ثلاث سلسلات في اتجاه الغرب والجنوب الغربي، والشرق والشمال الشرقي تفصلها وديان عريضة مشكلة الخطوط الكبرى للمنظر، وأكثرها جنوبية تحمل اسم جبل معسكر وايغيل نعباري، وعاري وعياش (الذي يسمى هنا أدرار نعلي)، وتشتمل السلسلة الوسطى بين الغرب ونحو الشرق عاري نوقدار، وعاري نوبردوز ثم توجد في البعد ثغرة بواد مصاف، ويوجد في فج سيدي حمزة أسامر نلغمان (منحدر الجمال) ويستمر العرف في الأعلى يحمل عنصرين بارزين يبدو أنهما هامين [70].

يجري واد مصاف بين هاتين السلسلتين الأوليتين. وتمتد السلسلة المتوسطة التي علينا أن نجد فيها ممرا من الغرب إلى الشرق، عاري نتفرانت، وعاري نرگيوين، وعاري نورگل، في الأعلى بشكل غريب متقطعة تسمى عامة جبل إزدگ التي تنطق هنا آيت إزدي وبدا لي أنه بعد نفرة واد زيز أن هذه السلسلة ستنعزل في الاتجاه العام إلى الشرق شمالا حيث سنعرج. وسننزل بين السلسلة الثانية والثالثة، في عمق الشعبة حيث يجري أحد الروافد الذي يحمل أولا اسم أسيف نزلّافن (أُسلافن) ويعبر بهذا الاسم عاري نرگيون في مضايق تاقات نونافارس.

ممر تونفيت، السلسلة الوسطى للأطلس الكبير (عاري أبردوز)- رؤية من عاري تافلانت

دخول إلى ممر تونفيت، وتظهر قرية تاگنديت في الخلف يسارا ثم عاري أگوني، وإيغيل هباري يمينا. وفي الخلف عاري أبردوز.

وقيل لنا إنه يلتقي مع واد مصاف في النقطة المسماة تامدوست أو تامگورت الموجودة غير بعيد عن هنا بين قبيلتي آيت حديدو، وآيت إزدگ. ويشكل هذان المجريان واد زيز الذي يعبر بعد ذلك أراضي آيت إزدگ، والمداغرة وآيت عطا حيث يسقي الرتبات، وتيزمي ثم يدخل إلى تافيلالت بسّيفا. وصلنا بعيدا عن هنا بعض الشيء إلى واد تاغيا، القادم من أوتايدا عند آيت حديدو، ويستقبل بأموگر عند أيت مرغاد رافدا قادما من تاسرافت الذي يشكل معه واد غريس.

وفي الأخير يستقبل واد غريس هذا تاسمّومت على أراضي أيت عطا، وتوجد قبائل واد تودغى- فركلة الذي ينبع بتامتْتوشت غير بعيد من تاسرافت. وهذه هي التشكيلة الأساس للحوض الصحراوي لتافيلالت حسب معرفة الأهالي.

والواجهة الشمالية لهذه الجبال مكسوة كلها بالثلوج، في حين أن الواجهة الجنوبية لا توجد بها إلا بشكل قليل. ولا يكسر هدوء هذه الجبال المنعزلة، إلا "أصوات" الصخور الرمادية في الأعالي. ويشكل منحدر عاري نوبردوز سياجا يسير بنا إلى سرير أسيف إزلافن المنحوث بين [71] جرفين، وبنيت قريتان على طول هذا النهر تستعملان مياه: تابريجات وعلى بعد كلمترين أسفل تاريباتت حيث بنينا خيامنا.

31 يناير

كانت ليلة صاخبة، استيقظنا مذعورين على ذوي طلقات نارية، وظن رجالنا الحراس أنهم تعرضوا لهجوم، ورأوا رجالا يقتربون من خيامنا وصرخوا بالتناوب ثم أطلقوا النار. شككت في هذه القصة، وعلمت ساعة بعد ذلك أن حجارة كبيرة ترمى في اتجاه خيامنا وبالتالي كان علينا أن نتحقق ونقيم حصنا دفاعيا. وأكد لي هذا الحادث أن رجالنا ليس لهم دم بارد، ولم أعد أثق في شجاعتهم وإقدامهم أكثر فهل سنتمكن من التأكد من ذلك؟. قضّينا الصبيحة في مناقشة هذا الحادث، فقد

تعاملوا معنا ليس باعتبارنا ضيوفا وإنما أعداء. فلم يعودوا يطلبون حق المرور فقط، بل فدية، فكان علينا تأدية خمس بسيطات للحيوان الواحد، وأجاب آيت حديدو عن انزاعجنا بأن آيت إزدگ يقطعون الطريق. وأنه يجب أن نكون متوافرين على الأقل على ثلاثين رجلا للحراسة من أجل المرور.

أبانت تشكيلة هؤلاء الحراس عن خطأ إدعائهم: فقد رافقنا أطفال صغار مسلحين ببنادق قديمة لا تستعمل. وعندما انطلقوا أخذوا يقومون ببعض الحركات التي يقوم بها المحاربون، التي تدل على شهامة آيت إزدگ أو دليلا على ضعفنا. ومن حسن الحظ أن آيت إزدگ كانوا مشغولين في أماكن أخرى، ومشينا في الطريق بدون حوادث. وتشكل فتحة تاقات نونفرس التي كنا به البارحة حيث عبرنا السلسلة الثالثة أحد أجمل مخانق (خنگ) الأطلس التي وصفناها عدة مرات، وأصبح سرير المجرى يضيق الطريق وسط أشجار "الدفلة"، وهو محاط بمرتفعات صخرية من ثلاثمائة إلى أربعمائة متر تحاصره. وينفتح هذا الممر الضيق على وادي واسع حيث ينقسم الواد إلى خمسة أو ستة جداول تنقص من عرضه وسرعته إلى أن لا يصبح سوى بعض الضايات الصغيرة، ثم تختفي بعد أن تمتصها أرضها العطشى. [73]

ها نحن وصلنا إلى منطقة مخالفة تماما، تحول بين الجبل الذي سنغادره والصحراء التي لم نرها بعد، لكن تصورنا من قبل أصبحت أرضها مستوية وجرداء، وتشكل صفائح صلبة نحتت أسرة عميقة ومنعرجة. يمتد أمامنا منبسط، وعلى البعد هضاب مستوية بدون خضرة، ليس لها من جمال آخر إلا مغيب الشمس، وتعبر شعبة الهضبة أنه واد تاغيا. وتوجد هناك خمسة قصور وخمس مجموعات من المنازل على الضفتين، ويحمل هذا التجمع السكاني اسم زاوية: سيدي محمد أو يوسف.

استضافنا أهل أول قصر وجدناه في طريقنا، وهو عبارة عن حزام من سقيفة عريضة، تظن في الوهلة الأولى عند دخولك أنك بداخل مخيم أو نزالة لتوقف القوافل بالجنوب الجزائري. ومضيف هذه البناية شريف درقاوي فقير شبه أحمق، يسكن هنا مع زوجتيه وستة من أطفاله، ويعيش على بعض دقيق الشعير ومياه البئر. وعندما كنا ندق أوتاد خيامنا كسر أحدها بفعل صلابة الأرض. تقدم المسكين نحو مولاي الحسن وأسر له أنه فقير جدا، ولا يوجد عنده ما يقدمه لنا. تبدو بغالنا هزيلة من الوهلة الأولى، ورجالنا غاضبون. وقيل لنا إن الجنوب يعاني من مجاعة رهيبة وأن أيت مرغاد الذين سنصلهم غدا ينتظروننا بالبنادق. وبما أنه كان واجبا علينا ذلك المرور مع استحضار خوف رجالنا، فقد اخترنا نحن أيضا خرافة مفادها أن آيت إزدگ مجتمعون خلفنا وأنهم يطاردوننا فما علينا إذن سوى الفرار إلى الأمام [73].

1 فبراير

انطلقنا على الساعة العاشرة، ورجالنا يظهرون الكراهية، ولا يسع مضيفنا إلا أن يكون راضيا عنا. رافقنا حارسان "زطاطان" استطعنا الحصول عليهما بصعوبة بثمن خمس عشر بسيطة لكل واحد منهما.

يجري واد تاغيا الذي نتحرك فيه ونتبع سريره على طول الطريق، ومحاط بمرتفعات من مائتي إلى ثلاثمائة متر على شكل صفائح أفقية عمودية، ولا يصل عرضه إلى أكثر من مائتي متر، ويسيل في شكل منعرجات. توجد أشجار الدفلة والطرفاء، وأشجار اللوز وأشجار المشمش أسفل الزاوية وتشكل أشجار النخيل في هذا الممر منظرا جميلا، والقرى مبنية بغرابة في نصف الجرف على الأدراج الكبيرة التي ستكون في بعض المواضع صفائح كلسية، والطريق تغادر أحيانا عمق الوادي لتصعد إلى الكورنيش.

تتكون زاوية سيدي محمد أويوسف من خمسة قصور، اثنان منها يسكنها الشرفاء أولاد ناصر، وثلاثة الحراطين، تحركنا أمامهم ثم وطأت أقدامنا قرى أخرى في نفوذ أيت مرغاد. وهناك بعض الآثار القديمة على الجرف، بل أظهروا لنا طريقا تحمل اسم طريق النصارى. ويوجد على مرتفع آطار نتازرت وادي به أكواخ وحشية تسمى أقا نو عونا إميضر.

عبر السلطان مولاي الحسن هذه الجهات، وخضع له أيت مرغاد، وكان لهذه المحلة أثر كبير في ذاكرة السكان، ويحكون لنا تفاصيلها بدقة، ومازالوا يقدسون الأماكن التي عسكرت فيها، وما زالت بعض المنازل تحمل هذه الأصداء، وأيت مرغاد بالرغم من أنهم قاوموا السلطان فإن إخضاعهم كان جزئيا، وكان "القياد" الذين يعينهم المخزن عليهم يُعزلون، أو يقتلون في اليوم الموالي لإخلاء أراضيهم [74]. والناس هنا مختلفون عن أهالي الجبل، فهم أكثر تحضرا، ويلبسون أحسن اللباس ومسلحون أكثر، وأغنياء أيضا، ومتعلمون أكثر، والعربية مفهومة في كل مكان هنا، كما أن هناك علاقات تجارية مع تافيلالت التي تعد النقطة المحورية للجهة الشرقية للأطلس الكبير، والنساء رشيقات تقريبا، إن لم نقل جميلات، وتمكن تصفيفة شعرهن من رؤية العنق وهن يرتدين ملابس زرقاء تتماشى وسحنتهن، وتعوض "حنديراتهن" الحمراء، "الحنديرات" السوداء المخططة بالأبيض لآيت حديدو، والمنازل أيضا أكثر أناقة من تلك التي تعودناها، وأبراج المراقبة عالية، مبنية بالطين بطريقة بديعة. ومررنا قبل نهاية المضايق بين قريتين يفصل بينهما نخيل وهما يسارا إمغران ويمينا اميضر، وانطلقنا نحو السهل، ثم ظهر أمامنا تجمع كبير في الوادي إنه سمگات حيث سنبني خيامنا.

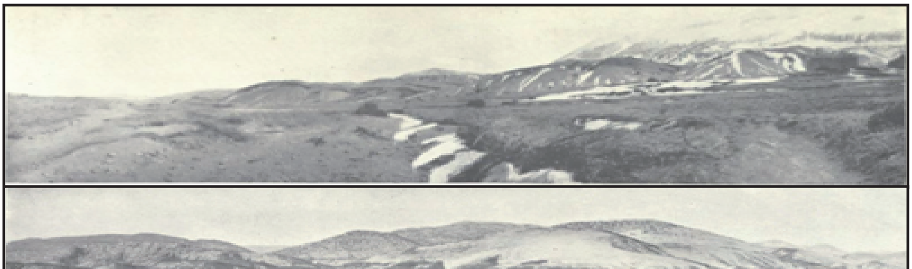

الصورة الأولى لممر تونفيت، على اليمين جبل معسكر،
الصورة الثانية لأعالي واد مساط بأراضي أيت علي أو واسو

2 فبراير

رجال الجبل يسرقوننا، وأهالي السهل يستغلوننا! كلفتنا أمسية البارحة أكثر من مائة فرنك، وتنامى شيئا فشيئا عدم ثقة السكان، وكان يُحكى لنا في كل مكان بأن فج تيزي نتلغمت المسلك الرئيس يقطعه آيت ازدگ، وأن السلطان مرر عبر تيزي نتيندو بعثة من النقود إلى مولاي رشيد عامل/ حاكم تافيلالت وأن هذه البعثة هي بعثتنا... وكنا مضطرين لفتح حقائبنا للطفيليين وعرض محتوياتها لنبين لهم أننا لا نحمل لا نقودا ولا مؤونة، لكن الخرافة استمرت أكثر من الحقيقة وأدينا ثمن غنانا المزعوم.

انتشلنا صبيحة هذا اليوم بالقوة تقريبا ابن أحد "القياد" يسمى مولاي الحسن من جشع آيت سمگاط، وكنا على بعد كلمترات تقريبا [75] من نقطة انطلاقنا حيث أشار مرشدنا الذي شكرناه أنه إنما انسل من الجماعة التي حاصرتنا من أجل أن نعطيه عناية خاصة وينال من كرمنا. وبدأت الطريق تتبع "وادي" واد تاغيا الذي اصطفت على طوله قصور آيت محمّد وأيت بويزم وإملوان وكلها مبنية بالطين الرمادي بالشكل نفسه، ثم اتجهنا بعد ذلك نحو المرتفعات التي تعيق الرؤية أمامنا والتي تعرف باسم عاري نلخلا، وعبرنا عبر فج أمسد وهو أكثر عرضا وأقل وحشية من سابقيه.

يحمل الواد هنا اسم واد غريس ويستقبل هنا مخرج الفج، التابع لعين جميلة تحيط بها باقة من النخيل، تقول الأسطورة إن مولاي الحسن نزل بها لتشرب المحلة الماء. ودخلنا إذن في واحة أمسد حيث وجدنا تجمعا سكانيا كبيرا في مئات المنازل فوق كتلة صخرية ثم استمر الواد في الجريان في اتجاه الشرق، وقطعنا عبر معبر تاقا نعيسى أورحو لنصل إلى ثلاثة قصور لتاديغوست وأگودير حيث بنينا مخيمنا.

3 فبراير

أخاف مرشدنا مرافقي وخدامي، فقد أثارت تصرفاته الفضولية حوله الشكوك، وتجلى ذلك في أنه كان يتجه بنا ليوقع بنا في فخ. فجوار تافيلالت يخيف شرفاءنا ويثير مرشدنا، ويصبح السير أو التحرك يوما بعديوم أكثر صعوبة... ولا يجب أقل من ساعة للخروج من واحة نخيل تاديغوست، حيث تتشكل الأصواح الحديثة الممتدة، وبنيت القصور المتشابهة التي تأخذ طابع القلاع حيث ملتقيات الأزقة والأبواب الكبيرة، والكل يعطي طابع الرفاه والغنى، فالرجال يلبسون برنوسا/ الخيدوس [76] من ثوب أزرق للحضريين، وسراويل طويلة من الأزرق للجبليين، وكانوا مسلحين ببنادق من نوع gras أو ب "مكاحل" (مزينة بالعاج ومحاطة بخواتم من فضة مصوغة)، والنساء أكثر أناقة أيضا وأكثر جمالا مما رأينا في المراحل السابقة.

وسهل الحدب الذي دخلناه فيما بعد مخيف، أرضه صلبة وكثيرة الحجارة، ولا شيء يحد من هذه الرتابة في الشرق فهي محدودة بعرف كتلة من المرتفعات المستديرة فوق هضاب واد الرطب التي يجري وراءها واد زيز، ويلتف واد غريس في زاوية مستقيمة في هذا السهل ويتجه بدوره نحو الشرق في اتجاه واد زيز.

تنتصب أمامنا في الأفق سلسلة جديدة تحجب الرؤية، إنه جبل صاغرو الممتد في الأطلس الكبير ويجري في سفحه واد فركلة. شاهدنا قبل أن نغادر واد غريس قنطرة مائية من زمن مولاي الحسن تسقي حقول قصور أغاغاد ومگامن، ثم حث مرشدونا الخطى من أجل أن نعبر هذا السهل الحدب الحزين الذي تحيط به وبشكل جميل جبال الأطلس والهضاب الزرقاء لصاغرو.

ممر تونفيت نظرة بانورامية من أعالي عاري أبردوز، ويبدو في العمق يسارا جبل أيت إزلگ

ممر تونفيت، نظرة بانورامية من أعلى الأطلس الكبير من عاري أبردوز

واحة وادي فركلة مشابه تماما لواحة وادي واد زيز، ووادي واد غريس ومن الأكيد كذلك لوادي واد دادس ودرعة. وتحيط هذه "العصائب" الخضراء، والسلسلة من القصور التي تغالط الطوبوغرافي، وتتعب الإحصائي حيث لا يمكن أن يرسم خطا وتترك دون أن يضيف إليه مرشد آخر معلومات وتفاصيل إضافية.

وها نحن نتحرك في واحة فركلة وزاوية سيدي الهواري التي تعد أحد المراكز الأكثر تبركا عند درقاوة التي قطن بها سيدي الهواري ابن الصالح الأكبر سيدي العربي وخليفته. وطلبنا بإلحاح شرف بناء خيامنا داخل الزاوية، واستجيب بسخاء لطلبنا، لكن فوجئنا لسوء الحظ أن المساحة الداخلية تشتعل دخانا أي (مدخنة) [77].

5 فبراير

أقمنا البارحة، وكان علينا تقسيم أمتعتنا، لأن قافلتي ستنقسم غدا إلى قسمين قسم سيدخل إلى مراكش، والآخر سيرافقني من أجل اكتشاف حوض واد درعة. وسيتكلف بوليفة الذي يجد صعوبات في التواصل "بالبربرية" والتأقلم مع حياة الترحال بقيادة القافلة التي ستعود، وسيحمل

معه مولاي عبد الله هذا الشيخ المحارب والحيوي والشجاع ذي الطاقة الراغبة في اكتشاف كل العالم الذي رافقه صهره.

لم أندم على اتخاذ هذا لقرار غير المدروس، وغير ذي فائدة والذي كان يتطلب مني حكمة سلطان، وأنزلت أيضا اثنان من ضراوة المرافقين الأكثر معارضة والمستعدين لإشهار السلاح والكلام الفاحش في أي وقت، ونبهت الآخرين. وتخلصت بهذه المناسبة من كل ما يزعج، غير مفيد ومتعب، مثل: المؤونة، وأواني المطبخ، والأسلحة، والخيام، والحيوانات. وأعطيت أخيرا لبوليفة كل ما هو ثمين: الوثائق والمقتنيات، والصور، والملاحظات الفلكية والجوية للقسم الأول من الرحلة.

أحسست في هذه الاستعدادات بخوف الحصاد حسب المثل "البربري" القائل، "ما أبعد الحقل من المخزن والحزمة من الخبزة!"، أما نحن فتخلينا عن الأدوار الجميلة التي كانت لنا وأصبح ابن الشيخ ماء العينين شريفا محترما من أولاد السبع، ولم يعد الزناگي سوى فقيه بسيط، وتدحرجت في الرتبة لأصبح بغّالا بسيطا... ومن الآن نحن تجار بسطاء نتحرك بدون سلع، نتجول في الأسواق بحثا عن "الطلبيات"، ونقوم أحيانا بدور الأطباء و"الحلايقية" والشرفاء، ولنا وجهان الأول للناس المهتمين والثاني من أجل السذج. كان درقاوة في كل مساء وليل وصباح قبل مطلع الفجر [78] يصلون، و"يصيحون"، ويذكرون، ويغنون... وفي منتصف الليل شرعت مجموعة من النساء في تلاوة الذكر بشكل جماعي: "لا إلاه الله".

واد تاغيا (واد غريس) فلاحة وعرصات أيت مرغاد

وادي واد تاغيا، زاوية سيدي محمد أو يوسف

فهل يجب أن نعجب أو أن نرفض هذه الدرجة التي وصل إليها التصوف من الحدة؟ ويتوقف ذلك عن النتائج التي يمكن أن يؤدي إليها. ومن هذه النتائج حسب مضيفنا هي اللاتسامح وخاصة الغباء. لكن علي أن أضيف أن طريقة الشيخ الدرقاوي الحقيقية ضد مغالاة أتباعه، لا تدعو سوى للعبادة والتخلص من زينة الحياة الدنيا، فهي تؤكد على ضرورة ارتباط الإنسان بربه أي المخلوق مع خالقه وهو ما يعطي لهؤلاء "الفقرا" الذين يصلون إلى مراتب متقدمة في الطريقة سعادة كبيرة وفقرا مرحليا...

وهذا هو رأي المريدين والمتعلمين الذين يعتبرون المرقعة، أي الثياب الممزقة والمخيطة بطريقة رديئة علامة على "الدروشة" وليس دليلا على البؤس أو الفقر وعدم النظافة. ويعتبر الآخرون أن البسطاء والمغضوب عليهم الذين يشكلون أغلب أتباع الطريقة مأخوذون بحب صوفي للطريقة ويرتدون عن قناعة "الدربالة" والسبحة (التسبيح) الكبيرة والعمامة الخضراء أو البيضاء والعكازة البالية...

مضيفنا الحالي بالزاوية هو سيدي بّا من أتباع سيدي علي أمهاوش إبن سيدي العربي الهواري الابن الأصغر لسيدي العربي، يبلغ من السن حوالي خمس وعشرين سنة تقريبا، طويل القامة... شديد سواد البشرة، متوسط الذكاء، ولا تخرج من شفتيه إلا مقاطع غير مفهومة، وكل ما يهمه هو العناية بقبة تأوي قبر أبيه، وهي تشبه قبة سيدي داود بن ناصر بتلمسان، أو منقولة عنها.

يوجد المسجد في الركن الأيسر من القبة الصغيرة التي لا تبلغ سوى ثمانية أمتار طولا وستة عرضا، وسقفه بأعمدة من آجر طيني غير مبيضة، وتدخل أشعة الشمس من فتحة في السقف عبر جذع نخلة مغروس وسط الصرح المبني. وسيدي بّا محاط بفقيه[79] مجامل، ومتعلم جيد يسمى: سي الحبيب بن عمر من شرفاء أولاد بو السبع، قرأ علينا الفصل الأول من كتاب يخصص له كامل وقته، وموضوعه سيرة سيدي بّا، وبدايته مجموعة من الأكاذيب والمبالغات ثم أتبعه بمديح "وقح" استمع له مضيفنا بكثير من الابتهاج.

شرع الفقيه من أجل أن يثير إعجابنا بتكوينه في ترداد بعض الحكم الصوفية استنادا إلى كتاب "حكم ابن عطاء الله" حيث يقول "البربر"، "إذا لم يكن القرآن نزل به الوحي لكان كتاب حكم ابن عطا الله كتابنا"! وظهر لنا أن هناك سوء تفاهم يسود في زاوية درقاوة، فقد مات سيدي أحمد بن الهاشم بن العربي المعروف سيدي العربي سنة 1892 عن سن 13 سنة دون أن يعين خليفته الروحي، لأن من مبادئ هذه الطريقة أنها تقتضي أن لا تكون الخلافة وراثية ولا منتقلة...، فقد خلف سيدي العربي الهواري أباه. لكنه غادر زاوية بوبريح الموجودة في جبالة بأراضي بني زروال حيث دفن سيدي العربي سنة 1823 ورجع إلى حوض مهد أسرته بزاوية گاوز التي نحن الآن عند مضيفنا والتي تحمل اسمه، ثم مات دون أن يعين خليفة حسب العادة.

وعاش منذ ذلك الوقت درقاوة الجنوب في اضطراب بخصوص هذا الموضوع، فبعضهم مرتبط بسيدي بّا والبعض يدعي أن الشيخ الحقيقي للورد وشيخ/ مقدم الطريقة هو الشيخ الهبري ويسمون الهبرية، ويؤكد بعضهم أن الجماعة قد اختارت مقدما بمراكش هو سيدي محمد بن علي. والشخصيات الأساس والمقدمون الأكثر احتراما بالطريقة هم: سيدي محمد العربي بن الهواري الساكن بتيزگاغين بين غريس وفركلة، وسيدي الحاج محمد الزموري بزمور والمولى عبد المالك المران، وهناك أيضا مقدمات[80] من النساء يقمن أدوار المقدم نفسها، مثل رقية آيت تادارت، التي وجه لها الشيخ العربي بن عبد الله الهواري تعليماته في رسالة نشرناها.

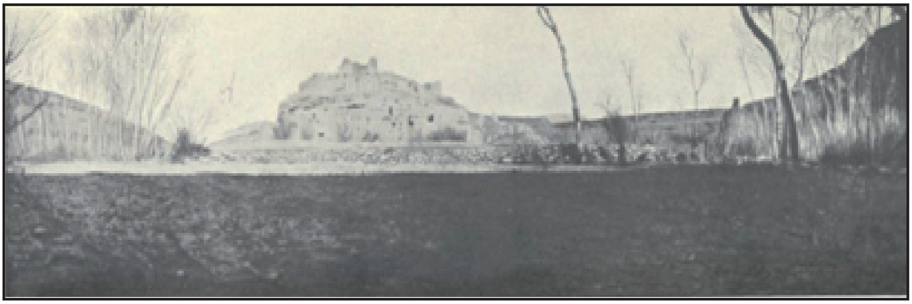

واد تاغيا (واد غريس) زاوية سيدي محمد أو يوسف

واد تاغيا (واد غريس) مضايق أقا نوامنا بإميضر

انطلقنا على الساعة الحادية عشرة فقط، بعد عدة "دعوات" لا منتهية، وصعدنا وادي واد فركلة إلى منبعه، يعني إلى قصرالخربات الذي وصلناه في أكثر من ساعة، والخربات الجديد هو قصر الشرفاء المرابطين، والخربات القديم هي قصر الحراطين، والطريق هنا جنة حقيقية تحت أشجار النخيل، وكانت هناك أمامنا ملتقيات طرق في كرميد وتيغدوين وآيت عاصم التي تغص بالحدادين. وصناعة الحديد محتقرة في كل الجنوب المغربي تقريبا، ويتكون الحدادون من اليهود والحراطين أو القبالة أو ضراوة العبيد، وهناك عدة قبور/ أضرحة صلحاء منتشرة في واحة النخيل هذه مثل سيدي بولمان، وسيدي يحيى بن ابراهيم، ومولاي الحسن لكبير، وسيدي عبد الله، وسيدي بوگرتيل وأسماء أخرى غابت عنا، وتشير كتب المناقب المغربية التي تغص بكثير من الكرامات الخيالية إلى هؤلاء الصلحاء يصعب التأكد من صحتها هم سيدي بولمان الذي يعطي الخصوبة للنساء، ...

ولبعض قبب هذه الشخصيات الورعة أشكال خاصة بعضها مزينة بشكل مقوس على شكل تاجفوق صف من الأعمدة / السواري، والبعض الآخر مفتوحة إلى السماء حيث يبقى قبر الولي رغم ذلك تفوح منه رائحة الولاية التي تطرد الذئاب الجائعة. وهناك أيضا أشجار نخيل مهروقة تماما، وبعضها نصفها مهروق وهذا الحرق أو التخريب "البربري" ليس إلا الوسيلة الوحيدة لمداواة النخل من حشرة تقتلها (البيوض). وواحة النخيل لا يبلغ عرضها أكثر من كلمتر، حيث نرى عبر [81] أشجار النخيل السهل المتحجر الذي يظهر وسط شمس الزوال.

يحتوي كل قصر الخربات أكثر من ألف وخمسمائة نسمة، وسوق أسرير القريب غاص بسوقته الرحل. بنى قصر أسرير رجال المخزن حسب ما يقال، ونجد به موظفا وبعض المخازنية حرسا، وهذا التجمع مقسوم قسمين، قسم خاص باليهود، والآخر بالحراطين حيث نجد ستمائة يهودي وألف حرطاني، ويعيش اليهود في أمان نسبي شريطة أن يكونوا تحت حمى أحد "السيدين": أيت مرغاد بالنسبة للخارج، والحرطاني بداخل القصر.

ينعقد سوق بحي اليهود بساحة الملاح تتحرك به جماعة من حوالي ألف وخمسمائة رجل، يباع فيه الشمع، والسكر، والشاي، والزبدة، والزيت، والتمور، والحبوب، واللحم، بأثمنة غالية بالمقارنة مع أسواق الساحل، أما البضائع فتباع بأثمنة منخفضة لأن "العشب" أصبح نادرا، والمجاعة سائدة في الجبال، وثمن العجل ثلاثون بسيطة، والخروف عشر بسيطات. أظهروا لنا التاجر يحيى في دكانه، وهو شيخ يهودي بلحيته البيضاء، يعد من أغنى الشخصيات بالمنطقة، ونرى من بعيد امرأة يهودية تعرض أمامها كومة من "طابا" والكيف، وتقتضي القوانين هنا أن لا تكون عند النساء دكاكين... فر زوجها تاركا وراءه كمية من سلعته، ويقتضي الأمر أن تستمر زوجته في بيع السلعة وتؤدي ديون زوجها وتربي أبناءها.

يراقب الأمازيغ جيدا وبحذر محضييهم اليهود، ويأخذون حقوقهم عن عملياتهم التجارية. وكان اليهودي يحرص على أن ينقص من هذه الضريبة، وكان أحدهما الذي يبيعنا الشعير حسب

طلبنا قد طلب منا أن ننتظره لحظة، وذهب ليبحث عن الحبوب بمنزله، وعاد خاوي الوفاض وقال: أطلب منكم الانتظار بعض الوقت فأمازيغي بمنزلي، ومن المستحيل أن أخرج أي سلعة أمامه [82].

وادي واد غريس، ممر وعين أمسد

مضايق واد تاغيا (واد غريس)

يبدو أن رجال هذه المنطقة أكثر ضيافة وأقل شكوكا من الرجال الذي سبق أن رأيناهم، ولكن هذا التفاؤل سرعان ما سيزول أمام متطلبات الساعة الأخيرة، لطلبات الزطاطة.

6 فبراير

دخلنا مساء إلى أراضي القبيلة الشهيرة لآيت عطا، وكان في حراستنا أربعة حراس "زطاطة" ثلاثة مشاة من فركلة وفارس واحد عطاوي.

سيكون هذا أول دخولنا في أول قصور تودغى، السهل أقل أمانا، ومن الأفضل أن نقوي حضورنا مع رفاقنا إلى حدود هضاب تسطافين، حيث يتوقف واد تودغى، وأودية هذه المنطقة موضوع "اختفاءات" خاصة، فهي تختفي أحيانا لتعود لتظهر من جديد خارج أرضها عن بعد، وهذا هو حال

واد تودغى الذي ينبع من جبل مكرور أَحنْصال ويجري في السهل ليسقي واحة نخيل خاصة بالقصور و"البساتين والعرصات"، ثم يختفي في مرتفعات تسطافين، أگادير نآيت عيسى أوبراهيم ثم يأتي ليغذي مئات من عيون ماء رأس الواد هضاب رأس سطاف وقصور الخربات تحت اسم واد فركلة الذي يعبر وقت سقوط الثلوج القوية واد فركلة بقوة ويتبع مساره في السهل في سرير لا يشكل طيلة السنة سوى طريق عريض من الحجارة، والحصى الملساء، وهكذا فإنه في بعض الأيام لا يشكل واد تودغى وواد فركلة سوى واد واحد. وتشكل منحدرات تسطافين مراعي مشهورة، يكتريها آيت عطا لأيت مرغاد، وينبت فيها بكثرة الشيح والدْرو، وصادف هذه السنة وجود خمسمائة خيمة، وخمسمائة أخرى للرعاة في كل هذا الهضبة ويؤدون في المقابل كل ثلاثة أشهر عشرين بسيطة للخيمة [83].

وصلنا إلى واحات نخيل تودغى، ومن الآن أصبحت طريق مرافقينا واضحة، وتوقفنا لمدة قصيرة بآمال قوية حيث كان كل واحد منا يعمل على إخفاء مشاعره. افترقنا واتجه البعض منا غربا، والبعض الآخر جنوبا نحو الجبال الزرقاء لصاغرو. ويمكن أن نتتبع بالمنظار قافلة بوليفة المتحركة في السهل، وصرح أحد خيالينا بلهجة فيها أحاسيس قوية:

"المال/ الثروة لا تتضاعف، والله وحده يعرف مع من سترافق"

نتحرك في جبل صاغرو بشكل مواز مع اتجاهه العام. حيث عبرنا أولا ثلاث أسرة لثلاثة وديان دون خضرة تسمى إيغيز نواقا سواء كانت بها مياه أو لا. ثم صعدنا بعد ذلك عتبة مكونة من طبقات كلسية في اتجاه الشمال. وتنفتح في الوراء فتحة مؤطرة بين سلسلتين من الهضاب حيث تنتصب بعض القصور المهترئة جدا لآيت الفرسي وهي فخذة من آيت عطا. نصبنا بالقرب من إحداها مخيمنا الذي تقلص إلى ثلاث خيام، إذ بقي عندنا سبع بغال وحمار فقط، وأصبح عددنا ثمانية هم: الشريف مولاي الحسن، والزناگي، وأنا مع فقيهنا وأربع خدام، ولم نعد نشكل سوى قافلة متواضعة. ورغم ذلك كنا نتخوف أن يقفل المخيم بابه الكبير في وجوهنا عندما اقتربنا منه، وقيل لنا إن علينا أن نستمر في طريقنا أو نعود من حيث جئنا.

وادي واد غريس، ساقية أغاغاد

وادي اغريس (اگويدير)

ولا تمر أي طريق من هنا ولا أحد من الزطاطة يعرفها، ولا يستطيع في أي وقت أن يقينا من بطش الرحل الذين يتحركون في كل صاغرو، لكن أصبح الإحساس في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى بالخوف وعدم الأمان، في هذه المناطق التي تخيم فيها المجاعة. كنا نتحرك بحذر وحيطة وتأن مخافة بطش آيت عطا. قدمت لنا بعد صلاة العصر الجماعية في ساحة المسجد مؤونة بئيسة جدا، لكن جعلت منا [84] ضيوفا للقبيلة الأكثر قوة وبطشا في الجنوب المغربي.

7 فبراير

انطلقنا على الساعة العاشرة، نسير في اتجاه الجنوب، والبلاد هنا مخيفة وأرضها كثيرة الحجارة السوداء واللامعة حيث تغطي بقاياها الصغيرة أرضها، والهضاب لها الشكل نفسه حيث تعلوها قشرة طينية جديدة، ونشاهد صفيحة صخرية رقيقة تبدو منتشرة فوق سطح الأرض. وهكذا تبدو من النظرة الممتدة، أشكال هضاب صاغرو مقتطفة بشكل غريب وتبلغ أقصى ارتفاع ثمانمائة متر فوق السهل، والجوانب المتوسطة بعلو ما بين مائتي وخمسين وثلاثمائة متر.

هذا البلد كئيب، دون ماء ولا سكان، ولا حياة برية حيث تعد مصادفة قطيع حيوانات ورؤية غزلان حدثا نادرا، وهذه السنة المنطقة مكسوة بأعشاب صحراوية صغيرة، وجافة لا تكاد تظهر من قصرها مشكلة زربية وسط هذا الصمت المعزول.

عبرنا أولا "فج" تيزي نبوجو، ثم اتسع الوادي بعد ذلك ليضيق من جديد بفج تيزي نتانّوت حيث تغطي بعض قطع النخل منبع عين وأشجار الدفلة. ينفتح وادي نون على البعد دون واد حيث نعبر الضفة الجنوبية لتيزي نسلان للدخول إلى سهل عمار وهو عبارة عن ثغر كبير من خمس عشرة إلى عشرين كلمترا عرضا كثير الحجارة. ورتيب يفصل صاغرو الحقيقي عن هضاب تشاوني التي

تشكل امتداده الشرقي، والذي ستختفي مرتفعاته التي تحاصره حيث هي متشابهة ومتجهة وتحيط بهذا السهل مثل الاسطبلات.

ولكل هذه الهضاب اسم مأخوذ من التاريخ المحلي أو من الأسطورة، وفي الشرق جرف باحدو التي ينحدر منها قاطع طريق مشهور يسمى تيلغت [85] نجايت (إبرة جايت)، وقاطع طريق مشهور أيضا في الغرب، وفي الغرب أربعة جبال كبيرة تحمل اسم تيزي نتلغمت، وتاسا نتلغمت، وعاري نتلغمت، قلب الناقة وكبدها ورأسها وأمعاؤها لأنها شخصية "خرافية"، التي لم يستطيعوا أن يذكروا لي اسمها بعدما قتلوا ناقتها وأكلوا بعض القطع منها من كل عضو.

توقفنا حوالي الساعة الخامسة والنصف في موقع خال يسمى تيگيرنا على قدم برج مربع حيث ترقد "صالحة" غودا نعيسى، ولم نجد أي شخص يحكي لنا قصتها، وهذا مشهد "مأساوي" حيث تنبت واحة صغيرة - تحت حراسة بعض الرعاة -، رطبة ونقية محصودة بعناية مفقودة، وشبه منسية في هذا السهل الجاف.

8 فبراير

انطلقنا في الساعة العاشرة صباحا، ووصلنا إلى هدفنا من المرحلة في الساعة السابعة وحل المساء بعد تسع ساعات من المشي دون كبير فائدة. عبرنا أولا هضاب عشيش التي تحد سهل عمار، الفج واسع مغطى بالطرفاء واختفى جدول صغير فجأة في أرضها العطشى، ثم ظهرت مغارة إيغيل نيغيال في الضفة الشرقية، وهناك آثار منازل حديثة تشهد بأن المارة كانت لهم عادة الاعتناء والاحتماء من البرد، والاستقرار بأماكن فيها قليل من الظل والرطوبة والماء. وهضاب عشيش عبارة عن صفائح صلصالية تمتد على عشرين درجة في اتجاه الجنوب، ويظهر من هذه الرحلة أنها تتجه في منحدر سهل/ رطبة، وتظهر من الشمال أجراف في السهل.

وادي فركلة، زاوية سيد الهواري

وادي فركلة، تيغدوين

يظهر عن بعد المدرج العريض: الحصية، الذي يغلق هضاب سردرار وإزرگن، وينبع واد حصيّا الذي يجري على سفح/ قدم هذه الجبال من الشرق. [86] من جبل سيدي علي بن موسى ليسقي تسعة قصور لآيت عطا التي تحمل الاسم الجماعي بقصور حصيّا، وتعرف بحقولها المغروسة بالطرفاء، والنخيل ثم يعبر بعد ذلك هضاب سردرار ليختفي بعد ذلك في صحراء المعيدر التي تمتد في الجنوب الغربي لتافيلالت.

ويمتد عن بعد سهل جديد عار أيضا لأن الجفاف سيحتد كلما اتجهنا نحو الصحراء، وهناك شط طيني يغطي في بعض الأماكن بأشجار السمار الذي يكون مركز هذه المنخفض. ويأتي واد تازارين ليختفي في ضفته الغربية. وليخرج من الضفة الشرقية الذي يحمل واد أجمو، وهذا الوادي آهل بقصور سهلة في عصابة من الخضرة، وأشجار الطرفاء في هذا السهل لتيفريت نيفراون الذي يعد أحد أهم المراكز لآيت عطا. فاجأنا حلول الليل وسط الهضاب الرملية "البيضاء"، التي تسبق وادي أجمو نتجول طويلا مغامرين للبحث عن قصر تاغبالوت حيث يوجد أصدقاء لحراسنا (زطاطينا).

كان وصولنا إلى القصر حدثا لافتا، حيث جاء في اتجاهنا كل الطفيليين أو المتخوفين حاملين في أيديهم عروشا من سعف النخيل أعطت لمخيمنا طابعا رائعا. اختاروا لنا بعد ساعة من المحادثات ركنا من الساحة العمومية حيث حفروا حفرا كبيرة لرمي الأزبال، ثم أطفئت المصابيح، وأغلقت الأبواب، وغادرونا دون أن يعطونا ولو جرة ماء...

10 فبراير

اضطرنا غياب مرشدين ومؤن على الإقامة البارحة بقصر تاغبالوت، حيث يبدو أن السكان مسالمون، حكماء وبئيسون جدا، والمنظر جميل لقصورهم ومغر لكن داخلها بئيس [87] والمنازل تتهدم. وتدل الحقول المغروسة بالطرفاء على كسلهم واقتصارهم على الحد الأدنى للبناء، حيث تحميهم من شر النهب. وعندما تحس فخذة أن مؤونتها أصبحت قليلة، أو بكل بساطة عندما يجند

الرجال للعب البارود فإنهم ينظمون حركة "ستأكل" أحد قصور واد دادس، أو واد درعة، أو واد غريس، أو واد تودغى، أو تافيلالت. وإذا ما قوبلت هذه الحرْكة بالعنف تعود لتبحث عن دعم، وإذا ما انتصرت بذبح الرجال الأحرار، يحتفظ ببعضهم من أجل البيع أو الاستعمال الخاص مثل النساء والأطفال والعبيد، وأخيرا إذا كانوا أقوياء يستقرون في القصر إلى أن يأتي يوم ما "برجال" أقوياء ليهجموا عليهم بدورهم. وعدم ثقة آيت عطا وتوجسهم خاص جدا، فعندما نسألهم عن الفخذات والأهمية العددية لقبيلتهم يجيبون بطريقة متحولة مختلفة "الله وحده يعرف عدد سكان آيت عطا". وبلادهم ليس لها حدود فهي تمتد من الشرق إلى الجنوب.

المرحلة صعبة من أجمو إلى تامگروت، حيث انطلقنا على الساعة السابعة والنصف صباحا، في الساعة السابعة مساء ضربنا خيامنا بمگربا على الساعة السابعة وأربعين دقيقة. وعندما غادرنا تاغبالوت صعدنا منحدرات أقا نغارت التي نرى من مرتفعاتها سهل تازاريا نصاغرو وعن بعد هضابها مسننة، والقمم البيضاء للأطلس الكبير، ويمتد في الجنوب مقعر عريض، تحت أرجلنا، وتنتشر فوق أرضها الطينية الصخور الصلبة والسوداء كما لو أنها معبدة، ومنحدرات الهضاب مغطاة بأزهار وردية صغيرة، وقطعان أغنام ترعى في هذه المراعي الفسيحة. خرجنا من هذه المرحلة الأولى للمنخفض من فج أقا نتروسي، وانفتح أمامنا سهل جديد، إنه سهل تامگروت المغلق بخطين مرتفعين حيث تلتقي من جهة الشرق والتي تحمل اسم جبل تادارت وتتجه بالموازاة في اتجاه الغرب على مرمى العين حيث يمتد سهل الفايجة. والسلسلة الشمالية، التي نعبرها تسمى جبل بوزروال إلى فتحة على واد درعة، وعلى البعد [88] يظهر جبل أولاد يحيى وأورير وغيشا... إلخ وهذا آخر جرف في الأطلس الكبير، والسلسلة الجنوبية تتقدم يمينا أمامنا وكذلك ثغر واضح جدا، وتاقات نكتاون التي يخرج منها واد درعة ليحمل بعد ذلك اسمي جبل تودما ثم جبل باني.

وادي فركلة، قصرا الخرب

وادي واد فركلة، زاوية سيدي الهواري وواحة نخيلها

والشكل النصف دائري لتادارات رائع، ويمكن أن نتبع منه في كل اتجاه طبقات صخرية "خيوطها" واضحة، وتمتد مثل خطوط الاستواء والقمة المستوية لا تتقطع إلا في ثغر واد درعة، ثم ينطلق/ ويمتد فجأة، وتدل سلسلة من الهضاب المنحوتة على وجود سلسلة ثانية متراكزة لكن طبقاتها عوض أن تكون أفقية، تتجه نحو شكل دائري. ويقطع هذا السهل في اتجاه الغرب بشريط أسود من نخيل واد درعة، الذي تمتد من أسفله صومعة تامگروت التي تشكل لمدة طويلة هدفنا ونقطة اتجاهنا.

حل الليل وتبعنا بصمت مرشدنا الذي يبدو مترددا ومرتبكا. وصلنا في الساعة السابعة تامگروت. المدينة مغلقة وسط حزام من الجدران القصيرة، وفتح لنا باب صغير بعد كلام أو محادثات طويلة، واتجهنا بشكل لا ينتهي عبر سلسلة من الأزقة الضيقة الكثيرة المحلات الفارغة والخربات، نهب آيت عطا حديثا حي سوقها، ثم فتح باب آخر ودخلنا إلى الحزام الثاني في الزاوية الشهيرة لأولاد نامر. الأسوار عالية والليل مظلم والأزقة مغطاة وبغالنا "منهكة"، تضرب الأبواب، وتسقط، وهذه نزهة فريدة وسط هذه المدينة المقدسة النائمة.

توقفنا وطرقنا الباب بقوة، ونحن الآن أمام زاوية، كنا ننادي ونطرق الأبواب ونشعل الأضواء وذهبت كل مجهوداتنا سدى. يبدو المنزل "المقدس" خاليا، وأخيرا سمعنا صوتا "حزينا"، وهو صوت "عبد" يمشي الهوينا رادا على النداءات المتكررة لحراسنا "زطاطنا" قائلا: "منزل الأشراف فارغة، والسادة في سفر، تابعوا طريقكم أيها الزوار المنحوسون" فغيرنا اتجاهنا، والتفت بغالنا في هذه [89] الزنقة المظلمة لكن دون جدوى، ثم عدنا للف عبر الأحياء الصامتة والخربة، وبعدما عبرنا الأسوار وجدنا أنفسنا في السهل دون نزل أو مقر للإقامة. واقترح علينا زطاطتنا (حراسنا) أن نذهب لنعسكر في أحد القصور المجاورة بالمگربا، وفعلا ذهبنا إلى ذلك المكان وبنينا خيامنا فوق أرضية مستوية صلبة بالقرب من قافلة جمال دون أن نتمكن من "إشراب" بغالنا.

11 فبراير

جاء مقدم الزاوية الناصرية شخصيا منذ الساعات الأولى للفجر ليعتذر لنا عن الاستقبال غير المشرف للضيوف الذي لاقيناه هذا المساء، وأكد لنا أن عبد الحراسة قد أشبع ضربا الذي سمعناه بحضورنا، وتوسل إلينا أن نعود ونضرب خيامنا بالزاوية، قبلنا أن نغير إقامتنا مع حفظ دم الوجه

إلى ما بعد الغد، ووعدناه بأننا سنقيم بالزاوية بعد عيد الأضحى (الكبير) الذي سيحل يوم خمس عشرة فبراير، هكذا لم يستطع أي أحد أن ينطلق بعد هذه الدعوة العائلية والدينية. إضافة إلى أن لي راصدتين للنجوم يومي الثالث عشر والرابع عشر من فبراير، مما يفرض علي أن أبقى في مكاني واعتبرت أن الزاوية يتوافر فيها الأمان والحماية اللتان أنا بحاجة إليهما ويعتبران ضروريان، وكذلك الراحة التي نحن بحاجة إليها. لكن مسألة هامة وصعبة تثار هنا وهي: ما هو المسار الذي سنتبعه للذهاب إلى واد نون؟ فالطريق المعتادة تمر عبر تيسنت وطاطا وآقا وبعد ذلك نصل إلى گلمميم، وهذه الطريق ممنوعة علينا مادام أننا سنصادف بها أناسا يعرفوننا، علما أن دوفوكو أقام مدة طويلة هنا في هذه المنطقة التي تنتمي إليها مرشده الرِّبي مردوخاي سرور، وبالتالي علينا إيجاد مسار آخر، وذريعة لتلافي هذا المسار التقليدي لأن الذهاب من تامگروت إلى واد نون دون العبور عبر تيسنت يبدو شيئا غريبا مثل الذهاب من سان دوني إلى فرساي [90] دون المرور عبر باريس.

جبل صاغرو فجوة عمار

جبل صاغرو، تيگلمان قبر من روضة عيسى

فهل سنتجه شمالا: عبر الجبل، أو وجنوبا: عبر الصحراء؟ يبدو من الأفيد لنا -دون شك- أن ننزل عبر وادي درعة وأن نذهب من معدر إلى معدر لنبني خيامنا عند الرحل أو عند الرعاة، والهدف من هذه الطريق صفر ولا شيء، والمراحل التي عبرناها في أودية غريس وفركلة أوقفتنا على رتابة هذه الواحات، وأول مرشد/ مخبر سيخبرنا من هنا عن أسماء القصور التي سنمر منها، عكس الشيء إذا اتجهنا شمالا: في قدم/سفح الأطلس الكبير، حيث سنعبر منطقة غير معروفة وآهلة بالسكان وخصبة. العائق هو أن لا أحد يستطيع، أو يريد أن يدلنا عن طبيعة هذا المسار. وكنت أجاب عن كل أسئلتي بالمثل "البربري: "سيترك فيها العصفور ريشه" [91].

الفصل الرابع
من واد درعة إلى زاوية سيدي امحمد أويعقوب

12 فبراير

رجعنا إلى تامگروت استجابة لدعوة شيوخ الناصرية، لا يفصل سوى كلمترين لمْگربة والمدينة "المقدسة"، وتمتد شرقا: الصحراء "الوردية"، ذات الأحجار الكثيرة حيث لا تنبت أي نبتة، ويوجد في الغرب بالقرب منها واحات درعة حيث بعض الحقول الصغيرة المحاطة بأسوار من التابية (الطين) قصيرة تنتج الشعير، واليقطين/ والقرع، واللفت، والجزر، وتجري وسط الحقول السواقي مياهها مختلطة بالوحل، وتشكل دعامات لواحات النخيل ولكل جماعة من القصر ساقية لمْگربة، وتامگروت، وزاوية سيد الناس، وتزروت كلها تسقى من ساقية تيسرگات. ولكل مركز من هذه المراكز الحق في أربعة أيام متتالية للسقي. وتوزيع الماء هو موضوع اهتمام الناس وعنايتهم، والسبب في كل الخصومات. يجري واد درعة هذه السنة إلى حدود الجانبين والسلم سائد بين سكانه المجاورين. لم يعكر صفو هذا الهدوء سوى ظلم الأمازيغ هؤلاء السادة الكبار الذين وصف دوفوكو عاداتهم بدقة. تعيش القصور في خوف دائم، حيث ينتصب عشرة رجال بالمداومة أمام باب لمْگربة، وتزين بنادق هذا المركز وأكياس البارود أسوارها.

اليوم يوم سبت، يوم سوف يعود فيه الناس إلى منازلهم، والأنشطة التجارية كانت ضعيفة في تامگروت، اختار سيدي امْحمّد بن ناصر مؤسس هذه المدينة هذا اليوم "سبات" شباط، ليمنع كل العلاقات التجارية [92] بين خدامه/ أتباعه واليهود الذين منعهم من دخول المدينة، السوق غاص عبرناه في الوقت الذي يعود فيه الناس إلى منازلهم، والأنشطة التجارية كانت ضعيفة، والقوافل لم تعد مع اقتراب العيد، علما أنه بيعت مئات رؤوس الأغنام من أجل أضحية العيد، السوق مغبر كثيرا بفعل غبار القطعان.

جبل صاغرو، رؤية من وادي فركلة، رأس سطاف يسارا

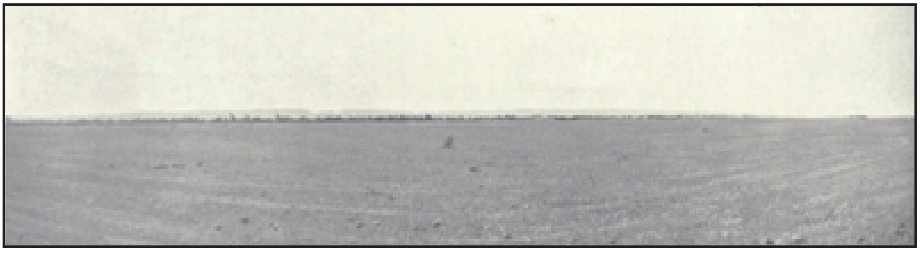

السهل الصحراوي للحصية، وفي الأفق واحة نخيل واد أجمو، (واد تازارين)

شاهدنا في واضحة النهار المسار المعقد الذي سلكناه البارحة، باب الزاوية مفتوحا وتتبعنا ممرا مظلما ضيقا جدا لعبور حمولة بغالنا، ودخلنا إلى ساحة داخلية ضيقة مقطوعة في وسطها بركة /ضاية ماء راكد بالقرب من قبة الولي سيدي احمد بن ناصر. أثار هذا القرب للماء من الزاوية خشوع مرافقي وخوفهم، وتنازعوا حول هذا "التدنيس"، سحب الفقيه بعنف سبحته وردد أدعية الأموات وقام خدام الزاوية وأعيان المدينة حولنا وكانت لحظة صعبة جدا بين إحساس توجس مضيفنا وخوف خدامنا. مقدم الزاوية عبد زنجي يبدو ذكيا، تمنى لنا مقاما سعيدا، وأخبرنا بأن زوجة سيدي الحنفي سيدة العائلة سعيدة بوجودنا تحت سقفها وجاءنا بزنجي صغير يبلغ من العمر عشر سنوات، بمعالم وتصرفات مميزة وهو الإبن البكر لمضيفنا.

الخيام منصوبة، والبغال "مربوطة" نشرب الشاي ونتحدث "وبحثنا" بطبيعة الحال عن سبب غياب "الشرفا"، الهدف من رحلتنا ومن الغريب أن تكون زاوية شهيرة في كل بلاد الإسلام بولاياتها وغناها خالية. وهذه هي الأسباب: فبعد وفاة سيدي بوبكر (بن علي بن يوسف) طالب سيدي الحنفي بركة الناصرية هو وولده وسيدي الحبيب وحفيده، وأثار هذا التنازع تشتث قسم من الأتباع، وانقسمت الزاوية قسمين وتقسمت معها الثروة والرفه، ولم يعد ضراوة يحترمون شرفاءهم ولم تعد الزيارات [93] تقبض وأصبحت ميزانية الزاوية متأثرة بكثرة مصاريف الضيافة والحرب، وكان عليها أن تسدد ديونها، وكان آيت عطا الذين كانوا حلفاء للمتنازعين عن الخلافة قد قدموا بعض النقود ثم طلبوا بعد ذلك استعادتها، ومادام لم يتوصلوا بها فإنهم هاجموا تامگروت ونهبوا حيا منها. وفر سيدي الحبيب أولا، ثم حمل نساءه وخدمه واتجه نحو سوس حيث أسس أو رمم فقط أدوار الزاوية.

أما بالنسبة لسيدي الحنفي فقد بقي وحيدا في مواجهة متطلبات الزاوية وأعباء الضيافة، ثم ذهب في رحلة وتحرك في الجنوب منذ سنتين لملأ خزينته الفارغة، باستعطافه أتباعه الأوفياء. وكانت هذه الاختلافات في صالح العائلات التي أصبحت تقوم بما تقوم به الناصرية وأكثرها حظا هم شرفاء تامصلحوت الذين عرفوا كيف يرتبطون بقبيلة آيت عطا. ومثل مولاي الحاج عبد الله بن حساين شيخ الزاوية بأحد أحفاده سيدي بوعزة أودريس الذي يسكن بتازارين، وحددت زيارة آيت عطا بقانون/ عرف علمنا بعض بنوده من مثل:

"يؤدى مثقال لكل طفل وليد وبجواد يشترى وخروف واحد لكل مائة رأس، وثلث المحاصيل الزراعية، وثمن منتوج الحناء... إلخ".

التقيت بسيدي الحنفي بموگادور (الصويرة) حيث كان مصحوبا بثلاثين من ضراوة، وقيل إن هذا الشريف كان يُهدى امرأة من البلاد في كل مرحلة يتزوجها ويطلقها بعد أن يرفع مخيمه. وأضاف مخبرنا أن ذلك يعتبر مثل بركة، وحظوة، وشرف، يعطى للزوج العابر... ومادمنا أبدينا امتعاضنا من شطط هذه المؤسسة الأكثر احتراما، أجابنا المقدم:

"إن من تجري في عروقه نقطة من دم الرسول أهل لكل خير في العالم...!"[94].

وادي درعة، مدينة تامگروت كما ترى من المگربة

وادي درعة، واحة نخيل المگربة

نحن هنا في بلاد السواد، فالكل ضراوة، والحراطين، والقبّالة، والشرفاء بلون أسود مع بعض الفروق البسيطة التي يمكن الوقوف عندها بصعوبة، وهاكم الطريقة التي يفسرون بها اختلافاتهم الاثنوغرافية وأصولهم:

فالطبقة/ الفئة العليا مكونة من الأحرار، والسفلى من الحراطين (جمع حرطاني)، ويقول الأولون إن أغلبهم من السكان الأصليين أصبحوا برابر سودا وأسلموا، والآخرون جاءوا من بلاد السودان. ويفصل بين الفئتين جدار اجتماعي حيث تتجلى دونية الحراطين بأن يمنع عنهم تزوج امرأة من الأحرار. لما وقفت على هذا التفسير كنت مجبرا على أن أقيم الفروق بين الناس الذين لاحظتهم بدون شك فإننا نجد النوع "البربري" والنوع الزنجي في كل طهارته عند بعض الناس محدود العدد. ويصعب في أغلب الحالات أن تقوم بتمييز عند تلاقح الرجال الأحرار والنساء الزنجيات الأَموات، حيث يختلط الجنس. والضراوي حر مثل كل المغاربة. ومثل أغلب المسلمين في شمال أفريقيا فإن له تعلق خاص بالزنجيات اللواتي يتمتعن كما قال أحد مضيفنا "بقوة طباع، ولا مبالاة في التصرف أحسن من نسائنا".

والقبْلي/أقبلي (جمع قبالة يعني الرجل من الجنوب) ضراوي وعادة ما يكون حرطانيا. وهذا التحديد متعارف عليه في وادي درعة، ولا يستعمل إلا في حوض تافيلالت أو في الأطلس الصغير. وأصبح عبدا لأن الضراوي خارج بلده يعتبر أحيانا عبدا. ويوجد بين مختلف هذه الأجناس عدة "طبقات/فئات/طوائف"، وتنقسم الساكنة إلى برْابر، وشرفا، وضراوة.

"البربري" هو إمازيغن من الرحل أو المقيمين، مثل آيت عطا، وأولاد يحيى. ويحمل في الأطلس الكبير اسم "الشلوح" لأسباب لا أعرفها جدا خاصة أنه يتكلم الشلحة كما لو أنه كذلك... و"البربري" هو سيد وزعيم السهل والجبل، ويدعي أن له الحق في التصرف في واحات النخيل والقصور والمدن و"البساتين والعرصات" [95].

ولقْصوري (ساكن القصر) يكون إذن مضطرا أن يقر بتفوق "البربري"، ويشتري حمايته، وهذه الصفقة تسمى: الذبيحة، لأن المحمي سابقا كان يذبح بهيمة أمام خيمة أو منزل حاميه، مما يقتضي دفع بعض الإتاوات التي تختلف بين الحين والآخر لكن المعدل هو حمولة رجلين من الشعير وحادي عشرا من التمر. وبهذا الثمن يشتري الضراوي أمانه، ليس فقط أن محصوله سيكون محروسا بل إنه سيكون معوضا إذا ما تعرض لسرقة.

و"البربري" لا يهتم نهائيا بالشؤون الداخلية لزبنائه، وإذا تصارع ضراوة، أو هجم بعضهم على بعض فهذا من حقهم ولا يتدخل إلا إذا نودي عليه، ويجب عليه في هذه الحالة أن يؤدي إسهامه، أو إذا تعرض لهجوم خارجي من قبيلة-بربرية أخرى، فإنه يعرض ممتلكات زبونه للضياع. وللبرابر في تجمعاتهم ضراوة حراطين أو قبالة، فهم عبيد مع كل "المصادرة"، كل البؤس الذي تجلبه هذه الخدمة، فهم يقتلون ويباعون ويستبدلون، وقيمتهم التجارية متغيرة. ويحدث أحيانا أن يشكل هؤلاء الحراطين فئة من المهذبين ويأخذون قصرا، ويسكنون بحرية مؤدين ذبيحة للبرابر.

والطائفة الثانية هي الشرفاء و"المرابْطين" الذين يسميه إمازيغن أگورام (إگورامن)، والشرفا من فروع مختلفة وينتشرون في حوض واد درعة ينحدرون من العائلة نفسها، والبركة متوارثة، والتابع يرث، وفي الأخير يقسم المدخول على الزاوية وضريحها، فهو يستغلها بأحسن طريقة لكن التنافس عن الورع بين شخصياتها قد قلل من التسول. ويتصارعون أسفل قبتنا بمجرد ما تبنى خيامنا ويأكلون مؤونتنا [96] وينامون في ظل خيامنا ولا يخرجون أبدا منها إلا إذا عندما نرفع المخيم. وزوايا درعة متعددة، وهي فقيرة جدا عموما، والبرابر يعرضون عليها الذبيحة ولا يفوتون أي فرصة للهجوم عليها. وهذا الإفراط في الاحترام للمؤسسات والشخصيات الدينية ليس دليلا على حياة دينية سليمة، ف"ضراوة" مؤمنون ومتعبدون ولكن ليسوا متعصبين، والبرابر أكثر مرونة لكن غير متسامحين وقربهم من الجزائر يزيد من كرههم للمسيحيين.

13 فبراير

رغم اسمها، أو صيتها، أو قيمتها ومكانتها فإن تامگروت، ليست سوى قصر كبير ليس بالآهل بالسكان كثيرا، وليس سوى تجمعات مبنية بالطين على طول واد درعة. ولها أربعة أبواب هي: فم السوق (شمالا:) فم تاوريرت (الشمال الشرقي) باب الرزق (الجنوب الغربي) فم السور (الشرق).

ومرد وضعيتها الاستثنائية في قسم كبير منها يعود إلى الشرفاء الناصريين المعروفيين والذين يقصدهم الزوار من مختلف بقاع العالم الإسلامي. ومؤسسها هو سيدي أبو حفص عمرو الأنصاري. وهو شخصية ورعة، يحيى حياة صوفية، يعيش في الظل غير معروف، حوفظ على زاويته، وأظهروا لنا

البئر التي كان يسقي منها الشخص الورع، وتذكر كتب مناقبه أنه دعا الله بأن يتحول هذا الماء الزلال والعذب لهذا البئر إلى ماء مالح، واستجاب له الله وأصبح لا يشرب! وهناك أولياء، آخرون بتامگروت محترمون مثل: سيدي الحاج إبراهيم (الينبوعي الأنصاري) مؤسس زاوية سيد الناس منتسب إلى الرسول، وسيدي بلقاسم (الشيخ التقنوتي) الشهير بعلمه الغزير.

وحقول تمگروت خصبة، بها مياه كثيرة لكن الظل بها نادر، ولا تشكل أشجار النخيل غابة كثيفة فبين الشجرة والأخرى مسافة، ثم إن أشجار الكروم (التين) وأشجار المشمش والليمون [97] واشجار الإجاص والأشجار المثمرة بها كثيرة، ثم هناك في بعض الأماكن ضايات ماء مالح حولها، وتنبت حولها "أشجار الليم"، والسواقي ليست مصانة جيدا، وتبدو في كل مكان كما لو أنها جداول بعرض مترين أو أكثر، والماء بها جرار ودافئ، ويتوقف تارة، ويتحرك تارة أخرى بطريقة بطيئة وسط الأوحال، يجري بسرعة تارة أخرى ويمر عبر مئات القنوات ليختفي أسفل جدران الأسوار ويملأ السواقي التي تغذي الحقول. نحن الآن في فترة الأربعة أيام التي تسقي ساقية تاسرگات حقول تامگروت، والواحة غاصة بالناس بفؤوسهم يراقبون مسقياتهم.

أردت أن أتحرك لرؤية الواد نفسه، تلزمني عشر دقائق لأصل إليه مرورا بزاوية سيد الناس والواد نهر جميل هادئ من أربعين إلى ثمانين مترا عرضا لكن دون عمق، يبلغ سريره من الرمل والأحجار حوالي ثلاثمائة متر بين "الجسور" المغروسة بأشجار الطرفاء، والضفة اليمنى خالية وبها رمال قليلة، وتغطى في الأمام بالنخيل، في حين واحات النخيل بالضفة الجنوبية تبدو واضحة. الماء غير جيد "مبتذل" بعض الشيء لكنه منعش كثيرا. وتبعا لعادات الزوار الرحل الذين يأتون هنا من عمق الصحراء، شربنا الماء وقمنا بطقوسنا وصلينا صلاة العصر على ضفاف درعة الذي يصفي ماؤه الأجسام والأرواح. وتثير هذه السذاجة أو السخرية، ويجب أن نحيل هنا على الحكايات الخارقة والأساطير القديمة من مثل ما يحكي باطليموس أن الفيلة كانت تشرب من دارادوس، ويمكن أن نرى بسهولة الأفق الصلب للهضاب المستوية لبوزروال وتادرارت وتودمة حيث السماء صافية جدا، والفضاء اللامتناهي والصمت المطبق في هذا المشهد حيث يموت الكل من جراء العطش، وتبدو آخر المياه القليلة المتبقية من الوديان الصحراوية [98].

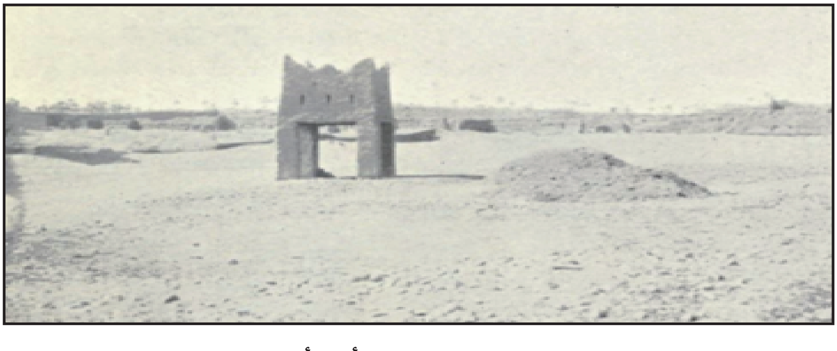

وادي درعة، ضريح الصالح أغلاو أودرار

وادي درعة كما يبدو من أعالي تامگروت

14 فبراير

ذهبنا لزيارة ضريح سيدي امّحمّد بن ناصر الذي يذكرنا بأبي مدين بتلمسان، وهو عصري على الأقل في قسم منه، وتشير أرجوزة نظمها ابن القاضي الحالي سيدي القرشي (السملالي) أن القبة هدمت من جراء حريق وأنه أعيد بناؤها في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1869. كتب بيتان من الرجز في واجهة البناية "وكان الفراغ من كتابة هذه الصباغة بعون الله وحمده يوم 24 رجب 1286 للهجرة".

القبة مربعة بشكل تقليدي ومزينة بالأرابيسك الأخضر والوردي، وبخطوط كوفية مقطعة في الجبس عبارة عن أبيات أغلبها من قصيدة البردة، والسقف على شكل هرمي مربع الأضلع ومغطى بالقرميد الأخضر المطلي، وفوقه ثلاث كرات مذهبة تدل على ولاية المكان. تتبعنا ممرا ضيقا يفضي إلى مسجد الزاوية، وهو كبير وأبيض كله باستثناء إطار الباب والمحراب المزين، وتحمل أربع "أعمدة" مربعة القبب حيث وضع السقف. دخلنا إلى ساحة غاصة بالناس والقبة مسبوقة بشرفات/ سواري مزينة ومصبوغة بأشكال بدائية جدا، ومنحدرة يمكن أن نمر من أسفلها بسهولة لتصل إلى العتبة، نزعنا "بلاغينا" ودخلنا يتقدمنا المقدم الوحيد الذي يملك المفتاح ولا يفتح إلا للناس ذوي الحظوة.

والقبر داخل القبة على شكل صليب في الوسط، وتشكل الثلاث دعامات مقببة تنتهي بنوافذ من زجاج مختلف الألوان، يفضي الباب الرابع الذي دخلنا منه إلى ضريح الولي إلى [99] ساحة داخلية بباب ونافذة مسيجة، والغرفة مظلمة والقبر مغطى بقطع أثواب حمراء، بسرير كبير من الخشب وتوجد كرة بكل ركن، والولي دفين الوسط، وأتباعه في الأركان.

يضم هذا الضريح أربعة عشر قبرا وهي: سيدي عبد الله بن الحسن القباب "رائد" الناصرية. وسيدي أمْحمّد بن ناصر أول الناصرية، وسيدي أحمد بن ناصر الملقب بالخليفة ابنه، وسيدي أحمد أوبراهيم الأنصاري الملقب بأبي العباس الذي بنى المسجد الكبير لتامگروت، وميمونة أم أبي

العباس، وحفصة أم الخليفة، وأمينة زوج أحمد الخليفة سليلة أبي بكر الصديق! وصفية زوجة أخرى للخليفة، سيدي امْحمّد الصغير سيد زاوية البركة التي لا تزال يسيرها أخلافه.، سيدي يوسف بن سيدي احمد أو محمد المعروف في زواية تامسكورت (بزيان). وسيدي علي أويوسف ابن السابق الملقب بأبي الحسن. وسيدي جعفر بن موسى أخ سيدي محمد المكي بن موسى بن امحمد بن ناصر مؤلف الكتاب الشهير حول درعة بعنوان "الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة" حيث نجد ضمن أشياء أخرى في هذا الكتاب الأسطورة القائلة بأن الرسول أكل بوسكري من واحات واد درعة. وأبو بكر جد سيدي الحنفي المتوفى سنة 1281هـ/1864م. وسيدي محمد بن أبي بكر والد سيدي الحنفي صاحب "البركة" الحالي. وهناك ثريا من الكريسطال متدلية فوق قبر الولي، وقبب "قاعات صلاة" تحمل مصابيح من الحديد، وجبس [100] السواري والقبب، وخشب الأبواب، والنوافذ، والرفوف منحوثة بطريقة دقيقة.

وادي درعة، تامگروت وعرصاتها في الجهة الغربية

وادي درعة، تامگروت من الجهة الغربية

وزخارف ترسم شبكة بيضاء، وخضراء ووردية والخشب مصبوغ بالأصفر "الغامق"، ومضمون هذه الخطوط أسماء الأموات ومناقبهم وأدعية الشكر لله. جعلونا نخفض الأسكوگراف والأربعة زوايا، ثم جلسنا فوق زربية فارسية قديمة، أشعلنا بعض أنواع البخور، وتلا مولاي الحسن بصوت خافت بعض الأدعية ختمناها بالدعاء بآمين. وخرجنا بعد أن أعطينا دوروين للمقدم الذي يتبعنا إلى عتبة خيمتنا وتمنى لنا السعادة والرخاء ودعا لنا. واصلنا تحركنا في المدينة وفي حقولها ليلا، وأرونا القبة التي دفن بها مؤسس تامگروت التي توجد في مكان أعلى من قبة الناصرية لكن أقل غنى منها. وعمل الزناگي بكل قواه على زيارة خزانة المكتبة الغنية، التي تضم حوالي عشرة آلاف مجلد ومخطوط جمعها أجداد الشرفاء خاصة سيدي امْحمد بن ناصر الذي عاش طويلا بالقاهرة، حتى جلب عليه شغفه الكتب لقب "طاعون الكتب" ولا أحد يستطيع اليوم الوصول إلى هذه المكتبة وهي مغلقة بطريقة محكمة جدا، ولا يمكن أن ندخل إليها، ولكن ليس بالصعوبة نفسها إذا أردنا الحصول على الكتب. وجاء عدة أعيان يعرضون علينا اقتناء كتب بثمن بخس جدا ولا يذكرون مصدرها. وتتضمن كل هذه الكتب ملاحظات مخطوطة بيد الشرفاء. اقتنينا بعضها بعد أن عمل البائع على أن يمحو منها كلمات تحيل على مالكها [101].

وقالت لنا "الزاوية" إنه من المستحيل الحصول على شعير من أجل بغالنا، تزايد نقص المؤونة، وأصبحت تعطي "الفصة" إلى بهائم تامگروت، وثمن الشعير الآن خمسة وعشرون بسيطة "للكنطال" ويستحيل الحصول عليه بأي ثمن فيما بعد.

أتى زناگة الرحل على مغروسات الفايجة. تشكل هذه المجاعة حاجزا وعائقا لتحقيق مشاريعنا وتضاعف من اللاأمن في الطريق ومصاريفها ومتاعبها. أما بالنسبة لنا نحن فالزاوية تغذينا بأقل المصاريف، لكننا لم نأت إلى تامگروت من أجل "وصلات مكلفة". أتوا في الساعة الثامنة صباحا بالحساء التي يسميها البربر "أصا"، وهي شراب من طحين الشعير أو الذرة. وغالبا ما تكون حارة المذاق أو كثيرة التوابل تشرب بملاعق خشبية، ويقدم لنا حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الزوال الكسكس. وهو الكسكس الجزائري المبلل بالمرق الأحمر أو مرشوش بالفلفل الأسود و"القرفاء". ويقدم لنا على الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساء، لحم بالمرق الأحمر والفلفل الأسود، وتشرب بعد الوجبات عدة كؤوس الشاي الأخضر بالنعناع الحلو جدا، وبعض رشفات ماء تفوح منه رائحة قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز. واستطعت أن آخذ منظاري في شروط جيدة، وأن أوجه نظارتي الكبرى في اتجاه القمر من أجل الحصول على معلومات عنه، وتوقفت على "نجمة الثور" الجميلة والكبيرة جدا مساء هذا اليوم حصلت على "نجمة" صغيرة ب5. 7 من الكبر، وأفزعت هذه التجارب الفلكية مرافقي، وقلت لهم إن المؤسس الأكبر لهذه الزاوية كان عالما وأنه سينظر بعين الرضى لكل أعمالي العلمية.

15 فبراير

جاء أحد خدامي ليفتح باب الخيمة [102] ليقدم لي طابق تاگلا (العصيدة) الساخن،

وتسمى تاگلا أيضا هربل! وهو عبارة عن عصيد من القمح "المطبوخ" بالماء أو بعض حبات الدرة "المهرمشة" فوقها بعض لحم الخروف وسط مرق بالفلفل الأحمر أو "الإبزار". وتدل هذه الخدمات الصباحية على حظوة الضيف. تناولنا الفطور ثم استعدوا للذهاب إلى الصلاة، التي أقيمت خارج الأسوار حيث لا مسجد يستطيع أن يستوعب الأعداد الكبيرة للمصلين الذين اصطفوا خلف الإمام. شرع الإمام بعد الصلاة في الخطبة ثم المراسيم الرسمية، ثم أعطيت الكلمة لأصوات البارود حيث الله وحده يعلم كم يستهلك منه يوم العيد الكبير (الأضحى).

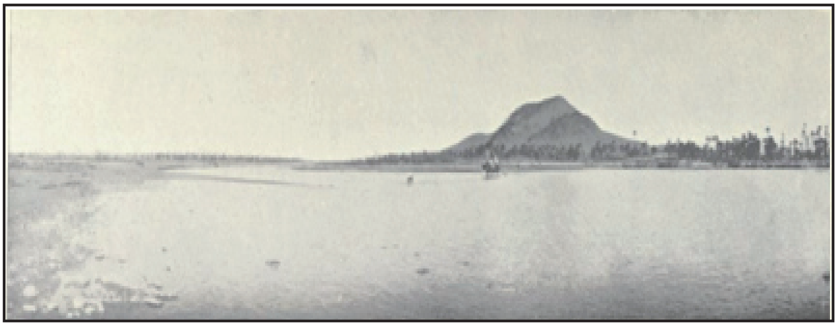

وادي درعة، برج أنروز

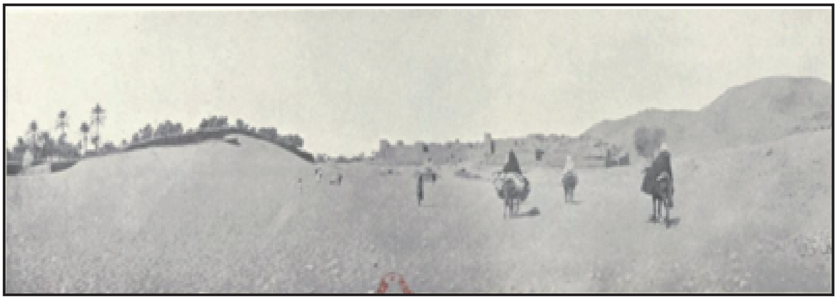

وادي درعة، مدينة أمزرو كما تبدو من الجنوب

وعلى كل الرجال البالغين الحضور إلى صلاة الصبح، كان سيدي امْحمد بن ناصر حريصا على ذلك، ودعا بالسوء على كل من تخلف عنه، وتبقى المدينة إذن بيد النساء، وهن بدورهن لهن عاداتهن، حيث يعمل "المنعزلون أو النساك" والعبيد طيلة السنة ينتظرون هذا اليوم للبحث وأخذ كل ما يريدون. بدت لنا هذه الرخص خطيرة على أمتعتنا خاصة أننا علمنا أن الزاوية غاصة بالنساء اللواتي أثار مخيمنا فضولهن كثيرا. وتقرر إذن أنه في الوقت الذي يذهب فيه مرافقي إلى المسجد أن يبقى الزناگي وأنا غير المهتمين بدعوات المؤسس/ الصالح لحراسة خيامنا.

وبمجرد ما تحركت بغالنا الحاملة لمرافقي من أجل الصلاة بعيدا حتى بدأت موجة من النساء تتحرك في الشوارع، ولم يكن في البداية سوى تحرك بسيط بالأرجل الحافية وهمسات خفية، ثم تسارعت الأصوات والحركات، والقهقهات وكنا نرى من ثقب "السور"، العيون الضاحكة والمنتبهة،

فبدأن بمراقبتنا أولا عن بعد بحذر وشيئا فشيئا تتشجعن، وشرعت الأوليات في الدخول إلى ساحتنا مع بعض الفتيات برؤوس نصف حلقة و[103] منفوشة معقودة، بعقود كبيرة من "الزجاج" أو "العنبر" التائهة وسط العنق، وأساور فضية في الأيدي والأذان.

جاءت بعض الفتيات الصغيرات، والنساء الكبيرات (عجوزات) تلبسن الخنث الأزرق المتسخ، ودخلن دون استئذان لخيامنا، وجلسن كيفما اتفق فوق زرابينا، وشرعن في قص حكاياتهن البئيسة، وطلبن منا تحقيق ما يردن، ولما رأين منا عدم الاكتراث بما يحكين خرجن باستثناء واحدة، جارتنا وجدت نفسها مضطرة أن تبقى وحيدة بحكم الجوار، ففرضت نفسها حارسة لنا، وطلبت منا أن نحتاط من عدم سرية الحرطانيات. وفعلا كن غير قادرات على كتمان السر! فالأولى التي دخلت الخيمة أصدرت صراخا استغرابيا أو إنكاريا، وهذا الاستغراب "مخدوم" بدقة لأنني سمعت منذ لحظة لمكيدة مجموعة من (ستة) نساء أفشين السر بعد أن دخلن خيمتنا. وكان خلف هذه المتجرئة أخريات اقتحمن فجأة، وتحلق حولي دقيقتين بعد ذلك جماعة (إثنا عشر) من الرجال الشباب لا يبدو عليهم لا القلق ولا المحافظة، وشرعوا في تفتيش دقيق لأمتعتي. ورافق ذلك عدة صراخات استغراب وعلامات استعجاب وقهقهات.

والنساء الثريات يعرفن بلباسهن وحليهن: قطع ثوب بيضاء شفافة، مجوهرات كبيرة من فضة، وعقود كبيرة، ومناديل من الحرير الأخضر ومجوهرات ملونة. وسواء كن غنيات أو فقيرات، فإنهن يلتحفن لباسا يربط إلى حدود البطن، ولا شيء يضحك مثل رؤية زنجية "غليظة" في تنورة ناصعة الألوان [104].

وطريقة عمليات التنظيف الجميلة هاته مختصرة جدا، علما أن القميص القطني والسراويل قصيران، ولا شيء يفهم، فالكل ملتحف، مع وجود حبلين/ شريطين فوق الكتفين يربطان القسم الأمامي، والقسم الخلفي يجمعهما حول الجسم، ليكون اللباس مفتوحا على مصراعيه حول الجانبين والكتف إلى الخاصرتين. "تظهر لنا جمالها" وتجهل الضراويات الصغيرات أن لهن "صدورا منحوتة"، وأنهن مثار إعجاب العموم، ويبدأ هذا اللباس في الانحدار إلى الأسفل تارة إلى الكوع وأخرى إلى الركبة، وأحيانا إلى أماكن علوية، ثم تلتحف إلى درجة أنه لا يترك فيها إلا ما تريد إظهاره، ومثلها مثل البدويات فإنها تشمر عن جانبيها عندما تنزل الأمطار فجأة.

وحلاقة نساء تامگروت مختلفة عن حلاقة أيت مرغاد، فالشعر مغطى بمناديل صغيرة، على مثل طريقة زنجيات السودان حيث تجمع إلى الأعلى مع فارق في الوسط معقودة على العنق. والضراويات لسن جميلات، واحدة فقط من زائراتي تبدو عليها ملامح جمال أسيوي، بعينين كبيرتين وطويلتين ورأس دائري ينتهي فجأة بذقن حاد، وأسنان مصففة مثل حبات الأرز تضفي السحنة النحاسية الصفراء، والأخريات قبيحات خاصة أن سوادهن لا يشبه الزنجيات المتزينات بمواد تجميل مثل النساء العربيات في الخدين أسفل العينين، وفوق الأنف والذقن على شكل ذبابات في كل مكان.

ورأيت عدة نساء بيضاوات ذوات حظوة في ملك الشرفاء. وأخيرا فإن تلك النساء تتحملن وزر أصلهن، فتصدر روائح كريهة، ويستمتعن بوضع روائح قوية مما يعطي خليطا من الروائح لا يمكن تحملها. مرت حوالي ساعتين عن هذا "الاجتياح النسائي" عندما سمعنا دوي مدافع بعيدة وكان ذلك علامة على نهاية "الدعوات" ولم أستطع أن أخفي إعجابي برجال يقظين مثلهم، اختفت نساؤهم [105] فجأة عند عودتهم، واختفت كلهن ولم يبق منهن سوى جارتنا العجوز التي جاءت تتسول. حكى لي مرافقي أن الصلاة كانت رائعة، حيث حضرها ستمائة إلى سبعمائة مصل، وخطبة الإمام كانت رائعة جدا. وأدركت رغم ذلك أننا لم نكن الوحيدين الغائبين، وأن مؤسسة الصلاة قد سربت لسيدي امّحمّد بن ناصر عبر نسائه.

16 فبراير

طلبت منا مضيفتنا الغريبة بحدة أن نبقى أكثر بعين المكان، وأن نستمتع اليوم بفعل البارحة، وزيارة ضريح الولي غدا، وبعد ذلك سيكون يوم السبت لحضور سوق تامگروت. ولم يطلب رجالنا أكثر من هذا، لكن كنت متلهفا على مغادرة هذا الكهف الأسود، والموسم السنوي يقترب والمجاعة على الأبواب. وتقرر أن نبحث عن مسار عبر المنحدرات الجنوبية للأطلس الكبير. وعلينا -حسب معلومات غير دقيقة- أن نصل إلى وادي نون بالمرور عبر ثماني مراحل من هنا، والتي ستوصلنا إلى گلميم عبر مرحلتين أو ثلاث. وستكون أول نقطة اتجاهنا هي زاوية سيدي مرّي، التي أعرف وجودها منذ زمن بعيد، حيث غادرني زنجي في سوس سنة 1899 يعود أصله إلى هذه الزاوية.

انطلقنا على الساعة العاشرة، ورافقنا عطاوي واحد، يركب جوادا جميلا لكن لا يعرف إلا لغة صاحبه فكلما اقتربنا منه صهل "وركل"، وقبل أن ندخل في صلب الموضوع، جاملت موحا وهو اسم حارسنا (زطاطنا) وأجابني بأنفة: "فارس آيت عطا يعرف بجواده وأسلحته!". وصعدنا أولا واد درعة إلى حدود أمزرو. وكان هذا التوالي للقصور والواحات والقبب رتيبا بشكل لافت[106].

وادي درعة، قصرا سريت وأسرير

الفايجة، ويبدو في الأفق جبل باني

كان مرشدنا يدلنا عند المرور على الأسماء والمالكين: تازروت، وآيت عيسى أوبراهيم لآيت عطا وتيمتيگ لشرفاء فيلالة، وقبة مولاي العزى أغلاودرار وسيدها/ "ضريحها" المبني فوق أربع قوائم من الطين بعيدا عن نهب "الذئاب" وسَرْت وأسرير وأخيرا أمزرو. وآيت عطا أهم هذه القصور الموجودة على قدم هضبة طاف حيث "يرقد" هناك كنز رائع الهدف الوحيد لمحاولات تغلغل الفرنسيين لفگيگ". وكل القصور مبنية بالآجر المجفف، ومحاطة بأسوار من طين مدكوك ومؤثثة بأبراج بها بعض الثقب، وتوجد أغلب هذه القصور فوق شفا منحدر الحوض الصلب الذي حفر فيه واد درعة مجراه. والضفة اليسرى وحدها خصبة، ونجد فيها أيضا مساحات/فضاءات صحراوية زحفت عليها الهضاب الرملية.

يمتد أمزرو منذ القديم على البعد من السهل، والآثار الخربة المحيطة به تشهد على قدمه الرائع، وأصبح الآن مقتصرا على قصر من ثلاثمائة إلى أربعمائة متر، ولم يعد معروفا سوى بوجوده فوق تل محدودب، وبقلعته الموازية لشرفاته وأبراجه. دخلنا إلى حقوله، وعبرنا الزاوية التي توجد يمينا قاطعين ساقية هامة، ووصلنا إلى مقطع أمزرو حيث عبرنا واد درعة حيث يجري هذا الواد الرائع الذي أعجبنا بالقرب من تامگروت وهو أكثر عرضا فقط، تتخلله بعض الأكوام الرملية، ويوجد في مقابل المقطع لواد بدون مياه يسمى واد نفايجا (نفيش)، وتفضي بعض أشجار النخيل "الوحشية الغابوية هذه الشعبة حيث تغطي جنباتها صخور ملحية. وينفتح أمامنا ممر واسع، وهو عبارة عن "فايجة" من عشرة إلى خمس عشرة كلم عرضا، مستو مطلق ورتيب ومحاط شمالا: بهضاب إوريرن لآيت يحيى، وغيشا (عرق) زناگة وفي الجنوب بهضاب تودما ولا توجد سوى بعض الغزالات وبعض أشجار الطلح المعزولة في هذه الطريق الرتيبة.

غادرنا في الساعة الرابعة الاتجاه نحو الغرب الذي سرنا فيه منذ واد درعة لنجد [107] بعض أشجار الطرفاء أسفل جرف تودما، ويسمى هذا المكان روس الثلاث، حيث توجد به بئر تجمع حولها الآن دواري أيت إسفول، وآيت علوان الذين طلبنا ضيافتهما، استقبلانا مثل الأصدقاء، ودخلنا الخيام وقدم لنا نصف المؤونة من كل الأشكال، وقدم لنا الحليب "الرايب"/ اللبن، والماء البارد وكان مضيفونا يتناوبون الليل كله من أجل حراسة خيامنا. وهذا الاحتفاء مثير الانتباه وأغنية حراسنا

لا تروق في هذا السهر، ولكن هذا هو طبع الرجال الذين لا يمكننا أن نقارن حفاوتهم "البربرية" بحفاوة المتحضرين.

17 فبراير

انطلقنا قبل الساعة السابعة والنصف صباحا، ووصلنا إلى الهدف من المرحلة في الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة بعد توقف، دام ثلاثة أرباع الساعة. وهذه الفايجة لا تنتهي وسط هضاب متشابهة في قحولتها وجفافها، ومن المحبذ أن لا ترى إلا في مطلع الفجر أو عند غروب الشمس. تبدو صبيحة هذا اليوم مرتفعات تادارات تعانق بزرقة خفيفة اللون الأحمر/البرتقالي للسماء. ويسبح كل المشهد في هذا الضوء الوردي، وظهرت الشمس فجأة من فوق الهضاب المنتصرة والصلبة، وأصبح بعد ذلك كل شيء رتيبا.

استمر هذا المساء على الشكل نفسه وأكثر ديمومة وبإحساس جميل أكثر مع تحولات أكثر ثقلا مع ضوء الظل، واحتفظت الهضاب بمنظر أشعة الشمس المعكوسة. كان القمر وسط أعالي السماء، وكنا ننظر بصعوبة تسليم الليل سلطته للصبح. نصبنا خيامنا وسط الصحراء، قرب بئر راس الريشة، وكانت الوحدة هنا كاملة وتامة كما لو أننا تهنا وسط هذه المساحات الشاسعة التي تعود على رؤيتها خدامنا، ومع ذلك لا يستطيعون التكلم إلا بصوت منخفض [110].

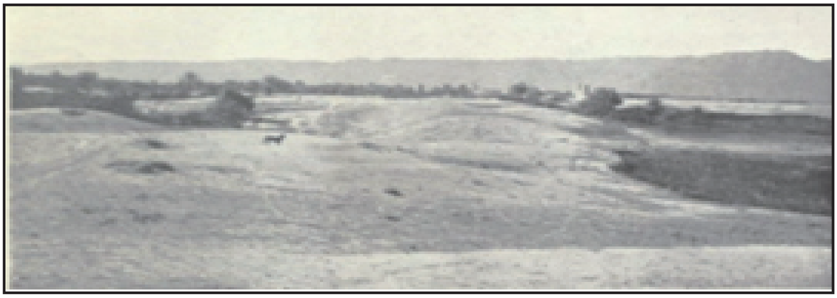

وادي ازگيد، السميرة، ويبدو في الأفق جبل غيشا

وادي ازگيد، مهاروق (أولاد هلال)

18 فبراير

قضينا قسما من الصبيحة في مطاردة بغلة "هاربة"... واصلنا تحركنا نحو الغرب في الفايجة الرتيبة، وتشكل الهضاب المحيطة بنا في فج مكرر منعرجا بالزاوية المستقيمة. كان سرير الوادي يعرج في عمق المنخفض، وأعلمونا أن اسمه هو راس واد زگيد. وأصبحت الفايجة أكثر عرضا بعد أربع ساعات من المشي، وترسم الهضاب التي تحيط بها من الشمال هضاب غيشا كنصف دائرة واسعة يخرج منها أحد منابع واد زگيد، وتشكل إحدى الواحات قصرا في المدخل، وتسمى النقيبة، ثم ينحصر وادي ازگيد عندما تحده هضاب غيشا مثل كتلة صخرية... متجهة نحو جبل باني، مجبرة واد زگيد ليفتح على الجانب الجنوبي للفيجة. ويحمل منفذها هذا اسم فم زگيد، وهذه المرحلة الأخيرة/ القسم الأخير لفم زگيد واحة نخيل رائعة، وإحدى أجمل ما رأيت. وصلنا إلى أول قصر يسمى اسميرة في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة.

وهنا حدث صعب، لم أعد أستطيع تحمله يرجعنا إلى الوراء. كنا نتحرك بصعوبة وعلى البعد جدا واحة اسميرة، انتهت عملية تصوير القصر وهو عبارة عن تجمع لمنازل كبيرة مبنية بطريقة جيدة ليس بها ملتقيات طرق، يسكنها حراطين مشهورون بقوتهم، أحرار وخطيرون جدا خاصة عندما تتبعنا مجموعة منهم بدون أسلحة، وكانوا يبحثون عن هويتنا وصفتنا وطالبين رضا شريف الرحلة. كنا مضطرين للتوقف مجاملة لهؤلاء الحراطين واتقاء شرهم، حيث لحقوا بنا متلهفين طالبين منا التوقف ودخول قصرهم وقبول ضيافتهم، وجاء خمسون منهم آخرون يتبعون الطريق التي سلكناها[109] فشكرهم الشريف وتلافى الضيافة بدعوى أنه يريد أن يصل إلى زاوية سيدي مرّي، وأن الطريق لازالت طويلة، وزلقة وازدادت حدة طلب الحراطين وطلبوا منا إنصافهم من هجوم لحق بهم وفرضوا تقريبا أن نتوقف عندهم بعد أن غمرونا بعبارات الترحاب متعهدين بحمايتنا. ورغم ذلك يزداد عددهم بدون توقف، وبلغ عددهم حوالي الستين يتكلمون، ويصرخون وتحلق حول كل واحد من مجموعة من الثرثارين، وفجأة صرخ أحد حراسنا (زطاطنا) بقوة وانحنى جواده يمينا وأشهر بندقيته "إنها الخيانة".

وفي لحظة وجيزة جُرِّد مولاي الحسن والزناگي من سلاحيهما، وامتدت عشرة أياد لتتصارع عن بندقيتي، وعندما قاومت أطلقوا رصاصة تحت رجل بغلتي. ولا توجد أي وسيلة للدفاع، فنحن ثمانية في مواجهة قصر، علما أنهم استمروا في إبداء احترامهم لنا، وطمأنونا أنهم لا يريدون سوى شيء منطقي ومقبول، وتكررت عندهم عبارة متكاملة ومقلقة وهي:

"نريد أن نعرف أي شرفاء أنتم؟".

اقتادونا إلى ساحة اسميرة حيث اجتمعت كل الساكنة، وعمت ضوضاء عامة، فالكل يتكلم في الوقت نفسه، بعد أن جمعوا أسلحتنا في كومة، ووضعوا بغالنا جانبا، لم يعد عندنا مجال للشك بأننا تعرضنا للخيانة وأن هويتنا سيتعرف عليها، وأن اسميرة ستكون آخر محطة في رحلتنا. ورغم ذلك استطعنا بعد مفاوضات وتفسيرات مثيرة أن نعرف سبب هذا الهجوم، وأهداف مهاجمينا. وأمر

"القايد" محمد بن العربي بن عثمان اليحياوي الذي يحكم هذه الجهة من رجال "قيادته" أن يقوموا بحرْكة ضد الجيران. وانتدب لشراء خيول من سوس ثلاثة حراطين، وطلبوا خلال عودتهم ضيافة أحد الشرفاء العلويين يسمى مولاي محمد فقام هذا الشريف بسرقة ضيوفه والاحتفاظ بالخيول.

ظهر من هنا غضب أهل اسميرة، وأقسموا على "أكل" أول شريف علوي يمر بأراضيهم، وبالفعل قيل لهم إن اثنين من شرفاء هذه العائلة قد عادوا من زيارة لتامگروت، وكان يعتبرون أن الزناگي يشبه كثيرا مولاي امْحمد، وشاءت الأقدار أن نقف على حقد أهل اسميرة وحلفائهم، ونؤدي إليهم المقابل. استمرت المحادثات الصعبة والمعقدة حوالي ساعتين، فبعضهم أراد أن "ينهبنا" تماما، والبعض الآخر أراد أن يأخذ فقط أسلحتنا، والبعض الآخر الأكثر تطرفا أراد أن يمحو كل آثار العملية، وأصيب حارسنا المسكين بخيبة أمل، وهدد الحراطين بالعواقب الوخيمة لتصرفهم هذا، واستعمل لذلك جميع التوسلات الموجودة في الإسلام، وكلها مجهودات ذهبت سدى. فاوض الشريف بدوره وعرض مجموعة من الأدلة بكونه إدريسيا وليس علويا. وجيء بالقارئ الوحيد منهم يقرأ ببطء وصوت منخفض شجرة النسب، فقال له أحد الزنوج الشيوخ بوجه طويل: "لا تتعب نفسك فإننا "سنأكلهم" ولو كان الرسول نفسه!".

وادي ازگيد، فم ازگيد(بين جبل باني وجبل غيشا)

جبل غيشا من الجهة الشمالية، ونساء من زگيد

ولم تعد تصرفات خدامنا تعجبنا، فيكفي فقط أن ننظر إلى وجوههم لنحس أنهم لم يعودوا يحسوا بالأمان، وأنهم قد يفضحون أمري إذا تطورت الأوضاع أو ازدادت سوءا. رغم ذلك لنا بعض الأتباع أو الموالين، فربع الجماعة مع أن تعادلنا أمتعتنا ونذهب إلى حال سبيلنا، والنساء خاصة هن من يساندننا. وتقرر أخيرا أن تحجز أسلحتنا، وطلبوا منا أن نبحث عن نزل آخر، ومكان آخر؟ أين؟.

فسيدي مرّي بعيد ولا يمكن أن نصل إليه قبل المساء، والصحراء التي نعبرها لا ملجأ فيها ولا واد أو عيون الماء، وقطاع الطرق الذين عرفوا أننا بدون أسلحة سيقطعون علينا الطريق حتما، وطلب الضيافة في قصر آخر لزگيد سيكون أمرا جيدا [111] فكل واحد يريد نصيبه من هذه السرقة الغنيمة التي دشنتها اسميرة بالنهب... وأنقذتنا امرأة عجوز عندما قالت لنا بأن شيخ قصر مهروق رجل عادل ومهاب الجانب، ونصحتنا بالذهاب إليه، وطلب ضيافته. وهكذا نزلنا وادي زگيد، عبر هذه الواحة الرائعة التي أنستنا خصوبتها المتاعب لنصل إلى مكان نبني فيه خيامنا خارج مهروق. الشيخ غير موجود، ولا أحد رحب بنا ولو بكلمة ورفضوا أن يبيعونا أي شيء، بغالنا "صائمة" ونحن كذلك، ونحن دون حراسة ومعرضون لهجوم من يرغب في ذلك.

19 فبراير

أمضينا ليلة حزينة، لم ينم منا أحد، وضوء قمر جميل يضيء مخيمنا البئيس أسفل القصر الكبير لأولاد هلال. وكنا نسمع (عرسا) في إحدى التجمعات المجاورة، حيث كانت إيقاعات أحيدوس تتردد، وطلقات البارود تتخلل الأغاني، وبدأ المغنون يدخلون مثنى مثنى مرددين اللازمة ويمرون أمام خيامنا ويحكون ماذا وقع لنا بسخرية.

تحسنت الأوضاع، ووجدنا الشيخ أخيرا، ويسمى حماد ولد حميد الهلالي، وهو رجل ما زال شابا ومتواضعا جدا، قويا مستقيما وعادلا، ويتمتع في كل الجهة بالسلطة والقوة. استمع في صمت وعيناه تنظران إلى الأرض لتظلماتنا، وطلب بعض التفسيرات، أو التدقيقات لقضيتنا وكان يطرح أسئلة مختصرة وواضحة، واستنتج أننا على صواب، وكان برفقته عشرون رجلا شاركوه الرأي.

ودعم مولاي الحسن موقفه بقوله بأنه كان مقربا من "الصالح" الصحراوي ماء العينين الذي يحترمه المخزن كثيرا وأنه سينتقم من أهل أزگيد نظرا لما تعرض له على يدهم وأنهم سيؤدون ثمن ما حملناه من مراكش إلى تارودانت وموگادور، وأنهم سيسجنون إلى حين أن تعيد لنا العدالة حقوقنا حسب المعمول به. وعدنا الشيخ أنه سيقوم بما يستطيعه لإرضائنا، وقال لنا إننا ضيوفه الخاصون، واعتذر لنا عن الفقر والمجاعة اللذين يحولان دون القيام بالواجب، فلم نعد نجد لا شعيرا ولا تبنا، وكانت هناك حروب في فترة الحصاد الماضية كان من نتائجها عدم وجود محاصيل هذه السنة، وأصبحت البغال تكتفي بأكل الثمر المجفف القديم الذي يعود لسنوات ماضية يستخرج من "المطامير" والدهاليز".

كان فقيهنا خائفا وأراد أن يغادرنا بأي ثمن، وأراد أن يبيع ثيابه والرجوع إلى تارودانت بتقمصه لشخصية "هداوي". وجلب بتصرفه هذا تخوف سي عمر خادم الشريف الذي أصبح بدوره

خائفا. وأعلم جيدا أن هذين جبانان لا يستطيعان المشي لوحدهما في الأطلس الكبير، لكن لا يمكن أن يجدا فرصة مناسبة أو قافلة متجهة نحو الشمال، ويمكن أيضا أن يخونا من أجل الانعتاق... وعندما صرح لي مولاي الحسن بأنه لن يذهب إلى واد نون، وأنه سيغادرني إذا وصل إلى هنا، توقعت أنني سأكمل لوحدي مع الزناگي الرحلة. وكانت المتاعب تزداد كل يوم.

20 فبراير

قال "الشلوح" إذا أردت أن تسافر فتعلم التنازل، وهي حكمة بليغة، وأهل اسميرة يذكرونني بها. أسفرت المفاوضات عما يلي: فقد طلب شيخ مهروق في ملتمسه ما يلي: إعادة إصلاح واضحة وبسيطة [113] لأسلحتنا مقابل ثمن سيؤديه هو من ماله الخاص من أجل إخافة مفسدينا ومداواة الإهانة...

أجاب أهل اسميرة أنهم لن يصلحوا أي شيء وبأي ثمن، ولكن لكي يظهروا اهتمامهم بما قاله شيخهم ويرضونه، بعثوا له بإحدى بندقياتنا التي أخذوها مني. فجاء لنا الشيخ بها، وجاء ببغلة الذهاب إلى اسميرة وانطلق على الساعة الحادية عشرة صباحا، وها هي الساعة تشير إلى السابعة مساء، ولازلنا لم نتوصل بأي جديد في الموضوع، أخبرنا شريف مهروق -الذي يعرف مسالك البلد جيدا- دون تأخر أن سلطة "القايد" الگلاوي المدني تمتد إلى هنا، ورجاله بالجنوب هم "أمغار" وريث أولاد يحيى، ومحمد بن العربي الذي يقيم بأمجري في واد درعة، و"أمغار" وريث زناگة، والشيخ حمو الزدايفي المقيم بازدايف في سفح جبل سروا، و"أمغار" تازناخت عبد الواحد الزنيفي من عائلة آيت أوزانيف.

ويعلم هؤلاء الزعماء قوة "القايد" الگلاوي ويستخلصون له واجب القبيلة ويطبقون تعليماته، ويقول بأن هذه السلطة لا تستند على أي منطق ويمكن أن تتجاوز حدودها، وتتجلى قوة "القايد" في مكان تموقعه جغرافيا، فهو سيد فج الگلاوي وحارس باب الأطلس الكبير ويملك بسلطته أن يفتح أو يغلق أمام أهالي الجنوب الشرقي المغربي الدخول إلى أسواق الوسط باعتبارهم زبناء لها بالقوة إما بأن يأتوا إليها لبيع منتوجاتهم، أو يشتروا مستلزماتهم الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها مثل السكر، والشاي، والكبريت، لإنتاج البارود والأسلحة إلى غير ذلك... وعندما تعطي قبيلة تعليماتها فإن "القايد" يقطع الطريق، ويتحول المرور من الفج إلى سجن لكل أفراد هذه القبيلة، وتصادر حيواناتهم وسلعهم إلى أن تأتي القبيلة بالفدية [114]. سويت الأمور.

21 فبراير

عاد الشيخ البارحة على الساعة العاشرة مساء جالبا معه بنفسه ثلاثة من بنادقنا، والباقي سيحمله معهم هذا المساء أهل اسميرة، وحكى لنا أن المفاوضات الليلية لم تسفر عن نتائج متقدمة مثل المفاوضات الصباحية، ثم بسط الشيخ خيدوسه (سلهامه) ثم نام، فقال له أهل الجماعة:

ماذا تفعل؟

فأجاب: انتظر جوابكم.

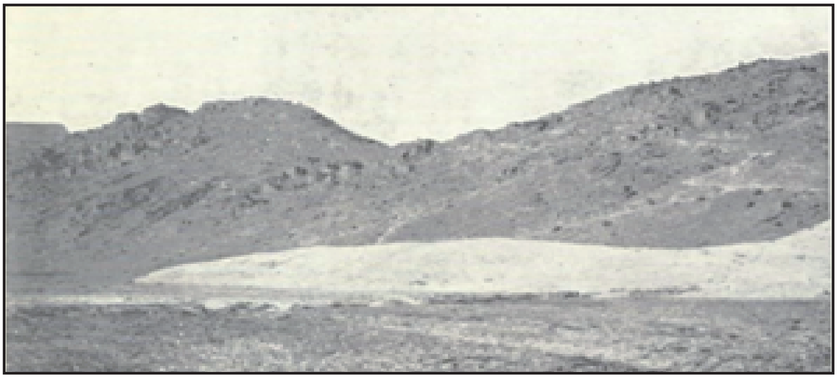

وادي ازگيد، قمة جبل غيشا من الجهة الشمالية

وادي ازگيد، الشيخ حماد لمهروق

علما أن هذا التصرف، يعني أن يرافقوه إلى المفاوض، أو أن يعارضوا معارضة تامة. وعندما تعب الحراطين من هذه المناقشة، وفوجئوا بهذا الإلحاح، خضعوا للأمر الواقع. وعندما دخل الشيخ في هذا الصباح إلى قبيلتنا أسرع مولاي الحسن، واختلطت عبارات الشكر، فقال له حماد بإشارة تدل على التواضع:

- أشكر الله، أما أنا فلم أقم إلا بالواجب.

وكان لهذا الشيخ سحنة حرطاني، وقال لنا شيخ مهروق إنه ليس سوى "حرطاني" متواضع ابن "العبيد" أنستنا تصرفاته كل همجية مغربية، فاستقامته وطيبوبته غطت على كل المآسي التي عشناها، وقفت في فرص أخرى على الشيخ حماد عندما كنت أسيرا، وتعرضت للخيانة عندما كشفت هويتي المسيحية، واكتفيت فقط بأن توجهت إليه بالكلام. لا أشك أنه سيلومني، ولكن قدم في اتجاهي ومدّ لي يده قائلا بكل بساطة:

- أنا اليوم صديقك أكثر من السابق لأنني أعلم أنك الآن أكثر تعاسة.

استمتعنا بدراسة أهل أزكيد، وكانوا يتعاملون جيدا مع أبحاثنا، وكان أحدهم الذي كان يقوم بدور الكاتب والفقيه يسمى الحاج عبد المومن، يقول إنه زعيم [115] /شيخ زاوية سيي محمد أو سعيد، بتافتْشنا على واد درعة، وأعطانا بعض الكتب التي جاء بها من مكتبة تامگروت، مثل باقي الكتب الأخرى التي رأيناها في هذه المنطقة وعندما تصفحنا أحدها وجدنا وثيقة غريبة وهي عبارة عن رسالة من نقيب/ قبطان "مكتب العرب" تدل على أن "فقيه" زگيد هذا له علاقات متصلة مع النصارى. واللغة المتكلمة في هذه التخوم الصحراوية تمكن من الوقوف على خصائص هامة، وتأثرت باللهجات التي يتكلمها "المورو". ولم يمض وقت طويل على تحرك قوافل شنگيط، وولاتة، وتيسينت، وتگانت، وتومبوكتو، التي كانت تصل إلى هنا متعبة من سفرها الطويل لتقيم مدة طويلة للمبادلات التجارية بالمواد الغذائية.

حصل الزناگي على وثائق لغوية هامة مدته بها شخصية غريبة يسمى الشريف سيدي حنين، وهو شاعر، ويبدو أنه شاعر رائع، وهو "جاهل" تماما بمعنى لا يستطيع القراءة والكتابة، ولا يستطيع أن يعطي أي معنى كلمة من النحو العربي. قص علينا بعض النتف من إبداعاته وهي على شكل محاورات بين امرأة جميلة وفتاة جميلة، وبين امرأة شلحية وامرأة عربية، وبعض الگاف (الأبيات الشعرية بالحسانية) وأغاني حربية، ومن أشهر أغانيه ما قاله في الشيخ حماد. ويعيش شاعرنا من أغانيه/ قصائده، فهو يستضاف ويرتجل گافا (مقطع من قصيدة أو قصيدة بكاملها) وبعد ذلك يتداول ما قاله في المنطقة ككل. واستطاع هذا التروبادور (الشاعر المتنقل) أن يحصل على زبناء من نوع خاص، يبلغ عددهم ستمائة "كفيل" في وادي درعة حيث يعطيه كل واحد قليلا من القمح كل سنة، ويجب أن نقف أيضا على الطريق التي يعرف بها لائحة القصور حيث تلاها بتمكن كبير، ويصل عددها حسب عده إلى 360 قصرا وبعدد أيام السنة القمرية. وأرسل الشيخ أخاه في الساعة الثالثة -في الوقت الذي لم تصلنا بنادقنا بعد- بسرعة إلى رجال اسميرة يأمرهم بأنه سيأخذهم غدا مع كل محاربي مهروق.

الفايجة بين إمي نتليت وتيمگيسينت، ويبدو في العمق جبل مواس (الأطلس الصغير)

الفايجة، مخرج واد تليت، وتبدو إمي نتليت، ويبدو جبل مواس في العمق (الأطلس الصغير)

وصلت في الساعة الرابعة أسلحتنا إلى القبة جاء بها حرطانيان ووضعاها بوجوه عبوسة، وقالا بأن جماعة اسميرة قد ندمت على هذا التصرف، وتلا عليهم مولاي الحسن الفاتحة وطويت القضية. ولنواصل طريقنا غدا في اتجاه سيدي مرّي، استعاد رجالنا ثقتهم، وأكد لي محجوب فقيهي، وسي عمر خادم الشريف أنهما لن يعودا للرحيل معنا وفوجئت لذلك. وقال لهم مولاي الحسن في مناسبة سابقة إن تصرفا مثل هذا يجعلني أفكر في قتلهما، لكن طمأنتهما ومنذ تلك اللحظة لم يعرف حرسي مثل هذا الحادث.

22 فبراير

انطلقنا مبكرا على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة، ورافقنا الشيخ حماد فوق جواد رمادي جميل بعض الشيء، لابسا "البرنوس" الأبيض لباس الرجال الأغنياء، المشترك بين الناس هو أخنيف وهو البرنوس الأسود الملونة واجهته الخلفية بطريقة غريبة بالأحمر.

وعبرنا الواحة ثم السرير الجاف لزگيد، ثم صعدنا نحو المرتفع الصخري لغيشا. القمة مسننة في المقدمة مثل منشار حاد، وتفصل بين وادي ازگيد ورافده واد اسكاتن الذي يكبر أودية محازن وأگمور وتلّيت، ويصل واد زگيد إلى حيث يدخل إلى "فجوة" جبل باني التي تسمى بفم ازگيد. كل هذه الوديان جافة، وأسرتها مليئة بالحجارة ومتعرجة في السهل، ويعبر واد محازن الواحة وقصر القبة الذي نرى منه بوضوح المنازل. ثم عاودنا الصعود إلى واد إسمگاتن، وتوقفنا طويلا بقصر نصولا الذي يعود لآيت عطا لكن ينتمي إلى فم ازگيد من أجل أن نشتري منه بعض الشعير لأن بغالنا تموت جوعا.

وصلنا إلى أسفل واد تلميت الذي ينبع من الأطلس الكبير بقصر إمي نتليت وصعدنا من جديد [117] إلى ممر الوادي الذي نحته في صفائحه الأفقية من الصلصال إلى حدود قرى أگرض وتاوريرت. وتعود هذه التجمعات إلى زناگة وهي عبارة عن منازل منحدرة /قصيرة السقف، وصغيرة وقبيحة تبدو عليها علامات الفقر، والبؤس يخيم عليها مما جعل السكان يتوزعون من أجل تلبية حاجياتهم، وقيل لي إن تاوريرت هي أقدم تاريخا من مراكش.

23 فبراير

أزاغتنا طريق سيدي مرّي عن هدفنا، وعرجنا على طريق ليست ذات فائدة بصعودنا إلى واد تلّيل، لم يكن علينا صعودها خاصة أن الزاوية لا تبعد سوى بكلمترين. ونشاهدها من هنا، ولا تعطي أي أهمية حتى نتذكر ما قام به سيدي مري للمسيحيين الذين يحترمونه كثيرا كما يقال، وواصلنا الصعود نحو الشمال حتى وصلنا إلى واد أزمزگي في اتجاه تاماروقت، وهي طريق سوس ومراكش. وكان علينا أن ننزل من إداواتليت إلى إمينتليت وهنا بدأنا نلامس الأطلس الصغير، لنعود إلى طريقنا في هذه الفايجة هذا الممر الموجود بين سلسلة ممتدة من باني الهضاب الدائرية التي تحد الأطلس الكبير والتي يمتد خلفها جرف "حاد" بعلو ستمائة إلى ثمانمائة متر. والهضبة التي نتبع جانبها الجنوبي مستوية وعارية من النباتات، ولا نجد سوى بعض "أشجار الصمغ" المتمزقة ونرى بعض الشعاب الجافة. وتعطينا هذه العزلة تشابها مع الأسطورة التي حكيت لنا، فيقال إن الفايجة كانت غابة كبيرة تنتشر بها الحيوانات الوحشية قتل أحدها ابن ولي صالح كان يتسول بالمنطقة الظالمة. ومن تم جفت الأودية، وماتت الغابة وهجرت الحيوانات الوحشية.

غادرنا الشيخ احماد وحارسنا موحى العطاوي في منتصف الطريق متأثرين، وأوصانا بالاحتياط. فلم يقبل أي واحد منهما أي نقص لخدماتهم أو للمصاريف [118] التي أعطيناهما، وضربنا خيامنا ساعتين بعد ذلك على ضفاف واد تيمگسينت بالقرب من قصر تميگسينت (تيمگاسن) من أتباع زناگة، ويوجد في الأعلى بعض الشيء زاوية إماغاتن. توجد بغالنا مع كامل الأسف في حالة سيئة جدا، فهي تتغذى على الأعشاب والتمر القديمة. وهزالتها تثير الشفقة، وهي مصابة بطريقة مخيفة، إحداهما لحمها يكاد يقطع.

لا يمكن لها بطبيعة الحال أن تحمل إلا ما خف وزنه، وعلينا التخفيف من أمتعتنا ومن كل ما ليس ضروريا جدا، وتعوّد الرحل على العيش على الأعشاب، فكانوا يطبخونها طويلا في بعض الماء المالح، ويجعلونها على شكل دوائر صغيرة تعطي شكل طحالب برائحة معطرة.

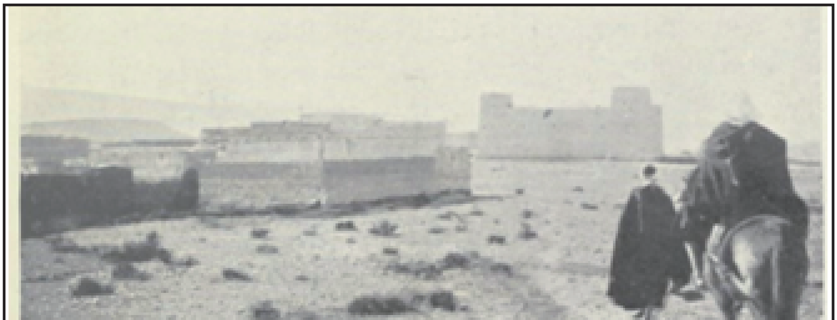

الفايجة، قصر جديد لإسيگرن(زناگة)

الفايجة، قصر قديم لإسيگرن، وفي الأفق جبل باني

24 فبراير

أفاقتنا قطرات الندى الخارجي، ووصل عدد البنادق بتمگسينت إلى مائتي بندقية علامة على الأنفة الاجتماعية، وتفتخر كذلك بأن لها ربابا، وطبالين يعزفون باكرا تحت هذه الأصداء الموسيقية، والهدف من هذا دون شك هو أن ينسونا في وجود أي وجبة. واصلنا الطريق محروسين بزطاطين "بربري" وزنجي. عبرا بنا الفايجة لنصل إلى قصر إسيگرن الشهير بنخيله التي يصل ثمن الواحدة منها مائة وخمسين بسيطة وتعطي عرجونا بمقدار كنطال. إسيگرن قرية جديدة ولم يعد القصر القديم الموجود غير بعيد عن هنا فوق مرتفع سوى أطلال لربه مضيفينا زناگة تيمگسنيت. وأعدنا المرور بعد ذلك من السهل لنصل إلى الأطلس الكبير الذي دخلنا إليه بصعودنا إلى واد تسينيت إلى قصر أگمور. يسقي هذا النهر واحات تاسنيدا ثم يعبر باني في قدم جبل تايمزور الحاد مثل "برج كنيسة" ثم يفيض بعد ذلك على الواحة الجميلة تيسينت التي وصفها فوكو. [119] وأگمور تجمع سكني بسيط من ستين بندقية (فارس) محصورة وسط وادي واد تسينت، ومنازلها المبنية بالحجر تعلوها شرفات مغطاة تذكر بمنازل القبايل وبني وارين، ولاحداها برج أبيض بأضلع ونوافذ مصبوغة بالأحمر بطريقة فيها تقاليد للأجر (الياجور).

25 فبراير

يبدو أن عصابة من قطاع الطرق موجودة في طريقنا.! رافقنا شيخ أمگور نفسه مع ثمانية من رجاله مسلحين، وصعدنا تحت حراستنا إلى الجبهة الغربية لأگمور ثم نزلنا بعد ذلك إلى ما بعد هذه القبة بوادي واد إسلين، ويشتمل الأطلس الصغير في كل أراضي زناگة اسم جبل ماواس. ونرى عن بعد الهضبة الرتيبة، والواحة أكبر تجمع لأقا إغان التي سنقيم بها، وتشكل مقعر أعريف غير جاف لا نبات به والقشرة الصلصالية بيضاء، وصلبة و"رنانة"، وفي كل مكان يجري فيه الماء في هذه الفايجة فإنه يجمع الرمل والحصى، والسواقي قد نحتت أو صنعت بطريقة فنية كبيرة، فساقية أقا إغان تجري في خمسة، أو ستة أمتار أسفل الأرض في عمق مجاري يبدو كأنها مقطوعة في توفة أو حجر مسامي، وبعرض لا يتجاوز أبدا خمسين سنتمرا. وليس للمدينة أسوار سوى جدران، والمنازل

المرصوصة جدا. الكل أبيض وصومعة المسجد مصبوغة بالجير تشاهد عن بعد. يملك حراطين أقا إغان ثمانمائة بندقية، ويعتبرون أنفسهم مستقلين. والواقع أنهم يؤدون الذبيحة لكل القبائل المحيطة بهم مثل، دوي بلالا وأونزين، وأولاد جلال، ويسكن الشيخ أحمد الذي يدير القصر في مرتفع شمال المدينة، ويفوض مهامه الداخلية والشرطة لمساعده سيدي إبراهيم. كان اللقاء الذي خصص لنا رائعا، دون تشنجات وقيل لنا إن الأمن بالبلاد هش جدا وأن [120] الرحل العرب يقطعون كل الطرق، وأن علينا أن نأخذ عشرين راميا حارسا وعشرين بندقية من أجل الذهاب إلى إيليغ، وأنه قد نكون مضطرين لخوض معركة من أجل المرور.

وحكيت لنا مثل هذه القصص التي أصبحنا لا نصدقها كثيرا، وتنتظرنا دون تخوف أو اهتمام مرحلة بعد غد ونحن نشرب كؤوس الشاي "المنعنعة" عندما دخل أحد خدامنا القبة مفزوعا ليقول لنا إن أحد الحراطين الذين رأونا بالصويرة (موگادور) موجود بالمخيم، ويسمى هذا الرجل الحاجمي

وادي تيسنت، أگمور

الفايجة في مصب وادي تيسينت، أگمور، ويبدو في العمق جبل ماواس (الأطلس الصغير)

العصب بن الحسن ويعرف كل مرافقي ويقول إنه سيلتحق بنا ويريد أن يستغل الفرصة من أجل العودة إلى موگادور. وكان "يستعلم" من الأخبار التي وافاه بها الضراوة المرافقون لي ويسأل عن أين هم المسيحيون الذين يرافقوننا؟ وهذا أمر صعب...! وأعطيت الأوامر بأن تستجاب كل رغبات الحاجمي وأن يُشغل ويقال له إننا سننطلق في الصباح الباكر، وأن عليه أن يوفر لنا حراسة لأنه ليس بإمكاننا الحصول على زطاطة.

26 فبراير

رفعنا مخيمنا على الساعة السادسة صباحا، بغالنا محملة ونحن جاهزون للانطلاق. وقيل لنا -بعد سبع ساعات من المجهودات الضائعة للحصول على الحراس الموعود بهم- إن علينا أن نتراجع عن فكرة سلك طريق إيليغ، وأن لا أحد مستعد لمرافقتنا. وكنا إذن بين أمرين إما أننا نريد الذهاب إلى سوس، وفي هذه الحالة ستكون طريقنا شمالا، أو إننا نريد أن نذهب إلى واد نون وستكون طريقنا في الجنوب الغربي، وفي الحالتين معا لن نمر بإيليغ عبر الصحراء المخيفة لإدونان حيث يسرق أولاد جلال، ويفرضون الأموال على الرحالة، ويقتلونهم، وتعرضت قافلة للهجوم في الأسبوع المنصرم، وأن أحد الصلحاء ذبح فيها ما قبل أمس. واندهشنا من هذا "الاهتمام". وعبثا بحثت عن الأسباب، لكن خطأ جعلنا نخضع [121] واخترنا في الأخير الاتجاه في طريق الجنوب الغربي، ونجح خادمنا من جديد في أن يوفر لنا حرسا من أربع عشرة بندقية بقصر سرغين الذين يوجدون في طريقنا.

وها نحن ننطلق بقيادة الحجمي الذي أصبح بسرعة هاما يأمر وينهى، ويتصرف كأنه قائد هذه القافلة ويتكلم كالسيد. والهضبة شبيهة بما رأيناه في الأيام الأخيرة، عبرنا أولا واحة إداوستان التي تمتد في الجنوب، وواحة تيسگمودين التي تجري ساقيتها في الهضبة، ولا يقوم بالعمل نفسه "للتحجر" الذي ألاحظه منذ أن كنا في حوض واد درعة، فهو يغذي السواقي التي يجري بها، والأسرة التي يمر منها والحوَضات التي يركد فيها. ووصلنا ساعة بعد ذلك إلى قصري إسرغين اللذين لا يميزهما أي شيء عن مجاريهما. جمع حرطانينا الرجال وقال لهم بأنه لا يعرف كيف أنه يراقب بدقة وحذر، وأخذ بعد ذلك إثنا عشر من بينهم بنادقهم واستأنفنا الطريق لنصل إلى زاوية تارگانت وأقا إغان، والتحق بنا شريف الزاوية واثنان من أولاده لحراستنا.

توقفنا في الساعة الحادية عشرة قرب الزاوية، وقبر سيدي بومدين. تنتمي هذه الزاوية إلى شرفاء سيدي محمْد أويعقوب، وهي صغيرة وفقيرة، واحة نخيلها ليست سوى حديقة كبيرة، وقصرها خرب محاط بالأطلال التي تدل على الاحترام القليل لأولاد جلال للزاوية، إذ هجموا عليهم يوم مجاعة ومحوها من الوجود، وبنى الشرفاء منازلهم ويؤدون الآن ذبيحة للرحل ويعيشون في أمان إن لم نقل في رخاء. ورأينا في الهضبة في سفح باني واحة نخيل قصبة الجوى. وعن بعد هضبة بوتيزن تتقدم نحو الفايجة لتلتحم بالأطلس الصغير، والفايجة" تختنق" في ممر واسع. توقفنا من جديد في الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة...

أدون هذه التوقفات المستمرة لإظهار الصبر الذي يجب أن نتحلى به في مثل هذه الرحلات، فأمامنا قبب يجب أن نزورها، والسلام على الناس فيها أو [122] تحية الأطفال وإعانة المتسولين ومساعدة البغال على الوقوف، والكل يدعي أنه سيتوقف. وعندما تغيب الدلائل الوهمية فإن رجالنا يخلقونها، ويزيدون النار قشا وهم يدخنون بمتعة بقصبات كيفهم، وينطلق الأغبياء من جديد دون تخوف، فإن لم يكونوا خدامنا وفقيهنا الذين يوقفوننا لأزلنا هذا "المسمار" فهو خائف جدا حيث كان علينا إركابه وإنزاله من فوق بغلته، فهو يرمي بكل حمولته، وينفق كل ما نأتمنه عليه. وشاهد مرة مولاي الحسن غزالة أو حباري وذهب في مطاردتها دون أن يهتم بنا، وأهدر عدة طلقات رصاص دون جدوى رغم حاجتنا لها...

أحد سكان أقا إغان وهو : الحاجمي العصب بن الحسن (الزطاط الذي خانني)

الفايجة، أقا إغان باب الجنوب

أخبرنا شريف تاركانت أثناء هذا التوقف الأخير بطريقة سرية أن مرشدينا يقودوننا إلى "فخ"، ونصحنا أن نستغل الدعم/الجوار الذي توفره لنا الزاوية من أجل أن يرافقنا منها بعض الرجال، أو أن يذهب شخصيا معنا صحبة أبنائه إلى إيليغ التي يمكن أن نصل إليها قبل المساء. واجتمع مولاي الحسن أمام الحاجمي، وأظهر له شغفه بالصيد، وهذا كل ما ينقصنا! وتفادينا

بطبيعة الحال الفخ المنصوب اليوم، لكن ماذا سيكون نوع الانتقام غدا؟ فالخطأ قد ارتكب وليس لنا سوى وسيلة وحيدة لتلافي العواقب وهو أن ننقص من سرعة مشيتنا، وأن نهرب أكثر مما تستطيع بغالنا المسكينة فعله بعبورنا للمنطقة الخطيرة لأدنان، وتمر الطريق واد تارگانت، وهي صلبة وسرير الواد نصف رملي قليل الحجارة، وحوافر دوابنا تنغرس إلى الكوع، وبطبيعة الحال، -وكما جرت العادة بذلك- مشينا على الأرجل في حين كان خدامنا يتململون فوق البغال المصابة.

صحراء أدنان مشهورة بأنها مخيفة، وهي فسيحة جدا يقسمها سرير واد جاف واد أدنان، والهضاب المحيطة بها لها الشكل نفسه، و"خيوطها" متجهة في اتجاه الرياح المهيمنة: غرب-شرق، وطبقاتها الصخرية التي تكونها تتجه نحو الجنوب، وهذه الصحراء سيئة جدا فلا نرى بها لا شجرا، ولا سقفا، ولا خيمة، ولا كائنا بشريا، وأولاد جلال الذي يتنقلون بها يبنون خيامهم في الشعب مثل إماون إفراتن وبوحليفة، وأمزور، والرحالة الذي يمر من هنا ليس له سوى حل واحد لينجو وهو الإسراع في المرور.

مشينا طيلة الساعات الثلاث في هذه المرحلة وسط ظلام دامس في ليلة غير مقمرة، ووصلنا في الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة إلى المعاقل المحكمة لإيليغ، وبنينا خيامنا خلف الباب وصوت حارس ليلي يقول "الوقت متأخر".

28 فبراير

إيليغ قصر مبني بالطوب/ الآجر مسقف بأسقف غليظة، المنازل متباعدة ويبدو عليها الفقر، والحقول غناء ومثمرة، وأزهار اللوز تظهر، وعدد منازله خمسة مائة وخمسون كانونا والعدد نفسه للبنادق، وتتكون الجماعة من إثني عشر فردا، ولا يؤدون أي ذبيحة، ويفسر هذا الاستقلال بكون إيليغ هي سوق العرب و"الشلوح"، أولاد جلال وزناگة وأوفرين وإيغديوة... إلخ، وهي بالضرورة ميدان محايد ومكان للتجارة، ومن هنا يأتيها أمانها ورفاهها. ورأينا ترميما حديثا لمسجد الجماعة تتقدمه ست "غرف" للوضوء، تحمل كل واحدة منها اسم الزبناء الخاصين بها، فهناك واحدة للطُّلبة واثنتان للعرب واثنتان "للشلوح" وواحد للحراطين.

تعيش هذه الأجناس والفئات في تعايش هش معرض للأخطار في كل وقت، مثلا يحدث الآن أن فخذتين من القبيلة العربية أولاد جلال في حرب ولكل واحدة منهما حليفها من قبيلتي "الشلوح"، واحدة من أونزين والآخرى من زناگة. وكان علينا أن نقيم بزناگة، لنتناول وجبة الغذاء أولا [124] بدعوى أن المدينة يشفى بها الآن أكثر من سبعين ضيفا، وأعطونا حفنة كسكس وقليلا من التبن.

وجدنا صعوبة كبيرة في الحصول على زطاط، وجاءنا شيخ من النواحي يسمى محمد بن تابية ليحذرنا بأن لا نثق في أي أحد للعبور من إيليغ إلى تاگموت. نصحنا بأن نحرس بعشرة أفراد من الرجال إلى حدود الزاوية الكبيرة لسيدي محمْد أو يعقوب التي لا تبعد سوى بثلاث ساعات عن هنا. فسنقيم بها في كل أمان لأن الزاوية حُرم وملجأ لا يمكن اقتحامه، وسيأتي عندنا الشيخ ليلا وسنصل

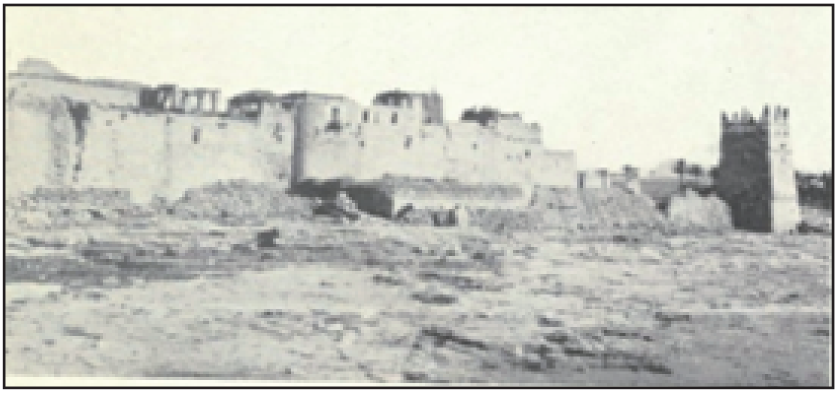

الفايجة، قصر إسرحين

صحراء أدنان، مضيق ركًب أركًن (الأطلس الصغير)

إلى تاگموت في الصباح الباكر. وهذا ما قمنا به فعلا حيث وصلنا على الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة إلى الزاوية، بعد أن عبرنا منبسط أزرار إمي نتاض حيث ينعرج واد سيدي محمْد أويعقوب. توجد الزاوية في فج واسع ينبع من الواد ليصل إلى الهضبة. وتضم ثلاثة تجمعات سكنية تفصل بينها شعبة. يوجد ضريح الولي في أقصى الشعب وهو عبارة عن حوويطة مفتوحة إلى السماء، واجتمع الأتباع ثلاث مرات لبناء قبة، لكن القبة تحطم، ولا يحب البناؤون أن يشار إلى أنهم هم السبب واستنتجوا أن سيدي محمْد أويعقوب أراد بهذه الكرامة أن يعطي الدليل أنه لا يريد ذلك؟

تعد هذه الزاوية من أغنى زوايا الجنوب المغربي، في حين أن الزاوية الأخرى الكبيرة لدرقاوة، والناصرية، والطوائف السياسية وكذا الدينية تتصارع ويتناقص أعداد أتباعها، وأن الزوايا الثانوية المحلية مثل مغيميمة، وسيدي مرّي، وسيدي عيسى أوابراهيم تتألف ويزداد عدد أتباعها وتحافظ

على انسجامها. وهذا ما يجعلها تزداد حيوية وتعيش في رخاء على الرغم من اختفاء مؤسسها مثل ما هو الشأن بالنسبة لزاوية سيدي عيسى أوابراهيم التي لا يكون زعيمها سوى زنجي بسيط.

فسيدي محمْد أويعقوب شريف إدريسي من عرش/ فرع آيت أمغار، ومؤسس زاويتنا كان مجايلا وصديقا لسيدي أحماد أوموسى ولي تازروالت، ولما أنهى دراسته [125] جاء ليستقر في هذه المناطق المعزولة، وأعجبه المكان نظرا لجفافه المطلق، ويقول من ترجم له إنه كان يريد أن يستقر في هذا المكان، وأن لا يحتاج أتباعه لأي شيء. فدعا ذلك إلى ثلاثمائة وستين وليا وطلب عفوهم وطلب من كل ولي أن يهتم بزاويته مرة في اليوم، واستقبلت الزاوية هدايا من كل نقاط المغرب، والجزائر، والصحراء، كل حسب المنتوج الذي يعرف به من زيت، وفلفل أحمر، وزعفران، وتمور، وكل ما يحتاجه أتباعه الكثر. فالسلطان والقائدان الكلاوي، والكندافي، وباشا تارودانت، وشريف سيدي أحماد أوموسى، يرسلون سنويا هدايا وأموالا، بل إن دوبلال أنفسهم هؤلاء المعروفون بقراصنة الصحراء، حيث لا رحمة عندهم ولا قانون، يهدونه نصيبا مما غنموه.

يوجد بالزاوية مائة وستة وستون كانونا، منهم ستة عشر ومائة فقط من سلالة سيدي محمد، وهناك بعض اليهود طبعا لكن كثيرا من الحراطين، وخدام الزاوية. والضيوف هم "شلوح" أو عرب أغلبهم مزاويگ (لاجئون) الذين جاؤوا يطلبون اللجوء، والحماية من الظلم والانتقام. فتقدم لهم التغذية ويخدمون وتحرس قطعانهم وتخصص لهم بعض مزارع الشعير في الهضبة وتعد لهم الأغذية. وعندما ندخل الزاوية فإن أول غرفة ندخلها هي غرفة كبيرة مظلمة يطحن فيها "المزاويگ" الحبوب، والغرفة الثانية تستعمل كمخازن للمؤونة مقسومتين إلى قسمين: الأول مالح، والثاني مهيئ بدون ملح. وقيل لنا إن هذا النوع الثاني مخصص للأرواح! حيث تعطاهم حصة الأحياء نفسها لكن دون ملح، لأن كل واحد يعلم أن الملح يطرد الأرواح.

في المطبخ أعاجيب أخرى، "فالكساكس" الكبرى من حديد توضع فوق ثقب في أسقف حجرية عريضة، فكيف تستعمل للطبخ؟ لا أحد يعرف، لأنه إذا تجرأ أحد الفضوليين على النظر في هذه الثقب فإنه يسقط مصروعا فلهذه القدور والطناجر خصائص أخرى إذ تشرع في الرقص إذا [126] دخل الزاوية بعض أنجال/ حفدة آيت واطاس الذين قتل أجدادهم مولاي علي الشريف بل إنها تعلم في أماكنها بوجود شخص غير مؤمن! وبالزاوية مدرستان يلقن فيها القرآن تضم مائة وخمسين طالبا جاؤوا من كل مكان حيث يعيشون هنا مجانا، والشيوخ أربعة "فقرا" يحفظون القرآن لطلبتهم ويشرحون لهم الإواليات بتامازيغت، لأنه لا أحد تقريبا يفهم العربية. وجاء طلبة المدرسة مع شيوخهم نحونا كما جرت العادة بذلك يحملون لوحة منقوشة عليها سورة من القرآن، وتلوا علينا بعض الآيات ولا أحد استطاع أن يجيب بالعربية. والزاوية لا تهتم بالشؤون السياسية،

ولا تهتم إلا بالمسائل الدينية ولا تخدم أي طريقة ولا تهتم أيضا إلا بالحرص على الرحمة والعطاء. ويتجلى عطاؤها عند هؤلاء الذين يطلبون فيها الأمان، وتحمي من لجأ إليها في ملجأ قريب من ذلك الذي ضربنا به خيامنا، وزارنا فقراء هذا الملجأ، ورموا لنا طبق الطعام الذي تعطيهم الزاوية، وهي طريقة يطلبون بها كرمنا، ووضعنا قطعة دورو جديدة في هذا العجين من كسكس الشعير مما جعلنا نستفيد من دعوات لا تنتهي [127].

الفايجة، من مرتفع إسرحين ويبدو في العمق جبل باني و"فجوة" واد تيسينت

زاوية سيدي امحمد أو يعقوب

الفصل الخامس

من زاوية سيدي امحمد أو يعقوب
إلى أنزور (اعتداء واعتقال)

فاتح مارس

حذرنا مقدم الزاوية من الشيخ محمد بن تابية الذي سيأخذنا هذه الليلة، وأهل بن تابية هؤلاء هم عائلة من "الشلوح" تسكن الجبل، ولا يمكن أن تحدد موقع وجودهم بدقة، يعيشون هنا على قطع الطرق... لكن الكل قاطع طريق في هذا البلد! علما أن صدق الشيخ ولطفه بددا شكوكنا، وجاء حوالي منتصف الليل مع عشرة من رجاله ووضع نفسه رهن إشارتنا لنتجه إما إلى تاگمّوت أو إلى سوس أو إلى أقا إغن، وانتشر زطاطته في مرحلة أو مرحلتين في جميع الاتجاهات. أفهمنا أن شرفاء الزاوية هم أعداء عائلته، وهذا ما يجعلها ملجأ لجميع مجرمي البلاد، وأن استغلال هذا الحق المقدس هو فجور كبير.

خلصنا في الأخير أننا سننطلق غدا منذ الصباح الباكر إلى تاگمّوت، جعلتنا الرياح نكون في الموعد، حيث هبت رياح قوية على القبة جعلتنا نرفع الخيام، كان البرد قارسا، والريح ثلجية وأصبحت أكثر قساوة عندما صعدنا أخدود فج سيدي محمد أويعقوب، ووصلنا إلى منبسط معزول يمتد إلى هضاب تاگمّوت، وواد أسادرن الذي يقطع هذا الهضبة، وواديها الجاف واسع وعميق. وفي [128] الوقت الذي صعدناه ظهر ثلاثة رجال خلف شجيرات طاردهم الشيخ مع ثلاثة من خدامه، ورجع اتجاهنا ليقول إنهم قطاع الطريق من أولاد جلال المتيقنون بضرورة نيل نصيبهم من الغنيمة. بالغ كثيرا في حكاية القصة، مما جعلني استحضر تحذيرات مقدم الزاوية، أمرت رجالي أن يبقوا مجتمعين أو أن تكون أسلحتهم جاهزة، وواصلنا السير دون حدث يذكر إلى حوالي الساعة الحادية عشرة.

نحن الآن في مقعر يوجد في عمقه غدير محاط بسدرة اعتاد الرحالون أن يتوقفوا به، كما تدل على ذلك آثار نار خامدة، واقترح علينا مرشدنا أن نتوقف به لتناول الغذاء، و"لنُشرب" بغالنا، فأضرمنا النار، وقمنا بتسخين الكسكس البارد الذي يشكل منذ أسابيع الغذاء المعتاد وشرعنا في الحديث، وشكل الشيخ محمد ومولاي الحسن وبعض الآخرين مجموعة، وكانوا يراقبون بنادقهم التي كانت تثير الإعجاب في كل مكان مررنا به، ويرجع شريفنا ذلك إلى غناه. كانت مجموعة من رجالنا في هذا الوقت تشرب بغالنا، والقسم الآخر يبحث عن الخشب من أجل إضرام مزيد من النار.

غصت فجأة جوانب المقعر بمجموعة من الرجال المسلحين اتجهوا نحونا في طرفة عين، وبنادقهم مشهورة إلى الأعلى صارخين صرخات حرب، وقفز خدام بن تابية على بنادقنا وأخذوها كلها باستثناء ثلاث: بندقية الشريف carabine، وبندقية بثلاث طلقات، وبندقيتين للصيد التي انتزعها من يدي شلح. ففر خدامي العزل وصعدوا إلى جبل يرون منه المشهد جيدا، وبقينا نحن الأربعة مولاي الحسن والزناگي الذي لم يعد معه سوى مسدسه، وبغّال وأنا واضعين ظهورنا على صخرة في انتظار أن نرمى بالنار. وتمدد محمد بن تابية أمامنا صارخا:

لا تضربوا بالنار... هناك سوء تفاهم فهم كلهم إخواننا!

هكذا بقينا وجها لوجه، فجمع بن تابية [129] في دائرة كل هؤلاء اللصوص/ قطاع الطرق وتحدث معهم، دامت المناقشات بعض دقائق، ثم جاء حولنا حاملا معه رسالة طلب منا قراءتها

وهذه الرسالة هي للشيخ محمد من أقا إغان، وتقول بأنه تعرف علينا بواسطة الحرطاني الحاجمي، وأن أحدنا مسيحي، وأننا نحمل كنزا منهوبا من السلطان، وأنه يجب نظرا لهذه الأسباب كلها أن يقبض علينا، وأن يقتل المسيحي وتؤخذ النقود.

فقال بن تابية: بماذا ستجيبون؟

لقد تعرضنا بطبيعة الحال للخيانة، وأصبحت ضائعا، والوسيلة الوحيدة للإفلات هي الإنكار، والأمر الآن إشكالي في مثل هذه الظروف، فقدنا كل الآمال... وأنكرنا تماما أنا ومولاي الحسن والزناگي أن بيننا كافرا، وللتدليل على ذلك أدى الزناگي الشهادة. فنقل بن تابية احتجاجاتنا إلى هؤلاء القطاع، الذين لم يقتنعوا بطبيعة الحال، وأرادوا أن يسلم لهم المسيحي وكل الأمتعة. وكانت وضعيتنا الاستراتيجية تقتضي أن لا نتحرك عن موقفنا... وأن معنفينا سيأخذون ذلك بطبيعة الحال بعين الاعتبار... وتحدثوا بصوت خافت في الموضوع. ورجع بن تابية رغم ذلك في اتجاهنا واقترح علينا أن نعود إلى الزاوية.

وقال: - هناك ستكونون في أمان وسننظر في الاتهام الموجه إليكم، وسنرى...

فجمعنا بغالنا، وتشكلت قافلتنا من جديد، شرعنا في التحرك، وقطاع الطرق يتبعوننا، ورجال بن تابية يحيطون بنا، وضعت احتياطا مسدسي في أحد جيوب برنوسي تحت يدي اليسرى، وتناولت بندقيتي باليمنى. واستمر مشينا على هذه الوضعية زهاء ساعة معيدين التحرك في الاتجاه المعاكس للطريق التي سلكناها هذا الصباح، وتأقلمنا مع كل شيء، وانتهينا بالاعتقاد بأن الشيخ جاد وأنه يذهب بنا إلى الزاوية [130]. كان التحذير قويا، لكن بمرور الوقت واستعمال الدبلوماسية والنقود الكل سيكون على ما يرام.

نزلنا عبر وادي وادي أسادرن، ووجدت بغالنا صعوبة في عبور هذه الأرض الكثيرة الحجارة الكبيرة، فجأة سحبت بقوة إلى الخلف من فوق بغلتي قبل أن أسحب مسدسي، وجعلوني ملفوفا في برنوسي بعد أن غطوا عيوني "القلنسوة" "بالقب" تخطيت المفاجأة الأولى وقاومت بقوة، رغم أني تلقيت ضربات بالأرجل والأيدي حتى استطعت الوصول إلى مسدسي، لكن للأسف كانت شحنات المسدس قد ضاعت مني في الطريق دون أن أشعر. ووجدت حوالي دائرة من عشرين رجلا مسلحين بالبنادق والخناجر، حاولت دون فائدة أن اخترق الدائرة وارتميت بكل قواي على الزنجي الذي اندفع حولي وأصبحت أتدحرج معه هذه المرة، وسقطت أرضا ولم أعد أستطيع النهوض. استعملوا معي جميع أشكال الضرب بالحجارة، وبخلف البنادق والخناجر، وسلبوا مسدسي العديم الفائدة "بسحقهم" أصابعي. ربطوني، وجلس فوقي الزنجي الذي تدحرجت معه والذي ينزف دما، عاكفا عنقي بيده، ومستعدا لذبحي بسكين صغير مخيف من الحديد... وحدث تدخل في هذه اللحظة، فأحدهم أوقف الزنجي مويليد، واستغلت هذه اللحظة لكي انهض لوحدي، والحبل الذي كان يربط معصمي قد فك. تلقيت من جديد لكمات من مويليد، وفررت على بعد عشرين مترا جريا لكن ضربة في الركبة جعلتني أسقط، وأعادوا وضع "قبي" من جديد فوق وجهي وربطوني بقوة هذه المرة! وسمعت قطاع الطرق يتفاوضون حول من سيذبحني. اعتقدت حينها أن كل شيئ قد انتهى!

نساء إيليغ

أنزور، نساء إماء تحملن الحطب

ما أنقذني هو فضول معنِّفي، حيث تدخل أحدهم ليقترح أن تُعطل العملية إلى أن أقدم لهم شرحا عن الأشياء الغريبة الموجودة بأمتعتنا، وعن الأشياء [131] المخصصة، حسب معتقدات "البربر"، للبحث عن المعادن، والكنوز، وصنع النقود المزيفة. تركوني من جديد دون أن أستطيع الوقوف، وأزالوا عني كل ملابسي باستثناء قميص، وسروال. استغل مويليد الموقف لينتقم من تلك الضربات التي وجهتها له، وعندما كان يتعب من ضربي يتركني لحال سبيلي.

كاد الزناگي أن يقتل أثناء هذا المشهد هو بدوره، حيث اعتقدوا أنه نصراني وأخرجوه إلى الخارج من أجل ذبحه، وذهبت كل احتجاجاته ودعواته وتوسلاته هباء. وشرع في تلاوة القرآن بصوت مرتفع، ثم سألوه وبعثوا به إلى الشريف الجالس على بعد أمتار من هنا وتحدثا بإسهاب، وطلب منه العفو عنه وعنا جميعا، وأقسم بغليظ الأيمان أنه شريف وأننا كنا خدامه.

كان رجالنا في هذا الوقت محيطين بجواد الشيخ بن تابية، ويعملون على تمرير أيديهم على رأسه وبطنه ويقومون بتصرفات تجعل قطاع الطرق لا ينتبهون إليهم.

دامت المناقشة أكثر من ساعة، ولم أفهم سوى بعض المقاطع، لأن الثلث فقط من معنفينا يتكلمون العربية، وهم أولاد جلال أما الآخرون كانوا من "الشلوح" يتكلمون تامازيغت، وخلاصة هذا الكلام: يطلق سراح الشريف وخدامه باستثنائي أنا. ورغم نفاق بئيس أعطيناه أربعة بغال مصابة لم تكن تحمل شيئا، وجحشا يحمل شحنة المطبخ. في حين أن البغال الأربعة الأخرى ستحمل أمتعتي الخاصة، وكانت في حالة جيدة، سيحملوني أنا السجين إلى الجبل مع الغنيمة، وبعد ذلك سيناقشون الأمر. ومن أجل تهدئة "احتجاجات" الشريف فتح المصحف وأقسم بن تابية أنه لن ينقص من الأمتعة ولو إبرة واحدة، وأنه لن يمس شعرة من رأسي. حاولت خلال هذه المناقشات أن أقترب من مرافقي، لكن عربيا رآني ورماني بحجارة، وسارع مويليد وربطني من يدي، ورغم ذلك- في وقت انطلاق الشيخ بن تابية- حل رباطي [132] وأرجع إلى حذائي "بلغتي" وجلبابي الريفي. واستطعت أن أزحف إلى مرافقي وأودعهم، كان الكل يبكي... وصرح لي محاند بن تابية أنه لم يسبق له أن استمتع مثل اليوم.

****

دامت هذه المأساة ساعتين، كانت آلة البارومتر الثمينة المغلفة جدا داخل حاوية قد سجلت دون توقف أحداث هذه الطريق، وبفضلها أعرف أشكال المناطق التي عبرتها ليلا دون تخوف من عدم الوقوف على التفاصيل، كما أعرف أيضا مدة مشينا، وساعة توقفاتنا، ووصولنا، ونقطة ارتفاعنا، وأن المكان الذي نوجد فيه الأطلس الصغير هو: النقطة الفاصلة بين حوض درعة وحوض سوس. وصعدنا واد أسادرن إلى حدود منبعه حيث مشينا رأسا في اتجاه الشمال، وكان الوادي متسعا في المكان الذي وقع فيه الاعتداء، وتشكل الهضاب في العمق شعبة مغلقة يصعب التحرك فيها.

تفرقت عصابة بن تابية، وتكلفت فخذة مكونة من أولاد جلال تحت إمرة زعيم الدوار يسمى آيت حميد بمهمة مرشدين لمرافقي الذين أسرعوا في الهرب في اتجاه سوس ولا يشغلهم شاغل سوى البحث عن النجاة. أخذ بن تابية جميع النقود الموجودة في حقيبة الزناكي متصرفنا المعتاد، وكان قد أعطى سبعة دورو لمولاي الحسن، وسبعة دورو لآيت حميد، وكان سخيا حيث ظن أنه بتصرفه هذا أن شريكه وضحيته سيكونان مسرورين، وكانت فخذة أخرى تتحرك أمامنا في وظيفة استطلاعية. ويتكون أخيرا القسم الأكبر من المجموعة التي أنتمي إليها من الشيخ، وعشرة رجال أربعة منهم يركب بغالنا، والباقي يتبعنا، اتجهنا بسرعة نحو الجبل. ومادمنا نتحرك في النهار فالأمور عادية، وكان المشي السريع خير علاج لي لاتقاء البرد القارس بجلبابي "الرقيق" الذي لا يغطيني جيدا، وباقي ملابسي يتزين بها مرافقي. أخذ بن تابية [133] برنوسي الأسود وعندما يصل الليل نتوقف لبعض الوقت ونتداول، وثلاثة رجال "مسلحين" يتجهون نحو إيليغ، وفتحوا إحدى "حقائبنا" وأخذوا منها كيفما اتفق بعض الأشياء وأعطيناها إياهم، فالقسم المؤدى على المصحف لم يجد أي شيء! أما

فيما يتعلق بي فإنهم يتحدثون في موضوعي، لكن كل المحادثات كانت بتامازيغت ولم أفهم شيئا، فقط بن تابية هو الذي اقترب مني وقال لي "أسجد"!.

ظننت أنها اللحظة الكبرى!، وأنهم لم يسوقوني إلى هنا إلا ليتخلصوا مني في سرية، فربطوا يدي إلى الوراء، وأزالوا حذائي "بلغتي" وضربني مويليد برجله حتى ارتميت أرضا، وقام أحد "الشلوح" يسمى سْعيد الذي بدا لي منذ الوهلة الأولى أنه رحيم بمساعدتي على الوقوف والرجوع من جديد للمشي. كان الهدف من هذه الإجراءات الاحتياطية هو منعي من الهروب. واستمر المشي ثلاث ساعات أخرى، كنت متعبا ومنهكا جدا، وكنت أجد صعوبة في المشي هكذا بأقدام حافية، وبيدين مربوطتين، فوق هذه الممرات الكثيرة الحجارة. وكنت أسقط دون توقف. أشفق علي سْعيد، وكان يضع يديه فوق يدي ويقول لي: "تشجع".

سقطت إحدى بغلاتي من التعب وكان عليهم أن ينهضوها، وكلفوني بذلك، فقد قطعت المسكينة مائتي متر وسقطت من كثرة أثقالها، ولا يمكن لأي مجهود أن ينهضها وجعلوني أجلس بالقرب منها، وأعادوا ربط يدي من جديد وتركانا نحن الاثنين، وقالوا لي إنهم سيعودون للبحث عنا بعد غد. كنا زوجين متراحمين أنا وبغلتي المسكينة الواحد بالقرب من الآخر جنبا إلى جنب في هذه الليلة القارسة. ظللت منذ مدة دون تفكير، وبدون وعي تقريبا عندما سمعت أصواتا، يتعلق الأمر بسعيد الذي رجع مع اثنين من الرجال حاملين معهم بعض التبن، وقربة ماء فجعلني أتوقف، لأشرب البغلة وأعطيها بعض التبن ثم تحركنا من جديد مشيا. وصلنا إلى قمة الفج، وانحدرت طريقنا الآن باتباع سرير واد جاف، ثم توقفنا أمام متراس في الأسفل حيث تفتح باب عريضه، ووصلنا إلى قعر أساكا[134].

أنزور، مدخل البرج، الجواد الوحيد

أنزور، الشيخ: محمد بن تابية

وأساكا هي أحد التجمعات السكانية "للشلوح" بالجبل، لا تبلغ مساكنه سوى ثلاثين كانونا، ومنازله مبنية بالحجر، والطين، منحدرة، وصلبة، قبيحة المنظر، لكنها ذات طابع مميز. فعندما تنظر مجتمعة تبدو الحالة الجيدة للمتراس وصلابة البناء تحيل على عدم أمان المنطقة. دخلتْ أساكا مع جارتها تسّيرين في حرب دون هوادة ولا توقف، وأحد آل بن تابية حماة لها ووقعت هدنة منذ هذا التحالف. وعرصاتها لا تغطي هكتارين، ويسقي رافد صغير من الماء الحقول التي تنبت فيها أشجار التين، واللوز. والشعير ينبت جيدا في خضرة تتناوب مع أشجار الكروم دون أوراق، وأشجار اللوز المزهرة. لم أر شيئا من هذه الأشياء عندما وصلت ليلا، حيث اقتادوني في زقاق مظلم، أمام منزل بابه مفتوح، ودفعوني إلى غرفة طويلة ضيقة ومنحدرة، واجتمعت كل عصابة بن تابية حول نار كبيرة، يأكلون، ويشربون الشاي. واستغربت لجمال الأواني والأطباق التي تتعارض تماما مع المنظر البئيس لهذا المسكن.

يبدو أن دخولي لا يهتم به أي أحد، فجعلوني أنزوي في ركن، لم يعرني أحد أي اهتمام، في ركن من الغرفة حيث شكلت كومة نام فوقها محمد بن تابية، كانوا يتحدثون عن اقتسام الغنيمة وعن مصيري، وكان أولاد جلال مويليد يريدون قتلي بل إن أحدهم اقترح أن تفقأ عيني وأُحرق. أظهرت المذكرة التي كنت أدون فيها ملاحظات مساري، وشرحت لهم أنني كتبت أسماءهم وطرق قصورهم، واحتج بن تابية و"الشلوح" لذلك وتفهمت حدة احتجاجاتهم، وعلمت أن هذه السرقة يمكن أن تجلب لهم سجنا، وأنني أشكل رهينة رائعة، وعندما لن ينشأ أي احتجاج سيقررون قتلي، ويكون الوقت دائما مناسبا سواء لبيعي، أو قتلي لكن العرب [135] لايريدون أن يتزحزحوا عن رأيهم، والتفت إلي أحدهم قائلا:

"ماذا تعرف صنعه، هل تستطيع البحث عن الكنوز، أو استغلال المعادن، أو صنع النقود؟ فنحن سنصحبك معنا إلى جبالنا، فهي ملأى بالكنوز التي خبأها فيها النصارى".

وقلت لهم: "إني لا أعرف شيئا، وإنني خادم الشريف وإنني طرابلسي" أخذني الجيلالي من يدي وفتشها، ورأى "مرضا جلديا"، فسل خنجره "كميته" وغرس مقدمته فوق يدي وقال:

- أعد أنك لا تعرف صنع أي شيء!

شرحت أن طرابلس توجد على ساحل البحر، وأن سكانها بحارة، وأن هذه الآثار الجلدية مردها إلى استعمال المجداف. استمر الاستجواب في أجواء القسوة والتعذيب طيلة فترة من المساء، إلى أن تعبوا من سؤالي ثم ناموا، كانت الغرفة ضيقة جدا لدرجة أن رجلا متوسط القامة لا يمكن أن يتمدد فيها، وأن عشرة أشخاص ينامون بها بالكاد، ومادام أن أمتعتنا تزاحمهم، فقد أرسلوني لأنام بالخارج قرب بغالي.

****

قرروا في اليوم الموالي، منذ الفجر عندما أنهوا صلاة الفجر، جرد الغنيمة، فعُرضت أمتعتنا أرضا، وشرعت عملية النهب بإشراف شخصي من الشيخ محمد بن تابية. أثارت معداتي العلمية استغرابا وتأسفا، فكان العداد، والنظارات الفلكية، والآلات الفوتوغرافية، والبوصلات، وأجهزة قياس الحرارة، والبارومترات والايبسيموتر تمر من يد إلى أخرى، وانهال علي وابل من الأسئلة حول كيفية استعمالها، وعندما كنت لا أعرف كيف تستعمل كنت ألعب دور البغّال الحامل وأقول: إن كل هذه الآلات تستعمل في التنجيم، وهي في ملكية الشريف الذي وحده يعرف استعمالها. كان هذا الجواب بطبيعة الحال لا يقنع أحدا [136] لكن أين هي الطريقة من أجل إفهام التصوير الفوتغرافي أو الطبغرافي للبربر!؟ وكان التهديد يتكرر مثل لازمة قصيدة عند كل جواب: سنقتلك مادمت لا تعرف شيئا...!

كانوا يستعملون القوة في فتح كل ما هو مغلق، وعندما يستعصي فتح آلة أوعلبة فإنها تكسر وبهذه الطريقة فتحت عشرات علب "الكلشيهات" والشرائط وكسرت آلة بانورامية بالحجارة، ونجت آلة فوتغرافية بأعجوبة، حضر أحد اليهود هذا المشهد، وحكى لنا أنه شاهد في رحلاته العديدة مثل هذه الأشياء كثيرا، وقال إنه يعرف هذه الآلة باعتبارها آلة للموسيقى، الأكورديون. حاول الكل وبالتتابع خلال خمس عشرة دقيقة، أن يخرجوا صوتا من هذه الآلة المسكينة.

شاهدت هذا الإتلاف لوثائقنا دون أن أقدر على القيام بأي شيء، فالمرء يريد أن يموت موتتين على أن يشاهد ممتلكاته القيمة تتلف. وكان في إحدى "الحاويات" ست حقائب خبأ في كل واحدة مائة ريال بالعملة الحسنية وأن اكتشافها يثير ذهولا عاما، ظننا أنها ستتلف، لكن الاحتمالات الأكثر تفاؤلا لم تكن تتنبأ بهذه المنجم الثري، وأغلق الشيخ محاند بإحكام الأكياس في انتظار أن يعود إليها ثم شرعوا في تفتيت أسلحتنا. ورجال البارود هؤلاء معجبون كثيرا بالأسلحة الجميلة، فهم لم يعرفوا مثلها أبدا في مثل هذه المناطق النائية، "أبهرتهم" أسلحتنا وبدأوا يعيدون تركيبها ويجربون المسدسات والبنادق، وكانوا يجتمعون كلهم ليشاهدوا العملية جيدا، وكانت بندقيتي Carabine من نوع lee-Merfond وسكيني الصغير winchester محط إعجاب الجميع، ثم جاء زعيم قطاع الطرق

بن تابية ليقوم ويلفها في كيس من الثوب، ويجلس فوقها. ونهب بعد ذلك كل مؤونتنا، وملابسنا وأحذيتنا "بلاغينا"، وكان الكل يمر عبر الشيخ دائما الذي يأخذ حصة الأسد. واكتشفوا في "عمق الحقيبة" قنينات[137] وضعت فيها العينات الجيولوجية... وبدون شك فأنا أعرف اكتشاف المعادن، وكل هذا يسعف في صنع الذهب!؟ وشرحت قدر وسعي أن هذه النباتات، والحشرات، والحصيات، موجهة لصنع الأدوية. وقالوا: لصنع الأدوية! هل كنت طبيبا؟ ولماذا لم تقلها منذ مدة؟ وكانت لابن تابية رصاصة في كتفه تؤلمه منذ مدة، وكانت إحدى النساء تموت، وكانت عندي الأدوية فأين كانت؟ فشرعوا في البحث عن كيس الأدوية، ووجدوها "معلّبة" في خيمة، وأُخرجت كل القارورات وكل العلب من مختلف الأشكال، وكانوا يريدون معرفة لماذا تصلح كل واحدة منها، ويتذوقون كل شيء، و"حاولت" أن أوقف هذه العملية خاصة أن بعضها كانت تحتوي على السموم...

السموم! أين هي؟ هل كانت عندي سموم ولم أقلها! وما هي السموم هل هي من النوع السريع أو الحقيقي أو المؤلم...؟ وامتدت كل الأيدي نحوها.

وكان علي أمام كل هذا النجاح أن أتراجع إلى الوراء، وأقول إن طبيب قافلتنا هو الزناكي، وأنا لست سوى خادم بسيط، وأنني أساعده أحيانا وأعرف بعض الأدوية وبعض الأسرار لكن الكثير من هذه الأدوية لا أعرفها، ورغم ذلك أعمل قصارى جهدي لإشفاء أو معالجة كل "القروح". أنقذت نفسي، ولم تعد تطرح علي أسئلة لإعمائي أو قتلي. وقال الشيخ إنه بعثني إلى أنزور، وأن علي معالجة ولده الذي جرحت ساقه بزجاجات كثيرة، وتجرأت بأن أقول إنني لم آكل منذ أربعين ساعة، فأعطوني حفنة تمر ثم أغلقوا "حاوياتنا" وجمعت كل أمتعتنا في مخزن المنزل وقرروا الانطلاق منذ الصباح الباكر إلى أنزور.

****

من أساكا إلى أنزور

تبعد أنزور بحوالي أربع ساعات من المشي رأسا في اتجاه سوق أساكا، ولم أعد أتوفر على أي وسيلة [138]. للمراقبة، ولم أعد أستطيع الحصول على بعض المعلومات الجغرافية إلا باحتياطات كبيرة جدا، والمسار الذي أمر منه لا أصفه إلا بطريقة تقديرية دون تدقيق. وعندما خرجنا من أساكا صعدنا في سرير رافد منبعث من القصر الذي يهيمن هنا، ونحن الآن هنا في نقطة لجمع معلومات طبوغرافية لوادي دادس، وسوس، ودرعة. وواد أسادرن لا يبعد سوى بثلاث أرباع الساعة في اتجاه الجنوب من هنا، ويجري في اتجاه درعة. والوادي الذي يجري هنا في اتجاه الشمال حسب ما قيل ليس رافدا لواد سوس، والجدول الذي سنصعده يأتي من الشرق، ويسقي الحقول الصغيرة للحبوب المحروثة فوق مرتفعات صخرية تحيط به. ويوجد واد في الاتجاه المقابل للقمة يتجه نحو الشرق حيث يلتقي بجدول آخر في قدم قصر خرب لدودرو. واسم هذا القصر لم يعد متداولا هنا، والمساكن المحصنة للشلوح تعرف هنا باسم "موضعت" يمكن ترجمتها بالجماعات المحلية تقريبا. وهذه المواد مجموعة

على شكل دوائر، فأساكا قسم من دائرة إزازن، وموضعت آيت كلفت، وتلاث، وتيزگي، وآيت حامد التي وجدناها في طريقنا تنتمي لدائرة إغديوة. وتعد تيزگي أكبرها ولا يبلغ عدد سكانها سوى خمسين كانونا، حقولها لا تبلغ مساحتها سوى ثلاثمائة متر عرضا لكنها تمتد في الوادي الضيق. وأغناها لا تصل أشجارها إلا لمائتي شجرة لوز، فكم هي فقيرة هذه المنطقة، ورغم ذلك فهي آهلة جدا بالسكان. !

أنزور، صورة أخذت من الجنوب، بيادر، وهضبات أونزين

أنزور، صورة أخذت من الشمال، البرج، والقرية، والعرصات، وعلى اليمين الممر المؤدي إلى سوس

والجبال ليست مرتفعة هنا إلا قليلا، فأعلاها هو جبل إسيگي حيث يسقي حوالي مائتي وخمسين مترا فوق القمم المجاورة. وكل المرتفعات مكونة من صفائح رمادية، أو وردية، باحمرار خفيف بحجارة كبيرة والسكان يأخذونه باعتباره صومعة ثمينة، ويأتي إليه أهل تارودانت ليلا لتحميل بغالهم بحجارة هذه الجبال لبيعها للمسيحيين بموگادور. ونرى عدة آثار أطلال في القمم يدعي السكان أنها بقايا احتلال الروميين الذين [139] سبقوهم إلى هذا البلد، ويدعون أنفسهم أنهم من سلالتهم ويسمون أحيانا "تامونت الروم".

وصلنا إلى أنزور حوالي الساعة الخامسة، وكان محاند بن تابية قد غادرنا في منتصف الطريق ليرجع إلى إيليغ. وكان لي وقت قصير للتعرف على موضعت أنزور، وبرج بن تابية الذي يهيمن النظر منه على كل شيء، وبمجرد وصولنا رافقوني إلى الشيخ محمد بن تابية الذي سيصبح ابنه زبوني. وتحلقت مجموعة من الناس حول صينية شاي في انتظاري. وبمجرد وصولي عتبة الباب رحب بي رب المنزل ترحيبا خاصا، وأضاف قائلا بوضوح:

- أنت طبيب، وستبقى ضيفنا إلى أن يشفى الكل.

وهكذا دخلت إلى عائلة أولاد بن تابية يوم الثالث من مارس.

****

كانت أنزور منذ عشرين سنة موضعت تعيش في رفاهية، وتجمعا سكنيا من ثلاثين منزلا مبنية أسفل هضبة صخرية، وتمتد في منبسط قرية أگادير، وتنزل حقولها في شرق "مدرجات" إلى عمق شعبة حيث تنبت مزارع الشعير. وتجري المياه بها أسفل أرضها في ساقية مصانة بشكل جيد، وسيد هذا المكان هو الشيخ بن تابية وهو قاطع طريق أسود، ذو بأس، له دور استراتيجي يؤديه من برجه الموجود في نقطة التقاء الطريق الرابطة بين سوس بالصحراء حيث ينهب القوافل والمسافرين، ويأخذ ضرائب عن البغال، واليهود، والتمر، واللوز، وكل ما يحمل أمامه، وهو مضيق لأصدقائه، كما ينهب أعداءهم. ونشبت خصومة بين السيد وأتباعه، بعد أن تعب من سحق "شلوح" أنزور. وتظهر أگاديرات من البرج، حيث نهبوا وقتلوا الشيخ وقتلوه بضربة فأس، ورجع أبناؤه الأربعة بإيليغ، بسرعة بعدما [140] استعانوا بأقاربهم وحلفائهم أولاد جلال، ورجال الصديق فاستعادوا برج أنزور، وحطموا القرية ثلاثة أرباع، وأبادوا كل أگادير، وذبحوا كل من وصلته سكاكينهم، وبنى الأولاد الأربعة لأولاد بن تابية بعد ذلك بطريقة رديئة البرج، وبعض المنازل واستقروا وسط الأنقاض.

والبكر المسمى عبد الرحمان هو سيد المكان هنا، يتمتع بسلطة مستمدة باعتباره البكر، فهو يتحكم باعتباره سيد العائلة، ويقسم المهام ويبث في الصراعات أو النزاعات، ويسكن خارج البرج في بناية جديدة تسمى القبة ليس لها قبة. وتستمد اسمها حسب ما قيل لي إن أبناء الشيخ كانوا يرغبون في بناء ضريح تخليدا لذكرى أبيهم. وأقسم عبد الرحمان أن هذه البناية ليست نافعة، وأسكن في الضريح غير المكتمل زوجتيه وأبناءه السبعة. ويسكن محاند الحارس في البرج، وله ولدان وبنت من زوجته الوحيدة ويسكن محمد والد المريض وعلي خارج البرج في إحدى المنازل المرممة[1]. كما وجدنا أيضا خمس أو ست منازل للخدام والعبيد وعائلاتهم، تستعمل إحداها المتاخمة مسجدا. والبرج عبارة عن شكل مكعب مبني بأربعة أبراج مراقبة يختلف الواحد عن الآخر من حيث العلو والجمال، وهو في وضعية متدهورة لكن لازلنا نرى به آثار الأرابيسك، والنوافذ المصممة جيدا أيضا، والبرج الأكبر له أربعة أضلع تعلوها أشكال طينية دائرية.

التوزيع الداخلي للبرج قديم، ففي الأسفل توجد غرف محاند، وقاعة دون نوافذ يسخن فيها، وفي الطابق الأول توجد غرفة استقبال يجتمع فيها بضيوفه، وليس هناك أي أثاث [141] يؤثثها، وأراضيها "ضعيفة"، وأسوارها متسخة وحصائرها رثة، والكل هنا يحيل على اللانظام، والاتساخ وعدم اكتراث سيد المنزل. تتكون قبة عبد الرحمان من سكنى سفلية دون طوابق، يعيش في واحد منها النساء والأطفال، والثاني غرف استقبال أي غرفتان سفليتان، وواحدة كبيرة مشتركة، وواحدة صغيرة مصبوغة بالجير وبها زرابي مفروشة للضيوف المميزين. كل هذا يحيل على البدائية، وكل ما يميز رفاه "الشلوح" هو سلاحهم، وحلي نسائهم رغم أن البعض منهن مازلن بدائيات جدا.

1 - مضت مدة قليلة على هروبي من المنطقة ذبح محاند ومحمد وعلي أخاهم عبد الرحمان بن تابية.

ما علي من أجل إنهاء وصف هذا "الديكور"، الذي سأعيش فيه منذ الآن سوى أن أشير إلى العين التي تعطي الحياة والرفاه لأنزور وحقولها تخرج منعشة من أسفل البرج من مغارة صغيرة اصطناعية يكفي أربع رجال لملئها، وصبيبها لم يتعد في أي وقت ثلاثين لترا في الدقيقة، وينخفض حتما في الصيف، وتملأ المياه بها التي تنبع طيلة إثنتي عشرة ساعة حوضا يستعمل صباحا ومساء لسقي الواحة. ويعمل العبيد الحاملون "الفؤوس" لصيانتها فهي تجري أولا في بساتين الخضر/ "العرصات" عبر مربعات اللفت أو القرع، ثم يحول إلى المربع الآخر، ثم تهبط بعد ذلك إلى الشعبة، ثم تختفي في مزارع الشعير. وهذه العين هي مكان جلوسي المفضل حيث تجعل منها بعض أشجار الحور مجالا أخضر، وبهذه الواحة الظل والرطوبة أستطيع أن أنسى شراسة الرجال وقبح الأشياء.

****

مرت إثنا عشر يوما الأولى لاعتقالي في ظروف سيئة جدا، وكان علي أن أتحلى خلالها بالقوة والهدوء، والتحمل والبحث عن الثقة. وكانوا يتعاملون معي باعتباري بهيمة/ حيوانا فضوليا، وكانت النساء تأتين من كل الدواوير والتجمعات المجاورة بل حتى من "الخارج" ويسألنني بطريقة لا تنتهي عن جميع الأشياء، ويطرحن الأسئلة الأكثر سخافة من قبيل: هل صحيح أن المسيحيات تحملن بخمس أو ست أجنة مرة واحدة؟ وهل أولاد المسيحيين يتغذون على حليب الخنزيرة؟

أنزور، ممر أنزور في اتجاه الجنوب: أطلال

أنزور، صهريج ماء

ولما رأوني حريصا جدا على المداومة على "العادات"/ الفرائض الإسلامية، والعبادات والصلاة انتهوا إلى الاعتقاد بأنني مسلم، كان الدور سهلا وسط هؤلاء "الشلوح" الأميين الذين يعتبرون الدين حركات فقهاء، وكذلك قراءة بعض الآيات القرآنية التي لا يفهمون أغلب معانيها، وواصلت القول بالرواية التي أعطانيها الشريف بأنني طرابلسي وأنني تركي مسلم وأنني حنفي.

وحدث حادث أكد هذا الكلام دون أن أنتظره. فقد كانت هناك «موضعت» مجاورة لحاج قديم زار مكة، وأقام أثناء رحلته للحج سنة بطرابلس، وشاء الحظ أن يكون قد سكن بها سنة 1897، وهي السنة التي زرتها أنا بنفسي، والباشا الذي استقبلني هو من استضافه أيضا، ومنذ هذه اللحظة قبلوا بأنني طرابلسي.

****

الإقامة في تجمع سكني للشلوح رتيبة وبئيسة، فالرجال ينامون ويستفيقون على الحكايات نفسها، والنساء تشتغلن بشؤون المنزل المعتادة والمقلقة، والعبيد يحرثون، ويسقون طيلة حياتهم الهكتار نفسه في أرض غير ذات محصول. ليس هناك من حي مستمتع هنا سوى الأطفال الذين لا يقومون بأي عمل، فهم يلعبون ويتشاجرون طيلة اليوم، دون أن يكترث أحد للضربات التي يتلقونها ولا للخسائر التي يحدثونها. أصبحت صديقهم بسرعة، وضحيتهم أحيانا. والطريقة التي تعارفنا بها مضحكة، فقد كان في مؤونتي بعض الشكولاطة، وتساءل "الشلوح" عن طريقة استعمال هذه الصفائح البنية المغلقة في ورق من الرصاص، وقلت لهم إنه دواء لمعالجة البغال... وأخذوا مني ورق الرصاص [143] وتركوا الشوكولاطة، وكنت أعطي بعض القطع يوميا للأطفال الصغار لابن تابية طالبا منهم عدم الكشف عن السر، فليس بين التآمر والصداقة سوى خطوة واحدة!

****

كانت مهمتي الأساس هي الطب، فأنا طبيب بإرادة الشيخ محاند، وعلي -حسبما يقول- أن أداوي الأصدقاء وأسمم الأعداء! ومن حسن الحظ أن علبة الأدوية بقيت بأساكا مما يحد من وسائل التدخل، وتمكنني من التهرب على الأقل بشكل مؤقت في الفحوصات خاصة في العمليات.

"للشلوح" اعتقاد راسخ في فعالية الطبيب المسيحي، وعندما يأتي مريض لزيارتي يقول لي بكل بساطة: "داوني". وإذا سألته عن مرضه، يشك مباشرة في معرفتي، فعلي أن أخبره بما يحس به ويؤلمه، وكل الأمراض عندهم تتمحور حول شيئين الجن و"الديدان"؟ فهما بالضرورة أدوية مختلفة "متحولة" لكن توجد لمعالجة جميع الأمراض خاصة "بالطبيب" وهي التميمة "لحجاب". وكان علي أخذ بعض الوقت من أجل التأقلم معها، وأضع منها يوميا عشرة، ولا تختلف الوسيلة حيث تطوى قطعة من الورق بشكل مستطيل من الحجم الصغير ويستعمل، وتكون في كل مربع رسومات، توضع أشكال اعتباطية كيفما اتفق: أرقام وأشكال هندسية، ويجمع الكل للأعلى ويكتب من فوق أسماء الله ومحمد. إنها الشعوذة التي ليس لها سن ولا قبيلة، وهذا موجود في البلدان المتخلفة لجميع الديانات. لكن زبنائي يطلبون الدواء، ويعلمون أن لي حقيبة ملأى بأساكا، ويطلبون من الشيخ محاند أن يأتي بها، وكنت أُذكي هذا الشعور كثيرا.

هكذا انطلقنا يوم رابع عشر مارس لأساكا، بتنا بها ليلة ثم عدنا إلى أنزور يوم الخامس عشر حيث جلبت معي كل أمتعتي، وكانت لدي بعض الصعوبات [144] في الطريق، فقد سببت لي الضربات التي أخذتها بمؤخرة البندقية في ركبتي تمزقا وألما كبيرا، وأعارني أحد رفقائي الجدد من أولاد جلال بغلته لأركبها في قسم من الطريق عند عودتي. وكان لهذا التعرف الأول للتفهم أثر في نفسي.

16 مارس

أصبح لوجودي معنى منذ الآن، وهو استرجاع وثائقي وأدواتي "المهنية" والخروج من هنا، وأصبح الشيخ محاند بغنيمته في أنزور "نمرا"، وحكى لي أن إخوته أعداء حقيقيون وأنهم يفكرون في نهبه، وأنه إذا كان يحتفظ بأمتعتي فإنما ليرجعها لي يوما عندما سيعيد لي حريتي. الكل مغلق في برجه المحكم الإغلاق، ولمزيد من الأمان كنت أنام وهو بعين المكان فوق حقائب الأمتعة "تحت الخيام" وكميته/ خنجره بيده وأنا ممدد على طول الباب. ويمر عديد من المسافرين مشيا بتجمع أنزور، فهم يذهبون إلى تيسينت، وقصبة الجوع، وأقا إغان، وإيليغ، أوسوس وفي الاتجاه المعاكس أيضا، ويأتي من زناگة أيضا سكان رأس الواد، وزگموس وأولاد جلال وهم فخذة من خمس وستين خيمة تضرب خيامها على بعد ألف وخمسمائة متر من أنزور، وهم زبناء الشيوخ، ويقدمون العون في كل مشاريعهم الحربية أو عمليات السرقة. والضيافة من أحسن الأشياء عندهم، ولاحظنا هذا بوضوح بأنزور، ورأيت في المساء حين يسكن الضيوف طيلة خمسين يوما، تجتمع الجماعة بمعدل خمس إلى عشر مرات. ويتوقف الحراطين القادمون من الفايجة، و"الشلوح" الذاهبون إلى سوس لبيع منتوجاتهم، أو شراء مؤنهم، وأولاد جلال الذين يتنقلون في الجبل بأنزور، ويتداولون الأخبار الجديدة ويجتمعون حول الشاي للتحدث حيث يتناولون تقريبا المواضيع نفسها.

استطعت فهم قسم من تلك المحادثات ومن أسوء الأشياء أن تسمع المواضيع نفسها تتكرر ولا تنتهي وأن [145] تجيب عن كل الأسئلة الصعبة التي تطرح علي... فهم يتحدثون أيضا كثيرا عن القبيلة المجاورة أونزين الداخلة معهم في حرب. وكانوا يعدون المحاربين واحدا، واحدا، ويقدرون كفاءتهم ودون "استحياء" بطبيعة الحال. ويستفيقون باكرا منذ طلوع الشمس حيث يأتي الأطفال بالماء الساخن للوضوء، ويغتسلون قليلا وبطريقة سيئة ويصلون منذ الفجر، ولا يهتمون بالصابون ولا يعرفون رغم ذلك سوى ثلاثة أنواع منه: الصابون الرومي، وصابون أوربا وهو معطر، ويستعمل نظرا لرائحته، والغسول وهو صابون معدني تغسل به الملابس والصوف، وأخيرا الصابون النباتي الذي يجلبه أولاد جلال من الجبل من منطقة رملية. ويأتون في الساعة السابعة "بتاگلا" التي تسمى بالعربية "العصيدة" وهو مزيج من الماء، والطحين، والزبدة، وتقدم في "جبانيات" كبيرة من طين مع ثلاثة "مغارف" من الخشب، يتناوبون على استعمالها حيث تغطس مغرفة في الإناء ويسحب المشروب بعناية ويعاد "جمع" المشروب خمس إلى ست مرات حتى لا تهرق على الزربية أو اتساخ الحصير. فالحصائر والزرابي "المقدسة" تؤثث المكان ولا يمشي عليها إلا بأقدام حافية، ولا يبصق أبدا على أرضها وإنما على الجدران. ويشربون في الساعة العاشرة الشاي على الطريقة المغربية، ويجب أن

يتحلى الإنسان بالصبر وهو يرتشق الكؤوس الصغيرة التي تمد إليه أو تعطاه. فالاستعمال يقتضي أن يشرب المشروب دون أن تلمس الشفتان الكأس، وعندما تفرغ الأباريق "البراريد" الثلاثة يؤتى برابع يأخذه الخدام بغرابة، وهذه الدفعة الأخيرة من المشروب الذي ليس سوى الماء الساخن يوجه للنساء والأطفال، وتدوم مدة تقديم شاي العاشرة أو الصباح ساعة تقريبا وبعد ذلك يؤتى بالفطور، ويتكون عادة من طبق "المرق" يقدم معه بعض لحم الماعز، أو الخروف [146] في "صينية" وهي عبارة عن مائدة قصيرة الأرجل كما يقدم بها الخبز أيضا. ويتكون هذا الخبز من عدة أصناف فتارة يكون "تونّيرت" وهو: خبز شعير مستو وناضج جدا، وتارة "توغريفت" وهو: خبر قمح منتفخ، أو "الخبز" وهو: خبز شعير "مخبوز" فوق حجارة كبيرة، وأخيرا رغائف من الدقيق الرطب مشابه لما يوجد بمنطقة بروتاني. ويوضع الخبز أمام "الفقيه" الذي يقسمه قطعا فوق الصينية أمام كل مدعو، ثم يستخرج اللحم ويضعه مؤقتا أمامه من أجل توزيعه لاحقا ثم يقول: "بسم الله" وكل واحد يغطس "يغمس" خبزه الموضوع بين أصابعه في الطبق، ونادرا ما يغسلون الأيدي قبل أي وجبة، في حين أنهم ينقوا أفواههم جيدا بعد الأكل و"يبصقون" بالماء في طست ويستعملون السبابة كفرشاة أسنان.

يقدم الشاي أيضا في الساعة الثالثة والرابعة بعد صلاة العصر، ثم يؤكل الثمر المجلوب من الفايجة، وازگيد مع الحليب "الرايب"/ اللبن. و"الشلوح" الفقراء لا يشترون التمر الجيد، إذ يحمل إلى سوس مع جلود الماعز، والرديئ منه فقط يبقى في الجبال، حيث يباع بأعلاف معزولة عن التمر، ومغبر وبه شعر الماعز، ووبر الجمال، ويحمل سيد المكان قطعة من هذا العجين، ويعمل الضيوف على عزل الأعلاف وتركها للبغال.

يشربون الشاي أيضا في الساعة السابعة بعد صلاة العشاء، ثم يتناولون العشاء، وتختلف هذه الوجبة حسب طبيعة الضيوف، وأعدادهم، وعندما نكون لوحدنا دون ضيوف ترتاح النساء، ويقدمن لنا بعض الزبد المذاب مع الخبز، وإذا كان هناك ضيوف دون أهمية فيقدم الطْعام وهو كسكس دون لحم، وإذا كان هناك ضيوف مميزون نستمتع بكسكس بلحم. ويجب أن تكون شلحا لكي تعرف كيف تأكل "تاگلة" هذا الطابق "الوطني"، حيث توضع في وسطها حفرة، مملوءة بالزبدة المذابة، وعلى كل واحد أن يتناول العصيدة الموضوعة أمامه [147] أن "يحفر" جيبا يصب فيه اللبن بمقياس يملأ كف اليد جيدا "بتاگلة"، ويغطس ويخلط باللبن ثم يغطس الكل في الزبدة المذابة، ثم يرمي الكل في الفم تحت صوت رائع، تم "تلحس" بعد ذلك الكف، والأصابع بعناية ثم يعاد غطسها في الطبق.

وتستحق عملية توزيع اللحم أن يشار إليها، حيث يضعها سيد المنزل أمامه في بداية الأكل، وعندما يأكل الضيوف المرق يلتفت نحو جاره، ويعمل الاثنان على تقطيع اللحم قطعا باعتبار عدد المدعويين، ويقدم كل واحد حسب منزلته. وهناك بروتوكول محرج يقسم اللحم من "الهبرة" إلى العظم... لكن الممتع دائما هو تهافت "السادة" على قطع اللحم. فالخروف، أو الجدي، أو العنزة تذبح دائما في الدقيقة الأخيرة، وتختار من "أجداد" القطيع والله يعلم إذا كان هذا القطيع سيعيش في هذا البلد الفقير، والبعض منها بحاجة إلى التقوية، ونحضر لأربع حصص حقيقية لتصارع أربعة "شلوح"

لتقسيم كتف خروف. و"الأدب" يقتضي أن نتكلم عن شيء آخر أثناء هذه "الذبيحة"، وبعد ذلك يكونون مسرورين بأكل لحم أنزور، والضحية غالبا ما يكون حملا، أو جديا. والنظر إلى الطريقة التي يأكل بها الضيوف اللحم غريبة حيث يتناهشونه كالكلاب الموجودة حول البرج.

17 مارس

إنه يوم عيد عاشوراء، فهم يعبرون عن فرحهم بإطلاق قليل من البارود ويصرخون أكثر من العادة، ويوزع الشاي فيما بعد، وتكون الجلسات عائلية لأنه لا أحد يسافر يوم عيد، ويدعون فيه بشكل أطول من الأيام الأخرى والفقيه سي أحمد الوحيد في كل الجوار يستطيع القراءة والكتابة، يتلو القرآن [148] بشرفة المسجد، والأشخاص الورعون يستمعون إليه متحلقين حوله، ومنتبهين لكنهم غائبون فعلا لأنهم لا يفهمون ولو كلمة واحدة. يسكن الفقيه بقرية آيت حامد على بعد خمس عشرة دقيقة من هنا، ويستقدم عند الاقتضاء عندما يتوصلون برسالة يريدون الإجابة عنها، وهو خياط أيضا مثل باقي الطُّلْبة تقريبا، وأسرّ لي أن إبرته تغنيه أكثر من قلمه، ومكلف أيضا بالتربية الدينية للأطفال، ويجمعهم كل مرة يأتي فيها إلى المسجد ويكتب لهم في ألواحهم.

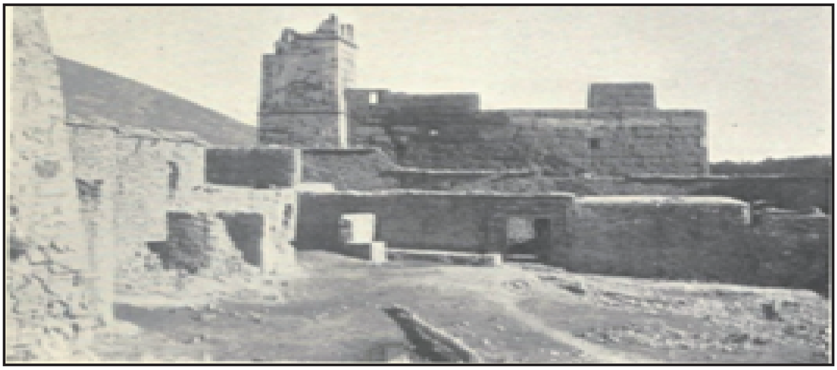

أنزور باب مدخل البرج

أحد الفرسان السود

من الصعب، الوقوف على درجة التدين عند هؤلاء "الشلوح"، إنهم متعبدون كثيرا، لكن بكثير من الخطأ. فأدعيتهم مختلفة تراهم يسبحون بسبحاتهم طيلة اليوم، ويصومون جيدا رمضان، ويكذبون كثيرا، وأحيانا كثيرة بدون هدف فقط من أجل متعة الخداع. والرجل الوحيد في أنزور المتصف ببعض الورع هو بنّاء عجوز مسكين يسمى سي الفقيه علي، فهو من رمم البرج وبنى القبة، ويقوم بتأدية مهمة المؤذن تطوعا، وهو من يسخن الماء في قاعة الوضوء، ويقدم الأطباق التي تقدم للمتسولين، ويمضي ليله كله في قراءة مصحف بخطوط صغيرة مستعينا بنظارتين إطارهما من نحاس. كان هذا العجوز الطيب ضد فكرة ذبحي، ولن أنسى أبدا ارتعاشة يدي هذا العجوز المسكين.

زاوية سيدي عيسى أوبراهيم قريبة جدا، وهي مكان زيارة مألوف، وكل المارة يتوقفون بها، وكل أهل الجبال يأتونها "بالهدايا"، ومقدم الزاوية شيخ زنجي طويل بلحية بيضاء وهو أحد زبنائي، ولم أر إلا نادرا انتفاخ بطن مثل ما رأيت عنده. أسر لي أن سلالة سيدي عيسى قد انقضت منذ مدة طويلة، وأنه هو نفسه ليس سوى حفيد أحد عبيده [149]. زارني أيضا شريف زاوية سيدي محمد أو يعقوب، حيث فتحت قاعة الضيافة لهذا الشريف الشرفي، فقد تعرض المسكين لمحاولة تسمم، واعتقل المتهم، ورمي به في قدر كبير تحت نار خفيفة من أجل أن يعترف بمحاولته الإجرامية، وقال إنه وضع بعض الكبريت من صندوق ثقاب في تغذية الشريف. لكن بعد أن اعترف بذلك ولم يعد له ما يقوله سوى صرخات قطع لسانه. وأخذت الإذن من الشيخ محاند أن أبقى في البرج مع أدواتي وكتبي وأخرج من حقائبي ما أنا بحاجة إليه وأن يغلقهما بعناية بقفل، ثم يغلق علي. وكان بمجرد ما يخرج أعيد فتحها في الاتجاه المعاكس وآخذ أشيائي الثمنية وأهربها في قلنسوتي "قبي"، وأذهب بعد ذلك في الساعة الواحدة عندما يعيدون إلي حريتي لأدفن غنيمتي في الحقول/ العرصات. واستطعت بهذه الطريقة أن أسترجع مذكرات مساري، ويوميات طريقي، وأصول صوري، وشرائطي الفوتوغرافية.

18 مارس

علمت أن رقاصا وبريدا جاء صبيحة هذا اليوم برسالة من "القايد" الگندافي تتعلق بي. قلب هذا التدخل كل ديبلوماسياتي، واستطعت أن أقنع محاند أن لي بتارودانت على بعد ثلاث مراحل من هنا أصدقاء أغنياء مستعدون لنجدتي. واتفقنا أننا سنذهب في أحد الأيام القادمة عند شيخ متوگة صاحب القصبة الظاهرة في تارودانت، والشيخ صديق حميم لابن تابية، وأن القضية سيُتداول فيها، فأنا سأعطي خمسمائة إلى ستمائة بسيطة، وسأعترف عند عدل أنه لم يسرق لي أي شيء!

ذهبت كل هذه الخطة سدى، ففي الوقت الذي أراد فيه "القايد" الگندافي الإطلاع على أحوالي أصبحت شخصا هاما، والأمر لم يعد يتعلق بتسوية [150] القضية بطريقة ودية، ولا التفكير أن يكون منهم سجناء، ومادمت سجينهم فليس لهم ما يخافونه. لكن في الوقت الذي استعيد فيه حريتي فإنهم سيخافون انتقام "القايد". وخلاصة لكل هذه الاعتبارات قال لي الشيخ محاند: إنني منذ الآن ضيفهم... وإلى الأبد.

****

يهيئون الآن حرْكة ضد أونزين، وسرق رجال هذه القبيلة قطيع موضعت مجاورة، والجماعة ستتجمع هذا المساء بأنزور لتقرر في العملية وتخطط لها، وامتلأ البرج لدرجة أني ذهبت لأختبئ في الغرفة التي يجتمع فيها الخدم والعبيد. لكل شيخ خادمان من "الشلوح" وعبدان زنجيان، وعددهم أربعة، وست إماء زنجيات سنهن ما بين عشرين إلى خمسة وأربعين سنة، وستة إلى ثمانية أطفال زنوج صغار. ولكن هناك زنجية أمة تساوي ثلاثمائة بسيطة، وزنجي بثمن أقل، ويشفع لها أنها جميلة، وإلا ما كان تستحق هذا الثمن من المشترين، فلم يعد يأتي العبيد من السودان، وأن هؤلاء الخدم النفيسين لا يتجددون إلا بالتوالد، كما يباع أيضا أسرى الحرب. وتتوقف ظروف هؤلاء البؤساء، على طبيعة سيدهم، والأصل أن له عليهم، جميع الحقوق، لكن مصلحته تقتضي أن يريح خادمه. وعموما عدا بعض الاستثناءات، فإن الشلوح يتعاملون جيدا مع عبيدهم.

19 مارس

استمرت الجماعة في مناقشة مشاريع القرية، ويزعج هذا الاجتياح الجميع، وأصبح الشيخ امحاند أكثر حرصا من السابق، يرفض حتى أن يفتح لي باب البرج مخافة أن أحدا من ضيوفه يدخل معي، [151] وعمد إلى إخراج علبة "الصيدلية" التي أصبح الآن الكل يعرفها في البلد. وقلت له: إن المرضى يأتونني من كل مكان من سوس، والصحراء، وتافيلالت، وواد نون، ويعلمون أن الطبيب التركي لا يمكن أن يكون مسيحيا ويداوي "العجائب". والعجيب أنه لحد الآن لم يقتل ولم يصب أي أحد بالكساح، لأنه ليس لدي الحق في رفض العمليات التي تطلب مني، وأن لا أعطي مسحوقا أو خلطة معينة. وهذه بعض الأمثلة التي تؤكد أننا بإمكاننا أن نقوم بمهمة الطبيب بطريقة غير قانونية في بلد "الشلوح".

وأتوني في اليوم الثالث من اعتقالي بحرطاني مصاب بطلقة رصاص في كتفه الأيمن، بقي قارا بالعضلات أسفل الجلد يحرك تحت الأصابع. كان الأمر يقتضي إزالة الرصاصة دون أي أداة، بطبيعة الحال، وأعطوني شفرة حلاقة جعلتها حادة بحكها على حجارة وغرستها في لحمه، كان المريض يتلوى ألما، ووضعوا قطعة ثوب مبللة بالماء بين أسنانه، وقمت بوضع جرحين الأول كبير في الدفعة الأولى وعميقين في الدفعة الثانية، وسقطت الرصاصة ثم وضعت الإيودوفورم والقطن "الطبي" مع شريط أبيض ملفوف على الجرح الذي أهدته لنا "شركة إنقاذ الجرحى السجناء"، وبدا "الشلوح" مقتنعين، ومشيدين بمهارتي. وهذا لا يساوي شيئا أمام انتشار نجاح الأمية في المناطق البعيدة، وتسارع نحوي كل من له رصاصة بالجسم في بلاد البارود هذه من أجل معالجتهم، وهذه الرصاصات من مختلف الأنواع، والأحجام، والعيارات، ولكن ليس لها جميعها خطورة الرصاصة التي أخرجتها من كتف الحرطاني، سبب شهرتي!

المشكل الآخر الذي أعاني منه أن زبنائي لا يحترمون وصفاتي. ادعى الشيخ أنه مسموم "فللشلوح" خوف كبير وقائم [152] ومبرر من السم، وطلب مني مقيئا. أعطيته أربع علب صغيرة مضادة للتسمم، وأوصيته أن لا يتناول إلا واحدة، لكنه شرب الأربعة دفعة واحدة، وكاد أن يسلم الروح. وأورد في الأخير لإنهاء هذه الأمثلة مغامرة مرعبة، فقد ذهبوا بي مساء إلى أحد دواوير أولاد

جلال من أجل معالجة مريض له بقايا زجاج برجله، وساقوني قرب خيمة صغيرة مبنية على الهامش تصدر منها رائحة مرعبة/ كريهة. ولا أحد استطاع أن يواجه هذا الالتهاب، وجاءني أخيرا اثنان من مرشدي ببصل قطعوه أربعة إرب، وأدخلوا كل إرب في كل فتحة أنف ودخلنا، وكان يحتضر تحت هذه الخيمة شاب صغير بئيس لسعه ثعبان في رجله اليسرى، وجمعوها أو لفوها بالغنغرينا، فخرجت بسرعة معبرا عن عدم استطاعتي مواصلة مشاهدة هذا المنظر.

وقال لي زعيم الدوار: لا، لا، لن تخرج إلا بعد أن يعالج!

كان أي جواب أمام حدة الأوامر الصادرة، والوجوه العابسة للمشاهدين مستحيلا. فهل يمكن التحليل المنطقي أو التفكير مع الغوريلات؟! ورغم ذلك حاولت أن أوضح، لكني لم أحصل عن أي شيء وقلت:

- الله وحده يمكن أن يشفي مثل هذا "المنحوس"

- لكن هذا الشر يوجد، عندك فما عساك أنت فاعل في مثل هذه الحالات؟

- إقطع رجل المريض... -إذن اقطعها !

شرحت أنه يجب أن تكون لدي "أدوات" لقطعها وأنا لا أتوافر عليها، وركزت كثيرا على "المنشار" علما أن "الشلوح" لا يتوافرون عليه.

فقال الجيلالي:

- عندي واحد!

ثم انطلق بسرعة إلى أن وصل خيمته وعاد مشيا، وحاملا معه قطعة خشب على شكل صليب في كل طرف وقال:

- الآن اقطع الرجل! وردد متوسلون من العائلة الأمر بإلحاح [153]

وقال المسكين المحتضر: - اقطع رجلي فأنا أعاني كثيرا.

كانت لحظة رهيبة لكن الحظ شاء بأن يكون عندي مخدر. وشرحت للمريض أنني سأعمل أولا على أن أداويه دون أن أقطع رجله، وإذا فشلت يكون الوقت دائما لم يمر على ذلك، واستطعت بهذا على الأقل أن "أتفادى الموت"، وقمت بالتلقيح، وأثناء سريان مفعوله أتوني بالشاي تحت خيمة، وجاءنا بعد نصف ساعة طفل يقول لنا إن المريض نام! كان الأمر مفرحا، ف"الجن" المسكين لم يدق النوم منذ ثلاثة أشهر ولم يتوقف عن الصراخ! ورجعت عدة مرات لمشاهدة هذا البئيس وكنت كل مرة أعطيه اللقاح نفسه "بارود الجنة" الذي يريحه، وانتهى به الأمر أن حمل يوما إلى البرج ليلتمس مني ما يلي:

إقطع رجلي أو أعطني إبرتك.

مهامي ليست دائما مخيفة، مكنتني من التحرك في ضواحي أنزور ولم تكن القرية بعيدة من الدوار على بعد ست كلمترات في كل جولة، واستطعت أن أجمع بعض النقود، وجزيت بعبارت شكر

حقيقية، والحادث الوحيد الذي كاد أن يبعث بي إلى الجنة هو شرب أحد المسنين لمهيج جنسي عتيق وشفي! ولم يكن هذا من أبسط "عجائبي".

20 مارس

كادت صبيحة هذا اليوم أن تتحول محادثة من خصومة إلى مأساة، فقد رفض الشيخ محاند الموصوف دائما بالغباء، وعدم الثقة أن أدخل إلى البرج، بدون أن أفهم السبب، لمته على ذلك خاصة أن "شراسته" تمنعني من أداء مهنتي، التي هي عزائي الوحيد، وقال لي بصوت مرتفع بأن علي أن أحمد الله لأني لا زلت حيا، و"متغذيا"، وساكنا دون أن أقوم بأي شيء. ورمى علي بقطعة خبز فوق "حذائي".

ذهبت إليه وأرجعت له خبزه، وأراد أن [154] يضربني بقبضة يده، فذهبت وأنا أحتج/ أسب، وأصرخ، وعدوت، وتبعني وقبض علي غاضبا، وأراد أن يقتلني، وانتهى به الأمر أن ربطني إلى العمود الذي يحمل سقف البرج، وضربني بكل ما أوتي من قوة، ثم أخرج كل ما كان بجيوبي وهي عبارة عن ساعة، وبوصلة، ومحرار، وبارومتر، وأقلام ومذكرات، وكل ما ترجمته بعد معاناة، فهشمها ورمى بها ثم ذهب وأقسم أنني لن أدخل بعد هذا اليوم إلى البرج، وأنني لن أعيش طويلا.

إنها الكارثة!

لم يكلمني طيلة النهار بكلمة. وعندما جاء يحدثني لتناول وجبة العشاء توسلت إليه أن يضع الأصفاد في يدي، ويقذف بي في السجن، فلم أعد ضيفه، وضربني، ولم يعد لي مكان تحت سقفه. أحس محاند بالذنب، وجاء يقدم لي اعتذاره وأعطاني كمّيته/ خنجره الذي لم يعد يريد أن يلبسه لأنه سله في وجهي. ووعدني أن يعيد لي كل ما سرق مني، وأن يتركني حرا أشتغل كما أشاء. وقال لي أحد الخدام وهو صديقي بعد أن تناولنا الوجبة بصوت منخفض: لا تنم هذه الليلة خذ حذرك من محاند!

21 مارس

نام في أول الليل، واستفاق نشيطا، فرحا، وتركني أسترجع أدواتي، ووثائقي، بقي باب البرج مفتوحا، وكنت أسمع خطوات خفيفة، وهمسات، فهن صديقاتي الصغيرات من بنات بن تابية يضحكن فرحات بالشوكولاطة التي سبق أن أعطيتها لهن.

والنساء عند "الشلوح" يعشن "محتجبات"، وعندما يخرجن يغطين وجوههن، ولا يتخفين إلا من الأجنبي، ولو كن قبيحات الوجه أو عجوزات. ورأيت منذ اليوم الثاني لاعتقالي كل أنواع [155] نساء أنزور أمامي، الصغيرات غير محتجبات، والشابات شبه مستحييات، يتخوفن من أدنى حركاتي، ويجرين هاربات عندما يشاهدنني. تعودت رؤية الفتيات الجميلات لأنزور بسرعة، وكن جميلات!؟ أبالغ! فالمجاملة لا يمكنها أن تمنعني من القول بأنهن عموما قبيحات، والعجوزات متسخات جدا، والصغيرات ليس لهن سوى سنهن، فهن لسن نظيفات ولا جميلات، أقلهن سوءا هي فاضمة البنت البكر للشيخ عبد الرحمان، لها أنف كبير، لكن لها عينان كبيرتان تحت حاجبين كثيفين، وأسنان

جميلة، وضحكة جميلة أيضا، تعلم تفوقها باعتبارها الأجمل "فتلعب" بعينيها، وضحكتها مثل امرأة من وراء البحر.

أرسلت في اليوم الموالي لوصولي أخاها الصغير -ذي الثمان سنوات الذي يعرف بعض العربية- في طلبي، وكان عندي بين أمتعتي جواهر وروائح طيب، بقيت عندي قطعتا صابون فضلتا عن مغامرتي مع قطاع الطرق، أعطيتها لها وأصبحنا أصدقاء، وعندما لا يوجد أحد واشتغل في قاعة البرج أسمع خطوات خفيفة لأرجل حافية تمشى بحذر، ثم تمر فترة وأعلم أنها فاضمة التي تراقبني من "كوة" الباب، وتصدر ضحكة قوية مثل حمقاء وهذه مفاجأة كاملة، خاصة أنني أخبئ وأخفي كل الأشياء القابلة للكسر، والثمينة، وأتخوف من الزيارات المفاجئة لزائرتي، "فالشلوح" ينظرون بالأيدي أكثر مما ينظرون بالأعين، وعندما تكشف فاضمة شيئا يعجبها أو يغريها تخبئه أسفل ثيابها وتنطلق مسرعة كالبرق، وعانيت كثيرا من أجل استعادة قارورة الزئبق الغالية.

أستطيع القول جازما إن فاضمة لا تعرف عشرين كلمة بالعربية، وأنا لا أعرف خمسا بتامزيغت. كانت محادثتنا تتوقف بعض الوقت، لكن فاضمة كانت تثق بي، وكانت تتكلم [156] بصوت لا يستطيع أحد سماعه، وعندما تلاحظ أنني لا أفهمها تستعمل الإشارة بطريقة غريبة، كما تستعمل الحركة وتصرخ وتصفر، وتنهي الأمر بهمسها في أذني بكلام لا أفهمه. والطريقة الأكثر إضحاكا كانت بسبب علبة ألواني، وهي عبارة عن علبة صغيرة للسياح، وكانت فاضمة تراقبها منذ بضعة أيام، لطخت أصابعها بالأحمر عندما لمست فرشاة، وتطورت عندها الفكرة للتزين، فاستعملت مرآة بوصلتي -وهي من أهم أدواتي- وشرعت في الخلط بين الأخضر والوردي، وعندما نجحت في التجربة الأولى انطلقت بسرعة لتظهر ذلك لأخواتها وقريباتها، تحلقت حولي بعد عشر دقائق جماعة من البنات الصغيرات لابن تابية وهن عايشة، وخديجة، وزاينة، وإيجة، وإيسوكا، ومحجوبة، ومباركة... إلخ.

ولكي أنقذ علبة ألواني من الضياع التام أصبحت أنا من يقوم بتزيين تلك الآنسات، كانت فعلا لحظة مضحكة لا تقاوم، وكانت التزيينات الأكثر غموضا هي الأكثر إعجابا. وإذا حصلت على خلطة جميلة كانت الكل ترغبن في الحصول عليها، وكانت فاضمة أكثر وقاحة من الأخريات، إذ انتهى بها الأمر إلى تزيين صدرها وساقيها. يبدو أن الحياء غير معروف عند فتيات أنزور. وكانت لهذه الوفرة من الصباغة نهاية مأساوية، واكتشف عبد الرحمان على وجه فتياتهم أن لي ألوانا، وأراد أن يقوم بوضع تزيينات على القبة كلها واحتججت كثيرا بدعوى أن علبتي لا تكفي حتى لصباغة الباب، وكان علي بعدما رفضت صباغة الباب بنفسي أن أعطي علبتي لمعلم/ فنان الذي كان مستعدا لتزيين كل أنزور.

يبدو في المنظر الأول جبل إكيگي يسارا، وقمة جبل سروا (الأطلس الصغير)

أطلال البرج الموجودة في الأعلى (الأطلس الصغير) صورة اخذت في اتجاه الشمال

لباس نساء أنزور مختلف بعض الشيء عن لباس كل المغربيات، فالملابس "الفوقية" مشكلة من سروال، وقميص من الخنث وهي أثواب مصبوغة بالأزرق. وكان الخنث الذي يأتي من "السودان" بقيمة عالية مخيطا ومصبوغا بعناية، وعيبه أنه غال ثمنه، كما أنه مقلد بأثواب إنجليزية وغير مقبولة، وعيبه الوحيد هو لونه الأزرق الذي يزيد من وسخ النساء [157].

يتكون القميص من قطعتين من الخنث عريضة من جهة الكتفين وطويلتين من العنق إلى الركبتين، وتزينه بإبزيمين من فضة، ومجموع إلى الأعلى "بشمار" أو حزام من صوف أو حرير يمكن جمعه بطريقة سلسلة، وما يثيرني في النساء هو طريقة حزم اللباس. فعندما تكون بطريقة جيدة فإن قطعتي الثوب تتحركان بفعل الهواء لتظهر مفاتن أعلى الجسم، فكنا نرى المرأة الجميلة عن بعد من خلال حركة كتفيها وقميص الخنت الذي يتركها منتفخة ومكشوفة. وفتيات أنزور كلهن "متدلعات"!. ويعشن في تفاهم وتساهل تصرفات مع الرجال، والشيء الوحيد القبيح عند المرأة الذي ينقص من قيمتها هو بيعها لمنزلتها.

تعدد الزوجات معروف عند "شلوح" هذه المنطقة، لكنه ليس مفعلا إلا عند الأغنياء، علما أن الزواج ليس شيئا غاليا فالرجل لا يدفع سوى خمس عشرة إلى عشرين دورو لصهره، لكن عليه أن يدفع مصاريف الصداق وجهاز العروس، وفي الزواج "العادي" فإنه يكلف مائة إلى مائتي دورو لحفلات التبوريدة والإطعام. ويتكون "جهاز" العروس من أحذية "بلاغي" جلد فيلالي،

ومناديل وأحزمة من صوف، أو حرير، وحيوك من الصوف رمادية أو بيضاء، وجواهر ودمالج/ أساور من نحاس أو ذهب وعقد من العنبر، وبعض القطع النقدية، والأواني المعدنية، ومجوهرات من الأصداف، وتتزين خاصة بقطعة ذهب مربوطة بخيط فوق جبهتها.

حظيت مساء هذا اليوم بزيارة ضيف مميز هو أخ الشيخ "السلالي" / المؤسس للقبيلة الكبرى لزناكة "أمغار" أبلاّ، كان عائدا من تارودانت وعرج بدخوله إلى أزْديف من أجل استشارتي طبيا، فحالته صعبة فقد سقط من شرفة منذ أربع سنوات وكسر من "العصعص"، وبقي مشلولا، لا يستطيع ثني رجليه لدرجة [158] أنه لا يمكن أن "يمتطي" مركوبا، ولا يستطيع المشي.

"أمغار" أبلاّ من أشهر قطاع الطرق المعروفين في كل زناكة، حتى إن آل بن تابية توجسوا من هذه الزيارة، علما أن إحدى إخوات عبد الرحمان تزوجت بشيخ زناكة، وهنأه من خلال طريقة المجاملة التي قوبل بها. لكن رأيت البنادق معدة جيدا لأي طارئ، بعد أن أغلق علي محاند في البرج. وجاء أحدهم عند شرب الشاي لتخليصي من "سجني"، وطلب مني أن أنزل إلى القبة التي ينتظرني فيها "أمغار" أبلاّ، وهو رجل كبير الجثة، من النوع القاسي برأس "أصلع" ووجه منتفخ، وحاجبين كثيفين يغطيان عينين كبيرتين دون حياة، وأنف ضخم، وشاربين غليظين، وفكين قويين، وعنق كثير الشحم، وأعضاء غليظة. شرعت المحادثات بحذر، وسألني "أمغار" عما أحسن فعله، وصارحته أنني لست طبيبا لكن تابع أو مساعد طبيب عالم. وأنني سأقوم رغم ذلك بما أستطيعه من أجل إشفاء رجليه، لكن العلاج يتطلب وقتا طويلا وأدوية لا أتوافر عليها هنا...

قرر بعد لحظة من التفكير، ومحادثات طويلة بتامازيغت مع الخدام، أن يأخذني من هنا ولو بالقوة إلى أزديف حيث سأكون حرا وسأقوم بقصارى جهدي لعلاجه. أثار هذا الاقتراح بعض الاعتراضات، وقلت للزناكي أن يعبر عن شكري لهذا الاقتراح، وفسرت له رغبتي في أن آخذ قسما من أمتعتي، وأضحكت هذه "النية" أبلاّ، وقال لي:

- هل تظن أنك ستكون فرحا إذا خرجت من هنا حيا!؟

وعدني أنه سيفاوض جيدا في المسألة، ثم حول النقاش إلى موضوع آخر، وتم الحديث عن الرحلات والحرب والأسلحة. وحرص "أمغار" على استشارتي أو سؤالي عن بندقيته التي ضاع قسمها الأعلى، وجاءوا بالمفتاح وفتحوا القفل الذي كان يغلقها وأخرجوا بندقية Martini- Henry نظيفة كالمرآة، فانشرح الوجه العريض ل"أمغار"، وحكى لي إنجازات هذه البندقية. وهي سلاح رائع، أغاضت ملكيتها طيلة عشر سنوات أربعين من الرجال [159]. وأصابت أحدهم على بعد مائتي متر وسط عينيه فانشطر رأسه... كما أصابت آخر في بطنه وجرى مائة متر وهو يحاول إرجاع أمعائه لبطنه ثم صرخ: "الله" وسقط ميتا. وكان الخدام يصاحبون هذه الحكايات المخيفة، بهمسات فيما بينهم، وعندما أنهى السيد حديثه ثمنوه وأغنوه بالشرح وإعطاء التفاصيل المرعبة.

22 مارس

هيئ كل شيء مع "أمغار" أبلاّ الذي بدا حازما ومحقا، وعندما وصل رقاص يحمل ثلاث رسائل الأولى من أمناء موگادور، والثانية من باشا تارودانت حيدة مويس، والثالثة من "القايد" الحاج إدريس اليحياوي، وكلها تقول الشيء نفسه:

- هل قتلتم المسيحي؟ وإن لم تفعلوا فما هي الفدية التي تريدون؟

جعلت هذه التدخلات مني شخصا هاما، وعلم آل بن تابية الآن أنهم قاموا بضربة سيئة وصفقة مربحة، ويتعلق الأمر بالتهرب من عواقب الأولى والانتفاع من الثانية، وقالوا أولا ل"أمغار" أبلاّ إن ثمني غال كثيرا، وأنهم لن يدعوني أرحل دون احتياطات كبيرة، وهكذا أرسلوني تحت حراسة قوية إلى إحدى القوات الحامية المهتمة بي. فرحل "أمغار" وأوصاني بعدم الثقة في تصرفاتهم.

عرف هذا المساء قصة طريفة جدا، لكن عواقبها قد تكون وخيمة. أتى بي الشيخ عبدالرحمان إلى القبة للتحادث وشرب الشاي معه، وحدثني أولا بإسهاب عن آلاف المواضيع المختلفة مثل رجل يدور حول مسألة صعبة، ثم عدد ممتلكاته، وتحالفاته. فبنته البكر تزوجت شيخ قصبة الجْوا، والتي تليها شيخ إزگموزن، والثالثة شيخ هبان الذي يسير أمور جبل سروا، وبقيت عنده ثلاث: فاضمة وهي في سن الزواج، ثم اقترح علي حلا وبسرعة: [160] وقال: لم لا تتزوجها ! تنطق بالشهادة وتصبح مسلما، وأنت تعرف أسرار الروميين، لكن نظرا للحقد لم ترد أن تفشيها لنا، ابق بيننا، فسأعطيك فاضمة وعرصات أگادير، وسنعيد بناء البرج الذي حطمناه، وستعلمنا كيف نحصل على الكنوز والمعادن التي تعج بها جبالنا، وستصنع النقود وستنسى بلاد النصارى الملعونة. . .

كنت أستمع عندما كان يتكلم الشيخ، ويطيل الحديث واتهيأ للرد على مقترحاته المحرجة، فقلت له:

- أولا إنني متزوج في بلادي طرابلس، بل لي أطفال، ومشتاق لرؤية عائلتي قريبا. ولتأكيد ما أقول أظهرت له صورة أبناء أخي بعد أن توصلت برسائل أخيرة من فرنسا. وكان علي أن أشرح الصورة، لأن كل من عاشر البدائيين يعرفون أن كل شكل له في الحقيقة ثلاث أبعاد تغيب عنهم تماما، فيجب أن يتعودوا وتربى أعينهم على ذلك من أجل أن يفهموا الموضوع، واستغرق عبد الرحمان مدة قبل أن يميز الطفلين الموجودين في الصورة، وعندما فهم أراد أن يشرك الآخرين اكتشافه، فذهب بالصورة دون أن يعود للتذكير باقتراحه...

23 مارس

ذهب الرقاص برسائلنا، التي تهدف أولاها إلى طمأنة عائلتي التي أقدر تخوفها، وأن تخبر الزناگي بتارودانت بقرب انتهاء اعتقالي، لأنني أومن بضرورة إتمام مشروعي الذي لم أحققه بعد. وتجيب رسائل بن تابية مراسليه بأنني ضيفهم (آل بن تابية) وصديقهم [161]، لكنهم لا ينوون

إطلاق سراحي ما دام لم تحدد التدابير في الجهتين، وكان لا بد من مرور عشرة أيام ليصل البريد إلى موگادور، وعشرة أيام من أجل الوصول إلينا، بمعنى ثلاثة أسابيع قبل أن تأتي رسالة موضحة للأمر.

استغرقت هذا الوقت في إعطاء دروس في المسايفة، والمصارعة، والملاكمة، وركوب الخيل، حيث يحب "الشلوح" هذه الرياضات لحد الجنون، لكنهم لا يتقنونها جيدا، خاصة الرياضات "الجوية" و"التبوريدة" فهما مجهولان عندهم، فلا يوجد في كل البلاد سوى جواد واحد، وهو ملكية مشتركة بين أولاد بن تابية الأربعة، وراكبه المتعود عليه هو الحسن أخو فاضمة الابن البكر لعبد الرحمان، اشترى هذا الجواد من سوس من شيخ منتاگة بثمن مائة ريال، علما أنه لم يؤد ثمنه، كما نجد بعض الخيول في أسواق البلاد خاصة بأربعاء زناگة. وهذه الأسواق قليلة بعض الشيء ومتباعدة، فسكان أنزور يترددون على أسواق: حد سكتانة، واثنين آيت حميد وأربعاء زناگة. وتحدد الأسواق حسب الطريقة المغربية بأسماء أيام انعقادها وباسم القبيلة التي ينعقد فيها. ولها وظائف سياسية، وتجارية، وهي مكان تجمع لمعرفة الأخبار الجديدة، ومكان للمحادثات وأخذ القرارات، ويحدث أن تقع فيها خصومات وهو شيء نادر خاصة أن السوق يعتبر مكانا محايدا، ويباع بها كل شيء بأثمنة غالية، مثل التمور، واللوز، والسكر، والشاي بأثمنة متفاوتة جدا كما وقفت عليه اليوم. ف"قالب" السكر بواحد وعشرين ريالا، أي من بسيطتين إلى ثلاث بسيطات، والشاي بريالين والزيت ريالان لثلاثة لترات تقريبا، والخروف الجيد يباع بثلاثة ريالات، والجواد الجيد بمائة ريال، والبقرة ما بين ستين وثمانين ريالا، والحمار بعشرين ريال، وبندقية أگادير بثلاثين ريالا إلى أربعين ريال، وبندقية من طراز عشر طلقة (سطاعشية) ما بين مائة إلى مائة وخمسين ريالا، ويساوي عبد ذكر ما بين ستين إلى ثمانين ريالا [162].

أنزور، فرس بن تابية يركبه الحسين بن عبد الرحمان

أنزور، مخيم أولاد جلال، فاضمة بن تابية

وقيمة الريال متفاوتة ففي الغرب الريال سابيل (إيزابيل) ثمنه أغلى من الريال فونسو (ألفونسو)، ويساويان هنا بمعدل خمس بسيطات، بواد نون ما بين واحد وأربعين، إلى اثنتي وأربعين بسيطة، والريال العزيزي (مولاي عبد العزيز) متداول في أي مكان. كما صُنعت كثير من النقود المزيفة، وكل القطع النقدية التي سكها السلطان الحالي مرفوضة بالجنوب المغربي. والقطع الأكثر تداولا هي: الگرش (ربع بسيطة) ونصف بسيطة، والبسيطة، وقطعة البسيطتين والنصف. والموزونة أقل طلبا، فأربع موزونات تساوي أوقية واحدة، وخمسة وعشرين أوقية تساوي ربعا واحدة، وست أوقيات تساوي قرشا "گرشا".

ووحدة قياس السوائل هي "الصاع"، وصاعان من الشعير تساوي مقدار أكل فرس (أربعة لترات تقريبا)، ووحدة قياس الوزن هو المارصو (ليرة واحدة إنجليزية) مع تقسيمها فخمسة وعشرون ريالا تزن مرصا واحدا. وأربع وسبعون ريالا تزن رطلا واحدا أو أوقية تزن مثقالا، وخمسة وعشرين قالبا من السكر تساوي قنطارا واحد (ما بين خمسة وأربعين وخمسين كيلوغراما).

ورجل الاقتصاد هنا بلا منازع مثل باقي مناطق الجنوب هو اليهودي، والمعلومات التي جمعتها حول الشرط، والتجمعات اليهودية لا تقول شيئا، وتؤكد الأحكام القاسية لفوكو، ولا نضيف أشياء وإحصائيات ذات قيمة جديدة، وهكذا فإن يهودي الجنوب هو مصدر المعلومات دائما، ولم أر سوى رحل في كل منطقة أنزور. قال لي أحدهم وهو بائع متجول صغير أن البلاد فقيرة جدا، وغير آمنة بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى. يعيش اليهود في سوس، وزناگة، ودرعة وفايجة، وتيسينت، وأقا، وطاطا، أحرارا ويمارسون التجارة بشرط واحد هو الحصول على حماية سيد قوي. ويشكل العرب قسما من الأعيان والزبناء [163] للأسواق، حيث نجد من أهل الشمال آيت عطا، وأولاد يحيى، ومن أهل الجنوب أولاد جلال وآيت أومربيط، ودوبلال.

ولا يسمح القرب من الدوار الكبير المكون من خمس وستين خيمة من دراسة أولاد جلال عن قرب، وسأستقر دون تقطع في تجمعهم لأشرب الشاي وأعالج المرضى. وألححت على قضاء الليلة

هنا، وأولاد جلال يتعاملون مع الضيافة بطريقة كاملة لدرجة أن المبيت عندهم يساوي الذهاب إلى "جزيرة الأحلام باليونان". وحقيقة عندما جاءت المناسبة من تلقاء نفسها تحت قلمي، علي أن أستغلها في وصف الرحالة إلى هذا المغرب "البربري" لا يمكن أن يكون دون مخاطر وسهلا. فالمشاكل التي نواجهها تتطلب شجاعة لتجاوزها، أو تحملها خاصة عندما نمارس كرها دور الطبيب الذي يمنحك الأسرار البئيسة، وتمنحك خصوصيات زبنائك شهية الأفراح أو التأكد من مخاطرها. وأولاد جلال سود البشرة كلهم تقريبا، ومن المستحيل تعميم قسمات وجوههم وفيزيونميتهم، فطبيعة حياتهم المبنية على الترحال تقودهم إلى الصحراء، وسوس، وواد نون، ودرعة، وتسهل عادات نسائهم فدماؤهم تختلط كثيرا بالعنصر "البربري" أو الزنجي. وتتمثل القبيلة كلها أكثر من ألف ومائتي خيمة، والدوار الذي نجاوره ينتمي إلى فخذة من أولاد علي، وهم عرب يتكلمون لغة واضحة أكثر أدبية. وفرضت ضرورات الجوار عليهم التكلم أيضا بتامازيغت، ويضمرون احتقارا كبيرا "للشلوح" الذين يؤدون لهم الذبيحة ويعتبرونهم مثل الخدم.

كم هو منظر جميل أن ترى كل مساء عند غروب الشمس نساء أولاد جلال يأتين لجلب الماء، من الآبار الموجودة بين دوارهن وأنزور، والأزواج لا يأتون أبدا لكن [164] العشاق يذهبون جماعة مختفين!.

24 مارس

أصبح الشيخ محاند مقلقا بالنسبة لي، وقال لي بأن إخوته مخادعون، وليس لدي سوى صديق واحد، وأنه يرغب في إطلاق سراحي بسرعة! لكن الطرق غير آمنة، والناس بنوايا سيئة، فماذا سأصدق أمام النوايا الحسنة لإخوته، الذين عملوا في فرصة سابقة على إطلاق سراحي، وقتلي في الطريق ساعة بعد ذلك ويأخذون فديتي ويتخلصون من شهادتي؟.

استطعت أن أصلح اثنتين من آلاتي الفوتغرافية. انتبه مضيفي إلى أن هذه الآلات تستطيع أن تضبط بدقة أوقات الصلاة، ونعرف من خلال ذلك هذه المسافة بين أماكن وجود "البربر"، والمعرفة بعلم التنجيم الذي كان العرب هم من اكتشفه. ووجدت من بين أولاد جرار "طالبا" له بعض المبادئ لعلم الفلك دقيقة جدا، يستطيع استعمال الاسطرلاب. ووصل هذا المساء على الساعة الثالثة الشيخ حمو "أمغار" "سليل" زناگة والأخ الأكبر لأمغار بلاّ، والقائد الأكثر قوة في المنطقة الممتدة بين درعة وسوس. والهدف الرسمي المعلن من هذه الزيارة هو اقتراح تحكيمه من أجل الصلح بين أونزين وإيغديون. والهدف الحقيقي هو الاستطلاع لفائدة "القايد" الگلاوي بخصوص الوضعية التي أوجد عليها وأن يصحبني معه. وكل هذا لم يشر إليه في الحديث، والشيخ حمو عجوز قصير القامة، هادئ، يتكلم بصوت منخفض وببطء، وبسلطة لا يمكن معارضتها، وعيناه الرماديتان الصغيرتان المتحركتان والذكيتان تكذبان هذا الانطباع الأول، وله لحية على طريقة "شلوح" الأطلس الصغير [165] شبه حلقة باستثناء شريط أسفل الأنف والدقن. كان لهذا التدخل الأخير لصالحي في أنزور أثر إيجابي، "فالقايد" الگلاوي هو سلطان الجنوب. وآل بن تابية يعرفون جيدا كيف يتصرف، وقال لي امحاند

الذي تحدثت معه أن "القايد" لا يمكنه أن يخيفهم ولا السلطان ولا شخص آخر إلا الله! وأضاف قائلا:

- فالله عادل، وأعطى "الشلوح" الجبل الجاف، وسيعطيهم مزيدا من"الانغماس" أكثر من العرب.

25 مارس

ذهب الشيخ حمو هذا الصباح إلى تجمع تينماليز، حيث قتل أهل أونزيت رجلين، وسيناقش خطة حملة إغديوة. اقتادني في المساء إلى خزان قديم كثير الرمال به كنز. والجن هم من يحرسه بقوة، والويل لمن حاول الاقتراب منه! وقلت لهم إني لا أخاف الجن، وهذه فرصة لتجريب شجاعتي، فدخلت الخزان بمصباح، وأزحت من طريقي الخفافيش، وقست صلابة الجدران، وحفرت بعض الشيء دون أن أجد شيئا بطبيعة الحال، لكن الجدران تحمل آثار حفر وأرضيتها محفورة في مناطق عدة مما يعني أن هناك في هذا البلد أرواحا قوية لها تطبع (الشعوذة).

26 مارس

حدث البارحة مساء عندما كنت أقيس علو نجمة في باب البرج، أن اقترب مني رجل بطريقة غريبة، وأعطاني قلم رصاص ودفترا للرسائل وأظرفة وقال لي: "اكتب، سأعود غدا قرب العين أثناء صلاة "الحاجة"/ الاستسقاء[166]

أزديف، أطفال يهود

بعض يهود الأطلس الكبير

وجاء هذا المبعوث دون شك من موگادور أو من مراكش، لأن القلم وورق الرسائل أشياء غير معروفة تماما في الجنوب.

أعدت النظر في هذا "البريد" الغريب فهو رجل من قرية آيت حميد، جاء من مراكش دونما أن أعرف من أرسله، فحرفته رقاص/ بريد، وقال لي إنه بمجرد ما علم بتوقيفي شرع في البحث عن رقاص يعرف المنطقة التي "اعتقلت" بها فتقدم لهذه المهمة وأعطيته النقود، وقلم الرصاص، والورق ليستطيع أن يحصل على خبر عني، وطُلب منه أن يكون حريصا على ذلك، وسألته عما سيقوم به؟ فأجابني أنه سيتصرف حسب تعليماتي، لكن مادام الشيخ محاند قال بأنه سيقتادني عند منتاگة، فالأفضل أن ينتظرني في قريته آيت حميد وهي بالضبط المرحلة الأولى في طريقة منتاگة، فهو يتوفر على عشرين بندقية/ رام والشيخ لن يكون معه سوى ست إلى عشر بندقيات/ رام. وسيهاجمنا، إما بتدمير القرية، وفي هذه الحالة يطلب مني أن أطعن الشيخ وأجري في اتجاه محرري. أو في المساء في منزله الخاص حيث سنقيم، لكن هذه الفرضية الأخيرة أثارت اشمئزازهم، فالحل الأول معركة شرعية، والثاني خيانة. قررنا كما تم الاتفاق أن ينتظرنا مساعدي، المسمى أحمد ستة أيام عند آيت حميد، وإذا لم يلاحظ شيئا سيعود إلى مراكش لمن أرسلوه بالرسالة التي سأعطيه. وطلب مني أحمد مقابل ما أسداه من خدمات أن أصنع له حجابا بأن تكره زوجته عشيقها محمد المراكشي وأن تعود إليه هو زوجها الشرعي...!

27 مارس

عاد الشيخ حمو من تينماليز، وفشلت المفاوضات لتوقيف الحرب بين أونزين وإغديوة، وسنرحل منذ الغد. أما فيما يتعلق بآيت بن تابية فقد عقدوا مجلسا وقرروا أن يجيبوا "القايد" الگلاوي بأن طلبه كان أمرا، وأنهم كانوا مستعدين أن يرسلوني إليه، لكنهم يطلبون رسالة من السلطان، أو من خليفته مولاي حفيظ تؤمنهم من أي انتقام عما صدر منهم. وطلبوا مبلغ ألف ومائتي بسيطة مقابل مصاريف الإقامة عندهم، وطلبوا من "القايد" في الأخير أن يعطيهم فرسا دليلا على رضاه. تُلقفت هذه الشروط الغريبة التي كتبها الفقيه سي أحمد بسرعة، وقُرئت علي أمام الشيخ حمو الذي أسرع ببعث أحد عبيده فوق فرس "للقايد" يخبره بالموضوع، وسيصل الجواب بعد خمسة أيام قد يصل إلى هنا يوم سابع أبريل. فأخذني محاند جانبا في المساء، وقال لي:

- كل هؤلاء الناس يريدون تجريدي من كل شيئ، سننطلق غدا أو بعد غد إلى منتاگة.

28 مارس

كانت فوضى عارمة عندما انطلقنا في حرْكة ضد أونزين! أخذ الفقيه الشيخ علي نفسه أيضا بندقيته، وحزم إگوجاد وهي عبارة عن أحذية من الصوف، وحذاء يذكر بأحذيتنا. وقال لي الحسين أخ فاضمة مستهزئا: تعال يا ابن مجاهد!. وجئت حقا بسرعة فرحا، لأعرف كيف يستعد "الشلوح" للمعركة ويتعاملون فيها.

انطلقنا فعلا! والنساء يزغردن من الشرفات، لم يبق من الرجال سوى مريضي المسكين الذي ينزف دون أمل. وعددنا أربعا وعشرين بندقية/ رام، توقفنا ساعة بعد انطلاقنا من البرج في شعبة وتحدثنا في خطة الحرْكة، ويتعلق الأمر فقط بسرقة قطيع كبير من الماعز، أو الخرفان، والانتشار في الهضبة الممتدة شرق أنزور، وتلافي استعمال الأسلحة النارية من أجل أن لا نثير الانتباه، لأننا تركنا في الجهة اليمنى قرية عدوة التي ستقطع علينا حتما طريق العودة[168] وبدأت أندم على مجيئ، فالعملية ليست سوى سطو أو سرقة مسلحة. كان بيننا راعيان تركناهما في الشعبة، وانقسم الفريق إلى مجموعتين ستحيطان بالهضبة وتجمع القطيع في اتجاه الراعيين، وكنت من بين أعضاء المجموعة الموجودة على اليمين الأكثر عددا والأكثر تعرضا للأخطار مادام العدو سيكون في الخلف، وكان تحركنا الحذر بطريقة جيدة. وأعجبت بالطريقة التي يتعامل بها "الشلوح" مع المشي في أرضها الكثيرة المنعرجات، وكذا الرشاقة التي يتحركون بها، وكان القطيع على بعد كلمتر تقريبا في جانب الهضبة الذي وصلنا إليه، ويجب بعد ذلك أن نتحرك بشكل مكشوف، وتوقفنا لحظة لأخذ النفس وقياس المسافة الحقيقية. فجأة تعالت الصرخات وراء ظهورنا، وصوبت ثلاث طلقات نارية في اتجاه القرية... فلنفر قدر المستطاع! فكان فرارا جماعيا عامة، ودون أن ينظروا أي شيء ولا من يطاردهم. تسارع "شلوحنا" بقوة في الهضبة مثل الأرانب، ولم يتوقفوا إلا عندما وصلوا إلى أنزور. وكانت المجموعة الموجودة في اليسار أقل خوفا، ورجعت في نظام أحسن بل إنها استطاعت أن تجلب معها أربعة خرفان جاءت نحوهم خائفة، وكانت العملية مشرفة فسنأكل اللحم هذا المساء، وستكون فرصة لنحكي "بطولاتنا".

29 مارس

إن عفوية "الشلوح" كبيرة، فقد جاء رجل شيخ من تاگموت هذا الصباح يحكي بأنه يروج في الجنوب الغربي للأطلس الصغير أنني هو السلطان مولاي عبد العزيز نفسه الذي جاء متخفيا لزيارة الجهة الجنوبية من "إمبراطوريته"! وأنه جاء أيضا من الغرب رجلان جبليان أبيضا البشرة، وهما العينات الأولى للعنصر الأبيض الذي أراه في الجنوب. وألبسة الرجال تكاد تكون متشابهة في الجنوب كله، فهم يرتدون "قشابة"، وهي عبارة عن قميص طويل أبيض أو أزرق، وسروال من الخنث طويل جدا، و"حايك" من الصوف أبيض، ويغطون الجسم كله بما في ذلك الرأس [169] والسلهام أو الخيدوس الأبيض أو الرمادي طويل جدا، أو الخنيف قصير جدا والذي سبق أن وصفته بألوانه المميزة. واللافت في طريقة اللباس هاته هو صعوبة المشي، واستحالة الجري وهم يختصرون طريقة اللباس عند الحركات حيث يجمعون السروال فوق الرأس، كما يفعل الريفيون لبنادقهم الطويلة، ثم يطوون الحايك ويضعونه فوق البندقية، ولا تبقى سوى القشابة والسلهام الذي يجمع بحزام يوضع في الظروف العادية فوق العنق مثل عقد، ويستكمل اللباس ب"الشكارة" وهذا الكيس من جلد أحمر لا يفارق المغربي أبدا، و"خنجر"، ووعاء لوضع البارود الكثير كما يسمى وهو عبارة عن قرن من النحاس أو الحديد، يوضع أسفل السلهام، كما أن هناك "جرابات" من جلد مخبأة مزينة ورقيقة

ودقيقة من جلد تتدلى من وعاء البارود، إنها أكياس الخراطيش. وأخيرا فإن كل رجل يحمل بيده سبحة يتدلى منها منقي أسنان من معدن، ويلبسون خاتما من فضة.

يعمل الرجال الأغنياء على لباس البلغة الصفراء "المدبوغ جلدها" بقشور الرمان، والعامة يلبسون تورزين وهو حذاء بسيط من الجلد أو الحلفاء، وفي الشتاء يلبسون إكوجاد والتماگ الذي سبق أن وصفت. الكل مسلح بالبنادق من مختلف الأنواع والجودة، بعضها لها فوهة عريضة، وأخرى ضيقة، وبعضها طويل، والأخرى قصيرة بعضها "خطير" وبعضها أقل خطورة، والأكثر شهرة تحمل اسم أگادير، ووجدت صعوبات كبيرة في تفسير هذا الاسم، وفسره لي "القايد" الگلاوي بقوله: إن مقدمات البندقيات المستوردة من الخارج أكثر فعالية من مثيلتها في المغرب دخلت إلى الجنوب عبر ميناء أگادير ومن هنا حملت هذا الاسم. وكذلك سكاكين الخناجر القديمة المصنوعة بانجلترا تحمل اسم المركب الذي حملها البابور، وثمن بندقية "مكحلة" أگادير قد يصل إلى مائة وخمسين ريالا، وثمن كمية البابور ما بين ثلاثين إلى أربعين ريال. ويوجد هناك نوع من البنادق مشهورة [170] يسمى بن يوسف وهو اسم أحد بائعي الأسلحة بتارودانت توفي منذ مائة عام. هكذا يلبسون. يتسلح الشلح مدة طويلة وهذا ما يجعله غير نظيف، فطيلة الخمسة والعشرين يوما التي قضيتها بأنزور لم اغتسل، وتغيير قميصي يعد رفاها مميزا. ونظر إلي محاند بغرابة عندما جئت أطلب منه بعض الصابون لغسل ثيابي من الوسخ و"الحشرات" لدرجة يصعب معها تحديد نوعها لكثرتها، فالإحساس بالبرد، والجوع، والخوف، مأساة عادية ومرحلية، لكن العيش في القذارة والحشرات شر يتزايد يوميا، وهو ما عانيت منه كثيرا.

المدينتْ، أونزين

وصول الشيخ حمو أمغار زناگة

30 مارس

أرسل شريف تامصلوحت للتو مقدم زاويته سيدي إبراهيم يحمل غطاء قبر الولي، والمقدم على بعد مرحلة من الوصول إلى هنا، ويتضمن بريده من آل بن تابية تحديد مبلغ الفدية الذي يطلبون. ووعد بأن يؤديها خلال خمسة أيام، سواء نقدا أو ذهبا أو ما يشاؤون، وأضاف الرقاص مشافهة. الشريف سيعطي مائة وخمسين ألف ريال (سبعمائة وخمسون ألف بسيطة) لإطلاق سراح صديقه المسيحي...! وهذا ما قاله أحد الجلاليين من أصدقائي.

31 مارس

خصصت هذا يوم للانزواء، وجاء أحد الضيوف لا أعرف من هو منعني محاند من الحديث معه وأغلق علي في البرج. وأنزلوني في الساعة السادسة مساء إلى القبة، وهي غاصة بمجموعة من الضيوف، أحدهم "رجل مسن" مميز بعلامات وجه حازمة، نهض وحياني تحية عسكرية وقال لي بالفرنسية[171]

Bonjour, mon capitaine, je viens te chercher de la part de M. Fcotte

هممت بأن أقفز لأقبضه من عنقه، فقد ظننت أن الأمور قد سويت وأصبحت حرا أخيرا! وشرح لي مولاي أحمد وهو اسم من أطلق سراحي، أنه كان مرشدا للقافلة التي كانت مع شريكي دوفلوت. ورأى شركائي الآخرين لويس جانتي الذي تركه في مهمة لاكتشاف سفح الجبل الجنوبي للأطلس الكبير وبوليفا الذي استقر بمراكش، والزناگي الذي طبق أوامري كاد أن "يوشح" بتارودانت.

استطعت خلال نصف ساعة أن أتعرف على كل ما وقع منذ ذهابي، ووقفت على نجاح أشغالنا، والمشاكل التي لم تثننا عن مواصلة مجهوداتها، ولم أعد أفكر إلا في الخروج في أقرب وقت من أنزور ومواصلة مشروعي. صحب مولاي أحمد معه قاضي سكتانة، وهو شخصية مؤثرة جدا في كل راس الواد، وشيخ زگموسن الحسن الحاج عبد الله صهر عبد الرحمان بن تابية، والطالب الحاج عمر مبعوث "القايد" العربي الوزي بن حيدة الرحالي، وكان معه ثمانية رجال مسلحين وثلاثة بغال.

كان هذا الموكب الواضح مخيفا لابن تابية القلق، لكن أعراف الضيافة تفرض عليه أن يبتسم ويجامل، نزل الضيوف بالقبة، وشربوا الشاي، وشرعوا في التحادث، وأخبر أحد الخدام بمجيء ضيوف آخرين هم الشيخ الحاج الطيب المنتاگي، وهو صديق كبير لابن تابية مصحوبا بشخص من موگادور يسمى الحاج محمد وأربعة خدام. وعندما كان آل تابية يرحبون كثيرا بصديقهم، أعطاني الحاج محمد بطريقة سرية رسالة من Pipe Ratto بيب راتو وهو مفاوض إنجليزي جيد معروف في كل الجنوب المغربي، يقول فيها بأن أثق في مبعوثه وأتركه يتصرف. وها أنا الآن محاط بأصدقاء... وعلمت منذ الآن أنني أفلتت من مخالب آل بن تابية. وفي الانتظار ومن أجل [172] أن أؤكد سلطتي فإن محاند رغم الاحتجاجات العامة أغلق علي في البرج، رأيته يقوم بنفسه بجولة ليتأكد بأن باب البرج مغلق جدا، وأن العبيد يقومون بالحراسة في مراكزهم.

1 أبريل

رأيت – دون تخوف كبير-خصومة عنيفة بين مولاي أحمد مبعوث دوفلوت **de flotte** والحاج مبعوث بيب راتو. أما بالنسبة لآل بن تابية فإنهم توزعوا ليحيطوا أو يتحلقوا حول صديقهم الشيخ المنتاگي، ولم يلتفتوا إلى القاضي.

****

فشل مولاي أحمد في ذلك فشلا ذريعا!

بدأ النقاش بطريقة "رسمية" جيدة، وطلب القاضي الشيخ الملتحي بن تابية أن يجتمعوا بالقبة، وعندما حضروا أربعتهم قرأوا الفاتحة، ثم عرض عليهم بوضوح وبصراحة كبيرتين الهدف من زيارته وهو: اصطحابي مع أمتعتي. وكان آل تابية مستعدين لتقديم إجابتهم، لأن عبد الرحمان تكلم دون تردد. كنت مقتنعا أن دفاعه كان لبقا وقال في هذه المناسبة:

- "نحن مستعدون لإطلاق سراح إبن مجاهد، لكن يجب أن نسلمه بطريقة رسمية للمخزن، لأن المخزن أوصل لنا ذلك عبر أمنائه، و"قياد" سوس. ثم إن "القايد" الگلاوي بعث شيخ زناگة وسبق أن وعدناه بذلك ونحن ننتظر رده، اللهم إذا كانت عندكم رسالة من السلطان تقول بأن تصحبوا معكم ابن مجاهد".

والنقاش الذي لخصته هنا دام ساعتين، وهدد هذا الوعد المفاوضات، ولم يغير من رأي آل بن تابية، فعلينا انتظار جواب "القايد" الگلاوي. ذهب مولاي أحمد مع رجاله ليستقروا عند شيخ [173] زگموسن الذي ثار في وجه زوج أمه ليقول لي إذا لم يطلق سراحي خلال ثمانية أيام سيأتي ليأخذني مع مائة شلح من راس الواد. انطلقوا على الساعة الخامسة، حاملين معهم أملا في هذه المبادرات الدبلوماسية الحسنة، وبقي الشيخ المتاگي، الذي عندما كنت أنظر إليه يبتعد عني بسوداوية، جاء ليجلس بالقرب مني، وقال لي بعد أن أخذني من يدي:

- أقسمت أن لا أخرج من هنا إلا وأنت بيدي، لكن أظهر أنك لا تهتم بذلك....

2 أبريل

ذبح الشيخ المنتاگي صبيحة هذا اليوم خروفا أمام البرج، فماذا يعني بهذا التصرف هذا الصديق القوي الغني لهؤلاء الفقراء المساكين الذين لا سلطة ولا ثروة لهم؟ وهذا ما قاله لي محاند. سمعته بالإمعان الممكن أو قدر الاستطاعة، وأصبح محاند أكثر تدقيقا، وطلب مني إذا كنت أعرف الشيخ، وإذا كان لأصدقائي معارف، وإذا كنت أعرف بعض الشيء عن مشاريعه؟ ... وقلت: لا أعرف شيئا عن المنتاگي بل إن اسمه لا أعرفه قبل أن آتي إلى هنا....

3 أبريل

حضرت، وأنا أخمن كيف ستكون المفاوضات مع الشيخ المتاگي، فطريقته مخالفة لطريقة مولاي أحمد وقاضيه ومساعديهما، والشيخ رجل قصير هادئ ورزين، يتكلم قليلا بصوت منخفض ويستمع كثيرا، ويبتسم طويلا قبل أن يجيب، ويحدث أحيانا أن تكون ابتسامته الملغزة تحل محل إجابته، وصل إلى هنا دون ضجيج، ودون هدف ظاهر، أو معلن بل باعتباره صديقا. ويأتي عنده آل تابية طيلة شهور كاملة، فهم مدينون له بعدة خدمات قدمها لهم من كل الأنواع خاصة من الجانب المالي. والحصان الشهير يعود إليه، ولم يؤدوا ثمنه... وجاء الحاج الطيب ليرد إلى أصدقائه الزيارة بعدما طلبوا منه ذلك منذ خمس عشرة سنة [174].

أزديف، سكان من زناگة

أزديف، سكان زناگة

قدم عدة هدايا من سكر، وشاي، وقطع ثوب للنساء، والفتيات وبعض النقود للخدام، والشيخ المنتاگي صديق غني، جاء من تارودانت، لا شيء يبدو طبيعيا أو عاديا سوى هذه الهدايا الصغيرة. وحضر دون أن يقول شيئا إلى "مناورات" مولاي أحمد، وابتسامته القوية لا تظهر كثيرا إلا إذا نظر إلي، لكن لم أستطع أن أتبين جديته من دون ذلك في ظل عينيه الشبيهتين بأوراق الشجر الميتة. فالبارحة ذبح خروفا دون أن يفسر لما قام بذلك، واليوم يقول إن له التزامات كبيرة مع أحد التجار النصارى عندما بموگادور هو التاجر بيب راتو أنني كنت أيضا صديقا له وأنه يفكر بدوره أن يأخذني معه.... وكان مشهدا مسرحيا، لكن لا أحد لم يرتبك، وبدأ الشيخ يتكلم في أشياء أخرى بطريقة يبدو أنه غير مبال بما يقع. وشرع مبعوث بيب راتو الحاج محمد مفاوضات أكثر تدقيقا لكن بطريقة غريبة جدا لم أعرف عنها أي شيء، وكنت أنظر إليه مرة بعد الأخرى مقتنعا وباستياء، فتارة سنذهب هذا المساء، وتارة سنذهب غدا، واتفقنا في هذا الصباح على أن نحمل معنا كل شيء: الأسلحة، والأمتعة، والبغال. وقال لي للتو أن آل بن تابية رفضوا أن يعطونا أي شيء، وطلبوا مبلغ ألف وثلاثمائة ريال فدية.

علمت بعد ذلك تفاصيل مطمئنة بعض الشيء، وكانوا يتحدثون سابقا عن مسألة إخفائي/ قتلي. ولازال الشيخ محاند - صديقي الوحيد! - يعتقد أنه الحل الأسهل والأضمن، فإذا تركوني أذهب مع أسلحتي وأمتعتي فسيهجمون علي بواسطة أولاد جلال على بعد خطوات من الجبل، فكر في كل شيء وأعاد لي بندقية الصيد والرصاصات التي يمكن أن يكون قد استبدلها أولا بالرمل... وهذه المعلومات لم أتوصل بها لطمأنتي في حال فشل المفاوضات مع الشيخ المنتاگي [175]. ظهرت نقطة أخرى تُسوِّد الفرضية الأكثر تفاؤلا، ففي حالة إطلاق السراح، فإن الشيخ المنتاگي يريد أن يصحبني عنده قرب تارودانت. والحاج محمد سيذهب في هذه الأثناء إلى موگادور من أجل البحث عن مبلغ فديتي. هناك في هذا المشروع شيء لم أستطع فهمه جيدا، ما دامت عندي رسائل سلف على "يهود" تارودانت، وأنه سيكون من الممكن آداء الثمن لمحرري أو من أطلق سراحي في يوم وصولي. لكن الحاج أحمد يدعي أنه سيذهب بي إلى موگادور ضدا على رغبتي في الرجوع شرقا: نحو الگلاوي. كل هذه الأمور معقدة وغامضة، ولحد الآن فأنا لا أعترض على هذه القرارات التي تتخذ دون أخذ رأيي، وسيحين الوقت عندما أصبح حرا للتفكير في التخلص من هذه المعوقات الجديدة.

4 أبريل

يدعي أحمد بأنه مريض، ويدعي أنني لا أريد مداواته وعلاجه انتقاما، فرمى بي خارج باب البرج في الصباح الباكر، دون أن يترك لي فرصة حتى لأضبط عداداتي، واستطعت رغم ذلك أن أُفهمه أن هذه الآلات الحساسة تتوقف عن العمل عندما نلمسها، أو عندما لا تضبط على الساعة الحقيقية. وفهم أيضا أهمية دراساتي الفلكية، والتشغيل المضبوط لساعاتي، وأصبح هذا التفهم

بالنسبة له وسيلة للانتقام. وكان يمنعني من تركيب ساعاتي ويتلذذ بإغاظتي وعندما يريد أن يجعلني أعاني يأخذ إحدى ساعاتي ويفتحها بكميته، ويضع إصبعه الكبرى فوق "الميزان" وهو يقهقه، ويقول لي بشكل متفاوت: "ماتت".

دخلت القبة عندما انتهت المحادثات "الخفيفة" بعض الشيء، وقال الحاج محمد صاحب القول الفصل أن الشيخ المنتاكي يريد الذهاب هذا المساء، وأن كل هذه المراوغات كانت غريبة من الناس الذين يقول عليهم إنهم أصدقاؤه والذين يعارضونه. وكان آل بن تابية بالطبع [176] محرجون من تلبية الرغبة الأولى لصديقهم، لكن "القايد" الگلاوي سبق أن وعدوه، وأنهم ينتظرون عودة الشيخ حمو من زناگة، وفي حضوره سيسلمونني إلى المنتاكي.

حدث في هذا المساء، تغير غير مفهوم في أفكار المنتاكي. كان يجلس في زاوية من القبة، فتغيرت ابتسامته وجعلت منه شخصا غير معروف، وكان يتفادى النظر إلي. بقي صامتا وكأنه فاقد للوعي. أعطاني الحاج محمد الإشارة لأن أخرج معه وهذا ما حكاه لي، ووجد آل تابية حجة ميكيافيلية. وقالوا للشيخ بأنه إذا أراد أن يكون طرفا في هذه القضية، فإن المخزن يجب أن يكون مسؤولا. وأن عليه أن يُعيد إلي حريتي وسيكون هذا دليلا على أنه صديق لابن تابية، وأن المخزن سيحجز كل قطعانه من أجل أداء تعويضات النصارى الذين لن يتوانوا في المطالبة بها، وإذا فشل، على العكس من ذلك، فإنه سيظهر نيته السليمة وعدم قدرته، فماذا سيقوم به؟. وهكذا تبخر أملي الأخير....

5 أبريل

وصل شيخ الزاوية محمد أو يعقوب البارحة مساء، وحكيت سالفا أنه كان تعرض لتسمم بالفوسفور، وجاء لاستشارتي طبيا، وعندما دخلت إلى القبة ذهبت - حسب الدرس الذي أعطاني الحاج محمد- لتقبيل عمامته والاحتماء به قال الشيخ الفاضل:

- لا تتركوه يخرج من هنا أبدا، بأي ثمن كان ولا تحت أي تهديد، فإنه مسيحي وقتله سيجلب عليكم غضب الله، وسخطه على أملاككم.

أدى هذا التصرف إلى اعتقالي في البرج، وقال لي محاند إنه سيزيل عني الأغلال. وجاؤوا في الساعة الثالثة ليقولوا إن الشيخ المنتاكي سيرحل ويريد أن يودعني، فجمعت ملاحظاتي، ومساراتي، ومذكرة الطريق، وصوري وأعطيت الكل [177] للحاج محمد مع بعض الرسائل طلبت منه أن يحمل كل شيء إلى موگادور بأكبر سرعة ممكنة وبعناية أكبر، ثم أخذت وأنا مار مفتاح البرج، الذي أضفته إلى أمتعتي التي أرسلتها، وسيكون ذكرى إذا خرجت من هنا، ويمكن أن يكون وسيلة لأن لا يغلق الباب من جديد. ودعني الشيخ المنتاكي متأسفا، ووعدني أنه لن يتركني، وأن أبقى مستعدا خاصة أنه أقسم أن لا يرجع إلى بلده مادمت سجينا، لكن لا يستطيع أن يبقى ساعة تحت سقف ناس لا سلم عندهم، ولا قانون، والذين غدروا به. أعاد عبد الرحمان بن تابية تكرار اعتذاره لحظة مغادرته ووعده بأنه لن يعطيني إلا له وحده. وانطلقت في الساعة الرابعة القافلة دون كلمة مجاملة، ولا أي عبارات ودعوات التي تعود المسلمون في مثل هذه المناسبات، وتوسلت في آخر لحظة من الشيخ أن

يبعث غدا رجلا جديا بعد صلاة العشاء إلى عين أنزور حيث سألتقي به هنا وسأهرب.... تمت العملية. وعدني صديقي سعيد الذي سبق أن أنجاني من سكين مويليد أنه سيأتي إلى هناك شخصيا للبحث عني.

كان هذا الأمل في الفرار هو من أنقص من رؤية ذهاب أملي الأخير. وها أنا من جديد لوحدي مغلقا علي وسط هواجس كل محاولاتي المتتالية. واتخذت إجراء صعبا، يتعلق الأمر بالتحلي الفعلي بكل الاحتياطات الممكنة، فسأفر!، وعملت أولا على أن آخذ أدواتي الضرورية أولا من أجل إتمام أشغالي. استفدت من وضع محاند لي في البرج أن أخفي بعناية في كيس من الثوب أدواتي ومذكراتي. وكنت قد جمعت في أفق رحيلي مع المنتاگي "تينا" أبقيت من أكلي وخبأته في العرصات وكان وزن كيسي ثلاثين كلغراما، فكيف سأخرجه؟ وكيف سأحمله طيلة الساعات الثمانية للمرحلة التي سأقطعها جريا في الجبال ليلا؟ [178].

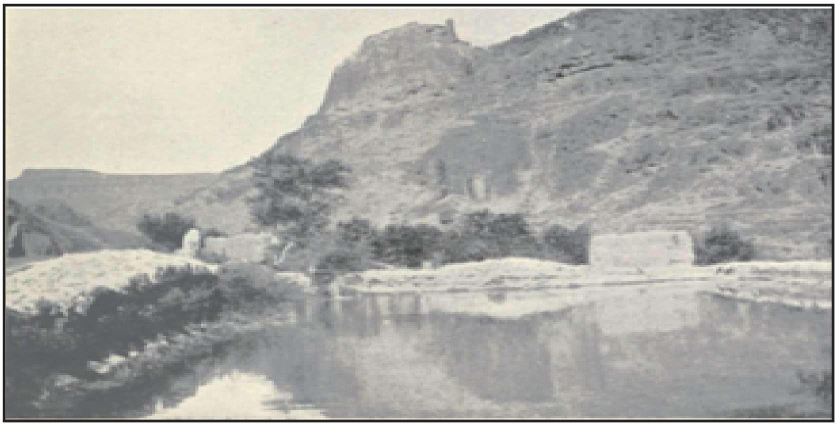

أگولمين، قرية فوق مرتفع صخري

أزديف، أگولمين

أملك أداتين سأستعملها في حالة الضرورة سلاحين، وهي مطرقة الجيولوجي، و"ملقط". سيفتح لي البرج هذا المساء في الساعة السادسة مساء كما جرت العادة بذلك، وسأقوم بمراجعة عامة

لعملية الفرار، وسأدرس المسالك ووضعية الحراس، وسيكون لي غدا مساء موعد مع سعيد. دخلت كالعادة إلى البرج الذي تركني فيه محاند عند غروب الشمس علما أن أمتعتي أحرصها شخصيا وليس شخصا آخر، وهذا المساء عوض أن أدخل، خرجت عبر أحد المسالك، الباب لا يغلق مادمت أخذت المفتاح سابقا، ولا يوجد إلا الباب المنحدر الذي يفضي إلى "الحضيرة" والذي لا تمر منه سوى القطعان.

6 أبريل

فما الذي لم أهيئه البارحة لهروبي؟! الكل على ما يرام، لم يشكوا في ذهابي إلا في الساعة السابعة. عندما جاء الشيخ محاند ينادي علي في هذا الصباح كنت منذ ساعتين قد وصلت عند آيت حميد وسط أصدقائي في منأى من متابعة آل بن تابية. فعمليتي الثانية كانت ناجحة جدا، وكان فتح الباب الكبير سهلا، ولا أحد يراقب المدخل، الباب الصغير لم يكن له قفل فهو يغلق ب "قفل" يدفع من الداخل، وكنت متيقنا أنه يمكنني أن أخرج وقتما أشاء. ومن الهام أن أهيء دفاعي، وحكيت لمحاند أنني سأذهب هذا المساء عند أولاد جلال الذين دعوني لوجبة العشاء، وأن أنام بخيامهم. أعجبته هذه النية، وعدني بكتمان السر، وقال لي مقابل ذلك بأنه سيذهب هذا المساء إلى سيدي عيسى أوابراهيم، وطلب مني أن أكتم السر. وكان كيسي يحتوي على آلة السدس، وبارومتر مسجل، وميزان حرارة، وآلتان فوتغرافيتان مع ثلاثمائة أصل صورة وثمانية لفافات ورق، وأقلام مداد، وأقلام رصاص، وحبر، وهي ثقيلة في الواقع. تركت النظارة الفلكية والصيدلية، والكتب وأشياء أخرى هامة وثمينة وأحمل علي [179] كرونوغرافي وبوصلة، وبارومتر، ومذكرتان لمساري.

كانت هذه التحضيرات محرجة ومتعبة جدا، وكنت متعبا وأنا أعبر هذه المرحلة في ثماني ساعات. وصل رقاصان في هذا المساء على الساعة الخامسة، أحدهما قدم من زكموسن مبعوثا من الشيخ الحسن الإبن، وأحد أتباع عبد الرحمان يقول بأن الشيخ سيرجع إلى أنزور خلال ثلاثة أيام رفقة الجزائري مولاي أحمد. وقدم الآخر مبعوثا من قاضي سكتانة سي عبد الله، يخبر أن مبعوث "القايد" العربي الأدوزي الذي ذهب عند "القايد" الكلاوي سيعود خلال ثلاثة أيام. وقال محاند ملتفتا لأخوته: "جيد سأتكلف بتقصير طريقهم".

7 أبريل

كم هو مؤسف استمرار رؤية الشمس تطلع على هضاب أنزور.

مرشدي لم يأت !

استمر الحذر بقوة قبل الليل، وكان عبد الرحمان يتحدث كثيرا. غادرت القبة على الساعة التاسعة، وذهبت إلى البرج لآخذ حزمتي الكبيرة، وفتحت الباب الذي دار على مفصلتيه من الخشب، ونزلت، والقلب يخفق، حتى وصلت العين. لا أحد....!

العاشرة.... الحادية عشرة... لا أحد !

قررت أن أعود وأترك قرب العين "كيسي" الثمين، ورجعت إلى القبة بهدوء، التي كان ينام بها الرقاصان اللذان قدما اليوم متجاورين، وافقت من جاء من عند القاضي وهو الوحيد الذي يفهم بعض الكلمات بالعربية، وشرحت له بصوت منخفض وبصعوبة أنني أريد أن أهرب الآن وبسرعة، وأنه عليه أن يقودني إلى تاسولي عند الشيخ الحسن. وهذا حوار غريب في الظلام بين شخصين لا يتعارفان وبالكاد يتفاهمان [180]. وقبل "شلحي" بعد شروحات مستفيضة الفكرة، لكنه انتبه أن الباب محروس فاستطعت أن أطمئنه، ونزلنا، وها هو الباب! توقف "شلحي" لأنه نسي بندقيته، فرجع للبحث عنها وبقي هناك خمس عشر دقيقة بدت لي قرنا ورجع ليقول لي إن بندقيته قد أغلق عليها بالمفتاح في قاعة الضيوف بالقبة! ومن المستحيل الذهاب بدون أسلحة... "فالبربري" لا يفارق أبدا بندقيته، ومشروع هروبي أحبط!.

أزديف، هضبة زناگة، منظر من أگادير نصفيحة

أزديف، هضبة زناگة، منظر من كهوف تافزا

لم يبق لي سوى العودة للبحث عن حزمتي، وإرجاعها دون أن يراها أحد، وهذه عملية محرجة، خاصة أن الكلاب شرعت في النباح بقوة. إنه منتصف الليل، فالضجيج البسيط يكون مفعوله أقوى ومميز وسط هذه الليالي الأفريقية! أغلقوا الباب، ولابد من إعادة فتحه، لكن بأي مجهود وبأي صخب! نزلت عبر المسلك المؤدي للعين. لاحظت لما مررت أمام المنزل الذي يستعمل مسجدا أن الباب بقي مفتوحا، وحبات الرمل تصدر أصواتا تحت "بلاغي" نظفتها ووضعت رجلي فوق الصخور "الحادة"، وأمل أخير يمكن أن يدعمها هو إذا استطاع مرشدي أن يحدث شيئا.

لا أحد موجود... سوى صوت ماء العين، والتيوس الصغيرة تغثو في الحضائر كصوت الأطفال، حملت من جديد معداتي، وصعدت المسلك المحجر ووصلت إلى الباب. الليل رائع، وممتع جدا، وصاف، رغم أن الليلة غير مقمرة. الباب مغلق! فماذا سأصنع؟ لا يجب أن أفكر في المناداة على أحد، إذ كيف يمكن أن أفسر خروجي وإذا أحدثت ضجيجا، فإن عبيد الحراسة سيرمونني بالنار!. يجب أن يكون نوم أهل أنزور عميقا جدا لكي لا يستفيقوا على النباح القوي للكلاب! وتذكرت فجأة ممرا يؤدي إلى الحضيرة، التي بدا لي ممكنا الدخول منها وصعدت السقف الذي يفضي إليها، وشرعت في إزاحة الأحجار التي تحجب فتحها، فتعالى صوت من الداخل:" أشكون" ؟ من هناك ؟[181]

تظاهرت بالموت، وبقيت مدة طويلة جامدا، لا أتنفس باحثا عن حل. راودتني فكرة دخول المسجد المفتوح، ونزلت بحذر كبير من الجدار، وأخذت من جديد كيسي التعيس الذي يبدو لي كل مرة أثقل مما كان. كان كل ذلك تحت نباح الكلاب القوي لأصل إلى الجامع ودخلته بهدوء. إنه فارغ! قضيت فيه الساعات الأخيرة من الليل التي بدت لي طويلة! استفاق زنجي في الفجر يحمل "معوله" فوق كتفه لفتح السواقي، وتسللت بسرعة للدخول من الباب الذي ظل نصفه مفتوحا. وفي الوقت الذي أردت أن أجتاز العتبة خرج الفقيه سي أحمد ليؤدي صلاة الفجر. شرحت له بعد لحظة من الخوف المتبادل أنني عدت للتو من العين حيث كنت أغتسل وأغير ملابسي. يبدو أنه صدقني، وهنأني على نظافتي الصباحية، دخلت البرج دون لقاء آخر مزعج، لكنني منهك جدا بسبب الإجهاض لمشاريعي التي لم أنجح في تحقيقها.

****

استطعت أن أتحدث قليلا مع "شلحي" مبعوث القاضي هذا المساء، وعدني أنه سيكون أكثر يقظة هذا المساء، وعلمت أن الشيخ محاند لن يصل إلا غدا نهارا، بمعنى أن هذه الليلة المقبلة ستكون فرصة مناسبة. وفي الزوال بعد تناول الغذاء عند الشيخ محمد ووضع الضماد على جرح مريضي، بحثت عن مرشدي، لكن لم أعد أجده في القبة لقد ذهب للتو.... وتبعته جريا إلى الهضبة التي تمكن من رؤية وادي أنزور لأرى الرّعديد والجبان يفر جاريا نحو زكموزن....

ها هو مشروع آخر قد أجهض ! وأحسست بالفشل. وأُخبرت في الساعة الرابعة أن الشيخ حمو [182] من زناكة وصل إلى أنزور، محروسا بثلاثة من خدامه، وثلاثة فرسان "للقايد" الكلاوي، ويجلب معه أربعة بغال وفرس. نادى علي الشيخ بمجرد ما نزل من فوق فرسه، وأعطاني رسالة من

"القايد" الگلاوي تطمئنني عن قبول شروط آل بن تابية، ويقول لي إن سجّاني كتبوا بعدم أخذ ما طلبوه بعين الاعتبار لأنهم يفكرون في أن يسلموني لصديقهم الشيخ المنتاگي. أحسست بإهانة... وقال لي إنه سيأخذوني طوعا أوكرها، وأن علي أن أكون مستعدا لأي حادث وأعطاه "القايد" الگلاوي الأمربالكشف المفاجئ عن ذلك. وفكر في اختطافي ليلا. ذهبنا وحيدين، وبقي فرسانه وفرسان "القايد" لمواجهة أهل أنزور الذين لن تكون لهم الجرأة لسوء معاملة رجل من زناگة. فسيجتمع لاحقا ويتوحد مع أهل أونزين ويعود ليسحق "جحر" الثعابين هذا ....

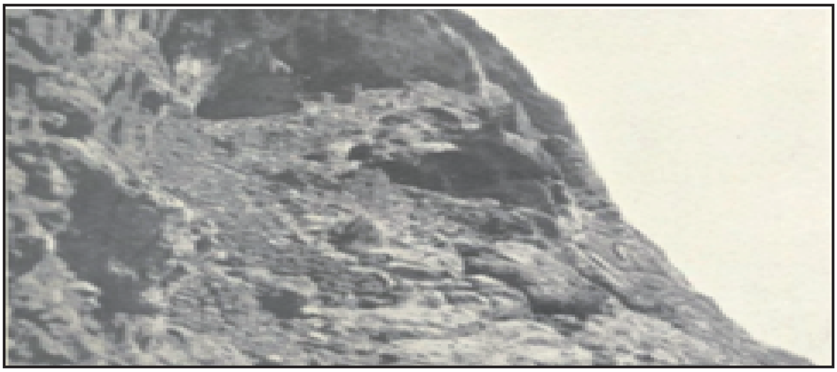

أزديف، جرف تافزا، مساكن سكان الكهوف

أزاديف، جرف تافزا مساكن كهوف

8 أبريل

يوم لاشيء فيه يذكر، فالشيخ حمو ينتظر عودة محاند الذي لن يعود إلا في وقت متأخر من سيدي عيسى أوبراهيم. والوسيلة الوحيدة لتزجية الوقت طيلة هذه الأيام هو انتظار ساعة الغروب، وكانت فاضمة وأخواتها: عائشة، ومحجوبة، يأتين مختفيات ليقدمن لي تارة العسل وأخرى اللبن. ويأتمنني على "سخراتهن؟" للعاصمة التي سأتوجه إليها، فإحداهن تريد ساعة، والأخرى أساور، والثالثة إبزيمات. وعلمت من فاضمة أنهن على علم بمحاولة هروبي، وأنهن كن يراقبنني.

9 أبريل

غادرت أنزور في الساعة الثالثة، بعد أربعين يوما من الأسر [183]. وكان مشهد المفاوضات رائعا، حيث طلب الشيخ حمو بعد وجبة الغذاء آل بن تابية أن يجتمعوا بالقبة. أجلسني بالقرب منه، وعرض لمضيفه أنه قبل شروطهم التي رضوها هم بأنفسهم، وجاء برسالة الاعتذار والمبلغ المالي والجواد المطلوبين، وأخبر أنه سينطلق على الساعة الثالثة ويأخذني مع أمتعتي. فاحتج فجأة آل بن تابية، وعلم الشيخ أن الوضعية قد تغيرت منذ سفره. أُعطيتهم "هبات" لا يستطيع هو ولا أصدقاؤه ولا أقاربه أن يرفضوها، هذا مع العلم أنه كان يعلم أنه سيكون له قسم كبير في هذه (الوزيعة). تركهم الشيخ يتكلمون، ثم نادى على رئيس حرسه المسمى بوالنيت، وهمس في أذنه، فذهب، يبحث في "شواريات" أحد البغال. ورجع يحمل معه "كيس بارود" وكيسا صغيرا من النقود. وفتح الشيخ يديه، فصب بوالنيت بعض النقود في اليمنى، وبعض البارود في اليسرى وكان الكل ينظر بهدوء إلى هذه "الإيماءات". فتوجه الشيخ بيديه إلى آل بن تابية وقال:

- باسم الله الرحمان الرحيم، اختاروا... !

ففوجئ آل بن تابية أمام هذا التصرف غير المنتظر، فبدأ أهالي بن تابية يحتجون وسط الضجيج متوسلين للشيخ أن يفهم كم كلفتهم إقامتي... كرر كلهم حججهم، واعتراضاتهم، واقتراحاتهم فصب الشيخ بقوة البارود، والنقود فوق الزربية وأشار بإصبعه في اتجاه الجنوب الغربي وقال:

- عندما تصل الشمس إلى هنا سأنطلق!

ثم أدار وجهه للحائط، وأغلق عينيه، وبدأ "يداعب" سبحته. وساعتان بعد ذلك غادرنا أنزور. كانت نهاية هذه الحصة سيئة، جاءوا بي إلى البرج الذي طردت منه منذ مجيء الشيخ حمو، وهنا وأمام الشيخ وعشرين من الشهود، و"الشلوح" من القرى الحليفة، وأولاد جلال من الدواوير [184] المجاورة جعلوني أنام قليلا لأحمل بسرعة أمتعتي و"أن لا شيء ينقصها".

هضبة زناگة، منظر مأخوذ من جهة الجنوب ويبدو أزديف في العمق يمينا، وتبدو كهوف تافزا للوهلة الأولى

هضبة زناگة، منظر مأخوذ من اتجاه الجنوب ويبدو في العمق جبل أگيمان وسهل أماري

ولما كان منهم ذلك، طلبت أن أراقبها، فقالوا لي إن مفاتيح حقيبتي ضاعت... ولما علمت أن هذا لا يستقيم أمام آل تابية المنبهرين والمشدوهين فتحت حقائبي بالطريقة المعتادة لكن للأسف ! أتلفوا كل شيء ثمين في أمتعتي لما رأيتها، وسرق كل ما له قيمة. لكن الخسارة الكبرى عندي هي عداداتي التي ترافقني على طول الطريق، وتعد ضرورية لكل ملاحظاتي وأخذوا أيضا مكبراتي ونظارتي الفلكية... ولم يتركوا لي شيئا ذا قيمة. صببت جام غضبي أمام هذا الحادث على آل بن تابية بالألفاظ بالعربية وتامازيغت مما أدخل الفرحة على الجميع! وكان الشيخ حمو مركزا على تصرفاتي، وطلب مني عدم التمادي في الاحتجاج فأغلقت بعنف حقائبي، وأعانني أحد الزناگيين على تحميلها فوق بغل، فلم تعد تزن سوى عشر كيلوغرامات للواحدة، وهذا كل ما تبقى من معداتي والتي حملتها في الأطلس الكبير... أحسست وأنا في هذه اللحظة الأخيرة لعبور عتبة البرج بيد توضع فوق يدي إنها: فاضمة التي تأثرت كثيرا لهذا التصرف، وعبرت لها عن امتناني بابتسامة "انتصار"، فأزاحت حايكها لتظهر لي عداداتي الثلاثة معلقة في عنقها كالعقد....! وسلّ أخوها الصغير عبد الله في رجله اليمنى الآلة التي تستعمل لشحن آلاتي الفوتوغرافية وجاءني متنهدا متوسلا من أن أعطيه "الرجل الأخرى" لهذا السروال الرائع...! توجه عبد الرحمان بسرعة في اتجاهي وحضنني بيديه، وطلب مني أن أبعث له برصاصات للبنادق التي سرقها مني، وأن أطلب من "القايد" الگلاوي أن يرسل إليه فرسا آخر والفرس الذي جاء به الشيخ حمو يعجبه [185] ثم أن ليس له سرج...! وأن يعطيه "القايد" سرجا مزينا بالحرير...! [186].

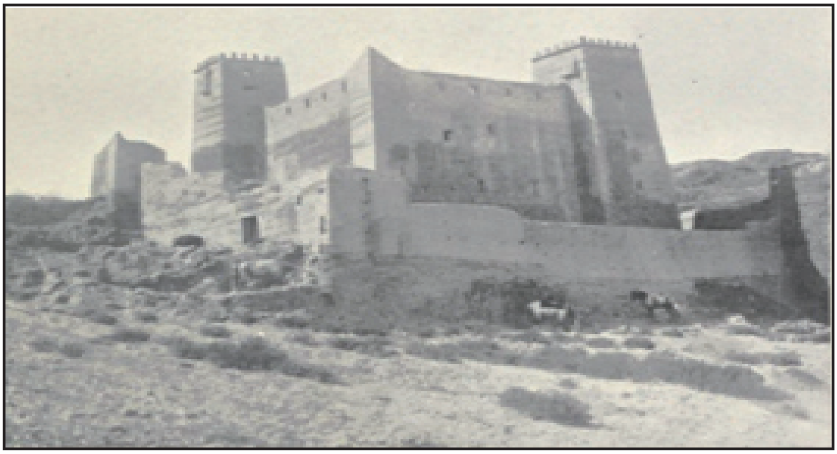

أزديف، دار أمغار حمو

أزديف، مدخل دار أمغار حمو

الفصل السادس

من أنزور إلى تازرت

يتقدمنا الشيخ حمو في رأس القافلة، وهو صامت ملتف في حيوكه البيضاء التي يغطيها سلهام داكن، وخلفه فارس ثم أربعة بغال مركوبة، وأحد المشاة ثم أنا فوق بغلة صغيرة "رمادية" مشغولا بوصف مساري، وصوري الفوتغرافية التي تجعلها وضعية آلاتي صعبة. نعبر بشكل متواز وادي أنزور من الوسط، ونصعد الهضبة في اتجاه الشرق، ثم نعرج فوق هذه الهضبة الكثيرة الحجارة وغير المزروعة دون أشجار ولا منازل، وفي الشمال القمم المسننة للأطلس الكبير، تنتشر تحت سحب تلف وادي واد سوس من نهر كبير من السحب "الرمادية" تحركها رياح الغرب، وكان يوما مضببا وحزينا.

فجأة توقف فرس الشيخ وتراجع فتوقف الحرس مفاجئين ثم سلوا بنادقهم ونزل البغّالة أرضا.

انتباه! يوجد خمسة رجال مختبئين وراء الصخور يقطعون طريقنا ببنادق في الأعلى، فسارعوا بالسؤال: من أنتم..؟. مُرّوا أمامنا وإلا رميناكم بالرصاص.

إنهم أولاد جلال من فخذة أولاد علي، يريدون فقط سرقتنا، وشاء الحظ أنني أعرفهم، فاثنان منهم من "زبنائي" واستقبلني الآخرون تحت خيامهم، فتعارفنا وأُنزلت البنادق، وهنأوني على الإفراج وتوادعنا على أمل العودة بعد سفر سعيد[187]. والباقي من الطريق رتيب جدا.

وصلنا بعد ساعتين من السير فوق هضبة أو نزين إلى منطقة مدرج مستغل فلاحيا جيدا من خمسة كلمترات في القطر، وتجمع سكني مبني بالحجارة الحمراء، فوق أحد مرتفعات الغربية، إنها تيفست قرية زناگة المحصورة وسط أراضي أونزين، وتوقفنا بها عند أحد أعيانها. توجد تيفيست فوق هضبة صخرية، واجهتها الغربية كبيرة تطل على شعبة بعمق ستين إلى مائة متر، ولما كانت هذه هي أول مرحلة لي بعد التحرير فإنني أصبحت أرى الناس أقل قسوة وأكثر بشاشة، مما رأيته من الناس الذين صادفتهم منذ دخولي الأطلس الصغير.

10 أبريل

الأمثلة "البربرية" تختلف بغرابة مع أمثلتنا في الخلاصات، ويمكن أن نقف من خلالها على الفرق الذي يصنع عقلياتنا.

فنحن نقول: "الوقت من ذهب"، و"الشلوح" يقولون: "الوقت لا يساوي شيئا"، قضينا الصباح كله في القاعة السفلية المظلمة والمدخنة، التي وضع فيها مضيفنا أجمل حصائره وأبهى زرابيه، ولا أحد يتكلم، وكل واحد مهتم بشؤونه في صمت، فهذا يضبط حذاءه، والآخر يدخن الكيف باستمتاع، والشيخ حمو يداعب سبحته، وانتهيت من إصلاح أدواتي و"الغلاي" الذي يعد فيه ماء الشتاء قد استوى بعد أن نفخ طفل في أسفل مجمر، واستعد معد الشاي "مول الصينية" لإعداد المشروب، وهو شيخ فقير وقور دقيق في حركاته وإعداده. الرياح الغربية الشمالية تهب بقوة خارج المنزل وتحرك سحبا تنذر بسقوط أمطار، فبعض قطرات الأمطار تفرح الفلاحين وتخيفنا نحن. ولم ننطلق إلا على الساعة الحادية عشرة، ونزلنا أولا في عمق الشعبة التي يمر منها تيفسيت من أجل الصعود [188] بعد ذلك إلى ضفته الجنوبية.

أزديف أحد فرسان زناگة

أزديف، الإبن البكر لأمغار حمو أمام منزله

مشينا طيلة ثلاث ساعات فوق أرضية متآكلة، عبر المشهد نفسه، دون أن نصادف ولو كائنا حيا واحدا. كان يحرسنا أربعة وعشرون حارسا لأن هناك إشاعات تقول إن آيت بن تابية أرسلوا أولاد جلال في تعقبنا. ولما عبرنا حوضا يوجد في عمقه تجمع تالگمونت غادرنا حراسنا، ورجعوا مخافة العبور من هذه الأراضي لأن تيسفيت وتاتگومت في حرب، وأن بذمة تسفيت ثمانية أرواح لتاتگموت، ولن يعود الأمان إلا بعد الثأر، ولا يبدو مرشدونا مهتمين بالأمر. وصلنا ساعة بعد ذلك إلى جبل أگنان وهو حاجز صخري يقطع طريقنا، ويمتد واد أگنان على طول القدم الغربي، حيث نرى من هنا القرى الممتدة في الوادي وأقربها هو أگرط، ويدور الوادي حول "رأس" صخري في القمة حيث بنى أهل القبيلة تجمعا هاما يسمى لمْدينة. وصعدنا إليها لأنها ستكون نقطة توقفنا. كانت الطريق الصاعدة /المؤدية إليها تحف جنباتها حقول عرصات جميلة من أشجار الزيتون، والنخيل، والكروم وشجر الجوز. اكتشفنا من منزل الشيخ الواسع المسقف جيدا، قصر الجنوب، والقمة الزرقاء لجبل باني وفي الشمال الشريط الأخضر لوادي اگنان الذي يجري وسط الهضاب الصخرية.

قضينا الفترة المسائية كلها في الزيارات، فكل واحد كان حريصا على نيل شرف استقبال "أمغار" والقوات المجاورة لزناگة حلفاء المدينة وسادتها، وجعلونا نزور قبة سيدي لحسن سيد التجمع الموجودة فوق تل صخري.

11 أبريل

لم نقض كل الفترة الصباحية إلا في الأحاديث الفارغة، وأمامنا أكثر من خمسين طبقا وإناء[189] تمر أمامنا، والأكل يختلف بعض الشيء، وكذلك المحادثات، وكانت تقدم لنا تاگلا، والكسكس، كناية عن الفرح. انطلقنا في الساعة العاشرة لعبور جانب جبل أگنان، وسنعبر بعد ذلك، القمة والمنطقة المنعزلة والجافة، التي تمتد أمامنا تسمى أناغي، ولا أتذكر أنني رأيت بلداً حزينا مثل هذه الصحراء الكثيرة الهضاب الجرداء والشعاب الجافة. وصلنا "منبسط" زناگة في الساعة الثانية، ولا شيء غير منتظر سوى هذا الحوض الكبير الأحمر والخصب، الموجود في الأجراف المنحدرة من الأطلس الصغير، يبدو مثل بحيرة كبيرة جافة. تنبت في أطراف القرى الخضراء مزارع الشعير الصفراء الشاحبة، وتوجد بعض الآثار الجيولوجية للانجراف في هذا السهل، تحمل آثار خربات قيلت لنا أسماؤها وما صاحبها من أساطير، وننزل الآن في طريق رملية وكلسية، ونتوجه نحو تجمع في الجهة الشرقية للسهل، وتسمى أزديف وهي مقر إقامة الشيخ حمو وحلقتها مثبتة في الصخر بطابع "شارلماني".

12 أبريل

جالست حمو في هذا الصباح متمددا فوق الزرابي الجميلة التي خصصها لي، وكان مرفوقا بأولاده/ أبنائه وعدة أعيان، لم أعد أتذكر الآن أسماءهم وحياني بشدة قائلا:

- إن من كتب الله علينا إنقاذ حياته يصبح ابننا، فمرحبا بك وعندما ترجع إلى أهلك قل لهم إن زناگة سيستقبلونهم كالإخوة. ومنذ تلك اللحظة أصبحت أعيش، وأمشي، وآكل محروسا، ومراقبا من شعب ودود ومبتسم [190]. كانوا يحدثوني بالأمازيغية عن أشياء جميلة وهامة لا أفهمها، وأضع يدي على قلبي وأنا أضحك وأحيي، وافترقنا فرحين جميعا.

تيزي، واد تمجيجت

منزل القايد عبد الرحمان

صعدت إلى الجرف الأسود الذي يوجد بظهره أزديف من أجل الحصول على فكرة حول طبوغرافية هذا البلد كان مصدري في المعلومات أبناء الشيخ حمو، واستطعت كتابة الأسماء التي أملوها علي للتجمعات الصغيرة المتناثرة في هذا السهل الكبير وكذا الجبال المحيطة بها. و"الصخرة" الذي آخذ منه ملاحظاتي عبارة عن آثار مبنية بحجارة كبيرة دون إسمنت يسمى أگادير نصفيحة. وينتصب جبل سروا على بعد عشرين كلمتر في الشمال، وخلفه توجد السلسلة الكبرى للأطلس الكبير.

13 أبريل

تمتد أراضي زناگة خاصة في الأعالي من الشمال إلى الجنوب من آيت عامر إلى جبل باني، ومن الشرق إلى الغرب محدودة بين أولاد يحي وأونزين، والسهل الذي توجد به خصب جدا فهو خزان المنطقة من الحبوب في السنوات الممطرة، وعيون الماء القليلة الجارية فوق أراضيه لا تكفي لسقي الحقول. الآبار موجودة بكثرة لكن زناگة لا يعرفون استغلالها للسقي، وكل الأسئلة التي طرحت علي تتعلق بعمليات الضخ وسواقي الماء. يبدو أن السكان واعون بإمكانية تحويل بلادهم إلى الأحسن، وعبروا لي مرات عديدة عن رغبتهم أن يأتي عندهم خبير في مواطن الماء يعلمهم ما هي الأشغال التي يجب أن يقوموا بها، ويبيعهم المعدات الضرورية.

قبيلة زناگة "مستقلة"، لكنها تؤدي بشكل منتظم الضرائب "للقايد" الگلاوي التابعة له. وزار "القايد" عدة مرات أزديف، فالأمان والنظام السائدان هنا [191] في الجنوب الشرقي للمغرب هما نتيجة قوته وحركيته. ويسمى الشيخ حمو باسمه الكامل: محماد إدا أولقايد، وعائلته تحكم زناگة منذ مدة طويلة و"القايد" الذي يحمل هذا الاسم "السيادي" هو سي ابراهيم جد جد الشيخ حمو الذي جرد "قايد" زناگة من سلطان العائلة/ الفيلالية (العلوية)، ولقب "القايد" لا يتوارث لكن قيادة القبيلة ظلت في يد هذه العائلة منذ هذه الفترة. الشيخ الحالي الذي يحكم منذ ثلاثين سنة هو إدا أوالقايد، وهو ابن يهودي أسلم، له عدة نساء أولاهن أخت الشيخ عبد الرحمان بن تابية، وله ثمانية أبناء البكر منهم: عبد الرحمان قد يبلغ من العمر ثلاثين سنة، والأخير الأصغر لا يبلغ من

العمر سوى أربع سنوات. وقُتل الأخ الأصغر للشيخ حمو "أمغار" منذ سنوات بأگولمين المعلق في الجرف الغربي، والأخ الأخير للشيخ "أمغار" بلاّ هو الذي زرته بأنزور.

14 أبريل

أخطأت عندما قلت لهم إنني لا أخاف من الجن التي تحرس الخزائن في الخربات، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقفوا عن إطلاعي على كل المغارات، والخزائن التي تدور حولها الأساطير، ونلاحظ بدون شك أن الأرواح لم تصبني بأي أذى، لكني لم اكتشف أي كنز مما جعل الناس يقولون إنني لم أدخل بنية سليمة، وأنني سأعود يوما لأحصل على الكنوز المشار إليها طوعا بالنزالات أو نقط توقفي. وقفت اليوم على الجرف الكلسي لتافزا الذي يمتد مثل نتوءات صخرية في السهل المكون من مواد رطبة به عدة مغارات منحوتة كانت مسكونة، وكانت الطيور الصغيرة التي تسكنها تغلقها بأسوار من الحجارة الجافة (دون طين) [192] التي ما زال العديد منها شاهدا، حيث نلاحظ فتحات للسكن، ومسالك الوصول، وكان هناك حدادون نرى آثار مجامرهم، وهو دليل حقيقي على أنه كان هناك استغلال لمناجم الحديد المجاورة.

تيسليت، اسيف أزگمزگي

بعض سكان تيسليت

أكد لي مرشدي أن هذه الخربات الأطلال كان يسكنها مسيحيون، وجدهم ركراكة لما استقروا بهذا البلد عندما فتحوها طردهم زناكة الذين يوجدون في هذه النقطة منذ ستمائة سنة. وزناكة "شلوح"، لهم سمات "البربر": الرأس المستدير، والتقاسيم الواضحة، والبشرة البيضاء، لكن بعيون جميلة وبتجاعيد قبل الأوان، ولا يحتفظون إلا بلحية رقيقة فوق الشارب وأسفل الدقن، وهم أقوياء، وقطاع طرق كما أنهم لطفاء، وممتعون وأصحاب عدل، وغير متعصبين دينيا ضدنا. يستضيفوني في كل مكان، كنت أحضر في جميع أعيادهم ومناسباتهم وولائمهم. وعليك أن تقيم بينهم عدة أيام لكي تكون لك علاقات مع النساء اللواتي تظهر منذ الوهلة الأولى متعصبات....

لم أشاهد في اليوم الأول سوى العبيد، وفي اليوم الموالي شاهدت أشكالا متحجبة تفر عند مروري، والآن لما تعرفن على عاداتي، وانطوائي كن يعترضن طريقي من أجل أن يطلبن مني دواء أو تميمة أو هدية، وتشرفت بأن أرى عندما دخلت من نزهتي كل نساء برج مضيفي، كان الرجال في اجتماع، واجتاحت النساء الساحة الداخلية، وكانت هناك ثماني فتيات صغيرات، وخمس فتيات شابات ما بين خمس عشرة وعشرين سنة، وأربع نساء من ثلاثين إلى خمسين سنة، وعدة زنجيات بعضهن يلبسن الخنت والأخريات القطن الأبيض، والزنجيات يلبسن حيوكا من الصوف رمادية، كلهن تتحلين بعقود من الجواهر، وحبات العنبر، ومجوهرات من الفضة، وحلقة رؤوسهن مشابهة لما شاهدته في أنزور. [193] ويرى زناكة أن نساءهن جميلات... ويبدو أن المسألة لها تقاليد دون شك.

15 أبريل

يتحدثون البارحة مساء عن رحالة رومي كان يتنكر في شخص يهودي كاد أن يقتل في مغيميمة منذ عشرين سنة،... وهنا تذكرت دوفوكو، وحكيت للشيخ حمو لقاءه مع الرحالة في منبسط زناكة، لم يتذكر الشيخ الواقعة، لكن فارس ثقته بوالنيت تذكرها مباشرة، وذكر لي أن دو فوكو كان بتسينت ضيفا على صديق من زناكة هو الحاج بورحيم عبد الرزاق الذي سافر معه إلى موكادور. وتوفي الحاج منذ سنتين بتسينت بعد أن أصيب بالإفلاس، ووجد في أحد منازله الستة التي كان عند زناكة على قدم جبل تيمزو، وهُجّر أبناؤه محمد وعبد الرحمان ولا أحد يعرف أين يعيشان.

وكان من بين المضيفين في هذا الصباح شيخ قبيلة هبّان، "صهر" عبد الرحمان بن تابية وشيخ آيت سمگ حفيد الشيخ حمو، وهبّان يعيشون في جبل سروا. وتطبع قبيلة آيت سمگ حدودها الغربية لقيادة الگلاوي بطابعهم الخاص، ويحد واد آيت رافد واد زناكة، أراضي الگلاوي والگندافي، وعلمت من خلال هذه الشخصيات أن روميا يلبس على الطريقة الإسلامية نزل من تلوات إلى تيكيرت منذ أسبوعين وأقام هناك تم اتجه نحو جبل سروا، كان مترجلا رفقة خادمين بعدما اكتروا بغالا وملأوا "شواريها" بأحجار. ومن المستحيل إلى هذه الدرجة أن لا أعرف "مساعدي" لويس جانتي. تبين لي بالفعل عندما التقينا أنه كان بسروا في نهاية مارس كما قيل عندما وصل فلوت إلى

مراكش، ودون تنسيق فإن لقاءنا تم بطريقة دقيقة جدا. ويتضح هذا في الخريطة وهذا هو الشيء الهام، فمساراتنا [194] تتقاطع.

أصبح هدفي من الآن الوصول إلى تيكيرت وتلوات، ومرور لويس جانتي من جبل سروا جعل من غير الهام أن أذهب إلى هناك. وقلت للشيخ حمو إن هدفي هو الوصول بسرعة إلى "القايد" الگلاوي، واقترح علي أن يرافقني إلى تلوات واستغل فرصة زيارتي بين زناگة لزيارة الگلاوي القوي، وكان هذا الإصرار حدثا هاما عند القبيلة، لأن الشيخ لم يذهب قط لزيارة مجاملة إلى "القايد"، وتقرر أن يذهب عدد كبير وأن تحمل أيضا هدايا عبارة عن فرس وزرابي ونقود... فالخيول والزرابي من اختصاص زناگة، وخيولهم قصيرة، وغليظة، وقبيحة، لكنها قوية وصبورة، والزرابي منسوجة بطريقة رائعة وتباع بريالين للذراع يهيمن عليها اللون الأحمر، هذا اللون الناصع الذي يبدو أنه من تخصص الصباغات في مراكش. ومن أجل تخليد الاستعداد لهذه المشاريع استضافنا الابن البكر للشيخ حمو في أگاديره الكبير الذي يسكنه مع إخوته وأقاربه، وقدمت الوجبة في غرفة صغيرة في أعلى البرج، نصل إليها عبر أدراج في ممرات مظلمة حيث نعبر الغرفة الوسطى وهي غرفة جميلة مسقفة ب"أعمدة" خشبية نستطيع أن نرى من أعلاها كل السهل الأحمر لزناگة التي تشع تحت سماء منتصف النهار الحارة.

يشكل أطفال أزديف جماعة مميزة وحيوية وفرحة، فهم يدورون ويصرخون طيلة النهار حولي ويختفون بسرعة، ويتشاجرون في كل مكان يشربون فيه أو يأكلون. و"الشلوح" يحبون الأطفال ويتركون لهم الحرية الكاملة، ولا يفرضون عليهم إلا قليلا تعلم القرآن خلال ساعة أو ساعتين أسبوعيا تحت رقابة سوط الفقيه الشيخ. ويتسلل الأطفال وسط الرجال الكبار في الليالي الطويلة الساهرة، ويسمعون كل [195] ما يقال، وكل ما يغنى والله وحده يعلم إذا كانت أغاني "البربر" فاحشة!.

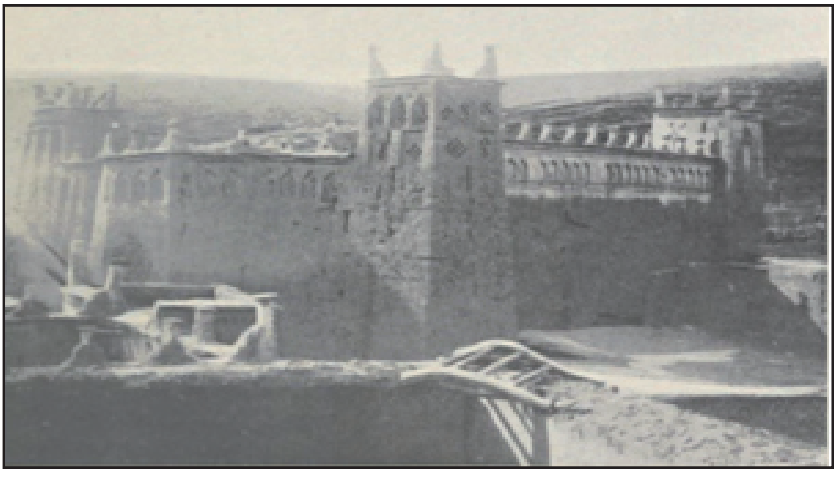

منزل حامد نايت با حامد

إيغلس منظر مأخوذ من داخل التجمع

وليس من هدنة لهذا الضجيج إلا عند الغروب، في الوقت الذي يمد الجرف العلوي لأزديف ظله على الهضبة، حيث نراه يمتد إلى ما لا نهاية إلى حدود الجبال "الوردية" التي تقف في الأفق من جهة الشرق، وفي هذا الوقت يجتمع أهل أزدايف المنهكين من الحرث أو الخمول قرب الصخور التي يوجد فوقها البرج وينظرون بعيون حالمة إلى منبسط زناگة الكبير.

اليوم يوم السبت، ويهود أزديف في الخارج يلبسون فوق قميص طويل بلون فيه إذلالا لأخنيف "البربري"، وينتعلون أحذية "بلاغي" سوداء ومتحلقين بحلقتهم المعروفة. نساؤهم لابسات بطريقة مخالفة للرجال ومتحليات جدا بمجوهرات من فضة، ورؤوسهن ممشوطة مثل ما تقوم به المسلمات، والأطفال لا يختلفون أبدا عن الأطفال "الشلوح". وهناك تفصيل فريد، فمن بين الثلاثين يهوديا الذين رأيتهم عددت ثمانية منهم بيض البشرة، واثنين أمهقان. وحياة يهود أزديف هنيئة عموما، فالشيخ يعاملهم كالأب ولا يضغط عليهم كثيرا، ولا يفرض عليهم أي ضريبة خاصة، وتترك لهم حرية تدبير شؤونهم وأن يسافروا بل وأن يهاجروا إذا رأوا ذلك ولا يمنعوهم من ذلك، وأزديف منفى يجدون فيه الأمان الغالي، ولم يسرق أو ينهب ملاحهم الموجود بالقرب من أگادير الشيخ قط، وزرته رفقة أبناء الشيخ وأحد صلحاء النواحي ويبدو أن الكل يتعايش في سلام وبذكاء.

16 أبريل

انطلقنا حوالي منتصف النهار لأن حراسنا كثر وثقيلي الحركة، ففي كل [196] المنازل والقرى التي نمر منها يتسارع الناس لتحية "أمغارهم"، وكان مشينا بطيئا، فالهضبة رتيبة ومناظر الجبال توحي بالقسوة. عبرنا زاويتين الأولى هي زاوية سيدي الحسن وبها قبة جميلة مصبوغة بالأبيض ومزينة، والثانية قبة بيضاء بها قبر سيدي عبد الله أو محاند حيث تمتد حدود بين زناگة وآيت عامر. وصلنا بعد ذلك دائرة تيمجيجت حيث "القصبات" مع تيقي رافد أسيف تيمجيجت وهذه الدائرة هي داخلة في نفوذ شيخ تازناخت الذي بينه وبين شيخ زناگة صراعات، وذهبنا لطلب ضيافة صديقين: القاضي عبد الرحمان وأخوه الفقيه سيدي محمد بـ "قرية" تيزي.

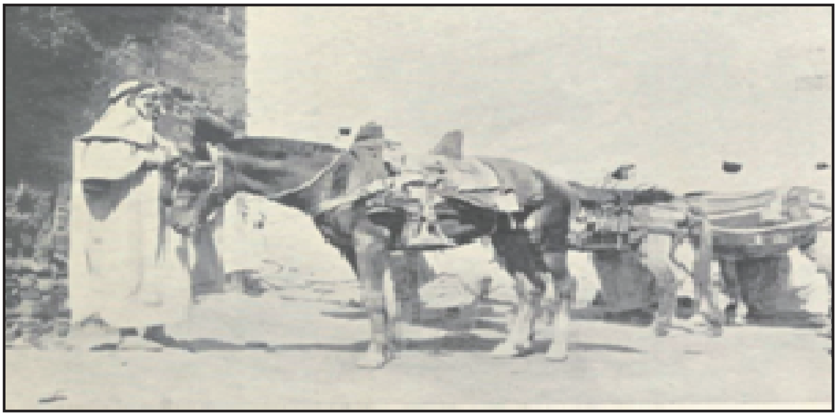

تيسليت أحد فرسان تازناخت (أيت أوزانيف)

تيكيرت، فارس وفرس من وارزازات

17 أبريل

علينا السير في طريق تاماسينت التي هي الأقصر، لكن حراسنا كان لهم رأي آخر، لهذا كنا مضطرين للمرور عبر طريق تازناخت وهي الوحيدة التي يمكن أن نتزود فيها، فلدينا أربعون حيوانا مسرجة وأكثر من ستين رجلا. وقلت إن العلاقات كانت متوترة بين شيخ زناگة وشيخ تازناخت و"أمغار" عبد الواحد الزنيفي "من آيت أوازنيف"، فاتجهنا نحو تازناخت دون الدخول إليها، وكانت أبراج المراقبة تراقبنا عن بعد، وكنا محتاطين نحن بدورنا. ثم اتجهنا بعد ذلك نحو وادي أسيف أزگموزگي الذي تضع في جنباته تازروت وأساكا وتافونتت، ثم يتسرب الواد بعد ذلك وسط الهضاب الجافة و"القبيحة" حيث يجري بعرض حوالي مترين، ولا ينفتح النهر في الوادي الضيق إلا في تيسليت حيث يسقي الحقول والعرصات.

توقفنا أمام منزل أحد أعيانها صديق الشيخ الذي يبدو خائفا أكثر مما هو شرف باستضافة هذه القافلة القوية"[197].

18 أبريل

علمنا هنا أن "القايد" الگلاوي ينوي الذهاب إلى مراكش، جعلنا هذا الخبر نسرع في الرحيل وإلا دامت مدة إقامتنا هنا كما كانت هناك اعتبارات أخرى. انطلقنا على الساعة الرابعة صباحا لنصل إلى إيغليس في الساعة الثامنة. سبقنا بريد إلى هناك وكان منزل أحمد بن تابية حماد مستعدا لاستقبالنا. وإيغليس التي نراها في صبيحة هذا اليوم من أبريل قرية جميلة من الطين المبلل الرمادي، ومنازلها مزينة بطريقة جميلة بآجر مثقوبة مع أعمدة مسننة من الجهة الأمامية مثل رمح.

مضيفنا رجل غني، قدم لنا الشاي في صينيتين من "البديع" والماء يغلي في أباريق كبيرة، وكانت اللحوم، والتمور، والعسل، والزبدة، واللبن تقدم بشكل وافر والزرابي سميكة، والحصائر بيضاء، والطنافس الجلدية تزين الأركان، والأسلحة مجهزة بمعدات البارود وبأكياس الرصاص معلقة على الجدران إضافة إلى الأواني النحاسية الكبيرة، الأسقف، والأبواب والنوافذ مزينة بألوان مختلفة بالأحمر والأخضر... والعرصات ملأى بالورود تلبي حاجات كل ناظر. مشينا بين إيغيليس وتاگنزالت طيلة ثلاث ساعات ونصف عبر صحراء جبلية قبحها يغني عن أي وصف، وتاگنزالت تجمعات سكنية مبنية بالطين الأحمر، بشكل مميز، وعرصات منزل مبني فوق مرتفع يبدو جميلا ومبنيا في وضعية جيدة، ولتگنزالت عرصات جميلة حيث أشجار النخيل مثيرة، وطقسها معتدل.

واصلنا التحرك بعد ذلك في الصحراء الجبلية، لكن يوجد خلف هذه الهضاب الجافة سلسلة جبال الأطلس الرائعة الكبيرة، وأرى في الغرب بلاد إدا ومحمود وفي الشرق جبل مكرور[198]. ويحيط بوادي تودغى فركلة هضاب زرقاء ومسننة الحافة بصاغرو. دخلنا إلى تيكيرت عند الغروب حيث اختفت الشمس حول أبراج هذه القصور، ولم أر في كل أفريقيا الشمالية ما يمكن أن تقارن به تيكيرت، فهي ليست سوى سوق قرية صغيرة، لكن منازلها العالية تعطيها طابع القلعة "القرسطوية". ولا أحد يعرف من أين يمكن أن تأتي هذه الأشكال الهندسية الخاصة جدا، والصور التي جلبتها عن وصف هذا الجمال. وأجمل هذه المنازل هي دار الشيخ حامد أو الحاج مضيفنا، والقاعدة الشهيرة التي نحن بها الآن، قد تستقبل خمسين ضيفا دفعة واحدة. وطابع الرفاه يلاحظ في كل مكان، ومحاصيل وادي واد إيغيغي عالية وناضجة منذ الآن، والحقول غاصة بالعمال، والسواقي العديدة تسقي حقول الشعير بوفرة.

زاوية سيدي احساين، فرسان من زناگة يتلون سورة الفاتحة

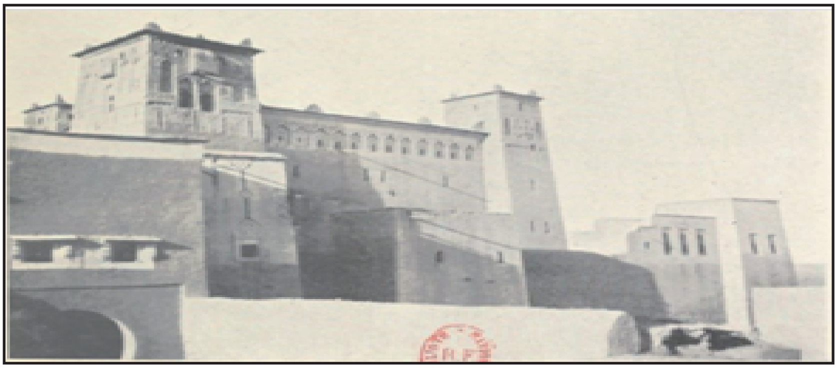

تيكيرت، منزل الشيخ حامد أو لحاج

19 أبريل

جاء مضيف آخر مميز لاستضافتنا وهو الشيخ أحمد من تافونت الذي رجع من تلوات ويحكي لنا جديد أخبار قصر/ ساحة الگلاوي. وأطلعني أبناء الشيخ تيكيرت على منازلهم، يستضيفون في كل مكان ويرحبون بعودتي وكذا ببعثة أصدقائي إلى هنا خاصة من الأطباء. ولم ننطلق حوالي الساعة الثالثة بعد آخر مرحلة وسط رياح شمالية قوية تلفح وجوه قافلتنا. عبرنا سرير واد إغيغي ثم صعدنا رافده المالح الذي يجري في سهل منعزل كثير الحجارة، وحفر النهر سريرا وسط هذه الأرض. ودخلنا في الساعة الخامسة إلى تجمع[199] آيت عيسى حيث التقينا سيدي حماد أخ "القايد" الگلاوي الذي أصبح خليفة على ورزازات.

20 أبريل

الطريق التي نسلكها الآن تدخل إلى الأطلس الكبير عبر الواد المالح الذي يحمل أيضا اسما واد إيونيد وواد مرغاد، ونزل المتعاون معي جانتي من الوادي نفسه، ورافقني أحد مرشديه إلى الأماكن التي توقف بها من أجل أخذ صور وجمع بعض العينات. والوادي الضيق كثير التراب الطينية. الواد

مياهه مالحة كما يدل على ذلك اسمه، وتتخلل قشرة بيضاء رقيقة جنباته، ونرى عن بعد قرية وفي الغالب أطلال، وآثارها وبقاياها هي دليل على التمرد الأول الذي اندلع منذ ست سنوات أثناء إقامتي الأولى بمراكش. السطوح الصخرية متناثرة في كل مكان وبعضها مثبت بالأخشاب، وهي عبارة عن مدافن ومحلات منحوته، كيف توجد في وسط الجرف؟ وهل هي أصول الحوانيت الفينيقية نفسها التي نجدها في صقلية وتونس والجزائر؟ ودراسة معمقة في الموضوع هي من ستوضح ذلك... وصلنا إلى قصبة "القايد" الگلاوي بعد ثمان ساعات من المشي، وجاء "القايد" شخصيا لاستقبالنا صحبة العديد من خدامه، فأدى زناگة التحية، واستلوا بنادقهم من تحت سروجهم.... وعندما اقتربت المجموعتان على بعد عشرين مترا توقفت وطرح الكل أرضا، واصطف كل فريق أمام الآخر لتبادل التحيات وتقبيل اليد [200].

تيكيرت، مدخل المدينة (جنوبا)

تيكيرت، واد إيغيغي، الجهة الشمالية للمدينة

قصبة "القايد" سيدي المدني بن المزوار "عامل" الگلاوي مجاورة لعدة قصبات (مجموعة دون غرابة وبأشكال مختلفة، وعندما تراها من الجنوب يبدو الكل واضحا. والواجهة الشمالية محاطة بسور منحدر من طين مبلل، تتخله أبراج مربعة، ونرى منه تفاصيل عصرية تبدو مفارقة تاريخية. وتوجد ببرج المدخل نوافذ حقيقية تحميها (مشرفيات).... يسكن "القايد" في منزل سفلي من ثلاث طوابق تفضي إلى رياض عرصة /حديقة داخلية محاطة بأعمدة/ سواري توجد بداخلها أجنحة للضيوف، وتتوسط الساحة نافورة ما برخام أبيض مع بعض أحواض النعناع والورود... ونوافذ منزل "القايد" مشبكة حيث كنت أرى بين الفينة والأخرى وجه امرأة غريبة وضاحكة.

****

عقد "سيد المكان" جلساته أسفل الرواق الذي يعزل مساكنه والساحة الأولى الداخلية، وعندما وصلت يقودني المقدم وجدت سيد المدني جالسا فقط فوق "حجرة". وأتي بكراسي فخمة تشريفا لي وبدأت المحادثات في العموميات، ثم انطلق الكلام بعد ذلك بكل طلاقة، وحكى لي "القايد" عن انشغاله لمغامرتي وهنأني على سلامتي، وقال:

"أما أنا فقد كنت مضطرا لنجدتك قبل أن يطلب آل بن تابية تحكيمي/ تدخلي ليس لأرضي المخزن ولكن ذلك لأنك فرنسي فقط..."[201].

وحكى لي سي المدني أنه كان قاد خلال أشهر الحركات المبعوثة ضد الروگي (بوحمارة). وأنه مر إلى وهران حيث أقام مطولا ليتعرف على الفرنسيين، ويعجب بجنودهم وسلاحهم، وقال لي للأسف "لأن ديانتكم الجديدة لم تعد تسمح لكم باستعمال هذه الأسلحة الرائعة...!"

وفي الوقت الذي كنا نتحدث مر أمامنا عدة خدام وزوار، وكلما مر أحدهم قبل يد "القايد" الذي يستمر وهو يتحدث في إعطاء الأوامر واستقبال الرسائل ويتتبعهم بنظرة عين، ويستمع للشكوى وكل هذا لا يؤثر على الفكرة التي تشغله حيث يسترجع جمله بدقة كما لو أنه لم تقطع. وها هي مجموعة من كلابه السلوقية وعددها خمس عشرة من مختلف الأشكال يقودها بربري ملتح و"قاس"، وطلب مني الشيخ إذا كنت أحب القنص وعرض علي نزهة غدا. كنت طيلة هذه الفترة التي دامت فيها محادثنا حتى وقت الغذاء، مستمتعا بملاحظة مضيفي، بفيزويونومية خاصة، بعينين عموديتين، وكفين قويين، وأنف بارز بوضوح، وفم مخيف فله شاربا زنجي غليظتان، وأسنان غير منضدة. ولحيته ضعيفة النبات وناضريه قصيرين. ويتكلم سيدي المدني بصوت منخفض وسريع لكن بطريقة واضحة ودقيقة، ويستمع بإمعان دون مقاطعة مع رغبة واضحة في الفهم الجيد.

يبدو "القايد" بسيطا لكن نظافة ملابسه، ونوعيتها تدل على "نقائه" وملابسي الرثة تثيره ويتأسف لحالي... وقال لي "القايد" إنه سيرافقني شخصيا إلى قصبة بتازرين الموجودة في شمال فج تلوات [202] والتي مررنا من أمامها عندما ذهبنا من مراكش إلى دمنات.

تيكيرت، منازل محصنة

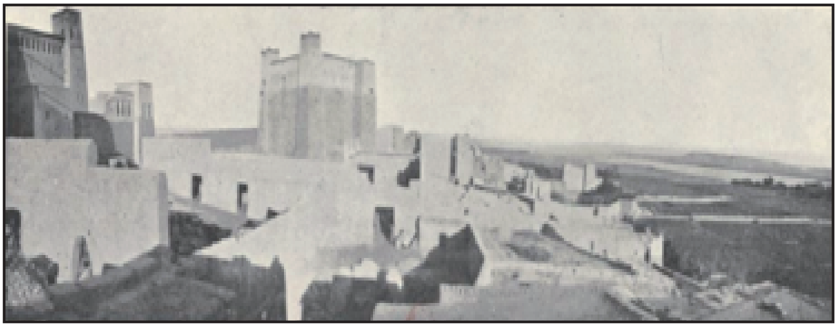

تيكيرت، يبدو الملاح في العمق ووادي واد إغيغي

23 أبريل

خرج "القايد" سي المدني حوالي الساعة العاشرة من قصبته محاطا بمجموعة من زبنائه والخدام والعبيد، وكانوا يوقفونه في كل خطوة فواحد يطلب رضاه والآخر يحكمه. وملتقيات "الطرق" مغطاة بالأتباع والنساء يلاحقون رضى سيد البلد وانطلقت الزغاريد للوداع. و"القايد" محاط دائما و"محاصر" ويصعد على رجليه إلى ضريح سيدي ويسادّون حيث تقتضي العادة أن يصلي ركعتين ثم يشرع في السير. وينتظره "الطُّلبة" الذين يتسارعون إلى تقبيل ملابسه، والفرسان الذين سيحرسونه ويجتمعون حول الضريح محدثين ضجيجا، وخيولهم تتحرك وتتزاحم فيما بينها، وبعض المشاة المسلحين ببنادقهم يصدرون صرخات الفانتازيا (التبوريد في أرضها).

ويشتغل شريف من الناصرية في هذه الأثناء بكفين مجموعين و"بقب" فوق الرأس في قراءة الفاتحة والدعاء "للقايد"، والجمهور يعقب بقوله: آمين، ثم يؤتى ببغلة جميلة بسريجة مخلفة بغطاء حريري أحمر. صعد سي المدني بهدوء فوق سريجته ثم يضع أحد العبيد زنجيا صغيرا يبلغ من العمر ثلاث سنوات أمامه إنه ابنه الأخير سي عبد المالك. الساعة تشير إلى الحادية عشرة، انطلقت القافلة ورأينا على طول الممر عدة بغال مثقلة بالأحمال تشكل موكبنا.

حكى لي المقدم أن عدد أفراد مجموعتنا خمسمائة رجل ومثلها من الحيوانات [203]، وكنا نرى عن بعد مجموعات جالسة وسط الصخور منتظرة مرور "القايد" على طول الطريق، الذي عندما يصل إلى مرتفعاتهم يأتي هؤلاء الرجال لتقبيل رجل السيد وآداء فروض الطاعة. كان "القايد" يلتقي بمختلف أنواع الناس من متسولين، ورعية يطلبون رضاه "بدعاء خاص فالكل يوقفه دون مخافة من إتعابه ولا إعيائه، وكل مرة كان سي المدني يتوقف، ويستمع بالترحاب، ويجيب بصوت منخفض، ويأخذ كتّابه معلومات في الموضوع، لا يغفل أي شيئ بل يسدي النصائح ويعطي الأوامر والنقود. ثمن الزرع في المرحلة مابين تلوات وزرقطن أكثر من ألف وخمسمائة بسيطة... وكان كل واحد يستعمل "عبقريته" وطريقته لطلب الكرم الأسطوري "للقايد". فيظهر المتسولون بؤسهم، وأزالت امرأة عجوز كل ملابسها لتبدو "حمقاء" وأتى الأطفال الصغار في المساجد بألواحهم المزوقة والمنمقة، وقدمت النساء "جبانيات" للحليب فيدخل فيها إصبعه تاركا قطعة نقدية، وهذا الاستعمال أو العادة شائع في كل الجبل، وتقديم الحليب يعد فأل خير وما قدم مقابله لا يعد أجرا بل شكرا.

امتدت قافلتنا بعظمة على منخفضات فج تلوات. واكتشفت من أعلى المرتفع الجرف الجنوبي، للمرة الأخيرة، النظرة البانورامية للسلسلة الممتدة من حوض واد فركلة إلى حوض واد سوس، وجبل صاغرو، والمنطقة الوسطى للأطلس الصغير، وزناگة، والقمم العالية المجاورة لأنزور وبعيدا جدا في الجنوب لا تمكن من الرؤية الجيدة وسط السحاب. تبدو في الأفق جبال باني والضفة الجنوبية للصحراء. واقترب مني "القايد" بعد أن جعل بغلته بالقرب مني في هذا المكان الفسيح المرتفع، وقال لي: [204]

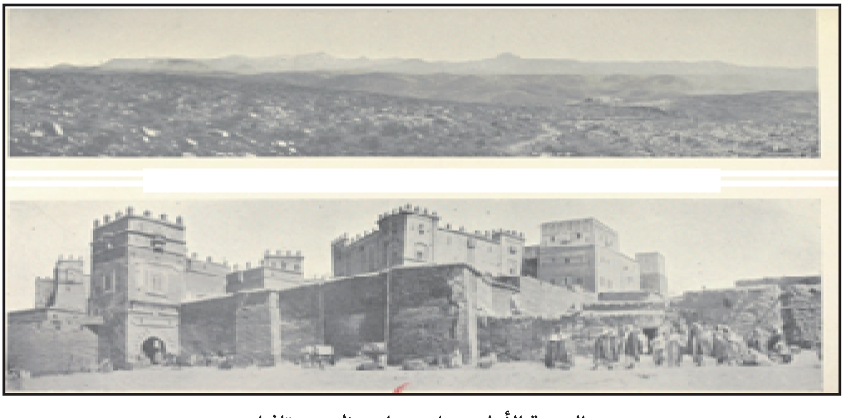

الصورة الأولى: جبل سروا، منظر من تافزا

الصورة الثانية: تلوات، قصبة القايد الگلاوي

"هذه إيالتي، فهي هادئة الآن والحمد لله."

فإلى متى سيدوم هذا الهدوء والرفاه ؟ فيجب أن تكون قويا لكي تكون سيد هذه المنطقة الثائرة والفوضوية، ولكي تكون قويا يجب أن تكون غنيا... فالجنود والأسلحة والمؤونات والخيول والبغال كلها بثمن...

وليس للمخزن منهم سوى رفع محاصيل الضرائب، وهو يطلب من "القياد" مبالغ كبيرة ولا يمكن استخلاصها أو نزعها إلا بالأساليب الوحشية. وما هي الحصيلة؟ يخضع "القياد" لرغبات المخزن فيكرههم الناس، وينهكون البلاد ولا يرحمون أحدا، لأن قبائلهم تثور في وجههم ويطردونهم أو يقتلونهم ويواجهون ظلم المخزن، ومن يريد أن يعزله أفراد قبيلته يستدعونه إلى فاس. وإذا ذهب إلى هناك يرمى في السجن، وإذا رفض الذهاب يعتبر متمردا (سايب) ويعين "قايد" آخر يكون هو من أعطى أكثر...! ويأتي على رأس محلّة ليستلم منصبه ويطرد سابقه وتكون الحرب! فمن سيخترق المخزن هل الاختلاس أو المراوغة أو الرشوة؟ وعلمت من خلال كتابه ورجال ثقة سيدي المدني بأنه يعد من هؤلاء الذين يرفضون ضغط أتباعه. ويعتبر في فاس رجلا خطيرا. فهو لا يؤدي جيدا، ورغم ذلك يتعرض لاضطرابات، وديونه كثيرة جدا ومدينه الكبير هو سيد ملاح مراكش اليهودي J. Corcas لكنه المخزن يعلم أنه من الخطأ البحث عن بديل له.

أقرض الفرنسيون المال للسلطان، وتابعوا "القايد" بأي هدف؟ هل لشراء البلد؟ فلا تبيع شيئا لا تملكه، فالسلطان لا يستطيع أن "يسمح" من طنجة... ولا يستطيع إعادة تنظيم جيشه؟ وفرض الأمان؟ وفتح البلاد أمام الصناعات والتجارة الخارجية؟ فهذه مهنة "العمال" وعلى "القياد" أن يتفاوضوا مباشرة ويساعدونا في فرض حكمنا لأن المخزن في ورطة، ولم يستعمل ملايين المسيحيين إلا في إغناء الوزراء، واشترت فرنسا المغرب بالثمن الذي قدمته! [205] وطلبت من "القايد" هل يمكن للمغرب أن يشترى؟ ففكر لحظة وأجاب بقوة:

- لا! أبدا لا يمكن للمغرب أن يحكمه مسيحي إنه شرع الله.

- لكن ماذا تقول عن مصر وتونس والجزائر؟

- المؤمن يخضع لإرادة الله، لكن من واجبه الدفاع عن أرضه المقدسة مادامت تجري في عروقه قطرة دم... فأنتم الأقوياء... وأعلم أنكم باستطاعتكم احتلال المغرب، لكن الله شغلكم عن هذا، وتقولون إنكم ستنشرون الخير والنظام والأمان أكثر من التجارة معنا وبناء الموانئ، والطرق، والسكك الحديدية... كل المسلمين ذوو النيات الحسنة والأذكياء يساعدونكم وأنا أولهم، لكن كيف أن نثق فيكم بعدما شاهدناه في بلاد الإسلام التي دخلتموها بعنف وبهدوء؟

- ماذا فعلنا إذن سيد المدني؟ لقد حولنا أرضها الجافة إلى أراضي خصبة. والمناطق الفقيرة إلى بلاد غنية وقطاع الطرق إلى فلاحين شرفاء!

- ليس للأرض سوى سيد واحد: هو من يأخذها من الأجداد، وكان المسلمون يملكون أفريقيا والله من أعطاهم إياها، وكانوا أحرارا واستمتعوا بها كما يشاؤون... وأنتم من طردهم منها ثم لماذا نناقش بحدة فكل شيء مكتوب. ويتفق جميع المسلمين المتنورين على هذه الخلاصة، ثم أخذ "القايد" من جديد سبحته واستأنف الطريق.

ونقلت بقدر ما استطعت من الأمانة أدلة/ حجج رجل ذكي وجدي. عاد سي المدني إلى هذا الموضوع عدة مرات الذي يبدو أنه يشغله ليؤكد أنه إذا كنا نفكر في المغرب، فإنه لا يكفي السلطان وحده أو المخزن، الذي يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار بل البلاد برمتها وكذلك قبول مشورتنا "القيام" من أجل تنظيم إدارة البلاد.

كانت نهاية المرحلة رتيبة، وكانت طريقنا تصعد وتنزل وسط الصخور الشستية والصلصالية الحمراء وسط منطقة جرداء غير خصبة [206].

تلوات، انطلاق القايد مع ابنه الأخير

تلوات، باب القبة : القايد والفقيه والخدم

وزرقطن التي ننام بها حصن من الحجر مثبت على ضفاف مجرى ماء جارف. وكان مائة رجل يتخذون تدابير أخرى. فتكدسنا بها نحن الخمسمائة ! وكم هو رائع رؤية تجمع القافلة في هذا المضيق للأطلس. وكان هناك ستون كانونا على طول الوادي، واستمرت الأغاني والأهازيج إلى حدود الفجر دليلا على الحرص واليقظة وضمان الراحة للسيد.

24 أبريل

الطريق بين زرقطن وتازارت طويلة، وجبل مسيوة يعلو كتلة الأطلس الصعبة. وترى عن بعد الفج الهضبة البيضاء لزمران الذي نزلنا منه وبواد غدات الصعب.

توقفنا لتناول الغذاء بقرية أغبالو بمنزل سيد التهامي الأخ الأصغر "للقايد"، وسيد التهامي الذي سبق أن عرفته رجل في الخامسة والعشرين من عمره، شديد سواد البشرة، لكن ملامح وجهه رقيقة وذكية، وعاد من محلّته التي قام بها ضد السراغنة، داعما بذلك "القايد" بلمودن الذي حاصره أتباعه بقلعته خلال مرورنا. ويقود سيد التهامي حاليا مسيوة الذين اجتمع شيوخهم حولنا بأغبالو، ويستعدون الآن للتشتت والتفرع من أجل الرجوع إلى منازلهم، ويتحدث "القايد" معهم بتعليمات صارمة لا يقبل بها أي نقاش، وعندما ابتعدوا عن الأنظار قال فقيه سيد المدني:

- سيسمع البارود هنا قبل أن تنضج المحاصيل.

دخل مسيوة والسراغنة والرحامنة ثلاثة أشهر بعد ذلك في تمردات "السيبة". تحركنا في الهضبة ليلا، وشكل حرس گوم من زمران حماية لنا في الطريق التي نمر منها، ونزل "قيادهم" أرضا وأتوا لتحية جارهم القوي، وقدموا له تقارير بكلمات مختصرة، ويختلف عنهم واحد حيث نهض من وسطهم وعينوه حكما بينهم [207]. وهذا المختلف عنهم سيصفي بطريقة مأساوية في الليلة الموالية، حيث ذبح "القايد" بن كبور معارضه، واثنان من أبنائه الذين جاؤوا يطلبون ضيافته، واتهمهم بأنهم يريدون التخلص منه.

اجتمع أتباع سيدي المدني أمام سيدهم، وتعالت هتافات الترحيب بالتبوريدا في الظلام الدامس، النساء المعروفات بحيوكهن البيضاء تجري وتصرخ وسط الفرسان. فجأة توقف الموكب وعلقت عجوز تبكي بذيل بغلة "القايد" طالبة العدل، بعد أن سُرق منها ابنها وسط الزحام! والسارق هو فارس من زمران تعرفت عليه وقالت أن له متعاونين اثنين...

أعطى القايد أمرا مختصرا ردده وراءه المقدم بسرعة، وفي ظرف وجيز جدا انطلق الحرس، وتوقفت الأهازيج، وتوقفت التبوريدا، وبقينا لوحدنا في الليل "القايد" وكاتبه وأنا. عاد الحراس بسرعة بعد مرور خمس عشرة دقيقة فوق خيولهم مصحوبين بجماعة من فرسان زمران باعتبارهم مسؤولين، ثم دخلنا بعد ذلك قصبة تازارت.

جاء زعماء زمران بالمتهمين لحظة بعد ذلك عندما كنا نتناول وجبة العشاء في شرفات القصبة المفروشة بالحصائر والزرابي، وتأجل الاستنطاق إلى بعد غد، وطلب مني سيد المدني الحضور وقال لي بأن خطف الأطفال والنساء كان أمرا قبيحا جدا عند المغاربة، والحالة الأكثر شيوعا هي التي حضرتها وهي اختطاف فتاة تبلغ من العمر ما بين عشر إلى خمس عشرة سنة اغتصبها اللصوص، وباعوها لقبيلة مجاورة. وهذه الجرائم تثير حفيظة "القايد" الذي يعرف بهدوئه وعدله ورأيت كيف أنه قتل بيديه زنجيا سرق بنت أحد خدامه [208].

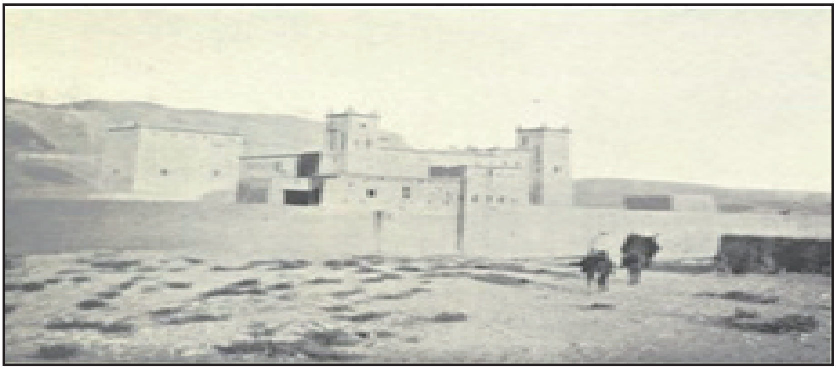

تامدارت، ممر الگلاوي، ومنزل القايد

تلوات، منزل القايد، والرياض والحدائق الداخلية

"القايد" مستيقظ منذ الفجر، صلى وتناول الفطور ثم جيء بالسجناء، وجلسوا على ركبهم حول سي المدني، وكان خلفهم ستة زنوج أقوياء. بدأ التحقيق وحاول الزمرانيون الإنكار، لكن الشهود أكدوا ضلوعهم في الجريمة، وحاول السجناء تغيير التكتيك، وقال كبيرهم:

- سيدي إنه انتقام

ولم يكد ينهي كلمته حتى رفع "القايد" يده، فلكم الزنوج الرجال الثلاثة، وطرحوهم أرضا وأخرجوهم لساحة الإعدام. أعطى "القايد" أوامره بجلد أتباعه بعدد الجلدات المفضية للقتل، وإذا عاشوا بعد ذلك سيقيدون بالسلاسل ويسجنون مدى الحياة. ابتدأ التوسل، فرمي بالسجين أرضا ملقى على بطنه وأزيلت ملابسه، وأخذ زنجيان رجليه، وآخران يديه وتناوب عليه الجلادون بضربات قوية، وسال منه الدم منذ الجلدة العاشرة، والسجين يصرخ ويتوسل إلى أن فقد الوعي... وتوقف التوسل، فصب عليه الماء البارد فوق رأسه، وبمجرد ما يستعيد وعيه يعاد ضربه. إنه مشهد مخيف لكنه يبعث على استخلاص العبر، فأمام هول الجريمة كل رحمة تختفي، فالكل يتفهم صرامة "القايد" ويتقاسمها.

وأنهى حادث مضحك هذا التنفيذ للعقوبة، فقد شاهد "القايد" من الشرفة التي تتابع منه المشهد أحد الزنوج أخذ أحذية /بلاغي أحد الضحايا، فهمس بكلمة إلى مقدمه، وعندما هم الزنجي بالقيام بالجلدة الأخيرة لرجلي الزمراني الثالث الداميتين ارتمى الزنجي السارق أرضا منتظرا العقوبة [209] وساعة بعد ذلك رأيت زنوجا يجرون خاطفي الطفل البؤساء، وهم فاقدي الوعي إلى الحداد الذي سيضع سلاسلهم/ أغلالهم. وهنا تنتهي مذكرة سفري إلى تازارت.

توسل ثلاثة لصوص أطفال، اثنان منهما أغمي عليهما كما يظهر ذلك يسارا

توقف التوسل بفقدان أحدهم الوعي و"العبد" يصب على رأسه الماء البارد

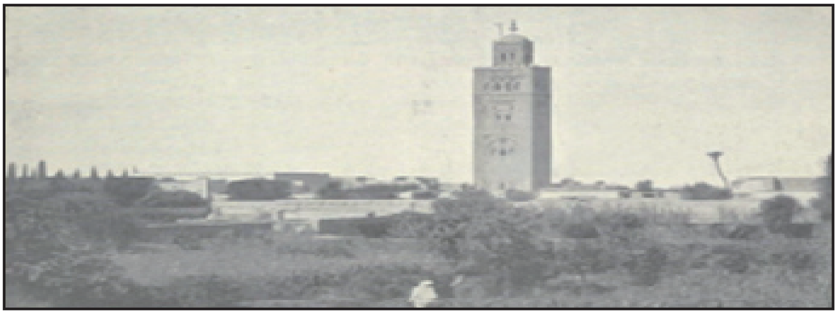

مراكش، الكتبية

الفصل السابع

خاتمة

دخلت مراكش يومين بعد ذلك حيث كان ينتظرني مساعدي بوليفة. لم تبد لي عاصمة يعقوب المنصور أكثر جمالا قط من هذه المرحلة الأخيرة من العودة، فصومعة الكتبية بدت لي من بعيد مثل منار مغروس في أقصى ضفة العالم المتحضر، واستقبلني مولاي حفيظ الأخ الثاني، والمميز عند السلطان مولاي عبد العزيز استقبالا حارا. طغت المجاملات على لقائنا الأول، وعبرت له بما أمكنني من عبارات الشكر على ما بذله من مجهودات من أجل إطلاق سراحي. فرح بذلك وقال لي بأن الله أراد أن يعطي هذه المناسبة لفرنسا شهادة اعتراف بالرغم منه لإرادته. وعندما تناولنا -وبشكل وافر- كؤوس الشاي المنسمة بالنعناع، طلبت من الخليفة عطلة، وكان من الواضح أنه يحتفظ لنفسه برأي قبلي عني، وكانت جمله "الحارة" يطغى عليها الشك، ويبدو أنه لازالت عنده بعض الجمل ليقولها ويبحث عن طريقة للتخلص لذلك، وفي الوقت الذي نهضت فيه، قال بصوت منخفض متوجها إلى بوليفة والي [211]:

هل باستطاعتكما -بحكم صفتكما- أن تعقدا لي محادثات مع الحكومة الفرنسية؟

أكدت له أنني أستطيع ذلك بدون طريقة رسمية، ومن الأحسن أن يكتب لي رسالة في الموضوع أقدمها للوزير.

جئت في اليوم الموالي كما اتفقنا وأخذت رسالته، لكن الخليفة ألح على أن لهذا الأمر أهمية مركزية بالنسبة إليه، فوضعه، ووضعيته بمراكش أصبحا مستحيلين، فلم يعد له لا مال، ولا جنود، ولا حظوة، ولا سلطة، ولا مصداقية، ولقب الخليفة ليس سوى لقب تشريفي، فهو متحدّ أخاه السلطان الذي ينزعج لأقل التحركات. وعداوته "للقياد" الكبار للجنوب، وقلقه من استغلالهم، جعلاه يعيش في بؤس محاطا بالجواسيس والأعداء. فهل تستطيع فرنسا حمايته...؟ أو ليست هذه وقائع متشابهة مثل ما فعلته في حماية شرفاء وزان؟

كان الوقت متأخرا لتتم هذه المحادثات في سرية، وكان المخازنية يتحركون حولنا ويتدخلون في هذا الحوار الغريب، وكانوا يتنصتون علينا. وفي اليوم الموالي أرسل الخليفة مضمون هذا اللقاء، وتقرر أن تحرر هذه الرسالة وأن نحملها إلى الدولة الفرنسية. وهكذاطرقت أنا وبوليفة بعد العصر باب دار المخزن، وكان انتظارنا طويلا.... فالمغرب مدرسة للصبر. عندما أُدخلنا أخيرا كانت مفاجأتنا كبيرة عندما وجدنا الخليفة محاطا بأوروبيين! ويرتديان معا لباسا مغربيا ويتحدثان العربية، والفرنسية بطلاقة، كان أحدهما إيطاليا، والآخر يدّعي أنه ألماني يعجبه أن يُدعى بالدكتور هولزمان Holzman. استبقت الأحداث لأتعرف عن حقيقة هذا الشخص الكاذب المتقمص، فهو لم يكن لا دكتورا ولا ألمانيا، ولكن يهوديا سوريا. وهو تلميذ رِبّي مطرود من أتباعه إخوته في الدين، وكان [212] يبحث في كل المغرب عن القضايا الرابحة، وهو الآن يستغل مولاي حفيظ الذي يحتقره لكنه يوظفه لمختلف الأغراض. علما أن هولزمان دخل البارحة من رحلة إلى أوروبا، وجاء لمولاي حفيظ بالأشياء التي أوصى بها مع بعض الهدايا، عبارة عن مسدس ألماني من نوع ب رونينگ Browning ومنظار متطور. لكن أهم خبر جلبه له هو أن "الإمبراطور" الألماني قد رست سفينته مؤخرا بطنجة!

فهذه الرجلة غير المنتظرة، لم تكن رحلة سياحية بقدر ماهي رحلة تشريفية للسلطان مبرمج لها قصدا منذ مدة. فقد جاء گيوم الثاني "صديق" المسلمين ليقدم الدعم للمغاربة كما فعل مع الأتراك، ويريد أن يصلح بين العالمين الإسلاميين الغربي والشرقي، ويحلم أن يصل عبر الصحراء إلى روابط الأخوة التي قطعتها فرنسا في الجزائر، وأنجلترا في مصر.!

كان مولاي حفيظ يستمع لهذه الرواية وهو يحرك حبات سبحته. يبدو أن حيرته كانت كبيرة جدا، وعندما نصمت ينغلق في صمته، وتركنا نذهب دون أن يحيل على أسرار البارحة.

تازرت، قصبة القايد الگلاوي

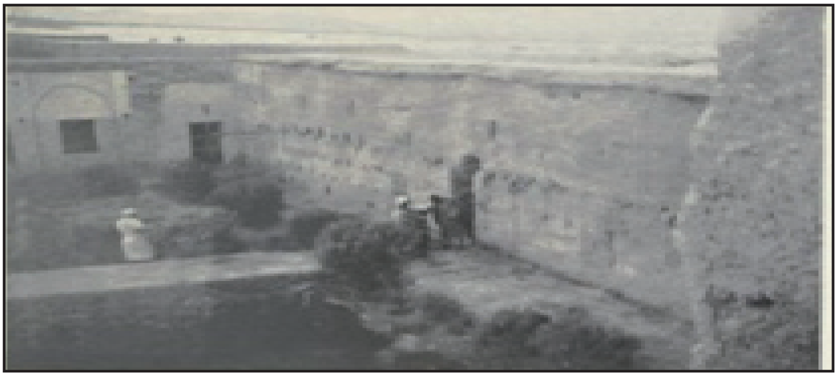

تازرت، الساحة الداخلية وسجن داخلي يتوسل منه أحدهم

****

عندما علم مولاي حفيظ بعد ذلك بكثير، باتفاق الجزيرة الخضراء، فهم "تفاهة" متمنياته، رجع هذا المساء إلى مشاريعه الأولى، ومن أجل إرضائه بالرغبات التي أعرب عنها، فتحت الحكومة الفرنسية مستوصفا بمراكش، وعهدنا بأمر إدارته للدكتور موشان، وهو طبيب صغير السن كان يدير بنجاح مستوصف القدس. كان يحلم منذ مدة طويلة بإنجاز [213] دراسات طبية بالمغرب، وهيأ أعماله سابقا بطريقة رائعة، وكان يعرف العربية، وله صفة هدوء الباحثين، وكان متسامحا حقيقة

مع المسلمين. جذبه فضول عجيب لهذا البلد الغريب، حيث يمكن للطب أن يكون مجالا هاما للتحرك وحيث يمكن أن يكون جهد الطبيب "المبعوث" مثمرا أكثر. كان أثناء تنظيم مهمته الأخيرة، أحد الأوائل الذين تقدموا لمساعدتي، ولم يكن صعبا علي أن يصاحبني طبيب، لكن اللجنة المغربية قد حصرت هذه الرغبة في المهمة الأولى التي تقتضي أن يعمل على خلق مستوصف فرنسي بمراكش.

نجح موشان خارج كل التوقعات، واستطاع خلال بضعة أشهر أن يكسب ثقة مولاي حفيظ وأن يكسب أيضا "زبناء"، وكان الفقراء والمرضى يقصدونه من كل الأنحاء، دون أن يتعب من ذلك أبدا، ولم يكن له سوى عدوين هما باشا مراكش وهولزمان. ومرد ذلك إلى كره الباشا للأجانب والمسيحيين، وحقده أيضا على الخليفة الذي يضايقه بأنفته. أما هولزمان فمرد عدائه الغيرة وخاصة الحقد، لأن الأقدار شاءت أن يتعرف موشان على هولزمان بسوريا واستطاع أن يقف على ادعاءاته وكذبه.

رجع مساعدو لويس جانتي من فرنسا إلى المغرب في مارس 1907. واستقر بمراكش ليتمكن من مسح الأطلس ومتابعة أبحاثه الجيولوجية. كان يوظف الوقت الذي بقي عن استعداداته للسفر للبحث عن تصميم مراكش وضواحيها، ولكي يسهل موشان أعماله أو يضع له نقطة تعرف هيأ شرفة مستوصفه، لكن المجرمين الذين هيجوا السكان اعتبروا ذلك العمل مخصصا للتلغراف بدون خيط وأن ذلك مؤشر على الاستعمار الفرنسي. واغتيل موشان يوم 19 مارس في باب مستوصفه الذي لم يتوقف على أن يعطي بسخاء خزائن علمه ونباهته وموهبته[214].

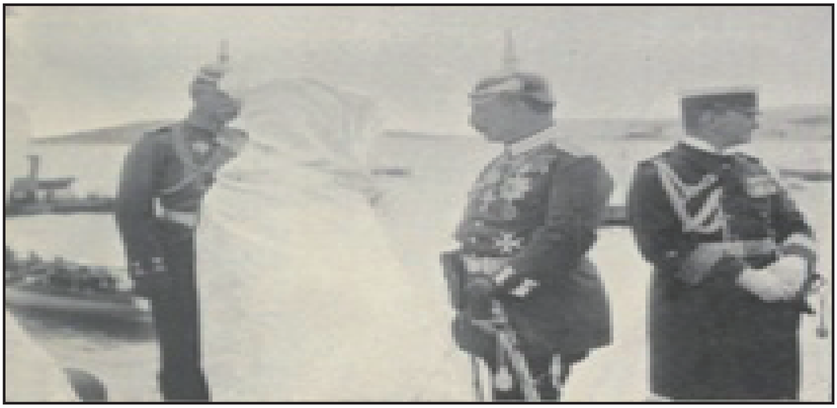

زيارة إمبراطور ألمانيا إلى طنجة سنة 1905 وهو يتحدث مع سي الطريس

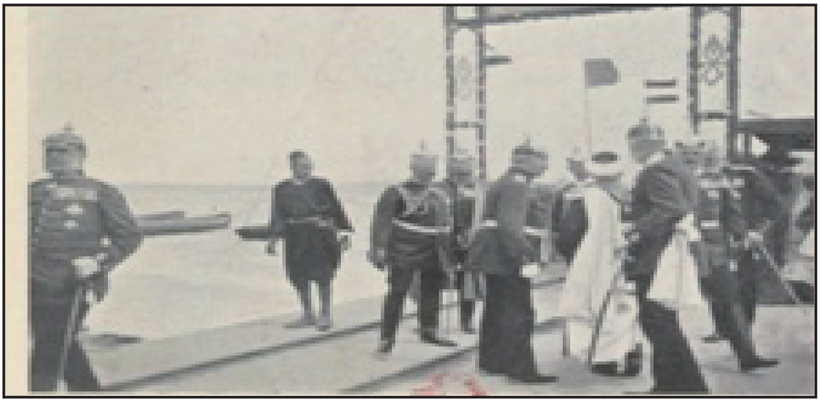

زيارة إمبراطور ألمانيا إلى طنجة سنة 1905 والقايد ما لان وسط الحرس الرسمي

ما الدور الذي كان لمولاي حفيظ في هذه المأساة؟ فبدون شك لا يمكن أن نعرفه أبدا، وكان تصرفه في الوهلة الأولى رائعا، وانتشل من وسط جنوده الجثة التي كانت تجر، وكان يحمي الأوروبيين القلائل الساكنين بمراكش، ومكنهم من حراس من أجل أن يغادروا، لكن المكيافيلية الشرسة للسلطان وضعت جدية الخليفة موضع شك، فالبعض يقول إن قتل موشان كان متعمدا، وأنه مؤشر من أهل الجنوب ضد مولاي عبد العزيز صديق الأوروبيين فليعذروني عن هذ الاستطراد الذي لم أبحث فيه سوى عن تحية بطولة صديقي الدكتور موشان.

****

رأيت مولاي حفيظ مرة أخرى في السنة الموالية في ظروف صعبة، وكان ذلك بعد الأحداث الدامية للدار البيضاء، والتحقت في الرباط بالسفارة الفرنسية بسرعة بدعوة من مولاي عبد العزيز، وعمل وزيرنا السيد رونو M. Regnanlt والجنرال ليوطي Lyautey على تهدئة الأمور وتنظيم مالية السلطان وجنوده في الوقت الذي كان فيه جيشنا يرسو ويستقر بضواحي الدار البيضاء، تحت رصاصات الشاوية، وشاع أن مولاي حفيظ بويع سلطانا بمراكش وأنه هيأ جيشا، وأنه سيأتي إلى دعم أخيه وأنه سيرمي الفرنسيين في البحر... فهل من الممكن أن يستطيع صديقي القديم والخليفة الشاعر أن يقوم بذلك؟ فما هي نواياه؟ وإمكانياته؟ ومن هم حلفاؤه؟

أولا يمكن أن يستمع لصوت الحكمة وأن يحمل على الصلح بين الأخوة الأعداء؟ فكرت بعد إذن وزير فرنسا، وتشجيع مولاي عبد العزيز أن أذهب إلى مولاي حفيظ نفسه وأن أطرح عليه هذه الأسئلة الكبيرة. وهذا هو السبب الذي جعلني شهرا بعد ذلك أكون في جانب المطالب بالعرش وسط الحركة "الأسطورية" الذي ذهبت لفتح الإمبراطورية الشريفة[215]. وأنقل هنا صفحات يوميات الطريق التي تتحدث عن لقاءاتي ومحادثاتي مع مولاي حفيظ وصدره الأعظم الأول "القايد" الكلاوي.

****

بوعكاز، معسكر مولاي حفيظ

28 نونبر 1907

خرج مولاي حفيظ -على الرغم من التكهنات وكثرة الثرثرة بل والتخمين -والسلطان بن دراحو / دراهو كما يقال أيضا مرغما من مراكش، ولم يكن له كما يقال لا غنى، ولا مال، ولا سلاح، ولا جنود، ورغم ذلك كانت معه في معسكره حوالي خمسمائة خيمة، تتحرك على بعد ثلاثة كلمترات من المدينة مثل خلية نحل، قدرت عددها في النظرة الأولى بستة الآف رجل للحركة الحفيظية، وكان من المقرر أن تتضاعف بدعم قبائل الحوز لكنها قد تنقسم إلى النصف إذا لم يؤد لها الأجر. وكانت المؤونة/المونة ضعيفة، فما هي القيمة العسكرية لهذا الحشد من البشر؟ المستقبل هو من سيجيبنا.

لكني لاحظت من خلال عشر سنوات التي قضيتها متجولا في "الامبراطورية" الشريفة أن هذه أضعف حركة وأهزلها رأيتها. حرص السلطان الجديد خصوصا أن يحيط جلالته بالمظاهر التقليدية، ومعسكره مشابه تماما لمعسكر أخيه، وكذلك "الفراگ" وجوانبه موضوع على قياس ذلك الموجود في الرباط، مع موسيقى غريبة معزوفة بإيقاع قوي، ويبدو أن نفحة حماسية تدب في هذا الجيش الصغير، ولا يبدو أن الأمر سوى تهييج للمرحلة الأولى، والفرح بالحصول هذا المساء على أول أجر من خمس رصاصات لكل جندي... وكان المتشائمون الذين [216] يوجدون بكثرة في هذه المجموعة الحربية يقولون: إن الخزينة فارغة، وأن الذخيرة نفذت. ورغم ذلك يبدو مولاي حفيظ كما لو أنه يتحرك فوق الذهب.

وكم هي الأساطير عديدة حول "قطع النقود" الإسبانية هاته التي يعود أحدثها إلى قرن والتي تنتشر حاليا بأسواق مراكش! تتحدث الرواية الرسمية على أن مولاي حفيظ قد فتح خزينة الجهاد التي جمعها جده مولاي عبد الله للمسلمين. وتوجد زنجية عجوز بالقصر هي الوحيدة التي تعرف سر هذا الكنز الذي كشفته للسلطان الذي أصبح فجأة مالكا لأربعة وعشرين مليون بسيطة، وحسب رواية أخرى أقل "جمالا" لكن أقرب إلى الحقيقة هو أن مولاي حفيظ وضع يده على كنز في منتصف القرن الماضي بواسطة تاجر من مراكش يسمى العربي بن أعراب الذي هدم البناؤون منزله ووجدوا أكياسا ملآى بالقطع النقدية وكان السلطان يريد أن يتخلص منه وذلك ما كان. مكن هذا الذهب، السلطان الشاب من رفه معتبر، وتداول الناس "الدمالج" من يد إلى يد بل وصلت إلى المناطق الجبلية النائية وإلى الصحراء أيضا من أجل تجنيد الأتباع وجمع الجنود. فما الذي بقي من أجل إيصال هذا الحشد إلى هدفه؟ هذا سر لا يعلمه إلا الله.

يبدو أن هذا الهدف يجهله الكل، فالبعض يقول إننا نتحرك ضد أنفلوس، والآخرون يقولون إننا نتجه نحو عمالة الشاوية ضد مولاي عبد العزيز أو ضد مازگان. تشكلت هذه التجريدة من قبائل الحوز كما أنها كانت تؤدي إسهامات من أمناء مبعوثين رفقة جنود، فقبيلة آيت إمور التي قضيت الليلة عندها البارحة مساء قد أدت مائة ألف بسيطة وأعطت كميات هامة من المؤن والأعلاف.

الانطباع الأول الذي تأخذه في أول اتصال مع الحركة الحفيظية سيء، فأنت أمام عسكر أكثر صبيانية، يبدو معسكره مثل لعبة وسط هذا الفضاء الواسع لمراكش محاطا بالهضاب الوردية للجبيلات [217] والأطلس التيتاني المبيض بقممه الثلجية وبين النخيل الأسود حيث تنتصب الكتبية في نهاية هذا المشهد حيث تشع الشمس في سماء ذهبية. يسحق هذا المنظر دون شك عسكر مولاي حفيظ، لكن يلائم الحلم البطولي لهذا الشاب الذي سينطلق اليوم من أجل فتح امبراطورية!؟

29 نونبر

استفقنا على دوي طلقة مدفع مصحوبة بسرعة بإيقاعات موسيقية شريفية. يبدو أن الفرقة الموسيقية الغريبة قد تقلصت صبيحة هذا اليوم إلى ثلاثة أفراد فقط مكونة من "مؤلف" موسيقي/ ملحن، وعازف ناي نحاسي، والطبل الكبير، وهناك إشاعة كبيرة تروج في المعسكر، فالحيوانات تشرب الماء، والجنود يغنون أو يصرخون، وأهل الضواحي يأتون بالمؤونة، والضوضاء الموسيقية المختلفة الأنغام تسع المعسكر بين الانجليزية والفرنسية، الجو مكهرب. يبدو أن غدا سيكون صعبا لكن لا أحد فكر في الموضوع هنا.

شرفني الشيخ شريف تامصلوحت بأن أتناول الغذاء في خيمته، ثم دخل بعد ذلك إلى زاويته، كان هذا الحكيم ينظر من بعد وفي مكان أعلى الأحداث الواقعة، فزاويته مشهورة وغنية، ولا تؤدي الضرائب لأحد ولا تتبع سوى إلى الله، فالشيخ الوقور أراد الصلح ومصالحة الأخوة الأعداء وأن يأخذ كل واحد منهم نصف المغرب الأول يحكم الشمال إلى حدود واد أم الربيع والآخر الجنوب من أم الربيع إلى الصحراء، وعزز رأيه بكون آخر المرينيين كانوا قد اقتسموا المغرب مع أول "السعديين"[1]، رفضت فكرته وقلت بأنني لن أستطيع نقلها إلى مولاي حفيظ، وعند الزوال جاء الخبر بأننا لا نستطيع التحرك، ومغادرة مراكش صعبة والأمتعة ليست كلها مجموعة وبعض الفرق العسكرية/ الفيالق لم ينادى عنها بعد.

1- وليس الموحدين كما ورد في النص الأصلي.

السفير الفرنسي بالرباط، من اليسار إلى اليمين: السيد رونو، والجنرال ليوطي، والأميرال فيليبي، والقبطان دو فيسو،....

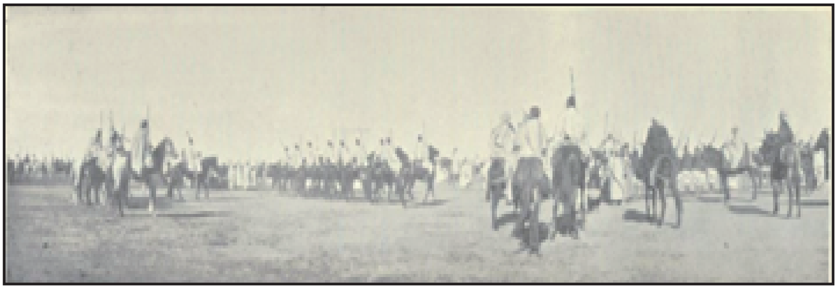

خيالة السلطان مولاي عبد العزيز

[218] طلب مني وزير الحرب الذي يحمل في المغرب اسم: "العلاّف" أن آتي لزيارته في الساعة الثالثة، كانت خيامه تشغل كل وسط المعسكر بالإضافة إلى العديد من أتباعه، وكتابه، وحراسه الذين يحرسون المدخل. وبمجرد أن رآني سيد المدني و"القايد" الگلاوي حتى تفرقت الجماعة المحيطة به، وأخذني نحو خيمة وأعطاني كرسيا مريحا وأغذق علي عبارات المجاملة بلغة عربية فصيحة وغنية. مرت سنتان دون أن نلتقي، ووعدني "القايد" أن أنقل تصريحاته بأمانة وأن ألخصها مع احترام الترتيب حسب ما أسعفتني به الذاكرة وقال لي:

- خرجنا من مراكش لقضاء بعض الأغراض، لم يعد عندنا وقت للكلام، وجاء وقت البارود وكان يلومنا عن تخاذلنا واعتُبر ذلك ترددا أو ضعفا، والواقع أن الأمر لم يعد أن يكون تأنيا، وأردنا أن تبقى القوات الأوربية محايدة دائما، وتكتفي بمشاهدة صراعنا وهذا لم نعد ننتظره ودعمنا مولاي عبد العزيز حيث نقلنا فرقه وأقرضناه النقود! ويمكنكم القول إن من حقه استعمال مراكبكم من أجل نقل محلاّته وأن يبعث إلى أنفلوس أحد معلميه الذي ستضعونه تحت إشارته، ونعلم أن كل هذا سيكون بدعمكم ومشورتكم، فنحن لسنا أطفالا، وسنؤكد أو نبرهن لكم بأننا رجال".

"فلم تأتوا مُرحّبا بكم أنت وباقي الفرنسيين لتناقشوا معنا حق القيام بالثورة، وكان النظام في المغرب ضعيفا، وأنتم كنتم تعيشون معنا، وكانت الفوضى في كل مكان، وكانت هناك الحوادث والاقتتالات التي تتطلب تدخلكم الشرعي لكنها سببت لنا نحن مذلة وسوء تفاهم خطيرين".

"قررنا أن نزيح سبب الشر، ونريد إعادة النظام والأمان وأن نفتح البلاد لكل العالم، وأن يعمه التسامح والتطور، والشيء الغريب [219] أنكم أنتم من يعرقل تحركنا! فأنتم من يدافع عن الفوضى واللانظام! نتوسل إليكم من جديد باسم النظام وباسم علاقات الصداقة التي تجمعنا بفرنسا أن تطلبوا من الأوربيين أن لا يتدخلوا فيما نقوم به. فلن نذهب إلى الجهاد، وسنحترم من سيبقون محايدين، ولا نريد بأي حال من الأحوال أن نتسبب في مجزرة ثانية مثل ما وقع في الدار البيضاء!".

تم هذا اللقاء أمام عشرات الأشخاص كان من ضمنهم القاضي الأكبر مولاي مصطفى، والشرفاء، و"القياد". ووعدت "القايد" أن أنقل حججه بأمانة، لكن "القايد" الگلاوي طلب مني أن أنقل الكلام أولا لمولاي حفيظ الذي سيستقبلني على الساعة الخامسة. فدخل مخزني إلى خيمتي وأخبرني بأن السلطان ينتظرني، ثم قادني إلى خيمة خضراء، وجلس صاحب الجلالة الشريفة عندما دخلت خيمته فوق طنفساء عريضة من الحديد بأرجل من العاج وجلس فوقه وساقيه متراكبتين على الطريقة العربية مزينة بثوب متناسق مع لون القفطان الذي يلبسه. والوجه الجميل للملك الصغير "ناصع" جدا بلحية قصيرة مقصوصة بعناية، وتقاسيم وجهه جميلة تحيل على أنه من النبلاء، يتزين في يده اليمنى بزمردة جميلة، وكان وزير الحرس سيدي المدني يجلس أرضا مقابل السلطان وجلست بجانبه وحولنا دائرة من المخازنية على مسافة معقولة. وكانت هناك عشر رشاشات مجموعة بعناية في جراب جلدي أحمر، وكانت هناك أيضا أربعة مدافع صغيرة بعجلاتها مصففة أمامي، وينتصب الأطلس في العمق بشموخ وروعة. توقفت المجاملات الأولية بيننا بصوت مدفع صلاة المغرب، تم تلته بسرعة [220] أصوات مزامير، ودقات طبول، وأعطانا السلطان الإشارة بالتوقف عن الكلام. إلى أن ينتهي هذا الصخب، وبقي طيلة خمس دقائق جامدا في مكانه شاملا حلمه الداخلي.

مولاي حفيظ المطالب بالحكم 1906

وكنت استمتع بالنظر إليه وكنت استحضر بطبيعة الحال صورة أخيه مولاي عبد العزيز الذي كنت معه في الوضعية نفسها في أقل من شهر، فهذا أكثر وقارا والآخر وداعة، ويبدو مولاي حفيظ رجلا، ومولاي عبد العزيز شابا. ذكرتني هذه المشاهد بقول مأثور، تنسب إلى "القايد" الگندافي وهي:

- "إذا لم يلد أبوهما سوى أحد أطفاله فسيكون ذلك رائعا".

لكن الإيقاعات الموسيقية توقفت، وعم الصمت المطبق، ثم نزل مولاي حفيظ متجها حولنا، وبدأت المحادثات، وتحدث السلطان بصوت فيه انسجام وحيوية:

"أبلغني سي المدني بموضوع محادثاتكم، وكل ما جاء فيها صحيح، وأنت تعطيني الفرصة لإسماع رأينا وأنا مسرور بذلك، فمعارضتنا صحيحة، ونحن نطلب أن نصفي خصومنا بشكل حر دون أن تتدخل فرنسا وتشجع أعداءنا، فهم يتهموننا بكوني سلطان جهاد، فقل لهم هذا ليس صحيحا، فلا أحد من جنوده يعلم أننا نتجه به ضد عبد العزيز، فقط إذا توقف الجهاد سيكون وهذا أمر ممكن ! ولا يبقى عليكم سوى أن تصرحوا به، وتزعم أن رجال مولاي رشيد قد هاجموا الجنرال درود Drude بالدار البيضاء. وهذه ليست سوى حالات معزولة، بل بالعكس من ذلك فإن كل مجهوداتنا اتجهت لاحتواء الشاوية، لكن الشي الذي أربك حسابتنا هو إركاب جنود عبد العزيز في مازگان، أعداؤنا، في سفن فرنسية".

سأنطلق غدا إلى مازگان لمحاربة "فيالق" أخي، فماذا علي فعله؟ فسأعمل أن أتفادى ما أمكن الإساءة للأوربيين، وأريد أن لا تكون لهم أي تخوفات، فكيف سأصل إلى ذلك؟ ستقول لي إن عليكم لي في هذه الحالات أن تعطوا تصريحا رسميا، سأقوم به لكن [221] من أجل دعم تصريحي، فإنني سأكتبه، وستحمل رسالتي إلى قنصل مازگان. وستؤكدون له أن هدفنا فقط هو محاربة أخي، وهذا منطقي، وأريد من أجل الإشهاد على رغبتي في احترام بل وحماية الأوربيين أن أحذرهم يوم المواجهة، فسيأتون إلى معسكري تحت خيمتي الخاصة وأنه لن أتسامح مع أي نهب في حقهم، وعندما تنتهي المواجهة سيعم النظام وتستعاد الثقة".

حل الليل أثناء هذا الحديث -الذي طال لأنني كنت أقوم ببعض الاعترافات والمجاملات-، وأتى أحد الخدام لسوء الحظ ببطء بفانوس مغربي كبير وكان فعلا مشهد غريبا من تحت ضوء شمعة حيث يعبر هذا السلطان الجديد عن إرادته ويعد مراحل نجاحه في ملحمته.

30 نونبر

استمرت الاحتفالات الموسيقية والحربية مثل البارحة صباحا، وهبت رياح شمالية قوية تضرب بقوة جوانب الخيام محدثة ضجة كبيرة، وبدأت قطرات المطر تنزل فوق غطاء الخيمة. كان الطقس باردا ويبدو المعسكر كئيبا ولا زلت أحتفظ في أذني بصوت مولاي حفيظ يقول لي بصوت رنان: سأنطلق غدا إلى مازگان من أجل محاربة "فيالق" أخي... ! يبدو أن الغد لم يشرق بعد، لأن لا

أحد من خدام السلطان جاء يطلب مني أن أوقف انطلاقتي، فجلالته يريد أن يحدثني من جديد عن نواياه، وطلب مني أن أكون ضيفه لبعض الأيام، ومادام أنني أبديت رغبة في الذهاب إلى مراكش فقد أعطى أمره للباشا أن يضع [222] منزل المدينة رهن إشارتي، وليس لدي أي اعتراض على هذه

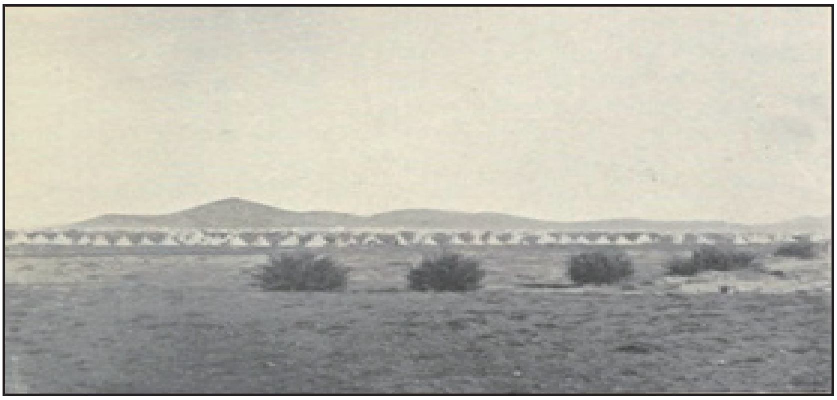

معسكر مولاي حفيظ بزاوية بن ساسي

الرحالة أحمد بن مجاد في الحوز (مراكش). . .. مولاي حفيظ (1905)

الضيافة والدعوة الكريمة. وأصبحت مقتنعا الآن أكثر من أي وقت مضى بعدم جدوى محاولة الصلح، ولكن هذا لا يمنع من استغلال أي فرصة في الموضوع. كان الباشا الجديد لمراكش هو الآن الحاج السلامي، أخ "القايد" الگلاوي أحد مرافقي في طريق الأطلس أبدى عن حزم كبير في التحرك في طريق مراكش. كان الكل يبدو أسوداً أو بالأحرى رماديا لأن المشاة والفرسان يلبس أغلبهم "خياديس" أو برانس رمادية من الصوف، وها هم أيضا جبليون يلبسون خنافيفهم السوداء، ثم رجال المخزن والموظفون والشرفا مرتدين "خياديس" زرقاء وهو لباس موحد، ثم الجنود المرتدين لشاشيات "مسننة"، والفرسان "البربر" يتحركون فوق خيولهم النحيفة والهزيلة ورؤوسهم عارية، وعدة نساء محتجبات يركبن بغالا جميلة، وزنوج يتبعون أسيادهم، وفتيات تجرن "شرابيلهن"

المخيطة فوق التراب الأحمر، وأخيرا عدد لا متناه من المتسولين يغنون، ويدعون ويتسولون المارة بكل الوسائل وباسم جميع أولياء الإسلام.

يوجد وسط هذا الجمع قافلة كبيرة من الجمال تحمل أقفاصا كبيرة وغريبة، ومدافع، وحكى لي أحد جيراني أنه لم يقتلع المدافع إلا بصعوبة من الحصن وقال إنها قد وجدت بالقصبة، ووجدت عندما أعدت التفكير فيها أن لها مواصفات خاصة. أمدني جاري أيضا بأسرار أخرى من بينها أن الأجور لم تؤد منذ أسبوعين، وأنها كانت تعطى للوافدين الجدد كترحاب بهم بمعدل نصف بسيطة للفرد يوميا لكن على الجندي أن يتغذى من هذا المبلغ، ومن أجل تهدئة الأوضاع فإنه يوزع في هذه الأثناء على الفرق العسكرية مؤونات كبيرة تأتي بها القبائل المجاورة كل صباح، ولكن هذا لم يمنع من وجود احتجاجات حيث كنا نسمع صيحات من قبيل "بالله عليكم أعطونا مؤونتنا!".

دخلنا مراكش عبر باب الرُّب، وعندما نلتفت كانت الطريق تبدو لنا كشريط من النحل، ومن الممكن أن لا يكون لمولاي حفيظ لا أسلحة ولا مال، ولكنه له رجال بدون شك، وإذا نجح في أن يوصلهم إلى أمام جنود أخيه ستكون حربا كبيرة واستثنائية.

زاوية بن ساسي 4 دجنبر

ها أنا قد عدت إلى محلّة مولاي حفيظ، ووجدتها معسكرة في الضفة اليمنى لواد تانسيفت في الواجهة المقابلة للزاوية الصغيرة لابن ساسي، حيث سيؤدي مولاي حفيظ في جماعتها صلاة الجمعة.

صعد المعسكر/ الطابور كل الهضاب الجرداء والمتحجرة للجبيلات، ويمكن النظر إلى مراكش نظرة بانورامية حيث تمتد المدينة في ممر كبير بين الجبيلات والأطلس الكبير. تمتد المدينة ذات المنازل الحمراء، وصاحبة المائة مسجد، والحصون الكبيرة مراكش عاصمة يوسف بن تاشفين والمركز الديني، والاقتصادي، والسياسي لجنوب المغرب كله وسط أشجار نخيلها، وزياتينها، وحقولها الجميلة، تبدو عن قرب ليست سوى فوضى مثل كل شيء في هذا المغرب! أصبحت المحلة اليوم أكثر ضجيجا، وجاءت قافلة من ثلاثين جملا من آسفي تحمل ألبسة "عسكرية" للحرْكة، فألبس الرجال، وبنى "العلاّف" سيد المدني "قبة" كبيرة على بعد خمسمائة متر أمام الجبهة. اجتمعت تجريدات من المشاة وأقول إنها اجتمعت وسط ثلاثمائة فارس على شكل مربع والبندقية في الأعلى، ثم استعرض الجنود الواحد تلو الآخر أمام موزعين يعطونهم القميص الأحمر التقليدي. ولا أعرف محل الخياطة الذي يسلم هذه الألبسة البئيسة، فالقماش رديء والخياطة مهلهلة، ووجد "المساكين" صعوبة في لباسها في منظر يثير الضحك.

كان للقادة "قياد" المية (المائة) وقيادة الرحى (قادة الفيالق) ألبسة أكثر اكتمالا وسراويل من مختلف الألوان و"خياديس" بيضاء، أو زرقاء كبيرة. يبدو أن الشاشيات والبلاغي لم تصل بعد، فالفرقة ستنطلق برؤوس عارية وأقدام حافية اللهم أن يقصوا شعرهم أو يلبسون في أرجلهم كل

واحد بطريقة وعلى حسابه. مرت عشرون يوم لم يحصلوا على رواتبهم. وكنت معجبا برؤية من الخلف طريقة النحل التي يمشي بها هذا العسكر الحفيظي...

5 دجنبر

دعاني وزير الحرب سيد المدني أن أتناول معه وجبة الغذاء، وقدمت الوجبة أسفل قسم من جدار مرفوع لخيمته، قد يكون هناك تدافع [225] ضروري بين جماعة ترفض وترد، وجماعة الزبناء والمتسولين الذي يحيطون بها، وها نحن لوحدنا معنا طيلة ثلاث ساعات، واستغللت الفرصة لأزرع من جديد فكرة الصلح في ذهن مضيفي، لكن أوقفني منذ بداية الحديث بقوله:

- "نحن نعلم أنك جئت هنا منذ شهر لتنقل عبارات السلم، وطلب منك مولاي عبد العزيز أن تحاول عقد الصلح الذي يريد، وشرطه العفو التام ونسيان ما نقوم به، فليكن هذا هو رأينا، وسنجيب عن عرضه بقولنا، أحد السلطانين كثير وإذا استطعت فعل شيء فتعال لنتحارب، وإذالم تستطع فعل أي شيء فاذهب إلى حال سبيلك.! وأضاف "القايد" بطريقة "حادة":

- "عبد العزيز سينتهي به الأمر بالخروج! وسيضطر مخزنه القديم الماهر إلى قطع الجهاد، وأن يدفع أتباعنا ضد جنودكم في أمل أن تحاربوا لصالحه ستصبحون مرة أخرى "مخادعينه"، إذا لم نستطع أن نوصل بسرعة حيادنا. فهل ما نطلبه إذن غير صائب أو فيه تجاوز؟ أو ليس من حق أي شعب أن يعزل أو يثور في وجه حكومة تحدث له الخراب وتقصيه؟ وتقول لنا إن تصريحاتنا الأولى أثارت غضب فرنسا لأنها مهتمة بأن تعيد المغرب إلى الوضعية التي كان عليها في عهد مولاي الحسن، وبدعوة كل القوات الأوربية، لأننا نبدو أننا نريد التنكر لمؤتمر الجزيرة الخضراء، والوضعية المميزة لفرنسا والتنكر للديون التي على حكومة مولاي عبد العزيز، ولا شيء من هذا كنا نفكر فيه، وأنت تعلم أكثر من أي أحد آخر علاقتنا الطيبة مع فرنسا، فما الذي تريدون قوله لنا!

استغرق شرح كل سوء التفاهم هذا ساعة، وفرنسا تعلم أننا نريد الحفاظ على علاقتنا معها وأنها ستتقوى إن شاء الله في المستقبل لنصبح أصدقاء من أجل التعاون، وفخرنا كبير بأن لا نطلب منكم أي دعم قبل النصر وقل فقط لهؤلاء الذين يمكن ينصتوا إليك أنه من غير العدل أن يساعدوا أعداءنا [226] ويتعاملون معي بالتالي كأعداء نحن الذين نحارب من أجل العدل ومن أجل الخير والتطور".

- "وإذا كنت تظن أننا سنقدم لكم وعودا أكثر مما قدم أعداؤنا، فهذا لا يليق بنا ولا بكم، فلننتظر ساعة الفوز وسنرى إذا كنا نعرف تسهيل أشغال المقاولات الفلاحية والصناعية والتجارية...".

وعدت المدني أن أنقل ملخص محادثاتنا أي أنني سأعمل على احترام المعنى قدر الإمكان أكثر من الشكل، وما لا أستطيع نقله هو الحدة والصراحة التي طبعت هذا الترافع.

6 دجنبر

يخصص السلطان يوم الخميس عادة للأفراح الخاصة، وبقي "الفراگ" السلطاني مغلقا البارحة

بطريقة سرية، لكن قيل لي إنني سأكون صاحب حظوة حيث سيخصص لي لقاء حاسم ونهائي هذا المساء على الساعة الخامسة. وبالفعل عندما أطلق المدفع آذان صلاة المغرب، جاء مخزني ليأخذني، وساقني إلى الخيمة نفسها التي عقدت بها اللقاء الأخير، سبقني إليها وزير الحرب سيد المدني، وبعد مقدمات المجاملة دخل مولاي حفيظ في الموضوع بطريقة حارة قائلا:

"هل فكرت في حججنا؟ وهل استوعبت نيتنا السليمة؟ وهل توضح لك موقفنا من الأجانب؟ فيجب أن نتبين حقيقة صعوبة الوضعية، ومادمنا في فترة الاستعداد، يمكن أن نتراجع عن هدفنا... سننطلق اليوم إلى اليوم الأكبر. هدفنا هو مولاي عبد العزيز، وخيامنا في الشمس عُدّها، أضف إليها عدد محلاّتنا المنتشرة في كل الاتجاهات، وكذلك تجريدة القبائل المستعدة للانضمام إلينا. فلا يكفي الكلام فقط[227] وعبارات الحكمة، فنحن نحتاج إلى جواب دقيق وعادل، وسؤالنا بالواضح هو كالتالي: هل تدعم فرنسا حقيقة مولاي عبد العزيز كما تنشر ذلك جرائدكم؟" هل ستتدخل ضدنا؟ فنحن نريد الحقيقة لأنه من الواضح أن حملتنا ستتجه حسب إجابتكم، وهذا ليس تهديدا، لكن تعبير عن "حتمية" أنتم شهودها والتي ستكون بالنسبة لنا نتيجة واضحة، فنحن لازالت تفصلنا من هدفنا بعض المراحل، مع العلم أنكم شككتم في قواتنا وتحركاتنا، ولا زلتم تشكون في حملتنا وتنتظرون يقين الساعة الأخيرة لكي تجيبوا عن توبيخاتنا. الجهل وحده هو سبب صمتكم، لكن عندما سأكون أمام مازگان، فسيعلم أنه كان لي لقاء مع قنصل فرنسا وأنني تحدثت معه بأنني لا أقلق في شيء القوات الأوربية مقابل حياد فرنسا".

"لا أفترض أن الرسو السهل لفيالق مولاي عبد العزيز المدعم ببوارجكم سيغير من شعور ساكنة مازگان، فقد دخلتها دون جنود عندما أردت، وسأسترجعها بالقوة جيدا لكن قدوم حركتي سيغير الأشياء، فإنه لا يمكن لهذه الحفنة من الجنود التي نزلت أن تمنعني من دخول المدينة، فإما أن يأتي أخي إذن لأن يدافع عنها والله سيحكم بيننا، أو أن مازگان ستعود إلينا "قهرا".

اقترب مني أثناء هذا اللقاء مخزني مبعوث من وزير الحرب وأعطاه رسالة مستعجلة، فأخذها السلطان وفتحها بارتعاش في الوقت الذي رفع فيه المخزني مشكاته من أجل تسهيل القراءة، وشرع مولاي حفيظ في قراءتها بسرعة بصوت مرتفع. وهذه الرسالة هي "لقايد" محلّة توجد في مقدمة الحرْكة ضد السراغنة، ويعطي تقريرا عن اصطدام وقع البارحة [228] دام عدة ساعات، حيث هزم "تّكْسَر" العدو بخسائر واضحة، وعندما أعلن "القايد" انتصاره أضاف أنه قد أصيب إصابة خفيفة في اليد، فتبسم السلطان بذلك تبسم النصر، وأضاف قائلا:

"في الخلاصة، ستذهب غدا، رأيتنا وسمعتنا وفهمتنا، فهل تستطيع إفهام مواطنيك أننا لسنا من المتعصبين الأغبياء، كما يصلهم عنا ! فنحن لا نطلب لا دعما ولا عونا، كل ما نطلبه فقط هو أن يحكم الله بيني وبين أخي".

****

وبقية هذه الملحمة تبقى للتاريخ. نفذ مولاي حفيظ تهديدا مدعما بمحلاته ومدافعه وهجوم الشاوية ضد مجموعاتنا، وانطلق في فبراير نحو الشمال مع كل حركته، وتقدم أمام مراكزنا "وسحق" الجنرال Amade الذي لم ينفذ التعليمات جيدا.... ودخل فاس دخول الفائزين المنتصرين وأزاح أخاه وأخذ لقب السلطان تحت اسم "مولاي حفيظ الغازي"/ المنتصر!

ومنذ تلك اللحظة ازدادت ثرواته، المهددة باستمرار لكنه ينتصر دائما، وانتصر على بني مطير وزمور الذين "بايعوا" مولاي الكبير، وحد من تمرد الشريف الكتاني، و"خرّب" أراضي أولاد الحاج والحياينة الثائرين، وحد من تمرد الريفي الشهير الروگي "بوحمارة"، وأحدثت هذه الانتصارات والاحتفالات له بعض الاضطراب، وأصبح أكثر عنفا وأراد أن يسير في خط مولاي اسماعيل قدوته. وأبدى عدم اكتراث بسفراء وقناصلة القوات الأجنبية ونكث عهودهم ورفض أن يؤدي ديونه... [229] لكني لم أسرد تطور حالة مولاي حفيظ النفسية هباء، فإنني أردت أن أخرج بهذه الخلاصة التي لم تستطع مشاريعنا السخية للدخول السلمي والتهاون مع السلطان ومخزنه وأن تكون سوى أوهام لا يمكن أن تتحقق. كلفتنا كثيرا من الوقت وكثيرا من المال... وكثيرا من الدم! فالنصائح والتهديدات ليست سوى كلمات... فالكلام كما يقول "البربر" لا يغري سوى النساء ولا يخيف سوى البهائم!

فهم لا يؤمنون سوى بشيئين/ حجتين اثنتين المال والبارود. ولم أعلم من دروس جيدة في الدبلوماسية المغربية سوى حكمة الشيخ العجوز لزناگة، عندما مد يديه للصوص أنزور الأولى بها مال فديتي والأخرى البارود وصرخ في وجههم:

اختاروا ! !

يناير 1910 [230]

الفصل الثامن

يوميات طريق عبد العزيز الزناگي
موگادور - تارودانت

تقرير عبد العزيز الزناگي:

ماركيز دو سيگونزاك معتقل عند أولاد بن تابية، مما جعلني آتي من موگادور التي دخلت إليها صاحبا معي بقايا قافلته. جاءتني الأوامر بأن أنتظره بتارودانت عاصمة سوس. المسألة صعبة، فالفوضى تعم سوس كلها. نظمت موكبي حسب تعليمات قائدي لأبين له احترامي وامتثالي لأوامره. وكان معي مخزني محملا برسائل توصية أراد قنصلنا السيد جاني M. jeanmier أن أحملها باسم المخزن. ولم تشفع هذه الرسائل ولا المخزن في شيء بل أقول سببت لي قلقا، لأن رسائل المخزن خاصة عندما تعطى للمسيحيين، أو أتباعهم تثير دائما مشاكل في شكلها و"روحها"، ويجب أن تعلم جيدا المخزن لكي تكشف هذه الأشياء. فإذا قرأت مثلا سطرا هاما منها يقول:

- نوصي به "حامل الرسالة" خيرا، فإننا نقرأ أواخر بعض الرسائل: "إلى أن يعود بحفظ الله". [231].

وتشكل هذه الألفاظ الستة الأخيرة لازمة لكل عبارة أخرى "ممحية" تقريبا وهي:

"إلى أن يعود وعليه غضب الله..."

كانت الرسالة التي أحمل إلى باشا تارودانت تتضمن هذه العلامة المتفق عليها، وفتحتها ولاحظت ذلك بحضور السيد جانيي M. Jannier في قنصليته، وهذا الباشا بين قوسين لا يوجد سوى في مخيلة عامل موگادور لأنه لم يكن بتارودانت باشا في الوقت الذي ذهبت إليها. كنا أربعة رجال، لدينا ثلاثة بغال، وبندقيات وأربعة مسدسات وخيمتان، وبعض أوراق/ رسائل الدّين ومبلغا ماليا حوالي ستمائة بسيطة بالعملة الحسنية، وجميع تعليمات دو سيگونزاك والتجربة التي جمعتها في رحلتي الأولى معه.

انطلقت من موگادور يوم رابع أبريل وقطعت الأطلس من فج بيباون، ووصلت إلى تارودانت في اليوم التاسع منه على الساعة العاشرة صباحا، وكان يوم أحد يوم سوقها الذي يعرف اكتظاظا وحركية من سكان القبائل المجاورة جعلني أقارن بين هذا المشهد وما كانت عليه المدينة من هدوء خلال شهر مضى، وأقول القبائل المجاورة للمدينة لأن أهل القبائل الأخرى لا يمكن أن تصل إليها بفعل صراعاتها وحروبها الدائمة. تعد تارودانت حقيقة إحدى أهم أكبر المدن المغربية، لكن الأطلال والعرصات يشغلان أكثر من نصفها، ويقدر سكانها تقريبا بخمسة إلى ستة آلاف نسمة، تنقسم سياسيا في حالة السلم -أي عندما يكون هناك عامل وفي للسلطان - إلى أربعة أقسام على كل واحد منها أن يعطي عددا معينا من الجنود. وتشكل القصبة وحدها خمس المساحة وهي عبارة عن بناية محروسة للباشا يسكن بها.

تسكن هذه المجموعات الخمس بالأحياء الخمسة للمدينة آخذة شكلا فوضويا، وطابع القبائل المجاورة والعدوة أي أنه يمكن أن تجد في المدينة نفسها [232] خمسة آراء مختلفة تتصارع فيما بينها. وآخر عامل لتارودانت هو الباشا حيدا أومويس يبلغ من العمر ستين إلى خمس وستين سنة، لازال يحتفظ على ملامح شبابية رائعة، طويل القامة ويرتدي ملابس أنيقة جدا صعب وسلطوي

وذو حيوية كبيرة، قضى حياته كلها في القضاء على الزعامات المجاورة، واستطاع بفضل قوته، وإرادته، وسخائه أثناء طول فترة حكمه أن يجعل منطقة نفوذه تعيش في أمن وعدل. وكان يعرف كيف يجلب الاحترام وكيف يستعمل القوة في كل الأوقات التي عرفها حكمه.

والقوي الذي يخاف ما عليه سوى أن يكون متقلبا، وفي أدنى الحالات قد تنتابه نزوة بأن يصبح متنكرا والتفاصيل التي ستأتي ستشرح لنا الطريقة التي أزيح بها حيدا أومويس بسبب الثورة في كل سوس.

"عندما يغيب القط، ترقص الفئران".

هذا المثل يصح إطلاقه في المغرب كله. فبمجرد ما نادى السلطان عن الباشا حيدا و"قياد" آخرين، وغادروا سوس عمت ثورة عامة كل البلاد. يبدو أن السلطان عندما طلب منذ بضع سنوات دعم عمال سوس من أجل محاربة المطالب بالحكم الذي يحتل الآن تازة (الروگي/بوحمارة)، لم يفكر قط أنه من المستحيل أن يعم النظام وحده هذه المناطق دون عمال. ورغم المعلومات المتوافرة عند السكان عن ثورات متشابهة فإنه لم يفكر فيها قط، وجاء أهم "قياد" سوس على رأس محاربين بئيسين تاركين وراءهم نساءهم، [233] وأطفالهم، وممتلكاتهم، التي ليس عندهم أغلى منها. علمنا بالهزيمة التي كبدها إياهم الروگي بمعركة تازة، فلم يكن لهم سوى تفكير واحد هو أن يحاربوا متراجعين ليعودوا إلى مساكنهم الأصلية. وعندما ذهب "القياد" هدمت قصورهم ولما أرادوا العودة إلى قبائلهم منعوا حتى الموت، وكان حيدا أومويس أحد هؤلاء "القياد" الآتين من سوس، وترك في تارودانت كل حريمه في القصبة التي يحرسها مخازنية عددهم ستون، ووجد ابنه أحمد "قايد" المنابهة نفسه منذ أن غادر والده سوس محاصرا في منزله الكبير مع كل عائلته، وأسرته، وإخوته، وأقاربه وبعض أصدقائه، وكان عليه أن يصمد أمام الحصار عدة أشهر حيث أصيب بطلقة نارية مات على إثرها، وخلفه أخوه "القايد" الحاج الذي بدا أكثر حيوية، وهو شاب يبلغ من العمر حوالي خمسا وعشرين سنة على خلق وسلوكه يفرض الاحترام، وسافر إلى الحج وزار مصر والجزائر، وكان يتحدث عن هذه المناطق بفرح.

عندما رجع الباشا حيدا إلى سوس وجد الأمور تغيرت تماما، فتارودانت التي كان سيدها أصبحت ترفض ضيافته، بل إن مخازنيته أنفسهم الذين أوكل إليهم حراسة القلعة وجواريه، وعبيده ومن كان يسير أملاكه أغلقوا الباب في وجهه وأصبح أحد جنوده: أحمد كابّا -الذي سأتحدث عنه عندما سأروي كيف أفلتت من الخطر- منتزعا لثقة الآخرين وأصبح الزعيم ويحظى بمنزلة هامة عند الأطراف الثائرة. وحاول هوارة الذين يحترفون النهب الذين كانوا ظاهريا تابعين لباشا تارودانت عدة مرات نهب قصبة السيد الغائب، وعرف أحمد كابّا كيف يتصالح مع أولاد يحيى القبيلة المجاورة للمدينة، واقتسم معهم ممتلكات الباشا واستطاع بهذا التحالف أن يقف أمام الهجومات المتتالية لهوارة. يحتل أولاد يحيى -وهم قبيلة مركزية في سوس- كل السهل الخصب والمزروع جدا الذي يمتد شرقا: إلى تارودانت ومحاطا من الجهات الثلاث حيث سيستمر وجود المنابهة غربا. عندما رجع

قائدهم الحاج إدريس من حرْكة تازة وجد منزله مخربا وحل محله الحاج علي، وهو أحد أكبر اللصوص الذين استفادوا من الأوضاع المخزنية لينزل من الجبال حيث كان يعيش منفيا وهبط ليكتسح السفح. وعندما اتفق أحمد كابّا مع الحاج علي الذي دعمه ضد هوارة لم يصبح اليوم السيد المطلق للقصبة لكن أصبح يريد أن يهيمن على كل تارودانت. فهذا هو حال سوس عندما رجع الباشا حيدا.

صرح كل سكان تارودانت باستثناء بعض التجار الكبار أنهم يريدون أن يحميهم مخزن قوي. وهذا غريب لأنه جرت العادة أن الحضريين مسالمون بطبيعتهم، وأنهم لا يريدون سوى العيش في أمان تحت أي سلطة كانت. وهذا أمر مفرح للباشا حيدا، فهم الأمر دون أن يفقدالأمل في العودة إلى ما كان عليه منذ شهور عدة وأن رياحا مناسبة ستعيد إليه سلطته.

وفي انتظار أن يأتي هذا اليوم، ذهب إلى منفى اختياري في قصبة ابنه الذي لا يزال محاصرا. أحدث المجيء المفاجئ للباشا الكبير خوفا ورعبا في نفوس المنابهة، مما جعل عددا من أعيانها يأتون متوسلين للباشا طالبين منه الحضور ويهدونه الهدايا. أقيم حفل على شرفهم، وأقيمت احتفالات بالمناسبة، تناولوا الطواجين، والمشوي، والكسكس، ودخنوا الكيف، وقيل إن بعضهم شرب الخمر الذي هيأته بعض اليهوديات المجاورات. ولما فعلت الخمور مفعولها شرع الكل في الغناء، لكن الكيف سيحدث بعد ذلك مفعوله حيث لم يتأخر المخدر في أن يرخى [235] بأجنحته على ضيوفه السكارى، وأسلحتهم كانت في غرفة آمنة في الجوار أبواب القصر المغلقة. وهكذا بدا الباشا مثل "شبح" عظيم وبطيء وخلفه رجال بوجوه قبيحة يأخذون " السلسلة" بيد، والخمر والخنجر بالأخرى، وصاح الباشا بصوت مرتفع وقوي:

- أيها الخونة أبناء الخونة! أولاد الحرام" وأولاد الكلب! قتلتم ابني الذي كان أعز علي من يدي اليمنى، إذن فهذه اليد اليمنى وهذا الخنجر ستقتلكم بأسرع ما يظن، وتسلب حياتكم!

ولن تقتل اليد اليمنى للباشا أحدا.

قتل أعيان المنابهة مقيدين هذا المساء نفسه رميا بالرصاص، ورمي بهم في اليوم الموالي في بئر. وانتشر الخبر بسرعة في كل أرجاء القبيلة، وحكمها الباشا، وهي اليوم القبيلة الوحيدة في سوس التي يقال عنها إنها مخزنية. وعرفت رحلتي مغامرة "سيئة" سأحكيها كالتالي:

أخبر رقاصة خاصون يوما أو يومين قبل وصولي إلى تارودانت سكان سوس خاصة أولاد يحيى، أن مسيحيا محملا بالذهب والأسلحة الرائعة سيصل إلى بلادهم، وكان هذا المسيحي هو أنا ! ولما وصلت إلى تارودانت على الساعة العاشرة صباحا، وضعت أمتعتي في فندق، وذهبت أبحث عمن يسلمنا رسائل التوصية والقروض، وتوجهت بالسؤال إلى أحد اليهود الذين تعرفت عليهم في رحلتي الأولى والذي أوصاني به هذه المرة القنصل الألماني بموگادور، استقبلني في دكانه وقدم لي الشاي. جاء رجال يسألون عن ثمن بعض السلع لكي يشتروا أي شيء، وكانوا يرمونني بين الفينة والأخرى بنظرات غريبة وابتسامات مصطنعة، لم أنتبه قط لما يقع، وأعطوا إشارة لليهودي ليخرج ثم خرج ورجع يقول لي:

"هؤلاء الناس يقولون إنك مسيحي".

وأصبح الوجه الأبيض لليهودي المسمى ب[236] ليفي بلكانون شاحبا جدا وفرائسه ترتعد، رفض أن يعطيني أي تفسير لما حدث، وطلب مني أن ابتعد عن دكانه وقبلت دون أن أقول أي شيء. ويوجد دكانه في "البازار" الكبير حيث يمارس كل التجار المميزين تجارتهم وليس له سوى باب واحد، حيث كانت المائات من الرجال ينتظرون خروج هذا المسيحي (النصراني). ولما خاف التجار من تكاثر أعداد الناس أغلقوا كل محلاتهم وأجبروا اليهودي على أن يسلم روميه (نصرانيه). وعندما خرجت من باب "البازار" انقض علي الجميع مثل حيوانات مفترسة، فعُنّفت وضربت بقسوة، وكان كل واحد منهم يريد الحصول على ذهبي لوحده فقط، خاصة أنهم يتصورون أن الذهب سيكون من نصيب قاتلي مباشرة، والمتسامحون منهم كانوا يعتبرون ذلك تعصبا ووقعوا في خصام مع الآخرين في شأني خاصة أن جميع تصرفات السرقة عند المغاربة تتم أو تقام باسم الدين من أجل الحصول على منافع مالية. ولازلت أذكرك سي مبارك من عبدة الذي أنقذت حياتي واذكر سحنة وجهك. وكابّا الذي أنقذتني من مخالب الموت بأن أغلقت علي القصبة التي أنت سيدها الحقيقي لن أنساكما أبدا. اقتادني الأول من وسط الجماعة إلى قاضي المدينة، وكان آخر من أغلق دكانه الموجود في باب البازار، وقلت له:

- سيدي هؤلاء الناس يظنون أنني نصراني مع العلم أنني مسلم، وأحفظ القرآن العظيم الذي هو كتاب الله ولدي [237] معلومات صوفية، وفقهية، وأدبية، وإذا استمر هؤلاء الناس في اعتباري نصرانيا لعينا فلن أنساه لهم يوم لقاء الله عندما تحشر المخلوقات عارية يوم لن ينفع لا مال ولا بنون. قال لي سي مبارك الذي لازال مقتنعا بكوني نصرانيا، "هذا لا يعنيني في شيء" ولم يتردد في أن يقول لي:

- "نصارى اليوم يعرفون العلوم الإسلامية أكثر من المسلمين أنفسهم".

ثم أخذني واستدار في وجه الجماعة وقال بصوت عال: -من قتل مسلما حقيقيا فمآله جهنم.

لم أسمع أي شيء من المسلمين المحيطين بي! لكن سي مبارك رق الآن لحالي وقال لي:

- اتبعني.

ثم تبعته وأنا أمسك بيده إلى أن وصلنا المنزل/ لدار القاضي. فلا يمكن أن تقارن بلادا في الفوضى بأي شيء، بل إنه تكوّن للمجتمعات حتى في بلاد السيبة قوانين وأعراف، ولهم مؤسسات متعددة تنظم علاقات الحياة الاجتماعية. فقد عرفت بلاد السيبة، وعشت بها عدة أشهر، وما أثارني هو هذا الأمان والتفاهم الأخوي السائد بين أعضاء المجتمع، وهذا الانضباط الذي نفتقده أحيانا في بلاد "حكومي".

ولا يوجد في بلاد الثورة "قانون"، وليس هناك سوى قانون واحد دون شك، لكن يبدو أنه من طبيعة الإنسان: أنه يتبنى قانون القوي. وسوس اليوم مثال صارخ على ذلك، فهذا الوادي العلوي من سوس خاص يتمتع بحرية حكومية، حيث يتحرك الرحالة بكل حرية مع قوافلهم وأمتعتهم الغنية. ولا أدري هل مرد ذلك إلى الإسلام؟ لكن بدا لي أن أهل سوس كانوا كلهم أقوياء ومؤمنون من [238] أكثر "المساكين" الذين يلبسون الثياب الرثة إلى أكثرهم غنى وثروة، ولم ألاحظ سوى شخص واحد

يبدو ضعيفا حقيقة رغم أن هذا التاجر سي مبارك عبدا (من عبدة) تجرأ لوحده بأن أخذ المبادرة ليعطيني حقي بأن ساقني وسط الجماعة الكثيفة عند القاضي.

وتوجد دار القاضي في عمق درب لا منفذ له مثل ممر. تبعتني الجماعة التي كان أفرادها يحاولون في كل خطوة إيقافي وضربي بالأيدي والأرجل وتمزيق ثيابي ويقولون:

- الموت للنصراني، حيا على الجهاد يا مسلمين!

فهذه الجماعة التي تنادي بالجهاد ضد مسيحي واحد شاءت الظروف أن يكون في بلادهم، لا تستطيع عبور الممر والدخول إلى دار القاضي التي لجأت إليها لإنصافي. وفي الوقت الذي كنت أعرض فيه قضيتي أمام القاضي كانت الجماعات تتزايد أمام مدخل الممر، فعمت الفوضى وكان الكل يتكلم في وقت واحد ليطلبوا الشيء نفسه، وهو أن يعطيهم القاضي النصراني اللاجئ إلى منزله، أو أنهم سيقتحمون البيت بقوة. وهذا القاضي حديث عهد بالمسؤولية فلم يتولها إلا في بدايات الثورة. وكان مدعما بالحاج علي لأولاد يحيى، ثم بأحمد الكابّا للقصبة لكن كان له أعداء من جهة أخرى هم: هوارة بل وقسم من سكان المدينة. ومادام أنه متهم بأنه غني، فإنه يعلم جيدا نوايا أعدائه الذين حاولوا "أكله" في منزله الخاص. قبل عن مضض مطلبهم، وكان يعلم جيدا مع ذلك أنني مسلم، وأعطيته الدليل بعد أن اجتزت الامتحان!

طلب من مخازنيته أن يسلموني إلى من يطالبون بي بعد أن فشلت في إقناعه، وخرجت وعندما وصلت إلى آخر الممر جاء أحمد الكابا "ليزيح" لي الطريق وأن أعود من جديد أمام القاضي الذي حكم علي بالإعدام [239].

ترافع عني كابّا بمرافعة طويلة قال فيها للقاضي:

"هذا الرجل الذي تقول عنه إنه مسيحي إذا وصل إلى أيدي هوارة فسيقطعونه إربا إربا، ولن يكون هوارة وحدهم المسؤولون أمام الله وخلائقه، بل سنكون نحن أيضا سكان المدينة، فهو ضيفنا و"عارنا" في الوقت نفسه وسيكون ذلنا مزدوجا".

لكن القاضي لم يجد أمام إلحاح الجماعة، أي إمكانية بأن يحتفظ بي عنده، وقال:

- "إذهبوا به إلى المسجد وسآتي هناك لأبحث في أمره".

والآن مثل ما مضى اعترض أحمد كابّا بقوة على الاقتراح الثاني للقاضي، واقترح على الجماعات أن تذهب للفندق "لأكل " ثروات المسيحي، اختفيت بسرعة برفقة كابّا متبوعا ببعض الجنود واتجهت بسرعة نحو القصبة، وأغلقت أبوابها فجأة، وكانت هذه هي الساعة الحقيقة التي وجدت نفسي في مكان آمن. ماذا حدث بالمدينة؟ جاء كابّا واصدقاؤه ليحدثوني عن الأخبار والتدابير التي اتخذوها. علما أن سوقها لم ينعقد اليوم فقد انفض مبكرا، وأغلق التجار دكاكينهم، وتركوا سلعهم في أمان لكن نُهب الذين يبيعون سلعهم في العراء، ولا شيء يحزن سوى رؤية تلك النسوة اللواتي استغرقن وقتا طويلا في خياطة الملابس للبيع تسرق. اختبأ اليهودي ليفي بلكانون الذي من المفروض

أن يؤدي لي بعض الخدمات في منزل موريسكي عند أحد المسلمين لحمايته وجاؤوه يسألونه وأجاب بأنني نصراني حقيقي حاملا إلى شيوخ بن تابية فدية السيد دوسيگونزاك، ويمكن أن يكون الخوف هو من أوحى له بذلك، واللصوص لا يعانون إذا ما قيل لهم أنه ليس نصرانيا، وهذا يبعدهم عن هدفهم وهو قتل النصراني فقط من أجل أمواله".

انتقل الجمع إلى الفندق وحاولوا أن يأخذوا منه [240] كل ما تركت فيه، لكن صاحبه أغلق الأبواب من قبل مبكرا مما جعل اللصوص الموجودين بالداخل لا يستطيعون الخروج، وعانت بغلاتي الثلاث، كانت إحداها محاطة بمجموعة من الأشخاص منهم من يأخذها من الوجه والآذنين والآخرون من الأرجل والذيل، وكل واحد يحدد القسم الذي سيؤول إليه من الغنيمة. وقذفوا أحد الرجال الذين اصطحبت معي من الصويرة من شرفة الفندق، وأصبح آخر وهو مخزني جندي مثل الأحمق، والثالث هو البشير المخلص الوفي منذ أن سمع بالخبر خبأ أمتعتي في أحد المخازن وأغلق عليها بالمفاتيح، وعندما كان يجيب بأنني لست نصرانيا كان يشبع ضربا، بل إنهم وضعوا السكين على عنقه لكنه لم يصب جلده سوى بخدوش. اجتمع أعيان المدينة وقرروا أن يدافعوا عني أمام اللصوص بعدما اقتنعوا بأنني مسلم فعلا. فأعلنت حالة الطوارئ حيث جهز ستون جنديا من الأحياء الأربعة للمدينة أرسلوا إلى الفندق والآخرون يحيطون بالمدينة. وفي الساعة الرابعة بعد الزوال دخل أربعون فارسا من أولاد يحيى وعلى رأسهم "اللص" الشهير الحاج علي إلى تارودانت، بعد أن أعلموا منذ يومين بدخول نصراني إلى تارودانت وجاؤوا كلهم مسلحين من أجل أن يكون لهم نصيب من الغنيمة.

توجه أعيان المدينة إلى زعيم أولاد يحيى بقولهم:

- "إذا جئت "لتأكل" النصراني، فهذا ليس منهم، فإنه مسلم حقيقي مع العلم أنه يمكنك أن تتأكد بنفسك وهذا من أسهل الأمور". وكانوا يشيرون إلى الختان.

لكن أولاد يحيى قالوا: -يجب أن نعيد له ممتلكاته بأنفسنا حسب المعمول به.

جاء القاضي وكتابه وبعض الأعيان إلى [241] الفندق، وكان أولاد يحيى في عين المكان وجردوا كل أمتعتي جزءا جزءا بما في ذلك "الدبوس". وفي المساء عند الساعة التاسعة وصلت قافلتي كاملة إلى القصبة يسوقها أولاد يحيى. وارجعوا إلي كل ممتلكاتي أمام أعين كل من كابّا وسي مبارك وآخرين. وسلمتهم وصلا بطلب منهم.

انتهت القضية، ذهب كل واحد إلى حال سبيله، لكن أولاد يحيى لم يذهبوا ولا أعرف السبب، ولكن يبدو أنهم يريدون مني أن أعطيهم بندقية، ومسدسا، وخيمتين ومبلغ مائة دورو، وقبلت العرض بعد نقاش. ورافقني كابّا ومخازنيته في اليوم الموالي على الساعة الثامنة صباحا إلى باب تارودانت حيث كان ينتظرني ثلاثة من فرسان أولاد يحيى، الذين عبرت معهم أراضي قبيلتهم لأصل بعد الزوال إلى المنابهة. ويمكن أخيرا أن أتنفس الصعداء، فأنا الآن في بلاد المخزن وسأكون غدا ضيفا للباشا الكبير حيدا أو مويس. وأرجعني الباشا إلى مراكش التي رجعت منها إلى موگادور [242].

القسم الثاني

معلومات سياسية، واقتصادية، وإحصائية، وسوسيولوجية، ودينية

جمعنا في هذا القسم الثاني المعلومات التي أمدنا بها مخبرونا من الأهالي، أو تلك التي جمعناها نحن بأنفسنا، بخصوص الوضعية الاقتصادية، والدينية والاجتماعية. وكذا جغرافية المغرب. وسنقدم هذه الوثائق كما جمعناها. وهي بشكلها غير التام والدقيق والتقريبي، يمكن أن تعطي إمكانية بحث أكثر حصرا. فقد أبانت التجربة كم هو صعب معرفة خبايا بلاد غير معروفة تماما !، وكم هو هام الحصول على "خطاطة" خريطة من أجل معرفة الاتجاهات والفهم. ! وهذه المعلومات لا تقدم شيئا جديدا، بل إنها محط بحث في ضبط وانتقاد من سيأتي بعدنا[1][244]

1- علينا هنا أن نشير بكثير من التقدير لما قام به **le vicont** شارل دوفوك **charle de faucault** في كتابه "التعرف على المغرب" **La Reconnaissance au Maroc** الذي يظل النموذج لاكتشاف المغرب.

كما نريد أن نتقدم بالشكر أيضا إلى السيد روبرت بول **M. Robert Boulle** ممثل اللجنة المغربية بموگادور للدعم الذي قدمه لنا من أجل إنجاح مهمة بعثتنا ولأعضائها، وعلى العناء الذي تكبده من أجل أن يجلب إلينا مخبرين جديين.

الفصل الأول

الوضعية الاقتصادية
للمغرب الجنوبي و"ثرواته"

إن المنطقة الموجودة جنوب الأطلس الكبير بين الصحراء والمحيط معزولة عن العالم الخارجي طبيعيا أولا، ثم برغبة من السلطان ثانيا، فالصحراء والجبل يحاصرانها على الواجهات الثلاث، ثم المحيط الأطلسي من الجهة الرابعة. و"ينقص من أهمية" هذا الساحل هضاب صعبة تقف في وجه أي تسرب أجنبي. ولا يتواصل الجنوب المغربي مع باقي العالم إلا عبر الممرات التي تعبر الأطلس الكبير، فيكفي إغلاقها - وتسهل العملية - لجعل هذه المنطقة جزيرة حقيقية. وإذا أضفنا أن الساكنة "البربرية" والعربية في وضع غير مستقر دائما، فإننا نرى أن حقل التدخل هذا خال من أي تسرب وبدون سيد. ويمثل حقلا لاكتشافنا من أربع زوايا، سندرس كل واحدة منها على حدة.

****

تمتد "العمالات"/ الأقاليم الثلاث: سوس، وتازروالت، وواد نون إلى المحيط الأطلسي، سواحلها معروفة جيدا، سبق أن كانت موضوع دراسة بعثة إسبانية مغربية سنة 1883 [1]. كان السلطان [245] مولاي الحسن يظن أنه قادر على رفع الحصار على هذه المنطقة وفتح أسواقها في وجه التجارة الأوربية، لم يتحقق هذا المشروع أبدا، ومن المستحيل استئنافه وتسهيل تحققه. والمجاعة التي تضرب في هذه الأثناء كل المملكة الشريفة تعطينا فرصة زيارة الساحل، وتشكل مناسبة لتغذيتها، وتنويع العلاقات التجارية بها، ثم إن السكان أنفسهم لن يعارضوا[2]. أرسلوا للسلطان رسالة يطلبون فيها أن نقدم لهم المؤن بحرا كما كان عليه الأمر في المجاعة الأخيرة، لكن السلطان لم يجب طلبهم، وقرروا التصرف بطريقة مغايرة، وأدت بهم محبتهم الشرعية إلى الموت جوعا لتلبية رغبات السلطان الذي لا يهتم إلا بنفسه كما يقولون. والميناء الأول الذي علينا فتحه هو لأكادير-أورير، وعامله هو الشيخ محمد (صهر) أقوى "القياد" الثلاث لحاحا سيد مبارك الگيلولي الذي شرع في علاقات مع تاجر إنجليزي وتقدم له بطلبية للقمح. هل سيقال إننا سنخترق كل المغرب بالدخول عبر باب يفتح لوحده؟ وهل يوجد أحد سيحتج ضد مبادرة توسيع سوق العالم؟

تشير اللجنة الإسبانية في مكان ثان إلى سيدي محمد بن عبد الله باعتباره من أكثر المتحمسين لإحداث ميناء، وهذه الجهة من الساحل في حكم شريف تازروالت أحمد ولد سيدي محمد أوهاشم شيخ زاوية طريقة أولاد سيدي أحماد أوموسى الذي يسكن على بعد كلمترات من إيليغ، معروف بأفكاره [246] الليبرالية ويرغب في عقد علاقات جيدة مع القوات الأجنبية، تولى "الملك" بعد وفاة أبيه محمد أوهاشم عندما عاد من الحج. سبق أن أبان محمد أوهاشم أحيانا عن رغبته في الدخول في علاقات مع فرنسا، بل إنه طلب حماية فرنسا أثناء حملة مولاي الحسن إلى سوس. وأرسل حديثا

1- تقرير مخطوط للمهندس خوسي مانويل ألونزور **José –Manwel Alomg**، كناش **Bulletin** لجنة أفريقيا الغربية.

2- إن الأحداث السياسية التي قبلت وسط المغرب وشماله لم تعمل سوى على تأزيم عزلة الجنوب المغربي ورغبته في الرفاه الاقتصادي، والخطير هو أن أهل هذه المناطق يعترضون طريق كل من يمر بهم، وهكذا قدم بلجيكي سنة 1908 يسمى الدكتور تاكين **D’Tacquiin** على إنشاء شركة لإظهار ميزة الجنوب المغربي، وأن السادة مانيسمان **M. Manessman** وهم ألمان يسيرون في سوس حملة نشيطة لاكتشاف المعادن التي أشرنا إليها (1910).

-وبطريقة سرية- شخصية رسمية من أصدقائنا محملة برسالة مكتوبة بالعبرية من أجل استطلاع نوايا فرنسا.

وبعث أخيرا "القايد" محمد ولد بيروك عامل واد نون الساكن بكلميم ابنه إلى موگادور في مهمة وحيدة وهي: طلب آلات حفر الآبار بعدما نقص منسوب المياه بها بشكل مقلق. واختار هذا المبعوث أحد التجار الأنجليز ليكون أمينا على عمالة واد نون، وأراد أن يطور بها الحركة التجارية، وأن يجلب سفنا أجنبية إلى السواحل، لكن ذكريات المحاولات السابقة[1] تحيل على بعض الفشل حيث نرغب قبل كل شيء عقد لقاءات مع الدبلوماسيين، وليس مع التجار. وحكوا لنا أيضا وقائع مشابهة دارت مع "القايد" الحاج محمد لمرسى/ميناء أغبالو، و"القايد" بيهي لواد ماسة، والقائدان ولد إبراهيم ومحمد أصواب لآيت باعمران، وسعيد الگلوي لأگلو. وليس هناك ما يجعل صعبا التأكد من هذه الأقوال، فنحن نتوفر على وسطاء حلفاء أو أصدقاء من مختلف الشخصيات، ويكفي أقل من شهر للقيام بهذا البحث لتعرف النتائج فجأة، ولاشك أنها في أي لحظة ستؤكد معلوماتنا الاستخباراتية، ويمكن أن نبعث إلى هذا الساحل بعثة نصف علمية ونصف تجارية وستكون مهمتنا أسهل وأعمق.

يشكل الأطلس الكبير حاجزا طبيعيا بين سهل مراكش والمنطقة التي نهتم بها. [247] إذ به ممرات كافية وسهلة العبور، وتجعل الجنوب في علاقات تجارية، سهلة ومتتالية مع الشمال، والمرور من الممرات حر للجميع باستثنائنا نحن. عبور الحاجز طبيعي سهل هنا مثل الساحل الشرقي، والصعوبة تأتي من طبيعة السكان وهذا أمر يسهل، لكن الاعتراض الشريفي/ السلطان هو الحاجز الحقيقي. والطريق الأكثر "غرابة" هي التي تربط بين موگادور وأگادير، عبرناها في أربع مراحل وهي جيدة وآمنة. فقائدا عمالة حاحا مبارك الگيلولي، واحماد أنفلوس كانت لهما علاقات مع القناصل والتجار بموگادور. ويتبعان بدقة التعليمات التي وصلتهما بأن يمنعونا من المرور، لكن الأمر يعالج خاصة أن لهم مصالح بأن يمتد نفوذنا التجاري نحو الجنوب.

ويسهل "فج" ممر بيباون الاتصال بين إمينتانوت وتارودانت، ويسمى هذا المفترق ممر أمسكروض، ويربط بين الصويرة ونزالة أرگانة، وهذه هي الطريق الكبرى للمخزن، وهي تحت حراسة "القايد" سي عبد المالك المتوگي الذي يمتد نفوذ حكمه إلى إدا أومحمود وآيت بلخير وأهل إغي/ إگي وأهل امينتانوت ومتوگة. ويفضي الممر إلى المنيزلة ببلاد هوارة التي تنتمي طبيعيا إلى حكم باشا تارودانت حيدة أمويس.

توجد منطقة تارودانت في هذه الأثناء في فوضى عارمة، فالباشا لاجئ في قصبته خارج المدينة. والزعماء الحقيقيون المتمردون هم: الشيخ يحيى لمسگينة، والشيخ محمد لآيت الشدخ، والشيخ العربي للگفيفات، والشيخ المحفوظ لإداومنو، والشيخ محماد لإداومحماد، والشيخ

1- مسألة "توغالمين".

العربي لأهل أدميم، و"القايد" الحاج الحسن لكسيمة... إلخ. وذكرت أسماء هؤلاء الزعماء الذين أعرفهم شخصيا، وكلهم لهم علاقات جيدة مع الأوربيين ونحن متيقنون أننا سنجد لديهم استقبالا جيدا [248].

يفضي "فج" الگندافي لأمزميز إلى راس الواد، ثم إلى أعالي وادي واد سوس الموجود بين أودية تينفوت، وزگموزن، وتارودانت، ويمتد مجال حكم "القايد" سيد الطيب الگندافي من الجنوب إلى الأطلس الصغير، وفي الشرق إلى أراضي آيت سمگ وغربا: إلى تارودانت.

سبق أن كنت ضيفا لسي الطيب الگندافي سنة 1899، وهو رجل حيوي، ومنفتح وسيكون لنا دعامة حقيقية، وخليفته هو أخوه سي إبراهيم الذي عوضه أثناء إقامته الطويلة بحاضرة فاس. وأرسل السلطان حديثا محلّتين من ألف من الرجال الأولى لسي الطيب من أجل مساعدته لإرجاع سوس إلى النظام والواجب، والأخرى تحت "قيادة" مولاي عرفة عم السلطان، مهمتها معاقبة أولاد بوالسبع، وآيت إمور الذين تمردوا، وأن تلتحق بعد ذلك بمحلة "القايد" الحاج علي. وستدعم المحلّتان الاثنتان بمحلة سوس التي يقودها "القايد" الحسن المزميزي التي ستحمل من تزنيت "الحامية" العادية في اتجاه تارودانت، وكان على هذه العمليات أن تبدأ في أواخر ماي 1905[1]. والزعماء الرئيسون لرأس الواد هم: الحاج محمد المنتاگي زعيم قبيلة منتاگة جارة تارودانت، و"القايد" الحاج إدريس اليحياوي زعيم أولاد يحيى، والعربي الأولوزي قائد أولوز، والشيخ محماد لآيت سمگ. كل هؤلاء الزعماء كانوا أصدقائي الأعزاء، وتعاطفوا معي كثيرا أثناء المحن التي مررت بها، وبقيت على اتصال بهم وفّتحت أمامنا أراضيهم وكسبنا ودهم. ويوجد الفج الذي يفضي من سيدي رحال إلى تيكيرت والممر الذي يربط بين دمنات وأعالي واد درعة الذي يحمل اسم واد سوس تحت نفوذ[249] سيدي المدني بن المزوار و"القايد" الگلاوي[2] وخلفاء "القايد" هم إخوته سيدي حمادي عامل ورزازات، وسي الحاج التهامي القاطن بسفاس المكلف بتسيير شؤون مسيوة، وسيدي حاسيه المكلف الآن بالحد من تمرد السراغنة ضد قائدهم بلمودن، وخليفة دمنات الحاج محمد عبد الخالق الكرولي الذي يمتد نفوذه إلى آيت بوزيد، وآيت كرول شرقا وإلى دائرة سكورة جنوبا، وكنا ضيوفهم أثناء هذه الرحلة، وأبدوا كلهم عن الرغبة في مساعدتنا وفعل أي شيء يطلب منهم. يعتبر "القايد" الگلاوي أقوى سيد في الجنوب المغربي، فهو يحكم شرقا: إلى واد غريس، وجنوبا: إلى الفايجة، وغربا: إلى واد زگموزن ببلاد أونزين، وأذكر من بين هؤلاء الأتباع الذين عرفتهم: الشيخ الزناگي القائد "الوريث" للقبيلة الكبرى لزناگة، الذي يعتبر مستعدا أو قابلا "لدخولنا" التجاري، ويتحرك زناگة بحرية من تافيلالت إلى واد نون، ولهم أراض وممتلكات هامة بتسينت، ونستطيع من خلالهم دراسة كل الأطلس الصغير إلى حدود الصحراء المغربية حيث يرعى رعاتهم قطعانهم الكثيرة.

1- انتهت هذه المحلات بتهدئة المنطقة، عاد "القايد" الگلاوي إلى قصبته، وأخذ موقفا حذرا أثناء تصارع السلطانين، فهو خاضع لمولاي حفيظ، لكن لا أحد يجهل أن له علاقة " مودة" مع جاره الكبير "القايد" الگلاوي1910).

2- نعلم أن "القايد" الگلاوي كان من متزعمي أهل الجنوب ضد مولاي عبد العزيز، وزوج بنته لأخ السلطان مولاي حفيظ الذي بايعه في مراكش ثم في فاس، وهو الآن الصدر الأعظم وأخوه سي الحاج التهامي هو باشا مراكش (1910).

بعيدا عن دمنات يأهل الأطلس الكبير بقبائل "بربرية" لازالت ضد أي احتلال، ولا تسود بها أي سلطة سياسية، وكل محاولة لذلك ستكون قبل الأوان، ولكن هذا لا يمنع من عقد علاقات مع الزعماء الدينيين "الشيوخ" الذين لهم الحق لوحدهم لدخول هذه المنطقة الصعبة، وهم ليسوا سوى شيخين: سيدي علي أو الحسين الحنصالي، وسيد علي أمهاوش.

للأول زاويتان "كما رأينا سابقا" الأولى في المدخل والثانية [250] في نهاية ممر col أَحنْصال حيث ينبع أسيف أَحنْصال الرافد الأساس لواد العبيد، ومن الأخرى واد تودغا رافد واد زيز. ويتكون الأتباع الروحيون للحنصالي من آيت بوزيد، وآيت عطا، وآيت إصاح، وآيت سخمان.

يسكن سيدي علي أمهاوش بزاوية أغبالة "كما رأينا" بجوار منابع واد العبيد، وواد ملوية، وهو مشهور جدا وله تأثير واضح، ويطيعه كل من آيت عبدي، وآيت سْري، وآيت إحودي، وآيت ويرّا، وآيت إسحاق، وآيت إشقيرن، وآيت يحيى، وآيت إحند. وكنا ضيوفا عند هذين الشريفين عدة أيام، ويتلخص شعورهم حيالنا في هذه الكلمات التي قالها الشريف أمهاوش لفرسان آيت يحيى عقب حفلة تبوريدة على شرفنا:

- "اصنعوا البارود، هيؤوا أسلحتكم، دربوا خيولكم وقت الجهاد قريب!"

من الهام معرفة الأعداء، ومراقبتهم والتجسس عليهم، وهذا أمر سيكون سهلا علينا، فالشريفان من أتباع الزاوية الدرقاوية، وسيدي أمهاوش صديق شريف تامصلوحت الموالي لفرنسا قلبا وقالبا[1]. والممران الأخيران اللذان يخترقان الأطلس الكبير قبل أن تنحدر السلسلة في صحراء الجنوب الوهراني هما ممر col تينوت وممر تالغومت. ينبع غريس أولا ثم واد زيز ثانيا، ويسكن آيت حديدو وأيت مرغاد الأول وآيت إزدگ الآخر/ الثاني. كل هذه القبائل الجبلية صعبة المراس، جعلهم جوارهم مع الجزائر محتاطين، وعنيفين فليس لديهم زعيم سياسي، ولا زعماء دينيون لهم تأثير عليهم. ولكن سيكون لدينا في هذه الجهة رجل/عون مخابرات مطرود من الجهة الوسطى للأطلس إنه اليهودي. ولا أحد يعرف المغرب جيدا مثل اليهود. وعلينا أن نشير إلى أن أحد أهم الإنجازات [251] "لتدخلنا/ احتلالنا"، وتطوير المدارس اليهودية هو معرفة مدى استعداد معلمي مدارس الرابطة الفرنسية بموگادور، ومراكش لقبول مساعدتنا ودعمنا. ما زال هناك كثير من العمل من أجل جعل هذه المدارس تستجيب لحاجيات الساكنة اليهودية. والمسألة لا تتعلق سوى ببعض المال القليل، ولا أشك لحظة في أهمية العملية.

****

تتكون الواجهة الشرقية لمربعنا من تافيلالت. نخرج هنا من "المملكة الشريفة" لندخل مناطق جذب الجزائر، وهذا الحوض الصحراوي ليس مرتبطا بالمغرب إلا بأعرافه، ويتبع إلى وهران. وللجغرافية كلمتها ضد السياسي، فالواحة كما الجزيرة هي "التابع" للبلاد الأكثر قربا، لكن هنا فإن

1- توفي مولاي الحاج شريف تامصلوحت سنة 1908.

أقصر طريق الذي يربط تافيلالت بأرض خصبة توصل إلى بشار هي نقطة نهاية السكة الحديدية للجنوب الوهراني[1]. علما أن مشاعر هذه الساكنة غير مستقرة، وتتماشى مع المثل "البربري" القائل:

"ليس للبربري من معلم سوى البارود وليس للفيلالي من إلاه سوى المال".

عندما يطلب سلطان من الفيلالي طاعته يريه الشرق، وعندما يريد ذلك من الوهراني يريه الغرب، والواقع إنه لا يؤمن بشيء سوى باستقلاليته المادية خصوصا، وهو يُقنِّع الخوف الذي ينسبه له باسم التعصب ويحتقر السلطان باسم (الشريعة).

يمكن أن نصل إلى تافيلالت عبر طريقين، الأولى هي طريق فاس وهي طويلة من عشر مراحل، تمر بممر تالغومت وأحيانا بممر تونفيت، والثانية طريق مراكش وهي من اثني عشر مرحلة عبر ممر تلوات. وتصل السلع عبر أحدها في الأوقات العادية [252] بفارق زائد خمسين في المائة، في الأخرى ستين في المائة. وترتفع هذه الأرقام في وقت الفوضى (السيبة) إلى ما أكثر/ أبعد من مائة في المائة. ينتظرك أخيرا حاجز حقيقي يعزل تافيلالت عن المغرب، ويكفي لهذا أن يغلق الممران اللذان يربطان هذه المستعمرة "بمحورها". وسيكون من السهل أن نحدد هذا الاعتراض.

تافيلالت شبه مغلقة في أراضي قبيلة آيت عطا المخيفة، ولا تعترف هذه القبيلة النصف مترحلة، والنصف مستقرة بأي سلطة روحية إلا شرفاء تامصلوحت، وسبق أن تحدثت عن موقف شريف تامصلوحت منا، وصرح لي في رسالة مخطوطة منه أعطاني إياها لحظة مغادرتي له أنه رهن إشارة السلطات الفرنسية حيث يطلب حمايته وحماية أبنائه.

****

يشكل الجنوب المغربي مسكنا لعدة قبائل مترحلة عربية في أغلبها، والتغلغل الاقتصادي في هذه الواجهة الصحراوية أقل أهمية، ورغم ذلك لا يمكن أن نعرف ما هي التأثيرات التي يمكن أن نمارسها من أجل الوصول إليها. والسلطة السياسية متقطعة بها إلى اللانهاية فسلطة الزعماء الأكثر قوة تمارس خارج دائرة، أو فخذة، أو دوار. وتبقى تحركاتهم رهن السلطة التقديرية للجماعة أو مجمع أعيانها الذين يسمونهم ويراقبونهم. ويعطينا زناگة مثالا نادرا لقبيلة بربرية خاضعة للزعيم الوريث الذي تعتبر "أراضيه" الجنوب المغربي من الشمال إلى الجنوب ومن جبل سروا إلى الصحراء. وهنا فإن السلطة الدينية ليست فقط في يد الشرفاء أو العلماء الذين يسمونهم بالأمازيغية: إگورامن بل بيد الزوايا خاصة، أشهرها وأكثرها تأثيرا زاوية تامگروت [253] على واد درعة، ومغيميمة على واد ازگيد، وسيدي مرّي على واد تليت، وسيدي محمد أو يعقوب قرب إيليغ، وسيدي عيسى أو أبراهيم قرب أنزور. وكل هذه المؤسسات الدينية محتاجة، والمثل "البربري" يقول:

1- المسّافة الفاصلة بين بشار وبودنيب هي حوالي أربعين كلم عبر وادي واد كير الذي تتخلله نقط ماء جيدة، والمسّافة بين بودنيب إلى تافيلالت ثلاثين كلم.

"لا يسمى الضريح ضريحا إلا إذا فتح بمفتاح من ذهب".

ويمر مسارنا من كل الزوايا باستثناء زاوية مغيميمة التي زارها دوفوكو مطولا، وأعرف بصفة خاصة شيوخها الثلاثة الأخيرين، وليس هناك أسهل من الدخول معهم في علاقات. وسيكون وصولنا المباشر إلى هذه الحدود الجنوبية للمغرب سهلا، فدوي منيع يعرفون الطريق جيدا، ويعبرونها كل سنة من أجل سرقة ما في واد درعة ونهب قطعان القبائل المترحلة للساحل الأطلسي. وأبان صحراويون[1] أنه سيكون من السهل أن نقوم بشرطة الصحراء المغربية عندما نتخذ قواعد بالجنوب الوهراني.

****

يجب علينا في نهاية هذه اللمحة عن الوضعية السياسية والدينية للجنوب المغربي أن نذكر أيضا أربع شخصيات، رغم أنها تسكن شمال الأطلس الكبير لكن لها تأثير على المنطقة الجنوبية، ويمكن أن يكونوا متعاونين جيدين معنا. وسأذكر في المقام الأول:

1 - أخ السلطان مولاي حفيظ والخليفة على الجنوب والذي يقتضي دوره أن ينقل الأوامر أكثر من أن ينفذها، ودعمه سيكون نافعا كثيرا لنا، والرحالة الذين تحركوا داخل المغرب يعلمون وزن رسالة توصية رسمية، مختومة من السلطان في بلاد غير خاضع تماما، [254] والمخزن بخيل جدا في هذا الاتجاه. وهذا الرفض للجوازات هو سلاحه الأجود من أجل إزاحة الأجانب المتربصين، ويملك مولاي حفيظ الخاتم الشريفي. وهذا الأمير الصغير شاعر، ويعد أحد أهم المثقفين اللامعين "بالمملكة" وهو شعبي، طالب الرأي العام عدة مرات أن يكون سلطانا بدلا من أخيه. وهذه الأسباب تجعلنا نهتم به، وسيكون هدفا ثانيا لاهتمامنا، ثم إن الخليفة تحت "نفوذه" قوتان معارضتان لنا. ويوجد بالقرب منه مقدم من الصالح الشهير السوداني من شنگيط الشيخ ماء العينين. وهدف هذا "السفير" كما نسميه هو تهييج تعصب الأمير. ويبدو مولاي حفيظ على العكس من ذلك متسامحا، وحكيما بشكل ملحوظ. أثار انتباهنا وبشكل قاس أثناء زيارتنا أن هذا المقدم وقف ضد "أطماع" فرنسا وإنجازاتها في موريطانيا حيث صرح بنبرة عميقة "دعوية" أن المورو سيتكلفون بقطع الطريق التي تربط السينغال بالمغرب"[2]. والتأثير القوي الآخر الذي يمارس ضد مولاي حفيظ هو لطبيب فريد يلعب عند الخليفة أدوارا "مشابهة" بعض الشيء لسكرتير المترجم والوسيط.

2 - وسي عيسى العبدي "قايد" عبدة هو أغنى الشخصيات السياسية لوسط المغرب وأقواها، ويبين الاستقبال الذي خص به الفرنسيين، الذي خص به المتعاون معي السيد دوفلوت روكفير De

---

1- تعرف "القبطان" فلاي سان ماري من البادية الصحراوية لتوات إلى تندوف 31 أكتوبر 1904 إلى 11 يناير 1905، جريدة اللجنة الأفريقية الرنيسية أكتوبر 1905.

2- بعد رجوعنا ببعض الأسابيع اغتال المورو اليدكوبولالي **M. copolain**، ثم بعد ذلك الملازم فابر **Fabre**، ومنذ ذاك عملت حملة **campage** العقيد كورو 1909 (**Gouraud**) على طرد عصابات لصوص ماء العينين شمالا: وها هو الآن لاجئ بتزنيت بسوس (1910).

والعون الذي يقدمه في كل المناسبات أنه من بين أحسن أصدقائنا بتأثيره Flote Roquevaire وعلاقاته. [255]

3 - كما أن صالح أبي الجعد يعد الزعيم الديني الأكثر احتراما في وسط المغرب ويسكن بتادلة، لكن نفوذه يمتد إلى ما بعد ذلك، كان "نافعا" لفوكو وأكد لنا أنه ما زال في خدمتنا وأنه يضع أبناءه رهن إشارتنا.[1]

4 - وأخيرا سيد المهدي المنبهي المبعد والمنفي بطنجة يحتفظ بعلاقات جيدة مع كل زعماء الجنوب، فا "لقايد" الگلاوي قريبه، وشريف تامصلوحت صديقه، أظهر لي هو بنفسه عن تعاونه وقدم لي خدمات لما كنت في الجنوب وعندما شكرته في عودتي صرح لي أنه سيكون سعيدا دائما لخدمة الفرنسيين [256] [2].

1- انظر القسم الأول، عن الدكتور هولزمان **Holzmann**.

2- لم أغير شيئا في هذه اللمحة المنشورة في جريدة اللجنة الأفريقية الفرنسية في ماي 1906، ونحن نعرف كيف حققت الأحداث تنبؤاتنا، فقد أعلن مولاي حفيظ استقلاله، واتخذ "القايد" الگلاوي الذي زوجه البنت علافا (وزيرا للدفاع، و بايعته مراكش في غشت 1907 بفاس كذلك في يناير 1908، ولما أزيح مولاي عبد العزيز عن الحكم لجأ إلى طنجة (يوليوز 1909)، وجاء صالح أبي الجعد إلى الدار البيضاء أثناء عمليات الجنرال درود **drude** ليقدم خدماته لنا، وتوفي شريف تامصلوحت سنة 1908.

الفصل الثاني

التنظيم السياسي للجنوب المغربي

الخلاصة: إن المغرب الجنوبي معزول بين الأطلس والصحراء والمحيط، ويشكل تقريبا كيانا معزولا . وتنظيمه السياسي معقد إلى درجة أنه يبدو فوضويا، حيث نجد فيه مختلف أشكال التجمعات من الجماعات المستقلة للأطلس الصغير إلى القيادات الكبرى للحوز. توجد فوق هذه الخريطة السياسية خريطة دينية أكثر تعقيدا أيضا حيث تتقاطع مختلف الطرق الصوفية، والزوايا الدينية. تتعقد هذه الوضعية كل يوم، المغرب في أوج التفكك الاجتماعي، ف"الكنفدراليات" السياسية تتحلل، والقبائل تنقسم، والطرق الدينية تتزايد... ولن يصبح المغرب قريبا سوى فسيفساء لتجمعات من القبائل لكل واحدة استقلالها السياسي، والديني.

تسمى هذه الثورة عند بعض من لم يحسن تقديرها "الفوضى المغربية" التي هي في الواقع ليست سوى امتداد وراثي للجنس "البربري" لكي يرجع إلى تنظيمه القديم أي للنظام الديمقراطي. ويظهر لنا التاريخ أن المغرب ما قبل الاجتياح العربي يعيش فيه سكان قلة مجتمعين في تجمعات مستقلة مثل ما هو الحال اليوم لأتباعنا بالقبايل والتوارگ.

غير الاجتياح العربي وما تبعه من تحول هذا التنظيم القديم "البدائي" فالعرب [257] جمعوا القبائل تحت حكم الشيوخ، واجتمعت القبائل تحت إدارة "القياد". وتكون الحكومة "الديمقراطية" من الأعيان أعطى الفرصة (للحكم المنفرد) "للقايد"، والحكم الشرعي للسلطان، لكن هذا التنظيم القبلي الذي فرضه العرب لم يكن دائما إلا سطحيا، ولم يستطع السلاطين الحفاظ عليه إلا بالقوة حيث لم يتوقفوا عن التحرك دون توقف بين شمال دولهم وجنوبها. وكلما اهتزت هذه السلطة مُسّت وحدة المغرب، وتفككت التجمعات المصطنعة، وظهر تمرد "البربر" على هذا التنظيم القبلي وحنوا إلى ديمقراطيتهم التقليدية.

****

يسكن بالمجال الذي ندرسه (آسفي، جبل العياشي، واد درعة) ممثلو أربعة أجناس مرتبين تباعا حسب ظهورهم بالمغرب وهم: "البربر"، والزنوج، واليهود، والعرب.

سنحاول من هنا معالجة المشاكل الصعبة للأتنولوجية المغربية، لأن عدم كفاية الوثائق المتحصل عليها، وصعوبات الملاحظة يجعلان كل فرضية اعتباطية وكل خلاصة سابقة لأوانها. فلنجعل مجهودنا إذن مقتصرا على ملاحظة أن سكان الوسط هم في أغلبيتهم بربر، ونعلم أن الغزو العربي جعل "البربر" يلجؤون إلى جبالهم، ثم حدث رد فعل طبيعي جاء بهم إلى السهول ليطردوا العرب إلى تخوم الصحراء. وأخيرا فإن العنصر العربي بالمناطق الداخلية قد "ذاب" وسط الساكنة "البربرية" مما يجعل الآن من الصعب تحديد نسبة التقاء الدم الأسيوي بالدم الإفريقي من أجل تكوين هذه الساكنة المغربية، حيث تختفي الفروقات المتراوحة بين الريفي الأبيض، والحرطاني الأسود.

البربر:

يعرف "البربر " في الجنوب المغربي بأسماء مختلفة، فهم يسمون عند البعض إمازيغن ونسمي بْرابر سكان الأطلس المتوسط والأطلس الكبير [258] ويسمون في الصحراء: "الشلوح" وهم

سكان سوس والأطلس الصغير والأطلس الكبير. والحراطين هم البرابر السود لحوض واد درعة، كلهم سكان مستقرون فلاحون، وكسابون، لهم حس تجاري مساو إذا لم نقل أعلى مما يوجد عند اليهود ولا يتكلمون تقريبا إلا تمازيغت.

لعْرب، المبعدون الذين شاهدناهم في تخوم الصحراء، مكونون من القبائل الكبرى المترحلة، ويسكنون خاضعين في الجماعات، والواحات "البربرية" المغلقة في مجالاتهم حيث تفرض عليهم ضريبة الذبيحة[1].

الزنوج، أصولهم من "السودان" وهم عبيد، جيء بهم قديما في القوافل، لكن توقفت هذه التجارة منذ الاحتلال الفرنسي، ولم يتطور هذا الجنس إلا بواسطة التوالد، ورغم ذلك فإن أعدادهم تكفي المغاربة ... والاختلاط بين الدم "البربري" والدم الزنجي موجود وهو ما يعطي: ضراوة، والحراطين، وكبدانة الذين يسكنون في حوض واد درعة.

اليهود، موزعون بطريقة غير منتظمة في الجنوب المغربي، وهم من أصلين الأول أسيوي قديم الذي ينتمي إليه يهود الداخل ويسمونهم "البربر" آيت موسى أوفلشتين/ فلسطين الذين يدعون أنهم غادروا فلسطين بعد تخريب القدس، والثاني أوروبي وينتسب إليه يهود الساحل الذين جاؤوا من إسبانيا والبرتغال أثناء زمن الاضطهادات، ومن هنا تفسر طقوس اليهود المغاربة. ولغتهم[2] تؤكد هذا الإصرار. سبق أن قلت إن التنظيم القبلي لهذه الساكنة قديم، ولم يفهموا أو يصلوا إلى مفهوم العشيرة، فهم يكونون مجموعات اجتماعية صغيرة تحت اسم القبيلة أو تقبيلت ب"البربرية" التي تترجمها ب tribu.

والقبيلة ليست دائما إلا وحدة جغرافية، لأن الفخذات [259] المكونة لها مشبعة بخصوصية قوية وأنانية، وتسمى هذه الفخذات باسم إخس (العائلة) ولعظم (العظم) والخمس (الخمس) وسدس (السدس) والفخذة مقابل لما نسميه العشيرة، وهو أول تجمع يمثل انسجاما حقيقيا، ومكونا من تجمع عدة عائلات أو منازل يسميها "البربر" أدوار (منزل) إنيان (منزل) تيگمي (دار) والعرب يسمون خيمة تاكا كانون (منزل)[3]. وتتعايش هذه المجموعات البشرية فيما بينها من أجل حماية مصالحها المشتركة، في رابطة أو عصبة مؤقتة تسمى اللف، (وبتمازيغت أمقام) ومن النادر أن كل الفخذات من القبيلة تنتمي للف نفسه، والغالب أنها تنتمي للفين أعداء. والصفة المميزة لهذا المجتمع "البربري" هي الانتماء القبلي، وكل واحد يمارسه حسب قوته، و"البربري" غالبا ما يكون أنانيا وشرسا خارج العائلة. والنساء يتحاسدن في العائلة بغض النظر عن سلطة الزعيم، والأخوة يتحاسدون. وكل الفخذات يسودها الخصام، والحروب حول الحقول أو المراعي والماء إلخ... ويكون

1- انظر معلومات دوفوكو عن الذبيحة.

2- المعلومات والانطباعات التي جمعها فوكو عن اليهود المغاربة أكثر دقة حيث أظن أنه لا يمكن أن أضيف إليها جديدا.

3- في حالة صرف التعويضات يعطى للمنزل قيمتان مختلفتان، فالمنزل مكون من ثلاثة أشخاص/ أفراد وامرأة وطفل أو من عشرة أفراد حسب العدد في إتجاه احصاء أو تحصيل الضرائب.

هناك اتفاق بين القبائل من أجل الدفاع وأحيانا من أجل الهجوم، وتبدو هذه المنطقة للجغرافي كما لو أنها فسيفساء معقد، ويلاحظ السوسيولوجي أن قلة من الرجال غير قادرة على النظام والتعايش.

خلقت ضرورات الحياة الجماعية رغم ذلك تنظيما اجتماعيا قديما سيشتغل تقريبا بالطريقة نفسها في كل التجمعات "البربرية"، سواء كان هذا التجمع دوارا أو قصرا أو موضعت أو أگادير، أو قلعة/ قصرا فهو مسير بمجلس الجماعة (إنفلاس بالأمازيغية) أو زروفات (في الحوز) مكون من كل الأعيان والشيوخ أو إسمغورن تحت قيادة أحدهم منتخب كل سنة يسمى شيخ العام أو "أمغار" [260].

ويحمل هذا التنظيم الديمقراطي في سوس الاسم القديم آيت الربعين، ويترجم "البربر" بهذه العبارة المجازية لفظ "الجمهورية". ولازال انتخاب شيخ العام مصحوبا في بعض المناطق السوسية بنوع من العادات الرمزية التي تقتضي أن يوضع فوق رأس المنتخب عمامة (رزة تشترى من مال القبيلة). كما تنتخب الجماعة أيضا أمزراگ (حامل الرمح) وهاتان الشخصيتان شيخ العام وأمزراگ مكلفان. الأول ينفذ جميع القرارات التي اتخذتها الجماعة، والثاني يراقب هذا التنفيذ. وهناك تجمع أكبر يضم شيوخ العام وإمزراگن من كل الفخذات يضبط قضايا القبيلة. ويعين هذا التجمع سنويا "أمغار" أي الزعيم الأكبر الذي تكون مدة حكمه مبدئيا غير قابلة للفسخ ولا يمكن تجديدها. وهذا الحصر لم يمنع أبدا بعض هؤلاء الزعماء من ذوي القوة أو الكفاءات أن يحافظوا مدة أطول على هذه السلطة، وهكذا أصبح لقب الشيخ يطلق وراثيا مثل ما يقع مثلا في القبيلة القوية لزناگة.

ولازال أيضا في سوس بعض الأعداد من الأشخاص يحملون لقب "القايد"، وهذا اللقب تشريفي محض في بلاد السيبة مادام يحيل على موظف المخزن، "فالمكلف" عندما يقبل سلطة حقيرة لأن سلطته تتوقف بمجرد ما تحل ببلاده محلة تشريفية، ولن يبقى له سوى اللقب الذي يمكن أن ينقل إلى سلالته (حفدته). تعالج القبيلة جماعة القضايا الخارجية، فهي لا تجتمع سوى من أجل أن تقرر في الحرب أو السلم، وتعمل على تهيء الاستعدادات للتسلح، وهكذا قررت جماعة آيت عطا أثناء مرورنا بها أن على كل فرد من القبيلة حسب مستواه المعيشي أن يكون له في تاريخ محدد فرس وبندقية أوربية أو عربية.

ينقل شيخ العام أوامر مشابهة [261] يراقب تنفيذها أمزراگ، ومن تخلف يعاقب بغرامة وتصادر أملاكه عند الاقتضاء. وجماعة الفخذة مكلفة بتسيير الشؤون الداخلية، فهي تعمل على إحلال العدل، والقيام بدور الشرطة، فالمهمة الأولى يقوم بها شيخ العام، والثانية أمزراگ.

العدل:

يقوم به نظريا القاضي حسب الشريعة الإسلامية العادة (العرف). وفي الواقع من النادر اللجوء إلى القاضي، فلا يوجد أكثر من عشرين قاضيا في الجنوب المغربي كله، وهم في العادة علماء شيوخ يتحركون قليلا ويكلف ذلك كثيرا. فيجب السكن بالجوار منهم وأن تكون غنيا من أجل الوصول إلى "وزارتهم"، ويسهر العدل على تحقيق الأحكام طبقا لإزرف (الأحكام) أي حسب العرف "البربري"، ويستبدل الشيخ أحيانا بحكم أو شريف أو غريب مميز، وينقل حكمه إلى الجماعة الذي ينفذ دون استئناف أو أجل. واستعمال إزرف مأخوذ من القرآن، فشريف أَحنْصال الذي سنأخذ منه

الأمثلة اللاحقة كان يعتذر عن جهل زبنائه (أهله) عتاقة عاداته. فإزرف يقر كحجة بشهادة أو قسم عشرة أشخاص الذي يقتضي أن يتقدم تسع شهود من القبيلة، والمدافع عاشرهم ليقسموا هل كانوا حاضري الواقعة أم لا؟. والدية تختلف باختلاف الجريمة، هي محددة عند آيت يحيى، وآيت سخمان، وآيت إشقيرن بخمسمائة خروف وخمسمائة دورو في حال قتل رجل، وتقدر دية قتل امرأة عند آيت عطا بحوالي أربعمائة بسيطة، ويكون قتل يهودي سببا في الحرب، أو مدعاة لتحكيم حسب طبيعة حاميه. وقتل غريب يؤدي عنه غرامة ستين خروفا مثل "العار" التي على الزطاط (الحامي) أن يحملها إلى عائلة الضحية [262].

وإذا حدث أن كسر أحدهم سن منافسه فإنه يعطيه عجلا عمره سنتنان وخروفا، وأن يعد وجبة أيضا للحكام. وتعويض جرح في الوجه يتم حسب خطورته، ويصفف القاضي الخرفان في صف واحد من أجل تنفيذ الأحكام، ثم يتموقع في أقصى الصف، ويبتعد عنه المصاب ويبتعد عنه وهو مواجه إلى أن يصعب على القاضي تحديد نوع الجرح فتكون كل الخرفان الموجودة بين المصاب والقاضي من نصيب الضحية. ويعوض اللص مسروقه مضاعفا فمن سرق عجلا يعوضه باثنين. ويعاقب الخائن لزوجته بثلاثمائة خروف عند آيت عطا، ولا يعاقب إلا إذا كانت المرأة متزوجة لأن ذلك يعتبر مثل سرقة وليس خطأ أخلاقيا، ويحق للشباب غير المتزوجين كل العلاقات (الجنسية) مع النساء غير المتزوجات سواء كن عذارى أو عازبات أو مطلقات أو أرامل.

الضيافة:

يوزع شيخ العام مصاريف (المونة)، فهي من حق أي غريب يتوسل بعبارة "ضيف الله"، وتختلف الضيافة باختلاف منزلة الضيف، فإذا كان شخصية مميزة فإنه يكون ضيف القبيلة وعلى كل منزل الاعتناء به، فهذا يهيء الطعام (الكسكس) والآخر يقدم السكر، والآخر الشاي والخشب إلخ... حسب تقديرات الشيخ، وإذا كان مسافرا بسيطا فإنه يوكل إلى أحد السكان حسب دوره في اللائحة التي أعدها الشيخ. والخصومات حول الإرث والطلاق هي الأكثر حدوثا وصعوبة، حيث يجد الشيخ صعوبة في البث فيها. وبدا لنا من المعلومات التي جمعناها أنها مختلطة، وأن أي قاعدة لا يمكن أن تستخرج من هذه الأحكام، والحاكم يطلق الأحكام حسب هواه كما يقول الأطراف. إن تنفيذ هذه الأحكام واستخلاص الضرائب تكون فيه صعوبات في غالب الأحيان. وحكوا لنا عن واقعة غريبة جدا عند آيت عبدي، حيث ذهب الشيخ عند المتهم الذي عليه تأدية الضريبة ووضعه [263] رهن الاعتقال، أو تأدية المبلغ، وإذا رفض المتهم فإن الشيخ يجمع حجرة/ حصاة ويبللها بريق فيه، وعليه أن يؤدي الذعيرة قبل أن تجف ريق الحصاة وإلا ضوعفت الغرامة، ويكرر الشيخ هذه العملية ثلاث مرات، وبعد ذلك يتدخل أمزراگ ليطبق وسائل "التهذيب" التي يتوفر عليها. وتجدر الإشارة أيضا إلى أن من بين الشخصيات الهامة في الحياة العامة والخاصة: العدول الذين تعود لهم مهمة تحرير العقود الهامة، ولا يوجد إلا العدد القليل منهم مثلهم مثل القضاة لأن أتعابهم مكلفة.

السوق:

السوق مؤسسة "مقدسة" في الجنوب المغربي، وبدا لي أكثر احتراما من الشمال، ولم أسمع في أي مكان أن مخاصمات، أو مشادات، قد أوقفت التجارة في سوقها، وأن النساء وحدهن من يتسوقن مثل ما هو الحال في الشمال عند جبالة، والسوق في الجنوب المغربي مجال محايد وإذا نُهب سيكون بفعل قبيلة عدوة، ولن تكون إلا نفرة أو "كسرة" طارئة بين السوقة. وقد يكون هناك شجار أو مواجهة في السوق لكن لا أحد يسرق التجار، و"للبربر" حس تجاري قوي يجعلهم يضعون مصالحهم التجارية بعيدة عن الأهداف السياسية، بل إن الحرب نفسها لا تمنع المتاجرة مع القبائل المتجاورة. وسنعطي بالدقة والكمال الممكن في معلوماتنا السياسية لائحة أسواق كل فخذة، وسنضيف إليها لكي تكون كاملة الملتقيات التجارية السنوية الكبرى مثل موكار مغيميمة، وتازروالت، وآيت أوسى، والأعياد الكبرى، والمواسم والزوايا والمدن المشهورة [264].

الفصل الثالث

التنظيم الديني للجنوب المغربي

الإسلام هو الدين المشترك لكل من "بربر" الجنوب المغربي وعربه وزنوجه[1]. ومن "نافلة" القول إن أسلمة هذه الشعوب البدائية قديم جدا كانوا لا يعرفون اللغة العربية ولا اللغة الفصحى، ولم يتمكنوا من فهم القرآن ولا القيام بجميع الشعائر. ويقال عن هذه الصعوبة إن القرآن "ترجم" إلى اللغة الأمازيغية لكي يتمكنوا من فهم الرسالة. وكل المخبرين الذين استجوبناهم نفوا هذه "الرواية". وأنكر الشريف أمهاوش هذه الفرضية مذكرا أن القرآن يجب أن يقرأ باللغة التي نزل بها دون وسائط أو ترجمة، بل حتى "نغمات" القراءة تمت حسب طقوس موروثة. ويفسر القرآن في كل المدارس "البربرية" بتمازيغت وكذلك الأمر في كل زوايا الجنوب المغربي. ويصعب على أغلب الطلبة المكلفين بهذا الأمر التكلم بالعربية، ويستطيعون تحرير رسالة أو قراءتها بعربية أدبية سيئة. وينحصر التعليم الديني للبربر في السور "القصيرة" التي يتلونها في الصلوات اليومية التي يمكن أن يضاف [265] إليها ذكر الطريقة التي ينتسبون لها[2]. وترجم بعض "العلماء" وشرحوا استعمال الطلبة "البربر" لأهم الكتب الفقهية والشرعية، وتليت علينا مقاطع من الكتب الفقيهة للشيخ السنوسي، والشيخ خليل. وأخذنا معنا نسخة مخطوطة للشيخ البوصيري، مع شرح وتعليق بتامزيغت[3].

إن الجهل "الديني" للبربر هو ما يفسر دفء "سلميتهم" فهو يمكننا أيضا من فهم أن الأسلمة أصبحت بين أيديهم ممزوجة بالبدع، والسحر والشعوذة، والخرافة، والجاهلية، واليهودية، والكاتوليكية. يبدو أنه انتقام من المهزوم لهازمه حيث غير "البربر" معتقد العرب. ويبدو أن دينهم انتقام من سلطة العربي الذي لم يعمل سوى على فرض الدين بالسيف الغالب. "فالبربري" القوي/ المعارض قبل سلطة القوي لكن ردة فعله كانت سريعة جدا، وقوية جدا، واحتفظ بكل معتقداته التي كان يعزها كثيرا وأهمها تلك التي كانت عواقبها أكثر صعوبة هي زيارة الأولياء. والمدرسة القرآنية في الوقت الراهن هو العنصر الفعال والقوي في الوحدة الإسلامية. ورث "البربر" من أجدادهم الجاهليين اليهود والمسيحيين هذه الحاجة إلى الاعتقاد بالسحر والرسل أو الأولياء، وأدخلوا في الديانة الأكثر إحكاما المحمدية زيارة [266] الشرفاء من آل النبي، وتقديس "الصالح" المؤسس لسلالة من الأولياء، وأضافوا إلى عبادة الله آلاف السبحات والزوايا، وانقسم جمهور المؤمنين إلى طوائف متصارعة تحت السلطة الدينية لزعماء متنافسين.

1- لم نسمع بأي انفصال مشابه للذي اكتشفه العالم موليراس **Moulièras** عند زناتة والذي أخبرنا بوجوده سنة 1901 أثناء مرورنا عند غياثة: گيلدمان (Gueldman) (رحلة إلى المغرب).

2- حكى لنا شريف أَحنْصال أصل ذكر حنصالة، هو أن سيدي سعيد مؤسس الزاوية كان في الحج مع شيخه سيدي أحمد أوصالح في زيارة لمكتبة الرسول، فرأى كتابا أثار غلافه انتباهه ومد يده لأخذه، فنهاه الكتبي عن ذلك قائلا له كل من قرأ هذا الكتاب سيصاب بالحمق، لكن سيدي أمحمد طمأنه وأعطى الكتاب لتابعه، وفرض عليه أن يكون ذكر الزاوية التي حلم بتأسيسها. وكان هذا الكتاب هو "الدمياطي" أو "أسماء الله التسعة والتسعون". وهذه رواية شفوية مشابهة عند الحديث عن شريف أَحنْصال.

3- مخطوطات بربرية لبعثة دوسيكونزاك سي سعيد بوليفة **journal asiatique**/. شتنبر /أكتوبر 1905.

سبق أن أشرنا في مقدمة هذا العمل إلى الخريطة الدينية للجنوب المغربي. ونتذكر كم هو صعب ومعقد معرفة التأثيرات المتدخلة فيها، ولم يبق فيها سوى مكان صغير للإمام هذا الموظف البسيط والثانوي الذي نجده فقط في التجمعات الكبرى التي بها مسجد وجماعة. ويوظف الإمام من بين "طُلبة" المنطقة، والجماعة هي التي تنصبه ويأخذ أجرته بعناية ومراقبة من شيخ العام، ومهمته هي الحفاظ على المسجد وصيانته، وأن يقدم الطعام للمتسولين الذين يقصدون المسجد، ويسخن الماء للوضوء، ويؤذن للصلاة ويدرس في المدرسة القرآنية.

لا يوجد في التجمعات الصغيرة والقصور والقلاع إمام، حيث يكلف أحد أعيانها بالقيام بهذه المهمة ولا يقوم بدور الطالْب من كتابة وتدريس... وخياطة لأن أشغال الخياطة من اختصاص الطُّلبة، ولن نعود هنا إلى تنظيم الزوايا والطرق التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا العمل[1]، حيث توجد التفاصيل في المعلومات الإحصائية، ومن الهام فقط الإشارة إلى أن هذه المؤسسات الدينية كلها محتاجة حسب المثل "البربري" الذي سبق أن ذكرته وهو "ليس هناك من ضريح إلا فتح بمفتاح ذهب". والخلاصة السريعة للتنظيم السياسي والديني للجنوب المغربي ستكون كالتالي[267]:

إن الفردانية تحل الوحدة السياسية و"تنفي" الوحدة الدينية وهذه الوضعية تجعل من المستحيل كل تحالف من أجل الجهاد مدبدبا ووهميا. أما فيما يتعلق بتنظيم هذه المنطقة مثل باقي مناطق المغرب فإننا نظن أنها ستكون موضوع سلطة مركزية معارضة سترفع الساكنة "البربرية" من الوضعية الحالية إلى المستوى الاجتماعي الأعلى إلى الفيودالية التي ستجتمع القبائل في "كنفدراليات" جهوية تحت "قياد" كبار تحت نظر مراقبين. إن امتصاص السلطة المركزية لهذه التبعات ستكون المرحلة المقبلة، من أجل القيام بها على الوجه الأحسن، وسيضع السلطان إذن عاصمته في وسط هذا "الدول" وسيأكل ورقة بورقة و"قايدا" ب"قايد" أو قبيلة بقبيلة، وسيكون مضطرا أكثر من أجل رفع الضريبة، والجري طيلة مدة حكمه من شمال إلى جنوب "دولته" الثنائية الرأس، ومن "مملكة" فاس إلى "مملكة" مراكش [268].

1- الطريقتان الهامتان أكثر في المغرب الجنوبي هما الناصرية بتامگروت والدرقاوية، ويتوصل درقاوة سوس بوردهم سيدي سعيد الساكن بالدرارگة في قبيلة مسگينة، وسيد الحسن أوتموديزت الساكن بالمعدر إدا أوسملال، ويجعلون شيوخهم شيوخ درقاوة تافيلالت كما رأينا في القسم الأول.

الفصل الرابع

التنظيم الاجتماعي للجنوب المغربي

إن الطابع المميز للبربر يجعل كل مجموعة مجتمعية منهم مرتبطة بعاداتها وتقاليدها المختلفة جدا رغم طابعها الظاهر المتشابه. وتحتاج كل واحدة منها إلى مونوغرافية خاصة. وقد تستطيع مجموع هذه الدراسات الوقوف عند السمات العامة للتنظيم الاجتماعي للجنوب المغربي، ومادمنا لم نستطع جمع الوثائق الكافية بهذا الخصوص فإننا سنكتفي بوصف هذا التنظيم مدعمين أقوالنا بالنصوص التي جمعناها من مخبرينا.

الزواج

"البربر" متعددو الزوجات، علما أن الغالب عندهم هو تزوجهم لزوجة واحدة. وكل رجل ميسور يتزوج امرأتين، أو ثلاثا، أو أربعا، حسب الاستطاعة. ورأينا في أحد القصور كيف أن وفاة أخوين أجبرا الثالث على أن يتزوج زوجاتهما الخمس، إضافة إلى الزوجتين اللتين كانتا في ذمته مكونا بهذا حريما من سبعة نساء، والتعدد مساير للقانون والعادات. ولكل الزعماء السياسيين والدينيين الكبار عدة زنجيات جوار. وحكوا لنا عن حريم "القايد" الكلاوي باعتباره أكبر حريم في الجنوب المغربي. والزواج هذا أحد أهم حدث في الحياة الاجتماعية "البربرية"، حيث يحسون فيها بالسعادة، والأولاد يتزوجون بمجرد ما يستطيعون القيام بأشغال البيت والفتيات منذ [269] أن "تبلغن" وأحيانا قبل ذلك، وفي القبائل "البربرية االبدائية" تماما مثل آيت سخمان فإن الفتاة هي التي تختار زوجها، والفتاة الصغيرة عند آيت عطا الأطلس تمارس الدعارة دون حياء، والرجل لا يولي أي أهمية لعذرية المرأة، لكن من واجبه أن يتزوج حينا الفتاة أو الأرملة التي جعلها حاملا، وأضاف شريف أَحنْصال أن هذا الإجراء كان كافيا لجعل الرجال أكثر حذرا إذا أرادت الفتيات الإيقاع بهم، وأن المستوى الأخلاقي لهذه القبيلة رغم هذا التسامح لم يكن قط أقل من المعدل. ولنقل بسرعة، وبصفة عامة إن سكان الجنوب المغربي يعيشون في "غير حياء" بشكل يفوق جميع الأوصاف وتعكس الأغاني "البربرية" هذا بوضوح.

وباستثناء الحالات التي نشير إليها فإن طلب الزواج يقوم به أب أو أم الزوج "المقبل"، ويكون هذا مسبوقا ببحث سري تقوم به نساء العائلتين تحسبا لأي رفض. ويعرف الخاطب دائما من يطلب للزواج لأن النساء في الجبل لا يتحجبن أبدا، ويتمتعن بحرية كبيرة في تصرفاتهن، وهكذا فإن "البربري" لا يفكر بسوء أخلاقي عن نسائه وفتياته وعبيده. فدوره محصور في توفير الطعام، والشراب، والنوم، والنكاح، والحرب. وعلامة الخطوبة في عديد من الأماكن هو سوار من الفضة يضعه "المتفاوضون" في يد الخطيبة بمجرد ما يتم الاتفاق، وتختلف أشكال الاتفاق في هذا الموضوع كثيرا، ففي سوس مثلا فإن الأبوين يتداولان أمام عدلين ذاكرين عبارات السنة فوق طبق من الدقيق وضع في أعلاه السوار، وتتم العملية في دادس بأن يوقع عقد أمام القاضي أو نائبه، أما عند آيت حديدو فإن الخاطب يفاوض مباشرة مع صهره المقبل.

يفرض كل زواج في الجنوب المغربي أداء الخاطب لصداق، وهذا المبلغ مختلف، فعند آيت [270] إشقيرن مثلا فإن "ثمن" المرأة يتراوح ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة بسيطة، كما أنهم

يحتفلون بميلاد الفتاة أكثر من ميلاد الولد. ونادرا ما يتعدى مبلغ الصداق في أغلب الأوقات مائة دورو (خمسمائة بسيطة) وبعض الألبسة والحلي يبعثها دفعة واحدة أو في كل سوق. ويقتضي الأمر أن يضيف إلى هذا الصداق هدايا إلى أب العروس وأمها. وتأتي الفتاة يوم عرسها بألبسة وأوان منزلية ومجوهرات خاصة مكونة من العقد التقليدي من القطع النقدية المزين بأحجار من المرجان. وعندما تبدأ مراسيم "الاغتسال" والنظافة، فإنه تطلى كل يدي الخطيب بالحناء، ثم يوضع الكحل على عينيهما، ثم يستحمان ويعطران ويعزلان عن عائلتهيما، ثم تذبح الذبيحة التي يستعمل دمها في أن يرش على أطراف الخيمة أو عتبة الباب. وعندما تنتهي المراسيم يأتي أصدقاء العريس يبحثون عن العروس فوق جواد، أو بغلة، أو جمل، إلى المنزل المعد للعرس، ويذكر هذا التهجير للخطيبة دائما بأشكال الاختطاف والمقاومة. وتتم هذه العملية عند غروب الشمس ثم يستقبل عروسه التي يراها لأول مرة رسميا من أيدي أصدقائه. ومن أشهر العادات المنتشرة هو تقديم هدايا عينية للزوج المقبل، وهي عبارة عن سلف يردها العريس حين زواج أحد أبناء المُهدي.

الطلاق

يعتبر بربر جنوب الأطلس أن من حق الرجل تطليق زوجته، وتتمتع النساء بالحق نفسه في بعض الظروف، وعادة ما يكون ذلك وفق الشريعة الإسلامية، وأشكال الطلاق بسيطة من طلقة واحدة إلى ثلاث، يترتب عن الأولى انفصال مؤقت، وعن الثانية انفصال نهائي [271] حيث تحمل المرأة أغراضها، ويطالب الزوج بالصداق، ويترك الأطفال للأب، وعادة ما يطلق "البربر" بسهولة أقل من العرب، فهم لا يعتبرون عدم التفاهم سببا في الطلاق، وعندما يشتكي زوج من زوجته فإنه يغلق عليها في "أخربيش" (بيت مظلم) وهي عبارة عن سجن للنساء تحرسه حارسة تسمى تاگوجينت. وعندما تكون للزوج شكوك في عذرية من يتزوج، فإنه يلجأ إلى "القابلة"/ "العريفة" التي لا علاقة لها بالقابلة المولدة.

والخيانة الزوجية الملاحَظة تكون حالة للطلاق، ولكي يعطي الزوج مزيدا من الوضوح فإنه يكتب ذلك عند طالْب/"فقيه"، ويرسله إلى زوجته. ولآيت عطا نوع من الطلاق الخاص، حيث يستدعي الزوج عشرة من الشهود، ويعلن طلاقه، وأسبابه، وله الحق أن يمنع زوجته من أن تتزوج رجالا يعنيهم بالأسماء، على أن لا يتعدى عددهم عشرة. وللمرأة حق الانفصال في بعض الحالات أهمها العجز الجنسي، وتتدخل "العريفة" هذه المرة أيضا بأمر من الشيخ العام الذي يشرف على البحث. أما عند آيت سخمان فعندما تتزوج امرأة فإنها تختار ضامنا ممثلا لها، وتقول لزوجها "هذا سيكون ضامنا، ووضعت لفظ الطلاق في فمه" وإذا حدث لسبب أو لآخر أنها تريد أن تنفصل فإنها تبعث قائلة لزوجها عبر ضامنها: ليقول "زوجتك تطلقك (تخلصك!)"، وتكون حرة أن تعود إلى عائلتها في حماية منها. ويؤخذ بعين الاعتبار الحمل بعد الآجال القانونية (العدة) للانفصال، حيث إن على الزوج الاستمرار في رعاية زوجته، وأن يعتني بها إلى أن تضع حملها، بل وأيضا طيلة السبعة أيام التي تلي ولادة مولود الذي يبقى في منزل الأب.

سبق أن ذكرنا أن آيت عطا وآيت بوزيد بصفة خاصة خشني الطباع، ونجد عندهم تسامحا آخر رائعا عند الأزواج الذين [272] لا يهتمون في جميع الأحوال بعذرية المخطوبة. ومما يدفعهم إلى احتقار المرأة تبادل النساء فيما بينهم، بل وأُكد لنا دون أن نتوفر على تأكيدات في الموضوع أن بعض فخذات آيت عطا يشتركون في النساء. والمرأة المطلقة تعود إلى عائلتها وتبقى حرة أو تتزوج حسب رغبتها، والأرملة تعيش لوحدها لمدة تتراوح بين مدة العدة وسنة، ويحدد العرف حصتها من الإرث الذي تستحقه، وتكون مضطرة أحيانا أن تدخل إلى منزل أحد أصهارها أو أحد أقاربها. ويشيع في كل الجنوب تقريبا أن المطلقات تصبحن مرادفات للعاهرات.

الولادة

يحصر "البربري" مشاعر حنانه في الدائرة الضيقة لعائلته، ويعد خارجها أنانيا وبطاشا فيكون نعم الأب في منزله وزوجا هادئا ويعشق أطفاله. وتعد الخصوبة إحدى أهم الخصائص المميزة للمرأة، ويكون العقم سببا في الطلاق أو أن تصبح خادمة، ويحارب العقم بمختلف الأساليب السحرية، وأسهلها أن تحمل المرأة حزام امرأة ولود معينة. تضل المرأة تمارس أشغالها اليومية طيلة فترة حملها إلى يوم وضعها، وتلبي رغبات زوجها. وبمجرد ما تحس بالآلام الأولى للولادة ينادي على القابلة التي تضع الحامل فوق زربية أو حجارة وتضع يديها المربوطتين بحزام إلى خشبة السقف ثم تجلس أمامها، إذا تم الوضع في النهار تترك المرأة الواضعة وحيدة مع القابلة، وإذا كان في الليل فإن نساء المنزل يؤازرنها، ولا يمكن أن يحضر لذلك أي رجل بما في ذلك زوجها. وتربط القابلة الحبل الصري وتقطعه ب"مقص" وتدفن الجزء المقطوع بطريقة غريبة خارج المنزل أو الدوار. ويكون الزوج في هذه الأثناء مشغولا بممارسة طقوس الاستعدادات، ويذبح خرفانا أو[273] دجاجا حسب مستواه المعيشي، وتختلف الذبيحة حسب جنس المولود، فإذا كان ذكرا فإنه يقابل دائما بالأفراح، أما الفتيات فبشكل أقل، ويقول "البربر" نحن لا نحب الإناث (النتوت) إلا في بهائمنا".

ورأينا رغم ذلك آيت إشقيرن يفضلون الفتيات. وتضع القابلة فوق رأس الطفل قطعة فضية معقودة بخيط يتدلى منها حجاب، ولا يأخذ حمامه إلا لاحقا جدا، ومن أجل تهدئته حتى ينام يقطر في فمه بقطعة ثوب قطرات من أوراق bryone ثم تأخذه أمه بعد ذلك لترضعه من ثديها. والشعوذة "البربرية" تعتقد أن المولودين الجدد مهددون بآلاف الأخطار، فيموت منهم العدد الكبير و"الساحرات" قويات جدا! من أجل تفادي هذه الأخطار فإنهن يستعملن كل الأساليب الممكنة. ونتوفر على أحد الطلاسم في الموضوع كتبها العالم الشهير سيدي محمد أو يعقوب، وهو عبارة عن عقدة ثوب أزرق به قطعة من البقدونس، و(الشبة)، والملح، والكبريت، وقطعة فضية صغيرة "قرش" ويجب أن يربط الكل بمعصم الطفل إلى حدود اليوم السابع، وفي هذا اليوم تحول العقدة إلى العنق ويضاف إليها "حجاب" يكتبه أحد الطلْبة/ "الفقهاء".

وإذا كان الوضع صعبا فإنه تستعمل أساليب "بربرية" مختلفة، ورأيت قابلة أولاد جلال تستعمل سكينا وحديدا "أحمر"... وأخيرا عندما تفشل كل المحاولات وتكون المرأة مهددة بالموت فإنه يلجأ إلى أقرب طبيب، ومن الأحسن أن يأتي قبل أن تموت المرأة. ورغم ذلك توجد أساليب أقل "قسوة"مثل غسل رجلي الزوج، وإشراب المرأة التي تضع الماء المستعمل في هذا الغسل. يحتفى باليوم السابع في حياة الطفل، وهو نهاية عطلة الأم، فتتناول الحساء (الحسوة) واللحم، والشاي منذ "تحريرها". وتأكل في اليوم الثالث ديكا، أو دجاجة بحسب ما وضعت ذكرا أو أنثى، وتنهض في اليوم السابع [274] تستحم وتستعيد حياتها الزوجية إذا رغب الزوج، رغم أن المتعارف عليه أن ذلك لا يتم إلا بعد مرور أربعين يوما. ويأخذ الطفل اسمه منذ اليوم الأول وإلا ينتظر إلى اليوم السابع. ويسمى ما بين هذين المدتين: أعراب. وتسمية الطفل عيد عائلي، حيث يذبح خروف، ويستدعي أطفال الدوار الجماعة لتناول طبق تخريفت ويقرأون الفاتحة من أجل سعادة المولود. ثم يذهبون بعد ذلك عند الصالح أو الطالْب/ لفقيه الذي يحلق شعر الطفل، والأهمية التي تعطى لهذه الحلقة الأولى هي التي تفسر نظرية الأتنولوجيين القائلة بأنه طقس يراد منه تطهير الطفل وإزاحة كل المساوئ عنه. ويكون هناك حفل جديد ودعوة جديدة لأطفال المحيط عند ظهور الأسنان الأولى للطفل، ويقول المقربون "هل سيعيش إلى أن يحفظ القرآن".

ويكون حفل الختان أحيانا في اليوم السابع، لكن الغالب أنه لا يكون إلا بعد مرور أربعين يوما عن الولادة، وأحيانا لا يختن الطفل إلا بعد مرور خمس أو ست سنوات. ويشكل حفل الختان في بعض القبائل حفلا بالنسبة للنساء، يجتمعن عند الأم في هذا اليوم التي "تتحزم" من جديد، ويقدمن لها الهدايا الاسترضائية من دجاج، وبيض، وطحين، ونقود... ويساعدهن "الحلاق" في تنظيف الطفل، فيحلق رأسه ويستحمه، ويعطره ويربط في كوعه اليمنى كيسا به "الحرمل و"الشبة" والحناء و"الجاوي".

ويوضع رهن إشارته بصل وبيض "السواك"، وتعصب عين الأم وتشرع المساعدة في الغناء والتصفيق، وفي الوقت الذي يقطع فيه "الحجام" بسرعة وبضربة مقص "الحشفة"، يدفع أحد الحضور بالبصل في فم المريض/ الطفل الذي يصرخ من الألم، ثم ينظف بسرعة الجرح بالزيت والحناء، ثم يأخذ الحجام بعد أن ينهي مهمته "الحشفة" المقطوعة ويدفنها في المقبرة، وتفسر العناية التي [275] يتم بها إتلاف كل ما يتعلق بالجسم البشري من "حشفة"، وشعر مقطوع، وأظافر بالاعتقاد التالي عند "البربر" الشائع بينهم، القائل بأنه يكفي أن تكون لك أي قطعة من جسم إنسان يمكنك أن تفعل به كل الشرور والمساوئ، وهذه هي نظرية السحر المسالم، أو البسيط كما مارسه سحرتنا . وتشكل الرقصات، والأغاني، والحروب، والجنازات موضوع مقالات عدة لقسمنا الأول التي نعتقد أننا سنعود إليها، علما أن الروايات التي ستأتي من بعد ستكمل وتتمم معلوماتنا الشخصية [276].

الفصل الخامس

عادات "البربر" وتقاليدهم
من خلال روايات شفوية لمخبرين أمازيغ

النصوص التي بين أيدينا مأخوذة من رواة ومخبرين أمازيغ، ونشرت في هذا الكتاب كل المعلومات التي استطعت أن أجمعها بخصوص عادات القبائل التي زرتها وتقاليدها، وكلفت بالموازاة مع ذلك مساعدي سي بوليفة المعيد بالقبايل بمدرسة الآداب بالجزائر وهو قبايلي بنفسه، ليسأل السكان ويجمع الوثائق عن اللهجات "البربرية". واستطاع أن يجمع بفضل روايات الأهالي نصوصا "بربرية" أكثر أهمية في علم الاجتماع أكثر من اللسانيات. ونشرت هذه "النصوص "البربرية" بلهجة الأطلس المغربي"، تحت عناية مدرسة الآداب بالجزائر [1] تحت الإشراف الصارم للأستاذ روني باسي R. Basset. ولا أقدم هنا إلا ترجمة لبعض المقاطع محتفظا على شكلها التام مدركا أن أي تحسينات أو تعليق ستفقدها طابعها [277].

الزواج عند إمازيغن (الأمازيغ)

الاستعدادات، والخطوبة، والشروط، والاحتفالات، ومراسيم العرس:

عندما يريد الشاب من إمازيغن التزوج يمارس عملا في بلدته أو يسافر خارجا، ويصرف النصف مما ربحه، ويوفر القسم الآخر إلى أن يجمع المبلغ المحدد، ثم يرجع إلى البلدة، وعندما يعود إلى أهله يطرق الباب وتفتح له أمه، وتمسك أخته بأطراف ملابسه، وتزغرد فرحا ويدخلانه إلى غرفة أمه، وتجري الأخت عند العم لتقول له "ها هو أخي العزيز قد وصل" ويقوم الكل يجري بسرعة إلى المنزل. ترفع النساء الزغاريد من جديد، وعندما يتعبن يصمتن. هكذا يقدم له الماء وعندما يشرب يقدم له إناء مقعر من الزبد المملح (السمن)، ويغسل يده اليمنى ويأكل إلى أن يشبع، وينهض ليغسل يديه من جديد ثم يجلس ويشرع في الحديث مع أمه، وأخته، وأقاربه ويقاسمهم كل ما رآه من متاعب في سفره، وكل ما عاشه من أفراح وأحزان، ويحتفظ بسره الخاص، وبعد ثلاثة أيام من الاستراحة يذهب الشاب عند أمه ويقول لها " أريد أن تزوجيني" وتجيبه "على الرحب والسعة! يا ولدي" ويقول لها "ماذا يلزمني؟" فتجيبه "نادي على المجوهراتي اليهودي ليساعدك" وفي الوقت الذي يذهب فيه الشاب عند المجوهراتي، تعمل الأم والأخت على التنظيف التام للمنزل، وتهيئان الخبز الذي تضيفان إليه الزبدة، وتأخذان الماء ويسخنانه [278] جيدا لتهييء الشاي، وفي هذه الأثناء يعود المعاون أو المساعد اليهودي المجوهراتي مع الشاب، ويتوجه نحو الباب ويقرعه، ثم تجري الأم لتفتح الباب، وعندما يدخلون المنزل تهيء الأواني وتعد مكانا لإضرام النار ثم تنادي الأم على ابنها، ويدخل لوحده الغرفة مع أمه و تقول له:

- أعطني النقود.

- كم؟

وتأخذ منه قطعتين من خمسة فرنكات، ثم تعطيها إلى المجوهراتي وتقول له: "أريد أن تصنع لي سوارين"، يأخذ اليهودي المال ويشرع في نفخ النار إلى أن تذوب الفضة ويصنع السوارين

1- Bulletin de correspondance africain, Tome XXXVI

ويعطيهما للأم، ثم يأتي الشاب ويؤدي لليهودي الأجرة المناسبة، ثم يقدم له الخبز، والزبدة، ويأكلون ويشربون الشاي ويذهبون، وتنهض الأم فجأة وتذهب عند العم لتقول له:

- "يجب أن تأتوا معي لأبحث لولدي عن فتاة جميلة ومن أسرة "محترمة" للزواج".

تحمل معها السوارين مرفوقة بالأخت وقريبتين من الشاب، وعندما تصل وسط السكان تشرع في النظر إلى أبواب المنازل إلى أن تصلن إلى منزل كبير، فتثقلن الخطوات دون أن تثير انتباه أحد، ولا ينتبه لهن أهل البيت إلا عندما يرونهن داخلات في البهو فتشرع في إطلاق الزغاريد، ثم تأتي فتاة شابة خلف أمها خارجة، وتجري تلك النسوة في اتجاهها يسلمن عليها، ويضعن السوارين في يدها اليمنى ويدها اليسرى قائلات للأم "نحن ضيوف الله"، فتجيبهن مرحبا بكن، ثم ينادي على والد الفتاة يأتي للمنزل حيث يجد النساء في ساحته، ثم ينهضن ويتجهن [279] نحوه ثم يجبنه ويقبلن يده. فتقول له والدة الشاب: "نحن ضيوف الله" ويجيبهن: "مرحبا بكن" ثم يقلن له: "جئنا طالبات يد ابنتك لولدي" فيجيبهن: "اذهبن وأخبرن الشاب بأن يأتي "نائبه" من أجل أن نتحدث ونحدد "الشروط" فينهضن أخيرا قائلات: "وجدنا لك فتاة جميلة انسجمنا مع والديها، أكلنا وشربنا بمنزلها والآن اختر "مندوبا" ليتحدث مع والد الفتاة". ثم ينهض الشاب بسرعة، وعندما يلتقى بأحد أصدقاء القاضي يدعوه ليأتي عنده، وبعد أن يأكلا ويشربا في المنزل يقول له الشاب: "في الواقع أنا أريد!" ثم يجيبه الضيف: "ماذا تريد يا ولدي؟" ثم يقول له: "أريدك أن تمثلني عند والد الفتاة إلى أن ينتهي عرسي" . يقول له النائب: "أعانك الله، فأنا سأمثلك إلى أن ينتهي عرسك ويمكن أن تبدأ استعداداتك منذ الغذ". ثم يذهب النائب في اليوم الموالي إلى أب الفتاة ويقول له: "ها أنا نائب عن الشاب الذي طلب يد ابنتك" ثم يقول له الأب: هذه هي شروطي من لوازم وصداق وغير ذلك. فيجيبه النائب: نحن متفقان يمكنك أن تعطيه ابنتك". ثم يذهب رفقة الشاب عند العدول ويحرران عقدا في الموضوع، ثم يذهبون بعد ذلك للشروع في الاستعدادات. ويأتي الشاب في اليوم الموالي عند النائب ويقول:

- "هيا بنا إلى السوق"، يذهبان ويشتريان عجلا وقنطارا من القمح وجرة صغيرة "قلوشا" من الزبدة، وآخر من العسل، وآخر من الزيت. والحناء، والتمر، وغطاء (حجاب) وحذائين (شربيلين)، وقميص نوم للعروس، ومنديلا يوضع على الرأس ويتدلى إلى الوراء (القتيب) والصدر مخيط من الذهب، ويشتريا أيضا قميصين [280] طويلين أبيضين. كل هذا موجه للزوجة الصغيرة، كما يشتري العريس لأب العروس حذاء "بلغة"، ولأمها حذاء "شربيلا"، وقميصا، وعندما يجمع هذه الأشياء كلها، يبعثها "لأهله الجدد" مصحوبا بمجموعة من رجال يحملون بنادق يطلقون منها البارود عندما يصلون إلى منزل والدي الفتاة. وهنا ينهض أب العروس وأمها ليستقبلاهم "قائلين" مرحبا بكم !" ويدخل الرجال إلى ساحة المنزل ويضعون في سلة ما حملوه، ثم يجلسون ويقدم لهم أب العروس خبز القمح والعسل، والزبدة، ويقسمون إلى أفراد حول الطبق، وعندما ينتهي الكل من الطعام ينهضون ويذهب كل واحد إلى حال سبيله. ويبعث العريس بعد مرور اليوم الثالث أي في اليوم الرابع بامرأة عجوز لدعوة النساء ليوم "الحفل".

يأتي الرجال في هذا اليوم ويشرعون في الرقص والغناء مع النساء إلى مطلع الفجر، وعندما يصبحون يجلسون لأكل الكسكس باللحم، ثم ينسحب الرجال للنوم، أما النساء فيشرعن في تهييء خبز القمح استعدادا ليوم النظافة. ويهيء النائب في هذا اليوم مجموعة من الرماة يقودهم إلى منزل العريس. وعندما يجتمعون مصحوبين ببنادقهم، يستمرون في لعبة البارود إلى حدود الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر – ثم يشرع سيد العرس في أن يقدم لهم الخبز، والعسل، والزيت، وعندما ينتهون من الأكل يذهب كل واحد إلى حال سبيله، ويقول العريس، في اليوم الموالي الذي هو يوم التصبين، للنساء:

- "اذهبن وائتين بفلان وفلان".

وعندما يصل عددهم إلى ستة، يأتون لزيارة العريس الذي يصعدهم إلى الطابق حيث يجلسون معه، ثم يأتونه بطبق فيه الكحل، والحناء والتمر، ويعطونه التمر ليأكله والكحل [281] ليضعه في عينيه، وتكلف لهذه الغاية امرأتان. وعندما يكتحل العريس ويأكل الحضور يضعون الحناء في يديه ورأسه، وعندما تنتهي هذه العملية تنزل المرأتان لتلتحقا بباقي النساء في الساحة، ثم ينهض النائب ليبحث عن الجزار، الذي يدخل قائلا:

- "أتوني بالعجل الذي سأذبحه"، ثم يؤتى له به ويذبحه، ثم يأخذون أيضا عشر بيضات تلف في قطعة ثوب، وتوضع أسفل الثقبة التي ينزل منها دم العجل، وتوضع مرآة فوق البيض، وفي الوقت الذي يذبح فيه الجزار العجل تغني النساء:

- "ما أجمل الموت يا عجل الفرح"!

وتسرع أم "العريس" هذه الأثناء بمغرفة لتضعها أسفل دم الذبيحة وترش بها باب المنزل، وتجمع النساء الأخريات المرآة وحزمة البيض، ثم يأخذن أحشاء العجل ويهيئن مشوي "الكباب"/ "القطبان" ويتركن الكسكس جانبا. وتذهب كل النساء بعد ذلك للنظافة، وارتداء أحسن ما عندهن من الملابس، وترجع كل واحدة منهن حاملة معها الحجرة التي ستجلس عليها، وعندما تجلسن جميعا تشرعن في لعب أزامود، ثم تنهض ثلاث عجوزات مصحوبات بطبل ويتموضعن في الوسط وتشرعن في الضرب على الطبل، ويصاحبنها الجالسات باستعمال الأكف. وتأتي نساء عجوزات في هذه الأثناء وتتكلفن بنظافة العروس ثم يلبسنها قميص العرس، ثم يضفن عليها قفطانا من "المليفة" من فوق [282] تجمعه الزوجة بنفسها إلى الأعلى، وتقبضه بمقابض إلى الكتفين وتقول النساء الجالسات مع العروس وسط الغرفة للنائب بأن يتقدم. ثم يأتي مصحوبا بأقارب الزوج من أجل حمل الزوجة، ويُعلم قدومهم بطلقات البارود، وتشرع كل النساء من قريبات العروس في البكاء، ثم تضرب البغلة ويركبها "النايب" لتنطلق والزوجة راكبة خلفه.

عندما تصل إلى بيت الزوج يطلق البارود من جديد، فتجري أم العريس لتحمل فوق ظهرها العروس وتذهب بها إلى الغرفة وسط زغاريد النسوة الأخريات. فتدخل بسرعة وتوضع العروس فوق سريرها وتذهب وتتركها وحيدة في الغرفة. يستدعي أطفال من أقارب العريس، ويقدم لهم الأكل،

والأواني لإعداد الشاي، ويشربون إلى حدود الاكتفاء. ثم يغسلون أيديهم في الطست، وبعد ذلك يشرع في تقديم وجبات العرس، الأولى عبارة عن طبق من لحم مشوي مذهون بالسمن يتحلقون حوله ويأكلون، ثم يقدم لهم طبق آخر من الخبز "المذهون" بالزبدة والعسل، والثالث عبارة عن "عصيد" من القمح مذهون بالزبدة والعسل، ويأكلون من كل الأطباق وعندما يغسلون أيديهم، يأتونهم من جديد بمجمر فوقه ماء ساخن، ثم يلبسونه اللباس الذي سيقابل به زوجته، ثم ينزل معه كل ضيوف شرفه يحمل كل واحد منهم شمعة، ويرافقونه إلى الغرفة التي بها الزوجة وسط زغاريد النساء. يفتح الزوج الغرفة ثم يدخل، ثم يغلق النائب بعد ذلك الباب التي [283] يظل أمامها ضيوف شرفه من الشباب يلعبون فيما بينهم "بالگمبري" و"الدربوكة".

ينهض الزوج ليصلي، وتتركه الفتاة الصغيرة يدعو، ثم ترميه بحصاة من الملح ثم يقوم صارخا ويمسك بها ويزيل عنها كل ما تحمله/ تلبسه ويتركها فوق السرير ولا يتركها لابسة سوى قميص أبيض، ثم يزيل عنه أيضا ملابسه ولا يترك إلا قميصه ويأخذ الفتاة، ويرفع رجليها وعندما ترفض يكبل يديها فتسرع لتعض أصابعه، وبعد أن يصفعها تتركه يزيل بكارتها وعندما ينزل دمها تصرخ "يا أمي أنا أموت !" ثم ينهض العريس ويطرق في الباب الذي يفتحه النائب، ثم يخرج ويرمي الشباب منهم بحبات تمر يتشاجرون بخصوصها ثم يأكلون. ثم يعود العريس إلى الغرفة ليدفأ قرب "مجمر" ويقضي الليلة ساهرا دون أن ينام، ولا تتوقف النساء طيلة هذه المدة عن الزغاريد والرجال عن التعبير عن الفرح، وينام الرجال الذين تعبوا من "اللعب" أمام باب الغرفة، وينادون في اليوم الموالي بعد طلوع الفجر على العريس الذي يرمي القميص المدمي للفتاة الصغيرة، ثم يلبس ثيابه ويرتدي عمامة بيضاء، ويحمله الشباب الآخرون إلى الحمام للنظافة والاكتحال والاستياك. وعندما تنتهي مراسيم الاستحمام يصعد مع أصدقائه إلى الغرفة العلوية، وتذهب لهن النساء بالفطور، والخبز المذهون بالزبدة والعسل، وينصرفون بعد الانتهاء من الأكل إلى اللهو واللعب إلى حلول المساء. ويصحبه أصدقاؤه عند الغروب ويطلقون طلقات نارية، ويرجعون بعد ذلك إلى غرفته، وتأتي النساء بعدهم وتغلق عليهم الباب، وبعد أن يضيئوا المكان ويشرعون [284] في اللهو فيما بينهم، ثم تأتي أم العروس لتدخل عند ابنتها التي تجدها في حالة حرجة وفاقدة للوعي ثم تشرع في البكاء، ثم تأتي أم العريس بدورها وتدخل بدورها، وكلتاهما تحملان طبقا خشبيا كبيرا مملوءا بالماء الساخن، وتأخذان الفتاة بعد أن يرميا بحصاة من الملح في هذا الماء، وتمسك أم العريس من الرجلين، وأمها من اليدين ثم يجلسانها في هذا الماء الساخن، وبمجرد ما تستفيق الفتاة الصغيرة تشرع في الصراخ، الشيء الذي يضحك أم العريس ويغضب أم العروس التي لا تتوقف عن القول:

- "إيه ابنتي المسكينة كاد أسد الغابة يقتلك ! إيه، إيه، إيه !

ثم ينهض ويخرجانها من الماء ويقتادانها إلى غرفتها حيث تلبسانها، وهنا تناديان على امرأة عجوز، وتقول لها أم العروس: "قولي للعريس عندما يدخل أن لا يمس من جديد ابنتي" ثم تنهض وتخرج، وعندما يأتي الزوج يجد المرأة العجوز بالقرب من زوجته، ويقول لها : "ماذا تفعلين يا عجوز هنا؟ فتجيبه: "أتوسل إليك أن لا تلمسها من بعد ! فيجيبها:

"لماذا"؟ وترد عليه "انتظر حتى تمر سبعة أيام". ثم يذهب الزوج فجأة ليجلس في مكان منزو لوحده، ثم تقول العجوز للفتاة: "حان وقت ذهابي يا ابنتي" لكن الفتاة تمسك بها، وتقول لها: "لا تتركيني يا أمي فبمجرد ما تغادريني سيريد هذا النصراني الذي لا يعرف الله تكرار فعلته، وأكيد أنه سيقتلني هذه المرة" فتقول العجوز للزوج "إذا مسستها فأنا من سيتولى أمرك!، وسأجعلك عاجزا...". ثم يرد عليها الزوج "لا! ارتاحي يا أمي فلانة لن أمسها". وبانتهاء هذا الحديث تغادر العجوز، ثم يؤتى للعريس بالحساء ويقول لزوجته بعد أن يغسل يديه: "تعالي لنتناول وجبة العشاء" فتجيبه: "لن أقوم بذلك إلا بعد أن تحلف لي بالله أنك لن تمسني !" ثم يعدها [285] مقسما بالله أنه لن يطلب منها شيئا إلا بعد مرور أربعة أيام، ثم تتقدم وتشرع في الأكل معه، وبعدما ينهيا الأكل تشرع في أن تؤكله التمر بيدها، وكذلك اللوز "المكّلي" والمملح، ثم يطرحها أرضا فجأة ويشرع في تقبيلها بين العينين، ثم تنهض بسرعة من جواره، فيقول لها: لماذا هربت؟ فتجيبه: "أين هو القسم الذي أقسمت به أيها الخائن؟ فيجيبها ضاحكا: "إن القسم ليس له مفعول عندي".

وهكذا تفر في اتجاه الباب بحيث تشرع في الطرق بقوة، فينهض الزوج متوسلا إياها أن تعود للنوم، فتكون "ترتعد" كلها وهي تتذكر ما وقع لها في اليوم الأول حتى فقدت وعيها، ويأخذها من يدها ويقول لها: "لا تخافي يا حياتي، أقسم بالله أنني لن امسك إلا في اليوم الرابع، وعدتك! فتقول له: "اعلم أنك إذا لم ترد أن تبقى هادئا، سأنادي على المرأة العجوز التي ستعود لتحملني إلى أمي !" ويقسم لها الزوج قائلا: والله سأصوم عاما كاملا إذا مسستك قبل أربعة أيام !"

وهكذا ينامان بعد أن تدير له الزوجة ظهرها، فينهض الزوج ويأخذ المصباح/ المشكاة ويتجه نحو باب الغرفة وينادي على أمه قائلا: "قولي للشباب أني شاكر لهم صنيعهم!" وتذهب الأم عند الشباب أصدقاء ولدها لتبلغ لهم الرسالة فيجيبونها: "لالة فلانة، لقد قمنا بكل ما نستطيع ليكون هذا العرس مباركا، وأن يكمل فرحته بحصوله على ولد ذكر. فتجيبهم:

- "وأنتم كذلك" وأن يطيل الله أعماركم إلى أن تزوجوا أولادكم".

يتفرق بعد ذلك كل إلى حال سبيله تاركين العروسين لوحدهما. وتنهض العروس في اليوم السابع لتذهب إلى الحمام مع أمها بين وقت الغروب وقت شرب الحساء. وتفتح لهما أم العريس الباب عند عودتهما وتدخل الأمهتان الغرفة [286]، التي سيتناولن فيها العشاء التي وجدنها معدة ومهيأة، مزغردات. وعندما تنتهين من ذلك يدخل الزوج ويجلس ثم تقدم أمه أيضا وجبتها. وعندما ينتهي من الأكل يذهب لينام وحيدا تاركا زوجته في راحة هذا اليوم لتنام مع أمها وأمه. ويذهب في اليوم الموالي منذ طلوع الفجر وقبل شروق الشمس إلى الحمام لوحده، وعندما ينتهي من ذلك يخرج ويلبس ثيابه الجديدة بعد أن يربطها بحزام، ثم يلبس سلهامه ويضع "قُبّه" على رأسه ويعود إلى زوجته.

وتقتضي العادة عند إمازيغن أن أم العروس لا تغادر بيت صهرها إلا بعد أن تلد، وهي من تتكفل في هذه المدة بالطبخ، والغسيل، وتنظيف الأواني والمنزل، أما بالنسبة لأم الزوج وكذا الزوجة فإنهما لا يقومان بأي شيء، بل تأكلان وتستريحان إلى أن تنصرم التسعة أشهر.

الولادة

الوضع، والتسمية، وحفلة ظهور الأسنان الأولى، والختان :

الشائع عند إمازيغن أن المرأة الحامل لا يجب أن تغادر منزلها، وأن مراحل حملها تظل مجهولة إلى أن تضع مولودها وتُسمع "الزغاريد". وتلد المرأة بعد مرور تسعة أشهر، وفي هذا اليوم يذهب الأب إلى السوق لشراء ثلاثة ديكة ويذبحها، ثم ينادي على أم زوجته التي عادت إلى زوجها منذ اليوم السابع للعرس، فتأتي فرحة وهي تزغرد من عتبة الباب "يا فرحتي، يا سعدي" ثم تخلع عنها إزارها الصوفي وتشمر عن ساعديها وتشرع في العجين، وتشعل النار وتزيل ريش الديكة [287]، وتطهو وجبة أساسها لحم الدجاج، وتهيء الوجبة للأكل بعد أن تضع الخبز في جوانب المائدة، ثم تذهب بالماء لابنتها التي تغسل يدها اليمنى، ثم تقدم لها الطبق مملوءا. وبعد أن تنتهي البنت من أكل ديك وثلاث خبزات تقول لأمها: "احملي الطبق، فقد اكتفيت".

فتأخذ الأم الطبق وتقدمه للنساء الأخريات اللواتي يغسلن أيديهن ويتحلقن حوله. وعندما يشبعن تأتي أم الولد لتأكل ما بقي منه. ويؤخذ المولود للاستحمام في اليوم الموالي، ويقطعون "حبله السُّري" ويضعون حوله شريطا من الصوف ويلفونه في قطعة من الصوف، ويذبح خروف بعد مرور ستة أيام ويسمى المولود في اليوم الموالي. وفي هذا اليوم تنهض المرأة الواضعة وتقول لزوجها: "نريد أن نذهب إلى "الحمام" فيجيب الزوج: "على الرحب والسعة، وسترافقك أمك ونساء أخريات" فتقول له: "إذن اذهب وخذه وبعد آذان العشاء سنعود، وسنترك الطفل عند المربية، أما بالنسبة لك أنت بعد أن تذهب معنا ستعود إلى المنزل حيث ستنتظرنا مع المربية".

ينهض الزوج بعد العشاء، ويرافقهن إلى الحمام. وبعد أن يلبسن يظلن في الحمام مستريحات إلى اليوم الموالي، حيث يعدن في الساعات الأولى للصباح ويطرقن الباب ليجدن الزوج في استقبالهن، ويدخلن إلى وسط الغرفة وسط الزغاريد، ثم يذهب الزوج إلى السوق ليشتري العجائن مع الزبدة المذابة، فتأخذ زوجته هذه العجائن وتغطسها في الماء وتضع عليها الملح، والحليب، والفلفل المدقوق، وعندما تستوي هذه "المعجنات" [288]، تذهب بها وتقدمها للنساء اللواتي كن معها في الحمام ثم تنادي بعد ذلك على "المربية" لتجلس إلى جوارها وتشرعن في الأكل، وتضع سيدة المنزل بعض تلك "المعجنات" في إناء صغير للزوج، وبعد أن ينهي الأكل ينصرف بعد أن يشكرهن. فيجبنه: "بارك الله لك وفي ولدك وحقق الله رجاءك فيه" فيجيبهن : "حفظكن الله".

ثم تنصرفن تاركات المرأة ترضع مولودها، يذهب الأب بعد انصرام أربعين يوما إلى السوق ويشتري خروفا، وبمجرد ما تنهض المرأة ترتدي ملابسها تتبخر بالحرمل ورأس "الحرباء"، يؤخذ الطفل ويلبس "گندورات" بيضاء صغيرة، ويحاط رأسه بشريط صوف ثم يأخذه الأبوان إلى صالح/ فقيه البلد تحمله الأم على ظهرها. يطرقان الباب ويفتح لها الباب بنفسه، ويدخلان ثم يحيانه، وتدخل المرأة عند "الصالحات" حاملة معها الخروف الذي اشتراه زوجها، الذي صعد به "الصالح" إلى الشرفة وفرش له الحصيرة رفقة أربعة "صلحاء" من أقاربه، ثم ينزل رب المنزل ويذهب عند النساء حيث يذبح الخروف

ويسلخه ويقطعه كله. ثم يعطيه بعد ذلك إلى النساء لطهيه على شكل مرق، وكسكس بعد أن تكون زوجة "الصالح" قد زودتهن بالحطب الكافي، ويعاد "تبخير" الكسكس في كل مرة كان فوق النار ثلاث مرات إلى أن يستوي وبعد ذلك يقدمه[289] ثم يهبط ليذهب إلى الضيوف بالطبق، وتتبعه زوجته بماء الغسل ثم يشرعون في الأكل. وبعد أن ينتهوا من الأكل تأخذ النساء الطفل إلى الصالح، ثم يبلل شعره بالماء الدافئ ويحلق له الشعر المحيط بالأذنين ولا يترك له سوى دائرة من الشعر فوق رأسه. وبعد أن ينتهي من عملية الحلق يأخذ أداة صغيرة يستعملها في الوشم، ويضع له ثلاث حفر فوق جبينه بين حاجبيه، ثم يضع يده اليمنى فوق رأس الطفل ثم يقرأ عليه سورة "الإخلاص"، وعندما ينهي يسلمه إلى أمه قائلا: "خذي ابنك" الله يرضى عليه ! "ثم تقبل الأم يد "الصالح"، وتضع ابنها فوق ظهرها وتقول لنساء "الصالح": "السلام عليكن يا لالاتي" ويجبنها: "حفظ الله مولودك".

ثم يأتي والد الطفل ويقبل يد "الصالح" ويعطيه ريالا دليلا على الزيارة، ثم يغادر هو وزوجته داره في اتجاه منزلهما، ثم يطرق الباب لتفتح لهما المربية، ثم يدخلان ويتجهان نحو الغرفة حيث تنزل المربية الطفل وتقبله في فمه ويشرع في البكاء، ثم تأخذه أمها من جديد وترضعه وتهدئه. يشرع الطفل سنة بعد ذلك [290] في الجلوس والحبو، وعندما يرى الأبوان أن الأسنان بدأت تنبت في فم الطفل، تقول الأم للوالد:

"إسعد بدأ ولدنا في إنبات الأسنان". فعلينا الآن أن نقوم بحفل "توفريكت" وندعو الأطفال الصغار. يجيبها: "على الرحب والسعة". ثم يذهب إلى السوق ليشتري اليقطين، والذرة، والحمص، والقمح بكمية قليلة من كل نوع لما يكفي للطهو في قدر واحد، وعندما يطهى الكل تصبه المرأة في طبق وتتركه يبرد. ويخرج الأب في هذه الأثناء لجمع الأطفال وعددهم ستة عشر ثم يدخلهم إلى ساحة المنزل، ويجعلهم يقفون الواحد بجوار الآخر وتأتي الأم بولدها وتضعه أرضا، وتضعه فوق ركبتها في الوقت الذي يتحلق حولها الأطفال، ثم يأتي الأب بطبق "توفريكت" الذي يرفعه فوق رأس الطفل، ثم يصيح في الأطفال :

- "هيا خدوا يا شباب". ويشرعون في التسابق نحو وسط الطبق ويأكلون إلى أن يشبعوا، ويقول لهم : هل أكلتم جيدا؟" فيجبونه: "نعم أكلنا جيدا" ثم يقول لهم: "اقرأوا الفاتحة" فيقرأونها ويدعون بأن يحيي الله الطفل إلى أن يحفظ الستين حزبا من القرآن، ثم يخرجون ويذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله. وعندما يبلغ الطفل أربع سنوات، تأتي الأم يوما لتقول لزوجها: "نريد أن نختن ولدنا لقد كبر وهذا هو السن الملائم لذلك فيجيب: "على الرحب والسعة"، فماذا علي أن أشتري؟ فتقول له: "اذهب إلى السوق واشتري نصف "خروبة" من القمح، وثمانية أثمان من الزيت، وست(كيلوغرامات) من الزبدة، وخروفا سمينا بخمسة ريالات، "وشواري" [291] من الجير لصبغ الجدران، وغرف المنزل باللون الأبيض ليكون كل شيء جاهزا. ويؤجر رب المنزل في اليوم الموالي لذلك يهوديا ويدخله إلى المنزل ويطلعه على الغرف وباقي الجدران ثم يقول له اليهودي: "كم ستعطيني"؟ فيجيبه: أعطيك كذا قدرا لأتعابك".

وعندما يقبل اليهودي العرض يبدأ في الأشغال والتجيير بالطريقة المعلومة، وعندما ينهي أشغاله في المساء يناوله مستحقاته، ثم يجمع أدواته وينصرف. وبعد أن تيبس الصباغة ينادون على امرأة تقوم بدورة الداعية إلى الحفل. وبمجرد ما تصل إلى المنزل ترتدي ثيابها الجميلة، ثم تشرع في طرق باب بعد باب وتقول للنساء: "السيدة فلانة تعلمكن بختان ابنها يوم كذا إن شاء الله". فيجبنها: "فليبارك الله، ومتى يوم الختان؟ وتعود إلى المنزل بعد أن تدعو كافة النساء، وتزيل الملابس التي كانت ترتديها، ثم تعطيها ربة البيت مقدارا قليلا من القمح، وتذهب إلى منزلها إلى حين اليوم المحدد للحفل.

وتأتي كل النساء يوم الحفل متطهرات، ومتزينات بأحسن ما عندهن من الملابس، وتأتي كل واحدة منهن بحجرة تجلس عليها منذ الصباح، وتأتي بعضهن لربة البيت بهدايا عبارة عن قطع ثوب، ومناديل حريرية. ويشرفنها بعضهن [292] بأن يعطينها بعض المال، وأخريات السكر. وبمجرد ما أن تمتلأ الدار بالمدعوات تأتي العجائز بدورهن ليدخلن وسطهن وتشرعن في "اللعب". ويكون ضيوف الزوج في هذا الوقت قد جاؤوا ودخلوا إلى غرفة أخرى، ثم يصل الحجام الذي نادى عليه الأب حاملا معه أداوته، وهي عبارة عن مقصات حادة، وشفرة، وقطعة ثوب نقية، وصوف أبيض وعلبة نحاسية صفراء، ثم يدخل إلى الغرفة التي يجلس بها الضيوف ويضع أدواته أمامه، ثم ينهض الأب في اتجاه النساء ويقول لهن: "أعطوني الطفل لأحلق له شعره". فيجبنه: "انتظر حتى نلبسه لباسه" ثم يأخذن الطفل ويغسلن وجهه بالماء الدافئ، ويلبسنه قميصا بعد أن يرشن عليها عطرا. وتتم كل هذه هذه الأفعال تحت بخار الحرمل و"حب الرشاد" ويضعن في رجله عقدة ثوب محشية، وعندما تنتهي النساء من تطهير الطفل ينادين على رب المنزل ويقلن له:

- "أخرج للحجام المغرفة"

ثم يخرج الحجام ويجلس أمام الغرفة، ويأتي في هذه الأثناء الأب بالطفل ويضعه أرضا أمامه. ثم تأتي "المربية" بالماء الدافئ ليبلل شعر الطفل، ويشرع في الحلق على الطريقة المعلومة، ثم يدخل الأب الطفل إلى غرفة معزولة، ويغلق عليه الباب كي لا يهرب، ثم يرجع إلى ضيوفه ويقدم لهم أواني تهيء الشاي، ثم يوزعه عليهم، وبعد ذلك يقدم لهم أطباق اللحم ويشربوا ويأكلوا [293] إلى حد الشبع، ثم ينهضوا ويربطون قطعة ثوب من الأطراف ويجعلونها حاجزا بين الرجال والنساء، ثم يأتي الحجام ليجلس خلف الستار ويقول: "آتوني بالطفل" فيجيب الأب: "على الرحب والسعة". ثم يذهب عند النساء وبقول لهن: "انهضن وأحطن بالأم". فتنهض النساء ويحملن طبقا من الجوز ويضعنه في وسط المنزل ويأتين بالأم، يعطينها قصبة، ويضعن فوق رأسها طلاسم وأصداف "غينينة" "الودع"، وتبدو الأم حينها جميلة، وتتحلق حولها النساء مصفقات في الوقت الذي تبكي هي ويرددن وهن يصفقن بأيديهن:

يا ملائكة احفظي الطفل
وأنت أيها الحجام حفظ الله أباك
وأنت أيتها الأم اصمتي ولاتبكي

فليكبر ابنك ويصبح شابا
ويرعاك وتمر الحياة في سلام
سيكبر حقا وتزوجينه
ستأتينه بعروس وتكونين حاضرة
لتقيم له عرسا بالحناء
وأن يحيا أبوه حتى يجهز حفله !

وفي الوقت الذي تردد فيه النساء هذه الكلمات يجمع الأب الأواني التي أكل فيها الضيوف، ثم يصفف الضيوف جنبا إلى جنب وهم يشاهدون الأب يحمل إلى الحجام طبقا فيه الحناء المدقوق، وقشرتا بيضتين وقطع ثوب ممزقة، وشيئا من الرماد [294] وبعض الزيت ليستعملها الحجام دون أن تجرح الطفل، ثم يعطي الأب المفتاح "للمربية" لتفتح الباب التي يوجد بها الطفل، فتصحبه معها في الوقت الذي لا يتوقف على البكاء. ثم تعطيه في اليد اليمنى عظما لازال به بعض اللحم، ثم بيضة مسلوقة ومقشرة ثم تأتي به عند الضيوف وتعطيه لأحدهم الذي يجلسه أرضا ويأخذه بين يديه ليضعه أمام الحجام، ثم ينهض الأب فجأة ويغادر المنزل، ويظل بعيدا حتى لا يحضر للعملية التي ستجرى لولده. ثم يقترب الحجام من الطفل ويوسع رجليه ويشرع في العملية. والحضور يردد الدعاء التالي:

"اللهم صل على سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم"

ولا يسكتوا إلا بعد أن ينهي الحجام العملية. وبعد أن يحتال الحجام على الطفل ويقطع جلدة الحشفة، يشرع الطفل في البكاء ثم يقترب منه الضيوف قائلين:

- "خذ، كل اللحم ! كل هذه البيضة"

ثم يشرع فجأة في النزيف، فيأخذ الحجام قشرة البيضة ويرش بعض الرماد، ثم يضع الحناء والزيت على الجرح، ثم يحمل الضيف الطفل وهو يبكي ويسلمه لمربيته التي تأخذه وتضعه على ظهره عاريا وتقول له: "حفظك الله يا ولدي إلى أن تصبح رجلا" ثم تغطيه وتهدئه. ثم يأتي أب الطفل ويعطي للحجام أجره ويقول للضيوف: "حفظكم الله يا أقربائي الأعزاء" [295] ثم يجيببونه: "ندعولك بالخير السعادة". ثم يذهب كل واحد إلى حال سبيله. ينهض الحجام ويأخذ معه قطعة اللحم المأخوذة من الطفل التي سيدفنها في المقبرة، وينسحب هو بدوره ثم تحمل المربية الطفل فوق ظهرها وتجري به إلى النساء لتقول لهن:

- "صلين على النبي لقد ختن الطفل"

وتصمت النساء فجأة وتتوقفن عن اللعب، فتخرج الأم من الطبق وتشرع في الضحك، ثم يزلن عنها "الحجاب" وبمجرد ما أن ترى ابنها حيا تأخذه وتقبله بين العينين، وتتجه كل النساء إليها ويقلن لها: "سلمك الله يا فلانة" وتجيبهن: "حفظكن الله يا أخواتي" ثم تأخذ كل واحد منهن حجرتها وتذهب كل واحدة منهن إلى حال سبيلها.

الطلاق

سلطة الرجل، وحالة الخيانة

المعروف عند الأمازيغ أن الرجل لا يطلق زوجته إلا إذا كانت له أسباب ضدها، كما أن المرأة يمكن أن تأخذ حريتها من الرجل الذي لا تحبه أو العاجز. وعندما يلاحظ الزوج أن المرأة تبحث عن الهروب من بيت الزوجية، فإنه يوقفها ويسوقها إلى منزل الإيقاف المسمى: "أخربيش" حيث تسجن كل النساء اللواتي تردن مغادرة أزواجهن. وأخربيش عبارة عن "منزل" بناه أعيان القرية من أجل سجن النساء الثائرات في وجه أزواجهن، ولا أحد يملك السلطة على المرأة إلا زوجها، ويستطيع الرجل أن يترك زوجته شهرا كاملا في أخربيش دون أن يستطيع أي أحد التكلم معها بل حتى رؤيتها. ومن أجل هذا تكون امرأة عجوز تسمى تاگوجينت مكلفة بخدمة السجينة. والرجل الذي يريد أن يطلق لا يتخذ القرار إلا في الوقت المناسب [296] حيث يقول لزوجته: "هيئي لي طعاما للأكل فأنا أريد أن أذهب إلى هذا البلد أو ذاك" فتجيبه: "على الرحب والسعة"، ثم تنهض وتعجن الخبر، وتخبزه وتضعه في طبق، وتغطيه كي يبقى محافظا على حراراته، وتهيئه بالشكل الكافي للسفر، فتجمعه وتضعه في كيس وتقول لزوجها: "خذ الخبز الذي سيكفيك في سفرك" فيجيبها: "حسنا" ثم ينهض ليجهز حماره، ويودعها وتدعو له بالسلامة وتقول له: "احضر لي بعض الكحل حين عودتك".

ثم ينطلق وعندما يصل منتصف الطريق يرى ثلاثة رجال مسلحين ببنادقهم جالسين على قارعة الطريق، وبمجرد ما يراهم يظنهم قطاع طرق، فيخاف ويعود راجعا بسرعة ولا يصل منزله إلا عند منتصف الليل، وعندما يصل إلى منزله يسمع صوت رجل قد يكون مع زوجته في الغرفة، فيقف عند عتبة الباب مرتعدا خوفا من وجود رجل مع زوجته، ثم يجلس يستمع لحديث العشيقين وفي الوقت الذي ينام فيه طفلهما الصغير، فتغلق الباب لتعود عند عشيقها وهنا يقضيان ليلتهما مستمتعين [297] وعند حلول الصبح يريد عشيق الزوجة أن يذهب ترافقه المرأة إلى الباب، وبمجرد ما تفتح الباب ينهض الزوج ماسكا بخنجره، فيفر العشيق لكن الزوج يسقط المرأة أرضا، ويأخذها من شعرها ويجرها إلى داخل المنزل، فتشرع المرأة في الصراخ والبكاء، ثم يرجع ليغلق الباب ويعود بالقرب منها ويزيل ملابسه، ولا يبقى لابسا إلا سرواله فيأخذ عصا غليظة صلبة، فتنهض المرأة وتفر إلى الغرفة التي يوجد بها الطفل وتأخذه إلى حضنها وتقول للزوج : "أنا في حرمة ولدك والله".

يتجه الأب نحوها وينزع الطفل من حضن الأم، ويأخذه بعيدا، ثم يعود إليها ويجردها من كل ملابسها حتى تصبح عارية تماما، ثم يأخذها من يدها اليمنى ويشرع في ضربها وهي تصرخ: "آه، آه، يا أمي أنا أموت يا عباد الله أنقذوني من يد عدو الله" وعندما يسمع الجيران الصراخ يجرون نحو الغرفة التي أغلق بابها، وفي الوقت الذي يستمر في ضربها تشرع النساء الموجودات خارجا في القول له : "إلعن الشيطان، يا صديقنا، هذا يكفي ستقتلها تذكر منها أنها أم ولدك" فيجيبهم: إن عيوب هذه المرأة أكبر مما يمكن أن يوجد في العالم الآخر، فهي لا تعرف شريعة الله و عباده، ولا تتبع أي "طريق". ثم يستمر في ضربها قائلا: "خذي أيتها اللعينة فقد وضعتني في أدنى رتب المخلوقات !؟

فتجيبه: "هذا ما قدره الله علي". فيقول لها : "هذه ليست المرة الأولى، فأنت تقومين بهذا مرات عديدة سواء في حضوري أو غيابي". ثم يتركها ممدوة أرضا كالكلبة.

ويفتح الباب ويخرج من المنزل ويذهب عند "العدول". وتطلب منه الجماعة: "ما بك يا فلان"؟ فيحكي لهم ما وقع [298] بالتفصيل. فيقولون له: "طلقها، أما بالنسبة لولدك فاحتفظ به واسهر على تربيته، وسلمه للمربية إلى أن يكبر، أما بالنسبة للمرأة فأبلغها بالطلاق وأعطها مالها وابعثها دون أن يصاحبها أحد". ثم يحررون له عقد الطلاق في الموضوع. يأخذ الرجل العقد ويؤدي للعدول مستحقاتهم، ثم يعود إلى منزله مصحوبا بأحد أعوان القاضي، وعندما يصل إلى المنزل يطرق مبعوث القاضي الباب فتفتح له الزوجة ويقول لها: "هذه رسالتك" (براتك). ويقول لها الزوج في هذه الأثناء: "اذهبي من الآن فأنا لا أعرفك ولا تعرفينني" فتعود المرأة إلى غرفتها وتجمع أحسن ما عندها وتأخذ "رسالتها"/ (طلاقها) وتغادر منزل زوجها، وتذهب لوحدها أو كما يبدو له. أما الطفل فيظل عند أبيه ومربيته التي تربيه وتداويه إلى أن يكبر ويصبح رجلا.

المرض

"الخوف"، والعلاج، والشعوذة، وطريقة خاصة لمعالجة مريض

أخذ رجل معوله واتجه وحيدا نحو ضيعته لسقي الذرة في منتصف الليل، وعندما وصل إلى الحقل فتح مجرى الماء، ولما تبع اتجاه الماء رأى أمامه ضبعا وحسبه كلبا وقال له: - "اذهب عني يا لعين الكلاب" فكشر الضبع عن أنيابه وهاجمه، فرمى الرجل بمعوله وسلم قدميه للريح وكان يلتفت كل مرة ليجد الضبع يتعقبه، وشرع في الصراخ بصوت أكثر قوة [299] وضاعف من سرعته إلى أن رأى ضوء المساكن فانسحب الوحش وتراجع. وسقط الرجل بعد ذلك أمام منزله وأخذ يتمرغ أرضا، فخرجت أمه وقالت له:

"ما بك يا ولدي ؟" فيجيبها: "لقد هاجمني ضبع في حقل الذرة، "فتقول له: أمه:" يا ويلي ألم يصبك أذى" فيجيبها: "أجل لقد أخافني، وجريت وخرجت إلى أن تعبت ولم يغادرني إلا عندما رأيت أضواء المنازل" وبدأ الرجل في التقيؤ إلى درجة أنه لم يعد يخرج من فمه إلا الدم. فشرعت زوجته في الندب، في حين أن الأم التي فقدت قواها سقطت أرضا وتمرغت وقالت بصوت منخفض: "آه، الحمد لله يا بني إذ لم يفترسك الضبع" وتضيف زوجته: "آه يا ربي كيف أصبح زوجي الصغير؟ ثم جاءت الجارات بعدما سمعن الصراخ، وأسرعن للدخول إلى المنزل الذي كان بابه مفتوحا. واتجهن نحو الغرفة التي يوجد بها الرجل حيث وجدنه ممدودا على ظهره ويصدر آهات قوية، ودخلت امرأة من بينهن وتقدمت لتهدئ من روع الزوجة والأم وتقول لهما: "صليا على النبي، الرجل بخير قوما واهدآ" ثم جاءت أخرى وقالت لهما: "هيئا له ملعقة من الزعتر الدافئ من أجل دواء معدته ومنعه من التقيؤ" فنهضت زوج المريض وأخذت دقيق القمح وهيأت "حساء" وضعت فيه "الزعتر" مطحونا بمقدار النصف. وبمجرد ما استوى أشربته بملعقة شيئا فشيئا وبمجرد ما أنهاها أرجع الملعقة/

المغرفة ممزوجة بالدم، ثم شرع في التلوي ألما في الغرفة، لأن قلبه كاد أن يتوقف من كثرة الجري خوفا من الضبع، وهذا هو تفسير ما يقوله ألما: "آه اقلبي". وكان لكل النساء في المنزل ما ينصحن به الزوجة والأم [300] وقالت لهما امرأة أخرى: "إعطياه بعض العسل، والزعفران أو ارم المسحوق بعد أن يسخن فوق طبق طين تقطعونه فوقه لكي يغطس/ يغمس وبعض الخبز الناضج على التو ثم أعطياه ليأكله" ثم يجيبانها: "حسنا" وتشرع الأم في تحضير ماسمعت، وتعطيه لولدها الذي لا يستطيع أن يأكل ويستمر في التدور ألما ويقول: "إن بطني يتمزق" فتنهض الأم وتأتيه بالماء الشروب من غرفة أخرى، وهنا تشرع في تسخينه، وإعطائه لولدها ليشربه، وتقول امرأة أخرى لزوجته: "آتي لزوجك بطالْب يكتب له حجابا، ويبحث في أوراقه لعله يجد له دواء لمعرفة ما يعاني منه في معدته أولا يكون "مسكونا بجني"؟ فتنهض الأم لتبحث بنفسها عن طالْب/"فقيه"، فتبحث عنه من مسجد إلى مسجد إلى أن وجدت طالْبا جيدا في مسجد، وقال لها : "ما بك يا أمي؟" فتجيبه : "لدي ولدي مسه شيء يحفظك الله هيا معي إلى المنزل من أجل معرفة ما به؟ فيجيبها : على الرحب والسعة" ثم ينهض معها ويتجها نحو المنزل. وعندما دخل إلى الغرفة التي بها المريض، جلس القرفصاء، وأخذ يبحث في أوراقه إلى أن تعب، وعندما لم يجد شيئا قال لأم المريض؟ : أتوني بطبق. وبدأ يكتب بعض الآيات في الطبق، وعندما أنهى كتابتها قال: "امحيا ما كتب في الطبق بالماء الساخن، وأضيفا إليه بعض الزيت، والملح والخزامى، وحبات الكمون، ثم تشربانه هذا الماء، ثم بخراه بالحرمل وعظم كلب، وبعد ذلك لن يكون عنده ألم". فتقول له: الأم: "إذا شفي ابني فلك علي لبسة كاملة" [301] ثم يجيبها: "لن يكون عنده مكروه بإذن الله" فتعطيه "جبانية" مقابل أتعابه. فيقول: "أعاد الله السلامة والأمان".

تأخذ الأم الطبق الذي كتبت عليه السور وتمحوها كما أوصى بذلك الطالب/"الفقيه"، وبعد تبخيره تشرب ولدها الذي نام بعد أن شرب وظل يتألم إلى منتصف الليل، وقالت له زوجته عندما دخلت إليه: "أريدك أن تحيا لي ولا تموت" فيقول لها: "بحق الله يجب أن نتسامح عن أخطائنا" فتقول له: "ولماذا تقول لي هذا الكلام" فيجيبها: "الألم الذي أعاني منه صعب وأنا أعرف ما أقول" فتقول له أمه: "أطال الله عمرك يا ولدي، أتريد أكل شيء ما؟" فيجيبها: "لا أريد يا أمي سوى بعض الزبدة الطرية والخبز الساخن" فتنهض الزوجة لتهيء له ما أراد. ثم تأتيه به وتقول: "ها هو" فيقول لها: "لا أريد" فماذا تريد "أنا لا أريد إلا السمك قبل أن أموت" فتذهب الأم في اليوم الموالي عند اليهود، وتسأل كل واحد منهم: "هل لديك سمك مجفف؟" فيجيبها: "لا، ليس عندي أي شيء". فترجع إلى المنزل متعبة لتدخل إلى الغرفة التي يوجد بها ولدها المريض وتقول: "لم أجد لك يا ولدي، أي سمك" ثم يستدير نحو زوجته، ويقول لها: "إعطني الطست الذي أتبول فيه". فتنهض لتأتيه به وتساعده إلى أن يقضي حاجته. وينادي الزوج على زوجته التي تقترب منه قائلة: "ها أنذا، ماذا تريد؟" فيقول لها : "حكّي" لي ظهري".

تشرع في ذلك إلى أن ينام المريض، بل ويتسرب لها نفسها النوم، وبينما ينامان تتجه الأم إلى السقاية منذ مطلع النهار لجلب الماء [302] للشرب. وعندما وصلت سمعت صراخا ورأت زحام رجال. فأخذت دورها في الصف الذي لم يصل إلا قرب ساعة المغرب، فملأت الجرة وعادت إلى المنزل حيث دخلت وصبت الماء في الجرة. وعندما دخلت إلى غرفة ولدها وجدته متمددا فوق ركبتي زوجته، بينما هي تنام على هذه الحال، ثم تناديها العجوز فجأة: "انهضي وهيئي العشاء، وليصب عليك الله "البراز" سائلا ويحرقك يا لعينة، ولدي يحتضر وأنت لا تعطيه وقت راحة، يا أقبح الكلبات، فأنت لست سوى إمرأة سوء، فمنذ أن جئت بك تدهورت صحتي وصحة ولدي يا قليلة الحياء!"

فتكتفي المرأة بالصمت والنظر دون أن تعقب وتشرع في تهيئ الطعام، وعندما استوى أعطته لزوجها الذي لا يريد أكل أي شيء ولا يستطيع، وبالتالي تضع الطبق جانبا، وبعدما انتهيا من الأكل أشعلا الضوء قرب المريض الذي ظل ساهرا طيلة الليل، وعندما طلعت بزغت الشمس نهضت لتهيء عجين الغذاء وبمجرد ما استوي أتت به ساخنا إلى ولدها، أما "عروسها" زوجة ابنها فقد أحرقت لقمة في فمها جعلتها تتلوى ألما إلى أن بلعتها وعاد إليها التنفس وبقيت "متمددة" طيلة المساء، ثم نهضت لتهيء الأكل. وعندما استوى أكلت "العصيدة" وقدمت الأكل لزوجها في طبق جميل، أما حماتها "زوجة الأب" فقد قدمت لها أكلها في طبق بعد أن أضافت إليه كثيرا من الفلفل الأسود والملح. وبعد أن أعطتها الأكل [303] خبأت لها "الجرة" وبمجرد أن وضعت الحماة لقمة الكسكس في فمها نهضت مسرعة أمام مفعول "مرارة" الأكل لتذهب باحثة بسرعة عن الماء، فلم تجده فجلست وشرعت في النحيب، وعندما سمعت الابن سألها: "ما يبكيك هكذا؟ فأجابته : "انظر ما فعلت بي زوجتك". ثم ينادي على زوجته ويقول لها: "أينك يا امرأة؟" فتجيبه: "ها أنذا ! ماذا هناك؟ ويقول لها: "ماذا فعلت بأمي حتى أصبحت تبكي هكذا؟ فتقول له: "لم أفعل لها شيئا فكل ما تقوله محض كذب".

وفي اليوم الذي شفي فيه ذهب إلى إمام منزل الطالب/"الفقيه" الذي كتب له "الوصفة"، فوجد أمه فجأة أمام المسجد التي قال لها الطالْب: "لقد شفي ولدك بحمد الله، فأين هي "اللبسة" التي وعدتني بها ؟" فتقول له : "ابتعد عني، لم أعدك بأي، أما بالنسبة لولدي فإن من شافاه هو الله" فيقول لها: "أتخذعيني الآن يا نصرانية؟" فتقول له : "لم أعدك بشيء أيها النصراني الذي يكذب على الله ومخلوقاته". فيجيبها: "اذهبي فليهنئك الله".

****

الحرب

طرق الحرب عند الأمازيغ، والأسلحة، وخطف الميت، والجنائز، والحفلات

كان هناك تداول على استعمال الماء بين الأمازيغ والعرب، وذات يوم أراد إمازيغن أن يسقوا حقولهم لي، فلاحظوا أن العرب سرقوا منهم الماء، فأسرعوا بالقول: إن هناك نقض اتفاق بيننا، غدا الحرب !. [304] فيجيبهم العرب: "فلتكن، فما لم تقوموا به من قبل لن تستطيعوا القيام به الآن.

مرت بضعة أيام واندلعت الحرب بين إمازيغن والعرب. وهكذا نهض الرجل الذي كان مريضا وسيذهب بدوره للحرب. فأخرج فرسه، ووضع السرج على جواده دون أن يحكم ربطه جيدا، فركب فرسه، وأعطته زوجته بندقيته وشحنها بالبارود وغادر القرية ليشاهد جماعة من النساء في الطريق متجهة إلى مكان المعركة حاملات بنادقهن، ومختلف الأسلحة الخفيفة، بعضهن يحملن الخناجر، وبعضهن يحملن الفؤوس /"الشواقير"، وبعضهن يحمل مطارق. ركب أغلب الرجال خيولهم وركضوا في اتجاه مكان الحرب، وعندما وصلوا اصطفوا الواحد بجوار الآخر، واصطف خلفهم المشاة، واصطف العرب بدورهم على الطريقة نفسها وبقوا في أماكنهم في موقع تغطية. ونشبت فجأة مواجهة بين المشاة في حين تمدد الفرسان أرضا، وأصبح خيالة الأمازيغ يراقبون ويسهرون على تتبع المشاة. وكلما سقط واحد منهم حملوه واستمرت المواجهة إلى غروب الشمس. وخرج فرس أثناء المواجهة وسط فرسان "الشلوح" حاملا سيده، واتجه فارا نحو العدو، فتصدى له أربع مشاة من العرب، ورموه بالرصاص أصيب الفرس، اخترقت رصاصة رأسه ودخلت [305] من الأذن اليمنى لتخرج من الأذن اليسرى، فانهار الفرس مع فارسه ونفق. فجاء أحد الأعداء جاريا ورمى الفارس برصاصة في رأسه أردته قتيلا ثم أخذ بعد ذلك مباشرة سرج الفرس ولجامه، و"جمع" بندقيته و"القرن" الذي يوضع فيه بارود المحارب، ثم رجع قافلا إلى إخوته. وفي المساء عندما عاد الأمازيغ من الحرب سألتهم الأم: "ألم تروا ابني؟" أجاب من يعرف ابنها: "تقبل الله ولدك في الجنة ! سقط في أرض المعركة وبقي ميتا بها هو وفرسه" فتقول لهم: "لقد تركته في حمايتكم"!

فتذهب لتذبح جديا لأهل القرية في هذه الليلة نفسها، فقيل لها:

- "توفي ابنك في الحرب، والآن فليساعدنا الله برجال يمكن أن يخطفوه ميتا" فاجتمع الناس إلى أن كثر عددهم وذهبوا لاسترجاعه في الليلة نفسها. وعندما وصلوا إلى المكان الذي سقط فيه وجدوه ميتا. أخذوا جثته ووضعوها فوق فرس بعد أن ربطوها بحبال متوسطة الطول، فرجعوا قابضين الفرس من لجامه في حين يتبعه الآخرون يحملون بنادقهم، وعندما وصلوا إلى منزل الفقيد وضعوها أمام باب المنزل ونادوا على أمه وزوجته اللتين خرجتا مسرعتين وبمجرد ما أن شاهدتا الجثة حتى شرعتا في العويل وذهبتا لتلطيخ وجهيهما "بروث" البقر و"الرماد" الأسود ومن هنا دخلتا إلى المطبخ وكسرتا جميع الأواني المنزلية. وأخذ الرجال الجثة وحملاها إلى الجماعة حيث وضعوها وتركوها الليل كله دون أي إضاءة، لأن العادة تقتضي أن من مات خارج مسكنه لا يجب أن يعود إليه، في حين أن من مات في مسكنه تضاء له الأضواء ويبقى وحيدا حتى الصبح دون أن يسهر عليه أحد.

عندما سمعت الجارات العويل، توافدت العجائز مثنى مثنى [306] يأخذ بعضهن بأكتاف بعض، تتقدمهن الشابات والكل يردد عبارات النحيب والعويل، وتقول إحدى العجائز: "يا آسفي يا ولدي ذهبت في عز شبابك وجماعتك" وتردد الأخرى: "الله يا ربي، دفعت بالشباب إلى أن قتله الأعداء".

توجهت إحدى الشابات من النساء إلى زوج الفقيد:

"أيا أخي لا تستحق أن تموت بالبارود ولا أن تدنس يا أخي الغالي!" فتجيب زوجته: "آه،

يا زوجي متّ وتركت أبناءك للظلم فماذا "سأفعل معهم" ؟ ثم تشرع في البكاء وتقول أيضا: "آه يا زوجي ! يا زوجي!"

وهي عبارة تكررها ثلاث مراة بقوة، وفي الأخير تأتي العجوزات وتجلس كل واحدة منهن في صمت، حيث تجلس القرفصاء الواحدة جنب الأخرى مستندات إلى الجدار تاركات الساحة الوسطى للغرفة فارغة. ثم ستزيل بعد ذلك الجميلات حجابهن وتقوم كل واحدة منهن وسط الغرفة تقول شيئا من قبيل: "آه يا أخي، هذا منزلك...! هذه دارك، آه يا أخي! و"تقول الأخرى "آه يا أخي! ثم تجيب زوج الفقيد" آه، يا زوجي ما أتعسها سنة هذه، وسهرت عليك حتى شفيت وفرحنا، لكن شرا آخر انتظرنا وها أنا عدت للمعاناة من جديد!".

جاءت العجائز لتهدئن الزوجات الشابات. وفي الوقت الذي هدأت فيه النساء حملت الجارات حريرة الذرة، حيث تضع كل واحدة نصيبها وتقدمه لأم الفقيد التي تحييها: - "أخلف الله لك، يا أختي العزيزة". ثم تشرع في توزيعها على النساء. وكل ثلاث نساء لهن "طبق" خاص بهن، وبعدما ينهين يضعن أمامهن "جبانياتهن"، في حين تجمع الأم "القدح الكبير" لكل واحدة منهن وتذهب لتضعه في المطبخ، [307] وتمشي زوج الفقيد أمام النساء اللواتي قدمت لهن الحساء وكلما وجدت "جبانية" فارغة تجمعها وتذهب بها إلى المطبخ، وبعدما ينهين الغذاء يجلسن ويتحدثن فيما بينهن عن وفاة هذا الرجل.

يتجه ثلاثة رجال ممن رجعوا بالجثة في هذه الأثناء إلى الملاح لشراء الكفن ثم أوراق الورد والزعفران، وهذه الأشياء الثلاثة هي العناصر المكونة "للحنوط"، ثم يعودون إلى المنزل، ويعطونها للطالْب، ثم "يسخنون" الماء على درجة مرتفعة ويصبونه في صحن أبيض ويأتون بقطعة خشب به ثقب متباعدة ويضعونها أمام الجماعة، ثم يأخذون الجثة ويضعونها فوق اللوح، ويزيلون عنها ملابسها. وينزع أحد الرجال حايكه حيث يأخذه ثلاثة رجال كل واحد من "طرف" ويسحبونه أو يمدونه فوق اللوح الذي يوجد عليه الميت من فوق، ثم يدخل الطالْب تحت الحايك المرفوع إلى الأعلى ومعه صحن الماء الأبيض الساخن مع قطعة ثوب للنظافة اعطيه فجأة ثم يدخل "الداعي" أيضا تحت الغطاء، وهنا يشرع الطالْب/"الفقيه" في "غسل" الميت بتمرير قطعة الثوب المغطوسة في الماء الساخن في غسل كل عضو على حدة بالتوالي: الرأس، والعينين، والأنف، والوجه، ثم يفتح فم الميت ويدخل إليه أصبعية السباب والإبهام لليد اليسرى في حين يستمر الداعي في صب الماء أثناء الغسل، وعندما ينهي المغسل يمر إلى العنق والصدر والبطن، و"الفرج"، والساقين ويوضئه بغسل الأعضاء. ثم يستمر في غسل الركبتين والرجلين واليدين، وعندما ينهي الغسل يلفه بالكفن من خمسة أذرع فوق الظهر ومثلها تحت الرجلين والخمسة الأخرى خلف العنق، ثم يأخذ خيطا من الثوب ويجمع به الجثة من الرجلين والجانبين والظهر[308] بعد أن يجمع إلى البطن، ويقوم بالعملية نفسها في الجهة الموالية للعنق وربطها في اتجاه الصدر. ثم يأخذ باليد اليسرى "الحنوط" وينثرونها على الجثة، ثم يعممها باليد اليمنى من الرأس إلى الرجلين، ثم ينهض ويقول للناس: "هيا احملوا

المرفع"، ثم يحمل ويوضع أمام الجماعة في حين يدخل آخرون ليضعوا فوقه حصيرا من الدوم، وكانوا أربعة حيث قال الأولان ممن حملاها:

- "الله يا قوي ! الله أكبر.

وهي عبارة كرراها مرتين، في حين يقول الاثنان الموجودان في الخلف: "يا رب تغمد برحمتك من ليس له أي ضغينة"

ويعيدان هذه العبارة وسط الجماعة ويحملان الجثة إلى الباب فوق النعش"، وهنا يأتي رجال آخرون لمساعدتهم على وضع الجثة فوق المرفع، وهم أربعة اثنان أماما وإثنان خلفا، وهنا يحملونه ويشرعون في المشي، ويقول الاثنان الأولان:

- "لا إلاه إلا الله، محمد رسول الله"،

ويقول الاثنان الآخران أو الخلفيان:

- "مولانا نسعى رضاك، يا أرحم الراحمين لا من يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين".

ويستمرون في تكرار هذه الأدعية إلى أن يصلوا إلى المقبرة، فيقول الأولان:

- "ها نحن جئنا إلى حماك، فاعطنا رب الخير كله".

ويكرر هذا الدعاء باستمرار إلى أن يضعوا الجثة في القبر، ويشرع رجال آخرون في خلط التراب بالماء، استعدادا لدفنه في حين يذهب الطالب/ "الفقيه" أمام الجماعة ويقول بصوت مرتفع: "فلنصل صلاة الجنازة على هذا الرجل". فيجيب كل من حضر من الرجال: "فليرحمه الله ويحشره الجنة ويتجاوز عن سيئاته. ثم يشرع الطالْب قائلا بصوت مرتفع" : -الله أكبر [309]

يتبعه الناس في ترداد ذلك ثلاث مرات. وبعد أن أنهى الطالْب صلاته سلم، وكذلك فعل الناس، فلبسوا أحذيتهم "بلاغيهم" "جماعة" وأزالوا الحصير من فوق الجثة ووضعوها على الجهة اليمنى، وغطوا القبر بعصي الواحدة قرب الأخرى، وكذلك فعلوا بالحجارة في الأماكن الفارغة، ووضعوا التراب في الوقت الذي يقرأ فيه الطُّلْبة سورة "تبارك" (سورة الملك) والسورة التي فيها ﴿**وإن كنتم على سفر**﴾ (سورة البقرة) وعندما ينتهون من ردم القبر، يضعون فوقها ثلاث عصي الأولى قرب الراس واثنتان قرب الرجلين، ثم يبللون القبر وما بقي من ماء في الجرة توضع بجانب العصا المغروسة في الجهة العليا للقبر.

وفي الوقت الذي "يتلو" فيه الطُّلبة يعطي كل واحد من الرجال نقودا لهم تشريفا للميت ويجمع هذا المبلغ ويعطى لطالب واحد سيوزعه على رفاقه، وبعد أن يتوصل الطلبة بنقودهم يقولون: "هيا نقرأ الفاتحة" ثم يعودون إلى منزل الفقيد، فيتوقف الطلبة ورجال القبيلة وينادون على أم الفقيد وزوجته، وعندما تخرجان يقرؤون الفاتحة من جديد ويقولون: "فلنقرأ الفاتحة وأن يتقبل الله، ويدخله الجنة، ويغفر له خطاياه، ويرضى الله على أولاده حتى يكبرون ويأخذون مكانة أبيهم ويصبر الله الجميع" [310]

يذهب كل واحد إلى حال سبيله بعد ان تقرأ الفاتحة في حين تدخل النساء إلى المنزل، وهنا تقدمن تعازيهن للأرملة الصغيرة ثم يلبسنها "بحجاب" من القطن من خمس عشرة ذراعا ويقلن لها: "اصبري أختنا العزيزة، هذا قدر الله، وكلنا سنموت ولا بقاء إلا لله إنا لله وإنا إليه راجعون!".

يأتي الناس إلى منزل الفقيد خلال السبعة الأيام محملين بالدجاج، والخبز من القمح "المخبوز" في الأطباق الطينية (الفراح) والبيض المسلوق، والتمر المسمى الجيهل، والجوز. وتتجمع بعد ذلك كل النساء اللواتي أتين بتلك الأشياء حول الأرملة ليرفهن عنها بأحاديثهن. ويجتمعن عند الغذاء بالطريقة نفسها طيلة سبعة أيام، ثم ينهضن بعد ذلك ويقلن: "لالة فلانة" أطال الله في عمرك وعوضك عما فقدت "وتجيبهن المرأتان: "لا أراكن الله مكروها يا أخواتي العزيزات. ثم ينصرفن وفي اليوم الموالي للسبعة أيام، تأتي نساء أخريات محملات بأطباق الكسكس من القمح، واللحم المطبوخ، ويبقين مع المرأتين سبعة أيام، ثم ينصرفن.

وفي اليوم الموالي للأسبوع الأخير تصل النساء عند أصدقاء الفقيد وتحمل معهن خروفا مسلوخا، وجرة صغيرة ملآى بالسمن، وأواني جديدة والإبريق (براد) وجرار ماء وحزمة من الحطب وسلة من البيض و[311] ودجاجا حيا، وجرة يوضع فيه الزيت، وبعد أن يدخلن كل هذه الأشياء إلى المنزل، تقوم أم الفقيد وتذهب إلى السوق لكي تأتي بالتوابل، ثم تشرع في طهي اللحم الذي جاءت به النساء في القدر الجديد، ويخبر الخبز في الطبق الجديد وتهيء الشاي في "البراد" الجديد لتقدمه النساء، وتطبخ بالسمن تاركة الزيت احتياطا لاستعماله في الإنارة طيلة سبعة أيام. وبعد انصرام السبعة أيام تريد النساء الانصراف لكن امرأتا المنزل تقولان لهن: "ابقين نريد أن نرثي الميت(نعدّد) لبعض الوقت".

تنادي أم الفقيد على جاراتها، ولما يدخلن يبقين واقفات وسط المنزل على شكل دائرة حول الأرملة الجالسة في الوسط، فتشرع كل واحدة منهن في الارتجال بطريقتها الخاصة، وعندما ترتجل الواحدة منهن تبقى الأخريات صامتات، وملتفتات في اتجاهها وهن يضربن بأكفهن ضربا خفيفا، ويستمررن في هذه الارتجالات إلى أن ينهين بالدعاء. وهذا ما تقوله النساء في حق من مات بالرصاص في الحرب، وهذا هو المستعمل أو المعمول به عند الأمازيغ منذ قديم الزمان:

مرثية

يا من لم يترك له مثيلا
كان رجلا شجاعا جدا
كان رائعا ومقداما
لو كان جبانا مثل يهودي لما ذُهب للبحث عنه
ورع إذا دعا، فلاح إذا زرع
كريم سخي بماله وخبزه
فلاح يحرث لوحده

وإذا طحن يكون طحينه وافرا
يسرج جواده، ويأخذ بندقيته [312]
وكذلك مبردته "من البارود"
ولما تخاصم العرب والأمازيغ عن الماء، كان الأمازيغ هم المحقون
ذهب الأمازيغ ليلا
من أجل جلب الماء
جاء العرب بدورهم إلى الماء
من أجل سقي حقولهم
ووجدوا بالقرب منها الأمازيغ
فجاء العرب واحدا واحدا
إلى أعلى القناة حيث يسرقوا الماء
وأصبحت حقول الأمازيغ قليلة المياه
فجأة صعد الأمازيغ إلى أعلى الساقية
لكن وجدوا عربيين جالسين
في أعلى القناة ساهرين على الماء
مخافة أن يأتي الأمازيغ لأخذه
ويسألونهم عن الماء الذي أخذوه بغير وجه حق
سألهم الأمازيغ "أين الماء؟"
أجابهم العرب "إنه لنا"
فقال الأمازيغ : "إنها الحرب بيننا إذن"
فقال العرب: "كلام تدروه الرياح"
فاجتمع الأمازيغ على كلمة واحدة كرجل واحد
وعندما تعلق الأمر بالذهاب إلى الحرب
حيث ستكون المواجهة حامية جدا
غدا اليوم الأول، جمع الفرسان والمشاة
لم يبق إلا العاجزين
ذهب كل الفرسان وعلب بارودهم ملأى
يجرون إلى ساحة الحرب
أخذ المشاة أسلحتهم وكل أخذ سلاحه بطريقته الخاصة
بعضهم مسلح بقطعة حديد للطحن (رحى)
وبعضهم بمناجل
وبعضهم ببندقية فوق الكتف

وبعضهم لا يحمل سوى مناجل كبيرة وطويلة [313]
وبعضهم يأخذ مناجل صغيرة
وبعضهم يحمل عصيا فوق الكتف
الكل يتجه إلى ساحة المعركة
وهنا اصطف الخيالة أمام المشاة
فجأة تجمع العرب فرسانا ومشاة
كل واحد يأخذ بيده أداة مثل سلاح
كل الفرسان العرب محملين بأسلحتهم
يحملون بنادق، و"قرونا"
ملأى بالبارود لديهم رصاص
كما لهم سيوف وخناجر
وأغلب المشاة لهم مسدسات
بعضهم لهم شفرات حادة
بعضهم يحمل رمحا
وقف الفارس العربي في صف أمام المشاة المصطفين جيدا
انبطح الراجل أرضا وأخذ موقعه
فجأة تكلم البارود والرصاص
من جهة الفرسان العرب الكثر
ثم ذهب الفرسان خلف المشاة لشحن أسلحتهم
دخلوا الحرب في الوقت الذي ظل فيه الفرسان واقفين
وكثير من العرب الذين سرقوا الماء موجودون في الحرب
وسبب الحرب ضد الأمازيغ هو الماء الذي يقولون إنه لهم
والنصر بقي للإمازيغن
خرج قوس "المتمرد" لأحدهم وخرج وفوقه سيده في اتجاه العدو
فجأة تبعه العرب مختبئين [314]
فرموه بالرصاص وقتلوا فرسه
نفق الفرس ورموا الفارس أيضا وقتلوه
وأخذ الأعداء بندقيته الجميلة
وقرنه الذي يضع فيه البارود
وأخذ سرجه ولجامه
وتركوه ممتدا أرضا
حل الظلام وافترقا

عاد الأمازيغ أيضا
وعاد الكل إلى منازلهم
وحده الرجل لم يعد
وفرسه من ينقصان
ذهبت الأم تستطلع
تقول: أين ولدي؟
ويجيبونها "رضي الله عنه يا لالة"
لقد توفي ولدك وفرسه
رجعت الأم وأخذت حيوانا (تيسا) وذبحته وسط القبيلة
سألها سكان القبيلة: "ما تريدين؟"
وأجابت "أن تحضر لي جثة ولدي
من أجل أن أرسله من هذا العالم
اجتمعت النساء وعليهن الرجوع
في الليل وجدوه وعادوا به
كان ممدودا أرضا والرأس مهشمة
جمعه الرجال وشدوا وثاقه فوق فرس
وعندما كان يسوقون باللجام كان الآخرون يتبعونه
جاؤوا بالميت إلى باب المنزل وطرقوا الباب
خرجت أم الميت وأولاده
ورؤية الجثة تعالت الصرخات
أخذ الرجال من جديد الجثة وحملوها إلى الجماعة [315]
حيث وضعوها، وتركوها دون إنارة
مثل أي فرد يموت عندهم
هذه عادة كل الأمازيغ
وحده من يموت في خارج منزله لا تشعل عليه أضواء
في حين من مات في منزله يضاء عليه
في الغرفة ويبقى وحيدا إلى الصبح[1]
وتشرع زوجته في النحيب،
تتذكر زوجها الذي يقضي الليل وسط الظلام،

1- ما يلي من كلام منثور

جاءت النساء الآخريات ليقلن لها: "هذا سيء بالنسبة لك، فهذا ما قدر الله على آخرين غيرك" وتقول لهن: "أنا من أصبحت أرملة، وأولادي أيتام" ويقلن لها: "هذا قدر الله والكل ملاقيه".

يقول النساء لأم الفقيد التي شرعت في البكاء، "إنك أنت الكبيرة العاقلة التي تنتظر منك الصمت والهدوء والدعاء"

فتقول لهن: "أنا من سيتحمل مصاريف الأبناء والأرملة"

ويقلن لها: "اهدئي سيكبرون وستكون لهم الكلمة وسيملكون الأبقار". وتقول لهن: "متى سيكبرون؟ فلن يكبروا إلا بعد أن ألحق بأبيهم". فيجبنها "الأعمار بيد الله".

وفجأة تصمت العجوز، وزوج الفقيد أيضا تصمت وتشرع كل النساء في السلام عليهما وكذلك الجارات اللواتي بكين معها ويقال لهن: "إرضي بقضاء الله ولا تبكين. [316]

وتذهب النساء وهن يتحدثن عن الرجل الذي لم يستطعن علاجه.

هذه هي قصة رجل ميت بالبارود عند إمازيغن. انتهت هذه الحكاية بعون الله.

أحيدوس

أحيدوس هو "لعب" الأمازيغ حيث يتبادل الرجال والنساء الكلمات الدينية والمستفزة. ولا يدخل حفل أحيدوس إلا الرجال ذوي "الفكر" والخبرة بالنظم.

وعندما تريد النساء تنظيم أحيدوس يهيئن عشاء "جيدا" ثم يبعثن بعجوز يَقلن لها: "اذهبي ونادي الرايس فلان، مع فلان وفلان".

ثم يأتون مجتمعين مرفوقين بدفوفهم (بنادر)، ويدخلون إلى المنزل حيث تستقبلهن النساء بالزغاريد، فيجلسون وتأتي لهن النساء بالأكل والعشاء ثم يذهبن إلى المطبخ لإشعال النار من أجل أن تسخن بها الدفوف التي "يلعبون" بها. عندما ينتهي الأكل يذهب الرايس ليجلس وسط الساحة، و"يساوي" يضبط إيقاع نغمات دفه ويتبعه الآخرون. تأتي النساء حيث تقف كل من تتقن رقص أحيدوس أمام اللاعبين (المنشدين) وفجأة يشرع الرايس في الإنشاد والمدح، والنساء جالسات أمامه، وترددن عبارات المجاملة التي وجهها إليها الرايس دون أن تقف إلى أن ينهي الرايس مديحه، وها هي الكلمات التي يبدأ بها الرايس أحيدوس:

الرايس

السلام عليك أيها الطير المزركش الريش، يا أيها الحمام

أسلم عليك وتسلم عليك الأقدام، وتسلم عليك الأرض التي تمشي عليها

اللهم ألهمني هذا الخلق حتى لا تتوقف نظراتنا [317]

المرأة

عليك السلام يا من يمدحنا

من أي منطقة من "العالم" بعثت أيها الحمام؟
ياغزالا بالعنق الجميل من رباك؟
ماذا أعطاك أبوك ليغذيك ويربيك؟
إلى أن تزرع الآن بلسانك إلا الذهب
اعرفك أيها الباز من صوتك
هل يمكن أن نسأل عن صديقك؟ أين هو؟
هل هو غائب؟ أم في الحج ؟ أوأنه هنا؟

الرايس

ليس غائبا ولا في الحج ولا في هذه الديار
الذئب يمشي في الممرات الملتوية والكلب يتبع الطريق المستقيم
ابن آوى يتبع الطريق، وأثاره تختفي
العين مغلقة عنوة في وجهك أنت العطشان

المرأة

هل يمكن لنا أن نسألك عن ثمن السلع أنت الذي سافرت؟
على الأقل ستكتفي يدك مقبوضة وتأخذ المفتاح المخفي
لكي لا تكون مضطرا لاقتراض
من أجل الحسناوات التي تريدها أيها الجزار!
ستخدعك من تستقبلك لأنك مجفف بالبرد
وإذا ما تغيرت ووضعتني تحت جناحيك ستدفئني

الرايس

كل واحد له في صفه من يناسبه
إذا صادف "صديقة" أحبها، وهي بالنسبة له أحسن من الجنة [318]
الحياة التي لا حب فيها الموت أفضل منها
إذا ما وجد أحد فريدا على قارعة الطريق فاعلم أن حبيبته تنقصه
قولي لي إذن من سألاقي؟ وتغريني

المرأة

الرغبة عند الصخرة التي تقبض الماء
والله بعثك لتبادل الأفكار
الحب صعب، وخلق عنوة لك
أعطانا الشعر وأزال عنا الذرة التي تيبس
آه! يا صديقي عندما ابتعد عنك أبكي وأنت تئن

لن أسامحك أو أغفر لك ما لم نتحدث

الرايس

منذ سنوات وأنا أريد أن أحدثك
لكن الله لم يكتب ذلك إلا اليوم
أرجوك ياشجرة السرو !اخفضي رأسك الذي سنقبل
(وعند هذه الكلمات ينزل الرايس الحجاب الخفيف عن الوجه)
الفجر مثل جبهتك صباح الخير عليك
من زينك في التابع بالجواهر الغالية؟
من جعلك تحبين يا جميلة يا محور الرقص؟

المرأة

أين يمكن أن ألتقيك يا سيدي؟
أأزورك وأعود بسرعة أكثر من الريح؟
لكن يشغلني شيء
عندما أعد صديقا لن أغادره أبدا
قطعت قطعا صغيرة كحبات الشعير [319]
ولو صوبوا المدافع لن أغيرك بالأموال!
وصبرت ونتف شعري من أجلك
وعندما تناديني أمي أقول "أنا كما ربيتني"

الرايس

عندما يناديني أبي: أعدك أنني لن أجيبه أبدا
آه يا إلاهي ! لدي القلب الذي كسرته كالقصب
قلبي الخافق الذي أمسك به كاد أن يخرج وأضغط عليه بيد اليمنى
واضغط عليك باليد اليسرى لأمنعك من الأنين
لأعلم أين وضع الطائر فراخه
يا أيتها الشجرة التي جذبتني بأغصانك
فلتهشمك الرياح أو ليجرفك الواد!
إذا أراد الحظ أن يحضرك عند من تحب
مثل ما إذا ترك لك أبوك إرثا مائة قنطار وشيء نفيس
وإذا ما التقيت مع من لا تحب
مثل ما ترك لك أبوك مائة دين
إذا لطف الله بك فلا تنس أحدا من حسن ذكرك

وإذا حرمك الله، فلا تطلب الحماية من أحد

المرأة

آه يا صديقي، أحبك! واعلم أن الكل يحبك
وانتظر ممن يدعي حبك أن يتوقف عن الاهتمام بك
ثقتي كاملة في الله وفي الرسول المبعوث وفي الملائكة
فيبعد الله عنا من لا ينقل عنا سوى الأحاديث
فليحرق الله لسانه بالبارود [320]
لتفقأ عيناه التي يرى بهما الناس
لم أدخر مشيا لا في طريق ولا مسالك
الثروات الغنية لن تبعدني عنك
هبت رياح قوية وعرت العسل
عسل زهرة جميلة، أنت يا حمام!
هل تفهم يا ذكي كلامي؟
آه يا صديقي أعلم أني أقصدك أنت
طُحن الحب وبدأ العجن
ولم يبق سوى اللحم والخضر

الرايس

هذا ما خفت منه بأن تلاحقنا الأبصار
وإذا ما تعثرت، عرقلتني الأغصان
لأنه من يستطيع أن يصلي فوق قصبة
ينزل دون أن تزل قدمه ولا أن يقطع الأوراق

المرأة

هيا تشجع ولا تخف
وارم بأطراف سلهامك ولا تخف
أبعد عنك كل الشكوك فليس سوى الله من نجيب
أبدا لن أكون جبانا ما دمت
التقيت سمكة تغادر الماء وعبر المنعرج وصلت الطريق
آه يا صديقي أقسم بالله الذي إليه راجعون
لأن الشيء الذي لم يجعل يدينا تخدع، يشهد أمام الله أننا إخوة، وهذا ليس حراما!

الرايس

اعلم أن الله سيرجعه إليك، لأنك لا تريدين سوى الخير

فالطيبوبة فيك، وفي فمك
أبواي يرفضان من أحب [321]
ويفرضون علي من لا أحب ولا تجمعه بيني وبينها شيء
فليس في "جبن" ولا شك
وكل مرة أراك أصبح شاكا
أبدا لن أكون جبانا مادمت قد وجدتك
فعندما أنهى يهودي دعاءه ذهب ليجلس قرب الإمام في المسجد

المرأة

أنت أخي، وأنا أختك إلى أن نموت
ألم تقل بأنك تحبني، وأن كل كلام آخر لا معنى له؟
فستأكل متاعك وثروتك وتفر منك
فلتتحدي يا أصابعي وتتعاوني وهذا شيء جيد
خصوصا أنت أيتها الإبهام يا من ليس قربك أحد
إذا كنت ذكيا قل لي : ماهو الكتاب الذي كتب دون أن "يبلل"
إذا شرحت، سأحييك وأخضع لك

الرايس

إنها "العازب "الجميلة التي لم تلد
إذا كنت ذكية فقولي لنا
واشرحي لنا ما هو الكتاب الذي كتب بشوكة نبات؟
إذا شرحته لي سأحييك وأخضع لك

المرأة

إعطني مرآة وفرشاة وسأشرح لك
وإذا كنت ذكيا، وحسن التربية
فاشرح لي: ما هو الحيوان الذي له أسنان طويلة
ناتئة في البطن وترفعها اليد؟

الرايس

إنها إبرة الخياطة، (المخيط) أعرفه، لكن علي أن أقوله لك
وإذا كنت ذكية، قولي لي:
اشرحي لي من هو الحيوان الذي ليس له لا نخاع ولا مخ؟
إذا قلته لي، سأحييك وأخضع لك[322]

المرأة
إنه الغدر الذي يوسخ (يسود ثيابك)
وإذا كنت ذكيا وحسن التربية
قل لي ما هو البحر الذي ليس به بحارة؟
إذا شرحته لي سأحييك وأخضع لك
الرايس
إنها العين – فقأ الله عينك
وإذا كنت ذكية، أجيبني
واشرحي لي: ما هو الحيوان الذي ليس له سوى رجل واحدة؟
إذا قلته لي، سأحييك وأخضع لك.
المرأة
إنها البندقية فلتنفجر في يديك؟
وإذا كنت ذكيا وحسن التربية
قل لي: ما هو الحيوان الذي له قبعة؟
إذا شرحته لي سأحييك واخضع لك
الرايس
إنه... فليمزق الله...
في جوانب متضخمة مثل قدر لا يعرف سوى الشر
وستشرحين: حيوان عظمه حرام
ونخاع عظمه حلال وكل الناس يأكلونه
إذا شرحته لي سأحييك وأخضع لك
المرأة
إنها الرمانة هل علي أن أقولها، يا سيء الطباع
إذا كنت ذكيا قل لي
واشرح لي كانوا مائة وجاء واحد وطردهم
إذا شرحتها لي، سأحييك وسأخضع لك
الرايس
إنها السبحة، هل عليَّ أن أقولها، لأنني أعلمها
اشرح لي: حيوان نذبحه ولا يموت [323]
إذا قلتها لي، من حياك يا زينة النساء

المرأة

إنها..... فليقطع الله.... ك
إذا كنت ذكيا وحسن التربية
فسر لي ما هو الحيوان الذي لم يجز أبدا
يشبه الكلب ويقول مجيبا أنعام؟

الرايس

إنه "الذئب" الذي يريد أن ينهش أمعاء أمك
إذا كنت ذكية فقولي لنا
سمٍّ لنا حيوان له ذراع طويلة
وعيناه تلمعان مثل الضوء في الظلام

المرأة

إنه القط، فليعضك ويهرب إلى بعيد
إذا كنت ذكيا ومربيا أحسن
فسر لي: حيوان يُفقد الأنسان صوابه
إذا قلته لي سأحييك وأخضع لك

الرايس

إنه الضبع جعله الله في طريقك
إذا كنت ذكية فقولي لنا
واشرحي: حيوانا متكرر الألوان
إذا قلت لي سأجيبك وأخضع لك

المرأة

إنه، الفهد فلينهش كبد أمك
إذا كنت ذكيا ومربيا
فاشرح لي حقلا مزروعا دون حرث
محصود بالنهار ينبت بالمساء؟

الرايس

إنه السماء والنجوم، إذا كان علي قوله لأنني أعرفه
إذا كنت ذكية، قولي لنا [324]
واشرحي لنا: حيوان في حجم جرة.
يتحرك وكله عار في الغابة التي التقيتك بها

المرأة

إنها غولة، فلتزل كل ذريتك
إذا كنت ذكيا ومربيا
قل ما هو الخروف بدون قرون
المحرم ذبحه في عيد الأضحى ولم يجز قط

الرايس

إنه الكلب، فلينهش رئة أمك !
إذا كنت ذكية قولي لي
واشرحي: حيوان دائري الشكل محرم
في ظهر غدير متقدم وسط فم صغير؟

المرأة

إنه.... فليمزق الله.... ك
إذا كنت ذكيا ومربيا
اشرح لي: حيوان ليس له يد
ويزحف صارخا؟

الرايس

إنها الحية، أخرجها الله لأمك
إذا كنت ذكية قولي لي
اشرحي لي: حيوان ملفوف على شكل حلزوني
نصف جسمه مرتفع ولايتحرك إلا زحفا
إذا قلته لي سأحبيك وسأخضع لك

المرأة

إنه الثعبان، فليتبعك وسط الليل
لنصبح إخوة ونجمع مجهوداتنا في وضعيتنا الصعبة
يا رب من له جميع المفاتيح ساعدنا
فإن لم يفتح لنا الرب الأبواب صرنا سجناء [325]
ساعدك الله أيها النسر بالريش الأزرق، المزين بالألوان
آه يا سلطان الطلبة إذا ما توجهت إليك
فلكي تكتب لي حرزا فأنا متيمة
واكتبه لي آخرضد الحب

الرايس

أيتها الجميلة اليوم يوم خميس ولا أكتب لأحد
يقال إنه حرام وسيكون ذنبا كبيرا إن لم أكتبه لك
الآن ايتها الجميلة غدا سأكتب لك حرزا يقيك من الحب
وسأكتب لك آخر ايضا ضد الحزن

المراة

لن اصدقك، فمك لا يخرج منه إلا الهزء
أقسم لي بالقرآن، وسأصدقك؟
وسأعلم حينها إذا ما قررت أن تكتب لي حرز وقاية
وبابتسامة شفتيك، فأنت تدغدغ العواطف.

الرايس

بالله عليك أيتها العين الهادئة، أعطني بعض الماء
لأشربه: يا أختي الحبيبة فأنا عطشان كثيرا

المرأة

العين مقدسة، ولن أدع أحدا يشرب منها
مائة ألف "دقة" ومائة فأس
كسرت دون أن ينبع الماء
وتريد أيها الرايس أن تحصل على الماء!

الرايس

أنا أنتظر الماء من عين قديمة
أما العيون الصغيرة فإن لم تكن معكرة فإنها تجف بسرعة
فعندما تهبط عين إلى الوادي تصبح رأس النهر [326]
وعندما يشرب الجميع، سأشرب أنا بدوري
بالله عليك أريد أن آخذك
وأن أصلبك على سور

المرأة

أعدّ جيدا بندقيتك
ولا تشحنها كثيرا حتى لا تنفجر على البطن
فليسلط الله عليك ثلاث مصائب على البطن
واحدة تكون عاصفة، سترمي بك إلى العام المقبل
واحدة تكون البارود سأضع عليها جمرة

واحدة تكون الموت لتحرمك من باقي أيامك
الرايس
أطلب من الله أن يصيبك بما تريدينه لي
سواء كان خيرا أو شرا، احملي كل شيء
فليعطك الله ما أعطى (الجحش) لأمه
عضة في العنق وركل بالقوائم الخلفية
فليسلط الله عليه الهم يبكي أمك
أو سلط الله عليك مرض السل مدة طويلة
فلا يحرسك الله من النظر وجعل كل أيامك تعبا
وسلط الله عليك الذباب بالأكوام، يا امرأة الشر الخالص
المرأة
يا أيها الحقير تعيسة هي من ستتزوجك!
فهذا ليس من الطبيعي إذا لم ترد الموت أخذك
فعندما تطلب منك زوجتك زوج حذاء
تظهر لها كعبيك دون نعال
فليعطك الله الحمى بحجم حبة التين
وأن توضع منذ الصباح فوق كومة حطب (نار) قبل مطلع النهار
الرايس
أتمنى لك بلاد عبدة أيتها اليهودية
حيث تحملين على ظهرك قربا دون ماء
وأين يسخرك عربي أشعر لتدرسي له الحب [327]
وأن تأخذك خليلة من خيوط شعرك
ولا أتمنى لك إلا رحى بأيد أو "منداف"
وأن لا يكون لك من التغذية إلا الثمن لكي تكوني قريبة من الموت
وأنت تختفي الأمطار حتى تخس كل النساء
انتهى كل شيء لك، فليس هناك أطباق جيدة
المرأة
فأنت من انتهت له حبات الدرة والكروم المتأخرة
أنت من قدم السخرة إلى يهودية، فماذا تستحق من عقوبة؟
الرايس
أن أخدم يهودية أفضل من أخدم "تاجرة"

التي تنطلق دون أن تعرف الظلمة التي ترتمي فيها
المرأة
اذهب أيها الرايس حيث ينتظرك البؤس
حيث تركت زيتوناتك وزياتينك
ارجع لتتبع أملاكك، وتستخدم الحقول الصغيرة لأمك
لكي تكون راعيا عند من لا يحبك
الرايس
ففي الصباح الباكر تباع كل العبيد
أما بعد الزوال فلن يبق إلا من لا قيمة له
أنت يا من تعود أن يأكل إلا أحشاء الحيوانات في السوق
المرأة
اضرب كلب الطاحونة فهو متعود على لحس الدقيق [328]
اذهب حطمها الله على رأسك
انتبهوا فبينكم كلب مسحور
ما أن يصادف أحدا حتى ينبح وراءه
الرايس
أنت هي الكلبة الراعية
تزوجت بأسوأ الكلاب، بزوج يخونك
يأخذك من شعرك ويجرك نحوه
وإذا كنت ذا كرامة لا تستطيعن أبدا الدخول إلى أحيدوس
ولا أن ترافقي الفتيات النبيلات الشريفات
المرأة
أنت من هو ديوتي/"قواد"، يا لقيط
أمك هي الراعية التي لم تترك لك ذرية
فليصبك بوركاب في رأسك إلى رجلك
وأنت الآخذ بعرقوب الخيل أصابك الله بمرض
لقد صادفت أباك وهو يجر ضفدعة من رجلها
ويقول: يا فرحي ! بحظي غير المنتظر الذي لم أصرف عليه أي شيء !
لقد شاهدت أباك يتربص وينتظر مقابل الملاح
متحمس إلى حديدة وخبز اليهود

الرايس
لقد ولدتك أمك أسفل بردعة يهودي
وأبوك شريك مع يعقوب في دكانه
وجدت أباك فوق أمك دون أن يتحرك
هو من "سرق" قميصه وأدار لي ظهري
رأيت أخاك يهرج وأمك تتسول
قرب المسلمين واليهود الذي يعطي كل واحد قرشا
المرأة
عيناك تشبه لعيني سمحة الملاح
أو عينا قرد يهرب ويصعد نحو المضيق [329]
رأيت أباك وأمك يتجولان
أبوك يجر أمك بلجام من حبل ويجعلها ترقص
وعندما تطلب من الناس "أعطوني قرشا"
يجيبونها، "قل لزوجتك أن تلعب"
الرايس
أبوك "طحان"، ولا يعيش إلا على نتاج طاحونته
كل من أتاه بطحين يسرق له منه شيئا
يطارد الفئران وقضى عليها كلها
ولا يعيش إلا من الدقيق المسروق من المطحنة
وعندما يقبض على الفئران، يشويها في الفرن
ثم يضيف لها الدقيق ويفترسها
وعندما ينهي أكله ويذهب إلى الساقية...
ويشرع في شرب الماء، المتسخ، المصيب بالإسهال
وينزل إلى أسفل المطحنة ويتعب من أجل الإفراغ
عندما يصدر الصوت من الأعلى، يجيب الأسفل
أعطاك الله شربات بعصى غليظة
ولتنزل على أبيك أيضا إلى أن تفارقا معا الحياة
المرأة
أدعو الله أن يصيبك بطعنات خنجر عمي منصور
إذا قطع أعضاء من أبيك و.... أمك
اللهم سلط عليك سرطانا يكون أعرض من "مزهرية"

وأن تطرد من البلاد أخيرا بعد السب والشتم
وتحمل معك كل علل النساء
لست سوى يهودي كما تدل على ذلك تصرفاتك
لأنك لا تصلي ولا تصوم رمضان
وعندما عرفناك اليوم أحسسنا معك بالذل
وسنرى أي نوع من القوة لك يمكن أن تظهرها لنا [330]

الرايس

أدعو الله أن.... جمل حتى تلدين ضبعا
وأن تنتقع ملابسك برائحة الجمل، كما تكون فيه
وليجعلك الله في شرج الأسد وأن تغلق عليك
وسترين براز البشر في... ؟؟
ورأيت أمك أسفل عش غراب
مع يعقوب يأكل خبز اليهود
وجميع أولياء البلد الواحد تلو الآخر
بأن تعقد القدرة على الكلام ولعب أحيدوس
وأن لا تستطيع نظم كلمة شعر واحدة
أتمنى ما يتمناه العدو في الحرب
أن يقتل أنك عندما يجدها في الطريق
وأن ترمي أرضا مثل العمود
وأنه يزيل عنها كل ملابسها
أتمنى يا كلبة أن يأخذك قطاع الطرق
وأن لا يطلقوا سراحك إلا بعد أن "يضا جعوك" تباعا
وستعرفين على ما يقدر الرجال
ولا يقبلون كلبات مثلك....

....

يعم الصمت في صف الرجال والنساء، المحاوران فقط هما من يستمران في الكلام]

المرأة

اطلب من الله المعذرة إن سببت لك مكروها
صديقي العزيز، سأخضع ولن أقول أي شيء بعد
انتهى فلن أقول بعد أي كلام قبيح
لن أسمح للغناء الذي أوصل بنا إليكم إلى هذه النقطة

تعالى يا أخي ولا تظن أني أقول الكلام [331]
اليهودي وحده باعتباره بشرا يحتقر كل ما يرى
فالجاسوس والحسود لا يجب أن يعاملا إلا هكذا:
يجب أن تعطاهم قارورة زرنيخ أو خمس جرعات من السم
سأضعك يا رايسي في كسوتي التي ليس لها بديل
تعالى ولنذهب عندك، وإذا لم ترد أنا من سيأخذك
فقد حلم بك جني في نومي
ورأيت "خيالك" وصوتك

الرايس

إلعني الجني، فهو من شاهدت
والأسوأ لكل لص هو أن يكتشف ويعتقل
وليس له سلاح يدافع به فيوفق
ويضربه أهل القرية بما فيهم النساء
إذا كان غريبا قتل ورمي في الواد
وإذا كان من أهل البلاد قطعت يده
وكلما فكر في السرقة ينظر إلى يده
هذا ما يخيفني ويجعلني أفكر
ومن أجلك سأتحدى غضب أعدائنا، وسأصارع من أجل الدفاع عنك
وإذا لزم الأمر سآخذك إلى بلاد بعيدة عنها
حيث لن يجدونا ولو بحثوا عنا
وعندما سنكون في تلك البلاد سنختبئ
وسننحر لأهلنا وسيكونون مسرورين بنا

المرأة

صديقي العزيز هل تجدني متلهفة لإشباع رغباتك
هل تفكر أيها الواد ! أن أكون السهل
انتبه لسفرك وحيدا دون أن أعلم
هيا نبحث عن صالح سيشهد على قسمنا
يجب أن يكون بيننا أخي اتفاق متبادل
لكي لا تكون خيانة لا منك ولا مني [332]

الرايس

أنا لست خائنا حتى لا تثقي بي

سآخذك على مرأى ومسمع الجميع، وغدرك سيكون علي ذنب عظيم
وسأعطيك ما ترغبي
صفائح من فضة، وقطعا من ذهب
قفطانا مطروزا بالذهب
وأساور كلها من الذهب الخالص
وعقدا من الجواهر
وثوب موسلين و"شربيل" غال
ومناديل تسمى تسبنيت ولقطيب واعبروق
من الحرير الهندي الخالص كله لك
المرأة
آه يا أخي العزيز، لقد خالجت روحي
فعندما يناديني أبي أجيبه
لكن إذا كلمتني أمي أبكي
وعندما تقول لي: "يا زبد" القبيلة دون أن تصل لتأديبي من أجل هذا
وفي المساء بعد أن أقدم العشاء أفكر فيك وأشرع في البكاء
وعندما أهيء الغذاء أكون في الحالة نفسها
الرايس
أنا من قلبه أسوء يا أختي!
إنها دموعك السبب في حبي لك
لم أعد حرمت علي المأكولات فأنا أشرب فقط
ولا أتوقف على البكاء وأنا أشرب
وبسبب حبي لك وصداقتي الكبيرة لك
وإذا ما حكيت لك ما قاسيته
سترين أنني لا أتحمل عقوبة أكبر من "الاستنطاق"
وعندما أتناول العشاء نصف جسمي يهوى أرضا [333]
عانيت كثيرا، لكن معاناتك قنطار
بوزن برج وجبل أو سلسلة جبال
فلو أعطاك الله بعض "العقل" كنت ستذهبين بسهولة
أما روحي فهي لك، وفيك
لكن حياتي سوى معاناة، من أجلك لا أتوقف عن البكاء
فمنذ مطلع النهار إلى الليل وأنا أعاني
تذكري جيدا أننا نتسامح

مادام الله أراد أن أتزوجك

وعندما يريدون إنهاء أحيدوس تتوقف النساء ومرافقو الرايس على الغناء والرايس وحده هو من يستمر في تسوية الإيقاع بدفه ويقول للنساء:

با لله عليكن، ماذا نستطيع لك؟

يا من يحتل داخل قلبنا

وسلامنا على جميع الأولياء

وعلى المحب إدراف الدموع

ويأسف إذا لم يكن حبيب قريبا منه

ثم يدير الرايس دفه على إبهام اليد اليسرى، وبهذه الإشارة يرتفع الإيقاع، وفي هذه الأثناء تنهض النساء الواحدة بجوار الأخرى وتقفن أمام الرايس ورفاقه وتضربن بأكفهن في حين تغني أخريان قائلات "يا أيتها النحلات" وتجيب أخريات "أين هي وردة مارس".

ويستمر الرجال والنساء وجها لوجه يغنون ويتمايلون ببطء، ويتقدم الرجال نحو النساء اللواتي تتراجعن ببطء، وعندما يصلن إلى جدار المنزل ويتوقفن يتراجع الرجال في حين تتبعهم النساء، ويستمرون على هذه الحال إلى مطلع "النهار" حيث يذهب كل واحد إلى حال سبيله [334] وهكذا ينتهي أحيدوس لعب ورقص عند إمازيغين كما ورثوه منذ القديم. [1]

الأعياد الدينية عند الأمازيغ

العيد الصغير(عيد الفطر)

عندما يحل أول شهر رمضان، لا يتناول الأمازيغ وجبة السحور، ففي المساء يتناولون العشاء وينامون حتى الصبح حيث يشرع الرجال والنساء في صوم رمضان وأغلب النساء، تصمن باستثناء الحائضات حتى تنقضي مدة العادة الشهرية، فتغتسلن وتستمرن في الصوم، وعندما يصل وقت المغرب (الغروب) وقت الأكل يشربون الحريرة ولا يتناولن العشاء إلا بعد "صلاة" العشاء، في حين تشرع النساء في تحضير العجينة، ثم يصيح "البراح":

"ناموا يا عباد الله ناموا"

ولا ينبه على ذلك إلا بعد أن يصلي الكل صلاة العشاء في المسجد، وتستفيق النساء في النداء الثاني "للبراح" حيث يشعلن النار ويخبزن الخبز، ويضفن بعد ذلك إليها العسل والزبدة ويتناولون السحور إلى أن يقول "البراح" من جديد:

1- أحيدوس هي الرقصة "الوطنية" عند الأمازيغ وسط الأطلس، وتسمى هذه الرقصة أحواش، عند شلوح الأطلس الأوسط وتكون مصحوبة دائما بالأغاني، وتقام في جميع المناسبات السعيدة، وهناك عنصران أساسيان في هذه الرقصة الرايس وتارايست، يدير الرايس "اللعب" الذي ينادي على امرأة تجيبه وتتفاعل معه، أما فيما يخص الآلات الموسيقية فليس يستعملها إلا الرجال في حين أن النساء يكتفين بالضرب بالأيدي فقط.

"يا عباد الله توقفوا عن الأكل والشرب فطلوع النهار قريب"

وبعد الأكل والشرب يغسلون أفواههم ويعودون إلى نومهم حتى مطلع النهار، حيث يستفيقون و[335] يلبسون ملابسهم، ويستمرون على النهج نفسه طيلة شهر رمضان. أما بالنسبة للطفل البالغ أربع عشرة سنة فلا يصوم إلا في الليلة السادسة والعشرين من رمضان، حيث يقضي النهار نائما في الغرفة، ولا يستفيق إلا عند صلاة العصر فتقول له: أمه، انهض يا ولدي واغسل وجهك ورجليك كي ألبسك أحسن ما عندك فيجيب الطفل: "نعم يا أمي" فيشرع في غسل وجهه ورجليه بالماء البارد، وبعد أن تلبسه أمه تصعد إلى شرفة المنزل وتنادي على الجارات الساكنات بالقرب منها وتقول لهن :

- "فلتأت كل واحدة منكن ب "جبانية"/ محارتها فارغة، وأن تأتي بابنتيها لنحتفل بصوم ولدي الأول. فيجبنها: "على الرحب والسعة، وجعل الله هذا اليوم من مسراتكم"

ثم تأتي كل النساء مصحوبة كل واحدة مع بنتها، وصدفة الحلزون وبمجرد ما يدخلن يجلسن إلى أن يقترب وقت "المغرب" ثم تقوم أم الولد وتأخذ منديلا من الحرير تغطي به وجه ولدها وتشده بحبل من حرير، ثم تأخذ ولدها وتجلسه فوق سلم، وعندما يصل إلى منتصف السلم تدلي له أمه جوانب المنديل إلى مستوى الصدر مصحوبة بآنية من طين مطلية، وملأى بالعسل تأخذها باليد اليسرى وتصعد في اتجاه الابن وتجلس بالقرب منه، وتضمه إليها باليد اليمنى وتصدر زغاريد وعندما تصطف النساء مع بناتهن تنادي الأم على البنت الأولى التي تأتي و تصعد السلم، وعندما تصل بالقرب من الأم تمرر لها الإناء باليد اليسرى في حين تمسك باليمنى "المحارة" فارغة، وتضع العسل في الإناء إلى أن تملأ صدفتها وتمررها إلى الطفل الذي يفتح فمه [336] ويأخذها بأسنانه وتنزل البنت بعد أن تعطي الإناء للأم وتجلس جانبا، ثم تنادي الأم على فتاة أخرى تصعد بدورها وتقوم بما قامت به الأولى، وفي الوقت الذي تتناوب فيه الفتيات على القيام بالدور نفسه لا تتوقف النساء عن إصدار الزغاريد، وعندما تمر جميع الفتيات يكونن دائرة ويغنين ويرقصن ويقلن:

أحيانا الله إلى رمضان المقبل
أمهات الأطفال الورعين الثقات
الكل حي ومتزوج...
وأن يكون موسمنا الفلاحي جيدا
بالعجول والأبقار
والنعاج والسمن

تتوقف جميع الفتيات عن الغناء والزغاريد، وتنزل الأم ولدها من هذا السلم، وتذهب به إلى الغرفة لتزيل عنه رباط الرأس، وتجلس بعد ذلك النساء والفتيات يتناولن الحريرة من أجل الغذاء، وعندما ينهين تتوجه كل واحدة إلى حال سبيلها، ويستمرن في الصوم إلى أن يحل العيد الصغير، وعندما يستفيق الرجال صبيحة هذا اليوم يلبسون أحسن ملابسهم الجديدة ويذهبون

لأداء صلاة العيد حيث يكررون عبارة: "الله أكبر" ثلاث مرات ويضيفون "سبحان الله والحمد لله ولا إلاه إلا الله" ويستمرون في هذا الدعاء "إلى أن يأتي القاضي الذي أراد أن يصلي معهم، ثم يصعد صخرة كبيرة فيهم وهم ينتبهون إليه بعد أن يقول "الله أكبر" التي يكررها وراءه المؤذن "يستمر هذا المشهد هكذا إلى أن ينهي صلاة العيد، ثم ينزل من أعلى الصخرة في الوقت الذي ينهي فيه المؤذن[337] مراسيم الصلاة بعد أداء ركعتين والدعاء، ثم يسلمون على القاضي الذي ينصرف أما الرجال فيتبادلون تحايا العيد "عيد مبارك سعيد" بلغنا الله العيد المقبل إن شاء الله" ويستمرون على هذه الحال إلى أن يرجعوا إلى منازلهم ويشرعوا في أكل الخبز مع الزبدة والعسل.

وبعد أن تتنظف الفتيات والنساء وتلبسن أحلى ما عندهن من الجواهر والألبسة الجديدة، ينتشرن في القرية ويزرن أضرحة صلحاء البلد، وفي المساء تعود كل امرأة مع بنتها إلى المنزل، في حين يتجول الرجال في ضواحي القرية إلى المساء، حيث يعود كل واحد بعد ذلك إلى منزله، وبعد أن يتناولوا العشاء يجتمع كل أفراد العائلة نساء ورجالا وأطفالا لشرب الشاي، يذهب الأطفال إلى غرفهم حيث ينزعون ملابسهم ويعلقونها في مسمار، ثم يتغطون بأغطية من الصوف، في حين أن الأم تنام مع الأب في الغرفة التي تناولوا فيها العشاء، وفي اليوم الموالي يستفيق الأب باكرا ويذهب إلى الحمام، وتستفيق الأم بدورها وتشعل النار لتهيء الحساء، وبمجرد ما أن يستوي الحساء، توقظ الأم أطفالها وبعد أن يرتدوا ملابسهم يذهبون لغسل الوجه واليدين، والرجلين ثم يشرع كل واحد في شرب حسائه في "جبانيته". وتهيء الأم وجبة الفطور وتغسل الأواني وتترك نصيبا من الحريرة لزوجها، وعندما يرجع الزوج من الحمام تقدم له زوجته الفطور، ثم تقول بعد أن ينهي فطوره:

"إننا نرغب في أن ندعو الرايس [338] ورفاقه". ويقول لها : "متى؟ فتجيبه: "فليكن اليوم". ويقول لها : "فليكن ما تشائين". فتقول له: "اشتر لنا لحما".

يذهب الزوج إلى السوق حيث يعود بقفته ملأى باللحم، والبصل، والفلفل الأسود، واللفت الطازج الذي سيستعمل خضرة مع الكسكس من القمح. وتشرع المرأة في تحضير الأكل ظهرا أثناء فترة الصلاة حيث تأتي بقدرها "على الطريقة المغربية" ولا تكون الوجبة جاهزة إلا في حدود المغرب حيث يذهب الزوج ليصحب أصدقاءه الروايس. وبمجرد ما يدخل تضع أمامه الزوجة الطبق "الكسكس باللفت" ثم يقدم الماء لضيوفه من أجل غسل اليدين، وبعد ذلك يضع أمامهم الطبق مرحبا بهم. ثم تضع المرأة الماء فوق النار وتذهب النساء إلى حفل أحيدوس، فيجيبها بالقبول [339]، وبعد ذلك ترجع لتقدم "الصينية" لزوجها من أجل إعداد الشاي، وبعد ذلك يستفيق الأبناء ويلتحقون بأبيهم لتناول وجبة العشاء.

يفرح في هذه الأثناء الرايس ورفاقه وهم يشربون الشاي، ثم يشرع الجيران في القدوم وتعمل ربة المنزل على توفير الحطب من أجل أن يسخن العازفون دفوفهم. وبعدما ينتهون من شرب الشاي يقصدون وسط الساحة ويشعلون ثلاث مشاك (جمع مشكاة) مثبتة تضيء كل أرجاء المنزل، ثم تشرع النساء في إطلاق الزغاريد. يشرع العارضون في العزف، وينطلق أحيدوس ويستمرون على هذه الحالة

حتى مطلع الصبح حيث ينصرف كل واحد إلى حال سبيله. هذه هي الطريقة التي يمر بها رمضان منذ أول أيامه إلى حدود العيد الصغير، وجميع الأمازيغيين "يتبعون" هذه العادة منذ العصور القديمة.

العيد الكبير (عيد الأضحى)

نقدم هنا وصفا لشهر "العيد الكبير" الذي يكون بعد العيد الصغير والذي يدوم سبعة أيام ويسمى تافاسكا.

يتم اختيار أحسن الخرفان منذ أول الشهر حيث يحبس، ويقدم له الشعير والماء المالح علفا من أجل تسمينه، وعندما [340] ينعقد آخر سوق قبل يوم العيد يذهب كل الناس من أجل شراء الحناء، وقطع الثوب البيضاء، والسمن، والعسل، وملابس جديدة كذلك للأطفال وأحذية "بلاغي" للرجال والنساء والأواني الطينية. يغادر الناس السوق بعد ذلك راجعين وفي اليوم الموالي تغسل النساء القمح ويجففنه، وينقينه، ويحملنه إلى المطحنة حيث يمضين الليل كله في طحنه، ثم يحملونه إلى المنزل حيث تبدأ عملية الغربلة طيلة النهار، ثم يهيئن الكسكس وبعد ذلك تجففه على أشعة الشمس، وفي اليوم الموالي ينظفن بيوت نومهن بعرض أفرشتها إلى أشعة الشمس وينفض الغبار عنها، ثم يأخذن نوعا جيدا آخر من القمح حيث يغسلنه ويضعنه في [341] قدر من خشب العرعار، ثم تقمن بدقه بعد تبليله إلى أن تستوي حباته، وتنفصل عن غشائها. بعد ذلك يضعن أطباقا بجوار القدر الذي يصببن منه ما كان من قمح وأغشية، ويسرحن الكل فوق حصير من دوم، ويجلسن واضعات الأطباق بين أرجلهن من أجل "غربلة" / "نسف الحبوب بعد تحريكها بإتقان بالأيدي. مستعينات بالرفع إلى الأعلى والنفخ بافواههن تسهيلا للعملية. وعندما تنتهي العملية تكرر من جديد. وكل النساء الأمازيغيات تحضر حبوب القمح بالطريقة نفسها. ثم يحتفظن به إلى يوم العيد.

وعندما تحل ليلة العيد تتقابل امراتان منهن فوق جلد خروف، وتشرعان متعاونات في سحق أوراق الحناء التي تجمع من طرفي الرحى وتمزج بالماء الدافئ مع بعض عصير الليمون "الحامض" المر، ثم تخلط جيدا بالأيدي [342] ثم يضعن "مجمرا" به قطع جمر الفحم، ثم يأتين بسلة من قصب بعد حشوها بالتبن. وعندما تجلس النساء ممدات أرجلهن فوق السلة الملفوفة بالثوب وتشرع بوضع الحناء باليد اليمنى على اليد والرجلين ثم تضعان بالقرب منهما مجمرا ساخنا من أجل التجفيف... ثم تأتين بعد ذلك بقطعة من قماش من صوف تضع فيه الرجلين، و يضعن على أيديهن نقوشا من الحناء تسمى إسگذان Isgdan، و يضعن النار ليلة العيد تحت القدور التي وضعن فيها الماء والملح ثم يضعن القمح المدقوق ويتركنه ينضج طيلة الليل [343] من أجل تحضير "هربل" ثم يخرجن بعد أن يتنظفن، وتلبسن أحسن ما اشتراهلهن أزواجهن.

يذهب الرجال مرتدين أحسن الألبسة -كما فعلوا ذلك في العيد الصغير "الفطر"- لأماكن الصلاة. وعندما يعودون يتناولون فطور "هربل". ثم تنهض النساء حاملات "قففا" من الدوم، ويصبون فيها بعض الشعير وأوراق من الحناء، والسواك، والكحل. ثم يقبض الرجال بخروف الأضحية ويضعون في فمه هذا الخليط، ويضيفون بعض الماء، وتشرع النساء في وضع الكحل على عين الخروف

اليمنى بعد أن يمسكه الرجال جيدا. ثم يطرح الرجل الخروف على الجهة اليسرى، ويشهر السكين ويقول عند الدبح "هذه أضحية عائلة فلان، أبناء فلان"، ثم يسلخونه على الطريقة المعروفة، ثم يستخرجون كبده ورئته وبعض أمعائه، وتعمل النساء على حرق صوف رأس الخروف ثم يغسلنه ويضعنه في قدره لتناول في العشاء "مبخر". وفي اليوم الموالي يعددن "الكرداس" (الأمعاء مملحة) [345] و"القديد" اللحم المجفف" على "الطريقة المغربية المعروفة" [346]. وفي اليوم السابع يعددن الكسكس، وينادين على فتياتهن الجميلات حيث تجتمعن وهن يحملن معهن آلاتهن الموسيقية مثل: تاكنزة، وأكوال، وتاقزداموت وتوزالين.... وعندما تدخل الفتيات يقدم لهن في الوقت نفسه اللحم والأحشاء المطبوخة.

وبعد أن يشبعن من تناول العشاء، وبعد أن تخبئ كل واحدة منهن نصيبا من الأكل لزوجها، يخرجن لمنزل آخر، تقف الفتيات في حين تذهب النساء لتسخين تاگنزا والأگوال الكبير و[347] وتاگزداموت الصغيرة في المطبخ، ثم تشرع إحدى الفتيات في الرقص على طريقة أهل حاحا، ويشرع الجميع في العزف والرقص على شكل صفين، الصف الأول سيكون من تلك التي تصفق باليد والآخر ممن بيدهن آلات وتعطي تارايست (الزعيمة) "تعليماتها" وتعمل على ضبط إيقاعات تاگنزا التي تحسن العزف عليها في حين تتبعها الأخريات في الإيقاع نفسه، ثم تتوجه "اللاعبة" بتاگنزا إلى رفيقاتها باللازمة التالية:

"آه ياربي ! ماعلي سوى أن أبكي فقلبي لا يريد أن يهدأ
وسأقول لكم عبارات ذات معنى:
صلبة مثل الأسوار المغلقة على الخيرات
يا بوحلو[1] لم نزرك ولم نعرف عنك آي سوء
ويا تيمزيت سيدتي التي بناك "القايد"
أما أنت يا تاوريرت فقطعة حطب صغيرة تكفي بأن تجعلك رمادا [348]
وأنتم يا آيت الرايس يا من يصعد الجرف مثل "اليمام"
لم نر ضيافتكم إلآ في حفنة من الزيتون في صحن صغير
اسكنتمونا في منزل مشترك عرضة للبرد والجوع
وأنت يا بوغرارت لا أطلب منك لا إناء ولا صحنا
وأنتم يا آيت أومغار ليس عندكم إلا الرمان
وأنتم يا آيت إيغيغيان فليس لديكم إلا وادكم،
وعين تالات نوزار واغوغوغا ليس به إل الوحيش

1- كل هذه الأسماء تحيل على ضواحي دمنات وأحيائها، وهي مدينة موجودة في الضفة اليسرى لواد أمهاصر أحد روافد واد تسّاوْت ودمنات مشهورة بزيوتها وفخارها. وتعطينا المغنية تخصص كل حي من أحيائها، ولا تمدح سوى القصبة التي يوجد بها "القايد".

وأنت يا آيت تيغيغمين لا تعرفون صنع المصابيح والأطباق المذهونة والأواني الفخارية
وليس عند آيت إفشتان إلا العاهرات
وأنتم يا آيت معياط تعيشون كالخنازير في الوحل
وأنتم يا آيتا وجربي استمعوا إلى ما سأقول
أتمنى أن تقسموا حتى تؤدوا الحبة من الشعير بخمسة أوقيات
ومن الذنب دخول اراضيهم أيها المشعوذ
وأنتم يا آيت لقصايب في الأعلى
بينكم أسد وضعكم حيثما أنتم.

وهنا ينتهي لعب اليوم السابع لعيد تافسكا حسب عادة الأمازيغ، وتنهض النساء في اليوم الموالي لتهيء اللحم الطازج. ويحضرنه على الطريقة المعلومة وفي المساء يرسلن امرأة عجوزا لدعوة النساء الأخريات القادرات على لعب أحيدوس. يعدن صحبة العجوز ويدخلن [349] إلى المنزل حيث يتموضعن في مكانهن ثم ترسل الخبيرات منهن العجوز وتقلن لها:

- "اذهبي وآتنا بالرايس الفلاني ورفاقه"

فتقول هي :

- "على الرحب والسعة"، ثم تعود مصحوبة بالمغنيين كل واحد يحمل دفه، ويدخلون المنزل ويجلسون، ثم تنهض سيدة المنزل لتقدم لهن ثلاثة أطباق من مرق اللحم، والماء وكذلك تجلس النساء لتأكل من طبق آخر، وبعد أن ينهوا الأكل يذهبون ليجلسوا في فناء المسجد ويشعلون الفنارات / المشاكي في أطراف المنزل، ويسخن العازفون دفوفهم، ويشرعون في أحيدوس والنساء يسمعن ويستمرن على هذه الحال حتى الصبح إلى أن يذهب كل واحد إلى حال سبيله. وهذه هي طقوس عيد تافسكا عند الأمازيغ.

عيد عاشوراء

عندما يظهر هلال عاشوراء (شهر محرم) يعقد سوق للرجال كما للنساء عند الأمازيغ، حيث نجد فيه كل منتوجات "الشلوح"، من "طعارج" وطبول... ويشتري الرجال منه الحناء، والتمر، والتين الجاف، وجميع الفواكه الجافة، واللوز المفتوح المسمى حيحّي، ثم يشترون أقمصة من الثوب، ومناديل من الحرير، وأغطية من القطن، وأحذية (بلاغي نسائية من الجلد الأحمر) وبلاغي للأطفال، وأقمصة من القطن للنساء، ويشترون لأنفسهم أيضا [350] گندورات من القطن "وبلاغي"، وعمائم، وبرانس من ثوب أبيض شفاف. ثم يعودون إلى منازلهم، وتذهب النساء والفتيات لشراء السواك والكحل ويشترين أيضا "إمنديلن" التي يلبسنها عندما يذهبن للعب في وسط فصل الربيع في البادية على الخضرة والأزهار، ويشترين مسحوقا أحمر للتزيين، وخيوطا وإبرة من أجل نسج عقود يضعنها حول العنق. وعندما ينهين شراء كل ما ذكرناه ترجع كل واحدة منهن إلى منزلها، وهنا يأخذن القمح ويغسلنه جيدا أو يجففنه، ويجمعنه وينقينه ثم يجمعنه في أكياس (تليس). ويحمل الرجال في

المساء القمح إلى المطاحن المائية حيث يقفون الليل كله في الطحن، وبعد ذلك يعودون بالدقيق إلى منازلهم ويضعونها في فناء المنزل ثم تشرع النساء في غربلته، ثم يضعنه في جرر إلى يوم "شعالة" ثم يدقون الحناء في "المهراز" ويغربلنه فوق جلد خروف، وعندما يصبح جاهزا يجمعنه [351] ويضعنه في رزمة ثوب صغيرة محكمة الإغلاق ويضعنه بدروه جانبا إلى يوم شعالة.

وعندما يحين يوم "شعالة" يرجعن إلى الدقيق الذي أعددنه ويعجنه جيدا، ثم يخبزنه في طبق طين وبعدما ينضج يتركنه جانبا إلى أن يحل المساء، ثم يقدم الرجال اللحم الطازج للنساء من أجل طبخة وجبة الغذاء، ويحتفظ بباقي الخبز إلى المساء، وبعد تناول الغذاء يخلطن الحناء ويضعنها في أيديهن وأرجلهن ويسمون هذا النقش في الأرجل إسگدان، ويسمون الطريقة التي يضعون بها الحناء على الأيدي "توريدا" ويأخذون بعد ذلك الأمعاء الجافة التي احتفظن بها من عيد تافاسكا و"يقددنه"، وعندما يملأن الأطباق يدعون باقي النساء للعشاء والمشاركة في حفل شعالة [352] ويستجبن. وبعد أن يتناولن العشاء يأتين أيضا بالماء الشروب ويضعنه جانبا، ثم يضعن قسما من العشاء في أطباق لرجالهن وكذلك بعض الخبز وعندما ينتهين من العشاء، تأخذ النساء مفتاح الغرفة التي يوجد بها الرجال فتغلق عليهن، وبعد ذلك تخلع النساء عليهن حيوكهن ويقفن وفي الوقت الذي تساوي فيه إحداهن تاگنزة، تأخذ الأخرى "أگوال" والأخرى "تاسرسارت"، ويخرجن أمام المنزل ويشعلن النار في الخشب الذي أتت كل واحدة منهن ببعض منه. وعندما تشتعل النار في كومة الحطب تتعلق النساء حول النار يسمونها "نار الفرح" وتشرع من تحسن العزف في النقر، ثم تتبعها الأخريات بالتصفيق يالأيدي ثم يستمر العزف حسب الإيقاع وقوة اللعب [353] يصلن إلى الكلام الذي تنشده لاعبة تاگنزا حيث تبدأ قائلة:

لا إلاه إلا الله والحياة ليست سوى مأساة
فأنت قاسية مثل أسد يفترس فريسته
كانت هناك فتاة جميلة خلقها الله مثل الدينار
ستصوره في الكتب والحبال والوديان
وفي كل السهول بنت من أب غني
تزوجها رجل غني المال والدار
وبفضل الله أستطيع توزيع ماء السد
ومن يقول أنه صديقنا فليكن في رأس القناة
وليعلم أن الماء الطاهر "الطاهر" لعين يكون غير نقي عند التطهير !
والحب بين (الجو والفراغ)
ماذا علي فعله يا صاحبي فأنا مستعجل؟
أعلي أن أصعد إلى السماوات أم أهبط إلى هذه الأرض؟
وأنت يا صديقي من أي الطرقات أتيت؟

مرحبا بك أنت يا أذكى الرجال وأحسنهم
أتوجه إليك بمئات الرغبات؟
آه يا صديقي يا ربي كما لو كنت دمي
أما بالنسبة لك الذي سيقول لي "هذه كانت لي وحلمت بها"
سأتركه وأتركه لمن يعتبرني
وأنت بهذا خائن ولن أثق فيك
ولو أقسمت لي على "البخاري" (صحيح البخاري)
أين هو القسم الذي أقسمت به بأصابعك المتشابكة
التفكير وحده في هذا القسم صعب، أما بالنسبة للوعود السابقة فنسيت كلها [354]
رأيت الحمام فوق السور حزينا
ما به؟ ومن أخرجه؟ ويرى "الحمامات"
لا أحد سيذهب للصيد في الجبال الوعرة
لا أحد سيذهب للصيد دون شيوخ
لا أحد يستطيع أن يقنص بدون بارود وبندقية
لا يمكن أن نذهب إلى الصيد ما لم تكن طرائد، يا جهال
إلى اللقاء، يا فرحتي في السنة القادمة سأعود إليك
وادع إلى الله أن ألد ما سيفديك

وبهذه الطريقة يوقفن اللعب، ثم تأخذ من كانت بيدها أدوات العزف وينصرفن إلى الرقص، وتصعد العازفات الإيقاع فجأة وهن يرقصن "بالأيدي" وبمجرد ما يطلع النهار تدخل سيدات المنزل إلى بيوتهن في حين تذهب الأخريات إلى حال سبيلهن.

وعندما يعدن إلى منازلهن يهيئن الخبز ويغمسنه في الزبدة ويأكلنه ويمكثن في منازلهن طيلة النهار، ثم يستفيق الرجال في الصباح الباكر ويذهبن إلى الحقول، ويشرعون في الصراخ لجمع الناس في الشارع، وعندما يسمع أحدهم الصراخ يجري مسرعا لمعرفة ماذا يحدث وعندما يصل ينزلونه أرضا ثم يرفعونه على الأيدي يقولون:

- "هذا كافر!

ثم يضيف الآخرون، الذي يتبعونه

- "هذا عدو الله"!

وعندما يصلون إلى جدول الماء الذي جمعوه يغطسونه فيه، ثم يخرجونه بعد أن تتبلل جميع ملابسه، ثم ينظر هو بدوره إلى باقي السباحين ويجري وراءهم ويقول ما يقولون، وعندما يصل شخص آخر يعيدون العملية نفسها [355] وإذا أخبر بعضهم أن عملية "الإغراق" قد شرع فيها بعضهم يستفيق ويهرب إلى العرصات وهنا يصعدون أشجار الزيتون ويختبئون فيها. وبعضهم

يصعد إلى أشجار النخيل والبعض الآخر يختبئون في المغارات التي ينزل منها الماء بقوة "ويذهب "السابحون" للبحث عنهم في كل مكان دون أن يكتشفوا أماكنهم، ثم يجتمع كل من سبق أن سبح بكثرة ويتجهون نحو العرصات ويجمعون حصيات الحجر ويضعونها في أمام جلاليبهم ويشرعون في رمي أشجار الزيتون من كل الاتجاهات والمختبئ يصمت إلى أن تصيبه حجرة ويشرع صارخا

- "سامحوني بالله يا إخوة" فيقولون له: "انزل يا غبي، والله لن تغادر حتى تستحم بدورك في الجدول"

ثم يغطسونه في الماء مباشرة ثم يذهب معهم ويخبره بأماكن اختباء الآخرين تباعا ويلقون المصير نفسه إلى أن يسبح الكل بالطريقة المعلومة. [356] وبما أن هذا الرجل كان أصلعا فإنه غطي بقطعة ثوب حمراء فجلس القرفصاء إلى أن تجف قطعة الثوب والماء يقطر من لحيته الطويلة وأسنانه تصطك بردا في الوقت الذي تلمع فيه أشعة الشمس فوق رأسه. ويأخذون في عودتهم على أيديهم رجلا آخر اختبأ قرب رافد ماء ولقي المصير نفسه، وبعد ذلك رجع ليجد السكان، قد لبسوا ملابسهم الجديدة وتناولوا غذاءهم، وعندما يدخل الرجال تخرج النساء لابسات حايكات الصوف فقط وتغلقن [357] على الرجال في المنازل، وتأخذن معهن المفاتيح حيث تخبئها في ثقب السور الخارجية ويأخذن قليلا من طين أحمر ويتجهن نحو الواد. وبمجرد ما تصلن تأخذ كل واحدة منهن إناءها وتغرف به الماء من الواد، وتذهب لتفرغه على إحدى قريباتها وتبادلها الأخرى بالمثل، وتشرع كل النساء في الضحك في الوقت الذي تتشابك فيه امرأتان بالأيدي وتخلعان ملابسهما لتبقيا عاريتين تماما، ثم تتبعهما النساء الأخريات، وبعد أن يهشمن من جميع أوانيهما يذهبن في اتجاه الواد ويستمرن على هذه الحال إلى غروب الشمس فتذهب كل واحدة منهن إلى حال سبيلها. وعندما يرجعن يأخذن مفتاح الباب الخارجي ويدخلن حيث يجدن أزواجهن قد أخذوا قسطا من الراحة، وجفت ملابسهن الجديدة وكذا بلاغيهن "الجديدة"، ويتكحلن ويتزينين بأن يمررن قطعة ثوب أبيض بعد غسلها في ماء ساخن ويغسلن وجوههن بالصابون [358] إلى أن تصبح وجوههن براقة مثل الورود، ثم يمررن فوق أجسامهن قطعة ثوب يحزمونها إلى الأعلى بمقابض من فضة أسفل الثدي اليمنى وكذلك يفعلن مع اليسرى ثم يستكن (يتناولن السواك). ويضعن "أسفور" على شفاههن ثم يمررن عليه الحامض (الليمون) إلى أن تصبح حمراء كالنار، يضعن بواسطة "تانست" السوداء رسما في أعلى الوجه يسمينه زرزميل، ويضعن آخر بين الحاجبين فوق العينين يسمينه أغماز ويضعن أيضا بعض "حبات" الجمال على الوجه وفي الوجنتين وقرب الشفة العليا وخطا من أسفل الفم إلى منبت الدقن، وبعد ذلك يتناولن قدرا أسود ويضعنه جانبا، ويعملن على تهيئ عشاء جيد أساسه اللحم واللفت والخضر مصحوبا بخبز القمح، وعندما يحضر كل ما قلناه تبعث إحداهن لدعوة "الروايس" القاطنين بنفس الإغرم متلهن.

يأتي الروايس ومعهم أربعة نساء أرامل ويشرعون في رقص "أرسال" بعد أن يتناوله الروايس الذين قبلوا أن يلعبوا "أرسال" وعندما تجتمع كل الأطباق يجتمع الروايس "العازفون" لوحدهم، ورفاقهم الذين يكتفون بالضرب بالأكف لوحدهم، ويتناولون وجبة العشاء بمعدل أربعة أفراد لطبق واحد، وبعد أن ينهوا الأكل يشعلون كومة من الحطب وسط الروايس. ويقترب العازفون و"يسخنون" دفوفهم ثم يصطفون جنبا لجنب حاملين معهم دفوفهم، ثم تقف النساء المتجملات قرب الرجال الذين سيلعبون "أرسال" واللواتي جئن منهن مع الروايس يجلسن بدورهن بجوارهن، وهن جميلات أيض. وفي الوقت الذي يشرع فيه الروايس في الرقص في صف واحد يغنون ويرقصون في وقت واحد. وبمجرد أن يسكت الروايس يشرع من كان يعزف بيده فقط في الغناء وهكذا دواليك. ويستمر الحفل على هذه الوثيرة إلى أن يريد الروايس إنهاءه فيقولون: "الله يرضي عليكم" (رضي الله عنكم) فيجيبهم من كانوا "يصفقون بأيديهم: "هذا ما نتمناه يا صديقي".

وهنا يرتفع الإيقاع ليصبح سريعا، وهنا يظهر العازف الجيد على تاگنزا وتظهر النساء الأربع الماهرات في الرقص لتتموقعن وسط الرجال، وكلهن متجملات ويرفعن الحجاب عن وجوههن وتأخذ كل واحدة منهن مكان في أقصى الصف [360] ثم يخرج رجلان من الصف ويشرعان في الرقص مع امرأتين في المقدمة ثم يتوزع العازفون باليدين مثنى مثنى. يزداد الإيقاع في الارتفاع في حين يكتفي النساء الجالسات بالقرب من "اللاعبين" والراقصين بالزغاريد، وسيستمر الحال على ما هو عليه إلى مطلع الصبح حيث يذهب كل واحد إلى حال سبيله، ويذهب الروايس مع النساء اللواتي جاء بهن للعب أرسال. وبهذا ينتهي لعب "أرسال" وعاشوراء، كما نقله الأقدمون.

عيد المولود (عيد المولد)

نذكر فيما يلي ما يقوم به الأمازيغ بالنسبة لعيد "المولود" فهم يحسبون عدد الأيام منذ رؤية هلال الشهر، وعندنا يتحدد اليوم السابع بوضوح يعتبرونه يوم عيد، وسوق للرجال يعقد في مدخل إغرم، ويجتمع فيه عند الأمازيغ كل ما هو مناسب للأكل من بيض، ودجاج، وخرفان بيض، وتيوس سود، وثيران وأبقار وعجول، وحمص، وقمح، وشعير، وحمص، وعدس، ويقصده أيضا سكان إغرم القاطنينن أمامه، وكل من له زيت قديمة يضعها في جرار ويأتي لعرضها في مدخل سوقها، ويبدأ المزاد بأربع ريالات للجرة فقط، كما أن هناك أناسا يشترون القمح، والزيت، والسمن، والعسل/ والبيض، كما يتقاسمون اللحم حيث يشتري أربعة رجال جديا ويذبحونه ويسلخونه ويستخرجون أحشاءه [361] ويضعون جلده لمن يريد شراءه حيث يبيعونه ويقتسمون ثمنه. ويقتسمون الجدي أربعة أقسام ويرجع كل واحد إلى حال سبيله، كما يشترون أيضا القمح، والبيض، والفراخ الصغيرة من الديوك الجيدة، وعندما تفصلهم أربعة أيام عن العيد تشرع النساء في طحن القمح وكل ما يمكن أن يطحن، وتحضرن كل شيء يهيئ للحناء لليلة عيد المولد، وفي هذا اليوم يذبح الرجال الديوك وتزيل النساء ريشها ويعددنها جيدا ويطهينها في طبق لإعداد الكسكس.

ثم يتناولن " العدس" والحمص، والتين الجاف (الشريحة)، واليقطين الأخضر، واللفت، الجاف، واللوز الأخضر، وتضعن الكل في القدر إلى أن تستوي [362] ثم تضع السمن في دقيق الكسكس وتخلطه جيدا ثم تضع مرق الديك المطهي والمرق . ثم يغسل الرجال أيديهم وكذلك النساء، ويشرعون في الأكل، وبعد أن يأكلوا حتى الشبع تخلط النساء الحناء بالماء الساخن في أواني/ جبانية) طينية ثم يضعن على أيديهن "توريدات" وعلى أرجلهن إسگدان، وينهين العملية على الطريقة المغربية المعلومة. وعندما تجف الحناء ينمن إلى الصباح حيث ينهضن، ويهيئن فطورهن ويتناولنه قبل الرجال، ويلبسن ملابسهن الجديدة، ويعددن أنفسهن للعب أحيدوس من جديد.

يرتدي الرجال كما الأطفال ملابسهم الجديدة، ويتناولون مع الأطفال عصيا قوية، ويشرعون في البحث في إغرم عن كل كلب نائم ويطاردونه، حتى يقبضون عليه ويشبعونه ضربا إلى أن ينفق. ويقومون بعملية أخرى مشابهة إلى أن يصل المساء، فيذهب كل واحد إلى حال سبيله. وهكذا تستمر النساء في لعب أحيدوس لكل خمس عائلات. ويعقد في اليوم الموالي حفل أحيدوس عند عائلة أخرى طيلة أسبوع عيد المولود، وهكذا تنهي النساء احتفالاتهن [364] عند الأمازيغ التي تعود إلى العهود القديمة التي نقلها رضي الله عنهم.

الصوف

الجز، والغسل، والتخييط، والصباغة، والنسج

اشترى مالك مائة ريال من الغنم، وهذه الخرفان والنعاج لازالت صغيرة السن، لا يتجاوز عمرها سنة واحدة. استأجر المالك راعيا لرعيها وحراستها، وعليه أن يلبسه ويغذيه ويخصص له راتبا سنويا محددا، وهكذا يكون القطيع في عهدة الراعي الذي يخرجه يوميا للرعي طيلة أيام السنة إلى أن يحل الربيع حيث تكون الصوف في الغنم وافرة، فيذهب لينادي على أربعة "جزازة" ويعطيهم "العربون" ويقول لهم: "انتظركم غدا في الصباح الباكر، أما أنا فساعود ننتظركم وأهيء لكم كل شيء. و"يجيبونه": نعم اتفقنا. "ثم يعود إلى منزله ويقول لزوجته: "انهضي يا امرأة، وخذي مقدارا من القمح من أجل طحنة كبرى" فتقول له: "حاضر وماذا سنفعل بهذه الطحنة الكبرى"؟ ويقول لها: - "هيئي طبقا كبيرا من الحليب الطازج من أجل أربعة أشخاص سيأتون للجز بعد أن قبلوا ذلك، واتفقت معهم على أن يأتوا في الصباح الباكر. فهيئي لهم بعد ذلك كسكس بابرين (سميد الشعير) بالزبدة، وخبز بالزبدة". فتقول المرأة: "حاضر". ثم يتجه رب المنزل إلى الحضيرة وينادي على الراعي ويقول له: "لا تخرج الغنم غدا صباحا، فهي بحاجة إلى الجز جميعها" فيرد الراعي: "حسنا ولييسر الله الأمر".

وبمجرد طلوع شمس الصباح يأتي الجزازة الأربع [365] حاملين معهم مقصاتهم الحادة جدا، والحبال لربط الخرفان (الغنم) ثم يطرقون الباب ويحييهم رب المنزل: "مرحبا" ثم يدخلهم ويشربون "الحريرة" أسكيف أولا، ويقولون لرب المنزل: "هيا نشرع في العمل" ثم ينهض معه في اتجاه الحظيرة، حيث توجد الغنم، ثم ينهض الراعي ويربط أربعة ويعطي كل واحد منها إلى كل

جزاز، حيث يزيل كل واحد صوفها باستثناء رأسها وذيلها، ثم يطلقونها. ثم يستمر الأشخاص الأربعة بالطريقة نفسها إلى أن يجزوا جميع الخرفان، ويؤدي لهم رب المنزل المبلغ المتفق عليه ويقولون له: "أخلف/عوض الله لكم وجعلكم من خدامه". ويجيبهم: "إن شاء الله" ويذهب كل الجزازة إلى حال سبيلهم، ثم يجمع رب المنزل الصوف ويختار أجودها، ويضعها جانبا ويأخذها إلى غرفة في مكان معزول ثم يجمع الصوف الأخرى، ويعطيها لزوجته التي تحتفظ بها إلى الوقت التي ستحتاجها من أجل توظيفها.

يأخذ رب المنزل الصوف في اليوم الموالي إلى السوق ويبيعها بأثمنة السوق ثم يعود إلى منزله، أما بالنسبة لمن اشتروا الصوف فيذهبون بها إلى نسائهم، حيث يسخنون الماء ويشترون تيغشت ويدقونها في "المهراز" وعندما تدق يرشونها على الصوف في قصعة من خشب الجوز، تجلس امرأتان [366] متقابلتان وتشرعن في الضرب/ الخبط بعصا باليد اليمنى، ثم تأتي امرأة ثالثة وتصب الماء الساخن فوق الصوف وتستمر الأخريات في الضرب إلى أن تخرج "تيغيشت" من الصوف ثم يضعنها في "سلال" من القصب ثم تأتي امرأة أخرى لتغطس الصوف لغسلها بالماء النقي ثم تضعها فوق حجرة خارج الماء تسمى أسگورد وهي الحجرة التي يغسل عليها الرجال ملابسهم.

عندما تجف الصوف، تأخذها النساء وتضعها فوق رأس إحداهن وتعدن إلى المنزل، وتمشي تلك التي تحمل الصوف في الأمام، في حين تتبعها الأخريات وعندما يصلن إلى إغرم يدخلن ويضعن السلال، ثم يسرحن حصائر الدوم، ويفرشنها في وسط المنزل ويسرحن الصوف لتجف، وبعد ذلك ينادين على يهوديتين وتجلسان معهن، وبعد أن تجمعن الصوف على شكل كومات يأتين بميزان عموده من خشب وكفتيه من الدوم والأوزان من الحجارة، فيزن كل الصوف ويقسمها قسمين متساويين. يعطي كل واحدة منها لكل يهودية، وبمجرد أن تجلس اليهوديات تشرعن في "القرشلة"، ثم تنهض النساء، وتأتي بسلل فارغات لتضع فيها اليهوديات الصوف للصباغة.

والطريقة التي تتبعها اليهوديتان في ذلك أنهما تضعان كمية من الصوف في قدر الصباغة، وعندما تصبح الصوف رطبة تشرعان في عملية الغزل باليد اليمنى واليسرى، وتستمران على هذه الحال حتى وقت تناول الغذاء حيث تأتي لهما النساء، بالخبز من الفرن والزيت وتاكلة حتى تشبعان. بعد ذلك تعودان إلى عملية الصباغة وعندما تنتهيان تأخذان أجرتيهما، وبعد ذلك تأخذ النساء الصوف إلى غرفة ويغطينها بقطعة صوف نقية. تستيقظ النساء في اليوم الموالي وتفرشن حصائر تضع فوقها الصوف وتقسمها إلى عشر "كومات" وتقسم لكل امرأة، ثم يشرعن في تدوير خيوط الصوف (البرولة) ثم الغزل وتذهب بها بعد ذلك إلى اليهوديتين من أجل إتمام العملية [368].

وعندما تصبح خيوط الصوف طويلة تجمعنها على شكل كروي. وبعد أن تنتهي عملية التخييط (أي تحويل الصوف إلى خيوط)، تنهض النساء وتأخذ الكبريت وتضع الخيوط داخل سلة عريضة تسمى أسكني مربوطة بحبال من الدوم، ويولون وجهها إلى أرضها ويشعلن النار حتى تتم

عملية التبخر [369] ثم يضعن الكبريت في طرف الطبق حيث يصعد دخان فتجري لتبحث عن غطاء يضعنه فوق السلة. عندما يختفي الدخان تؤخذ الخيوط تعلقنها في مسامير مدقوقة بداخل جدران الغرفة. وفي المساء تأتين بقشور الرمان وتدقها في مهراز وعندما تستوي تضعنها جانبا، وفي اليوم الموالي يسخن الماء ويضعنه على طبق به قشور الرمان ويحركنه بمغرفة إلى أن يصبح أصفر اللون فيغطسن فيه الصوف. وعندما تخرج الخيوط من الماء تصبح صفراء في لون "البلاغي" تسمى الزيواني، فتحمل النساء الخيوط ويضعنها فوق أسگني من أجل تقطيرها وتجفيفها، وعندما تصبح الخيوط صفراء تأخذ منها النساء ثلاث قطع تذهب بها ليهودية من أجل صبغها بلون آخر، فتتناول اليهودية ثلاثة قدور وتضع كل واحدة منها في منزل وتصب قدرا من الماء، في كل طبق وتضيف قطعة من مكون كيماوي للصباغة، والكبريت، والنحاس التي يجب أن تكون مقاديرها مدروسة ثم تشرع في غطسها في القدور الساخنة فتخرج الأول بلون أسود والثانية بلون أخضر والثالثة بلون أصفر (أحمر برتقاليي)[370].

وعندما تُدخل اليهودية الخيوط في القدور تغلق عليها بأغطية وتتركها إلى أن تأخذ لونها النهائي دون أن يفيض الماء عن القدر. ثم تأخذ مغرفة وتخرج اللون الأسود وتغطيه في ماء دافئ في إحدى الجرات وتستمر العملية نفسها مع باقي الخيوط حيث توضع كل مجموعة في جرة خاصة. وتتركها اليهودية حتى تبرد وتعصرها من الماء وتعطيها للنساء اللواتي أتين لها بها فتؤدي لها الثمن وترجعن إلى منازلهن حيث تعلقن خيوط الصوف لتجف في الشمس وسط ساحة المنزل، وتضربن ثلاثة أوتاد في أرضها والأول منها طويل وغليظ أما الآخران فقصيران، فتضرب الأول والأطول وسط الساحة والآخران في الأطراف، فتتناول إحدى النساء رزمة الخيوط التي تتناول رأسها في حيث تجلس إحداهن خلف أحد الوتدين القصيرين وكذلك أخرى ثالثة متقابلتين، وعندما تجلسان تقبضان من المرأة الأولى بالخيط المسمى أسگور حيث تربطه كل واحدة بأحد الوتدين وتشرع المرأة في المشي بينهما وتوزيع الخيوط بيدها اليمنى، وهكذا دواليك حيث ترجعها إليها المرأتان الأخريان باليد اليسرى[371]. وتستمرن على هذه الحال إلى أن يحين وقت تناول وجبة الغذاء، حيث يذهب سيد المنزل ويشتري لهن خبزة ونصف من "الفران" ثم يقسمه عليهن حيث تضع كل واحدة نصفها فوق ركبتها، في حين تضعه الواقفة أسفل بطنها وبمجرد ما يعطي الخيط لأحدى رفيقاتها تتناول باليد الأخرى بعض الخبز، وترجعه إلى مكانه وتستمر على هذه الحال إلى أن تنهي خبزها.

وعندما تنتهين من هذه العملية تنهض النساء وتأخذن قصبة كبيرة وصلبة ويضفنه مكان الوتد الأوسط الكبير، وعندما يزلنه يضعنه جانبا ثم تأتين بخشبتين عموديتين من خشب رقيق بعض الشيء، ثم يربطن أطراف الخيوط بها بحبل يسمى تيمسدّست. يثبتن العمود الآخر بالوسائل نفسها المستعملة سابقا فيه، ثم يضعنه أرضا ويظلن في العمل وهن يطلقن الزغاريد من أجل أن تلتحق بهن نساء أخريات. وبالفعل فعندما تسمع النساء هذه الزغاريد تجرين إلى هذا المنزل وتدخلن

[372] وبمجرد أن يضعن قدمهن عتبة المنزل تناديهن النساء الأخريات قائلات: "إجلسن" في حين تقف أخرى جانبا تتبع ما يقع، ويبقين على هذه االحال إلى أن يغص المنزل بالنساء، وتنهض اثنان منهن وتجلسان متقابلتين، وتأخذان قصبا وتدخلانه الواحد بعد الآخربين مختلف الخيوط إلى أن تستوي العملية، وتنتهي فتنهض النساء من أجل أن يغادرن ويقلن: "أنهى الله عملكن بالصحة والسلامة". وتجيبهن صاحبة المنسج: براحتكن ورفاهيتكن يا أخواتي" أو "العقبى لكن".

ثم يتناولن "المنسج" ويضعنه في ركن الغرفة، وفي اليوم الموالي بمجرد أن يستفقن يذهبن للبحث عن دعامات ينصبنها أفقيا مع ربطها بحبال إلى الحائط جيدا من الأعلى والأسفل ثم [373] تعود صاحبة المنزل لتراقب حساءها في حين تثبت الأخريات المنسج أرضا. تشرع النساء في إعادة ضبط الخيوط بأصابعهن لكي لا يكون هناك أي خطأ، وبعد ذلك يتناولن "طنافس" من أجل أن يجلسن عليها وهن ينسجن ثم يتناولن ثلاثة مسامير كبيرة، ويدفننها في الحائط الواحد منها وسط النسيج والأخريتان في الجهة المقابلة لكل دعامة ثم يتناولن "حبل قنب غليظ" ويربطنه بهذه المسامير. تجلس النساء وتشرعن في النسج بوضع عدة عقد ثم يأتين بالخيط الملون ويشرعن في عملية "التسدية" وتقريب الخيط الناظم بين خيوط النسيج [374]. تستمرن هكذا في إدخال الخيوط إلى المنسج بشكل فردي أو ثنائي إلى أن تلتقي في الوسط، ثم يقطعنها بعد أن يمسكن برأسها، وتأتيها المرأة التي تساعدهما وتدخل كل واحدة منهما إلى مكان النسج قائلة:

ــ "بسم الله! توكلنا عليك على الله لتعطينا الصحة والسلامة لتنهي هذا المنسج دون توقف".

وتأخذان الخيوط وتدخلانها إلى المنسج وهما تمسكانها بين السبابة والإبهام، ويشرعن في النسج على الطريقة المعلومة. تستمر المساعدة في مدهما بخيوط أخرى مقسومة عليهما قصد الاشتغال عليهما بالألوان التي سبق إعدادها [375]، وعندها تنهيان عملية النسج وتريدان "قلع المنسج" تنهض المرأتان، وتأخذان سكينا من المطبخ لكل واحدة منهما، وتذهب المساعدة لأغلاق باب الغرفة أو المنزل بدعامة من الداخل حتى لا تدخل الجارات، وعندما يغلق الباب تقول إحدى النساء:

- لا إلاه إلا الله أعنا يا رسول الله". وتضيف الأخرى: "قطعناك يا منسج بالسلامة والعافية والحمد لله على سلامة أصابعنا.

تكرر الأخرى ما قالته الأولى ثلاث مرات، ثم تشرع كل واحدة من جهتها في قطع المنسج بطريقة لا يجعلن الخيوط المسماة إيغيرسن تتناثر أرضا حيث تعقد في الأطراف ثم يجمعن المنسوج. يضعن القطعة المنسوجة وتجمع المرأتان هذه القطعة الجديدة ويحتفظن بها مغطاة إلى فصل الشتاء فصل البرد وقممه الثلجية. هذه هي الطريقة التي تشتغل بها نساء إمازيغن في نسج أغطية، وألبسة الرجال والنساء، والخيدوس الأسود، أو البرنوس الأبيض أو الجلابة، أو الحجاب التي تضعه النساء، وأغطية الأسرة، والحيوك الدقيقة للرجال، ونسج الألبسة الصوفية موحد، وليس هناك من اختلاف إلا في طريقة خياطة خيوط السلسلة. وإذا أرادت النساء نسج ثوب رقيق وجميل فيستغرقن

شهرا، أما إذا تعلق الأمر بثوب/" نسيج عاد فلا يستغرقن إلا ثمانية أيام. وبهذا تنتهي حكاية صناعة الصوف منذ البداية إلى النهاية أطال الله في عمرنا!

الزيتون/ الزياتين

- الغرس، والجني، والعصر

نحن الآن عند رجل أمازيغي يمتلك أربع عشرة شجرة زيتون، يأخذ "فأسه" ويذهب بها عند الحداد قصد إعدادها وحيث "يدقها" إلى أن تستوي ويغطسها في الماء لكي تبرد، وبعد ذلك يمرر الحداد على الجهة الحادة من "فأسه" قطعة من قرن الخروف حتى لاتزداد حدتها بسرعة ثم يردها لصاحبها الذي يفحصها من الأعلى إلى الأسفل، وبعد أن يراها كما يريد يقول للحداد:

_ "منحك الله الصحة والعافية " الله يعطيك الصحة".

يأخذ فأسه وينصرف [377]، وعندما يصل إلى ضيعته يدخل ويحزم جسمه بحبل من الدوم، ثم يتناول فأسه ويفتح الساقية، ويعد ذلك يجري الماء ثم يبتعد إلى أن يصل إلى أقرب زيتونة، وهنا يتوقف الماء إلى أن تسقى ثم يفتح طريقة من جديد إلى زيتونة أخرى، ويتبع الطريق نفسها حرصا على عدم ضياع الماء. وبمجرد أن ينهي عملية السقي يغسل يديه، ووجهه ويضع فأسه فوق كتفه اليمنى ثم يعود إلى منزله، وعندما يصل تسرع زوجته في فتح الباب وتسأله عند الدخول: "هل سقيت"؟ فيجيبها: "سقيت بنفسي الزيتونات القليلات التي أعطانا الله! وتقول له: "مدك الله بعونه (الله يعطيك الصحة) ويرزقنا البركة" وتسأله: هل أنت جائع؟ "فيجيبها": طبعا أعطيني ما يؤكل" فتقول له: "ليس هناك شيء جاهز، ولكن إذا أردت الخبز سيكون "جاهزا" بعد قليل؟ فيقول لها: "لا يا امرأة، أعطيني فقط حفنة شعير "مكلي" لاشيء! بها رطوبة الماء القوية".

تنهض المرأة حيث تأخذ حفنة من الشعير قصد تحضيرها [378] بعد أن تكون قد ذهبت لتبحث عن مشعل نار عند الجيران، وعندما رجعت وجدت زوجها متمددا تحت أشعة الشمس وهو يصدر الشخير، وتتركه على هذه الحالة ثم تدخل إلى المطبخ حيث تأخذ قطعة من الخشب وتشعلها بعد نفخة في النار. وبعد ذلك تأخذ إناء طينيا "فراحا" وتضع عليه ثلاث حجارات "أنصبة" وبعد أن يحمى الطبق تصب الشعير وتشرع في تحريكه حتى لا يحترق. وبعد أن يستوي ويصبح أبيض تفرغه وتحمله ساخنا إلى زوجها، وتقول له: "انهض" "المكلي"/ المحمص جاهز.

فينهض بسرعة ويتناوله بكفه ويتناوله وهو متمدد، وتعلق فجأة إحدى حبات الشعير بلسانه يلفظها ويستمر في الصراخ إلى أن يفقد الشهية. ثم يذهب مباشرة لتناول الماء بشراهة من الجرة الصغيرة حتى يتدفق باقي الماء على صدره فيذهب مسرعا بها في اتجاه زوجته ويضربها على رأسها حتى تسقط فاقدة الوعي. ولما رآها على هذه الحال حاول إيقاظها، لكن لا تجيب ولا تستطيع النهوض ولا التكلم. ولما نظر إليها وجد البول يخرج من أسفل رجلي امرأته فأنهضها وكشف عن.............................[بياض في الأصل] وبالتالي ليتأكد جيدا من الأمر [379] ينهض

الرجل فجأة ويقول لزوجته: "والله لا أريد أن أرى وجهك أبدا أمامي خلال عامي هذا يا وقحة" فتنهض فتستفيق المرأة وتقول له: "لماذا، فعلت لك؟ لإ.... فيقول لها: "لا، لم أعد أريدك هيا بنا إلى القاضي لنحسم طلاقنا" فتقول له: "ولماذا علي أن أذهب؟ إذهب أنت الذي لا يستحيي أبدا" وبمجرد أن يهم بالخروج تتبعه المرأة وتقبضه من "تلابيبه" فيقول لها: "اذهبي لن تكوني لي زوجة ولن أكون لك زوجا بعد اليوم" فتقول له: لماذا؟ فيقول لها: - إلى أن نجني الزيتون" فتقول له: المرأة: "حسنا". وتترك زوجها ينام في غرفة أخرى، فتلحق به خلسة وتجده نائما فتجلس بجانبه وتزيل عنه الأغطية وتتغطى بالثوب دون أن يشعر بها... وعندما يستفيق الرجل ويشرع في الصراخ تقول له: "اصمت لا تخف". فلست سوى أنا" فيقول لها: "عاقبك الله لقد أفزعتني! فتقول له: "هل تراني جنية حتى أخيفك". فيقول لها: "أنت أكثر من جنية" فتقول له: "اصمت وتعال بجانبي".... وتطلب منه.... فيقول لها: "لا أريد أي شيء". فتقول له: لماذا؟ فيجيبها: "أنا أريد أن أحافظ على صحتي، وأنت لا تبحثين سوى على إضعافي لكي أعجز عن القيام بأي شيء وستضحكين مني" فتقول له: "لا يا صديقي العزيز أنا لا أريد إلا ممازحتك؟ هل أنا حمقاء، حتى أنام معك (أجامعك) فمنذ الآن لا أفكر في تحقيق ما أريد". فيجيبها: فليكن. فتقول له: "سأنتظر حتى تجمع الزيتون"[380].

ويبقيان على هذه الحال معزولين، وعندما ينضج الزيتون يذهب الرجل إلى وسط الطريق في الدوار ويصيح بأعلى صوته: "يا نساء كل من عندها طفل أو طفلة يرسلها إلى منزلي". ثم يتسارع الأطفال فتيانا، وفتيات إليه محملين كل واحد منهم بقفة، ثم ينهض الرجل ويقتادهم إلى مكان أشجار الزيتون فيدخل، وهم يتبعونه وعندما يصل إلى أول زيتونة يقول: "هيا اجمعوا زيتون هذه الشجرة" ويشرعون في العمل تحت مراقبته حتى الظهر، حيث يجمعون كومات كبيرة من الزيتون في مكان يحدده صاحب الملك، ويزن في المساء مقدار ما التقط كل واحد منهم حيث يبدأ بالفتيان ثم الفتيات وعندما ينهي هذه العملية يقول: "هيا يأخذ كل قفته سنذهب إلى المنزل سأعطيكم أجوركم" ثم ينهض وهم يتبعونه إلى أن يصل إلى المنزل ويطرق الباب ثم تفتح الزوجة ويريهم المكان الذي سيفرغون فيه الزيتون، ثم يدخل إلى غرفة ويأتي بقطع نقدية نحاسية ويشرع في أداء الأجور ويقول لكل واحد قائلا : "كم وزنت؟ فيقول له: "كذا". ويعطيه بحسب المقدار الذي جمعه [381] وثمن جمع الزيتون عند الأمازيغ مثل ثمن جمع الخروب، حيث يتقاضى العامل مثقالا لخروبة وخمس أوقيات إذا لم يجمع سوى الربع ويتقاضى عشر أوجوه إذا جمع الثمن، وإذا جمع الخمس يتقاضى أقابو بوجهين (فلس واحد/ سنتيم). ويقول لهم عندما يعطيهم أجورهم كلهم: "اذهبوا رافقتكم السلامة". وتقول له الجماعة: هل سنعود غدا ؟ ويجيبهم: بالتأكيد عند طلوع الشمس ! فيذهب كل واحد إلى حال سبيله، ثم يأتي العمال في اليوم الموالي أمام بيت رب العمل، فيخرج أمام إغرم ويوكل أحد السكان أن رافقهم إلى مكان الزيتون ويقول له: اذهب معهم وراقبهم إلى أن آتي بالحمير لأحمل عليها الزيتون.

يصاحبهم ذلك الرجل إلى مقر العمل. فينهض رب المنزل ليبحث عن الحمير عند سكان إغرم وبعد أن يحصل عليهما يضع عليها "الشواريات" (القفف من الدوم) ويتجه نحو أشجار الزيتون حيث يجد "العمال" قد انتهوا من جمع الزيتون كل واحد يضع أمامه الكومة التي جمعها، ثم يتوقف ويفرغ السلل ويشرع في وزن الزيتون. وبعد ذلك يطلب من رجلين مساعدته على تحميل الحمير، ثم يسوقها إلى المنزل حيث يفرغها ويؤدي أجور "العمال" وينصرف كل واحد إلى حال سبيله، ثم ينتظر رب المنزل وقت جني/ إسقاط الزيتون، فيتوجه إلى وسط السوق ويقول لكل من [382] صافحته يده: "هل تأتي عندي لعصر الزيتون؟" ويقول له هذا الرجل: "إذا أردت "مسقطين" آخرين فإن لي رفاقا آخرين جئت معهم من منطقة يتقنون فيها عصر الزيتون. فيقول له: "كم عددكم"؟ فيجيبه: نحن "عشرة". ويقول لهم: "من قائدكم"؟ ثم يظهره له ويذهب للبحث عنه ويقول له: "تعالوا لإسقاط زيتوناتي الأربع عشرة" فيقول له: "كم ستعطينا مقابل ذلك؟ وإذا أرادت سنتفق على الثمن الإجمالي جزافا" فيقول لهم: "تعالوا أو وانظروا أشجار الزيتون أولا" فيذهبون معه إلى الحقل فيوقفهم على جميع ألشجار، وبعد ذلك يقولون له: "ستعطينا نحن العشرة خمسة ريالات/ وستقدم لنا وجبة الغذاء؟" فيقول لهم: اتفقنا فليعنكم الله" هكذا ينهض قائدهم فجأة فيصعد إلى زيتونة ثم يتبعه آخرون وهم يصلون على النبي بصوت مرتفع، ويشرع الكل في العمل في شجرة واحدة. عندما ينتهون منها ينزلون ويصعدون أخرى. ثم يأتي وراءهم خمس عشرة جمّاعا لجمع الزيتون الساقط أرضا، تأتي زوج رب العمل عند الزوال بالغذاء "للمسقطين" /وهو عبارة عن طبق كبير من كسكس الشعير، واللفت المجفف، و"المبلل" بالزيت. وعندما ينتهي العمال من إسقاط الزيتون، ويغسلون أيديهم في حوض الماء الموجود بالضيعة ويجلسون للأكل وعندما ينتهون يقدم رب العمل أجورهم "لقائدهم" كما اتفقا على ذلك ويذهب كل واحد إلى سبيله.

ثم يعود رب العمل إلى المكان الذي وضعوا فيه كومات الزيتون، حيث يجد كل الجمّاعين [383] أمام الكومات التي جمعها كل واحد ويقولون له: "هيا بنا نعود بعد أن جمعنا كل الزيتون فالمساء على الأبواب" فيقول: "متعكم الله بموفور الصحة انتظروا قليلا حتى نحمل الحمير بالزيتون في "الشواريات" وسأعطيكم أجوركم بالمنزل" وعندما أتى صهره بالحمير، حمّلوها وعادوا إلى المنزل حيث تفتح لهم الزوجة وأفرغوا الزيتون في "المطمورة " وأدى للجماعين أجورهم وانصرف كل واحد إلى حال سبيله. وبعد شهر من قطف الزيتون وإسقاطه ينهض رب المنزل إلى السوق ليشتري "حقائب" صغيرة من الدوم وبعد غطسها في الماء يحملها إلى المنزل، وبمجرد ما يصل إلى المنزل يقول: "افتحي يا امرأة، "المطمورة" وناوليني "حفنة" من الزيتون لنقيس هل المحصول جيد أم لا؟ فتأتيه بها وتجلس أمامه بعد أن تناوله حجرتان يعصر بهما ثم يضعها في كيس ثم يأخذ هذا الزيتون المسحوق[384] ويقدم بالطريقة نفسها مع ثلاثة أكياس، ثم ينهض بمساعدة امرأته حيث يتناولان طبقا يضعانه في مكان مشمس. ثم تذهب المرأة لتبحث عن "رحى" حتى تضعه فوق الزيتون الذي أخذ أشعة شمس كافية، وبمجرد أن ينزل الثقل على الزيتون يشرع الزيت في السيلان ويشرع في

الابتسام معربا عن فرحه بجودة محصول السنة من الزيت. أما إذا كان قد لاحظ أن الزيت السائل غير كاف فإنه سيتركها سنة من أجل أن يشتغل عليها، ثم ينادي على امرأته ويقول لها: "تعالي يا امراة لتشاهدي دموع الذئب". فتأتي امرأته مسرعة وتقول: - الحمد لله" ويقول لها "هيئي لنا خبزا ساخنا حتى تأكله مع الزيت التي أعطانا الله" فتذهب المرأة لتحضير ذلك، ثم ينهض الرجل ويغلق الباب حتى لا تصيبه "عين" الجارات، وبعد ذلك يشرع في الأكل مع زوجته قائلين: "بالصحة والعافية، فليحينا الله حتى نأكله السنة القادمة بحول الله إذا أمتعنا الله بالصحة والسلامة". وبعد أن يأكلا حتى الشبع ينهض الزوج ويقول لزوجته: "يا امرأة خذي قارورة، واملئيها بالزيت حتى أضيء بها مصابيح جميع الأولياء، حتى يباركوا زيتنا.

يذهب ويقوم بذلك ويعود إلى المنزل، دون أن يراه أحد [385] ويذهب في اليوم الموالي ليبحث عن رب المعصرة الذي له المفتاح. ثم يدخل ويفحص جميع المعدات، وينبه رب المعصرة لشراء ما نقص منها، وبعد أن وجد كل المعدات صالحة وضع المفتاح في حقيبته وعاد لزوجته قائلا: "لقد اكتريت المعصرة وغدا سنأخذها للعصر" فتقول له: "بالصحة والسلامة نادي على أخي ليساعدك على حمل الزيتون إلى المعصرة".

يأتي الصهر في اليوم الموالي، ويشرعان في تحميل الزيتون إلى أن تفرغ المطمورة ثم يذهب رب المنزل إلى السوق لكراء أربعة رجال لعصر الزيتون. ثم يأتي صهره بالماء ويشرعان في العصر بأن يصب أحدهما حب الزيتون، والآخر يجمع المسحوق منها أمام الرحى، والآخر يحملها للعصر لاستخراج الزيت. وعندما يدخلان إلى المعصرة جميعا يضعان حزاما، ثم يصعد العامل المجهز ليسهر على عملية العصر تحت مراقبة رب العمل. وبعد إنهاء العملية يقول العامل "هيا صلوا على النبي" وفي هذا الوقت يشرع رب العمل في [386] في مساعدة الحيوان الذي يحرك الرحى والآخر يدفع الزيتون برجله اليمنى أمام الرحى إلى أن يسحق كل الزيتون. ثم يأتي عامل آخر يجمع الزيتون المسحوق ويشكل عجينا يسمى: "أباقلو" ويضعه في قفة وبعد ملأه يضعه في المكان المخصص للعصر/ الضغط وتبدأ العملية بموضع قفة فوق أخرى والضغط عليها إلى أن ينزل كل الزيت، وبعد ذلك يقول:

- "صلوا على النبي".

يتوقف رب المنزل ثم ينزل العامل حيث يعمل على تنظيف مكان العصر ويذهب للولبة العمود من أجل الضغط على الزيتون المسحوق ليخرج الزيت. وبمجرد ما يشرع الزيت في السيلان فوق القفف الدومية التي يتجه منها عبر [387] مجرى صغير نحو الخزان الأول. وبعد أن يمتلأ يتجه الزيت والمرج إلى الخزان الثاني ثم الثالث، ولا يبقى في الأول سوى "المرج"، أما الآخران فيبقى فيهما المرج والزيت التي تطفو في الأعلى.

تأتي الزوجة في منتصف النهار بوجبة الغذاء للعمال، ثم ينهض الرجال إلى جرات الماء حيث يتناولون الماء ويغسلون أيديهم ويشرعون في أكل طبق كسكس الشعير المذهون بالسمن. وبعد

أن ينتهوا من الأكل تأخذ الأواني وتعود إلى المنزل، أما الرجال فيوقدون النار من أجل أن تسخن وتخرج الزيت، وفي انتظار انتهاء العملية يعود العمال إلى أشغالهم في اتجاه الساقية حيث يتنظفون، ويتوضأون، ويصلون، ثم يعودون ويقولون لرب العمل: - "سوف نذهب نستودعك الله" ثم يقول لهم: "على الرحب والسعة"، نلتقي غدا إن شاء الله". ثم يعطيهم ما يتناولون به عشاءهم" ويقولون له: "غدا سنعيد إعادة ضبط العملية، أحضر العجل الذي سيمكننا من إتمام العملية" يذهب العمال ويغلق رب العمل المعصرة، ويعود إلى منزله. وعندما يعود إلى المنزل تسأله زوجته: "هل أنهيتم عصر الزيتون؟" ويقول لها: "سننهي غدا حيث سأذهب بالعجل من أجل إعادة طحن البقايا.

تقدم له العشاء، ثم ينام. ويستيقظ في اليوم الموالي باكرا، ويخرج العجل في اتجاه المعصرة، وعندما يصل فتحها ويدخل العجل ويربطه من أجل إدارة رحى المعصرة، وعندما يصل يفتحها ويدخل محضرا، وبعد نظرة سريعة إلى القفف الدومية يلاحظون أنها جافة، وهكذا يفتح رب العمل أبواب الخزّانات، وبعد فحصها سيلاحظ أن الخزانين الأول والثاني قد امتلأ بل إن الزيت فاض ويشرعون في ملأ القفف "الدومية"، ويشرع بدوره في إدارة اللولب وبعد أن ينهي العجل عمله تطلقه الزوجة من القيد وتربطه من قرنيه وترجعه إلى المنزل وتعطيه علفه (شعير) والماء الدافئ وبعض الملح [389].

وبعد أن يتناول العمال غذاءهم، ينهضون ويشعلون نارا كبيرة أمام القفف كما فعلوا ذلك لأول مرة، ويودعونه على أساس اللقاء به لقياس الزيت، وفي اليوم الموالي يتجه رب العمل إلى المعصرة ويفحص الخزّانات ماء وعندما يصل إلى الأخير يقول : -"تبارك الله". عندما يرجع العمال يخرجون بقايا الزيتون من أجل استغلاله في طهي الخبز ثم يأتي صاحب المعصرة حاملا فوق رأسه طبقات من خشب في يده اليمنى واليسرى إناء من خشب، ويضعها أمامه في انتظار عملية قياس "التراث" الزيت. ثم يأتي صهر رب العمل بحمير يحمل كل واحد منها جرتان في كل "شواري" ويفتح العامل أبواب الخزّانات ماء ثم يشرع في ملأ الجرات وبعد أن تمتلأ إحداها يذهب إلى من عنده وحدة قياس الزيت، وبعد قياسها يحملها الصهر إلى المنزل[390] .

وعندما يصل تفرغها أخته في جرات أكبر، ثم يعود إلى المعصرة ليأتي بالباقي وبعد أن تنتهي عملية القياس يترك الوازن جرة لصاحب المعصرة أجرا للكراء، ثم يأخذ جرة أخرى يقسمها على العمال الأربعة بأن يعطي لكل واحد منهم نصف القياس. ثم يأتي الخباز الذي يشتري بقايا الزيتون، فيقول له: "أين هي البقايا التي تريد بيعها ؟" فيقول له : "ها هي أمامك في زاوية المعصرة". ويقول له بعد فحصها: "كم ثمنها" تنتهي له "كذا" ثم يتفقان ويقول الخباز: "أربحنا الله من هذا" ويقول له: "خذ المفتاح. وبعد أن تنتهي من شحن البقايا أرجع المفتاح إلى صاحب المعصرة. ثم يفترق الرجلان حيث يعود رب المنزل إلى بيته بعد أن يدعو صهره لتناول العشاء ويعطيه قدرا من الزيت ثم ينصرف. وبعد أن يغلق رب المنزل باب المنزل يجد زوجته قد ذهبت لتنام لوحدها في غرفة، ثم يزيل ملابسه رغبة في مجامعتها، فتفر إلى غرفة أخرى فيقول لها: "إلى أين تذهبين يا امرأة؟ ويجري

وراءها، بعد أن ترك ملابسه في الغرفة الأخرى وتقول له: "اذهب عني، أقسمت أنك لن تجامعني أبدا" فيجيبها: "أنا لم أكن إلا مازحا" وهذا القسم يلزمني لأنني زوجك الشرعي" فتقول له [391] "أنت لست سوى ابن امرأة غير شريفة، ماذا تقول عن الوقت الذي أردت أن تطلقني فيه؟ فيقول لها: "اصفعيني صفعتين حتى لا تحنثي! فتقول له: "حرام علي أن تمر يدي على وجهك...." فيقول لها: "لن أغضبك قط" ويحاصر زوجته في إحدى زوايا الغرفة، وتنفلت منه وتقول له: "إذا أردت أن لا أكون "حانتة" دعني أطلب منك شيئا؟" فيقول لها: "نعم ماذا تطلبين". فتقول له: "اعطني يدك، وأقسم لي بالله أنك ستتركني أفعل ما أريد من أجل أن يكون هذا القسم بيننا". فيقول لها: "ليس هناك كلام ونحن وقوف فلنجلس أرضا" فيقول لها: "فليكن" فتقول له : إعطني يديك ومدها وبعد أن أربطها سأطلقها، وبعد ذلك افعل بي ما تريد" فيقول لها: "هل هذا وعد؟ فيستدير ويعطيها يديه فتحكم ربطها بثلاث عقد، ثم تنهض للخروج فيناديها الزوج: "إلى أين تذهبين؟ ! فتقول له: انتظر "سأتوضأ" فيقول لها : "اسرعي فيدي تكادان تقطعان! فتقول له: كيف!؟ أنت رجل تستطيع تحمل أكثر من ذلك" فتخرج وتغلق عليه الباب وتتركه وحيدا وسط الظلمة[392] والبرد فيقول لها صارخا: "لماذا تغلقين علي"؟ فتقول له :

أنتقم منك ألم تقل لي أنك ستطلقني بعدما ينتهي جني الزيتون؟ الآن بعد أن أنهينا ذلك، هيا بنا أمام القاضي" فيقول لها: "يا ويلي"! فأنا وقتها لم أكن إلا مازحا معك! فتقول له : و"أنا الآن اضحك معك" فيقول لها: "هذا فوق الضحك فيدى تكادان تقطعان، وجسمي يكاد يتجمد من البرد" فتقول له : "علي أن أصوم سنة كاملة بعد أن تركتني مهجورة في زاوية الغرفة مثل كلبة "دون اعتبار لك سأتركك تنام لوحدك هذه الليلة... !"

وبعد أن قالت هذه الكلمات ذهبت لتنام في غرفة أخرى تاركة زوجها يناديها من الغرفة الأخرى وتظاهرت بالبكم ولا تجيبه، ثم ينهض ويتجه نحو الباب ويأخذ يضرب برجليه ويقول: "أنقذوني يا عباد الله، هناك نصرانية تريد قتلي، لقد غدرت في عقر داري". ولما سمع الجيران صرخاته جاؤوا بعصيهم يظنون لصوصا هاجموا المنزل، فتسارعوا بالضرب بعصيهم على الباب قائلين: افتحوا ماذا أصابكم حتى تصرخون بهذه الطريقة؟ فتنهض المرأة متجهة نحو الباب وسط العصي وتجيبهم فتقول لهم : "ليس هناك من شر، فزوجي أصبح مجنونا، مزق كل ملابسه. وكلما أردت أن آتيه بشيء يريد أن يعضني ! وأعطيته للتو إناء من أجل أن يشرب فرماني به، فأنا هي التعيسة.... وبمجرد أن يسمع الرجل هذا الكلام، يشرع في الصراخ من غرفته ويقول للناس: "لا، إنها تكذب السيئة، اللعينة، انظروا وسترون ماذا [393] فعلت بي بنت الكلبة". فيقول الناس للمرأة: "افتحي لنرى ما به" فتقول: "اذهبوا الى حال سبيلكم، فليس عليكم الدخول في أمور خاصة بيني وبين زوجي". فينصرف الناس قائلين: "فليكن سننصرف ونعود غدا لنرى أي جني تملكه، ونخرج هذا الشر والقلق" ثم انصرف جميع الناس، فتناولت المرأة بعض الفحم، وأشعلته وأضافت عليه صمغ الصنوبر ذا الرائحة، وأتت

به لزوجها وقالت له: "إجلس لا تخاصمني بعد هذا، فأنا لم أقم بهذا إلا لأمازحك" وبعد ذلك جمعت العصى الموجودة في المنزل ورمتها خارج الغرفة وقال لها: "لماذا قمت بذلك" فاقتربت منه قائلة ضاحكة : -"إني رميتها حتى لا أضرب بها بعد أن أفك يديك؟ فيقول لها: "لا تخافي مني فأنت من لك الحق علي" فتقول له : "فإذا نسيت أنت أيها الرجل فأنا لم أنس ما وقع لي طيلة شهر مضى!" فيقول لها: "فكي يدي فلن يصيبك من مكروه، وقيل قديما الرجل بالنسبة للنساء كذيل الديك يتحرك بتحرك الريح أين شاءت فهل أنا أحمق حتى أعيد الكرة؟ إذا أصبتك اليوم بمكروه ستعرضيني غدا أمام الجماعة. فتقول له : "لكن لن أقوم بهذا أبدا، لأني كنت معتادة على حبك، والآن أخضع لله وافعل بي ما تشاء، فأنا بين يديك! ثم تهيئ سريرها وتزيل ملابسها تماما، وعندما رآها زوجها على هذه الحال قال لها : "هيا صديقتي، فكي يدي وأزيلي ملابسي فأنا أيضا أريد أنا أنام ! فتقترب منه وينامان حتى الصبح، حيث أتى الجيران مصحوبين بالرجل الذي يطرد الجن، وقالوا له: "ماذا أصابك البارحة حتى صرخت وسط الليل ! فيقول لهم "آه، لا تذكروني، مسني الجن بالمعصرة ولم أتخلص منه إلا بعدما مدتني زوجتي بمخدر حضرته لي وأصبحت بخير" ويقولون له: "لا تقل شيئا يا أخي، أخطأت عندما لم تعط قسما من الزيت للفقراء، وكان عليك أن تعطي أيضا بعض الزيت لجيرانك، وبهذا لن يصيبك مكروه. وما خصصت بعض الصدقات من محصولك لأن هذه الصدقة ستقيك من الشرور والأمراض" [395]

[خريطة سياسية لحاحا] [396]

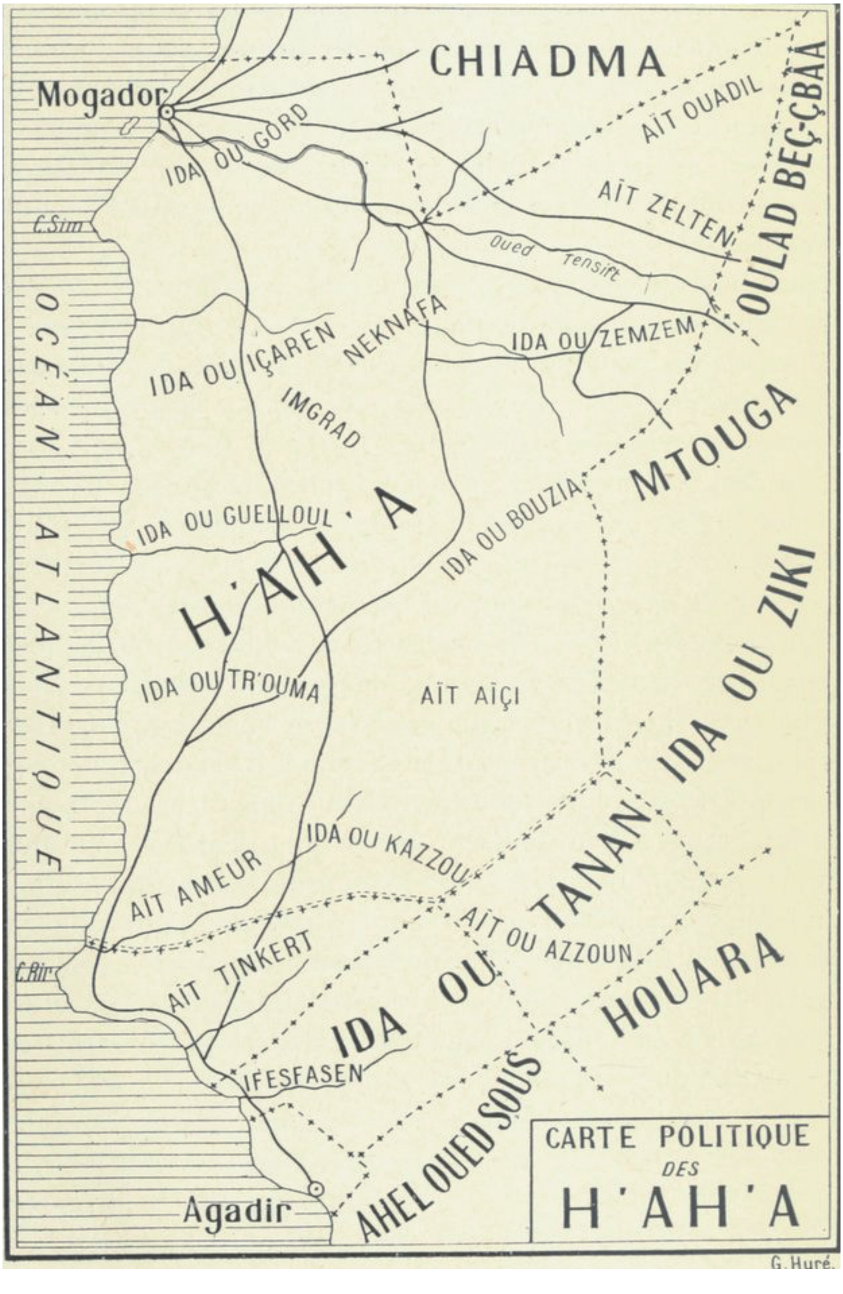

معلومات جغرافية

الفصل السادس

حاحا (إحاحان)

سبق للأستاذ إدموند دوتي أن قدم دراسة هامة حول التنظيم القبلي، والسياسي والاجتماعي لحاحا[1]، ومعلوماتي لا حقه لما سبق أن جمعه، وهي مطابقة تماما لمونوغرافيته، وإنما تكملها في بعض التفاصيل. حاحا بربر يتكلمون فقط لغة تامزيغت، علما أن الفخذات التي تتكون منها قبيلة الشياظمة تتكلم اللغة العربية أيضا.

كان الشياظمة ينتمون قديما لقبيلة حاحا وتعربوا نظرا لجوارهم بعبدة، وأولاد بو السبع، وهم الآن مفروقون تماما عن إخوتهم "البربر" وينتمون إلى لف متوگة العدو القديم لحاحا[2]. رجال حاحا متوسطو القامة، أصلاب، يقظون، يميلون إلى السحنة لهم خصال جيدة، محاربون، والاضطرابات التي تعرفها بلادهم دليل على ذلك، فهم يتحركون دائما برؤوس "حلقة" وعارية، ومن يلبس منهم العمامة يضع فقط قطعة ثوب أبيض حول الرأس ويترك الأعلى عاريا.

كانت القبيلة خاضعة فيما قبل "لقايد" واحد هو "القايد" الحاج عبد الله ولد بيهي (أو بيهي) الذي كان يحكم أيضا قسما من بلاد سوس. اعتقله السلطان سيدي محمد، وقسم حاحا إلى أربع قيادات. والقبيلة الآن "في هذه الساعة" منقسمة إلى قسمين عقب الصراع بين القائدين أنفلوس الگندافي، ومبارك الگيليولي.

هذان الزعيمان يتصارعان حول قيادة إذا ويسارن، وإداوگرض الغنية أراضيها خاصة بالجير، وأخشاب البناء، والفحم الخشبي، وزيت أرگان. ويتوفر الگندافي على حق التملك من المخزن حيث أعطى مقابل ذلك أربعين ألف دورو. وللگيلولي الحقوق نفسها بعد أن حصل عليها لاحقا مقابل ستين ألف دورو[3] وهذه الطريقة من التفويت للحكومة المغربية لا تفاجئ أحدا ممن يعرف المغرب. أما بالنسبة للساكنة موضوع الصراع فقد أدوا الضرائب لأول وافد عليهم: النكنافي ويرون أنفسهم مهددين من الثاني، ولهذا يواجهونه بكل قواهم.

رجل حاحا يشتغل، ويستغل بعناية أرضه الكثيرة الاحجار، ونظرا لوفرة العيون بالقرب من الجبل إذ لهم مزارع /بساتين جميلة وزياتين كثيرة، والأرگان ثروة طبيعية يجنيها بعناية ويقوم بتجارة هامة من شمع العسل/ الشهد ويقوم بتربية جيدة للماعز الذي تصدر جلوده جيدا، وتشكل موگادور سوقا رائعا تلتقي فيه كل منتجات الجنوب[4]. وليس عند أهل حاحا إلا خيول قليلة فالفرس بالنسبة لهم هو حيوان حرب، وجميع الأعمال والتنقلات تتم على ظهور البغال والجمال[398].

ومن الناحية الدينية فإن أغلبية حاحا ينتمون إلى الطريقة الناصرية، كما أن لطائفة درقاوة أتباع كثر أيضا ومقدمها هو الحاج سعيد هار غايد الساكن بسيدي بوالرجا، والتيجانيون قلة معروفون

1- Bulletin de Comité de l'Afr. France M. Ed Doutté

. كما نشر أيضا: مراكش، مونغرافية حاحا، ال"قياد" الكبار، ونحن مدينون كثيرا لأعماله الرائعة (يناير 1905).

2- جازى السلطان مولاي عبد العزيز ال "قايد" أنفلوس على وفاءه بأن مكنه من قيادة حاحا.

3- سنة 1904.

4- يضمن "القايد" أنفلوس سلامة القوافل بمضاعفة مراكز الحراسة، أو النزلات، لكنها تفرض مبالغ مرتفعة على المارة تعرقل الحركة التجارية.

بمقدمهم الأكثر تأثيرا، وهو الشريف سيدي محمد او تيلضي القاطن بإينكنافن والذي يستمع لنصائحه كثيرا "القايد" أنفلوس. وتنقسم قبلية حاحا إلى أربع قيادات، والقيادات مقسومة إلى فخذات (يسميها الحاحيون قبيلة) حاحا مكونة من: إينكنافن وإداوگرض، وإداويسّارن وآيت زلطن، وإدا أوزمزم، وإذا أوبوزيا، وإمگراد إدا أوگازو، أيت تامر، وإدا تغوما، وإدا او گيلول، وآيت واضيل، وآيت عيسي. ويحكم هذه القبائل الثلاث عشر أربع "قياد": "فالقايد" ولد كرومة يحكم إدا أوزمزم. و"القايد" مبارك ولد سعيد الگيلولي يحكم: إدا أوگيلول وإمگراد، وإدا أوكازو، وإدا تغوما، وأيت تامر، وتامنارت (إداو تنان). و"القايد" محماد وحامد الزلطني يحكم آيت زلطن. ويسكن بأزررا نايت بيهي. و"القايد" حماد بن مبارك أنفلوس يحكم: إينكنافن، وإدا أوگرض، وإدا ويسارن، وآيت واضيل. ويحد حاحا من الشمال: الشياظمة، وشرقا أولاد بو السبع ومتوگة وإدا أوزيكي، وجنوبا: إدا أو تنان.

فخذات حاحا

إينكنافن

أعيانها: الشيخ بهي أ خرضيض، وعبد الله أو الخضير، والشيخ بيهي بوشكال، والشيخ الحس الجيد، وسي محمد بن أحمد الحسيني. أسواقها: السبت وخميس سيدي بو الرجا.

تنظيمها السياسي: [399] (ا"لقايد" الگيلولي)

- أيت إغرمان ويتكونون من: آيت تاكراكرا، ولمهرة، وأيت زرار، وآيت جگدر، وآيت تاوريرت، وأيت تاوريفلت.

- وإد باها، وآيت گوجگال، وآيت سحاق، وإدا أوخلف، وآيت محاند، وإد أومين.

إحصاؤها: خمسمائة فرس وألفي بندقية وثلاثة آلاف وخمسمائة كانون. زاويتها: سيدي محمد أو سليمان الجزولي، وسيدي محمد إمين الحد (الاحد). المياه بها: العيون وافرة. أرضها: بلاد كثيرة التضاريس ومخشوشبة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر، واللوز، والزيتون. منافذها: موگادور. الطرق: تعبرها الطريق المارة من مراكش إلى تارودانت. حدودها: شمالا: الشياظمة، وشرقا: آيت وضيل، وآيت زلطن، وإدا ويسارن، وجنوبا: إدأوبوزيا وإمگراد، وغربا: إدا أويسارن، وإدا وگرض.

آيت وضيل

أعيانها: الشيخ هيدور إحصاؤها: ستون فرسا، وألف بندقية، والفان وخمسمائة كانون. الزوايا: سيدي عبد الواسع. المياه بها: عدة عيون وواد القصب. أرضها: سهل ومرتفعات. فلاحتها: الحبوب، بساتين الخضر. منافذها: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين موگادور وسوس. حدودها" شمالا: الشياظمة، وشرقا: إدا أوزلطن، وجنوبا : إنكنافن، وغربا: الشياظمة. [400]

إدا وگرض

أعيانها: علي بن الحاج محمد، ولحسن بلمحجوب، والحاج عبد الله أوگني، والشيخ عدي. أسواقها: أربعاء نايت تاهلا. تنظيمها:

- إدا أومعدا وتتكون من : بوتازرت، وإفران، و آيت ياسين، وزاوية بوحولي . وإدا أوبلال (الشيخ بلمجوب)، (الشيخ مبارك أوبيهي)، (الشيخ محمد او بيهي) ويتكونون من : أوميرامر (مرامر)، وإدالعوني، وآيت الحسن. آيت تاهلا (الشيخ محمد أومبارك) ويتكونون من : آيت واسيف، وآيت توزومت، وآيت عمر. وآيت باعمران (الشيخ الحاج عبد الله) ويتكونون من : آيت قروط، وزواتي. والحرارثة (الشيخ عدي نسريتي) ويتكونون من : آيت سرتي، وأولاد زايد، وإشباكن (إشباك). وإحصاؤها: مائة وخمسون فرسا، ثلاثة آلاف بندقية، خمسة آلاف كانون. زاويتها: سيدي بوعثمان، وسيدي محمد أو عبد الله. المياه بها: آبار عميقة جدا. أرض: كثيرة المرتفعات وكثيرة أشجار الأركان. فلاحتها: الحبوب، والزيتون. منافذها: موگادور. الطرق: الطريق من سوس إلى موگادور، ومن مراكش إلى سوس، ومن مراكش إلى موگادور. حدودها: شمالا: موگادور والشياظمة، وشرقا: إنكنافن وجنوبا: إدا ويسارن، وغربا: المحيط الأطلسي.

إدا أوّسارن (ويسارن)

أعيانها: أگروج، أقبليم، بو النعيم، سي بلحاج عمر، مولاي على أزلال، الحاج مبارك العيسي. أسواقها: أحد سيمو، اثنين إمين نتليت، خميس إدا أوبوزيا [401].

تنظيمها: إدا ويسارن (ويسارن) ("القايد" أنفلوس) (الشيخ بيهي أو عمر) (عمر نيدا أوگندل) ويتكونون من : تارزوت وإداوكونگي وإدا أوعزا (جيران إدا أوگيلول) وآيت بردا (شرق ايت إعزا)، وأغبالو (جيران إدا أو گرض الساحلية)، وتابولاونت (الساحل ومرسى الصيد)، وتارواحيا (الساحل وجيران إدا أو گيلول). إحصاؤها: مائتان وخمسون فرسا، ألفان وخمسمائة بندقية، وأربعة آلاف كانون. زاويتها: سيدي مبارك، وسيدي بو البركات (العبدري)، وسيدي بوزكري، وسيدي أحمد السايح. المياه بها: أغبالو، سيمو أوسليويت. أرضها: بلاد كثيرة المنعرجات ومخشوشبة. فلاحتها: الحبوب، والزيتون، واللوز. منافذها: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين موگادور وسوس. حدودها: شمالا: إداوگرض، وشرقا: إنكنافن، وجنوبا: إمگراد، وادا أوگيلول وإدا أوتغوما، وغربا: المحيط الأطلسي.

إدا وگيلول ("القايد" الگيلولي)

أعيانها: بن عمر وأوبلا، "القايد" الگيلولي. سوقها: أحد إمغرين.

تنظيمها: أيت أوسول: (الشيخ أو تسوكا)، وإدا أوكورگان (الشيخ بوعزا)، وإدا وزركو: (الشيخ محمد أوسعيد والشيخ بواگروال) وأيت بومجي: (الشيخ محمد أو سعيد، والشيخ بن عمر، والشيخ محمد أوبيهي)، إمغراين: (الشيخ أغرز، والشيخ محمد أو غيو) وإفني : (الشيخ علي نستي) وإفرخس: (الشيخ أوجاعا، والشيخ أمّل أتغومة) [402] إحصاؤها: ثلاثمائة فرس، ألفا بندقية، أربعة آلاف كانون. الزوايا: لالة مريم أويحيى، وسيدي حسا أوحساين إزيرارن (إدا أوكوارگن). مقدم الحاج علي أزيرار. المياه بها: آبار وخزّانات ماء (النطافي). أرضها: بلاد الهضبات. فلاحتها: الحبوب. المنافذ: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين موگادور وسوس. حدودها: شمالا: إدا أوإسارن، وشرقا : أمگراد، وجنوبا: إدا أوكازو، واد أتغومة، وغربا: إدا أوتغومة.

إمگراد

أعيانها: حميدوش أوجابريد، الشيخ عمر ديدعبو. سوقها: خميس الدريدي.

تنظيمها: إمگراد ("القايد" لگيلولي) الشيخ مبارك أو الحاج بتاجبريت، وتتكون من (إمشكن، وتاجبريت، وزدوتا، وآيت باحمو أگويرير (أطلال "مسيحية"). إحصاؤها: خمسون فرس، ألف بندقية، ألفا كانون. زاويتها: إفرض أوناها بتاجبريت. المياه بها: الآبار خزّانات ماء (النطافي). أرضها: بلاد جبلية، وكثيرة الحجارة، جبل أمسيتن. ومنتوجاتها: الحبوب، "الصمغيات"، اللوز، والعسل، والغابات. منافذها: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين موگادور وسوس. حدودها: شمالا : إداويسارن، وشرقا: إدا ويسّارن، وإدا أوبوزيا، وجنوبا: آيت عيسى، إدا أوكازو وغربا: إدا أگلول.

إدا أوتغوما (تغوما)

سوقها: السبت بإمزنيتن. تنظيمها كالتالي [403]

- إدا أوتغومة ("القايد" الگيلولي) وتتكون من :(إداأو عشا، الشيخ الحاج واكريم أوفاري، وإدا أومليل، الشيخ شقرن أوبودرار، وإدا أويسمور، الشيخ سيدي بو الشتى وإنزميتن، الشيخ سيدي بو الشتا).

إحصاؤها: ستون فرسا وألف بندقية، وألفا كانون. الزوايا: سيدي أحمد أومبارك، سيدي أحمد أومغار. المياه بها: الآبار وخزّانات ماء (النطافي). أرضها: سهل قليل الأشجار. فلاحتها: الحبوب. منافذها: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين موگادور وسوس. حدودها: شمالا: إدا أوايسارن، وشرقا: إدا أوگيلول وإدا أوكازو، وجنوبا: إدا وتنان، وغربا: أيت تامر والمحيط.

إدا وكازو

أعيانها: سي محمد أوكازو. سوقها: جمعة أساوة (إبوديرن).

تنظيمها:

-إدا وكازو ("القايد" الگيلولي) الشيخ، محمد الزويتا بمسفو، وتتكون من (مسفو وتيوغار، وآيت أوبوز، وتفنتيرت (الشيخ بوريك)، إدا أوهمان، وإبوديرن، وتاروا لي، وسرو (الشيخ علي أضرضور).

إحصاؤها: ألف ومائتا بندقية ومائتا كانون. زاويتها: سيدي محمد أوبوزيد (مدرسة إدا أوهمان). المياه بها: عيون متعددة. أرضها: جبلية وكثيرة الأشجار مخشوشبة). فلاحتها: الحبوب، واللوز، والصمغيات"، "والبساتين، والعرصات". منافذها : موگادور. حدودها: شمالا : إمگراد، وشرقا: آيت عيسى، وجنوبا: إدا أوتنان، وغربا: إدا وتغومة وإدا أگيلول [404].

أيت تامر

أعيانها: أوتگزيرين، أوتماسينين. سوقها: الخميس إمسوان بإغيل نبع.

أيت تامر ("القايد" الگيلولي وتتكون من (تليت، الشيخ عبد الله أونير وإسوال، الشيخ بكارة وآيت عامر، والشيخ الحاج أو بن عدي، وآيت اسحاق، الشيخ بن سعيد، وآيت ويوف، والشيخ

كربيض، وآيت واوريك، والشيخ سعيد ولد قصيري، وآيت خميس، الشيخ سعيد ولد قصيري، وآيت أوكاكاو، والشيخ لمياحي)

إحصاؤها: مائة فرس وألفا وخمسمائة بندقيةوأربعة آلاف كانون. الزوايا: سيدي محاند أوشن بتاسكا أودرارن (مقدم بوعدي) وسيدي عبد الرحمان. المياه بها: آبار وخزّانات ماء (نطافي). أرضها: جبلية وجنوبا: وسهلية خارجا. فلاحتها: الحبوب، التمور..... إلخ. تربية المواشي: جمال كثيرة. منافذها: موگادور. حدودها: شمالا: إدا تغومة، وشرقا: إدّاو تغومة، وجنوبا: إداوتنان، وغربا: المحيط.

آيت زلطن

أعيانها: "القايد" إگيدر، الوراث، سي أحمد أوتسيلا، الشريف إمجاض. سوقها: أحد أيت بوستة.

تنظيمها: آيت زلطن ("القايد" محمد أو حامد الزلطني بأزغار نايت بيهي) وتتكون من: (إسمغورن (جيران مسكالة) وآيت بوستة (جيران إدا أزمزم مسكالة)، وإلالن (آين واديغ نكنافة) وأهل أدرار (اد أوبوزيا، وإينكنافن، وآيت عيسى)، وأهل تاكوشت (إدا بوزيا، آيت عيسى) [405] إحصاؤها: أربعمائة فرس، ألفا بندقية، ثلاثمائة كانون. زاويتها: سيدي غانم (إلالين). المياه بها: آبار كثيرة، واد القصب. أرضها: جبل تاكوشت، والباقي سهل. فلاحتها: الحبوب واللوزو الزيتون والبساتين. منافذها: مراكش. الطرق: الطريق الرابطة بين مراكش وسوس. حدودها: شمالا: آيت واضيل، الشياظمة، وشرقا: متوگة، إدا أوزمزم، وجنوبا: إدا بوبوزيا، وغربا: إينكنافن.

إدا أوبوزيا

ليس لقبيلة إدا أوبوزيا قائد ("قايد"). أعيانها: بوفنزي وبوخليف. سوقها: الجمعة.

إحصاؤها: ستون فرسا، مائتا بندقية، ثلاثة آلاف وخمسمائة كانون. زاويتها: سيدي سعيد أوعبد النعيم. المياه بها: عيون متعددة. أرضها: كثيرة الجبال. ومنتوجاتها: قليل من الحبوب، والبساتين، والخروب، وكثيرمن الخشب، واللوز، والزيتون. منافذها: موگادور. حدودها: شمالا: إداوزمزم، وشرقا: متوگة، وجنوبا: إداوتنان، وغربا: آيت عيسي وإمگراد.

آيت عيسى

ليس لقبيلة آيت عيسى "قايد". سوقها: السبت. إحصاؤها: ألف وخمسمائة بندقية، ألفان وخمسمائة كانون. المياه بها: واد أيت تامر، وعيون ماء وآبار. أرضها: بلاد جبلية كثيرا، مغطاة بالعفص. فلاحتها: قليل جدا من الحبوب، والبساتين و"الصمغيات" والتمر، اللوز. المنافذ: موگادور. حدودها: شمالا: إمگراد، وشرقا: إدا أوبوزيا، وجنوبا: إداوتنان، وغربا: إدا أو كازو. [406]

إدا وزمزم

أعيانها: أولا گورمة. سوقها: الاثنين. إحصاؤها: ثلاثمائة فرس، ألفي بندقية، ثلاثة آلاف وخمسمائة كانون. المياه بها: واد القصب، عدة عيون. أرضها: جبل حلاس، والباقي سهل. فلاحتها: الحبوب والبساتين واللوز و"الخروب". منفذها: موگادور. الطرق: الطريق الرابطة بين مراكش وسوس. حدودها: شمالا: أيت زلطن، وشرقا: متوگة، وجنوبا: إدا أوبوزيا، وغربا: أيت زلطن. [407]

الفصل السابع

إداوتنان

إداوتنان بربر[1]، يتكلمون لغة تامزيغت فقط، فهم مستقلون لا يحكمهم لا "قايد" ولا سلطان، ورغم ذلك يتبعون إداريا لحاحا تاريخيا، بل ويقال إن أصلهم واحد رغم أن إداوتنان ينكرون ذلك. ولازالوا يظهرون آثار قلعة دمرها أحد زعمائهم المسمى أهندار الذي غزا سوس، والقسم الجنوبي من الحوز جنوب واد تانسفيت، ومنذ ذلك الوقت يعيشون بدون زعيم. تحكمهم الجماعة المكونة من شيوخ ينتخبهم كل خمس (فخذة)، ولقب الشيخ التشريعي هذا يكاد يكون وراثيا دائما. والشيخ الأكثر نفوذا الآن/ حاليا هو سي الحسن بوناگة بن الحاج محمد بوناگة الذي كان زعيما محترما جدا قتله "القايد" الگلاوي. ينقسم إداوتنان إلى ثلاثة أقسام هي: تنكيرت، وإفسفاس وآيت واعزون. وحدود إداوتنان هي[2]: شمالا : أيت تامر، وإدا أوتغوما، وإدا أوكازو، آيت عيسي وإدا أوبوزيا. وشرقا: متوگة وجنوبا : هوارة وتماعيت، ومسگينة، وگسيمة وأگادير [408] وغربا : المحيط.

اللفوف: ليس إفسفسان سوى حلف/ لف واحد، والفخذتان الأخريان حليفتا گسيمة ومتوگة، و"للقايد" أنفلوس بعض السلطة عليهم، و"القايد" الگيلولي يحكم "أمغارات" (إفسفاسن). الزوايا: الزاوية الكبرى لسيدي وبراهيم أو علي، عدد سكانها حوالي مائة كانون، وهؤلاء المرابطون حفدة الشيخ سيدي أوبراهيم أوعلي ولي إداوتنان، ومقدمها سي إبراهيم أو سعيد. وتوجد زاوية أورير الأقل أهمية على بعد أربع ساعات من أگادير.

تينكرت (آيت تنكرت)

يحكم الشيخ الحسن بوناگة القبيلة. أعيانها: الفقير بلعيد، وبويشتيك، وأگايو، والحاج بيهي إيزم، والفقير علي، والشيخ الطيب. الجماعات: ليست هناك قرى بل منازل متفرقة في الجبل. تنظيمها: أيت تنكرت (تينكرت) وتتكون من : (إغغز، وإمسكر، وإدا عمران، وإلازيغ، وأيت ناصر.)

إحصاؤها: ليس لديهم فرسان، مائةكانون. زاويتها: سيدي إبراهيم أوعلي. المياه بها: عيون الماء كثيرة. أرضها: جبال (جبل إسكجي، وتيمكطي، وتيديلي، توگرو، إلخ). فلاحتها: الحبوب، واللوز، والجوز، والبساتين، و"الصمغيات"، والزيت، بلاد كثيرة الأشجار. منافذها: موگادور التي تسمى بالعربية الصويرة، وبتامازيغيت تاصورت. الطرق: من موگادور إلى سوس. حدودها: شمالا: إدا أوكازو، آيت عيسي، وشرقا: آيت أوعزون [409] وجنوبا :إفسفاسن، وغربا: أيت تامر وإدا أو تغوما.

إفسفاسن

أعيانها: الشيخ ولد بوالشرع، وسيد القبيلة. تنظيمها: تتكون من (أورير وأقصري وأهل أورير أفلا وأسيف إلگ،) إحصاؤها: ألف ومائتا كانون. المياه بها: عيون ماء كثيرة. أرضها: جبلية. فلاحتها: مثل آيت تنكرت. طرق المواصلات: المقطع العابر لطريق سوس في اتجاه موگادور.

1- انظر الكتاب الذي أنجزه معاوني لويس جانتي **Louis Gentil**
Mission de Segonsac, Exploration du Maroc,185-238.

وكتابة "عبر إداوتنان"

2- انظر خريطة حاحا في الفصل السابق.

منافذها: موگادور وأگادير. حدودها: شمالا: آيت تنكرت، وشرقا: آيت أوعزون، وجنوبا: أهل واد سوس وغربا: المحيط الأطلسي.

آيت أوعزون

أعيانها: الشيخ أغز. سوقها: الخميس. قراها: مساكن متفرقة. تنظيمها: وتتكون من: آيت أووغرير، وتيديلي وتاماروت وتيسكزي وتيمكتي. إحصاؤها: سبعمائة كانون. المياه بها: عيون الماء كثيرة. أرضها: جبلية. فلاحتها: مثل آيت تينكرت. منافذها: موگادور. اطرق المواصلات: المقطع الرابط بين مراكش وتارودانت. حدودها: شمالا: إداأوكازو، وشرقا: آيت عيسي، وجنوبا : إفسفاسن، وغربا : آيت تينكرت[410].

الفصل الثامن

أگادير نيغير

يحكم أگادير "القايد" الگيلولي المسمى: الخليفة الحاج الحسن.

وتاريخ أگادير معروف، أسسها البرتغاليون مكان دار برتغالية تسمى سانتاكروز، استرجعها المغاربة سنة 1536 عقب انفجار sapoudrieu، وبني في نصف الساحل، "فنار" للمراقبة. كان يحكم المدينة موظف مخزني، ويقوم فيها نشاط تجاري حيوي جدا. وفي سنة 1760 عندما أسس السلطان سيدي محمد موگادور تحول قسم من التجارة في سوس، وتوقفت أگادير عن أداء الضريبة، فحاصرها السلطان سنة 1776 بمحلّة ومارس عليها ضغطا كبيرا، فأصبح دخول جميع موانئ الساحل الجنوبي للمغرب ممنوعة على البواخر الأجنبية. وفي سنة 1882 أذن مولاي الحسن بإدخال الحبوب من أجل إنقاذ سوس من المجاعة. وكانت مهمة البعثة الهيدروغرافية التي قادها الملازم De vaisseau والسيد A. H. Dyé البحث عن المياه بها في المرفأ سنة 1905، وتشير تقاريره إلى أن توقعاتنا بهذا الخصوص لم تكن في محلها[1] [411].

أعيانها: علال بن صالح، الحاج عبد الله بوحولين، وسي علي أوهمو. سوقها: السوق اليومي، وسوق الأحد بفونتي. تنظيمها: ثلاثمائة كانون وقبة سيدي بوالقنادل، فونتي على قدم الهضبة، فوق أگادير (خمسون كانون)، وتامراغت، وزاوية تلظي. زاويتها: سيدي بوالقنادل. المياه بها: عين كبيرة بفونتي، والخزّانات ماء (نطافي). أرضها: هضبة، وتوجد فوق المضيق لطريق موگادور. ومنتوجاتها: الحبوب والأسماك . منافذها : موگادور . الطرق : طريق سوس حدودها : شمالا : إداوتنان، وشرقا: مسگينة، وجنوبا: لكسيمة، وغربا: البحر. المعلومات الطبوغرافية: تامراغت على بعد ساعة من أگادير، وأگادير على بعد خمس عشرة دقيقة من فونتي [412].

1- انظر: **les levés hydrographiques** التي نشرتها اللجنة المغربية، ورقة أگادير وأصبحت أگادير في الأوقات الأخيرة، الميناء الكبير لتهريب الأسلحة بالجنوب المغربي، ولم يستطع أحد الحد من هذا التهريب. وفي الأيام الأخيرة طرد معاوني لويس جانتي رغم أن له رسالة من السلطان وكان من عواقب هذه الخطورة غير المقبولة أن تفرض الحكومة الفرنسية ضغوطات على السلطان فتم تغيير الخليفة السلطاني (مارس 1910).

الفصل التاسع

الشياظمة ورگراگة

يقول الشياظمة بأنهم عرب، لكن أصولهم بربرية مثل حاحا حيث لا يفرق ليون الإفريقي بينهما. وهم معربون كثيرا، ويتكلمون العربية فقط باستثناء القبائل المحادية لحاحا حيث لغة تامزيغت متفرقة متكلمة، وتجمعاتهم الاجتماعية متشابهة لجيرانهم. يحكم القبيلة منذ عدة سنوات خمسة قيادات وهي الآن مقسمة بين ثلاثة منهما وسعت سنة 1904 أن تكون تحت حكم "قايد" واحد، وهذا التمركز لهذا المجهود هو اتجاه نحو الاستقلال ومؤشر على تراجع قوة المخزن لكنها سعت في 1908على العكس من ذلك إلى الانقسام إلى عدة قبائل صغيرة مستقلة، وضعف نفوذ "القياد" يوما بعد الآخر، وسبب هذا هو الغياب التام السلطة المركزية. وللفرق الستة عشر المسماة بالعربية "عظم" شيوخ، بعضهم انتخبتهم الجماعة، والأخرون توارثوها، وتتكون الجماعات من أعيان الفخذات دون أي قانون محدد الشكل. وتتكون العائلة عادة من رب الأسرة حيث تتمتع بسلطة مطلقة، في حين على العكس من ذلك فإن جيرانهم حاحا متميزون بأنهم غير متعددي الزوجات والشياظمة يعددونها إذا سمحت الإمكانيات.

الشيظمي قوي، لكنه أقل طولا من العبدي [413]، نساؤهم جميلات والرجال معروفون بغيرتهم. وهناك مثل يقول بأن الشيظمي يخافه أعداؤه ويحتقره أعداؤه. "فالدرا كل منزل بها خائن، والحنشاني مستشار سيء، والكريمي لص"

ونجد من التجمعات السياسية التي تعتبر في المغرب لفوفا عصبة الشياظمة الذين يتشكل حلفاؤهم من اولاد بو السبع ونصف من حاحا، وأما النصف الأخر من حاحا فهم أعداؤهم لكن تقسيما داخليا يقسم الشياظمة إلى قسمين عدوين واحد حليفه عبدة والآخر متوگة[1]. ويقسم المخزن الشياظمة إداريا إلى أخماس، وبعض المرشدين يقولون إلى أرباع. ويتكون الخمس كوحدة ترابية ومصدر لأداء الضريبة، وتتكون من عشرة أفراد. والوحدة الاجتماعية هي الكانون يقدر عادة بثلاثة أفراد، رجل وامرأة وطفل.

اندثر هذا التقسيم أمام حلول ضريبة الترتيب أمام الضرائب الإسلامية القديمة. .. قد أشرفت حاليا لجن مكونة من أمين وعدلين على إحصاء بقيادات الشياظمة لإحصاء عدد ممتلكات كل واحد منهم في سجل يسمى الدفتر. لم يطبق هذا الترتيب فمنذ 1903، لم يؤد الشياظمة مثلهم مثل القبائل الأخرى الضرائب بانتظام، مما يضطر القياد إلى نزع "إسهامات" السكان بالعنف.

ما يميز الشياظمة وجيرانهم هو حضور هذه القبيلة "الصالحة" من الصلحاء لرگراگة وبالفصحى (رجراجة) [414] وزواياهم الأربعة والعشرون، وأضرحتهم المتعددة. يدعي الشياظمة أن هؤلاء الصلحاء هم فخذة أو عائلة من سلالة العرب الفاتحين، لكن على العكس من ذلك تقول أسطورة ركراگة ما يلي:

1- الأحداث الأخيرة غيرت هذه التحالفات التقليدية، فكل الشياظمة ناصرت مولاي حفيظ وانضمت إلى آيت گيلول ومتوگة من أجل محاربة ال"قايد" أنفالوس، وقاعدة **garmison** موگادور (يناير 1908).

"نحن من الحواريين أتباع المسيح عيسى بن مريم، فررنا أمام الاضطهاد الدامي في السنوات الأولى للمسيحية. عندما جاء الرسول محمد بالقرآن عين ركراكة سبعة منهم لاستقبال الرسالة الإلاهية، وحملها إلى المغرب/ الغرب الإسلامي وهؤلاء السبعة هم:

سيدي واسمين، سيدي علي الكراتي، وسيدي حساين، وسيدي سْعيد السابق، وسيدي عيسى مول الوتاد، وسيدي علي السايح، وسيدي بولعلام في الطريق رجوعا مرض سيدي سْعيد، واضطر رفاقه أن يتركوه في رعاية مضيفهم، ووصلوا إلى هدفهم وجلسوا قرب رجلي النبي، وقال لهم رسول الله: كم أنتم؟ فأجابوه: كنا سبعة ومرض منا واحد. فكشف الرسول عن سلهامه ليظهر منه سيدي سْعيد مما جعلهم يسمون هذه المعجزة بالسابق.

لما أنهى ركراكة السبعة "تكوينهم" أمرهم الرسول أن يعودوا إلى بلادهم، ويُدخلوا إخوتهم إلى هذا الدين الجديد. وأعطى رسالة إلى سيدي واسمين وطلب منه أن لا يقرأها إلا إذا وصل إلى جبل الحديد. ولما وصل إلى بلاد أحمر على بعد مراحل قليلة من جبل الحديد فتح سيدي واسمين رسالة الرسول وقرأها، ووجد فيها أنه سلطان ركراكة وأن الله يحفظه، لكن المبعوث خاف أن يكون هذا التفضيل مثيرا لغيرة رفاقه فدفن الرسالة في المكان الذي فتحها فيه. وبعد مرور أيام، ولما وصلوا الهدف الذي حدده الرسول [415] أراد ركراكة أن يعلموا بالسر المقدس، فكشف سيدي واسمين عن السر، وحكى لهم مضمون الرسالة وحكى لهم عن تخوفاته، وأعلمهم بالمكان الذي دفن فيه الرسالة. ثم انطلقوا من جديد للرجوع إلى منطقة زيمة في بلاد احمر، عندما وصلوا وقع حادث غريب، حيث امتدت بحيرة زيمة في المكان نفسه الذي بني فيه ركراكة خيامهم بعد مرور عدة أيام."

الشيء الوحيد الذي يمكن الاحتفاظ به في هذه الرواية هو الأصل "البربري" لركراكة واعتناقهم الإسلام في المراحل الأولى من الغزو العربي. وتتمتع هذه الأسرة من الصلحاء بانسجام كبير، ولا تزوج فتيانهم إلا لمن يتوافر فيه عنصر الصلاح. وتحتفظ أخيرا بدور/موسم ركراكة وهو عبارة عن زيارة سنوية لأضرحة الأولياء المؤسسين تدوم أربعين يوما وتبدأ بأول خميس من شهر مارس، حيث تعطى الهدايا للشرفاء ومن يتمتع بحضوتهم.

وحضور هذه الأسرة "الصلاحية" وسلطتها الروحية لا تترك الفرصة بتاتا لأي طائفة أخرى للمنافسة ولا لأي تأثير ديني وخارجي، ولا يوجد أي شريف هام يسكن بلاد الشياظمة، ولا يستطيع السلطان فتح مظلته في بلاد ركراكة. ونجد في الشياظمة ثلاث "طبقات" اجتماعية سفلى مثل ما في كل الجنوب المغربي الدالة على كسل "البربر" وهم: الحراطين، والعبيد، واليهود، ويلتقي الحراطين والعبيد في نقطة العبودية أو التحرر منها، واليهود مستقرون ويمارسون في ملاحاتهم صناعاتهم/حرفهم المعتادة، أو رحل عندما تقتضي ظروف التجارة ذلك، ويعيش الكل تقريبا تحت حماية حام بربري أو عربي يختارونه من بين الزعماء المحترمين والذين يؤدون له ضريبة الذبيحة. وسندرس أولا "طائفة" ركراكة التي تكون [416] "الأرستقراطية الدينية" للقبلية ثم القيادات الخمس للشياظمة.

ركراكة

لركراكة أربع وعشرون زاوية، اثنتا عشرة كبيرة، واثنتا عشرة صغيرة، والتعليم الملقن فيها ليست فيه أي قيمة مضافة، اللهم ربطها بصفة خاصة بفعالية التداخل بين الأولياء والأسرة الكبيرة. وأتباع الزاوية يحفظون القرآن والحديث وبعض الفقه الإسلامي.

والزوايا الكبرى هي:

سيدي واسْمين (تاوريرت)

وتقع زاويته بجبل الحديد على أراضي أولاد عيسى، وهي تابعة "للقايد" الكريمي، وشيخها هو سيدي حامد بن المقيدم، ويسمى مقدمها الحاج محمد بن بلحايلة وعدد سكانها حوالي ألف ومائتي فرد ومائتا بندقية وأربعين فرسا. وتغذي هذا المركز عيون الماء الكثيرة.

سيدي علي الكْراتي

وهي زاوية توجد بجبل كرت بين المناصير وبوطريطيش تابعة "للقايد" الكريمي، وزعيمها هو سي أحمد بن عبدان، وتشتمل على خمسمائة كانون، وثلاثمائة بندقية، وعشرين فرسا، وتغذيها عيون الماء. وسوقها الأسبوعي ينعقد كل يوم ثلاثاء (بسوق الثلاثة)

تالمست

توجد شرق جبل كرت وبين زاوية كرت والمخاليف، وبوطريطش، وهي تابعة للقائد المغوغي، وزعيمها هو سي محمد ولد الهاشمي مقدم كل ركراكة، وتشتمل على ألف ومائتي فرد، ومائتا بندقية وخمس عشرةفرسا، وهي زاوية الشرفاء من سلالة سيدي مگدول؟ وهي "تغلق" ضريح سيدي عبد الجليل، وتغذيها عدة عيون مياه.

بوطريطش [417]

توجد بين تالمست، وسيدي علي الكراتي، والمخاليف، وأغيسي والنعيرات وهي تابعة "للقايد" الكريمي، وزعيمها سيدي المكي، وتشتمل على خمسمائة كانون وأربعمائة بندقية، وعشرين فرسا وعيون الماء.

سيدي احساين مول الباب

ويحمل هذا الضريح اسم مول الباب لأنه يتحكم في "فيضانات" الواد بهذا يستطيع أن يسمح أو يحد من هجرة السكان. و يوجد في مدخل واد تانسفيت على أراضي أولاد الحاج تحت نفوذ "القايد" الحاجي، وإدارة ولد سيدي علال. وتشتمل على خمسمائة كانون ومائة وخمسون بندقية وعشرة خيول.

أقرمود

في أراضي أولاد عيسى، قيادة الحاجي، وتحت إدراة سي محمد بوبلوغ. وتشتمل على مائتي كانون، ومائة وخمسين بندقية، وخمس عشرة فرسا بها "نطافي" وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار.

سكياط

وتوجد على واد تانسفيت بين النجوم، والمخاليف، والمزيلات، تحت قيادة أكَرام المغوغي، وتحت إدارة الشيخ سي عمر الفرقوشي ومقدمها هو ولد الفقيه السكياطي، وتشتمل على مائتين وخمسين كانونا، ومائتا بندقية وخمس عشرة فرسا، بها وديان وآبار و"نطافي".

أمزيلات

توجد بين النجوم، ومداغة، وسكياط، ومْرامْر، تحت قيادة "القايد" أكَرام المغوغي، وتحت إدارة سي محمد بويكيل. وتشتمل على مائتين وخمسين كانونا، ومائتي بندقية وخمس خيول وآبار بعمق حوالي عشرةأمتار.

مرامر (الصويرة الجديدة)

توجد بين مدانة، وأمزيلات، وأولاد بو السبع، وأهل الحارث تحت قيادة أكَرام المغوغي. ويديرها سي الحبيب الحايل، وتشتمل على مائتين وخمسين كانونا، ومائتي بندقية، ولا توجد بها خيول. يجري بها واد مرامر وعدة عيون الماء.

سيدي بولعلام

توجد بين مداغة، والنعيرات، تحت قيادة "القايد" الكريمي، وشيخها هو سي الطاهر أخ "القايد" الكريمي، يديرها سي عبد الله ولد حسينة، وتشتمل على ستمائة كانون وخمسمائة فرس، بها "نطافي" وآبار بعمق حوالي خمس عشرة مترا، وعدة دوالي عنب تعطي عنبا حلوا جدا.

أغيسي

توجد بين الحنشان، وبوطريطش، وسيدي يعلى الكريمات، تحت قيادة "القايد" الكريمي ومن أعيانها: سي دحمان وسي بويه، بها أربعمائة كانون وثلاثمائة بندقية، وخمس عشرة فرسا بها نطافي ماء وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار [418].

سيدي سعيد السابق

سبق أن شرحنا أصل التسمية، وتوجدالزاوية وسط أسايس قرب متوكَة، وهي تحت نفوذ "القايد" الكريمي، وأهم شخصية فيها هو سي المكي، ونعد بها حوالي مائة بندقية بها عيون الماء والسواقي تغذيها.

والزوايا الإثنتا عشرة الصغيرة هي تجمعات من عشر ة إلى إثني عشر كانونا وهي:

1 - سيدي عبد الله أو سْعيد، يوجد بمسكالة تحت نفوذ "القايد" المسكالي.

2 - سيدي عبد النعيم في بلاد أولاد بونجيمة، تحت "قيادة" الكريمي.

3 - أهل تاگنت في بلاد مداغة قيادة "القايد" أگرام المغوغي.

4 - سيدي عيسى بوخابية، على واد تانسيفت بين أولاد الحاج، والمناصير وتحت "قيادة" الحاجي.

وتشير الأسطورة إلى أن سيدي عيسى هو على رأس فرقة صغيرة من المجاهدين، حيث نهج استراتيجة خاصة لكي لا يظهر للأعداء، ضعف أعداد تابعيه، حيث كان يصبغ بعد كل معركة ملابس أتباعه بألوان مختلفة تارة ب"خياديس"، وتارة بألبسة صحراوية وتارة ببرانس بيضاء... ولازال الناس لحد الآن يزورون قرب الزاوية "حوضا" للصباغة (خابية) تستعمل في إعداد هذه الصباغات. تشتمل الزاوية على مائة وثلاثين طالب، ويدير أمورها الفقيه سي عبد الله بلحفيظ التالمستي.

5 - سيدي عيسى مول الوتاد ويقال أيضا مول الوليد، وتوجد هذه الزاوية بأراضي النعيرات تحت قيادة "القايد" الكريمي.

ويستمد سيدي عيسى اسمه من المجهودات التي بذلها من أجل إخضاع القبائل "البربرية" المتمردة على سلطة رگراگة في حين أن رفاقه [419] كانوا يدعون على الناس بالسخط والوباء والحرارة والسعار، وضرب له الأهالي وتدا في الصحراء، وكان كل يوم يجمع في هذا السكان من خرج منهم على سلطة الحواريين الستة. ويحكى أنه طلب من سيدي إحساين مول الباب أن يهيج أو يفيض واد تانسيفت للحد من هجرة السكان "البربر".

6 - أيت بن تاهريا توجد بين أولاد عيسى ويعلى، والدرا تابعة لل"قايد" المسكالي.

7 - سيدي عبد الله بن واسمين، بأراضي الحنشان قرب سوق الثلاثاء تحت حكم "القايد" الكريمي.

8 - مولاي بوزرقطون بأراضي الكريمات، قيادة الكريمي.

9 - سيدي بن إبراهيم بأراضي الكريمات قيادة الكريمات.

10 - سيدي سعيد بوغنبور بأراضي أولاد سعيد، قيادة الحاجي.

11 - سيدي بويعقوب بأراضي أولا عيسى، قيادة الكريمي.

واعتكف سيدي بويعقوب للعبادة بجبل الحديد، إذ يراقب من أعلى هذا المكان السواحل حيث يحاول المسيحيون أحيانا الرسو بها، وقبته البيضاء مميزة في أعلى الجبل، وهي خالية وعارية، والقبر/ الضريح يوجد في تابوت من خشب مغطى بقطعة ثوب بالية. وبجانبه يوجد ضريح آخر لم يستطع مضيفنا تحديد اسمه. وتوجد غرفة بطول خمسة أمتار وعرض حوالي مترين، تستعمل مسجدا للزاوية والواجهة الأمامية المتجهة إلى الشرق يوجد بها المحراب الذي يدخل منه الإمام لآداء الصلاة. وأخرى خاصة بتعليم الأطفال، ولا يوجد بالزاوية إلا خمس كوانين.

12 - سيدي يعلا، وهي زاوية موجودة بين أولاد عيسى، أغيسي، والحنشان وبوطريطش تحت قيادة "القايد" الكريمي [420].

التقسيم السياسي

تنقسم الشياظمة إلى لفين يسميان لحلاف "الدروع"، وتنقسم الأراضي إداريا إلى خمس قيادات.[1] تنظيمها على الشكل التالي:

- أولاد الحاج، ("القايد" احمد الحاجي، خمسائة وخمسون فرسا وستة آلاف بندقية) ويتكونون من : اطلعة، وأولاد عيسى، والمناصر، وأولاد الحاج، وزاوية أقرمود، وزاوية أرتانة، وزاوية بوطريطش)

- الكريمات، "القايد" سي محمد بلحاج حماد بلعياشي الكريمي : ألف وخمسمائة فرس، ثمانية آلاف بندقية. وتتكون من: أهل الكريمات، وأولاد بونجيمة، ومرامر، والحارث، والنجوم، ولمخاليف، وزاوية كرُات، وزاوية آيت باعزي، وزاوية بولعلام، وزواية امزيلات.

- مسكالة، "القايد" الحاج الحسن بلحاج مبارك خوبان المسكالي: ألف ومائتا فرس، ثمانية آلاف بندقية. وتتكون من: أهل مسكالة، والمواريد، وأساكا، والدرا، والحنشان، وحسان، وقسيمة، وزاوية تاوريت، وزاوية تالمست، وزاوية سكياط [421][422].

1- سنذكر هنا على سبيل المثال السياسي للمغرب، وتجميع عمالة الشياظمة في نيابر 1908، وسنرى أن التغييرات العميقة بين وقعت بين 1905 و1908 في تقسيم القبائل، حيث أعطى السلطان مولاي عبد العزيز بطريقة غير رسمية "قيادة" كل الشياظمة للقايد الكريمي. من أجل ضمه إليه ضد مولاي عبد الحفيظ.

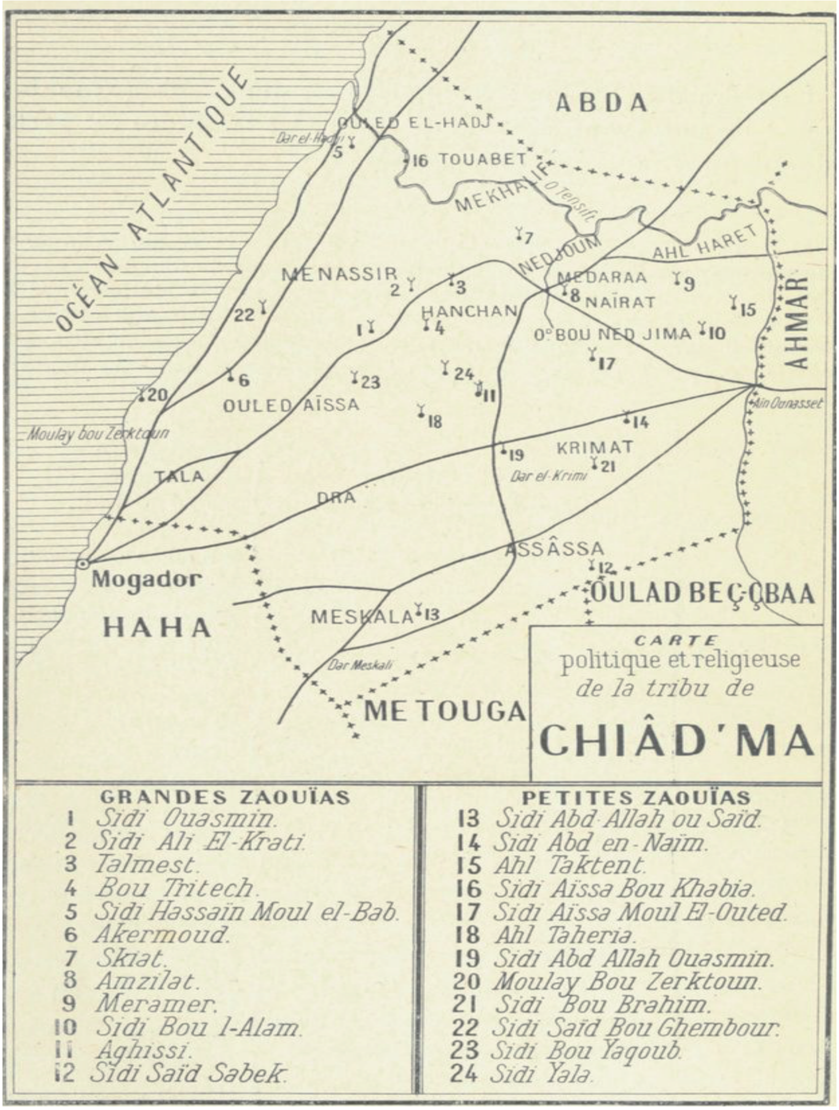

أولا: لحلاف ويتكونون من :

1 - اولاد الحاج: (اولاد الحاج، واولاد عيسى، والطلعة، والمناصر.)

2 - "القايد" أكرام المرامري: (مرامر، والمداغة، واهل الحارث)

3 - "القايد" الغرديوي المغوغي (النجوم، والثوابت، ولمخاليف)

ثانيا : الدروع، ويتكونون من :

1 - "القايد" سي محمد العياشي الكريمي (الكريمات، واولاد بونجيمة، والنعيرات)

2 - "القايد" الحاج لحسن ولد خبان المسكالي (المواريد، والدرا، والحنشان، ومسكالة)

أولاد الحاج

أعيانها: "القايد" حماد الحاجي، والشيخ سي دحمان، ولد بونوالة، وسي محمد زو، والقرشي، وأحمد ولد غريدو، وأولاد بن دولة. سوقها: الخميس (أولاد سعد). تنظيمها كالتالي:

حيث يتكون أولاد الحاج من : (حافر النجر، وأفّورار، والوكزة، وأولاد عميرة، والسوفر). زاويتها: سيدي الحسن مول الباب، وزاوية رتنانة (الشيخ ولد سي الطاهر بن علال) وسيدي عيسى بوخابية، سيدي سعيد بن التاهريا (قرب دار "القايد")، سيدي علي المعاشات، سيدي محمد القطبي، سيدي مول الدنيا، مولاي عبد السلام. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار [423]. أرضها: هضبية، وكثيرة أشجار الأركان، وكثيرة الحجارة. فلاحتها: الحبوب. منافذها: آسفي والصويرة. طرق المواصلات بها: طريق آسفي وموگادور. حدودها: شمالا: عبدة (لغيات) وشرقا : التوابت، وجنوبا: المناصر، غربا: البحر.

أولاد عيسى

أعيانها: عيسى الأعور (أولاد خليفة) وعبد الله ولد مبارك (أولاد علي)

تنظيمها: يسكن أغلب أولاد عيسى تحت "النوايل"، وهم مجتمعون حول زواياهم او سكن شيوخهم على الطريقة التالية:

- أولاد علي : (الگرامطة والكُحل {زاوية سيدي علي بن سعيد، وزاوية ستة وستين}، الكُحل، وسيدي واسمين وسيدي بويعقوب).

- أولاد خليفة (سيدي علي بوعالي وإفري ودار "القايد" الرگراگي "هذا القائد في السجن الآن" الزوايا: أقرمود، وسيدي واسمين، وأهل التاهريا، وسي بويوب، وسيدي سعيد بوغنبور. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي أربعة إلى خمسة أمتار، عيون سيدي واسمين وأسوافير. أرضها: سهل وهضاب. فلاحتها: حبوب، عنب، "البساتين والعرصات". منافذها: آسفي وموگادور. طرق المواصلات بها: الطريق من آسفي إلى موگادور. حدودها: شمالا: المناصير، وشرقا: الحنشان، وجنوبا: الدرا، والطلعة، وغربا : البحر.

الطلعة

أعيانها: "القايد" بوجمعة الذي قتل مؤخرا (يناير 1908) ويسكن قرب السيد سيدي عامر، والشيخ محمد ولد مسعود (ظهر الگديم)، أولاد الرايس عمر [424]تنظيمها: يسكن سكانها تحت "نوايل" مجتمعين حول منازل شيوخهم أو السادة (الأضرحة) على الطريقة التالية.

المناصير : ويتكونون من (الشيخ سي قدور بلعربي، والشيخ الخضر، والسيد / الضريح سيدي صالح، (على شط البحر) و"السيد" عبد الله البطاش (طريق آسفي) وسيدي إسحاق، ودار سي بوشعيب الروحي، وغابة خرب الكُحل):

زاوية سيدي علي الكراتي: المياه بها: نطافي، آبار بعمق حوالي سبعة إلى ثمانية أمتار بسيدي إسحاق. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة والأشجار. فلاحتها: الحبوب. منافذها: آسفي وموكادور [524]. طرق المواصلات بها: طريق آسفي وموكادور. حدودها: شمالا: أولاد الحاج، وشرقا: المخاليف، وجنوبا: أولاد عيسى، وغربا: البحر.

المدارعة

أعيانها: سي محمد ولد أحمد، عبد الله أكورام ("قايد"). سوقها: الأحد. القرى: الصويرة، ملاح وعدة قرى صغيرة. الزوايا: تكتنت، ومرامر، وامزيلات. المياه بها: الآبار. أرضها: سهلية ومحدودبة. فلاحتها: الحبوب والعنب. منافذها: موكادور وآسفي. طرق المواصلات بها: الطريق بين مراكش وموكادور. حدودها: شمالا: النجوم وأهل الحارث، وشرقا: أولاد بو السبع، وجنوبا: النعيرات، وغربا: الحنشان.

أهل الحارث

أعيانها: ولد بلمقدم وسي العياشي. تنظيمها: عبارة عن دواوير وبعض المنازل المتفرقة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثمانية إلى عشرة أمتار. أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. منافذها: آسفي والصويرة. طرق المواصلات بها: طريق آسفي وموكادور. حدودها: شمالا وشرقا: أحمر، وجنوبا: المدارعة، وغربا: النجوم.

الكريمات

أعيانها: "القايد" سي محمد العياشي ولد سعيد الكريمي، الشيوخ، وأعمامه وإخوته سي حمو القرد، وسي الحاج حسينة، وسي عمر، وسي الطاهر بلمامون، ولد إدار. سوقها: الجمعة [426] تنظيمها: الشيخ سي حمو القرد، وعم "القايد"، غني جدا وقوي. والعنتيري، الشيخ الحاج حسينة (غابة كشولة ونزالة المقدم مسعود وتفتاشت). - مستمو، الشيخ ولد إدار (عين أومست، غابة متوبزان) لكبيبة، الشيخ سي عمر ولد "القايد" (الضريح سيدي محمد بن ابراهيم وسوق الجمعة)، بير الفايض، الشيخ: ولد بلبزار (آيت بلبزار) الزوايا: تيليوة وزاويتها سيئة الذكر يديرها الشيخ ولد الحفيظ، وبوطريطش (قرب أقرمود) الفقيه البوطريطشي، وسيدي بولعلام والشيخ سي الطاهر، أغيسي (شرفاء إدريسيون، الشيخ ولد مولاي بوفاش وبوبراهيم، وسيدي صالح). المياه بها: واد تفتاشت وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار. أرضها: سهلية ومحدودبة. فلاحتها: الحبوب، بعض بساتين الخضر. منافذها: موكادور. طرق المواصلات بها: الطريق الرابطة بين موكادور ومراكش.

الدرى

أعيانها: "القايد" خبان المسكالي (انظر الشيوخ أعلاه). سوقها: الأحد، زاويتها مجاط، سي أحمد الحمري، سيدي كانون، سيدي يحيى. المياه بها: عين الحجر وآبار بعمق حوالي ثمان إلى عشرة أمتار. أرضها: سهلية [427]. تنظيمها: أوناغة، الشيخ علال. وتتكون من: ضريح سيدي سعيد طلحة، وجاونة، والرويسات، وسيدي التهامي العيور، وآيت بلكروم، وسيدي محمد الحمري، وبلخراز،

والنبوبة (آبار مشهورة) والحسن المنحير وبوجلاح وبير سليم. وأولاد ميمون ويتكونون من (الشيخ سي علال ولد الحاج الطاهر، والبكارة، والمسيم "الشيخ حودان") وأولاد الحاج الشيخ عبد القادر بلباز "مترازة"، الشيخ سي محمد ولد الحاج قدور والراحات، والشعب، وزمانات "الشيخ أنور" و"عين الحجر" "الشيخ عمر أبلوش" و"الشيخ سماعين" وزاوية سيدي يحيى، والشيخ سيدي احميدة الگروج ومولاي عنزة "مترازة" وسيدي علي برحمون "السيد/ الضريح، المدرسة، القبة" والربيعة "آيت علال، الشيخ ولد گطوة، الصوالحة، مدرسة سيدي بولحروق، الفقيه، غويبة عياد، الشيخ محمد ولد ماناحو"[428] دار سي علال، الجمعة، سوق الحد، ديور الحد، الفقيه ولد بوعون، الطالب المدني، آبار بعمق ثلاثة أمتار. تابية، صبايطة، مدرسة، الضريح، رجل بير السدرة، آيت خليفة، الشيخ مبارك الفاتح، آيت بن حامد، القليلة، دار الفقيه بوجمعة، زاوية آيت التاهرية، زاوية أيت "القايد" السيد / الضريح سيدي بولنوار". اولاد عيصام، ويتكونون من : (أولاد كركور، وآيت بوزيد، ودار عمارة وغابة البرجة، وآيت الحاج الركراگي، ودار مبارك وسرتيه (سهل) ودار الحاج الطاهر، ودار الشيخ الحودان "من بگارة أو مسيم") والرميلة، ويتكونون من : آيت الحاج عبد الله والحاج النجمي بولجم والحاج علي بن المعطي. وآيت البشير، الشيخ الحاج أحميدة ولد بوخلوف. وزاوية نگوية، الشيخ سي كنون، المقدم سي العربي. وولد سيدي حيدة، الشيخ سي عبو. وأگادير الگنين والمحلة والدوا وتسيرة ودار عامر ولبراوزة. زاوية دار الضمانة [429].

فلاحتها: الحبوب والعنب. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا: أولاد عيسى، وشرقا: الحنشان، وجنوبا: مسكالة، وغربا: حاحا، الطلعة.

أولاد بونجيمة

أعيانها: الشيخ سي الطاهر ولد الخرطة، عمر الأعرج. عبارة عن دواوير ومنازل. زاويتها: سيدي عبد النعيم. المياه بها: عين أماسات آبار بعمق حوالي ثلاثة "أمتار. أرضها: سهلية ومحدودبة. فلاحتها: الحبوب. منافذها: الصويرة. طرق المواصلات بها: الطرق من موگادور وإلى مراكش. حدودها شمالا: النعيرات، وشرقا: أولاد بو السبع، وجنوبا: الكريمات، وغربا: الكريمات.

النعيرات

عبارة عن دواوير ومنازل. الزوايا: سيدي بولعلام (انظر الكريمات). المياه بها: آبار بعمق حوالي ستة إلى سبعة أمتار. أرضها: (سهلية). فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق مراكش عبر مرامر. حدودها: شمالا: المدارعة، وشرقا: أولاد بو السبع، وجنوبا: بونجيمة، الكريمات، وغربا: الحنشان، المخاليف.

الحنشان

أعيانها: مبارك بن علي، أحمد الحنشان باقنيش، سوقها: ثلاثة لقدادرة، خميس تاقات. [430] تنظيمها:

- لقدادرة ويتكونون من : الشيخ مبارك بن علي ولد باقنيش غابة كشولة (بين لگدادرة وقسيمة، ودار ولد بلا أوزروال (أطلال) وزاوية سيدي عبد الله بن واسمين.

- تاكاط ويتكونون من : إفولوسن (جماعة) والمغازي، مدرسة الفقيه البشير جداير (خمسون طالبا) وغابة غليزوس، والشيخ عمر ولد زايدة، والشيخ ولد محروق وسي محمد الكيحل. زاويتها: سيدي عبد الله واسمين، وسيدي محمد بن واسمين وسيدي يعلى. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمسة إلى ثمانية أمتار، عين ثلاثة. أرضها: منبسطة (سهلية). منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا: المخاليف، وشرقا : النعيرات، مسكالة، وجنوبا : الدرى، وغربا: أولاد عيسى.

مسكالة

أعيانها: "القايد" الحاج الحسن بن الحاج مبارك خبان المسكالي، القاضي سي أحماد، محمد القريز ولد سي أحمد بن مبارك. سوقها: خميس الخطارات، اثنين المواريد. تنظيمها:

- الخطارات، (دار "القايد"، سوق الخميس / والسِّيد/(الضريح) سي عبد الله، وسعيد (مدرسة) والفقيه الحراري (سهل تاينيت، الملاح [431]

- أيت بن السليخ (أربع منازل قرب دار "القايد") وتيوت إقامة الشرفاء الدريسيين من طائفة الناصريين والشيخ مولاي مبارك شمير والصبابحة، الشيخ الحاج أحمد أخ "القايد".)

- أوگدال، (الشيخ ولد الحاج البشير، والشيخ الحاج مبارك ولد سيد أحمد مبارك، وآيت بن كرك، الشيخ ولد الهزالي الحمري)

- الشيخ سي محمد ولد سي اعمارة والمحرشة، الشيخ المعطي المحرشي، وزاوية سيدي اعمارة، الشيخ سي محمد ولد سيدي عمارة، وزاوية مزا، الشيخ سي أحمد وزاوية الفويرات، الشيخ سي محمد بن احميدة).

- المواريد، (سوق الاثنين وزاوية سيدي سعيد السابق السيد / الضريح والشيخ سي حمو الموردي، عين ماء. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثلاثة إلى خمسة أمتار. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق مراكش عبر إمنتانوت. حدودها: شمالا: الكريمات، وشرقا: العساعسة، وجنوبا : حاحا، وغربا : الدرا، والحنشان.

العساعسة

أعيانها: بلعيد ولد الحاج عبو، سي أحمد بن المكي. سوقها: الاثنين [432]. المياه بها: عيون وآبار قليلة العمق. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق مراكش إلى موگادور. حدودها: شمالا: الكريمات، وشرقا: أولاد بو السبع، وجنوبا: متوگة، وغربا: مسكالة.

النْجوم

أعيانها: "قايد" سي سعيد النجومي. سوقها: جمعة سيدي العروسي. تنظيمها: دار "القايد" مهدمة منذ عشر سنوات، الشيخ سي محمد بلقدور. زاوية سيدي علي العروسي (الشرفا)، سيدي عيسى مول الوتاد، والسكياط. المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرين إلى أربعين مترا، واد تانسفيت. أرضها: منبسطة وجبلية. فلاحتها: الحبوب والعنب. حدودها: شمالا: عبدة، وشرقا: أهل الحارث، وجنوبا: مداغة، وغربا : المخاليف.

التوابت

أعيانها: الشيخ علي التبتي. سوقها: الأحد. تنظيمها: دار الشيخ التبتي، زاويتها سيدي عيسى بوخابية، الخنگ (قرب واد الخنگ). المياه بها: النطافي، واد تانسفيت. أرضها: منبسطة وهضبيةكثيرة الأشجار. فلاحتها: الحبوب. منفذها: موگادور، آسفي. طرق المواصلات بها: طريق موگادرو إلى عبدة. حدودها: شمالا: عبدة، وشرقا : المخاليف، وجنوبا : المناصير، وغربا: أولاد الحاج. [433]

لمخاليف

أعيانها : الشيخ سعيد المخلوفي . زاويتها : تالمست، بوطريطش (انظر الكريمات). المياه بها: النطافي. أرضها: منبسطة وهضبية كثيرة الأخشاب. فلاحتها: الحبوب. منفذها: من موگادور إلى آسفي. حدودها: شمالا: عبدة، وشرقا: النجوم، وجنوبا: الحنشان، وغربا: المناصر، التواتب [434].

الفصل العاشر

أولاد بو السبع

أولاد بو السبع قبيلة عربية كبيرة من الصحراء. ومازال القسم الأكبر من القبيلة مستقرا في ضواحي الساقية الحمراء، والفخذة المعنية هاجرت إلى الحوز منذ حوالي مائتي سنة وتنقسم إلى قيادتين. "القايد" مبارك بن البشير (أولاد الغازي، وأولاد الحاج). و"القايد" محمد الراح (وأولاد عمران). وحدود هذه القبيلة هي: شمالا: أحمر وتكنة، وشرقا: مجاط ومزوضة، وجنوبا : دويران وسكساوة ونتيفة ومتوگة، وغربا: الشياظمة.

أولاد الغازي

أعيانها: عبد الله "القايد"، سي احميدة بن الطاهر. تنظيمها: بعض المنازل والدواوير أولاد جرنة، العبابسة، الهلالات، أولاد عبد المولي، أولاد شنان، الكريمات. إحصاؤها: مائة فرس، أربعمائة بندقية، خمسمائة كانون. أرضها: منبسطة. ومنتوجاتها: الحبوب وبساتين الخضر. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. منفذها: موگادور، مراكش [435]. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : أحمر، وشرقا : احمر وأولاد عمران، وجنوبا: أولاد إبراهيم، وغربا: الشياظمة.

الحجاج

أعيانها: سي عبد الجليل بن المدلشي، ولد أغناج، سي الطاهرولد علي ولد بيهي، محمد ولد الكحل. تنظيمها: بعض المنازل والدواير، أولاد بكار، أولاد الزاوية، أولاد عيسى، أولاد بوعنگة. أرضها: منبسطة. ومنتوجاتها: الحبوب. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي ثلاثة إلى عشرين مترا. منفذها: موگادور، مراكش. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا: أحمر، وشرقا: تكنة، ومجاط، ومزوضة، وجنوبا : دويران، وسكساوة، أولاد عمران.

أولاد إبراهيم

أعيانها: "القايد"محمد يرعاه، إبراهيم بن محمد، عبد الجليل ولد الكوري، محمد ولد بوجمعة. تنظيمها: وعبارة عن منازل ودواوير، لعبيدات، الدميسات أولاد مومنة أولاد صغيري، ولمدادحة، لمزازكة. سوقها: الأربعا. إحصاؤها: مائة فرس، أربعمائة بندقية، ستمائة كانون. زاويتها: سيدي المختار. أرضها: منبسطة. ومنتوجاتها: الحبوب. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي ستة أمتار. منفذها: موگادور، مراكش. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا: أولاد الغازي، وشرقا: أولاد عمران، وجنوبا: متوگة، وغربا: الشياظمة.

أولاد عمران

أعيانها: محمد ولد موسى، أحمد بن لومين، حسن ولد المقدم. تنظيمها: عبارة عن منازل ودواوير، اولاد عبد الله بن مبارك أولاد بو حسين، دوار صفية. أرضها: منبسطة، المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. منفذها: موگادور، مراكش. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : أحمر، وشرقا : الحجاج، وجنوبا : انفيفة، متوگة، وغربا : أولاد إبراهيم واولاد الغازي. [437]

الفصل الحادي عشر

دكالة

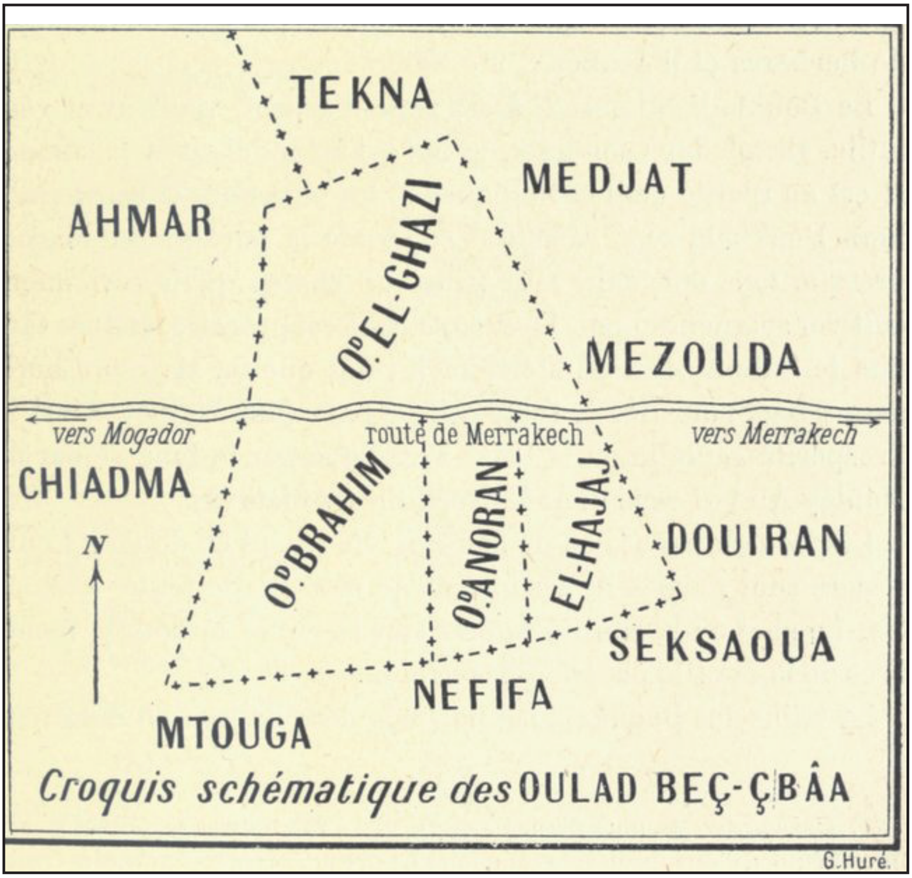

يقول دوتي: "دكالة مزيج من "البربر" والعرب"[1]

والدكالي طويل القامة، ذو طابع قوي مغرور: يلتحف حايكه. يبدو متسامحا ومسالما، ولكنه في الواقع حركي ومولع بالقتال، والبغّالة والجمالة الدكاليون معروفون في كل مناطق المغرب، ولهم كلهم تقريبا في قبائلهم حقول يعودون للعناية بها باهتمام، ووفاؤهم واضح ومتين مادام السلطان مستقرا بمراكش وبمجرد ما يغادر جلالته، في اتجاه آخر يتوقف الدكالي عن أداء الضريبة، وهكذا تفسر الرفاهية الحالية للقبيلة "بالإقامة الطويلة لمولاي عبد العزيز، في شمال مناطق حكمه"[2]

لدكالة منازل قليلة، ويعيشون في دواوير مكونة من خيام و"نوايل"، ويعيش رب العائلة تحت خيمة، وباقي أفراد الأسرة بالنوالة. وقبيلة دكالة تنقسم عادة إلى خمس قيادات [439]،

1- سبق لدوتي أن أشار في "النسخة الأولى" لكتاب "مراكش" أن قدم في دراسته، وبطريقة مستفيضة "عادات وتقاليد دكالة، ولن نتطرق إلى هذا الجانب بعد أن أفصل فيه هذا الأستاذ الألمعي وسنقتصر على تنظيم القبيلة.

2- لقد تفادى دكالة بجد الانخراط في الأحداث الأخيرة، ومناصرة طرف على الآخر منهم لم يناصروا لا مولاي عبد العزيز ولا مولاي عبد الحفيظ، فهم مرتاحون أن يعيشوا تحت حكم "زروفاتهم" أي مستشاريهم، دون أن يؤدوا الضريبة لأحد.

ومقسمة إلى سبع عشرة قيادة[1]، سنقدم التقسيم العادي كما وصلنا، ونشير إلى التقسيم الحالي، والقيادات الخمس هي: أولاد بوعزيز. الحوزية، واشتوكة، والشياظمة، وبني عامر، وأولاد بوزرارة، وأولاد فرج، والعونات، وأولاد عمران.

أقسام دكالة

1 - أولاد بو عزيز (خمس) ويتكونون من: اولاد غانم، و الحياينة، والحراكتة، وأولاد عيسى، وأولاد دويب، وبني حسين، واولاد ربيعة، و اولاد سليم.

2 - التريات (خمس) ويتكونون من : الحوزية، واشتوكة، والشياظمة.

3 - أولاد عمر (خمس) ويتكونون من : الغربية، واولاد سبيطة، والزمامرة، والغنادرة، وبني يخلف، وبني مداسن.

4 - أولاد بوزرارة، ويتكونون من: بني هلال، وأولاد احمد، واولاد المسَلّم، وفطناسة، وأولاد جابر، وأولاد الطالب، واولاد رحال.

5 - أولاد فرج (ثلث الخمس) ويتكونون من: المهارزة، وأولاد عمارة، واولاد محمد، وأولاد سيدي مسعود بن حْساين.

6 - العونات (ثلث الخمس) ويتكونون من: بني سيريس، وأولاد يوسف، والبصرة، واولاد حميد، والمطران.

7 - أولاد عمران (ثلث الخمس) ويتكونون من: اولاد سعيد، وأولاد بوبكر، وأولاد صالح[440]

أولاد غانم

أعيانها: عبد القادر خو لحمر، وسي الغالي. سوقها: الثلاثا والجمعة. زاويتها: سيدي احمدبن مبارك. الآبار: آبار بعمق حوالي سبعة إلى ثمانية أمتار. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة، وغنية قرب سوق الجمعة. فلاحتها: الحبوب. منافذها: مازگان وآسفي. حدودها: شمالا: أولاد عيسى، وشرقا: الحياينة، وجنوبا: أولاد ربيعة و الوليدية، وغربا: البحر.

الحياينة

سوقها: السبت. زاويتها: مولاي عبد الله بن احساين وسايس. الآبار: بعمق حوالي عشرين

1- وتشكل هذه القيادات خمسة أخماس، تنقسم بدورها إلى قبائل [439].

- "القايد" الحاج مبارك، (أولاد غانم) و"القايد" ولد الحاج قدور (الحياينة وأولاد الدويب)، والقايد الحسين (الحراكتة، وأولاد عيسى، وبني حسين، وأولاد ربيعة، وأولاد سليم)، و"القايد" التريي (الحوزية، واشتوكة، والشياظمة)، و"القايد" أحمد الغربي (الغربية، واولاد سبيطة) "القايد" عبد السلام الزمامري، "القايد" عبدالسلام القنداري "القايد" بن عمار "القايد" أحمد الدرقاوي (الزمامرة، ولقنادرة، وبن يخلف، وبني مداسين.) "القايد" بلمهذي (فطناسة، أولاد جابر) "القايد" ولد حمادي (أولاد لمسلم) القايد "الحاج عبد القادر (بني هلال، واولاد الطالب) "القايد" بوعلي، (كل أولاد فرج) "القايد" عبد السلام، (البصرة، أولاد احمد، أولاد مطران) القايد" غالم، (أولاد يوسف، وبني سيريس) "القايد" سي قدور الحنيني، (أولاد صالح، وأولاد بوبكر) "القايد" عباس بلقدور، (اولاد سعيد)

مترا. أرضها: منبسطة ذات جودة وأراضيها هضبيةكثيرة الحجارة. فلاحتها: الحبوب والصبار. منفذها: مازگان حدودها: شمالا : الحراكتة، وشرقا : أولاد بن يخلف، وجنوبا: أولاد ربيعة، وغربا : أولاد غانم.

الحراكتة

عبارة عن دواوير، الآبار: آبار بعمق حوالي ستة إلى عشرة أمتار. منفذها: مازگان، آسفي. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا : أولاد الدويب، وشرقا: بني يخلف، وجنوبا : الحياينة، أولاد عيسى.

أولاد عيسى

سوقها: الأحد. عبارة عن دواوير [441]. زاويتها: سيدي غانم. المياه بها: عين سيدي عبد العزيز، آبار بعمق حوالي مترين إلى أربعة أمتار. أرضها: هضبية، وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: أولاد الدويب، وشرقا: الحراكتة، وجنوبا: أولاد غانم، وغربا: البحر.

أولاد الدويب

سوقها: السبت. االمياه بها : آبار بعمق حوالي خمسة وعشرين متر. أرضها: بها بعض الهضاب وكثيرة الحجارة ومنبسطة عموما. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي ومن مازگان إلى مراكش. حدودها: شمالا: أولاد حسين، وشرقا : الحراكتة، وجنوبا: أولاد ضليم، وغربا : البحر.

أولاد حسين

عبارة عن دواوير كبيرة. زاويتها: مولاي عبد الله بن أمغار، وتيط. الآبار: بعمق حوالي إثنا عشر إلى خمس عشرة متر. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي، وطريق مازگان إلى مراكش. حدودها: شمالا: مازگان، والحوزية، وشرقا: الحوزية، محرز وبني هلال، وجنوبا : أولاد الدويب، وغربا : البحر.

أولاد ربيعة

من أعيانها: سي محمد العروري. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي علي بن محمد [442]. المياه بها : آبار بعمق حوالي عشرين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي وإلى مراكش. حدودها: شمالا: الحياينة، وشرقا: الغنادرة، وبني يخلف، وجنوبا : أولاد سبيطة، وغربا: أولاد غانم.

أولاد سليم

عبارة عن دواوير. الآبار: بعمق حوالي ثلاثة إلى خمسة أمتار. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: أولاد الدويب، وشرقا: أولاد الدويب، وجنوبا : أولاد عيسى، وغربا : البحر الحوزية.

الحوزية

سوقها: الأربعا. عبارة عن دواوير ومدينة أزمور. زاويتها: مولاي بوشعيب (أزمور). الماء: آبار بعمق خمسة إلى سبعة أمتار، واد أم ربيع. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى مراكش، ومن مازگان إلى الدار البيضاء. حدودها: شمالا: نهر أم الربيع، أزمور (المدينة)، وشرقا : أولاد فرج، وجنوبا : بني هلال وغربا: أولاد حسين ومازگان.

اشتوكة

سوقها: الإثنين. عبارة عن دواوير ومدينة أزمور. زاويتها: سيدي بوبكر. المياه بها: آبار بعمق حوالي إثني عشر مترا ونهر أم الربيع. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان وأزمور. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى الدار البيضاء. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا : الشياظمة، وجنوبا : واد أم الربيع، وغربا: البحر.

الشياظمة

سوقها: الإثنين، مابين الشياظمة واشتوكة. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي بوبكر. الآبار: بعمق حوالي عشرة إلى إثني عشر مترا. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى الدار البيضاء. حدودها: شمالا: الشاوية، وأولاد عمارة، وشرقا : الشاوية وأولاد امحمد، وجنوبا: نهر أمر الربيع، وغربا: اشتوكة.

الغربية

أعيانها: سي أحمد بن عبد الله وأولاد الأمين. سوقها: الاثنين. عبارة عن دواوير. زاويتها: أولاد بن يفو. المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرة إلى خمس عشرة مترا. أرضها: محدودبات صغيرة، وسهول كثيرة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: أولاد سبيطة، وشرقا: أولاد صالح، وجنوبا: عبدة (التمرة) وغربا: عبدة (التمرة).

أولاد سبيطة

من أعيانها: سي أحمد السبيطي. عبارة عن دواوير، بالإضافة إلى حارة (الجذامى). زاويتها: سيدي علي بن رحال، وفي هذه الفخذة توجد حارة الجذامى. [444] المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرة إلى خمس عشرة مترا، بين سيدي علي بن رحال. أرضها: هضبية ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي ومازگان. طرق المواصلات بها: طريق من آسفي إلى مازگان. حدودها: شمالا : أولاد ربيعة، شرقا: الزمامرة، وجنوبا : الغريبة، وغربا: عبدة، الزمامرة.

الزمامرة

من أعيانها: "القايد" عبد السلام بلهاشمي. سوقها: الخميس. زاويتها: القواسم. المياه بها : آبار بعمق حوالي خمسة وعشرين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي ومازگان. حدودها: شمالا : الغنادرة، أولاد رحال، وشرقا : أولاد بوبكر، جنوبا: أولاد صالح، وغربا : أولاد سبيطة.

الغنادرة

من أعيانها: بن علال. سوقها: الخميس (بين الغنادرة والزمامرة). عبارة عن دواوير. المياه بها : آبار بعمق حوالي خمسة وعشرين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان وآسفي. حدودها: شمالا: بن يخلف، وشرقا : أولاد رحال، وجنوبا : الزمامرة، وغربا : أولاد ربيعة.

بن يخلف

من أعيانها: بن عمر. سوقها: الأربعا. عبارة عن دواوير. المياه بها : آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى خمسة وعشرين مترا [445]. أرضها: هضبية وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا: بني هلال، وشرقا : بني مداسن، وجنوبا : الغنادرة، أولاد ربيعة، وغربا : الحياينة والحراكتة.

بني مداسن

من أعيانها: سي علي بن الدرقاوي. عبارة عن دواوير. الآبار: بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. أرضها : منبسطة. فلاحتها : الحبوب. منفذها : مازگان. حدودها : شمالا : بني هلال، وشرقا: أولاد مسلم، وجنوبا : أولاد رحال، وغربا : بني يخلف.

بني هْلال

من أعيانها: الحاج عبد القادر الهلالي. سوقها: الجمعة. عبارة عن دواوير. الآبار: بعمق حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين متر. أرضها: هضبية، وكثيرة الحجارة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق من مراكش إلى آسفي. حدودها: شمالا: أولاد فرج، وشرقا: أولاد أحمد، وجنوبا: أولاد مسلم، بني مداسن، وبن يخلف، وغربا: أولاد الديب، أولاد حسين.

أولاد أحمد

من أعيانها: الحاج المعطي. سوقها: ثلاثاء سيدي بنور. عبارة عن دواوير كبرى. زاويتها: سيدي سعيد، القواسم، وورار [446]. المياه بها : آبار بعمق حوالي ثلاثين إلى أربعين متر. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر والعنب. منفذها: مازگان. طريق المواصالات: الطريق من مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا: أولاد بني هلال، وشرقا : أولاد جابر، فطناسة، وجنوبا : أولاد بوبكر، أولاد لمسلم.

أولاد لمَسلّم

من أعيانها: ولد أحمد. عبارة عن دواوير. المياه بها : آبار: بعمق حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا: أولاد أحمد، وشرقا : أولاد بوبكر، وجنوبا : أولاد رحال، وغربا: بني مداسن.

فطناسة

من أعيانها: المهدي ولد علي يعگوب. سوقها: ثلاثاء سيدي بنور. عبارة عن دواوير كبرى. زاويتها: سيدي سعيد، والقواسم، وورار [446]. المياه بها: آبار: بعمق حوالي ثلاثين إلى أربعين متر. أرضها:

منبسطة. فلاحتها: الحبوبو بساتين الخضر. منفذها: مازگان، مراكش. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى مراكش. حدودها: شمالا: أولاد جابر، وشرقا : أولاد حميد، وجنوبا : أولاد بوبكر، وغربا : أولاد أحمد.

أولاد جابر

عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار: بعمق حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. طرق المواصلات: طريق مازگان إلى مراكش [447]. حدودها: شمالا: أولاد الطالب، وشرقا : مطران، وجنوبا: فطناسة، وغربا : أولاد أحمد.

أولاد الطالب

المياه بها: آبار بعمق يتراوح مابين حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا : الشاوية، وشرقا : مطران، وجنوبا : أولاد جابر، وغربا : أولاد سيدي مسعود.

أولاد رحال

من أعيانها: بن إدريس. عبارة عن دواوير. المياه بها آبار: بعمق حوالي خمسة وعشرين إلى ثلاثين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا : بني مداسن، وشرقا: أولاد بوبكر، وجنوبا : الزمامرة، وغربا : الغنادرة.

المهارزة

المياه بها : آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين متر. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا: الشياظمة، وشرقا : أولاد محمد، وجنوبا : بني هلال، وغربا : الحوزية، أولاد حساين.

أولاد عمارة

عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة متر، نهر أم الربيع. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا: أولاد سيدي مسعود، وجنوبا: أولاد محمد، وغربا : الشياظمة [448].

أولاد امحمّد

عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار بعمق حوالي إثنا عشر إلى خمسة عشر متر. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا: أولاد عمارة، وشرقا : أولاد سيدي مسعود، وجنوبا : المهارزة، وغربا : الشياظمة.

أولاد سيدي مسعود بن حْساين

سوقها: ثلاثاء سيدي بنور. عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا : أولاد الطالب، وجنوبا : بني هلال، وغربا : أولاد امحمّد وأولاد عمارة.

بني سيريس

المياه بها: عدة عيون ماء وآبار عميقة بعض الشيء. أرضها: هضبية ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مراكش. طرق المواصلات بها: طريق من مراكش إلى الرباط. حدودها: شمالا: أولاد الديب، وشرقا : الرحامنة، وجنوبا : الرحامنة، وغربا : أولاد يوسف.

أولاد يوسف

من أعيانها: المصدق ولد العوني. سوقها: الخميس. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي سعيد، والقواسم، وورار. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة مترا. أرضها: هضبية ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مراكش ومازگان [449]. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا : البصرة، وجنوبا : الرحامنة، وغربا : المطران.

البُصرة

سوقها: الأحد. عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار بعمق حوالي إثنا عشر إلى خمس عشرة مترا. أرضها: هضبية ومنبسطة فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مراكش ومازگان. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا: بني سيريس، وجنوبا : الرحامنة، وغربا : أولاد يوسف.

أولاد احمد

عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي التونسي. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرة أمتار. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. حدودها: شمالا: الشاوية، وشرقا: أولاد يوسف، وجنوبا: أولاد حميد، وغربا: أولاد الطالب.

أولاد سعيد

من أعيانها: الحاج سعيد. سوقها: الأربعا. عبارة عن دواوير [450]. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان ومراكش. طرق المواصلات بها: طريق من مازگان إلى مراكش. حدودها: شمالا: أولاد بوبكر، وشرقا: أولاد دليم، وجنوبا: عبدة، وغربا: أولاد صالح.

أولاد بوبكر

من أعيانها: قاسم بن الجاوي. عبارة عن دواوير. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمسة وعشرين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر. منفذها: مازگان، ومراكش. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا: أولاد أحمد، فطناسة، وشرقا: الرحامنة، وجنوبا: أولاد سعيد، وغربا: أولاد رحال، الزمامرة، أولاد مسلم.

أولاد صالح

من أعيانها: سي قدور الهيني (الحيني). عبارة عن دواوير. المياه به: آبار بعمق حوالي خمسة وثلاثين إلى أربعين مترا. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: مازگان. طرق المواصلات بها: طريق من مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا: الزمامرة، وشرقا: أولاد بوبكر وأولاد سعيد، وجنوبا: عبدة، وغربا: الغربية [451].

الفصل الثاني عشر

عبدة والواليدية

يشير الكتاب القدامى إلى أن القبيلة العربية دكالة كان من فخذاتها حلف عبدة، ولم نستطع تحديد الفترة التي أصبح فيها هذا الحلف مستقلا ليصبح قبيلة عبدة، ثم انقسمت فيما بعد ذلك هذه القبيلة لتعطي قبيلة أحمر، ولا شيء يديم الروابط الأصلية التي تجمع عبدة بدكالة، ورغم ذلك توجد فروق دقيقة تفصل بين القبيلتين الاثنتين، لكن في المقابل نجد "قياد" أحمر يعترفون بقيادة "قايد" عبدة. وقصة عبدة مرتبطة بقوة بتاريخ المغرب، فقد كانت القبيلة خاضعة دائما للمخزن وكانت "الزبون" والحليف للبرتغاليين ضد هجومات الشياظمة التي يقودها رگراگة. وعند مجيء مولاي الحسن كانت القبيلة منقسمة إلى أربع قيادات، فجمع السلطان (الفخذات الأربع تحت قائد واحد)، هو "القايد" عيسى سليل إحدى أقدم القبائل العربية (حمير)، وعندما توفي تولى ابنه بن عمر بن عيسى، ثم خلفه ابنه مُحمّد بن عمر أخ "القايد" الحالي (1908) سي عيسى بن عمر.

وعندما توفي السلطان مولاي الحسن، اختل التنظيم الذي كان قد وضعه، فثارت عبدة ضد قائدها مستعينة بسكان آسفي، وعمد "القايد" سي عيسى المدعم فقط من قبيلته إلى التحالف مع دكالة وسحقهم، ومنذ ذلك الحين يحكم المجال دون منازع وبعدما [452] كان مهابا أصبح محبوبا، والتقيت به منذ أربع سنوات عندما اعتقله السلطان مولاي عبد العزيز الخائف من سلطته، وكاد كل الحوز يثور، وانتهى الأمر بإطلاق سراح "القايد" والحد من سلطته وكان لهذا الإجراء تأثير على معنوياته.

يمكن أن نقول إنه سيد الغرب المغربي مثل ما أن "القايد" الگلاوي سيد الجنوب. ومصدر ثروته هو من منتوجات أراضيه الكثيرة، وليس من إدارته، فهو "قايد" نواة صلبة من الخيالة عددها ألفا فارس اختارها من أقاربه، ومسلحة ببنادق سريعة الطلقات، ويستضيف يوميا أكثر من ألفي ضيف، وهو مغرم كثيرا إلى حد الإدمان بالصيد والبساطة، ويتهمه أعداؤه الكثيرون بقساوته التي تصل إلى حد البطش[1]. ولا يعيش ناس عبدة في القرى، فللأغنياء منازل، ويسكن حولهم خدامهم وحراسهم في "نوايل".

وتنقسم عبدة مثلها مثل القبائل المخزنية، إداريا إلى أخماس، وتتكون من ثلاثة أخماس مقسومة إلى أيادي (جمع يد). ويتكون اللف السياسي لعبدة من قبائل أحمر والشاوية وقسم/نصف الشياظمة ونصف حاحا. ويتكون اللف المعادي من دكالة، وأولاد بو السبع، ومتوگة، والنصف الآخر من الشياظمة وفخذة من أحمر الذين يسكنون أراضي شيشاوة.

وفيزيونمية العبدي متشابهة، فهو طويل و أقصر بعض الشي من الدكالي، ويبدو أنيقا. وتخصصه تربية المواشي، فأبقاره قوية، وصوف أغنامه مشهورة، وتعد خيوله وخيول متوگة من أحسن أنواع الخيول بالغرب، وللسلطان [453] حريسة لتربية الخيول بين الوليدية والبحر بها أربعمائة مهر تعيش بكل حرية تحت حراسة عبدة. ونعلم أن هذه العملية تقتضي أن يعوض أي حيوان نفق أو اختفى بآخر عملا بالقاعدة القائلة: "متاع السلطان لا يموت أبدا".

1- ساند سي عيسى بن عمر منذ البداية مولاي حفيظ، شكلت سلطة هذا "القايد" القوي خطرا كبيرا على مولاي عبد العزيز وعينه السلطان الجديد وزيرا للخارجية البحر) وعين أبناؤه باشا لآسفي وأمناء بها.

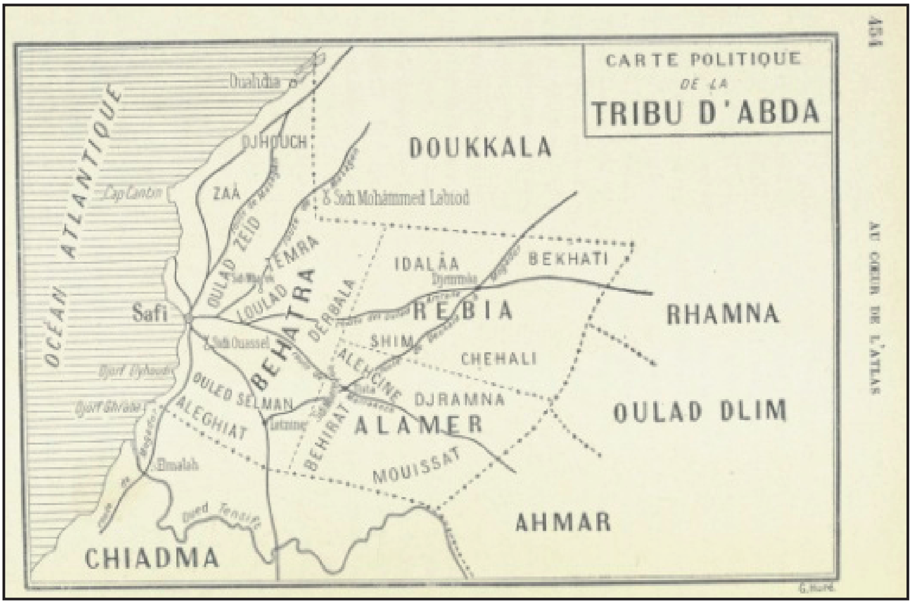

أقسام عبدة:

1 - البحاترة (خمس) ويتكونون من: أولاد زيد، والزاع، والجحوش، والتمرة، ولولاد، ودربالة، وأولاد سلمان، ولغياث.

2 - العامر (خمس) ويتكونون من : الجرامنة، وآل حسين، والبحيرات، والمويسات.

3 - ربيعة (خمس) ويتكونون من : الضلعة، والشهالي، واسحيم، والبخاتي.

أولاد زيد

من أعيانها: بلغزال الحاج سلام الفضوضي وبن مبارك الجليدي وسي الطاهر بلحبيب. سوقها: حد حرارة. زاويتها: سيدي بوشتة. المياه بها: عيون سيدي بوشتى، سيدي شاشكال، تاكابروت، عدة عيون، وآبار غير عميقة. أرضها: أجراف عالية وأراضي هضبية مع مقعرات من أرضها خصبة. ومنتوجاتها: الحبوب، بلاد فقيرة تصلح للرعي. منفذها: آسفي [455]. طرق المواصلات بها: الطريق بين آسفي ومازگان عبر الساحل. حدودها: شمالا: الجحوش، وشرقا : التمرة، و لولاد، وجنوبا : أرض آسفي، وغربا : المحيط.

الزع (البحاترة)

من أعيانها: أولاد الحاج خليفة وسي علال بن هدي. سوقها: ثلاثة بوعريش. زاويتها: الغنيميين. المياه بها : مائة بير وبير، وآبار عديدة قليلة العمق (حوالي أربعة إلى ستة أمتار). أرضها: مرتفعات (محدودبات) صخرية. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. حدودها: شمالا : التمرة، وشرقا: التمرة، وجنوبا: لولاد، وغربا: أولاد زيد.

الجْحوش

أعيانها: سي ناصر القيسومي، وأولاد الفقيه بن بلحاج. زاويتها: آيير، وسيدي محمد المعطي. المياه بها : آبار متعددة وقليلة العمق. أرضها هضبية وكثيرة الحجارة و"العيدان". فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي وسوق الاثنين الغربية بدكالة. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا : دكالة، وشرقا : التمرة، وجنوبا: أولاد زيد، وغربا : البحر.

التّمرة

أعيانها: سي عيسى بن عمر "القايد" الحالي لعبدة. القرى: دار سي عيسى ومنازل الخدم والأتباع ومجموعة من خمسمائة إلى ستمائة منزل في قطر كلمتر. سوقها: خميس گودير (آبار) [456]. إحصاؤها: ألفان وخمسمائة فرس، ثلاثة آلاف رجل، مسلحين كلهم تقريبا ببنادق سريعة الطلقات من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف كانون. زاويتها: المعاشات ومول البرگي. المياه بها : آبار متعددة ومتوسطة العمق من حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. أرضها: هضبية كثيرة الحجارة في الغرب، أراضي جيدة ومنبسطة في الشرق. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: طريق من آسفي إلى مازگان. حدودها: شمالا : دكالة، وشرقا : الزع واسحيم، وآل حسين، وجنوبا : دربالة، لولاد، وغربا : الزع والجحوش.

لولاد

من أعيانها: سي محمّد ولد الرويزم. زاويتها : هديل. المياه بها: آبار قليلة وكثيرة العمق، ما بين حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا، ثم آبار سرنو. أرضها: منبسطة محدودبة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: طريق من آسفي إلى مازگان عبر سرنو والغربية، وطريق گراندو المارة عبر أولاد عمران بدكالة، سوق جمعة أسحيم، وسيدي مبارك مول لوليد. حدودها: شمالا: التمرة، وشرقا : دربالة، وجنوبا : أولاد زيد، وغربا : أولاد زيد.

الدّرْبالة

من أعيانها: المعطي الحامدي. المياه بها: بئر واحدة عند المعطي الحامدي بعمق حوالي خمسة وأربعون مترا، ونطافي. أرضها: محدودبات كثيرة الحجارة مغطاة بشجيرات صغيرة، وأراضي جيدة في الأسفل. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي [457]. طرق المواصلات بها: الطريق من آسفي إلى مراكش (عبر الثلاثة) إلى سيدي محمّد التيدجي وزيمة. حدودها: شمالا : التمرة، اسحيم الجرامنة، وجنوبا : أولاد سلمان، وغربا : آسفي (المجال) ويوجد محصورا في هذه الفخذة التي تمتد على طول البحر، منذ رأس آسفي إلى جرف اليحياوي على شريط من أربع إلى خمس كلمترات عرضا. حدودها آسفي: شمالا : أولاد زايد، وشرقا : دربالة، وجنوبا: أولاد سلمان والغيات (أهل غيات)، وغربا : البحر.

أولاد سلمان

أعيانها: سي مبارك بلحمادي. سوقها: سبت گزولة. زاويتها: سيدي سعيد بوغنبور. المياه بها: گزولة، وأكثر من خمسمائة إلى ستمائة بئر بعمق حوالي ثمانية عشر مترا عمقا، نطافي. أرضها: هضبية

كثيرة الحجارة مغطاة شجيرات صغيرة ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق الأولى من موگادور إلى آسفي، الطريقة الثانية الآتية من جمعة اسحيم إلى موگادور عبر گزولة. حدودها: شمالا: دربالة وآسفي، وشرقا : العامر، وجنوبا : الغيات، وغربا: البحر.

الغيات (أهل غيات)

من أعيانها: الحاج صالح المصمودي، الشيخ الحاج البشير، والفاطمي، والشيخ مسعود، وأولاد الحاج مراح. سوقها: اثنين لغيات. زاويتها: أولاد بو السبع. المياه بها: آبار المالح وعلى طريق موگادور إلى آسفي. أرضها: محدودبات كبيرة، وكثيرة "العيدان" وكثيرة الحجارة. فلاحتها: الحبوب، وبساتين لزراعة الخضر. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من موگادور إلى آسفي الطريق الآتية من دكالة [458] إلى موگادور عبر سبت گزولة وسوق الاثنين. حدودها: شمالا : أولاد سلمان، وشرقا : المويسات، وجنوبا : الشياظمة، وغربا : البحر.

الجرامنة

من أعيانها: كبور ولد حمان، ولد النويگة ("قايد" قديم). سوقها: ثلاثة سيدي مبارك. زاويتها: سيدي مبارك بوگدرة. المياه بها: آبار بثلاثة سيدي مبارك حوالي ثمانية إلى عشرة أمتار، نطافي. أرضها: محدودبة، ومنبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: أولا: الطريق من مراكش إلى آسفي عبر زيمة، ثانيا: الطريق من دكالة إلى موگادور عبر سبت گزولة. حدودها: شمالا : اسحيم، الحسين، وشرقا : المويسات، وجنوبا: عجيرات، وغربا : دربالة ولولاد.

آل حسين (أهل حسين)

من أعيانها: سي أحمد الگردام. زاويتها: أهل الناگة. المياه بها: آبار كثيرة جدا بعمق حوالي ثمانية إلى عشرة أمتار، نطافي. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الأولى من آسفي إلى مراكش عبر سبت السدرات، الثانية الطريق من دكالة إلى موگادور عبر سبت گزولة. حدودها: شمالا : البحيرات، والجرامنة، وشرقا : الجرامنة، وجنوبا: الغيات وغربا: أولاد سلمان ودربالة.

البحيرات

من أعيانها: سي أحمد بن عامر. زاويتها: الكرام [459]. المياه بها: العُگلة، ثمانية إلى عشرة آبار بعمق حوالي خمس عشرة مترا، نطافي. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من آسفي إلى مراكش عبر ثلاثاء سيدي مبارك. حدودها: شمالا : الجرامنة، وشرقا : المويسات، وجنوبا : آلحسين، وغربا : أولاد سلمان ودربالة.

المويسات

من أعيانها: الشيخ ولد الحاج الهاشمي. زاويتها: زاوية سيدي كانون، سيدي أحمد بن مبارك، زاوية لكواش. المياه بها: آبار الحرّة بعمق حوالي ستة إلى سبعة أمتار. أرضها: بلاد جبلية وكثيرة

الشعاب، جبل المويسات. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من آسفي إلى مراكش عبر الثلاثة. حدودها: شمالا : اسحيم، وشرقا : أحمر، وجنوبا: الغياث، وغربا : الحسين.

الضلعة

من أعيانها: الشيخ الصغير، بوشعيب برحال. سوقها: سيدي أحمد بن مدين. المياه بها: آبار بعمق حوالي إثنا عشر متر، نطافي. أرضها: كثيرة التربة السوداء. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. حدودها: شمالا: دكالة، وشرقا : الشهالي، وجنوبا : اسحيم، وغربا : التمرة.

الشهالي

من أعيانها: عبد القادر ولد سعيد الحفيان، ولد دحمان أصدقاء الأخير). زاويتها سيدي الزوين، الهدار، سيدي بوزعيكين [460]. المياه بها: الگطاطمة، الحادر (بعمق حوالي ستين مترا) نطافي. أرضها: منبسطة وجبل سيدي بوزعيكين. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من دكالة إلى آسفي عبر جمعة أسحيم. حدودها: شمالا : البخاتي وأولاد عمران (دكالة) وشرقا : أحمد، وجنوبا : السحيم، وغربا: الضلعة.

اسحيم

من أعيانها: ولد العسال، وأولاد بن إبراهيم. سوقها: جمعة اسحيم. زاويتها: سيدي عيسى بن مخلوف. المياه بها: الجمعة آبار بعمق حوالي ستين مترا، نطافي. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من دكالة إلى آسفي عبر الجمعة. حدودها: شمالا: : الشهالي والضلعة، وشرقا : أحمر، وجنوبا : المويسات، وغربا : الضلعة الحسين.

لبخاتي

من أعيانها: الحاج بوشعيب. سوقها: الأحد. المياه بها: بعض الآبار بعمق حوالي ستين مترا، نطافي. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: آسفي. طرق المواصلات بها: الطريق من دكالة إلى آسفي عبر الجمعة. حدودها: شمالا : دكالة (أولاد عمران)، وشرقا: دكالة أولاد عمران، وجنوبا : الشهالي، الضلعة، وغربا : دكالة [461].

الوليدية[1]

من أعيانها: ابن "القايد"، سي الهاشمي. القرية المحصنة: الوليدية من أربعين إلى خمسون منزل،، وثلاثة عبارة عن دواوير. المياه بها: عيون الماء وآبار كثيرة. أرضها: صخرية باستثناء طول البحيرات. فلاحتها: الحبوب وبساتين لزراعة الخضر. منفذها: آسفي ومازگان. طرق المواصلات بها: طريق من آسفي إلى مازگان عبر الساحل. حدودها: شمالا : دكالة، شرقا التمرة والجحوش، وغربا: المحيط [462].

1- يتبع سكان الوليدية إلى "قايد" دار المخزن، الذي لم يعوض بعد سي المهدي المنبهي وزير الحرب القديم ولا تؤدي الوليدية أي ضريبة، فهي مكلفة بحراسة الساحل ومكلفة بحريسة السلطان الموجودة فوق ترابها.

الفصل الثالث عشر

احمر

تتكون قبيلة أحمر من إثنا عشر فخذة وهي : البياهسة والكرارمة، والرياحمة، وأولاد سعيد، وأولاد ابراهيم، وأولاد إعيش، والفرجان، وأولاد معاشو، والجنادغة، والنواصر، وهديل، الرياينة.

البياهسة

من أعيانها: المحجوب العراضي تنظيمها: منازل عبارة عن دواوير. سوقها: الاثنين. إحصاؤها: مائة وخمسون فرس، خمسمائة بندقية، وثمانمائة كانون. الزوايا: سيدي بومهدي الغوتي، زاوية حرمة الله. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين متر. ومنتوجاتها: الحبوب والمراعي. طرق المواصلات بها: طريق آسفي [463]. حدودها: شمالا :، دكالة، وشرقا : الرحامنة، وجنوبا : الجنادغة، وغربا: الكرارمة.

الكرارمة

من أعيانها: المسعود بن العربي بن لحماد تنظيمها: عبارة عن منازل ودواوير. إحصاؤها: مائة فرس، أربعمائة بندقية، وستمائة كانون. الزوايا: سيدي التهامي الوبيري. أرضها: منبسطة. المياه بها: نطافي وآبار بعمق حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين متر. ومنتوجاتها: الحبوب، والمراعي. طرق المواصلات بها: طريق آسفي. حدودها: شمالا : عبدة، وشرقا : البياهسة، وجنوبا : الرياينة، وغربا : الرياينة.

الرياحنة

من أعيانها: قدور بن علّو. تنظيمها: عبارة عن دواوير. سوقها: الأحد والاربعا. إحصاؤها: مائة فرس، ومائتا بندقية، وثلاثمائة كانون. أرضها: منبسطة وجبل إغود. المياه بها: عيون وآبار قليلة العمق. ومنتوجاتها: الحبوب والمراعي. طرق المواصلات بها: طريق آسفي. حدودها: شمالا : عبدة، وشرقا : الكرارمة، وجنوبا : الرياينة، أولاد إعيش، وغربا: الفرجان.

أولاد سعيد

من أعيانها: سي العمري. تنظيمها: عبارة عن دواوير. سوقها: جمعة سيدي شيكر. إحصاؤها: عشرون فرسا، مائتا بندقية، وثلاثمائة كانون. أرضها: منبسطة. المياه بها: عيون ماء وواد تانسيفت. ومنتوجاتها: الحبوب[464]. طرق المواصلات بها: طريق آسفي. حدودها: شمالا : الرياينة، وشرقا : أولاد معاشو، وجنوبا : أولاد إبراهيم، أولاد إعيش.

أولاد ابراهيم

إحصاؤها: خمسون فرسا، مائة وخمسون بندقية، ومائتان وخمسون كانونا. أرضها: منبسطة. المياه بها: عيون وماء واد تانسيفت. ومنتوجاتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا : أولاد سعيد، وشرقا : الوداية، وجنوبا: تكنة، وغربا: الفرجان.

أولاد إعيش

من أعيانها: سيدي علال بن الزين. تنظيمها: عبارة عن دواوير. إحصاؤها: عشرون فرسا، مائة

وخمسون بندقية، ومائتي كانون. أرضها: منبسطة. المياه بها: عيون الماء واد تانسيفت. ومنتوجاتها: الحبوب. حدودها: شمالا : الرياحنة، وشرقا : الرياينة، أولاد سعيد، وجنوبا : أولاد ابراهيم، وغربا : الفرجان.

الفرجان

من أعيانها: سي عمر بن حمادي. تنظيمها: عبارة عن دواوير. إحصاؤها: ستون فرسا، مائتا بندقية، وثلاثمائة كانون. أرضها: منبسطة . المياه بها: عيون الماء، آبار بعمق حوالي ثلاثة إلى أربعة أمتار، وواد تانسيفت، وواد شيشاوة، وتوجد زاوية هديل محاصرة في هذه الفخذة. حدودها: شمالا: الرياحنة، وشرقا : أولاد إعيش، أولاد إبراهيم، وجنوبا: أولاد بو السبع، وغربا : الشياظمة.

أولاد معاشو

من أعيانها : ولد هدي بن دانو. تنظيمها : عبارة عن منازل ودواوير. سوقها : الخميس. إحصاؤها: مائة وخمسون فرسا، وثلاثمائة بندقية، وخمسمائة كانون. أرضها: منبسطة . المياه بها: البحيرة المالحة لزيمة، نطافي، آبار بعمق حوالي ست إلى عشرة أمتار. ومنتوجاتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق آسفي. حدودها: شمالا: البياهسة، وشرقا : الجناذغة، جنوبا: أولاد إبراهيم، وغربا : أولاد سعيد.

الجناذغة

من أعيانها: أولاد بن بّا. تنظيمها: عبارة عن دواوير. إحصاؤها: مائة وخمسون فرسا، مائتا بندقية، وأربعمائة كانون. أرضها: منبسطة . المياه بها: عيون وآبار قليلة العمق. ومنتوجاتها: الحبوب. حدودها: شمالا : الرحامنة، وشرقا : أولاد معاشو، وجنوبا: أولاد سعيد، وغربا : الرياينة.

النواصر (زاوية)

من أعيانها : سي قاسم ولد بلقاضي. تنظيمها : منازل. سوقها : الخميس. إحصاؤها : ستون فرسا، ومائة وخمسون بندقية، وثلاثمائة كانون. أرضها: وادي واد شيشاوة. المياه بها: واد شيشاوة. ومنتوجاتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: الطريق إلى موگادور. وتوجد هذه الزاوية على ضفاف واد شيشاوة بين أولاد السبع وتكنة [466].

هْديل (زاوية)

من أعيانها: سي عبد القادر بلمقدم. تنظيمها: عبارة عن منازل، سوقها الإثنين. إحصاؤها: عشرون فرسا، ومائة بندقية، ومائتا كانون. أرضها: منبسطة. المياه بها: واد شيشاوة. وتوجد هذه الزاوية محاصرة في أراضي الفرجان.

الرياينة

إحصاؤها: عشرون فرسا، مائة وخمسون بندقية، ومائتا كانون. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي أربعة إلى ستة أمتار. ومنتوجاتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق آسفي. حدودها: شمالا : الكرارمة، وشرقا : أولاد سعيد، وجنوبا: أولاد إبراهيم، وغربا : أولاد إعيش. [467]

الفصل الرابع عشر

الرحامنة

نحيل القارئ من أجل معرفة التنظيم الاجتماعي للرحامنة على الدراسة الهامة جدا للسيد إدموند دوتي[1]، وسنهتم فقط بالتنظيم السياسي لهذه القبيلة الهامة والثائرة. تنقسم الرحامنة إلى خمسة أخماس. وهي: البرابيش، وأولاد سْلامة، وسلاّم الغرابة، وسلاّم العرب، وأولاد بوبكر. وحدودها هي: شمالا : دكالة وبني مسكين، وشرقا : السراغنة وزمران، وجنوبا : مسيوة، وحربيل، وغربا: المنابهة، أولاد دليم، هوارة.

البرابيش

ويتكونون من: أولاد غنام، والطلوح، وأولاد عبد الله، والعلاّكة، وأولاد إبراهيم، والمهازيل، والخراربة، والغوانم، وبني حسان، وأولاد زبير. وحدود هذا الخمس هي: شمالا: السراغنة، وشرقا : زمران وجنوبا : أولاد سلامة، الغرابة، وغربا: أولاد بوبكر. ونعطي الآن المعلومات التي نتوافر عليها حول هذه الفخذات.

أولاد غنام

من أعيانها: سي مبارك، و الحاج المختار. عبارة عن دواوير. سوقها: حد رأس العين. زاويتها: سيدي علي. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثمانية إلى عشرة أمتار. فلاحتها: الحبوب، المراعي. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : أولاد عبد الله، وشرقا: الطلوح، وجنوبا: سكورة، وغربا : أولاد إبراهيم.

الطْلوح

من أعيانها: ولد بوسبنية. عبارة عند واوير. أرضها: منبسطة. المياهبها: سواقي الري. فلاحتها: الحبوب، المراعي. طرق المواصلات بها: طريق مراكش . حدودها: شمالا : أولاد عبد الله، وشرقا : السراغنة، وجنوبا : الغوانم، وغربا : سكورة، أولاد غنام.

أولاد عبد الله

من أعيانها: ولد بن الطيبي. عبارة عن دواوير. سوقها: الاثنين [469]. زاويتها: سيدي محمد مرزوق. أرضها: هضاب الجبيلات. المياه بها: آبار بعمق حوالي سبعة إلى عشرة أمتار. فلاحتها: الحبوب، المراعي. حدودها: شمالا: السراغنة، وشرقا : الطلوح، وجنوبا : أولاد غنام، وغربا : العلاكة.

العلاّكة

من أعيانها الطاهر بن أحمد، و"القايد" الجيلالي. عبارة عن دواوير. سوقها: الاثنين. أرضها: منبسطة مغطاة بالسدر الجبلي. المياه بها: آبار بعمق حوالي سبعين إلى ثمانين مترا. فلاحتها: الحبوب، المراعي. حدودها: شمالا: السراغنة، وشرقا : أولاد عبد الله، وجنوبا : أولاد إبراهيم، وغربا : آيت موسي.

1- مراكش أو قبائل الشاوية ودكالة، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إنفو برنت2017

أولاد إبراهيم

من أعيانها: أحمد ولد الكيال. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي مخلوف أرضها: هضاب الجبيلات. المياه بها: واد وآبار بعمق حوالي ثلاثة إلى خمسة أمتار. فلاحتها: الحبوب، المراعي. حدودها: شمالا : العلاكة، وشرقا : أولاد غنام، وجنوبا : سكورة، وغربا: العناكير.

المهازيل

من أعيانها: أحمد بن الجيلالي. عبارة عن دواوير. سوقها: اثنين سيدي بوعثمان. زاويتها: سيدي بوعثمان. أرضها: هضاب الجبيلات [470] . المياه بها: آبار بعمق حوالي ثلاثة إلى خمسة أمتار. فلاحتها: الحبوب، المراعي. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : العناكير، وشرقا : أولاد إبراهيم، وجنوبا: المخاليف، وغربا : الخرارية.

العناكير

من أعيانها: رحال بن عباس. عبارة عن دواوير. أرضها: الجبيلات . المياه بها: آبار بعمق حوالي ثمانية إلى عشرة أمتار. فلاحتها: الحبوب، المراعي. حدودها: شمالا : أولاد إبراهيم، وشرقا : سكورة، وجنوبا : المخالف، وغربا : المهازيل.

الخراربة

من أعيانها: سي قدور بلحسن. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي محمد بن يوسف. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ستين إلى ثمانين مترا. حدودها: شمالا: العلاكة، وشرقا : أولاد إبراهيم، المهازيل، وجنوبا : المهازيل، وغربا : الغرابة.

الغوانم

من أعيانها: سي الطاهر بلهجاني. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ستة إلى عشرة أمتار. حدودها: شمالا : السراغنة، وشرقا : زمران، وجنوبا: المخاليف، وغربا : سكورة [471].

2 أولاد سْلامة

ينقسم خمس أولاد سلامة إلى عشرين فخذة وهي: أولاد بلعكيد، وأولاد طلحة، وأولاد بن عيصوم، وآيت تليل، وأولاد منصور، وأولاد الطالب، وسكورة، ودوار أحمد ناه، وأهل سيدي علي، وأهل حجوب، وآيت إبورك، وآيت الطالب، واعرابات، وأهل محّمد الشاوي، وأهل الزاوي، والسحيقات، والبغولة والمتاكيل. حدود الخمس، شمالا: البرابيش، وشرقا : مسيوة، وجنوبا: مراكش، وحربيل، وغربا : المنابهة وسلام الغرابة.

أولاد بلعكيد

من أعيانها: الشيخ إبراهيم. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: قنوات السقي.

طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها:شمالا : أولاد طلحة، وشرقا : أولاد منصور، وجنوبا : حربيل، وغربا: أولاد بوعيسون.

أولاد طلحة

من أعيانها: الحاج محمد . عبارة عن دواوير[472]. أرضها: الجبيلات. المياه بها: آبار بعمق حوالي سبعة إلى خمس عشرة متر. حدودها: شمالا : المخاليف، وشرقا: أولاد منصور، وجنوبا : أولاد بلعگيد، أولاد بوعيسون.

أولاد بوعيسون

من أعيانها: الشيخ الجيلالي بلمكي. عبارة عن دواوير. أرضها: الجبيلات. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثلاثة إلى خمسة متر. حدودها: شمالا : المخاليف، وشرقا : أولاد طلحة، أولاد بلعگيد، وجنوبا: حربيل، وغربا : المنابهة.

أيت تليل(تليل)

من أعيانها: سي الغالمي بلحاج . عبارة عن دواوير. أرضها: الجبيلات. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثمانية إلى خمس عشرة مترا. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا : آيت موسى، وشرق: أولاد بوعيسون، وجنوبا : أولاد بوعيسون، المنابهة، غربا: الگرون.

لمخاليف

من أعيانها: الشيخ امحمد. عبارة عن دواوير. أرضها: الجبيلات. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثمانية إلى إثنا عشر مترا. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا : المهازيل ولعناكير، وسكورة، وشرقا : أولاد منصور، وجنوبا : أولاد طلحة، وغربا: أيت تليل.

أولاد منصور

من أعيانها: بلمكي. عبارة عن دواوير [473.]سوقها: الجمعة. زاويتها: بن ساسي. أرضها: منبسطة. المياه بها: قنوات السقي. طرق المواصلات بها: طريق القلعة. حدودها: شمالا: لمخاليف، الغوالم، وشرقا : أولاد الطالب، وجنوبا : مراكش، وغربا : حربيل.

أولاد الطالب

من أعيانها: سي مبارك بن محمّد. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: قنوات السقي. حدودها: شمالا : الغوالم، وشرقا : مسيوة، وجنوبا : مراكش، وغربا : أولاد منصور.

3 - سلام الغرابة

وينقسم خمس الغرابة إلى ست فخذات وهي : السحيقات، وآيت موسى، وأعريب، أولاد رحو، والگرينات، ولگرون، وأولاد مبارك، وآيت إبورك، وآيت الطالب. حدود هذا الخمس: شمالا : البرابيش، وشرقا : أولاد سلامة، وجنوبا : المنابهة، وغربا : سلام العرب.

السحيقات

من أعيانها: المكي بن الجيلالي. عبارة عن دواوير. زاويتها بلگرن. المياه بها: آبار بعمق حوالي سبعة إلى عشرة أمتار. طرق المواصلات بها: طريق الجديدة. حدودها: شمالا البرابيش، وشرقا: البرابيش، وجنوبا: آيت موسي، وغربا: أولاد مبارك.

آيت موسي

من أعيانها: الشيخ صالح. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين متر. طرق المواصلات بها: طريق مازگان. حدودها: شمالا: السحيقات، وشرقا: البرابيش، وجنوبا: حربيل، وغربا: الگرون.

اعريب أولاد رحو

من أعيانها: الشيخ حميدات. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة المياه بها: آبار بعمق حوالي ستة إلى عشرة متر. حدودها: شمالا: البرابيش، وشرقا: أولاد مبارك، وجنوبا: الگرينات، وغربا: سلام العرب.

الگرينات

من أعيانها: محمّد الحيرات. عبارة عن دواوير. زاويتها: سيدي أحمد بن محمود. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي عشرين إلى خمسة وعشرين متر. طرق المواصلات بها: طريق مراكش إلى مازگان. حدودها: شمالا: أعريب أولاد رحو، وشرقا: لگرون، وجنوبا: المنابهة، وغربا: سلام العرب.

لگرون

من أعيانها: الشيخ قدور. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي خمسون إلى ستين مترا [475]. طرق المواصلات بها: طريق الجديدة. حدودها: شمالا: أولاد مبارك، وشرقا: آيت موسي، وجنوبا: المنابهة، وغربا: لگرينات.

أولاد مبارك

من أعيانها: الشيخ الجيلالي. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثلاثين إلى أربعين مترا. حدودها: شمالا: السراغنة، وشرقا: السحيقات، وجنوبا: لگرون.

سلام العرب

ينقسم خمس سلام العرب إلى ثمانية عشرة فخذة، وهي: أولاد بلة، وأولاد جابر، (الجوابر) وأولاد بوشريط، والركيبات، والنواجي، وأولاد بوكدية، ولمكيشرات[1]، وآيت ياسين، ولخلافة، وگدالة، والشويدرات، والجريوات، والطرش، وآيت همان، وآيت موسى واحماد، وأولاد عبيد، وأولاد بركة،

1- هناك اختلاف بين المخبرين، فهناك من يقسم هذا الخمس إلى نقط، وهناك من يضيف الأحد عشر الأخرى.

وعلواني . حدود هذا الخمس: شمالا : أولاد بوبكر، وشرقا : سلام الغرابة، وجنوبا : أولاد دليم، وغربا: دكالة [476]

أولاد بلة

من أعيانها: محمّد بن مرزوگ. عبارة عن دواوير. سوقها: الاثنين. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي ثلاثة أمتار. حدودها: شمالا : السلل، وشرقا : النواجي، جنوبا: المنابهة، وغربا: أولاد دليم.

أولاد بو بكر

يتكون خمس أولاد بوبكر من عشرين فخذة وهي: الصوالح، وعلي بن الشامخ، وأولاد محمّدبن مبارك، وأولاد العربي بن لحسن، والسلل[1]، والسميحات، والفُقْرا، وأهل الفويم (الفيم)، وأولاد سي يحي، وأولاد الحاج الجيلالي، والكبابرة، والشياظمة، والمحمديين، وأولاد عيسى، وأولاد سيدي البهليل، والقصر، والجلود، والشعيبات، والخميلات، وأهل الرگيطة، وأولاد إبراهيم. [477]
حدود هذا الخمس: هي شمالا : السراغنة، وشرقا : البرابيش، سلام العرب، وغربا : دكالة [478]

1- أغلب المخبرين يحصرون تقسيم الخميس في الفخذات السبع الأولى.

الفصل الخامس عشر

السراغنة

قبيلة السراغنة من أصل بربري، وهي إحدى القبائل "الثائرة" في هذه المنطقة، فمنذ 1903 و"القايد" الگلاوي في صراع معها، حاولت تخريب قصبة قائدها بلمودن، لكن محلّة شريفية مدعومة بإخوة سيدي المدني أرجعت الأمور إلى نصابها [1905]. وأثناء تولية مولاي حفيظ ثار السراغنة ضده حقدا وانتقاما من صهر "القايد" الگلاوي علاَّفه (وزير الحرب). وفي اليوم نفسه الذي خرج مولاي حفيظ من مراكش لتهدئة الأوضاع دخل قسم من السراغنة إلى تاملالت قرب سيدي رحال في قصبة "القايد" بلفايدة وقتلوه، وكان على مولاي حفيظ أن يرد على هذا الاعتداء، فقضى شهر يناير 1908 في محاربة السراغنة والتفاوض مع حلفائهم تادلة وبني مسكين. وحلفاء السراغنة الطبيعيين هم: زمران وانتيفة، وأعداؤهم المعتادون هم: گلاوة والرحامنة.

وتنقسم قبيلة السراغنة إلى خمسة أخماس هي:

1 - أهل الغابة، ويتكونون من : (لحلفات، ولعرارشة، وأولاد حمو، وأولاد صبيح، وأولاد زراد).

2 - وأهل الواد ويتكونون من : (أولاد الشرقي، وأولاد بوگرين، وبني عامر، وأولاد أحمد، والوناسدة).

3 - والزاوية، ويتكونون من : (أولاد بو علي، والدزوز، والعثامنة، وأولاد يعگوب)

4 - بوحولة ويتكونون من : (أولاد تاهلا، وأولاد وگاد، وفطناسة، وأولاد خيرة، والحمادنة، وأولاد خلوف)

5- وجبالة ويتكونون من : (صنهاجة، وانتيفة، وأهل بزو، وأيت مساط، وآيت عياط، وآيت عتاب)

1 - أهل الغابة

ينقسم خمس أهل الغابة إلى خمس فخذات: حدودها هي: شمالا : بني مسكين، وشرقا : زاويتها، وجنوبا: زمران، وغربا : الرحامنة.

لحلفات

من أعيانها: علي بن الكراطة والحاج المعطي. تنظيمها: عبارة عن دواوير وبعض المنازل. أرضها: منبسطة. المياه بها: قنوات. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق القلعة إلى مازگان. حدودها: شمالا : العرارشة، وشرقا : أولاد حمو، وجنوبا : أولاد صبيح، وغربا: الرحامنة.

العرارشة

من أعيانها: بلعيد بن العرج. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: عين گاينو الموجودة فوق أراضي زمران تحملها قناة إلى القلعة. طرق المواصلات بها: طريق القلعة مشرع الشعير. حدودها: شمالا : أولاد زراد وشرقا: أولاد حمو، وجنوبا : الحلافات، وغربا : الرحامنة.

أولاد حمو

من أعيانها: بلقويد، سي محمّد بن كادج. أرضها: منبسطة. المياه بها: ساقية گاينو. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق القلعة مشرع الشعير. حدودها: شمالا: الحدرة، لخلا (أراضي شاسعة)، وشرقا : أولاد بوگرين، الدزوز، وجنوبا : أولاد صبيح، وغربا : العرارشة.

أولاد صبيح

من أعيانها: الشيخ علال، وبلعروسي. تنظيمها: عبارة عن دواوير. سوقها: الاثنين. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: أربعة آبار بعمق حوالي إثني عشر إلى ثلاثة عشر. طرق المواصلات بها: طريق مراكش إلى القلعة [481]. حدودها: شمالا: أولاد حمو، وشرقا: القلعة، وجنوبا: الرحامنة، وغربا: الحلفات.

أولاد زرّاد

من أعيانها: الحاج رحال، العربي بن الشلح. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: شمالا: أولاد الشرقي، وشرقا : أولاد بوگرين، وجنوبا: العرارشة، وغربا : الرحامنة.

2 - أهل الواد

ينقسم هذا الخمس إلى خمس فخذات وحدوده هي: شمالا : بني مسكين، وشرقا : الجبالة، وجنوبا: الزاوية، وغربا : أهل الغابة.

أولاد الشرقي

من أعيانها: الحسن، ولد علال. تنظيمها: عبارة عن عدة قرى صغيرة. زاويتها: سيدي بو محمّد صالح. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: آبار بعمق حوالي ستة عشر إلى عشرين مترا. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى تادلة حدودها: شمالا: بني مسكين، وشرقا : بني عامر، وجنوبا : أولاد زراد.

أولاد بوگرين

أعيانها : مبارك بلغندور، والعربي بن الضو. تنظيمها : عبارة عن دواوير، أرضها منبسطة [482] . فلاحتها : الحبوب . المياه بها: قناة وآبار بعمق حوالي خمسة وعشرين مترا. طريق المواصلات : طريق القلعة إلى بني مسكين. حدودها : شمالا : بني عامر، شرقا: الوناسدة، جنوبا: أولاد يعگوب، غربا أولاد حمو.

بني عامر

أعيانها: بن حدو. تنظيمها: عبارة عن دواوير. سوقها: الأربعا. إحصاؤها: خمسة وثلاثين فرس، ومائة وخمسون بندقية، ومائتا كانون. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: قناة. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : بني مسكين، وشرقا : أولاد أحمد، وجنوبا : الوناسدة، وغربا : أولاد الشرقي.

أولاد أحمد

أعيانها: الحاج رحال، ولد المسفر. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: قناة. حدودها: شمالا : بني عامر، وشرقا : أولاد أحمد، وجنوبا : أولاد يعكوب، وغربا : أولاد بوكرين [483]

3 - الزاوية

ينقسم خمس الزاوية إلى خمس فخذات، وحدوده هي: شمالا : أهل الواد، وشرقا: بوعولة، وجنوبا: زمران، وغربا : أهل الغابة.

أولاد بوعلي

أعيانها: سي أحمد بلحسن، سي الركراكي. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب والحقول والعرصات. المياه بها: الواد. طرق المواصلات بها: طريقة القلعة إلى تادلة. حدودها: شمالا : أولاد أحمد، وشرقا : أولاد خيرة، وجنوبا : العثامنة، وغربا : أولاد يعكوب.

الفريطة

أعيانها: ولد سي علي، سي فاتح. تنظيمها: عبارة عن دواوير ومنازل. سوقها: الأحد. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب والحقول والبساتين والعرصات. المياه بها: الواد. طرق المواصلات بها: طريقة القلعة إلى تادلة. حدودها: شمالا : العثامنة، الدزوز، أولاد تاهلة، وجنوبا : زمران، وغربا : الدزوز.

الدزوز

أعيانها: الحاج مبارك. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة وهضاب. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: عين الدزوزية وآبار بعمق حوالي ثمانية أمتار. حدودها: شمالا: أولاد يعكوب، وشرقا: أولاد بوعلي، وجنوبا: الفريطة، وغربا : أولاد صبيح، أولاد حمو [484]

العثمانة

أعيانها: بلبهلول، بن يفو. تنظيمها: عبارة عن دواوير وبعض المنازل. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: قناة سقي. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا: أولاد بوعلي، وشرقا : أولاد تاهلة، وجنوبا : الفريطة، وغربا : الفريطة.

أولاد يعكوب

أعيانها: سي محمد بن قدور. تنظيمها: عبارة عن دواوير ومنازل. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب والحقول. المياه بها: واد وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار. طرق المواصلات بها: طريقة القلعة إلى تادلة. حدودها: شمالا : الوناسدة، وشرقا : أولاد بوعلي، وجنوبا : الدزوز، وغربا : الدزوز.

4 - بوحولة

ينقسم خمس بوحولة إلى خمسة أقسام وحدوده هي: شمالا : جبالة، وشرقا : گلاوة، وجنوبا: زمران، وغربا : الزاوية.

أولاد تاهلا

أعيانها: الحاج محمد بن عمران. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: "البساتين والعرصات " والحبوب المياه بها : الواد. طرق المواصلات بها : طريقة القلعة إلى تادلة. حدودها: شمالا: العثامنة، وشرقا : أولاد وگاد، وجنوبا : زمران، وغربا: الفريطة.

أولاد وگاد

أعيانها: سي العربي بن علي. تنظيمها: عبارة عن دواوير [485]. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها : الواد. طرق المواصلات بها : طريق مراكش. حدودها : شمالا : فطناسة، وشرقا: گلاوة، وجنوبا: أولاد تاهلة، وغربا :لعظومة.

فطناسة

أعيانها: "القايد" أحمد النجيبني، سي محمد بن عمران. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه بها: قناة. حدودها: شمالا : الحمادنة، وشرقا: دمنات: وجنوبا: أولاد وگاد، وغربا : أولاد خيرة.

أولاد خيرة

أعيانها: اليميني ولد الحاج سعيد. تنظيمها: عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب. المياه : الواد. حدودها: شمالا: صنهاجة، وشرقا: أولاد خلاف، وجنوبا: الحمادنة، وغربا : أولاد بوعلي.

لحمادنة

الأعيان: المحجوب بن فضول، وسي محمد بن عبو، وبوگطيب، و"القايد" بلمودن. تنظيمها : عبارة عن دواوير ومنازل. سوقها : لاربعا. أرضها منبسطة. فلاحتها : الزياتين والحبوب. المياه : عين الأربعا. طريق المواصلات : طريق مراكش. حدودها : أولاد خلوق، وشرقا : دمنات، وجنوبا: : فطناسة، وغربا: أولاد خيرة. [486]

5 - الجبّالة

ينقسم خمس الجبالة إلى سبع فخذات، لكن الفخذات الجبلية لهذا الخمس غير خاضع تماما وثائر، وسنعطي هنا المعلومات التي أمدنا بها مخبرونا لبلاد المخزن، وسنعطي معلومات فيما بعد عن بعض تلك الفخذات جمعناها في عين المكان. وحدود الجبالة هي: شمالا : تادلة، وشرقا : دمنات وگلاوة، وجنوبا : بوحولة، وغربا : الزاوية.

أولاد خلّوف

أعيانها: سي محمّد بن أحمد، الحاج علال بلخضير. تنظيمها: عبارة عن دواوير ومنازل. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الزياتين والحبوب. المياه بها: واد إفشتان. حدودها: شمالا: صنهاجة، وشرقا: دمنات، وجنوبا: لحمادنة، وغربا: صنهاجة.

صنهاجة

أعيانها: سي محمد بن علال، الحاج رحالبن سعيد. تنظيمها: منازل وعبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. فلاحتها: الزياتين والحبوب. المياه بها: آبار بعمق حوالي إثنا عشر إلى ستة عشر مترا. طرق المواصلات بها: طريق مراكش. حدودها: شمالا : أهل بزو، انتيفة، وشرقا: دمنات، وجنوبا: دمنات، وغربا : أهل بزو، أولاد أحمد.

انتيفة

أعيانها: محمد الزناگي، وكورماش. تنظيمها:قرى صغيرة [487]. سوقها: الاثنين. أرضها: جبلية. فلاحتها: الزياتين والحبوب. المياه بها: عدة عيون الماء. حدودها: شمالا: آيت عتاب، وشرقا: دمنات، وجنوبا: صنهاجة، وغربا : أهل بزو.

أهل بزو

أعيانها: الحاج محمد ولد أعراب. تنظيمها: قرية بزو. زاويتها: المدرسة. أرضها: جبلية فلاحتها: الحبوب و"البساتين والعرصات" المياه بها: عيون الماء. حدودها: شمالا : تادلة، وشرقا: آيت عتاب، انتيفة، وجنوبا : صنهاجة، وغربا : تادلة.

أيت مساط

سوقها: الأربعا. أرضها: جبلية. فلاحتها: الحبوب والحقول (الجنانات) المياه بها: عيون الماء حدودها: شمالا : آيت عزات، وشرقا : دمنات، وجنوبا : آيت عتاب، وغربا : تادلة.

آيت عياط

تنظيمها: قرى صغيرة. أرضها: جبلية. فلاحتها: الحبوب والحقول (الجنانات)، المياه بها: عيون الماء، حدودها: شمالا : تادلة، وشرقا : دمنات، وجنوبا : أيت مساط، وغربا : تادلة.

آيت عتاب

أعيانها: أوشن، ولد أحميد وعلي. تنظيمها: قرى صغيرة [488]. وسوقها: الخميس. أرضها: جبلية. فلاحتها: الحبوب والحقول (الجنانات) المياه بها: واد العبيد، قنوات. حدودها: شمالا: أيت مساط، وشرقا: دمنات، وجنوبا: انتيفة، وغربا: أهل بزو [489]

الفصل السادس عشر

قبائل الأطلس الكبير

أيت مرغاد

أيت مرغاد إمازيغن ويتكلمون تمازيغت، لكن جيرانهم من تافيلالت يضطرونهم للاتصال بمسافرين عرب، ويعيشون في قصور معزول بعضها عن بعض، وكل قصر يسير أموره شيخ العام تنتخبه الجماعة، وتعين، في فترة الحرب، الجماعة شيخ نوفلا لمدة محدودة.

التنظيم السياسي: يتكون أيت مرغاد من : آيت امحمّد، وآيت ألغوم، ولبيب، أيت عامر أومنصور، وآيت عيسى ويزم، وآيت أيوب، وآيت عمر أوگاحي. وتنتشر قصور أيت مرغاد في الوادي، وتظهر التسمية التالية القصور الموجودة فقط على طول واد تاغيا وواد غريس.

وأموگر مكون من قسمين مكون منهما واد تاغيا، (تاشگاشت وآيت بن سيد والمرابطين) وأدزدي وأتساوديت ويمدن [490].

أيت سمگاط، (مائتي نسمة ولا يوجد بها يهود) ويتكونون من الدشر الكبير، وآيت سلمان، وآيت شاو، وآيت حمي، وأيت أيوب، وآيت بوإزم).

أيت ملوان، وآيت سيدي أوعلي، وأملاّكو، وتالموت، ولحرون، وتاحمدونث، والقصر الكبير وإگران (الفدان) وآيت إبراهيم وتيمزكيت وأسفلو.

وتتكون تاديغوست من : أيت حمو، وأورير، ودشر الشريف، والحارث، وتزگاغين، والبرج، وتالت تْفروات.

ويأخذ واد تاغيا فيما بعد اسم واد أغريس ويسقي الواحة التي تحمل الاسم نفسه، وهي مكونة من القصور التالية:

الدشر الكبير ومگامن (بناه المخزن) وآيت يحي أعثمان، وإرّير، وآيت گطو وإزرار، والحارث، وگلميمة [491] وآيت موش، وتاختارت، وبوتنفيت، وگاوز، والشرفا، وآيت أم أويحي، وآيت يعقوب، وخْليل، وآيت سيدي عمر، وتونفيت (أربع قصور).

آيت عطا

آيت عطا إمازيغن، يحدها من الشرق تافيلالت، وشمالا: آيت يحيى، وزناگة وأيت مرغاد، وغربا: قبائل "شلوح" ازگيد، والفايجة، ودون حدود فاصلة في اتجاه الجنوب، ويعيشون في قصور على طول الوديان ويرعون قطعانهم في الأطلس والصحراء، وهم قبيلة غنية، وقوية، وفرسان، يخافهم كل جيرانهم، يعتبرون أنفسهم فئة عليا وأرستقراطية ويحتقرون برابر الجبال الذين يسمونهم "الشلوح" ويقولون بأن طريقة نطقهم تعطي الانطباع بأن لهم لسانا ملتويا، "شلحة"، ثم إن الحراطين والزنوج عبيدهم. ويستغلون اليهود، لا يعترفون إلا بالسلطة الدينية لشريف تامصلوحت.

التنظيم السياسي:

ينقسم أيت عطا إلى ما يلي:

-آيت أونير، وآيت ولال: ألفا وخمسمائة بندقية. وآيت واحليم: (أيت حسو وايت زيمور "ثلاثة آلاف بندقية")، وآيت أو نبگي: ألف بندقية. وآيت إسفول : ألف وخمسمائة بندقية. وآيت إعزا: (آيت الفرسي أيت عيسى أو ابراهيم من ألف وخمسمائة بندقية).

وإحصاء قصر آيت عطا متغير أساسا [492] فالحروب المتتالية تغير الخريطة السياسية لهذه الجهات. وسنعطي هنا فكرة تقول بأن أغلب قصور غريس قد غيرت زعماءها ثلاث مرات خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ولما هجم آيت عطا على أيت مرغاد رجعوا إلى زعمائهم القدامى، ولكن آيت عطا يستعدون لاسترجاعهم، وسنذكرهم هنا لنستطيع معرفة نتائج الحملة الأخيرة:

- أوسيكيس مسمرير ويتكونون من: (أيت أونبگي، واعتاب، وآيت أونير، والجديد، وأقديم، وقيادات – تعدادات). وصاغرو ويتكونون من : (تينو، أوشان، وآيت الفرسي، وإغرم، وآيت مارصيط، وتاگديلت، إميضر. وتودغى، ويتكونون من(تغيرماتين (قصران)، تابسباست وتازروت. وتاغْزوت، وتادفالت، وأشطاط، وتوزوگا، وتولوين). وأمغا ويتكونون من : (إگلي، ومروتشا، وأملال، وتوروگ). وغريس، ويتكونون من: (إمگان، وآيت يحيى أو عثمان، وإغرغر وأيت وانين وإزيرارن، [493] وأيت گطو، وأولميمة، وإخرازن، وآيت موش، وتاختارت، وهروير، وبوتنفيت، وإگاوز، وآيت حمو أولحسن، وآيت يعقوب، وأخليل وسيدي موسى أوعيسى، وتورزا). والرتب، (الرتبات) ويتكونون من:(ايت اونبگي، وزاوية أملكيس، وآيت يحي أوگايور، والجرامنة، وأولاد عيسى، وأيت الشاش، وتينگدريت، والگارة، وايت عميرة (قصران)، وتاخيامت، والربيت، والبلاغمة، وزاوية أو يسنو، وزاوية تازگاغت، والمركة، وتاماركيت، وتابتاحيت). وتافيلالت مزگيدة (ايت اونبغي). وفزو ويتكونون من : (أيت إشو، وأيت حسين وأيت لاوي، وأيت أومناصف). ورك ويتكونون من: (عبد العزيز، وألنيف). وحصيّا، ويتكونون من: (الحزبان، وتازگزاوت، وأيت حدو، وإحندار، والفاشت، والعمدة). وأجمو، وتغبالت، ويتكونون من :(تيسمومين، ومجران، وأيت سعدان، وتيفخسيت، وتقشا، وزگور، وتاغوليت، وتاغنبوت، وأيت حميميش، وبوبري، وأيت إزو). و تازارين، ويتكونون من: (بوبري، وأيت شعيب، وإتيتاون، وإزخنيون، وتاساخت نزخنيون، وأيت تغلا، وإگونثرن، وأيت بن مرغي). وملال، ويتكونون من: (أيت عبو، وأيت الضو). ودادس، ويتكونون من: (إعطاشن، وأيت لحسين، وأيت أوالزين، أيت بولمان، وأيت علوان، وأيت سللو، وبولمان). والنقوب، ويتكونون من : (أيت أو الزين، وأيت مسعود، وتنومريت[495] وعبدي، وتمساهلت، وأيت واعزيق). وبن دلالة، ويتكونون من :(حشمان، وأيت يحي أوموش)، وأمزرو (أربعمائة بندقية/كانونا سابقا تابعين للمخزن)، الزرگان (أيت أونير)، بودنيب (قصران)، تيگيت ويتكونون من: (تالكتوت وإغرم نايت إسفول، وأيت خرضي، وأيت إزو، والرگابي). والمحاميد ويتكونون من : (أنو نايت علوان، والربة، وتيراف، وأيت عيسى أو ابراهيم) [496]

الفصل السابع عشر

”قيادة“ الگلاوي

آيت عبدي

هي قبيلة بربرية (بْرابر) تتكلم تامزيغت وهي مستقلة "عاصمتها" تاسرافت وتسمى ايضا تينجاف، أو تيمجگارن. وأيت عبدي جبليون يزرعون الأودية، ويرعون قطعانهم في الجبل بالقرب من تاسرافت. وينتمون للف نفسه لآيت سخمان.

التنظيم السياسي لآيت عبدي:

اللف الأول أيت الربع وأيت أو أفرد (تافردا). واللف الثاني :أيت وراد، وأيت بوملان (تازرافت)

الدير

تشكل قبائل الدير (الرافد الجنوبي) للأطلس المتوسط وعيون واد ام الربيع، وقصبة بني ملال (معلومات أمدنا بها سيدي علي امهاوش) كما ورد في القسم الاول من الكتاب). ويعد ايت احند المركز، حيث يوجد ضريح الصالح سيدي يوسف. ويتكونون من : أيت إشقرن المكونين بدورهم من من : (ايت عبد الكريم، وأيت مشان (المركز الرئيس للقباب)، وأيت بو يعقوب أوعيسى، وأيت ابراهيم، وأيت إسحاق، وأيت بوملال [497]. وأيت حودي، ويتكونون من: (أيت عبد النور، وأيت گطيف، وأمهاوش). وأيت ويرّا، ويتكونون من : (أيت السيد، وأيت يعقوب). وأيت سخمان ويتكونون من : (أيت امحمّد، وأيت عبد لولي، وأيت السيد). وقصبة بني ملال.

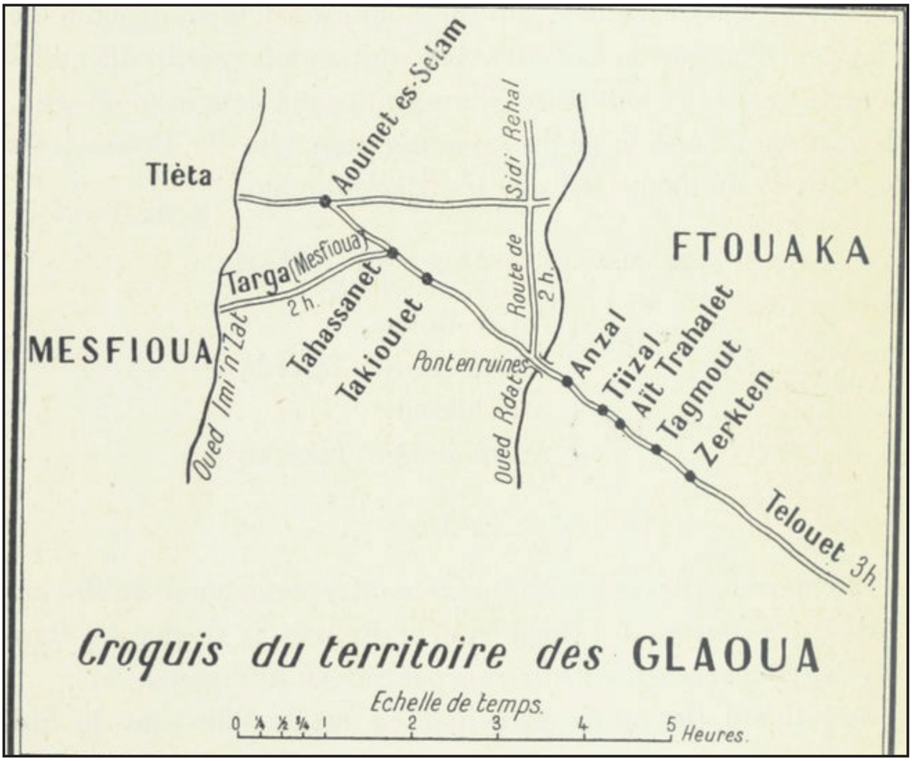

Croquis du territoire des GLAOUA

آيت سخمان

قبيلة بربرية (برابر)، معروفة بأنه لم يكن لها أبدا أي اتصال مع المخزن. ويعتبرون جدهم المؤسس عبدا لمولاي عبد القادر الجيلاني يسمى سخمان، ويعود تاريخه إذن إلى القرن الثاني عشر. ولدينا روايتان عن تظيمها السياسي، الأولى أمدنا بها سيدي احساين شريف أَحنْصال، والأخرى أمدنا بها الصالح الشهير سيدي علي أمهاوش، وتضطرنا طبيعة مخبرينا أن نذكر الشقين معا [498]

والتنظيم السياسي لآيت سخمان حسب سيدي حساين أَحنْصال هو : أيت لحرير ويتكونون من: آيت خويا (حيث توجد الزاوية)، وآيت السيد، وآيت إزريگن، وآيت إشو، وآيت عيسى، وآيت عبدي، وآيت ويدير، وآيت حمي، وآيت عامر أوإشو، وآيت مناصفة) وحسب سيدي علي أمهاوش فإن آيت سخمان ينقسمون إلى لفين هما: آيت موسى أوداود. وآيت أوگلي، وكل لف منهما ينقسم إلى تكتلين هما: آيت عكي أوعلي، وآيت حمامة أوعلي. وأيت موسى أوداود ويتكونون من : (أيت عكي أوعلي، وآيت ويدير، وآيت عامر أواشو، وآيت عبدي" وايت داود اوعلي. وأيت أوگلي ويتكونون من: "أيت سيدي أوعلي، وأيت حمامة أو علي الذين يتكونون بدورهم من: أيت عيسى، وأيت إشو، وأيت عبدي. وأيت أو الربع، وأيت أوغافر، وأيت وراد، وأيت بولمان. وآيت داود أوعلي، وآيت سيد أوعلي وهما فخذتان من الحلف نفسه وهما الآن في حرب.

آيت عطا

آيت عطا إمازيغن، ولا يتكلمون سوى تامزيغت، وزعيمهم قائد سنوي يختار من كل فخذة بشكل متتال، ومحمي من أگرام أي صالح [499].

تنعقد الجماعة أيام سوقها ويراقب الإدارة الشيخ، ولآيت عطا سوقان أسبوعيان ينعقدان يومي الأحد والجمعة. وتنقسم القبيلة إلى لفين: لف السهل : آيت أونير، ولف الجبل: آيت ولال.

التنظيم السياسي لآيت عطا:

آيت أونير، ويتكونون من: أيت أونير، وآيت غنوج، وأيت علوان، وآيت ماجن، وآيت بوجو، وآيت بوعلي. وأي أوعلال ويتكونون من: آيت شيب، وإحتاسن، وآيت خجي، وآيت شربو، وآيت واعزيق، وآيت سيدي امحاند، وآيت لغوم أوسريم، وإمزيلن، وآيت سعيد أوشو، وآيت تيسليت).

ويقال بأن أيت بوعلي، وسيدي مهاود، وأيت لغوم أوسغيم إگورامن أي من أسرة الصلحاء.

أيت عتاب

قبيلة أمازيغية مستقلة، أبانوا عن طاعتهم مثل جيرانهم أيت مساط لمولاي الحسن، وأهدوه خمسمائة بغل أثناء مروره في محلته لتافيلالت سنة 1894.

ومنذ ذلك الوقت بدأ زعيمها "القايد" حدو بن حسين البوزيدي الذي يقطن إنگرتفي تسيير أمور القبيلة وربط علاقات مع المخزن وخليفته، أخوه عدي [500] وينتمي آيت عتاب إلى لف أيت مساط أيضا بالسهل حيث يوجد گطيوة، وآيت تاگلا . ضد لف أيت مساط بالجبل.

التنظيم السياسي لآيت عتاب:

أيت عتاب (آيت بوزيد، وآيت الواد، وإقادوسن)

ويشكل آيت بوزيد الفخذة الأكثر قوة، ولهم حوالي ألف ومائتا كانون، وهم الآن في حرب مع جيرانهم آيت عطا.

أيت مساط

أيت مساط أمازيغ، لا يتكلمون سوى تامزيغت، وتقول الأسطورة إنهم من أصول مسيحية وهذه هي الأسطورة التي حكاها لنا شريف أَحنْصال: الفخذة الأكثر قدما فيهم، هي أيت إصحا، الجد المؤسس وهو ابن مسيحية وأحد العرب الموجودين بهذه المناطق، وكانت هذه المسيحية تسمى قشتلو وهي بنت سيد مسيحي يسمى أد، ولها أخت تسمى تودغى التي ينتمي إليها تودغى. لكن في مساء أحد الأيام جاء سيدي أَحنْصال شيخ البلاد لزيارة قبيلة أيت مساط، ولا أحد أراد أن يستضيفه، وحده فقط زوج المسيحية هو من استقبله، وكان فقيرا، ولم يكن يملك سوى قطيع من سبعة رؤوس من الماعز. وكان يذبح كل يوم عنزا إكراما لضيفه. وفي اليوم السابع توفي ابنه الذي كان مريضا منذ مدة، وعند العشاء فوجئ سيدي سيد أَحنْصال بأنه لم ير الطفل، فاستقصى عن أحواله، فأخبره أبوه العربي -وهو لا يريد أن يعكر صفو مزاج مضيفه- بأنه (غير موجود) فقال: الصالح/ الولي: "صحيح" [501]

فنهض الطفل على ردفه، وأعطوه اسم صحيح الذي سيتحول فيما بعد إلى اسم إصحا".

وقبيلة أيت مساط قبيلة "سيبة" وكان آخر اتصال لهم مع المخزن هو أثناء مرور مولاي الحسن في محلّته إلى تافيلالت، ولما كانت القبيلة حذرة أهدت السلطان هدية جميلة عبارة عن سبعمائة بغلة، فأعجب ذلك السلطان، ورفع عنها الضرائب ورافقه في الحراسة بعض أعيانها. ونصب بعض "القياد"، ومنذ تلك اللحظة قطع أيت مساط أي علاقة لهم مع المخزن ولم يعد لهم أي "قايد"، وأصبح لكل فخذة شيخها، ولآيت تفركل شيخا، ويتمتع هاذان الشيخان بوضع مميز فهم ويمارسون القانون العرفي، وما يشكل خصوصيتهم الوحيدة هو التداول على مهمة الشرطة لكل شيخ (وسكان آيت تفركل) يعدون واحدا بواحد في السوق الوحيد لأيت مساط، خميس آيت خليفت. وأيت مساط لا يتسامحون في أن يبني فوق أراضيه ملاح لليهود لكنهم (اليهود) يمكنهم أن يأتوا إلى سوقهم ويقومون بصناعاتهم، بل إن الجواهريين منهم يقضون شهرين إلى ثلاثة أشهر عند الزبناء الأغنياء الذين يشغلونهم. وتنقسم قبيلة أيت مساط إلى لفين : اللف الأول: آيت أوتفركل، وآيت أوگوديد. واللف الثاني: أيت محاند وأيت إصحا.

ويستعمل اسم أيت مساط ليعني بصفة خاصة اللف الأول، وفخذتا اللف الثاني تعتبران باعتبار الام الذي تحملانه.

وحلفاء هذين اللفين من أيت مساط هم نتيجة، موقعهم الجغرافي، ويسكن أهل اللف الأول السهل وبذلك يشتركون مع آيت عتاب، وآيت بوزيد، وگطيوة، وآيت تاگلا، واللف الآخر يسكن أهله اللف الآخر الجبل وهم قسم انتيفة [502].

التنظيم السياسي لأيت مساط. يتكون اللف الأول من:

من آيت تفركل الذين يتكونون بدورهم من (إبرارن وأيت أعبلا (عبد الله)، وآيت عرفة، وآيت خليفت (لخليفيت)). وأيت أگوديد : (أيت أزروملي وآيت أوفزا) الذين يتكونون أيضا من (أيت وازود، وآيت إزير، وآيت سيد، وإقجامن، وآيت بركا، وآيت النصف، و آيت عيسى)

ويتكون اللف الثاني من:أيت محاند، وأيت إصحا، والذين يتكونون أيضا من : (آيت محمْدأو السيد، وآيت عيسى، واعما مومن، وأيت مجوط، وآيت إحسي، وآيت إزروال)

انتيفة (انتيفن)

انتيفة قبيلة أمازيغية، وهي الآن في فترة سيبة وفرض عليها المخزن "قايد" يسمى ولد سي عبد الله الزناگي، أثارت تجاوزاته ثورة القبيلة فاضطر إلى الهروب عند آيت عتاب، وخلفه في منصبه بربري يسمى أبراح الذي جاء إلى فاس طالبا من السلطان "قيادة" انتيفة، وجاء برسالته ليدخل إلى مجال نفوذه، اعتقله "القايد" الگلاوي ونصب مكانه سي صالح بن محمّد أورار، الذي يحكم الآن في الوقت نعبر فيه قبيلته [503].

تنظيمها السياسي: يتكون انتيفة من آيت تاگلا (تامشگادن والموضعت)، ورفالة، وأهل بزو، وآيت أومراس، وآيت حسان، وزناگة، والعثامنة، وفم الجمعة، وسكورة، لاربيا.

وأثناء مرورنا بفخذة آيت تاگلا وجدناها مقاطعة لنتيفة، والتحقت بلف أيت مساط، وللإخسان الإثنان لآيت تاگلة حوالي خمسائة بندقية، وتتكون جماعتهما من اثني عشر فردا من أعيانها تحت قيادة الشيخ علي أو مزيل، وتحتوي محلاتهم على حوالي خمسة وثلاثين تاقة أي كانون.

أولتانة

يقع المجال الترابي لآولتانة تحت حكم " قايد" دمنات، والسكان أمازيغ يتكلمون لغة تامزيغت، ولا يفهمون العربية إلا في المناطق المجاورة لسهل مراكش. وتنقسم القبيلة إلى سبعة أخماس وهي : تاودانوست، ودمنات (القصبة، إگاداين، إفتان، الملاح)، وگطيوة (آيت بلال، آيت محمد، آيت ماجتن، بوعنتر "أيت زميركو وأيت كرول ") وآيت شيتاشن، وأيت إيوارضن، وغزف، وفطواكة . [504] وتوجد أولتانة في حدود بلاد المخزن، وهي المسرح الذي تدور فيه جميع الصراعات وتنشب فيه كل المواجهات بين قبائل السيبة والسلطان. وتكون أولتانة فريسة الفائز، وهي تابعة الآن للف السيبة آيت تاگلا، وانتفية، وآيت النصف، وآيت بوزيد، وأيت مساط. وحدود أولتانة هي: شمالا: السراغنة، (طريق فاس) وشرقا : الواد الأخضر، وجنوبا: گلاوة (واد تاساوت) وغربا: غجدامة.

تاودانوست (أوتاودانوست)

يعد هذا الخمس أغنى خمس، وإليه تنتمي دمنات. أعيانها: الحاج العربي، وبلحاج علي، وبو النخيلات، وسي منصور بن أفقير. من قراها : السور، وآيت زادمن، أيت حساين. زاويتها: سيدي يحي. أرضها: سهلية وجبلية. المياه بها: أودية، وقنوات السقي. ومنتوجاتها: الحبوب وبساتين الخضر، وأشجار الزيتون. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى فاس، والطريق من دمنات إلى مراكش. حدودها: شمالا : السراغنة، وشرقا : آيت ماجن، وجنوبا: كرول دمنات، وغربا : فطواكة.

دمنات

أعيانها: سي علي شياح، والحاج محمّاد الجبلي، وسي محمّاد الشباني. تنظيمها: تنقسم المدينة إلى أربعة أحياء، القصبة، واگادان، وافشتالن والملاح وتحيط بالمدينة عدة قرى وهي: آيت معياط، وزاوية أومغار... إلخ. زاويتها: أمغار. حدودها: شمالا : أهل تاودانست، وشرقا : الكرول، وجنوبا: آيت شيتاشن، وغربا : فطواكة [505].

گطيوة[1]

خمس گطيوة هو الأقوى في أولتانة. أعيانها: الحاج محمّاد أحضري، وسي محمد إغيل. من قراها: واولة، واويسخت، وآيت بلال. سوقها: الأربعا. حدودها: شمالا :غزف، وشرقا : السراغنة، وجنوبا : گلاوة ، وغربا : آيت شيتاشن.

آيت شيتاشن

أعيانها: الحاج محمّاد بوزاورگان. من قراها: تسليت، إحورين. طرق المواصلات بها: الطريق من دمنات إلى تامگروت. حدودها: شمالا : دمنات، كرول، وشرقا : غزف، گطيوة، وجنوبا : گلاوة، فطواكة.

كرول

أعيانها: الحاج محمّاد أبلاغ. قراها أَحنْصال. زاويتها: سيدي يوسف. حدودها: شمالا: دمنات، أهل تودنوست، وشرقا : آيت ماجن، غزف، وجنوبا : آيت شيتاشن، وغربا: آيت شيتاشن.

غزّف

أعيانها: الحاج محمد أومري. حدودها: شمالا: آيت ماجطن، ماجن، وشرقا : السراغنة، وجنوبا : گطيوة، وغربا : آيت شيتاشن، كرول.

فطواكة

أعيانها: لحسن، ولد ناصر أحدو. قراها: تيديلي [506]. سوقها: الإثنين. طرق المواصلات بها: الطريق من دمنات إلى مراكش. حدودها: شمالا : السراغنة، شرقا: أهل تودنوست، دمنات، كرول، وجنوبا : آيت شيتاشن، وغربا : گلاوة .

1- تنظيم گطيوة الذي نقدمه هنا مختلف ما سبق أن ذكرناه أعلاه، فالأول جمعناه في عين المكان والثاني قدمه لنا مخبرونا.

تُگانة

توجد تحت نفوذ "القايد" الگلاوي. معلومات طبوغرافية: من تاحصانت إلى تاكيولت نصف ساعة (ثلاثين دقيقة)، ومن تاقيلوت إلى أنزال نصف ساعة (ثلاثين دقيقة)، ويقطع واد غدات الطريق بين هاتين الجماعتين ولا زلنا نرى آثار قنطرة خربة. ومن أنزال إلى تيزل ثلاثين دقيقة، ومن تيزل إلى آيت تغالت خمس عشرة دقيقة، ومن زرگطن (دار "القايد" الگلاوي) إلى تاگموت ثلاثين دقيقة، ومن تلوات قصبة "القايد" ثلاث ساعات.

أوريكا

أعيانها: سي عبد السلام بلحاج. معلومات طبوغرافية عنها: من الخميس إلى مراكش أربع ساعات وإلى تاكاترث خمس عشرة دقيقة، ومن تاكاترث إلى الاثنين، (ساعاتان وإلى أوتگنت ثلاثين دقيقة، ومن الاثنين إلى ألگسي، ومن ألگسي إلى تيمالزن ثلاثين دقيقة، ومن تيمالزن إلى أنزال خمس عشرة دقيقة، ومن أنزال إلى أخليج ثلاثين دقيقة، ومن أخليج إلى أوتگنت (الملاح وقصبة "القايد") ساعتان وثلاثين دقيقة من تاوغيلت خمس عشرة دقيقة، ومن تاوغيلت إلى أگادير خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير إلى تيمالزن خمس عشرة دقيقة (أو ساعتان من إلى إيگر)، ومن تيمالزن إلى آيت لحسن ساعة، ومن آيت لحسن إلى أسگي ثلاثين دقيقة، ومن أسگي إلى إيگر ثلاثين دقيقة، ومن إيگر إلى تازروت ثلاثين دقيقة، ومن تازروت إلى أغبالو ثلاثين دقيقة [507]، ومن أغبالو إلى إغرمان ثلاثين دقيقة، ومن إغرمان إلى أسني خمس عشرة دقيقة، ومن أسني إلى إرغف ساعة من إرغف إلى أغبالوا الخميس ثلاثين دقيقة، ومن أغبالو إلى بوتقدا ثلاثين دقيقة، ومن بوتقدا إلى آيت القاق خمس عشرة دقيقة، ومن آيت القاق إلى آيت إران خمس عشرة دقيقة. ومن آيت إران إلى أوغيل ساعة. سوقها: الاثنين. أرضها: منبسطة وجبلية. فلاحتها: الحبوب، أشجار الزيتون، أشجار اللوز. حدودها: شمالا : الگلاوي، وشرقا : الگندافي، وجنوبا : مغاية، وغربا : مراكش، مسيوة.

غيغاية

أعيانها: الحاج لحسن بن محّماد، سي إبراهيم نايت عبد الله، بوير. تنظيمها: أقبور، وتنلولة، ودوار الشرق، وتافنوت، وآيت زكري، وإمين تيدرت، والجبل الأخضر، وتاسلومت، ومولاي إبراهيم، وبوقدير، أسني. سوقها: ثلاثاء تحناوت. المياه بها: عيون الماء. فلاحتها: الحبوب وأشجار الزيتون. طرق المواصلات: الطريق من مراكش إلى سوس. حدودها: شمالا : أوريكة، وشرقا : گلاوة، والگندافي، وجنوبا : سكتانة، وغربا : مراكش. معلومات طبوغرافية: من أقبور إلى مراكش ساعة، ومن أقبور إلى تيلونة ساعتان، وتيلونة ودواير الشريف متقاربان، ومن تحناوت إلى تيلونة ساعة، ومن تاحناوت إلى آيت زكري ثلاثين دقيقة، ومن إمين تيدرت إلى آيت زكري ساعة، ومن إمين تبيدرت إلى الجبل الأخضر ساعة وثلاثين [508]، ومن تاسلّومت إلى الجبل الأخضر ثلاثين دقيقة، ومن تاسلّومت إلى مولاي ابراهيم ثلاثين دقيقة، ومن بوقدير إلى مولاي إبراهيم خمس عشرة دقيقة، ومن بوقدير إلى أسني خمس عشرة دقيقة.

مسيوة (مسفيوة)

قبيلة مسيوة بربرية وجبلية، وتحرث أيضا أراضي الهضبة بين مراكش (الجنوب الشرقي) والأطلس الكبير. وكانت هذه القبيلة في مرحلة سيبة تامة عندما دخلت مراكش إلى سنة 1899، وخلد طابور "القايد" الشهير الحاج على انتصاره على مسيوة، وأخذ يستعرض في المدينة بأربع وأربعين رأسا مقطوعة ويجر مائة وخمسين سجينا، وخضعت القبيلة سنة 1905، ويحكمها الآن أخ "القايد" الگلاوي سي التهامي، وثارت بعد ثلاثة أشهر من جديد فأعادها بقوة "القايد" سيدي المدني وهي الآن هادئة وتعيش في رغد.

والخارطة التي أعطيها الآن وضعناها بناء على معلومات أمدنا بها سي التهامي نفسه [509].

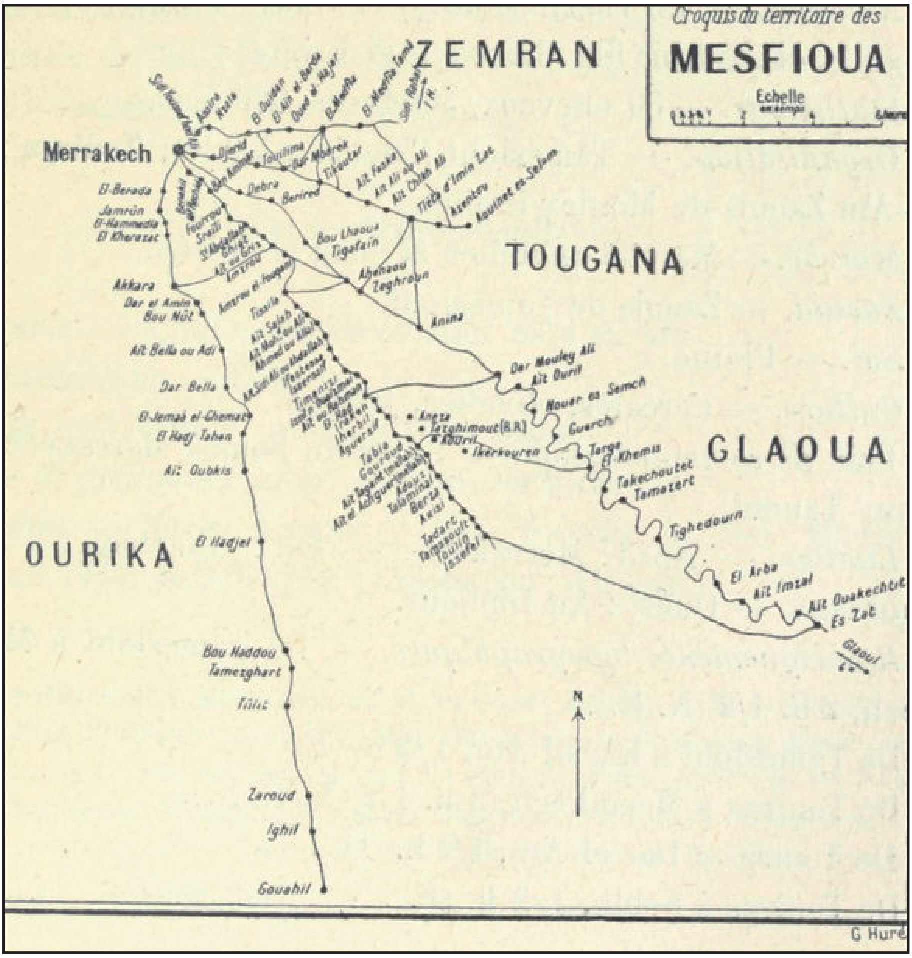

الفصل الثامن عشر

دائرة تامصلوحت

كانت دائرة تامصلوحت تشكل منذ القديم قيادة تحت نفوذ الشريف مولاي الحاج، واستفاد الشريف منذ 1893 من الحماية الإنجليزية، وربطت تامصلوحت بمراكش وأصبحت تحت السلطة الإدارية للخليفة، وتملك العائلة المصلوحية زاويتها الشهيرة لمولاي إبراهيم، وتسير زاويتين أخريين قويتين هما : زاوية تازرين (آيت عطا) وسيدي محمد أويعقوب (درعة).[1] أعيانها: الشريف مولاي الحاج المصلوحي المحمي الإنجليزي، وأبناؤه الثلاثة و"قروش" البريغلي. إحصاؤها: خمسون فرسا وثلاثمائة بندقية، وتسعمائة كانون. تنظيمها: تامصلوحت (الزاوية) السهيب تويرگة ودار العين، وزاوية إبراهيم سوقها: السوق اليومي وسوق الجمعة: زاويتها تامصلوحت أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب، أشجار الزيتون، "البساتين والعرصات". طرق المواصلات بها: طريق سوس إلى مراكش عبر إمنتانوت. حدودها: شمالا : مراكش، وشرقا : غيغاية، وجنوبا : سكتانة، وغربا : آيت إمور.

معلومات طبوغرافية عنها: من تامصلوحت إلى مراكش ساعتان ونصف (الشمال الشرقي)، ومن تامصلوحت إلى دار العين ثلاثون دقيقة (وشرقا:)، ومن تويرگة إلى مراكش ساعتان ونصف (الشمال الشرقي، الشمال)، ومن تويرگة إلى دار العين ثلاثين دقية (غربا)، ومن تويرگة إلى السهيب ثلاثون دقيق (شرقا): [510].

الشراردة

ونعني بالشراردة كونفدرالية الفخذات الثلاث التي هاجرت إلى الجنوب في الحوز. وتتكون الشراردة من : دو بلال، وتكنة، وأولاد دليم.

ذوي بلال (دو بلال)

تنحدر هذه الفخذة الخاضعة للمخزن من القبيلة العربية الكبيرة إداوبلال المتنقلة (رحل) بين الصحراء الغربية وجنوب واد درعة. أعيانها: الحاج المعطي أو الركراگي. عبارة عن دواوير. سوقها: أربعاء بوگادير طرق المواصلات بها: الطريق من آسفي إلى مراكش. حدودها: شمالا : أولاد دليم، وشرقا : المنابهة، وجنوبا : حربيل الأوداية، وغربا : أحمر.

تكنة (قبيلة مخزنية)

أعيانها: "القايد" المختار ولد سعيد العين. عبارة عن دواوير. المياه بها: "انطافي" وآبار بعمق حوالي عشرة أمتار. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا: وشرقا : فروگة، وجنوبا : مجاط، وغربا : أولاد بو السبع، الشياظمة، أحمر [511]

1- المنطقة الوسطى التي توجد فيها مراكش تسمى حوز مراكش، وقال لنا شريف تامصلوحت إنه كان هناك تقسيم قديم يقسم هذه المنطقة إلى لفين آيت زوكوت (زقون) وآيت فاضمت ومن المنتمين إلى آيت زوكوت: الرحامنة، والسراغنة، وزمران، ومسيوة، وكندافة، وغيغاية ونصف سكتانة... إلخ ومن المنتمين إلى آيت فاضمت، أولاد بو السبع، الصبويات (أزرار) نصف سكتاتة... إلخ.

أولاد دليم

أعيانها: "القايد" مويدة ولد السيد، و"القايد" إبراهيم العنتري. عبارة عن دواوير. سوقها: الثلاثا. زاويتها: سيدي أحمد. المياه بها: "نطافي" وآبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين متر. حدودها: شمالا : المنابهة، وشرقا : الرحامنة، وجنوبا : حربيل، وغربا : دوبلال.

الوداية (قبيلة مخزنية)

أعيانها: "القايد" بوسلهام، و"القايد" العربي، و"القايد" سعيد. تنظيمها بها: أولاد بو السبع وتاغدة، وأولاد علوش ودوار "القايد" حمان والسحيمات، وغار الثور، وزاوية سيدي الزوين، والغاف، وزاوية الشرادي وعين سيدي العيون وأولاد الگرن.

حربيل (قبيلة مخزنية)

أعيانها: محمد الحسن. عبارة عن دواوير. أرضها: منبسطة. المياه بها: واد تانسيفت، نطافي، آبار بعمق حوالي عشرة أمتار. طرق المواصلات بها: طريق مازگان إلى آسفي. حدودها: شمالا : الرحامنة، وجنوبا : مراكش، وغربا : الوداية، دوبلال، أولاد دليم.

المنابهة

أعيانها: سي عياد المنبهي، وسي رحال بن التونسي، وسي عباس المنبهي. عبارة عن دواوير ومنازل. سوقها: الأحد. أرضها: منبسطة. المياه بها: آبار بعمق حوالي أربعين مترا. طرق المواصلات بها: طريق مازگان. حدودها: شمالا : وشرقا : الرحامنة، وجنوبا : أولاد دليم، وغربا: دوبلال [513]

الفصل التاسع عشر

قيادة الگندافي

يعد "القايد" سي الطيب الگندافي[1] أحد أقوى "قياد" الأطلس، ومجال نفوذه محدود شرقا: ب"قايد" گلاوة وغربا: "قايد" متوگة، وجنوبا: "قايد" المنابهة.

ويوجد سي الطيب حاليا (يناير 1908) منزويا في قصبته بتاگنتافت، فبعد أن قدم إلى مولاي حفيظ، دخل في صراع مع قواد متوگة وگلاوة وعبدة، ففر من مراكش وقال له أن ينتظر بحرارة الأحداث التي ستقع. والقبائل التابعة للقايد الگندافي هي: أونابن، وتيفنوت، وتيدلي، وتلگجونت، وتلامت، ونصف سكتانة، ونصف اندوزال، ولمزوضية، وأمزميز، وسكتانة، وگدميوة، وأولاد مطاع، وفروگة، وتكنة، ومجاط، وآيت إمور. ويمتد مجال نفوذ الگندافي على طول وادي نفيس على الشكل التالي: فزضاضة: أربعة كوانين، وأغبار: مائة كانون، ومولديغت: عشرون كانونا، وتاگموت: ثلاثون كانونا، وتاگنتافت: أربعون كانونا. وتاسافت: أربعون كانونا تارگاو أوفلا: ستون كانون، وتافغوست: أربعون كانونا، وأرغن: عشرون كانونا. وثلاثني عقوب: مائة وخمسون كانونا، وعلا: خمسون كانونا، وتاغارت: ستون كانونا، وأگونديز: مائة كانونا، وتاخرّى: أربعة كوانين، وإهناين: عشر كوانين، وإمغروان: خمس عشرة كانونا، وتارگة إزدار عشر كوانين، وإگرن نوكريس: ثمانية كوانين. وتوگ الريح: خمس عشرة كانون، تيعيالين (زاوية): خمس كوانين، وثلاث نالنوس: عشر كوانين، وآيت حاسين: ستون كانونا، وإميضل: عشر كوانين، وإمگدال: عشرون كانونا، وأسگين: أربعون كانونا، وتاگاديرت البور: أربعون كانون، ووارگان: مائتا كانون، أگدورنقيك: أربعون كانونا، وقيك: ستون كانونا. سوقها: اثنين تاگندافت. زاويتها: زاوية (تيعيالين). المياه بها: عيون الماء، واد نفيس. أرضها: جبلية. فلاحتها: الحبوب واللوز، والجوز. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى درعة. حدودها: شمالا: الگلاوي، وشرقا: تيفنوت، وجنوبا: أونابن، عين زولت، إذا أومساتوگ، گدميوة، وغربا: أگرگور، سكتانة، وغيغاية، وأوريكا.

معلومات طبوغرافية عنها: من فزضاضة إلى أغبار ساعتان، ومن فزضاضة إلى مولديغت ساعة، ومن مولديغت إلى تاگموت خمس وأربعون دقيقة، وتوجد تاگنتافت في الجهة المقابلة لتاسافت ثلاثون دقيقة، ومن تاگنتافت إلى تاگموت ساعة، ومن تافغوست إلى تارگة أوفلا ثلاثون دقيقة، [515] ومن تافغوست إلى تارگا أوفلا ثلاثين دقيقة، ومن تافغوست إلى أرغن ساعة، ومن تافغوست إلى ثلاث ن يعقوب، ومن ألا إلى أرغن ساعة، ومن ألا إلى تاغبارت ساعة، وتوجد تغبارت في الجهة المقابلة لأگونديز، ومن تاخري إلى تاغبارت ثلاثين دقيقة، ومن تاخري إلى أحناين ثلاثون دقيقة ومن إمغراون إلى تارگا إزدار ساعة، ومن إگر نو كريس إلى تارگا إزدار ثلاثون دقيقة، ومن إگر نكوريس إلى توگ الريح، وتوجد تيعيالين في الجهة المقابلة إلى ثلاث النوس، ومن تيعيالين إلى توگ الريح ساعة، ومن تيعيالين إلى آيت حساين ساعة، ومن إميضل إلى آيت احساين ساعة من إميضل إلى أمگدال ساعة، ومن أسگين إلى تأگاديريت خمس وأربعون دقيقة، ومن ويرگان إلى تاگديريت خمسة وأربعون دقيقة ومن ويرگان إلى أگدور ن كيك ساعتان. من أگدور ن كيك إلى الوادي ساعة.

1- انظر دراسة إدموند دوتي.

ومن أگدور ن كيك إلى كيك ثلاثون دقيقة. وتساوي ن قيك مساحة واد نفيس وواد غيغاية، وتوجد كيك على واد غيغاية.

أولوز

يوجد في ملتقى الواد بين تينفوت وزگموزن، ويحكم آيت أولوز "القايد" العربي الضرضوري صديق "القايد" الگندافي الذي يقتسم معه "قيادة" إداوگماض. وينقسم ايت أولوز إلى (إدا أوگماض وتامسولت. وأماري). السيد / ضريح وزاوية سيدي بو الرجا [516]

إدا أوزال

قبيلة مستقلة بمعنى غير خاضعة للسلطة المخزنية. أعيانها: الشيخ محماد ولد الحاج، والهاشمي ألوكاس، والشيخ ابراهيم البضعة، وسي لحسن من تامدا. قراها : دار أومنصور عشر كوانين، أگلو عشرون كانونا، إفرد خمس عشرة كانونا، المويح ثلاثون كانونا، تامدا خمس وعشرون كانونا، المنيزلة (سوق الأحد) سبعون كانونا، إدا أومومن ثمانون كانونا. طبيعة أرضها : فج بيباون. مياهها: عيون ماء ونطافي. فلاحتها: الحبوب، واللوز، والحناء، والزيتون. طرق المواصلات بها: طريق سوس إلى موگادور. حدودها: شمالا وغربا إدا أوزيكي، شرقا: إدا أومومن، جنوبا : هوارة.

من دار منصور إلى أگلو ثلاثين دقيقة، من أگلو إلى إفرد ثلاثين دقيقة، من إفرد إلى المويح ساعة، من المويح إلى المنيزلة ساعتان (طريق تارودانت) من المويح إلى تامدا ساعتان (طريق تيزنيت) من المنيزلة إلى إدا أومومن ساعة.

سكتانة

أعيانها: "القايد" عمر وناس، "القايد" لحسن الگرگوري. تنظيمها : تيزگين، وزرگة، وأگرگور، وأهل الدرا، والدريات، وأهل أوناس (ملاح)، وتاقريش، وأنامر وسيدي فارس. زاويتها: أقريش، سيدي فارس. أرضها: منبسطة وجبل. فلاحتها: حبوب أشجار الزيتون. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى سوس. حدودها: شمالا: مراكش، وشرقا: غيغاية، وجنوبا: الگندافي، وغربا: گدميوة (واد نفيس)، تامصلوحت.

معلومات طبوغرافية عنها: من تيزگين إلى تامصلوحت ساعة وخمس عشرة دقيقة ومن تيزگين إلى زرگة ثلاثين دقيقة، ومن زرگة إلى أمزميز ساعة ونصف، ومن زرگة إلى تويرگة ساعة وثلاثون دقيقة، [517] ومن زرگة إلى تانسيفت ساعة، ومن زرگة إلى أهل الدار خمس عشرة دقيقة، ومن زرگة إلى دريات ثلاثين دقيقة ومن أگرگور إلى تامصلوحت ساعتان، ومن دريات إلى تامصلوحت ساعة، ومن أهل وناس إلى تامصلوحت ساعة، من أهل وناس إلى أهل الدار ساعة، ومن تاقريش إلى تامصلوحت ساعة ونصف، ومن تاقريش إلى أهل الدار ساعة، ومن تاقريش إلى أنامر ثلاثون دقيقة، ومن أنامر إلى تامصلوحت ساعة وثلاثون دقيقة، ومن سيدي فارس إلى تامصلوحت ساعتان، ومن سيدي فارس إلى أنامر ساعة.

گدميوة

أعيانها: "القايد" الحسن و"القايد" عباس. تنظيمها القبلي بها: أمزميز (ملاح)، تيزگين، آيت الساحلي دار النوس. سوقها: خميس تيزگين، ثلاثاء أمزميز، اثنين دار أكيماخ. أرضها: منبسطة وجبلية. المياه بها: عيون الماء وسواقي. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر وأشجار الزيتون كروم (عنب). طرق المواصلات بها: الطريق إلى سوس، الطريق إلى مضيق الگندافي. حدودها: شمالا : مجاط، أولاد أمطاع، وشرقا : سكتانة، الگندافي، وجنوبا : آيت زوليت، وغربا : إداومحمود، سكساوة، دويران، مزوضة.

مزوضة

أعيانها: "القايد" الحاج عمر المزوضي، الشيخ حمو، بينيك، الشيخ عمر أزلو. تنظيمها: آيت حاسين، وتيهويا أومزيل، ودوار "القايد"، وسيدي سلطان، زاويتها سيدي أحمد أوعلي [518]سوقها: السبت. زاويتها : سيدي أحماد أوعلي، سيدي سلطان، سيدي حاسين. طرق المواصلات بها: الطريق من مراكش إلى امنتانوت. حدودها: شمالا : مجاط، وشرقا : گدميوة، وجنوبا : دويران، وغربا : أولاد بو السبع.

سكساوة

أعيانها: عمر ولد ابيه أو الحافظ، والشيخ أحمد. سوقها : الثلاثا. المياه بها : واد القيهرة. طرق المواصلات بها : الطريق من مراكش إلى إمنتانوت. حدودها : شمالا : أولاد بو السبع، شرقا : دويران. جنوبا إدا أو محمود. غربا انفيفة.

دويران

أعيانها: أحمد بوندي، محمد بن عبد السلام. تنظيمها: القِهرة... إلخ. سوقها: الأربعا. زاويتها: سيدي علي أو محمّد. المياه بها: واد القهرة وعيون الماء. حدودها: شمالا: أولاد بوالسبع، وشرقا : گدميوة، وجنوبا : سكساوة، وغربا : سكساوة.

تالكجونت

أعيانها: الشيخ أحمد البازي "خادم الزاوية"، وتتكون من أگودل، أرضها: جبلية. ومنتوجاتها: أرگان واللوز. إحصاؤها: ثلاثمائة وخمسون كانونا، وبعض الخيول. فلاحتها: الحبوب وبساتين الخضر وأشجار الزيتون كروم (عنب). حدودها: شمالا : إدا أوقايس، المنابهة، وجنوبا : تالمت، وغربا : آيت يونس [519].

آيت إمور

أعيانها: "القايد" العربي و"القايد" باسو، و"القايد" سْعيد، والشريف مولاي علي. عبارة عن دواوير ومنازل. سوقها: سبت دار الجديدة . أرضها: منبسطة. فلاحتها: الحبوب وبساتين وأشجار الزيتون. مياهها: قناة تاسگالت، ووديان وقنوات سقي وآبار. وحدودها: شمالا: الوداية وشرقا: مراكش، وتامصلوحت، وجنوبا: أولاد امطاع، وغربا: فروگة.

مجاط

أعيانها: أولاد "القايد" احمد، وعائلة بن عائشة. تنظيمها: عبارة عن منازل ودواوير. سوقها الأحد. زاويتها سيدي بن داود بن الرقبة، وسيدي سعيد أمحين، وسيدي احماد أوموسى. المياه بها: ساقية أسيف المال، آبار بعمق حوالي سبعة إلى عشرين متر. طرق المواصلات بها: طريق موگودار وطريق سوس. حدودها: شمالا : تكنة، وشرقا : فروگة، وجنوبا: گدميوة، ومزوضة وغربا : أولاد بو السبع.

فروگة

أعيانها: الحاج أحمد بن الجريد. تنظيمها: عبارة عن منازل منعزلة، وقريتين. سوقها الأربعا. وطريق المواصلات: طريق موگادور وطريق سوس. حدودها: شمالا: مجاط، وشرقا: أيت إمور، وجنوبا: گدميوة، وغربا: تكنة.

أولاد مطاع

أعيانها: "القايد" محمد برحال، الحاج الحسن بن لوبان [520] وتتكون من قرى، المرجة، القراقب... إلخ، سوقها: الاثنين. المياه بها: واد نفيس. طرق المواصلات بها: طريق أمزميز. حدودها: شمالا : آيت إمور، وشرقا : أگرگور، وجنوبا وغربا : گدميوة [521]

الفصل العشرون

قيادة متوگة

يقود "القايد": عبد المالك ولد موسى المتوكي المسمى: تيگي[1] القبائل والمجالات التالية: متوگة، ونفيفة، ودمسيرة، وامينتانوت وأسراتو وقيرا، وإدا أوزيكي، ونصف إدا أوزال، وإدا أو تاليلت، وإدا أومحمود، وإدا أوقاس. و"القايد" في هذه اللحظة (يناير 1908) في معسكر مولاي حفيظ طلب مرات كثيرة أن يرجع إلى بلاده من أجل الدفاع عنها ضد "القايد" أنفلوس الذي يهدده بالهجوم عليه مدعوما بالتعزيزات "العسكرية" التي بعث له بها مولاي عبد العزيز. وقبيلة متوگة خاضعة للمخزن، وتنقسم إلى خمس أخماس وهي: انتملين، وإدا أومزروگ، وإلاسن، ورحالة/إروهالن، وإدا أوتليلت. وأعيانها: "القايد" عبد المالك المتوكي والحاج محماد (تارسلت) والشيخ بيهي نايت محماد، وسيدي محماد بن عبد الرحمان. أسواقها: الثلاثا، الأربعا، زاويتها: سيدي عبد المومن قرب تازرلت، فقيرة جدا حوالي مائتي نسمة، لا تؤدي الضرائب مقدمها هو المكي، وسي عبد الرحمان أومسعود الشرفا، بها حوالي ثلاثين إلى أربعين كانونا، والمقدم سي علي، وسيدي أوبراهيم، خمس عشرة كانون، المقدم محمّاد [522]. حدودها: شمالا: أولاد بو السبع، وشرقا : انفيفةو دمسيرة، وجنوبا : إداوزكي، إداوتنان، وغربا: حاحا والشياظمة.

إنتملين

حدودها : شمالا: أولاد بو السبع، وشرقا: انفيفة، وجنوبا: إدا أو مرزوگ، وإدا أو تليلت والرحالة.

إدا أومزروگ، حدودها: شمالا : انتملين، وشرقا : دمسيرة، وجنوبا : ألاسن، وغربا: إدا أوتليت.

ألاسن

حدودها: شمالا : الشياظمة، وشرقا : زهالة (رحالة) إدا أوتليت، وجنوبا : إدا أومرزوگ إداوزيكي، وغربا : حاحا

إدا أوتاليت

حدودها: شمالا : أولاد بو السبع، وشرقا : انتملين، وجنوبا: ت: إدا أوتليت، وغربا: إلاسن.

رحالة (إروهالن)

حدودها : شمالا: أولاد بو السبع، وشرقا: إنتملين، وجنوبا : ووغربا: وألاسن.

انفيفة

أعيانها: الشيخ علي ولد زيدان والشيخ أحمد أزكري وعبد الله ولد باسلام، وقراها: امينتانوت، وسيدي عبد المومن، والحصن، وأسراتو، وثلاثا إروهالن وتتكون انفيفة من العناصر التالية: واد امينتانوت، ووادا البو، وأمزنز. زاويتها: سيدي علي أو محمود. المياه بها: أسيف البور. أرضها: جبل [523]. طرق المواصلات: الطريق من مراكش إلى موگادور ومن مراكش إلى سوس. حدودها: شمالا : أولاد بو السبع، شرقا: سكساوة، وجنوبا: دمسيرة، وغربا : امتوگة.

1- انظر دراسة إدموند دوتي.

دمسيرة

أعيانها: ولد باجا. وقراها هي : إفرن الأربعا، و زاوية رهالة، وزاوية العزيمة، إرغي، أمزري، تيمليلت، أگادير الغاشي، أمزمار، إشمرارن. تتكون قبيلة دمسيرة (ألف كانون) من العناصر التالية : "أواسن، الشيخ عبد الله ولد مبارك أو محاند" و"حسن"، و"أمغار"، و"أحمد أوجعا" و"آيت مسعود الشيخ إبراهيم أوزروالت" و"تاسقمت"، و"الشيخ عمر أوبيهي" و"أفلا إسين"، الشيخ عمر أوشياض (أوشياد)" و"آيت بخور"، مستقلين ويرفضون أداء أي "ضريبة" وأروهالن، الشيخ عبد الله نايت علي أومسعود" أسراتو، والشيخ أحمد أوجاعا و"آيت داود، الشيخ أحمد إگوزالن" وزاوياها: مزلا العريمة، وأرغمي، وبن ناصر (تاسكوت) تيزي، وتامرونت. طرق المواصلات بها: طريق سوس. حدودها: شمالا : أنفيفة، سكساوة، وشرقا : إدا ومحمود، وجنوبا : إدا ومحمود، إدا أوزال، وغربا : إدا أوزيكي، متوگة.

إدا أوزيكي

قبيلة من "شلوح" مولعة بالقتال كثيرا، وتنقسم منذ القديم إلى ست أو ثماني قيادات ووضعها الآن السلطان مولاي عبد العزيز تحت نفوذ "قايد" متوگة، وقسمه إلى أربعة أقسام [524] وهي: (آيت موسى والشيخ المحجوب وأومروش إمگنون والشيخ الحاج بيهي الحالف والشيخ المحجوب وآيت سعيد) سوقها: جمعة آيت موسى. زاويتها: سي مسعود (شرفا)، في جبل تاتريت. ومنتوجاتها: الزيوت، اللوز والغابات، الفهود والأيائل [525]

الفصل الواحد والعشرون

إقليم سوس

صنف فوكو العائلات السوسية إلى عائلتين كبيرتين هما: سكتانة وگزولة. وأعطانا هذا التصنيف مع متغير وهو أن هاتين العائلتين أصبحتا هما الحگة (تحگات) وگزولة، وتقول الأسطورة إن الاجداد المؤسسين لهاتين الأسرتين كانتا امرأتين متساويتي الجمال، ومحاربتين جرتا أتباعهما في صراعاتهما وقسمتا البلاد إلى معسكرين، الأولى سملالية شريفة من سلالة الرسول وأصبح قسمها يحمل اسم گزولة (و"بالبربرية" تاگوزولت) والثانية آنية Aniia/ عامية من أصل أقل حظوة، وكان من أتباعها الحگة ("بالبربرية" تاحگات).

الموگارات سوس (مواسم سوس)

الموگار كلمة أمازيغية تعني "الموسم" وهو معرض مختلف عن سوقها الأسبوعي المعتاد نظرا لطبيعة المعاملات التجارية لكثرة الزبناء. وتتحدد المواعيد السنوية لهذه الملتقيات حسب التقويم الميلادي، وهي مشهورة خاصة بالجنوب. وأحدها يعتبر أكثر شهرة في كل أفريقيا الشمالية وهو : الموگار نسيدي أحمد أوموسى (تازروالت)، ويأتي تميزه نظرا لانعقاده ثلاث مرات، فالموگار الأول يكون في الاثنين الثالث من مارس ويدوم خمسة أيام. والثاني ينعقد في الإثنين الأول من أكتوبر. والثالث ينعقد أربعين يوما بعد الثاني. وبعد ذلك يتعاقب الموسم حسب التنظيم التالي :[526]

* عند آيت باعمران

ثمانية أيام بعد الموگار الأول لسيدي أحماد أوموسى، الموگار تادايغت (آيت جرار) الذي يدوم ثلاثة أيام. ثمانية أيام بعد، سيدي محمد بن عبد الله (إمستيتن) وثمانية أيام بعد، سيدي مسعود أو زينة (آيت لخلط) ويدوم ثلاثة أيام. وثمانية أيام بعد، سيدي محمد او عبد الله وآيت مساكنة) ثلاثة أيام، وثمانية أيام بعد: إسگ.

* في واد نون:

ينعقد أربعين يوما بعد الموسم الأول لسيدي أحمد أوموسى (نهاية أبريل)، الموگار أسرير (زوافيط) ويدوم ثلاثة أيام. وثمانية أيام بعد/ القصابي (آيت لحسن) وثمانية أيام بعد سيدي الغازي (گلميم)ثمانية أيام بعد: الموگار الثاني بأسرير (أزوافيط)

والموگارات أشتوكة هي:

ثمانية أيام بعدسيد سْعيد أو مسعود (آيت ميلك)، وثمانية أيام بعد أوخريب (آيت بلفاع)، وثمانية أيام بعد الحلال (آيت عميرة)، وثمانية أيام بعد، سيدي عبد الله أوبراهيم (آيت وادريم)، ثمانية أيام بعد، سيدي بوسحاب (إدا وأوگران)

ولسيدي مزار ثلاث الموگارات:

ينعقد الأول ثمانية أيام قبل الموگار سيدي أحماد أوموسى، في يوم الاثنين الثاني من مارس. وينعقد الثاني موعد ثمانية أيام بعد الموگار سيدي بوسحاب، وينعقد الثالث في فصل الخريف حيث يصادف الموگار سيدي بو عبد اللي (آيت إبراييم) وهما الملتقيان الأخيران في السنة. وينعقد بعد

ثمانية ايام من الموگار الثاني لسيدي مزار الموگار سيدي محمد الشيشاوي (آيت بكو) [527] وينعقد بعد عيد المولد الموگار سيدي محمد الشبكي (آسا). وينعقد ثمانية بعد أيام الموگار سيدي أحمد أموسى الموگار تاكوشت (آيت صواب) آيت وينعقد بعد ثمانية أيام موسم تالمست (آيت صواب)

واد سوس

يتكون واد سوس من واديين هما: واد تينفرت وواد زگموزن، الأول يأتي بالماء من الأطلس الكبير وجبل سروا، والثاني يأتي بالماء من الأطلس الصغير، وسبق لفوكو أن درس الموضوع[1]، وسنرى أن معلومات مخبرينا تتقاطع بالضبط مع معلوماته.

تينفوت

واد تينفوت ينبع من تيدلي ويجري في اتجاه الجنوب أولا عبر أراضي آيت تاملدو، حيث يسقي: تيدلي وأفزا وإنمغارت، وأزرونايت إلتي (ملاح)، وتامغسلت، وواوزوغت، وواد ميرغت سيجري على اليسار وإمليل، ومزگماط، وتاسولت وأسراگ (ملاح) وأخميد، وتالاميترت [528]. وأمزارگو زاوية شرفا آيت بن ويسادن، الشيخ تاهيا، وملاح وينزل واد مومن على الجبل من آيت أومومن وايغيل، وتيزوروين وإموخسان وتاغنت وتيكررت، وأغلا وأمزاورو وأسكاونو أغفزلي، وتينغردا. ويجري من اليمين إماون تادارين، واد أزگروز (إزگروزن)، حيث يخرج من جبل ويجدان ويعبر آيت تاملدو ويسقي إديكل وتازوگاغت، وتامديليت، وأفلا، وإيكيس وأزگروز. هلوت دار الشيخ إد محاندإگلي، واد إديكل يغذي ويجري رافده على اليمين واد سكسد ورافده على اليسار. ويجري تيميتر نايت إياسن وواد مسوست على اليسار. إگيزي شيخ إد محاند، والملاح، وأغلاد التحتاني، وأغلاد الفوقاني، الملاح، تامادوت وتامسونت، وزاوية سيدي علي أو محاند شرفاء. أگادير، "القايد" سي محمد أعبد الله (مبني فوق صخرة) ومزي، وواد تيزگي بونموسي يجري رافده على اليسار. تاغنيوني وتيثقيت ودوزرو، وتسية. ويدخل هنا واد تينفوت أراضي إونزيزن ويسقي بها [529] :

* أيت أجدان : تينكسيف تاوارسوت وزاوية أكدز (إگورام) وإشاكوكن وإدرگان وأسول والكراك وتاعرات، وإرگناتن، وتابية، الشيخ مولاي عمر، شريف آيت إبراهيم وتازلين وأگدز آيت حمي وتاگديريت آيت حامد أوحمو أساون أوفور.

* آيت حميد: توگ الخير، وكستان، وإبشيشن، وأسكاون، وتينمكول، وألميد، وتاسمرنت، الشيخ محمد حامد ديدا القايد، والسواري، وأگرض، وتارزوتإمين تامگوت، وأولوز.

ويستقبل واد تينفوت عدة روافد أهمها: واد إزگر، وواد إگزندساتن، الذي يجري قبل الالتقاء بواد زگموزن. وينبع واد إزگر من جبل عنتر ويسقي عنتر، ووزوگاغت، وأنامر، وتاويلت، زاوية سيدي علي أمحمّد [530]، وتيميتر[2]، وأنمخزن، وإدو أمغار، وتأگادير يتنايت الحاج، وأمازر، ومنصور،

1- Reconnaissance du Maroc P321.

2- تيميتر اسم غير شائع ويعني: جرس التنبيه

وتيسكي، وإكوردان، وتالموضعت، وتيسگي نايت موقر، وتامزرست، زاوية وملاح، وبوتيزي، وأنروز، وإد لحسن أوعلي، وأساكا، وأرابن، وتاگريوالت، وإگورامن، وآيت أوزاقار، وآيت تبدة، تاغربانت آيت إفغد، الشيخ سي محمد عبدالله، ويعبر واد أشكشكي زگوندر عند آيت إفري حيث توجد مغارة شهيرة[1]. وأويلوز، والشيخ لهوبان، وملاح.

وينبع واد إگر مسداتن من أگاوز ويسقي أگازو، وإمين نتيسكيس، وتيغيزا، وأگادير نگرمسداتن، وأگوني نتامنارت، قبر الربي إسرائيل حيث دفن مع سبعة من أتباعه في مزار شهير. تيغيرت [531] ، وآيت إسماعيل، وتيزگين، وتاميمومين، وإميضر، وزاوية سيدي الكوس يقصدها المسلمون واليهود، وتامغوت، وزاوية المرابطين، أزاغاغن (صحراء).

أونايين

أعيانها: الشيخ محمد إسافارن، والشيخ محمد لأدوز، والشيخ الحسن لآيت مودن. قراها: المضاض: عشرون كانونا، وأمغاز : ثلاثون كانونا، وتامجرجرت: عشر كوانين، وويزلان : خمس عشرة كانونا، وديسك: عشر كوانين، وأدوز ملاح خمسة وعشرون منزلا سوق الإثنين عشرون كانونا، وتامت ترگة : ثلاثون كانونا، وتامدغوست: أربعون كانونا،

وآيت ياسين: أربعون كانونا، وآيت ضرارت : خمس عشرة كانونا، وإجدان: عشر كوانين. وتسگّينت: خمس عشرة كانونا، وتالاوين: عشرون كانونا، وإمّلي: خمس شرة كانونا، وإگلي: ثلاثون كانونا، وتاوريرت البهرين: عشرون كانونا. زاويتها: سيدي امحمّد أو يعقوب. طبيعة أرضها: جبلية. مصادر مياهها: عيون ماء وأودية. فلاحتها: الحبوب، "البساتين والعرصات"، والتمور، والجوز. طرق المواصلات بها: طريق مراكش [532]منفذها: سوس ومراكش.

معلومات طبوغرافية عنها:من المضاض إلى أمغاز ثلاثون دقيقة، ومن المضاض إلى تامجرجرت ساعة، ومن المضاض إلى ديسك ساعة، ومن تامجرجت إلى ويزلان ثلاثون دقيقة، ومن تامجرجت إلى ديسك ثلاثون دقيقة، ومن أدوز إلى ديسك ثلاثون دقيقة، ومن أدوز إلى تامسلومت خمس عشرة دقيقة، ومن تامت ترگا إلى تامسلومت ثلاثون دقيقة، ومن تامترکا إلى تامدغوست ثلاثون دقيقة، ومن تامدغوست إلى آيت ياسين خمس عشرة دقيقة.

رحالة (إرحالن)

ينقسم الرحالة إلى ستة أسداس. أعيانها: "القايد" العربي الضرضوري، الشيخ محمد أوحساين، الشيخ حماد نايت إشو، الشيخ عبد الرحمان لآيت الكياس، مولاي بيحمان آيت أوبري.

* تينزرت : مجردين : ثلاثون كانونا، وآيت صالح : ستون كانونا، وإفناش : أربعون كانونا، ودوترگّة: ثلاثون كانونا، وآيتمراش: أربعون كانونا، ودوار الشرفاء ثلاثون كانونا.

1- أفري يعني مغارة.

* إدا أوكايس: آيت بوسعود: (ملاح من خمسة عشر منزلا) ثلاثون كانونا، وآيت يحي: خمسون كانونا، ودوار أولاد بابا، وزاوية سيدي علي أومنصور (سوق الجمعة) زاوية أولاد ناصر ستون كانونا، وتاكرزمي ثلاثون كانونا، وآيت أولحرش عشر كوانين، وآيت شلول خمس عشرة كانونا، وتاشدريت عشر كوانين. [533]

* العين: تازوكنيت: عشرون كانونا، وآيت الحاج: خمس عشرة كانونا، وتالات: ثلاثون كانونا، وتامزاكيت: أربعون كانونا، وزاوية سيدي أحمد أويعقوب: خمس عشرة كانونا، وتينيگت: أربعون كانونا، وآيت بوليجور: عشر كوانين، وآيت واشو: أربعون كانونا.

* تاغلامت: تاغزريت: خمس عشرة كانونا، وتاملو: عشرون كانونا، وأزازي: عشرون كانونا، وآيتعلي: أربعون كانونا، وتأگاديرت: عشرون كانونا، وستارة: خمس عشرة كانونا.

* تاهالة: تأگاديرت نوديز، وبوروغ (قبة سيدي بورزگ)، وإدا اوتيفت (سوق الاثنين)، وآيت صالح، وأمغلي (ملاح من ثلاثمائة منزل) أماري، وتاوريرت (سوق الاربعا والأحد)، وآيت بن سعيدي (مسكن مزوار الشرفاء مولاي إسماعيل بن ناصر): عشرون كانونا، وأورير: عشرون كانونا، وإمين تگموت: ثلاثون كانونا.

* تيگمينت الاّغت: إدا اوگماض: أربعون كانونا، وآيت حمو: خمسون كانونا، وأگادير نتافوكت: ثلاثون كانونا، وتاگنزة: ست عشرة كانونا، وتأگاديرت: خمس عشرة كانونا، وأومسلاغت: ثلاثون كانونا، [534] وزاوية سيدي عامر أوهارون: أربعون كانونا، وزاوية سيدي بوبكر: ثلاثون كانونا، وآيت إگيت خمسون كانونا.

مصادر مياهها: عيون ماء، وواد سوس. فلاحتها: أشجار الزيتون، والعرصات. طرق المواصلات بها: الطريق من طاطا إلى مراكش وطريق تارودانت إلى درعة. حلفاؤها: آيت سمّگ، وآيت إگاس، وهوارة، وأولاد يحي، أعداؤها: إند وزال، المنابهة.

معلومات طبوغرافية عنها: من آيت بوسعيد إلى دوار الشرفاء (على الواد) خمس عشرة دقيقة، ومن آيت بومسعود إلى آيت يحيى خمس عشرة دقيقة، ومن دوار أولا باها إلى آيت يحي خمس عشرة دقيقة، ومن دوار أولاد باها إلى زاوية سيدي علي أو منصور ثلاثون دقيقة، ومن تاكرزمي إلى آيت أولحرش ثلاثون دقيقة، ومن آيت شلود إلى آيت لحرش خمس عشرة دقيقة، ومن آيت شلود إلى تادشيرت ثلاثون دقيقة، ومن تازكنيت إلى تشدّيرت ثلاثون دقيقة، ومن تازكنيت إلى الواد ثلاثون دقيقة، وتوجد تازكنيت بين آيت الحاج والواد. من تازكنيت إلى تالات خمس عشرة دقيقة، ومن تالات إلى آيت الحاج خمس عشرة دقيقة، ومن تامزگت إلى تاشدّيرت خمس وأربعون دقيقة، وتامزاگت إلى آيت الحاج خمس عشرة دقيقة، وتوجد بين تامزگت بالقرب من زاوية سيدي أحمد أو يعقوب، ومن تينگيت إلى زاوية سيدي أحمد ثلاثون دقيقة، ومن تينگيت إلى آيت بوليجور خمس عشرة دقيقة، ومن آيت واشو إلى آيت بوليجور ثلاثون دقيقة، ومن تاغزيريت إلى الواد خمسة وأربعون دقيقة، ومن تاغزريت إلى تازوكنيت ساعة وخمس عشرة دقيقة، ومن تاغزيت إلى تامدلو خمس عشرة دقيقة،

ومن تاملدو إلى الواد ثلاثون دقيقة، ومن تاملدو إلى الواد ثلاثون دقيقة، ومن تاملدو إلى أزازي خمس عشرة دقيقة، ومن الواد إلى أزازي خمس عشرة دقيقة، ومن آيت على إلى أيت أواشو ثلاثون دقيقة، ومن آيت علي إلى تاگديريت خمس عشرة دقيقة، و[535] وتوجد تأگديرت بالقرب من ستارا (وجنوبا، توجد تأگاديريت نوديز في الجهة المقابلة لآيت واشو، وتوجد بوروغ (قبة سيدي بورزگ) في الجهة المقابلة لتينيگت. ومن إدا أوتيفت إلى آيت سالا خمس عشرة دقيقة، ومن أمغلي إلى ستارة ساعة، ومن أمغلي إلى أماري ساعة، ومن أماري إلى الواد خمس عشرة دقيقة، ومن أماري إلى تاوريرت خمس وأربعون دقيقة، ومن أماري إلى آيت بوسعيد خمس وأربعون دقيقة، ومن أورير إلى آيت بوسعدي ثلاثون دقيقة، ومن أورير إلى إمي نتسمگوت خمس وأربعون دقيقة، وتوجد إدا أوگماض في الواجهة المقابلة لأمغلي. وتوجد آيت حمو في مقابل أماري، ومن أگادير نتافووكت إلى تاگنزا خمس وأربعون دقيقة، ومن تيرغت إلى الواد خمس وأربعون دقيقة، ومن تيرغت إلى أزازي ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن تيرغت إلى تاغزريت ساعتان، ومن تيرغت إلى أومسلاغت خمس عشرة دقيقة، ومن تيغرت إلى زاوية سيدي عمر أو هارون خمس عشرة دقيقة، ومن أومسلاغت إلى زاوية سيدي عمر أوهارونخمس عشرةدقيقة. وتوجد زاوية سيدي بوبكر في الجهة المقابلة لأورير، من آيت إگيت إلى زاوية سيدي عمر ثلاثون دقيقة، ومن آيت إگيت إلى تاغزريت ساعتان وثلاثون دقيقة.

سندالة (إسندالن)

أعيانها: أخيلّو، وأبيوض، وسي الحنفي، وسي عبد الحي. سوقها: خميس زاوية سيدي صالح. قراها: الفيضة، وأصادص، وأورير، أضار وامان، وإيميل، وإمي نإغزر، وأمشطوط، وأمسگط، ودار أبواط، وتيدزي. زاويتها: سيدي صالح. مصادر مياهها: عدة عيون. طبيعة أرضها: جبال. فلاحتها: العرصات، وحبوب. حدودها: شمالا : هوارة، وشرقا: گطيوة، وجنوبا : إلالن/ وغربا : تيدسي [536]

معلومات طبوغرافية عنها: من الفيضة إلى سيدي صالح ثلاثون دقيقة، ومن الفيضة إلى أمسگط ثلاثون دقيقة، ومن الفيضة إلى أصادص ساعتان، ومن الفيضة إلى أصادص ساعتان، ومن الفيضة إلى أضار وامان ساعة وخمس وأربعون دقيقة، ومن الفيضة إلى أسيل ساعة وثلاثون دقيقة، ومن الفيضة إلى إمي نإغزر ساعة، ومن الفيضة إلى أمشتوت خمس وأربعون دقيقة، ومن أصادص إلى أورير ثلاثون دقيقة، ومن أصادص إلى أضار وامان ساعة، ومن أورير إلى تارودانت ساعتان، وثلاثون دقيقة، ومن إسيل إلى أضار أوامان ثلاثون دقيقة، ومن إسيل إلى إمي نإغزن خمس وأربعون دقيقة، ومن أمشطوط إلى أمسگط ساعة، ومن أمشطوط إلى دار أبوط ساعة، وخمس عشرة دقيقة، ومن دار أبوط إلى إمين أغزر ساعة وخمس عشرة دقيقة. [537]

الفصل الثاني والعشرون

”قيادة“ المنابهة (راس الواد)

المنابهة

يحكم "القايد" حيدة أوميس "قايد" المنابهة قسما من الوادي العلوي (الضفة العليا) لواد سوس من ملتقى تيفنوت وزگموزن إلى حدود تارودانت، ويسكن عند أولاد برحيل (أولاد بّا). وتحمل هذه المنطقة اسم رأس الواد، والقبائل الخاضعة حاليا "لقايد" المنابهة هي: المنابهة، وآيت الخص، ورحالة، وهوارة، (ثائرون في هذه اللحظة، يناير 1905)، وأغرن، ومنتاگة، وآيت سمگ، وإداوزال. وقبيلة المنابهة مقسمة إلى ستة أسداس. ويقودها "القايد" حيدة أومويس مؤازرا بابنه وخليفته الحاج حماد. أعيانها: الشيخ ولد باري (آيت جوات)، والشيخ محمد الحاج سعيد، و(أولاد عبد الله) مولزيرك (أولاد زياد).

* أولاد بن عبد الله: ويتكونون من أيت بن نهار: ثلاثون كانونا، وآيت الفليس: خمسة وعشرون كانونا، والجعافرة: ستون كانونا، وأولاد محمد: عشرون كانونا، وأولاد زياد: مائة كانون، وآيت النفوخ: (ملاح من عشرون منزل وسوق الاثنين) ثلاثون كانونا. وأولاد عيسى: ثلاثون كانونا، وآيت أزروال خمسة وعشرون كانونا، وآيت دحمان: ستون كانونا، وأولاد مالك عشرون كانونا، وزاوية بن عبو: ثلاثمائة كانون، وأگويد ير عبو: عشرون كانونا، وزاوية سيدي بوبكرستون كانونا.

* إگلي: ويتكونون من : أگادير الرمل: ثلاثون كانونا، والهري: عشرة كوانين، وأگادير العامر: مائة كانون، والمخاتير: ستون كانونا، والرزاگنة : خمسون كانونا، والعساكرا: ثلاثون كانونا، وفوزار: ثلاثون كانونا، وأولاد عويدات: خمسون كانونا، وزاوية النجومية: ثلاثون كانونا، وزاوية الخرطة : عشرون كانونا.

* الدير: ويتكونون من : شاما: ستون كانونا، وآيت ملوك: أربعون كانونا، والدير: خمسون كانونا، وأولاد عمار بن علي: ثلاثون كانونا، وأگادير بوشهب: عشرون كانونا، والزاوية: عشرون كانونا، وأگدال : ثلاثون كانونا.

* تامازت: ويتكونون من : دوار لحسن أبو رحيم: ستون كانونا، وأهل الدار: ثلاثون كانونا، ودوار القضية: أربعون كانونا، والكراكر: ثلاثون كانونا، وأهل زاوية سيدي عياد: أربعون كانونا، وآيت بوسبعون: كانونا، وعين اشعاوي : عشرون كانونا.

* أولاد برحيل : ويتكونون من : أولاد العصيد : ثلاثون كانونا، وأولاد إبراهيم : عشرون كانونا، والشواطات: ثلاثون كانونا، وأولاد عبو: (ملاح من ثلاثين منزلا)، و(منزل "القايد" إدّا: خمسون منزلا) والبرج: ثلاثون كانونا، والشراير ثلاثون كانونا، وأگادير الشرفا : عشرون كانونا، وأولاد مبارك خمس عشرة كانونا.

* أولاد علاگ : ويتكونون من: أولاد فارس: ثلاثون كانونا، وأولاد زكري: ثلاثون كانونا، وزاوية سيدي عبد الله أوموس: ثلاثون كانونا، وأولاد عمران : ثلاثون كانونا، وأولاد الرجا: خمس عشرة كانونا، والمغافرة: أربعون كانونا، وأولاد إدريس: خمسون كانونا، وإگودار: (سوق الثلاثا) (ملاح من عشرين منزلا) خمسون كانونا، ومديدة: أربعون كانونا، والعونية: ستون كانونا، والجرادات: ثلاثون كانونا.

منتاگة (متاگة)

شيخ هذه القبيلة الجبلية هو الحاج الطيب المنتاگي. أعيانها: سي محمد نايت الحسن.

تنظيمها السياسي: إكرض الأحد (الحد) أربعمائة كانون، وإمولاس أربعمائة كانون، وآيت بوبكر ستمائة كانون، وآيت الحاج ستمائة كانون، وتامالوكت مائة وخمسون كانونا، وأوروان أربع مائة كانون، [540] وبو الحجلات مائتا كانون، وامشرك مائة كانون.

سوقها: ثلاث نملي، زاويتها: سيدي إدر (شرفاء). حدودها: شمالا: الأطلس الكبير، شرقا: سكساوة، جنوبا أيت إگّاس، غربا إدا أو محمود.

أيت زوليت

تيوينغت مائتي كانونا، إفوزارن خمسون كانونا، تالگّجونت ثلاثمائة كانونا، إدو كايس (قيس) أربعمائة كانونا، إد أومساتوگ مائتا كانون، تيگّوگّرا مائتا كانون، أگّونسان مائتا وخمسون كانونا، إمدلاون ثلاثمائة كانون، أزازن أربعمائة كانون، أمزال خمسمائة كانون، تالامت مائة كانون، أگّدال خمسون كانونا، واد النخايل أربعمائة كانون، أيت إگّاس ستمائة كانون.

معلومات طبوغرافية: من أيت بن نهار إلى أيت فليس خمس عشرة دقيقة، من أيت بن نهار إلى أگّويدير عبو ساعتان، من الجعافرة إلى أولاد امْحمّد خمس عشرة دقيقة، من أولاد زياد إلى أولاد امْحمّد، من أولاد زياد إلى عين نفوخ خمس عشرة دقيقة، من أولاد عيسى إلى أيت أزرلوال ثلاثون دقيقة، ومن أيت دحماني إلى أيت أزرلوال ثلاثون دقيقة، ومن أيت دحمان إلى أولاد مالك ساعة، ومن أولاد مالك إلى الواد ثلاثون دقيقة، ومن أولاد مالك إلى زاوية بن عبو خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد مالك إلى أگّويدير عبو ساعة، [541] ومن أگادير الرمل إلى زاوية بن عمر خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير الرمل إلى زاوية آيت دحمان خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير الرمل إلى زاوية الهري خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير الرمل إلى زاوية أگادير العامر خمس عشرة دقيقة، ومن الهري إلى الواد ثلاثون دقيقة، ومن زاوية سيدي بوبكر إلى أساكا خمس عشرة دقيقة، ومن المخاتير إلى أگادير العامر خمس عشرة دقيقة، ومن المخاتير إلى الزركنة ثلاثون دقيقة، ومن المخاتير إلى زاوية الخرصة ثلاثون دقيقة، ومن الزراگنة إلى الواد ثلاثون دقيقة، وتوجد زاوية النجوة بالقرب من زاوية الخرصة. من فوزار إلى أساكا خمس عشرة دقيقة، ومن فوزار إلى شامة خمس عشرة دقيقة. وتوجد زاوية سيدي بوبكر بالقرب من زاوية الخرصة. ومن شامة إلى الواد ساعة وثلاثين دقيقة، ومن شامة إلى آيت ملوك ساعة، ومن الدير إلى أولاد عمار بن علي خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير بوالشعب إلى أولاد عمار بن علي خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير دير بو الشعب (عين) إلى الزاوية خمس عشرة دقيقة، ومن زاويتها إلى أگدال ثلاثون دقيقة، ومن دوار لحسن أوبراهيم إلى الواد ثلاثين دقيقة، ومن دوار لحسن أوبراهيم إلى أولاد عويدات ساعة، ومن دوار لحسن أوبراهيم إلى أهل الدار خمس عشرة دقيقة، ومن أهل الدار إلى الواد خمسة وأربعون دقيقة، ومن أهل الدار إلى دوار القضية خمسة وأربعون دقيقة، ومن دوار القضية إلى الواد خمس عشرة دقيقة، ويوجد دوار القضية بالقرب من الكراكر من

دوار القضية إلى آيت يوب ثلاثون دقيقة، ومن دوار القضية إلى أيت يوب ثلاثون دقيقة، ويوجد أهل زاوية سيدي عياد بالقرب من دوار القضية ومن عين أشاوي إلى الوادي خمسة وأربعون دقيقة، ومن عين العصيد إلى أگويدير عبو ساعتان، وتوجد عين العصيد قرب أولاد إبراهيم، ومن الشواطات إلى أولاد براهيم خمس عشرة دقيقة، ومن الشواطات إلى أولاد عبو خمس عشرة دقيقة، و[542]من البرج إلى أولاد عبو خمس عشرة دقيقة، ومن البرج إلى الشراير خمسة وأربعون دقيقة، ومن الشراير إلى أولاد مبارك ثلاثون دقيقة، ومن أولاد عمران إلى أولاد الرجا ثلاثون دقيقة، ومن أولاد عمران إلى إگودار ساعتان، ومن أولاد عمران إلى زاوية سيدي عبد الله أوموسى ثلاثون دقيقة، ومن أولاد زكري إلى زاوية سيدي عبد الله خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد زكري إلى أولاد فارس خمس عشرة دقيقة، ومن إگودار إلى عين أشاوي خمس عشرة دقيقة، ومن إگودار إلى مديدة خمس عشرة دقيقة، ومن إگودار إلى الجرادات خمس عشرة دقيقة، ومن إگودار إلى أولاد إدريس ساعتان، ومن إگودار إلى المغافرة، ومن إگودار إلى أولاد الرجاح ساعتان، ومن مديدة إلى آيت يوب ثلاثون دقيقة، ومن مديدة إلى عونية خمس عشرة دقيقة، ومن المغافرة إلى أولاد ادريس ساعة، ومن المغافرة إلى أولاد "الرجاح" ساعة، ومن العونية إلى الجرادات ثلاثون دقيقة.

آيت إگاس

أعيانها: الشيخ مبارك ولد عدى، والشيخ إبراهيم نايت العربي، محمد أو أحمد. قراها: إداوزكري: ثلاثون كانونا، وآيت تامنت، قصبة أولشقر (سوق الاربعا): ثلاثون كانونا، والغراب: خمس عشرة كانونا، وتاگادرت: خمس عشرة كانونا، واشبعان: ثلاثون كانونا، وزاوية سيدي موسى: عشرة كوانين، وبووغيول: خمسة عشر كانونا، وإداو أوگويلال: ثلاثون كانونا، وزاويتها: سيديبلا [543] سهل وجبال. مصادر مياهها طبيعة أرضها: نطافي وآبار بعمق حوالي خمس عشرة متر. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات: الطريق من تارودانت إلى مراكش، والطرق من تارودانت إلى درعة.

معلومات طبوغرافية عنها: من إدا أوزكري إلى تارودانت ساعتان، و(عبر واد سوس)، ومن إدا أوزكري إلى تالبرجت خمس عشرة دقيقة، ومن إدا أوزكري إلى إشبان (اشبعان) ساعتان، ومن آيت تامنت إلى تالبرجت ثلاثون دقيقة، ومن آيت تامنت إلى الغراب ساعة، ومن آيت تامنت تأگاديرت ثلاثون دقيقة، ومن تاگاديرت إلى الغراب خمس عشرة دقيقة، ومن تأگاديرت إلى إشبان (إشبعان) خمس عشرة دقيقة، ومن زاوية سيدي موسى إلى واد زياد ساعة، ومن زاوية سيدي موسى إلى أشنان (إشبعان) خمسة وأربعون دقيقة، ومن زاوية سيدي موسى إلى بوغيول ثلاثون دقيقة، ومن زاوية سيدي موسى إلى إدا گويلا ساعة، ومن إدا أوگويلال إلى زاوية سيدي بلال خمس عشرة دقيقة، ومن زاوية سيدي بلا إلى واد سوس ساعة، ومن إداو أوگويلال إلى واد سوس ساعة.

هوارة

قبيلة كبيرة تنقسم إلى قسمين يفصل بينهما واد سوس وهما: أولاد سعيد شمالا: والنعايم وجنوبا:

* أولاد سعيد: ويتكونون من: بورية ثلاثون كانونا، وبوظهر (سوق الأربعا) وخمسون كانونا،

وأولاد الصغير ستون كانونا، وأمرس خمس عشرة كانونا، وزاوية البعارير عشرون كانونا، وبوحصيرة خمسة عشر كانونا، وأولاد عيسى عشرون كانونا، والنواجي ستون كانونا، وأولاد إبراهيم ستون كانونا، والبويدة ثلاثون كانونا، والقشاشدة خمسة وعشرون كانونا [544]، وزاوية حنصالة خمس عشرة كانونا، واسطاحات عشرون كانونا، وأولاد مومن ثلاثون كانونا، وأولاد گروم أربعون كانونا، وگناويات عشرون كانونا، ودوار أولاد بلعيد خمسة وثلاثون كانونا.

* أولاد تايمة: (توجد هاتان الفخذتان سوق الاثنين توجد شمال واد سوس)، ويتكونون من: أرو أربعون كانونا، أزرو ثلاثون كانونا، وأولاد داحو ستون كانونا، وأولاد الكورا ثلاثة خمسة كوانين، والگفيفات (سوق السبت) مائتي كانونا، وأمزو (سوقها أو الجمعة) أربعون كانونا، والحفايا مائة كانون، والگرون ثلاثون كانونا، وأولاد سعيد أهل الرمل مائة كانون، وأولاد محمد خمسون كانونا، وعسيلة ثلاثون كانونا، وآيت قاسم عشرون كانونا، وأولاد داحو خمسون كانونا، وآيت بوتيل مائة كانون، والمهادي (سوق الأحد) ستون كانونا، وأولاد علي سبعون كانونا، وأدوار سيدي أحمد بن يحيى ستون كانونا، وعين مديور مائة كانونا، والگردان مائة كانون، والگلالشة مائة كانون، وإگفاين ثلاثون كانونا. طبيعة أرضها: سهلية. مصادر مياهها: آبار وواد سوس. فلاحتها: الحبوب، و"البساتين والعرصات" على طول سوس، الأرگان. طريق المواصلات: طريق موگادور. وقسما القبيلة هما في حرب دائمة، لكن لهم رغم ذلك أعداء مشتركين مثل صندالة والمنابهة، وإداوزيكي، ومسگينة، وحلفاؤهم: اشتوكة.

معلومات طبوغرافية عنها: [545]

من بورية إلى بوظهر ثلاثون دقيقة، ومن بورية إلى أولاد تايمة ساعة، ومن بورية إلى أرّو ساعة، ومن بوظهر إلى واد سوس ساعة، ومن بوظهر إلى أولاد الصغير ساعة، ومن بورية إلى أمرس بعض دقائق. ويوجد أولاد الصغير في الجهة المقابلة لأمزو. ومن أولاد الصغير إلى زاوية البعارير ساعة، ومن أولاد بوسيرة إلى بويسرة ثلاثون دقيقة، ومن زاوية البعارير إلى بوسيرة ثلاثون دقيقة، ومن زاوية البعارير إلى أولاد ابراهيم ساعة، وتوجد زاوية البعارير في الجهة المقابلة للغابة، ومن دوار عيسى إلى بوسيرة خمس عشرة دقيقة، ومن دوار عيسى إلى النواجي ساعة، ومن النواجي إلى واد سوس ساعة، وثلاثون دقيقة، وتوجد البيضة إلى الجهة المقابلة للمهاري. من البيضة إلى أولاد بو الصيم ساعة، ومن البيضة إلى الكشاشدة ثلاثون دقيقة، ومن زاوية حنصالة إلى الكشاشدة خمس عشرة دقيقة، ومن زاوية حنصالة إلى السطاحات ساعة، ومن السطاحات إلى واد سوس ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن السطاحات إلى أولاد مومن ساعة، ومن السطاحات إلى أولاد گروم ثلاثون دقيقة، ومن أولاد گروم إلى أولاد مومن ساعة، ومن مكناريت إلى الكشاشدة خمس عشرة دقيقة، ومن دوار بلعيد إلى تارودانت ساعة، ومن دوار أولاد بلعيد إلى الگناويات ساعتان، ويوجد أزرو في الجهة المقابلة لأولاد تايمة، وأزرو في الجهة المقابلة لأولاد تايمة، ومن أولاد داحو إلى أزرو ساعة، ومن أولاد داحو إلى واد سوس ثلاثون دقيقة، وومن أولاد داحو إلى أولاد الكورة خمس عشرة دقيقة، ومن الگفيفات إلى أولاد الكورة خمس عشرة دقيقة، ومن الگفيفات إلى واد سوس ثلاثون دقيقة، ومن أمزرو إلى أولاد بكورة

ثلاثون دقيقة، ومن أمزرو إلى الحضاية ساعة، ومن الگورن إلى الحفاية ثلاثون دقيقة، و[546] من الگردان إلى أولاد سعيد أهل الرمل خمسة وأربعون دقيقة، ومن أولاد سعيد إلى واد سوس ثلاثون دقيقة، ومن أولاد سعيد إلى أولاد محمد ثلاثون دقيقة، ومن واد سوس إلى عسيلة ساعة، ومن عسيلة إلى أولاد أمحمد ومن عسيلة إلى أيت سي قاسم خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد دحو إلى آيت سي قاسم خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد دحو إلى آيت بوتيلي ثلاثون دقيقة، ومن أولاد دحو إلى أولاد علي خمس عشرة دقيقة، ومن دوار سي محمد بن يحيى إلى تارودانت ساعة، ومن دوار سي محمد بن يحيى إلى عين مديور، وتوجد الگردان بين دوار سي محمد وعين مديور. وتوجد الگلالشة وأكافاين في الجهة المقابلة لدوار بلعيد.

أرغن

قبيلة "شلوح" يحكمها "القايد" حيدة أومويس، ومجالها قسم جبلي والآخر سهلي، ويسكنها نوعان من السكان في السهل، وهي:

أرزان، الشيخ عبد الرحمان والشيخ محاند بن حمان : آيت أوحاريبا، وآيت عثمان وأيت خلاخل وآيت عبد الله أويس.

*الجرف : ويتكونون من : تيمزور ويلي، والشيخ محمد نايت الحاج وأداور نايت بيهي، وتاگاهور القصبة، والمشرع، وتاراتين، والشيخ نوادر، ثلاثمائة وستة وستون ضريحا / سيدا، وآثار مسيحية وأگادير نبن عناد، وأگادير الجديد، وتأگاديرت نايت عامر، وآيت إعزا، وأنوت، وزاوية سيدي عثمان أومحاند [547]. وفخذات الجبل هي: إدا أوگطي، وإدا أوفينيس، وآيت ميمون، وأيت موسى أو الحاج، وإدا أوزكري، وإدا وانضيف، وإدا وكنسوس، وتالگمونت، وآيت عبد الله، وآيت استتينت، ومرايت، وآيت تامضات، وآيت عثمان، وآيت إبورك، وتامست، وأسيف نوران، وآيت ميمون، وتينيلفت.

آيت سمگ

أعيانها: أحمد أومنصور، الشيخ إبراهيم ولد بازي، علي أوناصر (من تارگة)، علي نايت أگورام. قراها: تالامت: مائة كانون، وتالگجونت (سوق الخميس) : عشرون كانونا، وسينس: عشرون كانونا، وفوزارا: عشرون كانونا، وتيونيفت: ثلاثون كانونا، وأشبارو: ثلاثون كانونا، وآيت يوس: عشرون كانونا، وأفسفاس: خمس عشرة كانونا، وتارگة زگاغن (سوق الاثنين): ستون كانونا، وأمزال (سوق الأحد): مائة كانون، و[548] آيت معلا: خمسون كانونا، وتاجگالت: ثلاثون كانونا، وحنگيرة: ستون كانونا، وإفنگلت: ثلاثون كانونا، وأفتون مسكن "القايد" عبد الرحمان ولد الباشا خمسة وعشرون كانونا، وتابربورت: ثلاثون كانونا، وستارا : عشرة كوانين، وتاوراگت: ثلاثون كانونا، وتوشع: أربعون كانونا، وزاوية سيدي واعزيز: خمس عشرة كانونا، وتيليوة: مائة كانون، وتاگندوت: عشرون كانونا. طبيعة أرضها: جبال وسهول. مصادر مياهها: عيون ماء. فلاحتها: مثل القصور، بالإضافة إلى الورديات (الليمون) والحناء وخاصة: الزعفران. طرق المواصلات بها: الطريق من تارودانت المقابلة للخميس.

معلومات طبوغرافية عنها : توجد تالكجونت في الجهة المقابلة لسينس ومن تالگجونت إلى تالامت ساعة، ومن تالگجونت فوزارا ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تالامنت إلى أشبارو ساعتان، وثلاثون دقيقة، ومن تلامنت إلى أمزال أربع ساعات ومن تيونيغن إلى فوزار ثلاثون دقيقة، ومن آيت يوس إلى أشبارو ثلاثون دقيقة، ومن آيت يوس إفسفاس خمس عشرة دقيقة، ومن إفسفاس إلى تارگة زگاغن خمس عشرة دقيقة، ومن إفسفاس إلى أمزال ساعتان، ومن آيت معلا إلى أمزال ساعتان، ومن آيت معلا إلى أمزال ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن آيت معلا إلى تاجگالت ساعة، ومن آيت معلا أفنگلت ثلاثون دقيقة، ومن آيت معلا إلى أفتوت ساعتان، ومن تاجگالت إلى أمزال ساعتان، ومن تاجگالت إلى حنگيرة ساعة، وثلاثون دقيقة، و[549]من إفنگلت إلى حنگيرة ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن إفنگلت إلى تابربورت ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تابربورت إلى ستارا خمس دقائق، ومن تابربورت إلى توشع ثلاثين دقيقة، ومن تابربورت إلى سيدي واعزيز ساعة، ومن سيدي واعزيز إلى تارگا زوگارن ثلاث ساعات ومن سيدي واعزيز إلى تيلوة خمس عشرة دقيقة، ومن تاگندارت إلى تيلوة ثلاثون دقيقة، ومن تاگنداوت إلى تارگا زوگاغن أربع ساعات.

إندوزال

يبسط القائد الگندافي سلطته "الافتراضية" على الجهة الشرقية لهذه القبيلة. و"لقايد" تارودانت و"القايد" أحمد أومالك مصالح وأتباع بالجهة الغربية. قراها:

جرف مولاي امْحمّد متاع الجرد: الجرف خمسون كانونا، وبوعبان خمس عشرة كانونا، وتارواغت ثلاثون كانونا، والحفاير خمسون كانونا، وأگادير البور (الشيخ مبارك نايت الباز) ستون كانونا، وأگادير ثلاثون كانونا، وزاوية سيدي أحمد أويعقوب خمس عشرة كانونا، وتاسوقت خمسة وعشرون كانونا، وتيفيفت خمسة عشر كانونا، وزاوية الأمان ثلاثون كانونا.

* أكشتيم "القايد" أحمد أومالك: أكشتيم التحتاني ستون كانونا، وتازيوكت خمس عشرة كانونا، والشبيكة ثلاثون كانونا، وأكشتيم الفوقاني ثلاثون كانونا، وإماون عشرون كانونا، وإگودار تناتلت ستون كانونا، وتاشريفت سبعون كانونا [550]، وآيت الحاج ثلاثون كانونا، وأگادير زناگة أربعون كانونا، وإغير التحتاني خمس عشرة كانونا، وإغير الفوقاني عشرون كانونا، وتاللونت خمسون كانونا، وماوت خمس عشرة كانونا، وتافروات أربعون كانونا، وتامرگولت عشرة كوانين، وتامگرت الشرفاء خمس عشرة كانونا، وتاصومت عشرون كانونا.

* تيرگت "القايد" سعيد أخ "القايد" احمد أومالك: تيرگت مائة كانون، وإحشاش ثلاثون كانونا، وإگندار عشرون كانونا، وزاوية سيدي سعيد خمسون كانونا، وإگي ن الفايض ثلاثون كانونا، ودوار الشرفا خمس وعشرون كانونا، وآيت محمد خمس عشرة كانونا، وزاوية سيدي عبد الله أولحسن عشرون كانونا، وإمين الحد خمسة كوانين، وتيدناس ثلاثون كانونا. مصادر مياهها: نطافي، عيون ماء واد سوس. فلاحتها: الحبوب، الزيتون، "البساتين والعرصات"، اللوز. طرق المواصلات بها: الطريق من طاطا إلى مراكش وطريق تارودانت إلى درعة [551].

الفصل الثالث والعشرون

أولاد يحيى ومسگينة

أولاد يحيى

يحكم القبيلة "القايد" الحاج إدريس. أعيانها: الحاج علي بن عيسى (أولاد مسعود) الذي يسكن أگادير الطلبة عند آيت إعزا، ويحكم أيضا تييوت والرگيتة، والشيخ محمد ولد سعيد الأعمى (أولاد الحلوف)، ويزيد نايت عبيد، سي أحمد نايت سعيد الغفيرية، والشيخ ولد آيت عمر، والشيخ محمد ولد بن ملوك (أولاد عجال)، الشيخ بومعيطي الزيدونية.

قراها:[1] أولاد بو تحتانيين ثلاثون كانونا، الزيدونية: قصبة بنيت منذ القديم لحكم تارودانت خمس عشرة كانونا، وأولاد الحلوف: (زاوية سيدي علال بلغازي) (ملاح من عشرين منزلا سوق الثلاثا): ستون كانون، وأولاد ترنة: ثلاثون كانونا، وأولاد رحو أربعون كانونا، سيدي عمارة: ثلاثون كانونا، وأولاد سعيد خمسون كانونا، تاكركورت ثلاثون كانونا وأولاد عميرة خمسون كانونا، وأگادير الطلبة: ستون كانونا، وبن السيفر خمس عشرة كانونا والفريجة: أولاد بو عميرة خمسون كانونا، أگادير عشرون كانونا، والشعبة: أربعون كانونا، وفريكيس: خمسون كانونا، وأولاد عجال: ستون كانونا، وأولاد مسعود: أربعون كانونا، وزاوية علي نايت عمر: ثلاثون كانونا وأولاد بوغيس: (سوق ال الإثنين) سبعون كانونا، وتاگطرانت ثمانون كانونا والرگادة عشرون كانونا: الغفيرية : أربعون كانونا، وأولاد حرابة عشرون كانونا : والسراحنة خمسون كانونا، وأولاد محاد: ثلاثون كانونا، وتيمدويت: (سوق الاثنين، ملاح خمس عشرة منزلا، (دار "القايد" أحمد الجعايدي أربعون) وأولاد عزوز: مائة كانون وأولاد معمر: عشرون كانونا وأولاد عبو الفوقانيين: ثلاثون كانونا. طبيعة أرضها: سهول يسقيها واد سوس. فلاحتها: أشجار الزيتون والعرصات. طرق المواصلات بها: طريق تارودانت.

معلومات طبوغرافية عنها: من أولاد عبو "التحتانيين" إلى تارودانت خمس عشرة دقيقة، و[553] ومن أولاد عبو التحتانيين إلى الزيدانية ساعة، ومن الزيدانية إلى تارودانت ساعة، ومن الزيدانية إلى أولاد الحلوف ثلاثون دقيقة، ومن أولاد الحلوف إلى أولاد ترنة ثلاثون دقيقة، ومن أولاد رحو إلى أولاد ترنة خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد رحو إلى سيدي عمارة خمس عشرة دقيقة، ويوجد أولاد سعيد في الجهة المقابلة لأولاد عميرة وتوجد في الجهة المقابلة للغفيرية ومن تاقرقورت إلى أولاد سعيد خمسة وأربعون دقيقة، ومن تاقرقورت إلى أگادير الطلبة خمس عشرة دقيقة، ومن بن السيفر إلى أگادير الطلبة خمس عشرة دقيقة، والشعبة توجد بالقرب من الفريجة ومن أفريكس إلى الفريجة خمس عشرة دقيقة، ومن أفريكس إلى أولاد عميرة خمس عشرة دقيقة، ومن أفريكس إلى أولاد عجال خمس عشرة دقيقة، (وشرقا:) من أولاد مسعود إلى واد تيوت ثلاثون دقيقة، ومن

1- أولاد الحلوف : ثلاثاء أولاد الحلوف وأولاد مسعود (الشيخ الحاج علي بن حماد زاوية سيدي عياد، ثمان مائة كانون، وحماد، زاوية سيدي عياد، ثمانية مائة كانون، وأگادير الطلبة والزيادانية، الشيخ الحاج تاعربي نايت تاوني وتاگدرت
أولاد عرفة : آيت اصبر (جيران أرازان) والرگادة وأولاد جافر وأوغلاض والسراحنة، الشيخ الطاهر نايت مقدر "السيد" سيد الحاج بن يحيى، سيدي بو ابراهيم وتيمدوين (منزل "القايد" السابق). جبليون: آيت عفير وأولاد محاد (محاض) والبحارة و"السيد" سيدي أحمد البحراوي وتانزرت أولاد أو آيت عامر [552](نهاية الهامش)

أولاد مسعود إلى سيدي عمارة خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد مسعود إلى زاوية سيدي علي بن عمر ثلاثون دقيقة، ومن أولاد عجال إلى زاوية سيدي علي ثلاثون دقيقة، ومن أولا عجال إلى بوغيس ساعة، ومن أولاد عجال إلى تاگطرانت ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن أولاد بوغيس إلى زاوية سيدي علي خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد بوغيس إلى تاگطرانت ساعة، وثلاثون دقيقة، وتوجد الرگادة على واد سوس من الرگادة إلى تاكطرانت خمسة وأربعون دقيقة، ومن الرگادة إلى الشعبة ساعتان، ومن الرگادة إلى الغفيرية ساعتان، ومن أولاد حرابة إلى الغفيرية ثلاثون دقيقة، ومن أولاد حرابة إلى السراحنة خمس عشرة دقيقة، ومن أولاد محاض إلى السراحنة ثلاثون دقيقة، ومن أولاد محاض إلى تيمدوين خمس عشرة دقيقة، ومن تيمدوين إلى أولاد معمر خمسة وأربعون دقيقة، ومن أولاد عزوز إلى تارودانت تسع ساعات ومن أولاد عزوز إلى واد سوس ثلاثون دقيقة، ومن أولاد معمر إلى أولاد عبو الفوقانيين ساعة وثلاثون دقيقة. [554]

مسگينة

أعيانها: "القايد" بن شداخ، اليزيد (التيكيوي). سوقها: الجمعة. قراها: تيكيوين، وتاماعيت، وسيدي بو الذهب، والدرارگة، وإد باها، وتاويريت، ودوار بن الشداخ، وأنونفگر، ودار بن عزا، وأهل إيغيل، وأهل أگفاي، وكناسيس.

إحصاؤها : مائة فرس وألف بندقية وألف كانون . زاويتها : سيدي بوبكر، سيدي صالح. مصادر مياهها: واد سوس. طبيعة أرضها: جبال وسهول. فلاحتها: الحبوب، "خضر" والعرصات طرق المواصلات بها: الطريق من موگادور إلى مراكش. حدودها: شمالا : أگادير وإداوتنان، وشرقا : هوارة، وجنوبا: اشتوكة، وغربا: گسيمة.

معلومات طبوغرافية عنها

من تيكوين إلى أگادير أربع ساعات ومن تيكيوين إلى تاماعيت أربع ساعات. ومن أگادير إلى بوسحاب أربع ساعات ومن تيكيوين إلى الدرارگة خمس عشرة دقيقة، ومن تاماعيت إلى أگادير خمس ساعات من تاماعيت إلى سيدي بو السحاب ساعتان، ومن تاماعيت إلى تاوريرت خمس عشرة دقيقة، ومن سيدي بو سحاب إلى إد باها ثلاث ساعات ومن سيدي بو سحاب إلى إد باها ثلاث ساعات، ومن سيدي بو سحاب إلى تاوريرت ساعة، ومن سيدي بو سحاب إلى دوار بن الشداخ خمس دقائق ومن سيدي بو سحاب إلى أنو نفكر ساعة، ومن سيدي بو سحاب إلى دار بن عزة ومن الدرارگة إلى إد باها ثلاث ساعات من زاوية سيدي صالح إلى دوار بن الشداخ ساعتان، ومن زاوية سيدي صالح إلى أنونفگر خمس عشرة دقيقة، ومن زاوية سيدي صالح إلى دار بن عزة أربع ساعات.

الفصل الرابع والعشرون

قبائل الأطلس الصغير

إلالان (إلالن)

تجتمع كونفدرالية إلالن بين اشتوكة (غربا) وراس الواد (شمالا) وسكتانة (شرقا) وحوض واد درعة (جنوبا). والتنظيم السياسي قديم، ولا يوجد رابط بين هذه الدوائر الجبلية، وهناك إشكال في أصلهم المشترك، ويعتقد إلالن أنهم من الجنوب الشرقي، ويظنون أنهم هجروا بعد زحف القبائل الصحراوية، وينتمون إلى لف تاگزولت، وتتكون هذه الكنفدرالية من ثماني عشرة دائرة. وكل دائرة تحمل اسما مشتركا. و"القايد" "االمفترض" لإلالة هو "القايد" سي الطيب الگلولي، وسلطته تتقلص لأبسط شيء ولنا معه علاقات جيدة لأنه يتحكم في "فج" (ممر) الگندافي الذي تمر منه تجارة المنطقة، وحاول "القايد"-دون جدوى- فرض ضرائب قارة على إلالن، واكتفى فقط مثل كل "قياد" الأطلس بفرض رسوم على السلع التي تمر من نفوذه وبالتالي فإن إلالن مستقلون.

التنظيم : آيت سگدالت حيث توجد زاوية تافقرت و(شرفا) المقدم: سي أحمد لآيت زاحوت، سوق الأحد وإدا أوسكال خمسمائة كانون، وسوق الخميس، فخذتان معروفتان لإخولان ثلاثمائة كانون، واحنتاس [556] تاسدميت، وزاوية سيدي يعقوب، المقدم الحاج الحسن مسداگن، وسوق الخميس واصندال سوق الاربعا واسدس وآيت أومغري وأم صدقت، وتوف العز، سوق الاثنين وإمي الحد، سوق الأحد وتيفشتارن وإدا أوگنضيف، زاوية سيدي مسعود، والمقدم أفيلال، سوق الجمعة تودمة وإرغ وتيركاتين وآيت مرايت. و"سيد"/ صالح إلالن هو سيدي يعقوب، حيث يزوره الناس، وكذلك "صالحة" محلية تسمى تافقيرت.

تازلاخت

قبيلة "مستقلة" (آيت الربعين)، وهي منطقة جبلية وفقيرة ويتم النقل فيها على أظهر الرجال، وخاصة المرأة، وتازلاخت معروفة بمنجميها للحديد و"الأنتموان" ويتردد السكان على الأسواق التالية: أحد إدا وسملال، أربعا إد باها، ثلاثا تواناس، وآيت سعيد وجمعة أملن. زاويتها: سيدي مومنين، وسيدي عبد الله.

سكتانة

توجد قبيلة سكتانة تحت نفوذ "القايد" الگندافي، وأعداؤهم: زناگة، وأوترين، وآيت حميد [557]. أعيانها: الشيخ عبد الله دوتغيفت (توريرت)، والشيخ لحسن لانين إغزر، والشيخ واحمان بتاوريرت الأحد، والشيخ الحسن تازولي من تازولت. قراها: تاوريرت: ستون كانونا، والثلاثا: أربعون كانونا، وأماين خمس عشرة كانونا، وتيمگيدلت: أحد عشر كانونا، وآيت طلحة: ثلاثمائة كانون، وإمگون : خمسون كانونا، وأوزت: (زاوية سيدي محمد گوسيادن) ثلاثون كانونا، وتاكركوست: خمسون كانونا، وتابية نبورو: خمسون كانونا وتازولت: خمسون كانونا، وإگريز: أربعون كانونا، وإغيل نوغو: (ملاح من عشرين كانونا)، وسوق الخميس: ستون كانونا، وتاگجديت: ثلاثون كانونا، وإبركاكن: أربعون كانونا، ومانغامان: (ملاح من ثلاثين كانونا) سبعون كانونا، وآيت يحيا: (ملاح من عشرين كانونا) مائة كانون، وإمگرن ستون كانونا، وانتاون: (سوق الأحد) مائة كانون، وأنامر:

عشرة كوانين، وأگونيفاض: أربعون كانونا، وتاگنافا : عشرون كانونا، وتيدناس خمس عشرة كانونا، وماخفان: خمسة وعشرون. طبيعة أرضها: سهل وجبل. مصادر مياهها: عيون ماء، وواد سكتانة. وفلاحتها: أشجار الزيتون، والتمور، الخضر، والحبوب. منافذها: تارودانت. طرق المواصلات بها: طريق تارودانت إلى تافيلالت. حدودها: شمالا:/ إوزيون، وشرقا : أوترني، وجنوبا : آيت حمد، وغربا: زناگة[558]

معلومات طبوغرافية عنها: ومن تاوريرت الأحد إلى الثلاثا ساعة، ومن تاوريرت الأحد إلى أماين ساعتان، ومن تاوريرت الأحد إلى تيدناس ساعة، ومن الثلاثا إلى أدماين ساعة، ومن الثلاثا إلى تيمگّيلت ثلاثون دقيقة، ومن عين طلحة إلى تيمگّيلت ساعة، ومن عين طلحة إلى إمگون ساعة، ومن أوزت إلى تاكركوست ثلاث ساعات ومن تابية إلى تاگرگوست خمس عشرة دقيقة، ومن تابية نبور إلى تاگرگوست خمس عشرة دقيقة، ومن تابية نبور إلى تازلوت خمس عشرة دقيقة، ومن إگزير إلى تازولت خمس عشرة دقيقة، ومن إگزير إلى إغيل نوغو ثلاثون دقيقة، ومن تاگجديت إلى إغيل نوغو ثلاثون دقيقة، ومن تاگجديت إلى إيوگارن ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن ماخفمان إلى إبوگارن خمس عشرة دقيقة، ومن ماخفمان إلى إمگون ساعة، ومن آيت يحيى إلى أحيان ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن آيت يحيى إلى إمگون خمس ساعات، ومن آيت يحيى إيى اتناون خمس ساعات، ومن آيت يحيى إلى أنامر ثمانية ساعات، ومن أمگون إلى انتاون خمس ساعات، ومن أمگون إلى نامر أربع ساعات، ومن تاگنافة إلى أگونيفاض خمس عشرة دقيقة، ومن تاگنافة إلى تيدناس ساعة.

آيت حميد

يؤدي آيت حميد الذبيحة إلى أولاد جلال وإدا أوبلال، وأعداؤهم هم: أونزين وسكتانة. أعيانها: محمد نايت الشيخ من (تيريت)، وسي واكريم ولد عبد الله أو محمد (يامين أسيف)، والشيخ عبد الرحمان بن تابية. قراها: آيت موسى أو الحاج : مائة كانون، وآبار [559] تاوريرت: مائة كانون به آبار، وآيت أولحسن: خمسمائة كانون، وتامروت: مائة كانون نطافي ماء، وأگدز: خمس عشرة كانونا نطافي ماء وأسروكس ثلاثون كانونا، عيون ماء، ودارولو خمس عشرة كانونا آبار، وواد العسال: مائة بئر وأگادير الجديد خمسون عين ماء، وتاوردا خمس عشرة بئرا، تيريت (سوق الاثنين) : أربعون بئرا، أمزاورو[1] ثلاثون بئرا أمزوگ: عشرون بئرا وآيت با صالح: ثلاثون بئرا وتانكاوت: عشرة آبار، وتازوگاغت: أربعون عين ماء، وإنيكس: خمس عشرة عين ماء، والمدينة، / المدينت: ثلاثون عين ماء، وأدرولي: عشرة آبار، وتامترگة عشرة آبار، وإحلوشن خمس عشرة بئرا، وتينامليز : ثلاثون عين ماء، أنزور (دار بن تابية): عشرة عيون ماء. ويوجد دوار أولاد جلال وأولاد الحسن قرب أنزور. وتسفروين: ثلاثون كانونا، وآبار، وأزرار ثلاثون كانون اوآبارا، وأزرزر خمس عشرة

1- قبيلة جبلية، غنية جدا (آيت أربيعن)، نظام ديمقراطي، رجالها قصيري القامة جدا، يهاجرون إلى وهران للاشتغال في المناجم أو في جني المحاصيل، أرضهم تنبت بعض الكروم وبعض الحبوب. ولهم عادة مميزة حيث يضعون ضمانة قبل أن يطالبوا بالعدالة. وأعيانهم هو: القاضي محمد أحليم، والشيخان: سي محمد أوعبو وسي أحماد أبارا.

كانونا، وآبارا. زاويتها: سيدي بوعيسى أوسليمان (حبات الذهب)، وسيدي محمد أوابراهيم، وسيدي أبراهيم أوعلي (درقاوة)، المقدم الحاج أوبو الخيل، سيدي محمد أوعثمان بامنتليد [560] درقاوة) المقدمون، وأبناؤهم : سيدي السيد، وسيدي عبد الرحمان. طبيعة أرضها: جبل كريكرس، وتانكاوت، وأنزورأگنين. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي عشرة أمتار. فلاحتها: الحبوب، اللوز، الكروم، الجوز. منافذها: من تارودانت إلى موگادور. طرق المواصلات: الطريق من طاطا إلى واد درعة، والطريق من تيمينت إلى درعة. حدودها: شمالا : سكتانة، وشرقا : أونزين وجنوبا : القصور، وغربا : آيت ملال.

معلومات طبوغرافية عنها: من تاوريرت إلى آيت موسى أو الحاج ثلاثون دقيقة، ومن تاوريريت إلى تانمروت ساعة، ومن تاوريريت إلى أسروكس ساعة، ومن أگلز إلى تانامروت خمس عشرة دقيقة، ومن أگلز إلى أسروكس ساعة، ومن دار أوعلوا إلى أسروكس ساعة، ومن دار أوعلوا إلى أولاد العسال خمس عشرة دقيقة، ومن تاوردا إلى أگادير الجديد ثلاثون دقيقة، ومن تاوردا إلى تيريت ساعة، ومن أمزاورو إلى تيريت ثلاثون دقيقة، ومن أمزوارو إلى أمزوگ ساعة، ومن آيت با صالح إلى أمزوگ ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن آيت باصالح إلى تامكاوت ساعة، ومن تازوگاغت إلى تاوردا ساعتان، ومن تازوگاغت إلى تيريت ساعتان، ومن تازوگاغت إلى انيكس ثلاثون دقيقة، ومن المدينت إلى أگادير الجديد ثلاث ساعات ومن المدينت إلى إنيكيس ساعتان، ومن المدينت إلى أدرولي ثلاثون دقيقة، ومن تامترگة إلى أورولي ثلاثون دقيقة، ومن تامتورگة إلى تينماليز ثلاث ساعات من تامتورگة إلى تسفروين ست ساعات ومن تامترگة إلى أزرار ساعتان، و[561] ومن تامترگة إلى إزرزز ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن إحلوشن إلى آيت موسى أو الحاج ساعتان، ومن إحلوشن إلى آيت أولحسن ثلاث ساعات من تينما ليز إلى أنزور خمسة وأربعون دقيقة، ومن تينما ليز إلى تيسفروين ثلاث ساعات ومن تينما ليز إلى أزرار أربع ساعات ومن تينما ليز إلى أزرزز أربع ساعات ومن أزرار إلى إزرزز ساعة.

آيت ملول

أعيانها: أحمد علي، وعبد الله نايت الحاج، وسي الحسن ولد سيدي حماد. أرضها: هضاب. مصادر مياهها: منابع عيون ماء ونطافي. فلاحتها: الحبوب، تربية المواشي. منفذها: أسواق سوس. طرق المواصلات بها: طريق طاطا إلى سوس عبر تانگارف حدودها: شمالا : إداونيضيف، وشرقا: آيت حميد، وجنوبا : طاطا، وغربا: إداونضيف.

إداونيضيف

قراها: منازل متفرقة، تاگموت:خمسون منزلا، آيت كين: ثلاثون منزلا مع أگادير. الأرض: بلاد جبلية. مصادر مياهها: عيون الماء. فلاحتها: التمر، اللوز، الشعير، الذرة. منفذها: أسواق سوس. طرق المواصلات بها: طريق طاطا إلى مراكش. حدودها: شمالا: إندوزال، وشرقا : آيت ملول، وجنوبا: طاطا، وغربا: أرغن وتؤدي تاگموت وآيت كين، الذبيحة إلى حميد ولد إبراهيم، والهرزلا ومن إدا

أوبلال. وباقي القبيلة تؤدي الذبيحة إلى أحمد ماه ولد السيد الساكن بتوگ الريح بإدا أوبلال، وإدا ونيضيف أعداء، أولاد جلال[562].

القْصور

نعطي اسم القْصور لدوائر "الشلوح"، الذين يسكنون الجهة الجنوبية للأطلس الصغير، ويسير هذه القصور جماعاتها، وعلى أغلبهم ذبائح إلى قبائل أولاد جلال ودوبلال. أعيانها: عبيد بن إلال، الحاج سالم بن كروم، حيدة بن كروم، حويس بلحاج محمد ولد مبارك بن عمر، الحاج موسى بن عبلا. إحصاؤها: إمين ثلاث، زاوية سيدي محمد أو يعقوب : مائة كانون، والركن : خمس عشرة كانونا وإليغ: مائة كانون وتيسناسامين: ثلاثون كانونا، وأقا إغان : ثلاثمائة كانون وسرغينة: عشرة كوانين، وتارگانت: خمس عشرة كانونا، وتيسكمودين: أربعون كانونا: وإدا أولسطن: ثلاثون كانونا، وقصبة الجوع : مائتا كانون، تغيت: ثلاثون كانونا، والخنگ سيدي رزوگ: عشرة كوانين، وأقا إگيرن: ثلاثون كانونا، وأقا نايت سيدي: عشرة كوانيين. تيسينت أگادير: مائة كانون، وآيت ويران: مائة وعشرون كانونا، والزاوية : ستون كانونا وتازنوت : خمس عشرة كانونا، وبني موسى: عشرون كانونا، ومغيميمة: ستون كانونا. طبيعة أرضها: سهلية خالية يحدها جبل باني. مصادر مياهها: عيون الماء. فلاحتها: أشجار الزيتون، التمر، الكروم، العرصات. طرق المواصلات بها: طريق سوس إلى درعة وتافيلالت، ومن تيندوف إلى مراكش .

معلومات طبوغرافية عنها:

من الركن إلى إمي ن تاتلت ثلاثون دقيقة، و [563] ومن الركن إلى إليغ ساعة، ومن تيسناسمن إلى إليغ ساعة، ومن تيسناسمين إلى أقا إغان ساعاتان، ومن سرغينة إلى أقا إغان ثلاثون دقيقة، ومن سرغينة إلى تارگانت خمس عشرة دقيقة، ومن إدا أولسطن إلى تارگانت ساعة، ومن إداولسطن إلى تيسگمودين خمس عشرة دقيقة، ومن تيغيت إلى الخنگ ساعتان، ومن تيغيت إلى أقا نايت سيدي ساعة. واد تليت (تانزيدا): "من تاسيندة إلى اسنگارن ساعة، ومن اسنگارن إلى زاوية سيدي مرّي ساعتان، وثلاثون دقيقة، وإمي ن تليت" ومن تانزيدا إلى آقا نايت سيدي ساعة، ومن أگادير إلى أقا نايت سيدي ساعة، ومن أگادير إلى أقا آيت ويران خمس عشرة دقيقة، ومن زاوية تاسينت إلى تازويت ثلاثون دقيقة، ومن بني موسى إلى تازنوت ثلاثون دقيقة، ومن بني موسى إلى مغيميمة ساعتان، وثلاثون دقيقة.

تانزيدا (تانزيضا)

تتكون من ثلاث ْقصور على طول واد تانزيضا. تانزيضا ثلاثون كانونا، وإسنگارن أربعون كانونا، وإمين تليت (زاوية سيد مري) ثلاثون كانونا. مصادر مياهها: أنهار تجري طيلة السنة. فلاحتها: منتوجات باقي القصور نفسها.

معلومات طبوغرافية عنها:

إمي ن تليت ساعاتان وثلاثون دقيقة من إسنگارن، وإسنگارن على بعد ساعة من تانزيضا، ومن تانزيضا إلى آقا نايت سيدي ساعة [564].

طاطا

أعيانها: "القايد" حماد من تينزرت، وأحمد ماه ولد السيد (توگ الربح) "القايد" مولود ولد القايد علي (توگ الريح). القصور: مستقرون ورحل. قراها: تيغرمت (شرق الواد: أربعون كانونا، وآقا إزونكاض: خمس عشرة كانون، واديس (سوق الخميس): وتوگ الريح: أربعون، وتينتازارت: ستون كانونا، وتورسولت ستون كانونا، والقصابي: خمس عشرة كانونا، والجباير: أربعون كانونا، وتايتي (تييتي) أربعون كانونا، وإدا أو لسطن عشرة كوانين، وانظيفيان: خمس عشرة كانونا، وتيگيزمرت: أربعون كانونا، وآيت ياسين: خمس عشرة كانونا وأگو شگال (أگوجگال): أربعون كانونا، وأگادير لهنا: (ملاح من ثلاثين كانونا، وسوق الثلاثا): ستون كانونا. طبيعة أرضها: منبسط/ سهل كبير. فلاحتها: التمر، وأشجار الفواكه، وكثير من الورود. طرق المواصلات بها: طريق تارودانت إلى گنيفة. طاطا تابعة لإداوبلال الذين يسكنون قسما منها. حدودها: شمالا : إدا أونيضيف، وشرقا : القصور، وجنوبا: واد درعة، وغربا : أيت أمريبط.

الفصل الخامس والعشرون

اتحادية اشتوكة

تشكل كنفدرالية اشتوكة أحد أهم التجمعات في الجنوب المغربي، ومن الصعب تحديد العلاقات فيما بين القبائل المكونة لها مادامت متحركة، وتهب الآن في الوقت الحالي ريح مميزة في الجنوب المغربي و"تفتت" كل اللفوف "الشلحية" ("شلوح"، أمقوم) وينقسم اشتوكة عموما إلى قسمين: قبائل الساحل تحت اسم اشتوكة، وقبائل الجبل تنتمي إلى مجموعة آيت وادرين/ (وادريم). وتتكون اشتوكة من: كسيمة[1]، وإد باها، وإدا أومحمود، وإداومنو، وأمشگيگين (إمشگيگن)، وتيرست، وإداأوگاران، وآيت عميرة، وإنشادن، وإلالن، وآيت إعزة، وإداأوبوزيا، وآيت عمر، وآيت بگو، وآيت بوطيب، وآيت بلفاع، وآيت ميلك، وآيت إلوگان . [566] ويتكون أيت وادريم : من إكونكا، وآيت مزار، وإد باها، وآيت علي، وأيت طوزمت، وآيت موسى، وإمديون، وآيت ويگمان، وامخيين، وآيت فلاس، وآيت واغزن، وآيت أرغن، وإمكيون، وآيت توشكا.

گسيمة

أعيانها: الحاج الحسين، وعبد الرحمان ولد الحاج العربي الگسيمي ("القايد"). الأسواق: الثلاثا. قراها : إنزگان (مقر "القايد")، وآيت ملول، والدشيرة، وبنسرگاو، وتيگمي أوفلا، ولمزار، وتاراست. زاويتها: لمزار، وتاراست، السيد سيدي صالح . مصادر مياهها: عيون الماء، واد سوس. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب والعرصات، والأرگان. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى سوس. حدودها: شمالا: أگادير ومسگينة، وشرقا: مسگينة، وجنوبا: اشتوكة، وغربا : البحر.

معلومات طبوغرافية عنها: من آيت ملول إلى أگادير ثلاث ساعات، ومن آيت ملول إلى الدشيرة خمس عشرة دقيقة، ومن آيت ملول إلى لمزار خمسة وأربعون دقيقة، ومن إنزگان إلى الدشيرة ثلاث ساعات، ومن إنزگان إلى آيت ملول ثلاثون دقيقة [567]

1- تشكل كسيمة، ومسگينة، وآيت عميرة، وإنشادن لفا يحمل اسم أهل واد سوس.

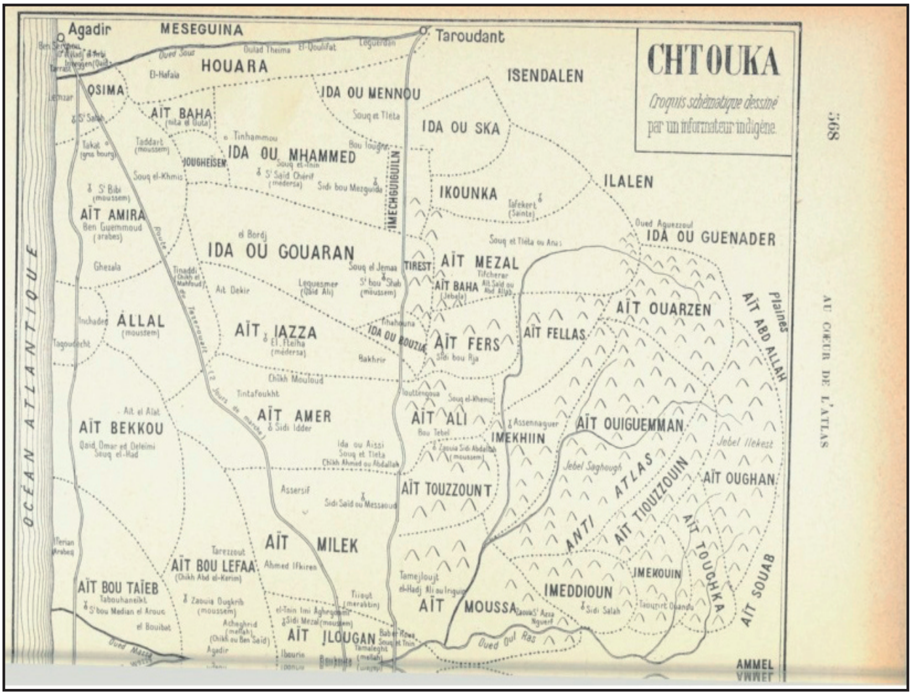

ومن إنزگان إلى أگادير ساعتان، وثلاثون دقيقة، ومن إنزگان إلى لمزار خمسة وأربعون دقيقة، ومن بنسرگاو إلى أگادير ساعة وثلاثون دقيقة، ومن بنسرگاو إلى الدشيرة ثلاثون دقيقة.

إد باها (متاع لوطا)

. أعيانها: الشيخ بوهوش ولد بولفرا. قراها: أگادير، الدشيرة. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي ستة أمتار. طبيعة أرضها: سهلية رملية. فلاحتها: الحبوب. حدودها: شمالا: مسگينة، وشرقا : إدا أومحمود، وجنوبا: إيو غيسن وغربا : آيت عميرة.

معلومات طبوغرافية عنها: أگادير والدشيرة متقاربتان، ومن الدشيرة إلى سيدي بيبي ساعة وثلاثون دقيقة، ومن الدشيرة إلى تاوريرت ساعتان وثلاثون دقيقة.

إدأمْحمد

أعيانها: حماد أو السايح، وصالح أو الحوز، وإبراهيم أوحمان. سوقها: الاثنين.

قراها: تالبرجت، وآيت بلا، وزاوية سيدي سعيد الشريف، ودوار حماد أو السايح، ودوار صالح أو الحوز، وبيوگرى، دوار أيت ناضر تينحو. زاويتها: سيدي سعيد الشريف (مدرسة) مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمسون مترا. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى آيت أوبلال وطريق تارودانت إلى فم الحصن. حدودها: شمالا : آيت عميرة، وشرقا : هوارة، وجنوبا : إداومنو، وغربا : آيت إعزا وإد باها.

معلومات طبوغرافية عنها: [569]

من تالبرجت إلى أگادير ند باها ساعة وثلاثون دقيقة، ومن تالبرجت إلى زاوية سيدي بيبي ساعتان، ومن تالبرجت إلى تاوريرت ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن تالبرجت إلى آيت بلا ساعة، (وغربا): من تالبرجت إلى زاوية سيدي سعيد الشريف ثلاثون دقيقة، ومن تالبرجت إلى دوار حماد أوسايح ساعة، ومن آيت بلا إلى زاوية سيدي سعيد الشريف ثلاثون دقيقة، ومن آيت بلا إلى دوار حماد أو السايح ساعة، ومن آيت بلا إلى صالح أو الحوز ثلاثون دقيقة، ومن آيت بلا إلى بيوگرى ساعة، وخمس عشرة دقيقة، ومن دوار صالح أو الحوز إلى دوار آيت أگادير ساعة، ومن دوار صالح إلى دوار حماد أو السايح خمسة وأربعون دقيقة، ومن زاوية سيدي سعيد أو الشريف إلى بيوگرى خمس عشرة دقيقة، ومن دوار حماد أو السايح إلى آيت نادير ساعة.

إدا أومنو

أعيانها: حماد أبخاس، إبراهيم أخ الحاج المنتاگي. سوقها: ثلاثا سيدي سعيد. قراها: تادوارت، وبوعلامن، والخربة، وتاگراگرا، وتافراوت، وإنير. زاويتها: سيدي سعيد الشريف. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي ثلاثون مترا. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى تارودانت. حدودها: شمالا : هوارة، وشرقا : تيدسي، إداوسكا، وجنوبا : إكونكا، إدأوامحمود، وغربا : إدا أومحمد.

معلومات طبوغرافية عنها

من تادوارت إلى تالبرجت أومْحمد ثلاث ساعات، من تادوارت إلى دوار آيت نادير ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة، ومن تادوارت إلى بوعلا ثلاثون دقيقة، ومن تادوارت إلى الخربة ثلاثون دقيقة، و[570] من تادوارت إلى تاگراگرا ساعة، ومن تادوارت إلى تافراوت خمسة وأربعون دقيقة، ومن تادوارت إلى إغير ساعة، و دقيقة، و من بوعلا إلى تالبرج (إداو ا مْحمد) ثلاث ساعات ومن بوعلا إلى الخربة ثلاثون دقيقة، ومن الخربة إلى تاگراگرا خمسة وأربعون دقيقة، ومن تاگرگرا إلى تافروات ثلاثون دقيقة، ومن تاگراگرا إلى إغير ثلاثون دقيقة، ومن تاگراگرا إلى سيدي سعيد ثلاثون دقيقة، ومن تافراوت إلى إغير خمسة وأربعون دقيقة.

إداوگران

أعيانها: علي أوحمدان، وأحمد أوبراهيم. أسواقها: الجمعة، موسم سيدي بوسحاب. قراها: الگزمير، أزوگاغ، وتين امحمد أوحمو، وإيغيل الفيض، وإمزيلن، والبرج، وتيزدي، وآيت العاطي، وتاگاديرت، وتينهمو، إن واشتوك، ودوار عبد الله أوعلي، وتيريست، وآيت بواري، وتالميت، وبوتوتلا، وإعتران، وتين حافي، توسوس سيدي أحمد. زاويتها: سيدي بوسحاب. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي أربعون إلى خمسون مترا. طبيعة أرضها: سهل وجبال. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى تارودانت. حدودها: شمالا : إد باها، إداأو امحمد، وشرقا: إكونكا، آيت هزال، وجنوبا : آيت إعزا، وغربا : آيت عميرة، ألال.

معلومات طبوغرافية عنها:

من الگزمير إلى بيوگرى (إداأو امحمد) ثلاثة ساعات، ومن الگزمير إلى تالبرجت (إداو امْحمّد) ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة، ومن الگزمير إلى تاوريرت (آيت عمار) ساعتان، وخمسة وأربعون دقيقة، ومن الگزمير إلى أزوگاغ ثلاثون دقيقة، ومن الگزمير إلى تالنوست ثلاثون دقيقة، ومن الگزمير إلى إغيل الفيض ساعة، ومن الگزمير إلى إمزيلن ثلاثون دقيقة، ومن الگزمير إلى بوتوتلا [571] ساعة ومن الگزمير إلى البرج ساعتان، ومن الگزمير إلى تينزضي ثلاث ساعات، ومن الگزمير إلى أدوار القصر ساعة وخمس عشرة دقيقة، ومن الگزمير إلى توگران ساعة، ومن الگزمير إلى تين الباز ساعة وثلاثون دقيقة، ومن الگزمير إلى توشكر ساعة، وخمسة وأربعون دقيقة، ومن أزوگاغ إلى بيوگّرى ساعتان، وثلاثون دقيقة، ومن أزوگاغ إلى بوتولا ساعة، ومن أزوگاغ إلى توحسون ساعتان وخمسة وأربعون دقيقة، ومن أزوگاغ إلى تالمرست ثلاثون دقيقة، ومن أزوگاغ إلى تين محمد أوحمو ومن تالمرست إلى إغيل الفيض خمسة وأربعون دقيقة، ومن تالمرست إلى تالميت خمسة وأربعون دقيقة، ومن تالمرست إلى بوتاتا خمسة وأربعون دقيقة، ومن تالمرست إلى تيرست ثلاثة ساعات، ومن تين امحمد أحمو إلى بيوگرى ساعة، ومن إمزيلين إلى إغيل الفيض ثلاثون دقيقة، ومن إمزيلن إلى البرج ساعة، ومن إغيل الفيض إلى تالميت ثلاثون دقيقة، ومن البرج إلى تينزضي ساعة، ومن البرج إلى عين العاطي ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن البرج إلى توگاران ثلاثون دقيقة، ومن البرج إلى سيدي بوسحاب ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تينزضي إلى آيت عطي ساعة وثلاثون دقيقة، ومن تينزضي إلى تأگاديرت ساعة، ومن تيزنضي إلى تين همو خمسة وأربعون دقيقة، ومن تينزضي إلى إن واشتوك خمسة وأربعون دقيقة، ومن عين العاطي إلى تيرست ساعتان، ومن عين العاطي إلى سيدي بوسحاب ثلاثون دقيقة، ومن عين العاطي إلى تاگاديرت ثلاثون دقيقة، ومن تاگديريت إلى تين همو ثلاثون دقيقة، ومن تاگديريت إلى واشتوكا ثلاثون دقيقة، ومن تين همو إلى واشتوك خمس عشرة دقيقة، ومن توگّران إلى دوار القصر خمسة وأربعون دقيقة، ومن دوار القصر إلى تين الباز ثلاثون دقيقة، ومن تين الباز إلى تين الحافي ثلاثون دقيقة [572] إلى تولشگّر ثلاثون دقيقة، ومن تين الباز إلى دوار عبد الله أوعلي خمسة وأربعون دقيقة، ومن تولشگّر إلى توحسون خمس عشرة دقيقة، ومن توحسون إلى دوار عبد الله أوعلي من تيرست إلى إيتران ساعة وثلاثون دقيقة، ومن تيرست إلى سيدي بوسحاب ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تيرست إلى آيت بواري ثلاثون دقيقة، ومن إياتران إلى تالميت ساعة، ومن إياتران إلى بوتوتلا ساعة، ومن إياتران إلى لمرس سيدي أحمد ثلاثون دقيقة، ومن بوتوتلا إلى مرس سيدي أحمد خمسة وأربعون دقيقة.

آيت عميرة

أعيانها: سعيد ولد سعيد أومبارك. أسواقها: الخميس، موسمها: تادارت، وموسم سيدي بيبي. قراها: تاقات، والبرج، وآيت ميمون، وأنامور، بن گمود (عرب)، وأدوار، وزاوية سيدي بيبي، وعين عدي، وتوسباب، وتوامال، وغزالة. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي سبعة إلى ثمانية أمتار. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا : واد سوس، وشرقا : اشتوكة أوعمار، وجنوبا : إنشادن، أيت بكو، وغربا : البحر.

معلومات طبوغرافية عنها:

من تاكاط إلى البحر ساعة، ومن تاكاط إلى أگادير ثلاث ساعات، ومن تاكاط إلى إنزگان (گسيمة) ساعتان، ومن تاكاط إلى البرج ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تاكاط إلى آيت ميمون ثلاثون دقيقة، ومن البرج إلى إنزگان ساعتان، ومن البرج إلى أنامر ساعة [573]، ومن البرج إلى بن گمود ساعة، ومن البرج إلى أدوار ساعة، ومن البرج إلى سيدي بيبي ساعة وثلاثون دقيقة، ومن آيت ميمون إلى البحر ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن آيت ميمون إلى أنامر ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن آيت ميمون إلى بن گمود خمسة وأربعون دقيقة، ومن أنامر إلى أدوار خمسة وأربعون دقيقة، ومن أنامر إلى تين عدي ساعة، ومن أنامر إلى توصباح ساعتان، ومن أنامر إلى نوامال ثلاث ساعات من أدوار إلى سيدي بيبي ثلاثون دقيقة، ومن أدوار إلى تين عدي خمسة وأربعون دقيقة، ومن تين عدي إلى توصباح خمسون دقيقة، ومن توصباح إلى توامال ساعة.

إنشادن

أعيانها: الحاج إبراهيم من آيت دكير. سوقها: أحد بن دليمي. قراها: تكون قرية واحدة كبيرة، إنشاد وتاگودشت. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمسة إلى ستة أمتار. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب . منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا: آيت عميرة، وشرقا : ألال، وجنوبا : آيت بكو، وغربا : البحر، وإنشادن ألان في حرب مع آيت بكو (يناير 1908).

آيت إعزا

أعيانها : الناجم ولد البشير . سوقها : موگادور . قراها : أنو الجديد، تين "القايد"، زاويتها، إنكوري، فطايح، تين آيت دكير [574]. زاويتها: أيت إعزا حيث ينعقد الموگار الفطايح (مدرسة). مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمسون متر. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. حدودها: شمالا : إدا أوگواران، وشرقا : إداو بوزيا، وجنوبا : آيت عامر، وغربا : ألال.

معلومات طبوغرافية عنها:

من أنو الجديد إلى أگادير نايت باها ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن أنو الجديد إلى تين "القايد" خمسة وأربعون دقيقة، ومن أنو الجديد إلى زاويتها خمسة وأربعون دقيقة، ومن تين "القايد" إلى زاويتها ثلاثون دقيقة، ومن تين "القايد" إلى بيوگرى ساعة، وخمسة وأربعون دقيقة، ومن تين "القايد" إلى إنكورّي خمسة وأربعون دقيقة، ومن إنكورّي إلى زاويتها ثلاثون دقيقة، ومن إنكورّي إلى فطياح خمس عشرة دقيقة، ومن إنكوري إلى تين آيت الدكير خمسة وأربعون دقيقة، ومن فطياح إلى إنكوري ثلاثون دقيقة، ومن فطايح إلى تين آيت دكير ثلاثون دقيقة.

إدا وبوزيا

أعيانها : الشيخ امْحمّد من آيت وجان. قراها : إحاونا (إهاونا)، وتامودوجوت، وبيزوران، ودوار آيت بلبارود، وبوطبلات، وبوثابت، وإمين أغومي. زاويتها: سيدي فارس مصادر مياهها: آبار

بعمق حوالي خمسون مترا. طبيعة أرضها: سهلية. طرق المواصلات بها: طريق تيزنيت إلى تارودانت. حدودها: شمالا : إداو أوگواران، وشرقا : آيت إعزا، وجنوبا : آيت ميلك، وغربا : آيت فارس.

معلومات طبوغرافية عنها:

من إحونا إلى أشغوغي (ببلفاع) ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن إحونا إلى زاوية أنغريب ثلاثة ساعات، ومن إحونا إلى تامجوض ثلاثون دقيقة، [575] ومن إحونا إلى بيزوران ثلاثون دقيقة، ومن تامجوط إلى دوار بلبارود ساعة، ومن تامجوط إلى بيزوران ثلاثون دقيقة، ومن تامجوط إلى زاوية سيدي فارس خمسة وأربعون دقيقة، ومن بيزوران إلى دوار آيت بلبارود خمسة وأربعون دقيقة، ومن بيزوران إلى بوطبلاط خمسة وأربعون دقيقة، ومن بيزوران إلى بوثابت ساعة وثلاثون دقيقة، ومن بيزوران إلى إمين تغگمي ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن دوار آيت بلبارود إلى بوطبلاط ساعة، ومن آيت بوتابث إلى إمين أغكومي خمسة وأربعون دقيقة.

آيت عامر

أعيانها: الشيح مولود أومبارك أوعلي، والشيح أحمد أوعبد الله (إدا أوعيسى). سوقها: الموگارن سيدي إدر. قراها: تين تافوكت، تين بوسعيد، إمين أوغگمي، (يمكن أن يكون مثل الأخير أعلاه) بحير، تاوريرت، أگادير، دوار أمولود. زاويتها : سيدي إدر. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي ثلاثين إلى أربعين مترا. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا : آيت إعزة، وشرقا : إدا أوبوزيا، آيت علي، وجنوبا : آيت ميلك، وغربا : آيت بلفاع، وآيت بكو.

معلومات طبوغرافية عنها:

من تين تافوكت إلى إنكورّي (آيت إعزا) ساعتان، ومن تين تافوكت إلى تين آيت الدكير ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن تين تافوكت إلى إمين بوسعيد ثلاثون دقيقة، ومن تين تافوكت إلى إمين أوغكمي ثلاثون دقيقة، ومن تين تافوكت إلى تاوريرت ثلاثون دقيقة، ومن تين تافوكت إلى دوار أمولود ثلاثون دقيقة، ومن تين بوسعيد إلى تين الدكير ثلاثون دقيقة، ومن تين بوسعيد إلى إمين أوغكمي ساعة، وثلاثون دقيق [576] ومن تين بوسعيد إلى تاوريرت خمسة وأربعون دقيقة، ومن تين بوسعيد إلى باخير ساعة، ومن تين بوسعيد إلى أگادير ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن تين بوسعيد إلى سيدي إدر ساعتان، ومن تاوريرت إلى باخير ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تاوريرت إلى أوغگمي ثلاثون دقيقة، ومن أگادير إلى باخير ساعة وخمس عشرة دقيقة، ومن أگادير إلى سيدي إدر ساعة، ووثلاثون دقيقة، ومن سيدي إدر إلى دوار مولود خمسة وأربعون دقيقة.

آيت بكو

أعيانها: "القايد" عمر بن الدليمي، والشيخ لحسن بن عبد الكريم. سوقها: الأحد. قراها: دار بن الدليمي، غزالة، تافروات، إفريان، قصبة بن عبد الجليل، أفرياط، أيت العياط، دوار عبد الكريم. زاويتها: سيدي بومدين العروسي، سيدي محمد الشفشاوني. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي عشرة إلى خمس عشرة متر. طبيعة أرضها: سهيلة. فلاحتها: الحبوب. منفذها: موگادور. طرق المواصلات بها: طريق

موگادور. حدودها: شمالا : إنشادن، ألال، وشرقا : آيت عامر، آيت بولفاع، آيت بوطيب، وغربا : المحيط.

معلومات طبوغرافية عنها :

من دار بن الدليمي إلى إنشادن خمسة وأربعون دقيقة، ومن دار بن الدليمي إلى تومال ساعة وثلاثون دقيقة، ومن دار بن الدليمي إلى البحر ساعتان، ومن دار بن الدليمي إلى قصبة بن عبد الجليل ساعتان، ومن دار بن الدليمي إلى أفرياط ساعتان، ومن دار بن الدليمي إلى عين العياط ساعة وثلاثون دقيقة، ومن دار بن الدليمي إلى دوار بن عبد الكريم ساعة، ومن دار بن الدليمي إلى زاوية سيدي امحمد الششاوني ساعة، و[577] من دار بن الدليمي إلى زاوية سيدي بومدين العروسي ثلاثون دقيقة، ومن غزالة إلى تافراوت ساعتان، ومن غزالة إلى أفريان (عبر الساحل) خمس عشرة دقيقة، ومن غزالة إلى القصبة بن عبد الجليل ساعة، ومن أفرياط إلى قصبة بن عبد الجليل ثلاثون دقيقة، ومن أفرياط إلى زاوية سيدي بومدين العروسي ساعتان، ومن دار بن عبد الكريم إلى آيت عياط ثلاثون دقيقة، ومن دوار بن عبد الكريم إلى زاوية سيدي محمد الششاوني ثلاثون دقيقة، ومن دار بن عبد الكريم إلى زاوية سيدي بومدين العروسي خمسة وأربعون دقيقة.

آيت بوالطيب

أعيانها: الشيخ حماد نايت الدكالي. سوقها: الجمعة. قراها: الدوار الكبير، ولبوييات إفريان (عرب) تابوحايكت. زاويتها: سيدي بومدين العروسي. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي عشرة أمتار. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمال: آيت بكو، وشرقا : آيت بلفاع، وجنوبا : ماسة، وغربا : البحر.

معلومات طبوغرافية عنها:

من الدوار الكبير إلى البحر ثلاث ساعات، ومن الدوار الكبير إلى أفرياط (آيت باكو) ساعتان، وثلاثون دقيقة، ومن الدوار الكبير إلى آيت العياط ثلاثون دقيقة، ومن الدوار الكبير إلى البوييات ثلاثون دقيقة، ومن البوييات إلى آيت عياد ساعة.

أيت بلفاع

أعيانها : المقدم حماد، والشيخ محمّد بن سعيد، الشيخ عبد الكريم . سوقها : الاثنين، موسموارغيل [578]. قراها: أشرغي(ملاح) زنيبي، وأگادير، واسطاحات ودوار الحسين، وتاغزوت. إحصاؤها : مائة فرس، خمسمائة بندقيقة، ستمائة كانون . زاويتها : آيت بلفاع، واغريب . مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي ثلاثين إلى أربعين متر. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. حدودها: شمالا : آيت باكو، وشرقا : آيت عمار، آيت ميلك، أيت حگن، وجنوبا : ماسة، وغربا : آيت بوالطيب.

معلومات طبوغرافية عنها:

من أشغرغي إلى إنشادن ثلاث ساعات ومن أشغرغي إلى زنيبي ساعة، ومن اسطاحات إلى إنشادن أربع ساعات.

آيت ميلك

أعيانها : أحمد أوفقير، إبراهيم أبو سلام، سي حمو نايت علي . قراها : أسرسيف، وبوإزرگان، وتاگايوت، وبوتابت، وتولغرب، وتينفكرن. زاويتها: سيدي بوبكر، سيدي سعيد أو مسعود. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور. حدودها: شمالا : آيت عامر، آيت موسى، وجنوبا : آيت إلوگان وغربا: آيت بلفاع.

معلومات طبوغرافية عنها :

من أسرسيف إلى أشغرغي (آيت بولفاع) ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن أسرسيف إلى زاوية أنا غريب (آيت بولفاع) ساعات وثلاثون دقيقة، ومن أسرسيف إلى بويزاكارن ثلاثون دقيقة، ومن أسرسيف إلى تاگيوت ساعة، ومن أسرسيف إلى توالغرب ساعة، ومن أسرسيف إلى تينفقيرن ساعتان، ومن بويزاكارن إلى تاگيوت ثلاثون دقيقة، ومن بويزاكارن إلى أشغرغي ثلاث ساعات ومن بوزكارن إلى بوثابت ثلاثون دقيقة، و [579]من تاگايوت إلى بوثابت ثلاثون دقيقة، ومن تاگيوت إلى إداأوعيسى ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تنفقيرن إلى توالغرب ساعة، ومن تينفقيرن إلى إداأو عيسى ساعة وخمسة وأربعون دقيقة.

آيت إلوگان

أعيانها: الشيخ أوموح، عبد الله بن الجاه، ومحمد أبغاب. أسواقها سوق: اثنين إمي نوغگومي، وأحد سيدي مزال، موسم سيدي مزال. قراها: إمي نوغگومي، وتافروات، وتامليحت (ملاح من ثلاثين منزلا)، وأمزوار، وتلاغت، وأبوريم. زاويتها: سيدي مزال. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي عشرة إلى خمس عشرة متر. طبيعة أرضها: سهلية. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى تارودانت. حدودها: شمالا: آيت ميلك، وشرقا: آيت موسى، وجنوبا : إداأوگرسموكت، وغربا : آيت بلفاع.

معلومات طبوغرافية عنها:

من إمي نوعگمي إلى أيت أوعيسى ومن إمي نوغگومي إلى تنفقيرن (آيت ميلك) ساعتان، ومن إمي نوغگومي إلى تافراوت ثلاثون دقيقة، ومن إمي نوغگومي إلى تامالحيت ساعة، ومن إمي نوغگومي إلى أمزاورو ساعة، ومن إمي نوغگومي إلى تالاغت ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن إمي نوغگومي إلى إبورين ثلاثون دقيقة، ومن تافراوت إلى تنفقيرن ساعتان وخمس عشرة دقيقة، ومن تافروات إلى إبورين ساعتان، ومن تاماليحيت إلى إبورين ساعة وثلاثون دقيقة، ومن تامليحت إلى سيدي مزال ساعة، وثلاثون دقيقة، ومن تالاغات إلى أمزاور ساعة، ومن أمزاور إلى سيدي مزال ساعة وخمسة وأربعون دقيقة. [580]

إكونكا

أعيانها: المعلم أحمد، وأحمد أمغار، وبوبكر الجديدي. الساكنة: آنو لجديد[1]، وتالموگارت، تاگراگرا[2]،

1- سبق أن أشرنا إلى آنو الجديد في آيت إعزا

2 سبق أن أشرنا إليه في الفحذة المجاورة لإداومنو، قد تكون مستعملة مرتان.

وسيدي بومزگيدة. سوقها: الموگار تانفقيرت. زاويتها: تافقيرت. مصادر مياهها: حوالي خمسين إلى ستين متر. أرضها: سهلية وجبلية. حدودها: شمالا : إداومنو، وشرقا: تيدسي، وجنوبا : آيت أوفرا، وغربا : إدا اوگوران.

إد باها (جبالة)

أعيانها: الشيخ حسون، واحمد أوعلي، وسيدي سعيد أوعلي. سوقها: الأربعا. قراها: إمين الجمعة (ملاح من ثلاثين كانونا، وأدوز (ملاح من خمسة وعشرون كانونا) وتافگاغ أگادير أوفلا، أگادير الأربعا، شگيگلة. مصادر مياهها: آبار بعمق ثلاثة إلى أربعة أمتار. طبيعة أرضها: جبلية وسهلية. فلاحتها: اللوز. حدودها: شمالا : إداومنو، وشرقا : إكوكنا، وجنوبا : إدا أوگورارن، وغربا : آيت اشتوكة.

معلومات طبوغرافية عنها :

من عين الجمعة إلى تمجلوجت ثلاث ساعات، ومن عين الجمعة إلى تيريست (إدا أوگوران) ساعة، ومن عين الجمعة إلى أدوز ثلاثون دقيقة، ومن إمين الجمعة إلى تافگاغت ثلاثون دقيقة، ومن عين الجمعة إلى أگادير أوفلا، ومن أدوز إلى تيريست ساعة وثلاثون دقيقة، و[581] من أدوز إلى أگادير أوفلا ثلاثون دقيقة، ومن أدوز إلى أگادير الأربعا ثلاثون دقيقة، ومن تافگغت إلى أگادير الأربعا ثلاثون دقيقة، ومن تافگاغت إلى شگيگلة خمسة وأربعون دقيقة، ومن أگادير إلى أربعا شگيگلة خمسة وأربعون دقيقة.

آيت موسى

أعيانها: علي أوبيهي، الشيخ حماد، الحاج علي أوإريگين. قراها: تافراوت، تامجلوجت. زاويتها: إفغل. مصادر مياهها: عيون الماء، نطافي، الواد. طبيعة أرضها: سهل وجبال. حدودها: شمالا: توزميت، وشرقا: إمديون، آيت ويگمان، أمخيين، وجنوبا : واد أول الراس، وغربا : آيت حوگان، آيت ميلك.

معلومات طبوغرافية عنها:

من تافراوت إلى أگادير أوفلا (إد باها) ثلاث ساعات، ومن تافراوت إلى تامجلوجت ساعتان.

إدا أولتيت

تتضمن كنفدرالية إدا أولتيت ثلاث قبائل مثلما يدل على ذلك اسمه (إدا أولتيت هم رجال القبائل الثلاث. أولتيت: إدا وسملال، وإدا أوبعقيل، وإدا أوگرسموكت. وحلفاؤهم آيت أملن (آيت امل) ومن أعدائهم: آيت برابيم، وآيت الرخا، ومجاط.

إدا أوسملال

تدعي القبيلة أنها من أقدم القبائل بالمغرب[1]، وهي مقسمة إلى ثلاثة اقسام وهي : إدا وسملال، وتازروالت، والمعدر. أعيانها: "القايد" موسى السملالي، والشيخ الحسين، الشيخ الطاهر، الشيخ الحاج إبراهيم الرشد. قراها: تادّارت، ووجان، وأگادير، وأوشان، وتانوت [583]

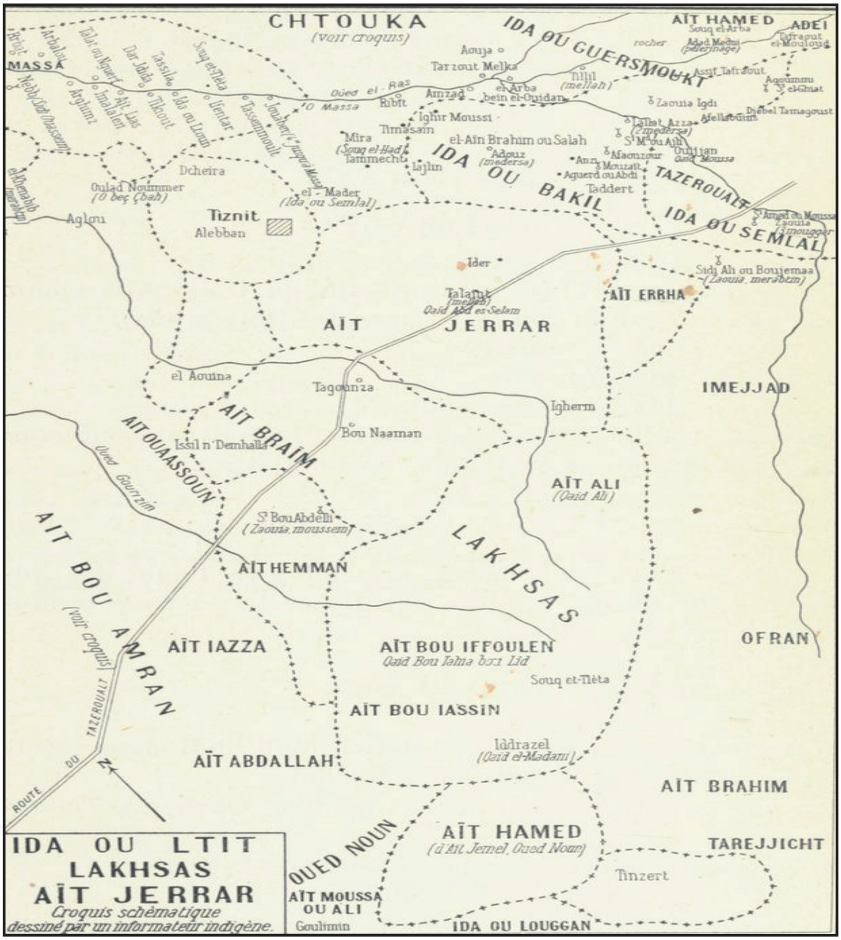

1- هذه شجرة أنسابها حسب أحد أعيان القبيلة

محمد

فاطمة

الحسين الحسن

عبد الله

جعفر إريس الأول

سملالية

(جد إداو سملال

وأساكا، وإغير ملولن، وإد باها، وإرسموكن، وتيغمي، وأگادير بوتيقي، وتاماشت، وأگني نسيدي الغياتي، (تيوارگان). الأسواق: ثلاثا ويجان (ملاح من ثلاثين منزلا)، أساكا (بها ملاح أيضا أربعون منزلا) مصادر مياهها: اد تازروالت ونطافي، وآبار بعمق حوالي ثلاثة أمتار. طبيعة أرضها: سهلية. فلاحتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: طريق موگادور إلى تازروالت. زاويتها: الأكثر شيوعا هي زاوية الناصريين. حدودها: شمالا : إدا أوگرسموكت، وشرقا : إد باها، وغربا : آيت زنيت وجنوبا: أولاد جرار وآيت ابراييم.

معلومات طبوغرافية عنها

يعبر واد تازروالت أراضي إدا أوسملال، وطريق موگادور وإلى إليغ يفرق بين إدا أوسملال وأيت وافقا (إدا وافقا) ومن تادّارت إلى آيت ابرييم ساعتان، ومن تادّرت إلى آيت تزنيت أربع عشرة ساعة، وإلى أمان نتمغرا ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن تادّرت إلى تيوارگّان ثلاثون دقيقة، ومن تادّرت إلى ويجان ساعة، ومن تادّرت إلى أوشّان ساعتان، ومن ويجان إلى تيورگان ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن ويجان إلى أگادير ثلاثون دقيقة، ومن ويجان إلى أوشّان ساعة، ومن أگادير إلى تيوارگان ساعتان، ومن أگادير إلى تانوت ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن أگادير إلى إغير ملولن ثلاثون دقيقة، ومن أگادير إلى إد باها ثلاثون دقيقة، ومن تانوت إلى أوشّان ثلاثون دقيقة، ومن تانوت إلى أساكا ساعة وثلاثون دقيقة، ومن أوشان إلى أساكا ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إغير ملولن إلى إد باها ساعة، ومن إغير ملولن إلى إسموگن (لعله إرسموكن) خمسة وأربعون دقيقة، ومن إغير ملولن إلى تيغمي ساعة، ومن إغير ملولن إلى تامّاشت ساعتان، ومن إسموگن (لعله إرسموكن) إلى إدباها ثلاثون دقيقة، ومن إسموگن إلى تيغمي ساعة [585] ومن أگادير إلى تيغمي خمس عشرة دقيقة، ومن أگادير تيغمي إلى اسموگن (لعله إرسموكن) ساعة، ومن أگادير تيغمي إلى تاماشت ساعة وثلاثون دقيقة.

تازروالت[1]

تعد تازروالت فخذة من قبيلة إداوسملال، فهي مهد عائلة الصلاح القديمة لأولاد سيدي أحمد أوموسى، وتقول الأسطورة إن الجد المؤسس أحمد أوموسى كان قاطع طريق اشتهر بألعابه الرياضية، فجاءت يوما امرأة عجوز مارة أمامه، فعنفها رفاقه، لكنه انعزل هو ورافقها إلى أن انتهت رحلتها، ومنذ تلك اللحظة نال الرضا، وعاش وحيدا منعزلا عن الناس في المكان الذي أقيمت فيه زاويته الآن. وناضل الصالح الحسين أوهاشم مطولا ضد السلطة المسيحية. واستهدفت حملات / حرْكات 1880 قادها مولاي الحسن 1886، وحملة 1898-1900 قام بها "القايد" سي الطيب الگلولي بأمر من باحماد أثناء حكم مولاي عبد العزيز تازروالت، لكنها لم تفلح أي واحدة منها. والشريف الحالي هو سيد امْحمّد

1- الملاحظ عن مسألة تحديد المسافات بين المواقع المذكورة قد يكون للاعتبارات التالية : إما طبيعة التضاريس، وإما لطبيعة وسائل النقل، وإما ": لطبيعة المعلومات الاسخباراتية التي تقوم احيانا على التهويل من أجل مزيد من الحيطة واليقظة بالنسبة للمتدخلين العسكريين المرتقبين.

أوالحسين وهو مستقل بسلطته تماما، وهو عجوز. وليس لها سوى تأثير محدود، وابنه رجل بدون أهمية، وليس مهتما سوى بجمع النقود، وتقلصت ثروة الصلحاء/الشرفاء، وكذلك رفاهيتهم. والواضح أن مداخيلهم من الموسم الشهير (الموگار) تازروالت، تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة دورو.

ينتمي الصلحاء/الشرفاء للطائفة القادرية، لكن الطريقة الناصرية قوية جدا أيضا بتازروالت. حدودها: شمالا: إداوبعقيل، وشرقا : إمجاض، جنوبا آيت جرار، وغربا : آيت جرار. طبيعة أرضها: يعبر الواد تازروالت، حيث نجد الماء بها متدفقا في كل مكان، إضافة إلى آبار ونطافي [586]. طرق المواصلات بها: طريق تيزنيت، وإفران، وگليمين (گلميم)، أساكا. جماعاتها: الزاوية حيث توجد قصبة هامة للشرفا (مائتا كانون)، وإليغ (مائة كانون مائة وخمسون فرسا) متدهورة الحالة، ملاح (مائة كانون، وتيغمي جنوب الزاوية (مائة كانون) وإمجگاگن (مائة كانون، وتوامان (مائة كانون)، وباستثناء عائلة الشرفاء وخدامهم فإن أغلب الساكنة مكونون من إداوسملال وامجاض.

معلومات طبوغرافية عنها

من إليغ إلى (أيت) وافقا ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن إليغ إلى أگجگال (إد باها) ساعة وثلاثين دقيقة، ومن إليغ إلى ماگامان (لعلها ميغرمان: ذات العلف) ثلاثون دقيقة، ومن الزاوية إلى أگجگال ساعة، ومن الزاوية إلى أيت وافقا ساعتان، ومن ميغرمان إلى أگجگال ساعة.

إدا أو گرسموكت

حدودها: شمالا : ماسة وآيت بلفاع وآيت إلوگان وآيت أحمد، وشرقا : آيت صواب، وآيت أملن، وجنوبا : إدا أوبعقيل، وغربا : المحيط. طبيعة أرضها: سهل في الغرب، وجبل في الشرق. مصادر مياهها: واد والغاس يسقي الجهة الجنوبية، لهذا المجال، وعيون ماء، وآبار عميقة جدا، ونطافي. طرق المواصلات بها: تخترق الطريق من موگادور إلى واد نون القبيلة. الجماعات: (المعدر، فرگولة (أفرگولة)، أنانض (أننضو)، وتاوريريت، وإغيل الفيض، وتاغزوت، إخفنشيش، وأفراگ، وبورديم، وتانكيست، وآيت أزر، وأداي، وتين عدي أوبيدار، وإمين نواگور، وأنسولغا، وأقا الملولن، والعيون، وأوجا، وآيت إبراهيموأوريوس، وإمين الخنگ، وإصبويا، وبوكورة، وإفغلوتاگاديرت، والقصبة، وتوامان. سوقها: سوق الجمعة بورديم. زاويتها: زاوية تانكيست (ناصريين)، وزاوية إفغيل، وزاوية بوكورة. أعيانها: "القايد" موسى، امحمد ولد علي أويحي [587]، موحى نايت عبد الله، وعمر بلحاج، وسي أحمد الكاس، امحمد القوبع. إحصاؤها: حوالي ألف ومائتي كانون، وألف وخمسمائة بندقيقة، مائتا فرس.

معلومات طبوغرافية عنها:

من المعدر إلى أگلو ثلاث ساعات، ومن المعدر إلى نونير ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن المعدر إلى الخنابيب ثلاث ساعات، ومن المعدر إلى فرگولة ساعة وثلاثون دقيقة، ومن المعدر إلى امنضو ساعتان، ومن المعدر إلى تاوريرت ساعتان، ومن المعدر إلى تاگديريت ثلاثون دقيقة، ومن فرگولة إلى آيت نومر ثلاث ساعات، ومن فرگولة إلى آيت اننضو ساعة، ومن فرگولة إلى آيت إغيل الفيض ساعة،

ومن فرگولة إلى آيت تاغزوت ساعة، ومن فرگولة إلى آيت القصبة ثلاثون دقيقة، ومن تاوريرت إلى إغيل الفيض ثلاثون دقيقة، ومن تاغزوت إلى أنو نعدو ثلاثون دقيقة، ومن اخفنشيش إلى تاغزوت ساعة، ومن إخفنشيش إلى أنو نعدو ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إخفنيش إلى أفراگ ثلاث ساعات، ومن إخفنشيش إلى إنسونفا ساعة وخمسة وأربعون دقيقة، ومن إخفنشيش إلى أكال ملولن ثلاثون دقيقة، ومن أفراگ إلى إغيل الفيض ساعة وثلاثون دقيقة، ومن أفراگ إلى بورديم ثلاثون دقيقة، ومن بورديم إلى إغيل الفيض ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن بودريم إلى تونكيست ساعة، ومن بورديم إلى تين عدي أوبيدار ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن بورديم إلى أوجا ساعتان، ومن تانكيست إلى آيت إغزر ساعة، ومن تانكيست إلى إغيل الفيض ساعتان، ومن تانكيست إلى أداي ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة، ومن تانكيست إلى تين عدي أوبيدار ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن تانكيست إلى أوجا ساعة، و[588] من تانكيست إلى بوكورة ثلاثون دقيقة، ومن أداي إلى تين عدي أوبيدار ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة، ومن أداي إلى إمين أوگور ثلاثون دقيقة، ومن أداي إلى إمين الخنگ ساعتان وخمسة وأربعون دقيقة، ومن أداي إلى إصبويا ثلاثون دقيقة، ومن أداي إلى إفغل ساعة، ومن تين عدي أوبيدار إلى تانكسيت ساعة، ومن تين عدي أوبيدار إلى أوجا ساعة، ومن تين عدي أوبيدار إلى آيت إبراهيم أوريوس ثلاثون دقيقة، ومن إمين واگور إلى آيت إغزر ثلاث ساعات، ومن إمين واگور إلى انسونفا ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إمين واگور إلى إفغل خمسة وأربعون دقيقة، ومن إنسونفا إلى آيت إغزر ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن إنسونفا إلى العيون ساعة وثلاثون دقيقة، ومن أكال ملولن إلى أنو نعدو ثلاثون دقيقة، ومن أكال ملولن إلى العيون ثلاثون دقيقة، ومن آيت إبراهيم أوريوس إلى أوجا خمسة وأربعون دقيقة، ومن آيت ابراهيم أوريوس إلى إمين الخنگ ثلاثون دقيقة، ومن بوكورة إلى آيت إغزر ثلاثون دقيقة، ومن إفغل إلى اصبويا ساعة وخمس عشرة دقيقة.

إداوبعقيل

ينقسم إداوبعقيل إلى قسمين هما : آيت وافقا وإد باها. وحلفاؤهم هم: إدا أوگرسموكت، وأيت أملن، ومن أعدائهم هم : آيت ابراييم، وآيت رخا، وإمجاط . زاويتها : أدوز، دار العالم، (ناصريون) الشيخ عبد العزيز، إگضي، مدرسة بوزيد، مدرسة إغالن، مدرسة أفلا أوگنراز، مدرستان للأطفال (تعليم القرآن)، أفاوزور، المدرسة الناصرية.

آيت وافقا

أعيانها: سي إبراهيم إغشي. إحصاؤها: مائة وخمسون كانونا، مائتا بندقية، عشرون فرسا [589] زاويتها: الناصريون هنا أغلبية. طبيعة أرضها: بلاد جبلية. المياه بها : ليست هناك أودية، عيون وافرة وآبار. المنتوجات: الحبوب، وأشجار الزيتون. جماعاتها: قرية واحدة، آيت وافقا على بعد نصف ساعة، أگوجگال (إد باها) وعلى بعد حوالي ساعتين وخمس عشرة دقيقة، و من إغرم (إد باها). حدودها: شمالا : إد باها، وشرقا : آيت إملن، وجنوبا : تازروالت، وغربا : إداوسملال.

إد باها

أعيانها: "القايد" عمر ولد "القايد" حمو، والحاج إعزا. جماعاتها: آيت مسْعيد، وإعجلين، وميرا، وأسيف، وآيت گدمي، وتومانار، وأگجگال، والقصبة، وإغرن، وتافراوت، وگشديد، وأگادير نعدي أحمد، وأگرض أوغاليم، أگادير المخزن. زاويتها: سيدي بوصالح. طبيعة أرضها: بلاد جبلية. مصادر مياهها: ليس بها مجاري مائية كبيرة لكن عيون كثيرة وآبار. طرق المواصلات بها: تفصل طريق تازروالت بين إداوسملال وإد باها. حدودها: شمالا : إداوگرسموكت، وشرقا : آيت أملن، وجنوبا : آيت وافقا.

معلومات طبوغرافية عنها:

من إدمسْعيد إلى إد باها ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إد مسْعيد إلى إدا وسملال ثماني ساعات، ومن آيت مسْعيد إلى تانوت ساعة، ومن إد مسْعيد إلى إعجلين ساعة، ومن إد مسعيد إلى آيت الگدمي ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إعجلين إلى إد باها ساعة، وخمسة وأربعون دقيقة، ومن إعجلين إلى تانوت ساعة وخمس وأربعون دقيقة، ومن إعجلين إلى إدا أوسملال ثماني ساعات، ومن إعجلين إلى ميرا ساعة، ومن ميرا إلى إد باها ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن ميرا إلى أسيف خمس عشرة دقيقة، ومن ميرا إلى القصبة ساعة، ومن أسيف إلى إد باها ساعتان وخمس وأربعون دقيقة [590]، ومن أسيف إلى آيت الگدمي ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن أسيف إلى القصبة ساعة وخمس عشرة دقيقة، ومن تومانار إلى آيت الگدمي ساعة، ومن تومانار إلى أگجگال خمس عشرة دقيقة، ومن القصبة إلى تافراوت ثلاثون دقيقة، ومن القصبة إلى إغرم ثلاثون دقيقة، ومن إغرم إلى آيت الگدمي ثلاثون دقيقة، ومن إغرم إلى تافراوت ثلاثون دقيقة.

آيت تْزنيت (تيزنيت)

يوجد مجال تيزنيت مغلقا وسط إدا ولتيت. وتفسر أسطورة فريدة بأن تكوين هذا التجمع مختلط، وكذلك دلالة اسمه بأنه كانت هناك مومس فائقة الجمال جاءت لتستقر في المكان الذي توجد به تيزنيت الآن، ونصبت حول خيامها عدة "نوايل" وكان ذلك نواة القبيلة الحالية التي يحمل الاسم أصلها. وتنتمي قبيلة تيزنيت إلى تاحگات. حدودها: شمالا : إداگرسموكت، وشرقا : آيت جرار، إداوبعقيل، وجنوبا : آيت ابراييم، آيت النومر وأگلو. طبيعة أرضها: بلاد سهلية محاطة بهضاب في الشرق والجنوب. مصادر مياهها: يعبرها سرير واد أدودو (واد تيزنيت). طرق المواصلات بها: تيزنيت توجد في ملتقى عدة طرق: تزنيت – أگادير (سوس)، موگادور، وتيزنيت- إليغ (تازروالت)، إفران، تامنارت، إشت الصحراء، وتيزنيت – گلميم –واد نون) أساكا (درعة) تيزنيت – أگلو (البحر). الجماعات: يسكن تيزنيت، الفخذات التالية [591]: آيت طلحة، وآيت محمّد، وإدا گفا، وأيت ترگا، وسوق الخميس. والتجمعات الأخرى هي: تاگويدرت، تامدغوست، تويرگا، أتْبان، تادوارت، العوينة (تالعينت)، العزيب. أعيانها: الحاكم الحالي لتيزنيت هو ولد سي همو محمد أوحسون، وقد نصب مولاي حفيظ على هذه القيادة "قايدا" جديدا لم يعمل بعد على تسليم مركزه. والشخصيات الهامة الأخرى هم: كل "قياد" القبائل المجاورة واللاجئون إلى تيزنيت وأعيانها التالية أسماؤهم: سي همو

نايت أوحسون، سي إبراهيم نايت وافقا، محمد زهراك بتويرگة. أسواقها: سوق الخميس، تويرگة، سوق الثلاثا العوينة. وزاويتها: سيدي عبد الرحمان بتزنيت هامة جدا، والناصريون مؤثرون هنا كثيرا. إحصاؤها: ستمائة كانون ومائة فرس، وحامية تيزنيت متغيرة كثيرا، فالأصل أن يكون فيها ثلاثة طوابير ليس بها في الوقت الحالي سوى خمسمائة رجل.

معلومات طبوغرافية عنها :

من تيزنيت إلى المعدر ساعتان، ومن تيزنيت إلى إداوگرسموكت ساعتان، ومن تيزنيت إلى العيون أربع ساعات من تيزنيت إلى تأگاديرت ثلاثون دقيقة، وفي اتجاه البحر من تيزنيت إلى تامدغوست ساعتان، ومن تيزنيت إلى أتْبان ساعة وثلاثون دقيقة، ومن تيزنيت إلى آيت إبراهيم أوصالح ثلاث ساعات، ومن تاگوديرت إلى تامدغوست ساعة، ومن تاگوديرت إلى تويرگة خمسة وأربعون دقيقة، ومن تاگوديرت إلى تادوارت ثلاثون دقيقة، ومن تاگوديرت إلى العوينة ساعتان، و[592] من تويرگة إلى تادوارت ثلاثون دقيقة، ومن العوينة إلى تامدغوست ساعة، ومن العزيب إلى العوينة ثلاثون دقيقة، ومن العزيب إلى تامدغوست ساعتان، ومن آيت إبراهيم أوصالح إلى أمان نتمغرا ساعتان، ومن آيت إبراهيم أوصالح إلى أتْبّان [593].

الفصل السابع والعشرون

أگلو وأراضي ماسة

تنقسم كونفدرالية أكلو إلى ثلاث فخذات وهي : الخنابيب، وأولاد النومر، وأيت أكلو. وتسمى بلاد المخزن، لأنه منذ خمس عشرة سنة انتسب/ انتمى "قيادهم" إلى المخزن، لكنهم في الواقع مستقلون ولا يؤدون أي واجبات ضريبية للسلطان.

الخنابيب

حدودها: شمالا : ماسة، وشرقا : إداوبعقيل، وجنوبا : أولاد النومر، وغربا : المحيط. طبيعة أرضها: منطقة منخفضة وساحلية تتخللها بعض الهضاب. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمسة أمتار. طرق المواصلات بها: الطريق من موگادور إلى أساكا عبر الساحل على بعد حوالي ثلاث كلمترات عن البحر. جماعاتها: تجمع سكني وحيد هو قرية الخنابيب على بعد ساعة من البحر، وساعة من أغبالو (ماسة)، وساعتان من آيت لياس ماس، وساعتان وثلاثون دقيقة من أولاد النومر. كما يجب أن نذكر أيضا الزاوية الصغيرة لسيدي وگاگ. أعيانها: الشخصية الأكثر أهمية هو الحاج عبيد الخنبوبي. إحصاؤها : حوالي مائة وخمسون كانونا، ومائة بندقيقة، وخمس عشرة فرسا . وأهل الخنابيب مرابطون [594]

أولاد النومر

حدودها: شمالا : الخنابيب، وشرقا : إداوبعقيل، وجنوبا : آيت أكلو، وغربا : المحيط. طبيعة أرضها: تمتد أراضي أولاد النومر على مساحة ثلاثة ساعة، وعبر الساحل الشمال الجنوبي، وعلى عمق ثلاث ساعات شرقا، غرب. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمسة أمتار في المتوسط. طرق المواصلات بها: تخترق طريق موگادور إلى أساكا من الشمال إلى الجنوب الجماعات، توجد قرية أولاد النومر على بعد ساعة من البحر وساعتين وثلاثون دقيقة جنوب الخنابيب، وساعة شمال أكلو. أعيانها: زعيمهم يسمى، أحمد ولد الحاج العربي. إحصاؤها: يتكون من مائة وخمسون كانونا ومائة وعشرين بندقية وخمس عشرة فرسا. وأولاد النومر فخذة من القبيلة الكبيرة لأولاد بوالسبع المنحدرين من الصحراء، حيث استقر فرع منها في حوز مراكش تاركة في طريقها هذا الفرع.

أيت أكلو

حدودها: شمالا: آيت النومر، وشرقا : إداوبعقيل، وجنوبا : آيت باعمران، وغربا : المحيط. طبيعة أرضها: تمتد أراضي أكلو على ساعتين من الساحل من الشمال إلى الجنوب وعلى بعد ثلاث ساعات شرق/غرب، وهي منطقة مستوية وأكلو على بعد مسير نصف يوم من ماسة. مصادر مياهها: يعبر واد أدودو ومن الشرق إلى الغرب، وتغذي عين شهيرة زاوية سيدي موسى. طرق المواصلات بها: الطريق من موگادور إلى اساكا على طول ثلاث ساعات في ساحل البحر، وتقطع شعبتان أكلو في اتجاه أساكا (يومان) وفي اتجاه گلميم (يومان). جماعاتها: قرية أكلو تجمع سكاني كبير/قوي [595] أعيانها، وزعماؤها: "القايد" إبراهيم نايت الحاج، والشيخ سعيد مدوكو، الشيخ أحمد أوحماد. أسواقها: سوق إثنين أكلو، الموگار أكلو بالقرب من زاوية سيدي موسى. إحصاؤها: حوالي ثلاثة آلاف كانون، وزاويتها: سيدي وگاگ مدرسة من ألف ومائتي كانون وهي تجمع سنوي للفقراء الناصريين، الشيخ البشير.

ماسة

تمتد أراضي ماسة على طول واد الراس ("شلوح"): أسيف أول الراس على بعد حوالي أربع ساعات (شمال/غرب، جنوب/شرق) وهي مستقلة وليست منصاعة جدا لقائدها: محمد سي هنو. حدودها: شمالا : آيت بو بوطيب (اشتوكة)، وشرقا : إدا أوگرسمكوت، وجنوبا : الخنابيب (أگلو) وغربا : المحيط. مصادر مياهها: يجري واد الراس في كل وقت، آبار بعمق حوالي خمسة إلى عشرة أمتار. طرق المواصلات بها: تعبرها طريق أگادير إلى تيزنيت عند "شاطئ" تاسنولت. الجماعات: يسقي واد الراس قراها التالية: الضفة اليمنى : الرباط، وأغبالو (منزل "القايد") وثلاثاء أنگرف، ودار الجديدة، وتاسيلا، وسوق الثلاثا، وأفنسو، وتويوزار. والضفة اليسرى: قبة النبي (سيدي واساي)، وأغرميز، وإملالن، وتيكيوت، وغدا أولون، وأفنتار، وتاسنولت، وجوابر (على بعد أربع ساعات من أغبالو). وشمال الواد: إزويكا، وجنوبا: أويزن. أعيانها: سي محمد بن محمد، وبيهي أوعلي. سوقها: سوق الثلاثا. زاويتها: سيدي محمد أو أحمد (ناصريين) [596]

معلومات طبوغرافية عنها:

من أغبالو إلى بويبة نايت بوطيب ثلاث ساعات، ومن أغبالو إلى البحر ثلاثون دقيقة، ومن أغبالو إلى تاغزوت نايت بولفاع أربع ساعات من أغبالو إلى إدا أوموت ساعة، ومن تاسيلا (توجد في الجهة المقابلة إداوموت) إلى البحر ساعة وخمس عشرة دقيقة، ومن أفنتار إلى إداوموت إلى ساعة، ومن افنتار إلى أفنسو ثلاثون دقيقة، ومن الجوابر إلى تاسيلا ثلاثون دقيقة، ومن آيت إلياس إلى الجوابر خمسة وأربعون دقيقة، ومن آيت إلياس إلى أويرزم ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن تاسنومنت إلى أنفسو ثلاثون دقيقة، ومن تاسنمونت إلى آيت أومربيط ثلاثون دقيقة، ومن توبوزار إلى أدوار سيدي علي ساعة، ومن الغرب إلى آيت أومربيط ثلاثون دقيقة.

لخصاص

حدودها: شمالا: آيت جرار، وشرقا : آيت الرخا وإفران، وجنوبا : واد نون، وغربا: آيت باعمران. طبيعة أرضها: أغلب أراضي لخصاص جبلية مصادر مياهها: ينبع منها واد گوريزم، مصادر مياهها: نادرة، حيث نجد نطافي في كل مكان. طرق المواصلات بها: الطريق إلى موگادور.

تنظيمها:

أيت علي (شمال/شرق) :زاوية سيدي علي أوسعيد (الناصريين)، وزاوية سيدي حمان الحسن. إدرازل والجنوب /الشرقي. آيت بوياسين (الجنوب الغربي) آيت إفولن وخلفاء تازروالت [597] آيت همان (وغربا)[1]: سيدي بوعبد اللي (مدرسة) وآيت ابراييم: تاگمسا، وتجمع بونعمان، وإسيل

1- قبائل آيت همان وآيت ابراييم مقسومتان من لخصاص حيث نعطيها حسب التقسيم التالي:

آيت امي أوگني

آيت ابراييم تاكورترا

ثلاث نزكي

اسيل ن مهلا (1908)

ندمحلّا. زاويتها: مدرسة بجوار السيد "سيدي بو عبد اللي" عند آيت ابراهيم، وسوق الجمعة، زاوية بيوزاكارن (درقاوة) المقدم: الحاج علي. سوقها: موگادور قرب هذا "السيد"/ الضريح وسوق ثلاث نتيگينيت. أعيانها: "القايد" علي نايت علي، "القايد" بوهيا بولعيد من آيت إفولن، "القايد" المدني من إدرازل، ومحمّد بوعمر. ومحمّد أوسعيد، والشيخ موسى من آيت ابراييم. إحصاؤها: ألف وأربعمائة كانون، وبالنسبة للفخذات الخمس الأولى، وآيت ابراييم الذين يعدون أحيانا كقبيلة معنزلة عددهم حوالي خمسمائة كانون وثلاثمائة بندقية، وخمسون فرس.

آيت جرار

حدودها: شمالا: إداوبعقيل، وشرقا تازروالت، وجنوبا : لخصاص، وغربا : آيت ابراييم (لخصاص). مصادر مياهها: يعبر واد أدودو المجال من الشرق إلى الغرب، عيون ماء، وعين تالعينت نشيطة بصفة خاصة. طرق المواصلات بها: طريق إفران إلى ماسة. جماعاتها: تالعينت (العوينة)، تجمع محض بها ملاح، البويرات (البوير)، الرگادة، إدغ، قرى هامة، درقاوة، أغبولة، إغرم، الفريرينة، إغير ملولن، ميرغت [598]. زاويتها: زاوية تادايغت، المرابطون، والناصريون ودرقاوة هم غالبية هذه القبيلة. سوقها: سوق الأحد تالعينت، والموگار تادايغت. أعيانها: يسمى القايد عبد السلام ويسكن تالعينت ونذكر أيضا عياد الجراري، الطاهر ولد أحمد. إحصاؤها: ثلاثمائة كانون، منتوجاتها: منطقة غنية، حبوب، أشجار الزيتون، والعرصات.

معلومات طبوغرافية عنها:

من تالعينت إلى البويرات، ومن تالعينت إلى إغبولا ساعة، ومن تالعينت إلى ميرغت ساعة، ومن تالعينت إلى تاحايفيت ثلاثون دقيقة، ومن إيدغ إلى ويجان ساعتان، ومن إيدغ إلى إداوسملال ساعتان، ومن إيدغ إلى الرگادة ساعتان وثلاثون دقيقة، ومن إيدغ إلى إغبولا ساعة وثلاثون دقيقة، ومن الرگادة إلى ويجان ساعتان، ومن الرگادة إلى تادايغت ثلاثون دقيقة، ومن البويرات إلى تيزينت ساعتان، ومن البويرات إلى إيغير ملولن خمس عشرة دقيقة، ومن تالعينت إلى تيزنيت ثلاث ساعات وثلاثون دقيقة، ومن إغبولا إلى إدغ ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إغبولا إلى البويرات ساعة وثلاثون دقيقة، ومن إغرم إلى إغير ملولن خمس عشرة دقيقة، ومن إغرم إلى ميرغت ثلاثون دقيقة.

الفصل الثامن والعشرون

اتحادية آيت باعمران

كنفدرالية آيت باعمران مستقلة الآن، واتفقت في الفترة الأولى من الاخضاع في الحملة (المحلّة) الأولى لمولاي الحسن الأول على سوس سنة 1882. وبوفاته سنة 1894 أشرف "القايد" الطيب الگلولي (سنة 1898-1900) على تنصيب بعض الموظفين باسم المخزن. ومنذ سنة 1906 غادر كل أولئك "القياد" منازلهم وجاؤوا لاجئين إلى تيزنيت آخر معقل للسلطة المخزنية المقلصة. وسبق أن "باع" مولاي حفيظ بعض القيادات من آيت باعمران. ورفض السكان استقبال مبعوثيه وقالوا بأنهم لا يعرفون سلطانا آخر غير مولاي عبد العزيز، لكن هذا الإجراء ظل مجاملة فقط مادام أنهم لا يؤدون الضرائب لأحد، ويرفضون الاعتراف بأي "قايد". والشيخ الوحيد الذي له نفوذ ممتد هو سي امحمد ولد الحسين أويحيى الشيخ الشاب لآيت إسيمور. و"القايد" سي الزبير رجل صالح محترم. وتتكون كنفدرالية أيت باعمران من القبائل التالية: أهل الساحل، وآيت بوبكر، ومستي (امستيتين) وصبويا، وآيت إعزا، وآيت عبد الله، وآيت أوسگّم [600] وآيت موساكنى، وآيت اسيمور، وآيت يوب، وآيت علي، والسماهرة. ومقسمة إلى لفين يحمل أحدهما اسم آيت الخمس ويضم : أهل الساحل، وصبويا، وآيت إعزا، وآيت عبد الله، وآيت موسكنى، وآيت اسيمور، وآيت يوب، وآيت علي، والسماهرة. ويضم اللف الثاني : آيت بوبكر، ومستي وإداوسوگم.

وتمتد كنفدرالية آيت باعمران على امتداد يومين من المشي من الشمال إلى الجنوب (من أگلو إلى أساكا). وعلى امتداد يومين من المشي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي (من أگلو إلى گلميم) وعلى امتداد نصف يوم إلى يوم من الشرق إلى الغرب. وهي مكونة في الأغلب من أتباع زاوية أولاد بن ناصر (ناصريين) وأشهر الممثلين المشهورين والمحترمين للطريقة ها هنا: سيدي حماد أومجوض بقبيلة آيت الساحل، وسيدي محمد أبراغ بقبيلة آيت بوبكر، وتحمل واجبات الزيارة إلى سيدي الهاشم بن الحاج خمس بتمگليشت (واد درعة).

آيت الساحل

حدودها: يشغلون الساحل أي المجال الموجود بين أگلو إلى آيت بوبكر، يحدهم آيت برابيم شرقا، ويعبر واد گوريزن أراضيهم. طبيعة أرضها: بلاد هضاب منحدرة، صالحة لفلاحة الحبوب. [601]

مصادر مياهها: يمكن الواد من سقي مساحات كبيرة إضافة إلى عيون الماء والآبار الكثيرة. طرق المواصلات بها: طريق أگادير إلى أساكا (شمال/جنوب) ومن أگلو إلى گلميم (الشمال الغربي- الجنوب الشرقي). أقسامها والزاوية. ويتكون أيت الساحل من : آيت الكرَيْمة: خمسمائة كانون، ومدرسة سيدي بولفضايل، "فقرا"، زاوية الناصريين، و"يشاع" أن هذه الفخذة من أصول يهودية وآيت الربعة مائتان وخمسون كانونا، وأغلب رجالها من أتباع زاوية سيدي بناصر. آيت غانمين (تيغانيمين) ثلاثمائة وخمسون كانونا ومدرسة وسط الفخذة، ويتقاسم الناصريين ودرقاوة الساكنة، وشيخ درقاوة سيدي الحسن أوتموديزت ويسكن بالمعدر، وآيت أفرضا مائتا كانون، ومدرسة سيدي بوصدقة ناصريين ودرقاوة. و(إدا أونكيدة) ثلاثون مائة كانون ناصريون ومنزل شرفاء سيدي محمد بن حماد وأخيه سيدي الحسن ببوتفغزيست. سوقها: أربعاء نايت الساحل. ونجد في حدودها تجمعين غريبين

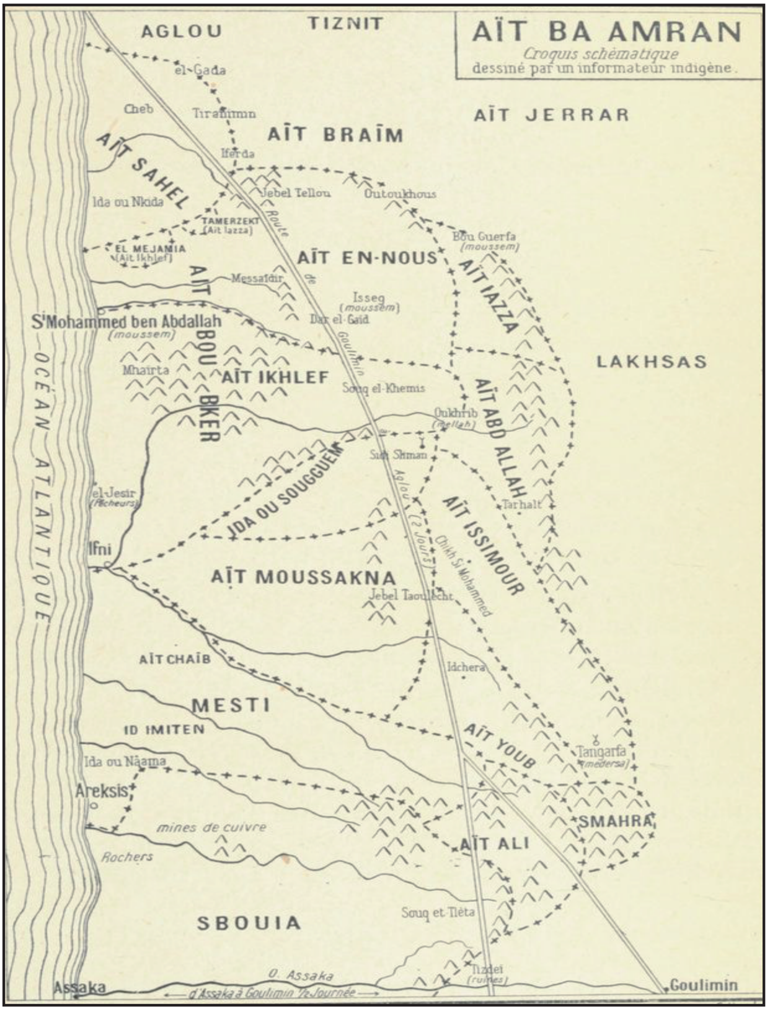

عن القبيلة وها : تامرزكت بآيت إعزا. والمجاميع: بآيت إخلف. ونذكر أيضا قريتين هامتين : الگعدة بجوار أگلو، والسهب بوسط القبيلة.

آيت بوبكر

حدودها: شمالا: آيت الساحل، شرقا: آيت إعزا وآيت عبد الله، وجنوبا : مستي وأيت موساكنا وآيت أوسوگم، وغربا : المحيط طبيعة أرضها، يسكن آيت بوبكر مجالا "كثير التضاريس" وتحدهم الجبال بالغرب من الساحل، وترتفع في الشرق، نذكر جبل تولاشت الذي يعبر طريق أگلو إلى أساكا، ويعبر واد إفني آيت بوبكر من الشرق إلى الغرب، [603] والساحل "محاط" بالهضاب، وبه ميناء صغير للصيادين بالجزيرة. مصادر مياهها: فضلا عن الوديان نجد عيون ماء متدفقة، وآبار بعمق حوالي عشرة إلى خمس عشرة مترا. طرق المواصلات بها: طريق أگلو إلى گلميم (الشمال

الغربي- الجنوب الشرقي) وطريق أگلو إلى أساكا (شمال –جنوب) هي الطريقان الآهلتان. وينقسم أيت بوبكر إلى فخذتين كبيرتين هما أيت النص وأيت إخلف. ويتكون أيت النص (ألف وثلاثمائة كانون) من: أوتوغس وإسگ (موسم منزل "القايد") ومسايدير. ويتكون أيت إخلف من : المحايطة (قرب الجبل الذي يحمل الاسم نفسه) والكزير (الگزيرة) ميناء رائع صغير لصيد الأسماك، وسوق الخميس نايت بوبكر.

أعيانها: "القايد" أحمد أوبراهيم أوسعيد كان يسكن إسك وكان خليفة سيا محمد، وغادر مؤقتا مسكنه، وهو الآن لاجئ بتزنيت. إحصاؤها: حوالي ألفان وثلاثمائة كانون، وقائد آيت إخلف محماد أوعلي.

اللف: الأعداء التقليديون لآيت بوبكر هم: آيت عبد الله وآيت إعزا، وينتمون إلى كنفدرالية آيت الخمس. زاويتها: مدرسة سيدي بوإبراهيم ولد سيدي محماد أبراغ، ولشرفا دوزان مركز/إدارة "بضحك" ولآيت إخلف مدرسة بالقرب من سوق الخميس، وأغلبهم ناصريون وبعضهم درقاوة [604]

مستي ("شلوح" إمستيتين)

حدودها: شمالا: مستي، وشرقا:/ آيت علي، وجنوبا : واد نون، وغربا : المحيط. طبيعة أرضها: بلاد كثيرة الهضاب والجبال في الجهة الشرقية والساحل صخري في بعض الأماكن. مصادر مياهها: يعبر واد أركسيس مجال صبويا من الشرق إلى الغرب وواد أساكا يحده في الجنوب، وخارج الوديان، مصادر مياهها رديئة والآبار مالحة ولكل المنازل نطافي. المنتوجات: فلاحة الحبوب، ومناجم النحاس لأركسيس [605] طرق المواصلات تمتد طريق أگلو إلى أساكا الساحل وتمر إلى أركسيس. سوقها: سوق ثلاثاء صبويا في الشرق. تاريخها: بقي "ميناء" أركسيس شهيرا بمحاولة الرسو والتأسيس التجاري للماجور سبيلسبورگ (قضية نورمالين). تنظيمها : وتتكون صبويا من : زناگة، وأيت عبد الله أوابراهيم، وأيت علي أوعامر المكونين من : إد لاگو، وآيت سليمان وآيت حماد والحوافي. أعيانها: يسمى "القايد": البشير بن الحسن، ونذكر أيضا من الشخصيات المؤثرة: مولود أو بلعيد، والحسن ولد مبارك الذي يعتبر ضعيف الشخصية ويستفيد من السلطة الكبيرة لأبيه مبارك أوأحمد الذي توفي السنة الماضية (1906). إحصاؤها: حوالي ألف ومائتي كانون، وألف وخمسمائة بندقية، مائة فرس. زاويتها: مدرسة بجوار سوق الثلاثا، والطرق التي لها أتباع أكثرهم: التجانيون والناصريون.

آيت إعزا

حدودها: من الشمال إلى الشرق، لخصاص، وجنوبا : آيت عبد الله، وغربا : آيت بوبكر. طبيعة أرضها: منطقة جبلية. والتجمع الأكثر أهمية هو بوگرفة حيث ينعقد الموسم/الموگار السنوي. تنظيمها: يتكون أيت إعزا من : آيت مرزگت (تامرزگت) منغلقة وسط آيت الساحل، وأيت بوگرفة، وأيت العسري. أعيانها: "القايد" حماد أصواب الذي عينه مولاي الحسن فر إلى تيزنيت. إحصاؤها: خمسمائة كانون. زاويتها: مدرسة سيدي إبراهيم أوعبد الله ببوكرفة [606] يسيرها أحد الشرفا من حفدة المؤسس للطريقة الناصرية.

آيت عبد الله

حدودها: شمالا : آيت إعزا، شرقا: لخصاص، وجنوبا : آيت إسيمور، وغربا: آيت بوبكر وإدا أوسوگم. طبيعة أرضها: منطقة جبلية. مصادر مياهها: ينبع واد إفني من هذه الجبال، والآبار بعمق حوالي خمس عشرة متر. طرق المواصلات بها: تمر طريق أگلو إلى گلميم عبر آيت عبد الله يسارا. تنظيمها : يتكون أيت عبد الله من : أوخريب (قرية كبيرة وملاح) وتارحالت، وزاوية ذات أهمية قليلة لأيت إعزا على حدود ايت إعزا. سوقها: سوق الأربعا والموگار أوخريب. أعيانها: "القايد" هو سي علي الخزار، الموجود حاليا بتيزنيت. إحصاؤها: حوالي ثمانمائة كانون، وخمسمائة بندقية، ومائة فرس. زاويتها: مدرسة للأطفال قرب سوقها، زاوية أقل أهمية بآيت إعزا وهدا على الحد ومع آيت إعزا، زاوية/طريقة الناصريين. اللف: آيت عبد الله حلفاء آيت إعزا ضد آيت بوبكر.

إدا أسوگم

حدودها: شمالا : آيت بوبكر، وشرقا : آيت عبد الله وأيت إيسيمور، وجنوبا : آيت موسكى، وغربا: آيت بوبكر. طبيعة أرضها: منطقة جبلية. تقسيمها : ينقسم إدا أوسگم إلى : تافراوت نگابون وتافرارت نبني عايش وألالن. إحصاؤها: ثلاثمائة كانون، وعشرة خيول [607] زاويتها: زاوية هامة لسيدي سليمان، طائفة/ طريقة الناصريين.

إدموساكنا

حدودها : شمالا : آيت إدا أوسوكم وأيت بوبكر، وشرقا : آيت إسيمور وآيت يوب، وجنوبا: / مستي، وغربا : آيت بوبكر. طبيعة أرضها: جبل هام، جبل تولاشت يوجد على حدود آيت يوب وينبع منه أحدو روافد واد إفني، وهذا الرافد حدود مستي. تنظيمها: يتكون إد موساكنا من : تينكازو (مدرسة، مقدم الناصريين، الفقير علي وإغيرن نبراهيم، وأسيف لعروصي، وسيدي مسعود أو زينة (الموگار) وأملّو. أعيانها: الشيخ مولود أوزاگا سعيد نبريك. إحصاؤها: أربعمائة كانون، وعشرون فرسا.

السماهرة

حدودها: شمالا : آيت إسيمور، وشرقا : لخصاص، وجنوبا : واد نون، وغربا: آيت علي. طبيعة أرضها: جبلية. تقسيمها: أماسين (قرية كبيرة/ أباينو (قرية كبيرة). أعيانها: "القايد" البشير) ("قايد" صبويا) إحصاؤها : ثلاثمائة وخمسون كانونا وعشرة خيول . زاويتها : زاوية سيدي سليمان أباينو، وزاوية الناصريين، عين ماء ساخنة كبريتيه توجد قرب زاويتها تعالج الأمراض بشكل خارق.

آيت اسيمور

حدودها: شمالا : آيت عبد الله، وشرقا : آيت عبد الله ولخصاص، وجنوبا : آيت يوب، وغربا: مستي وإد موساكنا. طبيعة أرضها: بلاد كثيرة الهضاب [608] مصادر مياهها: ليست هناك وديان، آبار بعمق حوالي عشرة أمتار. منتوجاتها: الحبوب. طرق المواصلات بها: تمر طريق أگلو وإلى گلميم عبر آيت إسيمور وشرقا: سوقها: سوق الاثنين. والتجمع الأكثر أهمية هو تانگرفا حيث توجد زاوية

ومدرسة. أعيانها يتمتع الشيخ الشاب سي امحمّد الحسن أويحيى بسلطة حقيقية على كل آيت باعمران، وكان أبوه أويحي "قايد" أخويا جدا وعائلته هي أقدم عائلة بالقبيلة، ونذكر أيضا سي علال بوفوس، وعلي بن بو إحي. إحصاؤها: ستمائة كانون، وخمسون فرس. زاويتها: توجد مدرسة قرآنية بتانگرفا، وهم ناصريون.

آيت علي

حدودها: شمالا: آيت يوب، وشرقا : السماهرة، ولخصاص، وجنوبا: واد نون، وغربا: صبويا ومستي. طبيعة أرضها : جبلية. مصادر مياهها : جداول، منبع عيون واد إفني (واد بيوگري). طرق المواصلات بها: طريق أگلو إلى گلميم تعبر المجال (شمال غرب/جنوب شرق). تقسيمها : ينقسم أيت علي إلى : إد رمضان وايت تگونفل وأيت لوغران (أوغران) أيت أوگوگ. أعيانها: الشيخ الحسين نايت علي، لهم "القايد" نفسه لآيت إسيمور . إحصاؤها: سبعمائة كانون، وزاويتها: مدرسة بتادارت، وهم ناصريون.

آيت يوب

حدودها: شمالا : آيت إسيمور، وشرقا : آيت عبد الله و[609] لخصاص، وجنوبا: آيت علي ومستي، وغربا : مستي وآيت موساكن طبيعة أرضها: منطقة كثيرة الهضاب وجبلية وشرقا: مصادر مياهها: ليست هناك مجاري مياه، آبار عميقة بعض الشيء بحوالي خمس عشرة إلى عشرين مترا) طرق المواصلات بها: تعبر طريق أگلو المجال (شمال غرب -جنوب غرب) وتمر عبر القرية الهامة للدشرة. أعيانها: توفي الشيخ أحماد ماخو سنة 1905 وخلفه عمه "القايد" بوبكر. تقسيمها : يتكون آيت يوب من : آيت حمو، والدشيرة، وأيت أوگني نزكري، وإحمشين (قرية كبيرة) وسوق الجمعة. إحصاؤها: ثلاثمائة كانون، وزاويتها: ليست هناك أي مدرسة، والتعليم القرآني موجود في كل قرية الجمعة، وهم ناصريون [610].

الفصل التاسع والعشرون

اتحادية واد نون

يطلق واد نون جغرافيا على كونفدرالية القبائل التي تسكن حوض واد أساكا. وتنقسم هذه الكنفدرالية إلى مجموعتين هما: آيت الجمل (تاحكات) وآيت بلا (تاگزولت). وتنقسم هاتان المجموعتان أيضا على الشكل التالي: أيت الجمل ويتكونون من : أيت موسى أوعلي (حيث يوجد گلميم)، وأيت لحسن، وإزرگيين، وأيت حسين، ويگوت، وأيت مجاط (مجاض)، وإزنگاض. وآيت بلا، ويتكونون من : أيت أحماد، وآيت مسعود، وأزوافيط (زوافيط)، وبلحوبلات، وآيت ياسين.

الروابط السياسية التي تجمع هذه القبيلة غير مستقرة تماما، فآيت موسى أوعلي وأزوافيط في صراع دائم، وإزرگيين لهم أتباع قلة من الفخذات الصغيرة لآيت حسين، ومجاط وإزنكاض وساكنة واد نون من أصول بربرية، ويتكلمون الشلحة والعربية ويعتقد أنهم دخلوا الإسلام منذ ألف ومائة وخمسين سنة بفضل مولاي إدريس نفسه [611] وهذه الأخبار التاريخية لا يمكن أن تضبط إلا انطلاقا من القرن الثامن عشر. وعبر "القايد" دحمان عدة مرات عن رغبته في الدخول في علاقات اقتصادية مباشرة مع الأوربيين، وتبنى حفدته: الصديق ولد الحبيب ولد بيروك وإبراهيم الخليل مشاريعه، وأبان أخوه امحمد عن معارضة قوية للموضوع، ودون أن نبالغ في قيمة الأحاسيس "لقايد" واد نون علينا مراقبة المفاوضات التي يقوم بها الآن والتجارة القائمة في هذه الأثناء مع السفن الإسبانية على ساحل إزرگيين.

تمر كل تجارة واد نون حاليا عبر موگادور (ست مراحل)، على أساس أن الثمن الأصلي للسلعة تضاف إليه ثمان دورات (أربعة دورو حق النزالة وأربعة دورو حق الشحن (الحمل)) والمبلغ الإجمالي، ويفوق مبلغ التصدير، والاستيراد ثلاثمائة ألف دورو سنويا. أهل واد نون متعصبون، لكن دينهم ينحصر في محافظة قوية على العرف الخارجي للإسلام، وعدم التسامح القوي، أميون، ويقدر قاضيهم سيدي علي الفيلالي الساكن بگلميم أن نسبة الأمية تفوق 90% ولا توجد أي شخصية دينية ذات نفوذ خاص هنا، ورغم ذلك نشير إلى أن الشريف مولاي علي بن مولاي سليمان وبعض الشرفاء من أولاد بو سبع محترمون بعض الشيء هنا [612].

جغرافيتها:

يتكون واد أساكا الذي يحمل حوضه اسم واد نون في نقطة التقائه من رافدين هما: أم لعشار وسعيد اللذان يلتقيان في نقطة تسمى المعدر. ويحمل واد السايح في القسم الأخير من مجراه اسم واد نون، والدائرة التي يمر منها تحمل اسم تكنة يحكمها "القايد" دحمان بن بيروك، وهذه الدائرة التي تسمى عادة واد نون بها تجارة كثيرة ومستقلة[1].

1- شجرة نسب آل بيروك

عبد القادر
سالعبد الله
مبارك
الماضي عيسى عابدين ملياح محمد الحبيب دحمان
علي أوفاحال
الكفتي الصديق أبراهيم موليد
مولود محمد البشير عبد الله عبد القادر الماضي (سجين بموگادور)

وتواطأ الحبيب مع الماجور spaielbury في قضية تورنالين "القايد" الحالي دحمان وسيخلفه ابنه.

وكثيرا ما تلعب دور الوسيط بين السودان والمغرب ولها علاقات جيدة مع قبائل الأطللس الصغير والمورو، وتازروالت. وتتكون تكنة من أيت الجمل الذين يضمون: أيت موسى أوعلي وهم حضريون يسكنون گلميم، ويتكونون من: أيت بوشن وإحاران، وخوميين، وأيت علي أو لحسن، وآيت واكريم. وأيت لحسن (القصابي، تسگنان وهم رحل) ويتكونون من : إنجورن، وأيت بو مگّوت، وأيت داود أو عبد الله، وأيت يحي، والزكاكرة، وأيت سعيد. وإزرگيين وهم رحل، ويتكونون من : اشتوكة، وأيت سعيد. ويگوت وهم رحل، ويتكونون من : آيت سعيد، وأيت حمو، والعبيدات، وأيت إبورك. وتوجد ثلاث فخذات متفرعة عن إزرگيين وهي : أيت حسين ومجاط وإزنكاض. ومن أيت بلا الذين يضمون: أيت احماد، ويتكونون من : أيت بوعيطة [613]، وأيت جبران، وايت بوعدي، أيت بو الارواح، والحراحير، وإغربيين. وأزوافيط (أسرير نصف، وتيغمرت نصف، وواعرون) ويتكونون من : أيت الخنوس، وايت ماحمو، وأهل هين، وأموازيغ، وآيت احماد أوعلي. وبلحويلات (وهم نصف واعرون) ويتكونون من : الحراطين والبيوض. وأيت مسعود (نصف تيغمرت). وأيت ياسين. وأفركط. وگير. وأيت بوعشرة. [614]

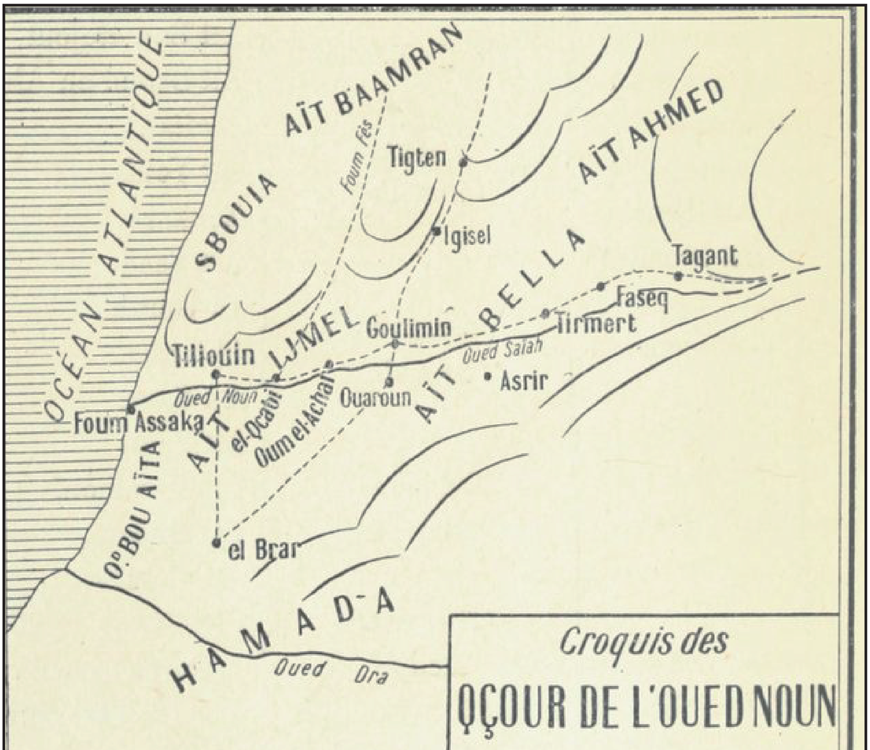

أعيانها "القايد" دحمان ولد بيروك. سوقها: الأحد، الموگار سيدي الغازي. زاويتها: سيدي الغازي. مصادر مياهها: عيون الماء. الأرض: سهلية. فلاحتها: الحبوب، يحرث حين تكون هناك ضفاف واد السايح. طرق المواصلات: طريق موگادور. حدودها: شمالا: آيت باعمران، وشرقا : أزوافيط، آيت مسعود، بلحويلات، وجنوبا : أزوافيط، آيت مسعود، وشرقا : آيت الحسن.

آيت لحسن

قبيلة كبيرة يمتد مجالها على ثلاثة أيام من السير/المشي، ويعد الشيخ دحمان ولد بيروك الزعيم الحقيقي، رغم أن لهما قائدان "القايد" محمد الأمين يسكن القصابي، والشيها بن الناجم بن حميد الذي يعد أخوه محمد المختار بن حميد الشيخ الأكثر احتراما. تنظيمها: أهل الناجم (القصابي، وخيام)، والشيخ امحمد المختار الرويحات، والشيخ امحمد بن الوارا، والشيخ مبارك ولد عبد الله أوبهي. وأيت بومكوت، والشيخ ولد حمو ولد بوشاد ولد البومكوتي، الشيخ سعيد ولد إبراهيم بن علي، وأهل محمد الدليمي، والشيخ صغرى ولد محمد الدليمي. الزكارة، والشيخ عمر ولد حمدان. آيت سعد، الشيخ ولد حمدان. آيت بوگاستن، والشيخ محمد ولد بودبوز، وإدا أودعبد الله، الشيخ رموق (راموك)، وآيت عبد القادر، والشيخ السالك ولد محمد جماعاتها المركزية هي: القصابي، والدشيرة، [615] وتيليوين، والشويرات، وأوميليس، ولبيار (واد درعة)، وآيت الخنب، وبومكرت على بعد نصف مرحلة عن لبيار. زاويتها: القصابي "السيد" سيدي عامر أوعمران. سوقها: الموگار القصابي. حدودها: شمالا : صبويا، وشرقا: واد نون، وجنوبا: واد درعة (حمادة)، وغربا : البحر.

إمجاط (مجاط)

حدودها: شمالا : تازروالت، وشرقا : آيت موسى أوعلي، وجنوبا : إفران، وغربا:/ لخصاص جغرافيتها: أرض جبلية . مصادر مياهها: الماء بها نادر، ويجمع هنا ماء المطر في نطافي. طرق المواصلات: طريقا: إفران وماسة. تنظيمها: تنقسم القبيلة إلى فخذتين :

- فخذة "القايد" سعيد مبارك أو الحسن نايت بن نيران، وتتكون من : آيت بن نيران (أربعمائة مائة كانون- إقامة "القايد") وآيت الرحال (ثلاثمائة كانون) وآيت تاجر (خمسة آلاف كانون، وجنوبا: تازروالت ويعدون أحيانا قبيلة منعزلة) آيت كروم (مائتا كانون)، وأگوشتيم (خمسمائة كانون - إقامتان "للقايد"). وفخذة "القايد" بوهيا نايت موسى، وتتكون من : أگوماض (ثلاثمائة كانون) وآيت علي (ثلاثة آلاف كانون) وتيزگي (خمسمائة كانون) وإغير ملولن (ثلاثمائة كانون) وأيت همان (مائتا كانون) وأيت موسى (خمسمائة كانون)، وإقامة "القايد" [616]. والعداوة" بين أمجاط وإفران تضع القريتان والتجمعات في مواجهة دائمة

آيت احماد

أعيانها: الكسلي، وأشميك. جماعتها: إدا أو أحمد. سوقها: الأربعا. مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين متراً، وعين ماء صغيرة. حدودها: شمالا : أزوافيط، وشرقا: لخصاص، وجنوبا : إدا أُبراهيم، وغربا : آيت ياسين.

أزوافيط (زوافيط)

أعيانها: "القايد" آيت حماد أشميك تنظيمها : تتكون أزوافيط من : أهل أسرير، الشيخ ولد الهيبة، وتيغمرت، الشيخ ولد المعطي، وأيت واعرام، والشيخ ولد احماد أوسالم الذي يحكم أيضا أيت ياسين. زاويتها: أسرير. مصادر مياهها: عين تيغمرت، آبار. حدودها: شمالا : آيت موسى أوعلي، وشرقا: آيت موسى أعلي، وجنوبا : أيت مسعود، وغربا : آيت أحماد.

آيت مسعود

أعيانها: "القايد" زروال يسكن تيدالت ويحكم أيضا آيت بوعشرة. جماعتها: تيغمرت. حدودها" شمالا : أزوافيط، وشرقا : آيت أحمد، وجنوبا : أيت ياسين، وغربا: الحمادة.

آيت ياسين

أعيانها: يسكن "القايد" ولد أحمد أوسالم أسرير، الشيخ مبارك اليسيني. الجماعة: أفرگط [617] مصادر مياهها: آبار بعمق حوالي خمس عشرة إلى عشرين متر. حدودها: شمالا: أزوافيط، وشرقا : إدا أبراهيم، وجنوبا : آيت بوعشرة، وغربا : آيت أحماد.

آيت بوعشرة (آيت بو العشرة)

لهم "القايد" نفسه لآيت مسعود. أعيانها: الحسن بن المعيوف. جماعتها: آيت بوعشرة. مصادر مياهها: عيون وآبار بعمق حوالي خمس عشرة متر. حدودها: شمالا : آيت ياسين، وشرقا : إداأوبراهيم، آيت أوسى، وجنوبا : وغربا : الحمادة.

معلومات طبوغرافية عنها :

من گلميم إلى تاگانت يوم ونصف، من گلميم إلى أساكا يوم ونصف، ومن گلميم إلى "لبغاغ" (لبيار) يوم طويل، من گلميم إلى إگيسل ثلاث ساعات.

إفران (أُفران)

يطلق اسم إفران على التجمع السكني الهام الذي يسكن وادي إفران، وقراها التي تكون هذا التجمع "مستقلة" تماما، ويطلق عليهم آيت الربعين اي جماعات دون زعيم تسيرها الجماعة، ولا أحد يستطيع الدخول إليها دون "زطاط" (حارس قافلة) ليس لهم حلفاء، ولا يتوقفون عن الصراع فيما بينهم. والبلاد هنا غنية بمنتوجات الذرة، والشعير، والتمور، والزيتون. ويمكن أن نقسم هذه التجمعات إلى ثلاثة: تيمولاي، سوق الجمعة (سبعمائة كانون) وأمسرا، سوق الأربعا (ألف كانون) أعيانها :سي محمد أو محمد إدا أوشقرة (شگرة) (ثلاثة آلاف كانون) أعيانها محمد أمسعود. أساكا (ألفا كانون) إقامة الشريف سي محمد أوحسو [618]

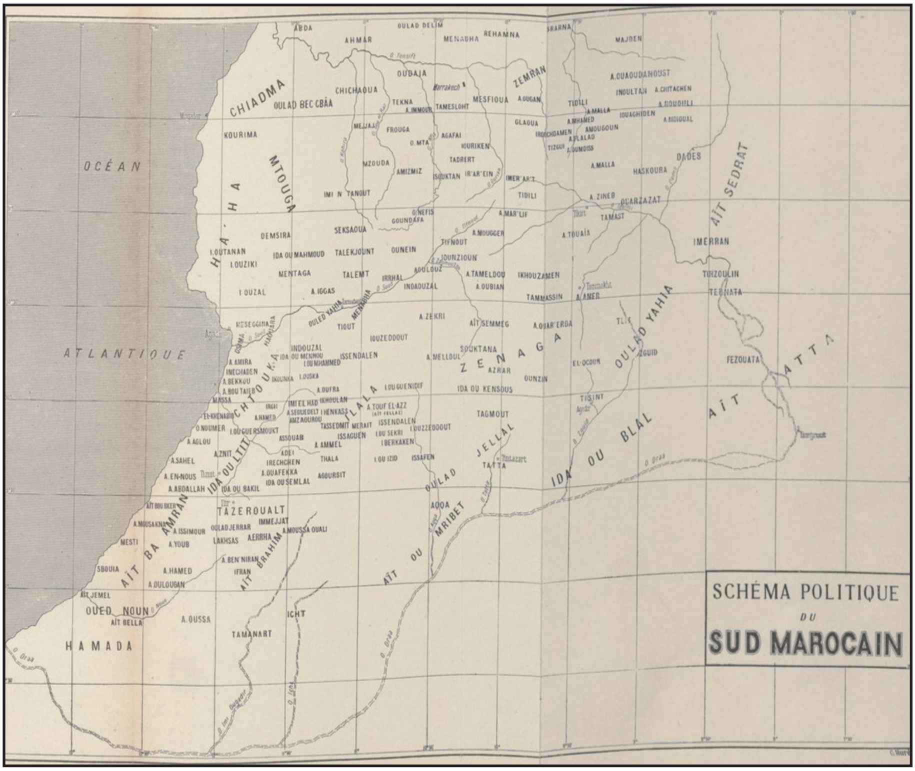

وتاسكالا (تينسكالات): زاوية "السيد" (ضريح) سيدي بولعلام (ثلاثة آلاف كانون) وسوق الأحد أعيانها: الحاج بلقاس أگر سواك: ألف كانون، أعيانها: سي محمد أوحمو سوق الأحد، الفقيه: الحاج الحسين يسكن بها. إدازن ألف كانون أعيانها حماد نطالب مومه. لمتوك (خمسمائة كانون)، ملاح أعيانها: مبارك أوعسو نتاوريرت إزاكا ألف كانون. أعيانها: سي صالح. وتانكرت، تينكرت: لحماتك الفوقاني (خمسمائة كانون) أعيانها: إبراهيم، أوبلا أوبلا. تانكرت (ثلاثة آلاف كانون). وتيمزگيدة: الجامع (خمسمائة كانون)، أعيانها: محماد أوعلي.

ويمتد طول هذه الأراضي على مسافة يومين من المشي. واليهود هنا كثير، ويستعملون أيضا في الحرب، وشكل الحراطين ساكنة من العمال أكثر من ثلاثة آلاف رجل. وأعداء إفران التقليديون هم: إمجاط [619]

الفصل الثلاثون

زاوية السمارة والشيخ ماء العينين

السمارة[1]

توجد السمارة في الساقية الحمراء، على بعد ثلاثة أيام مشيا من البحر، وهي الآن مقر إقامة العالم "ماء العينين ابن الشيخ فاضل مؤسس الطريقة الفاضلية. وللشيخ فاضل أربعة ابناء هم: ماء العينين المستقر حاليا بشنگيط في أدرار، والشيخ الأمين بالسمارة، والشيخ سعدبوه بتوزيكت بإنشيري التابع للتراب الموريطاني، والشيخ لخيار بدار السلام بالحوض.

حظي الشيخ ماء العينين بثقة السلطان مولاي الحسن ويقال أيضا إنه نال ثقة خليفته مولاي عبد العزيز، وتعود أن يأتي سنويا لجمع "الزيارات" من زواياه بالمغرب، وبدت له شنگيط بعيدة جدا، وأن المراحل الخمس والعشرين التي تفصل أدرار عن واد نون ليست آمنة جدا، فقوافل الحبوب وقطعان المواشي، والهدايا التي يجمعها [621] من جولاته تعطي لقطاع الطرق في الصحراء

1- سنقدم المعلومات من لائحة المراسي التجارية للأطلسي التي زارتها السفن التجارية، والمسارين لواد نون إلى شنگيط.

الموانئ المراسي الأطلنتية: والبويدا (البيضة) (واد نون) ساحل الحرصة وأخفنير وطرفاية (كاب جولي) واد درعة والبدار وتافروات وأوسي أحماند وشواريم ولمسينت وفليسات والداخلة (ريودي يورو).

ومراحل الطريق بين واد نون والسمارة هي:

واد نون والعوينة (آيت أوسى) وتيغونرو (عين ماء قرب واد درعة) وفنجرياه/ (ليس هناك ماء) وواد لزيطة (مياه جارية) وخريبيشة (ليس هناك ماء)

توغور (الساگية) والسمارة. والمسار من واد نون إلى شنكيط: وواد نون (گلميم) وكير (آبار لقصر) وباني قصر والكعدة [620] وسهب العكر وبتيانات.

الساقية الحمراء:

طريق الساحل	طريق الصحراء
مراميت	زوبليلا
الجويفية	معارة
كريب (دون ماء)	أوكارت
البير	مزميزة
في الجواد (في أدرار سيفوف)	بودركل
أم الخوية (جافة أحيانا)	لعرج (سبحة إجيل
فيرزنيك	نقطة نهاية/آخر مرحلة موريطانيا
لصاك	بودريجة
فم جول (قصبة وcol)	ميحوثات
أودي (عشرة آبار)	بوعلاقة مرحلة قوية
محاكين (قصبة)	الظهر (طهر في مقابل البطن)
الشار (قصبة	شنگيط
الطهر	وأخبرنا العقيدكور Gouraud أنه توجد هناك إثنا
الشت كيطي	عشر مرحلة من زمور إلى إجيل

المسار من طرفاية إلى السمارة

طرفاية (مرس البرج) والحگونية (آبار جيدة) عشر ساعات من المشي وراسن (غديو، آبار ضعيفة) إثنا عشر ساعة، والسمارة إثنا عشر ساعة.

فرصة ينتظرونها بشغف، وخاصة أنها تكون سهلة، ولهذا قرر أن يبني قصر سكناه بالسمارة التي ليست سوى على بعد خمس عشرة كلم موصلة من شمال شنگيط وثلاث مراحل فقط عن طرفاية، النقطة الموجودة في مدخل الساقية الحمراء التي ترسو بها السفن والتي تحمله إلى المغرب. وطرفاية التي نسميها أيضا كاب جوبي Juby ليست سوى "مرسى تجاري" بها برج هام يسكنه فقط بعض أمناء المخزن يذكر بالمحاولة التجارية للإنجليزي ماك كورضين (Mac Curtis 1894). وتتكون زاوية السمارة من خمس منازل، فبنيت حولها خيام لخدم الشيخ، وليس للسمارة سوق مجاور إلا سوق گلميم، والمراعي الموجودة في ضواحيها تكفي فقط لرعي بعض المئات من الجمال التي تشكل ثروة الشيخ، وآلاف العبيد شبه عراة "يحرسون" الزاوية. وأكدوا لنا أن السمارة كانت "خلاء" في غياب "سيدها"، وعلم أن ماء العينين ذهب إلى فاس في غشت 1907، وعسكر تحت أسوار مراكش في الوقت الذي بويع مولاي حفيظ سلطانا. حاول – دون جدوى- إقامة صلح (مصالحة الأخوين وأن يجمعا قوتهما ضد فرنسا).

وظل مولاي عبد العزيز غير مكترث بالأمر، ومن ثمة اتخذ الشيخ موقفا واضحا بمناصرة مولاي حفيظ، الذي أعطاه مجاملة نصيبا قارا (أمية) من مداخيل مراكش مقدارها ستمائة دورو من أجل صيانة مقر سكناه. فكان رد فعل مولاي عبد العزيز بأن أغلق زاوية الشيخ بموگادور وطرد أتباعه.

ينتمي "خدام" الشيخ وتلامذته الذين يصل عددهم أربعمائة مائة فرد أو أكثر، لمجموعات مختلفة، فهم من أهل مشظوف وأولاد غيلان (غيفان) وهي قبلية كبيرة من الرحل تتحرك جنوب واد نون، ومن أولاد بو السبع، ومن تاجكانت، وبعض الأفراد من العائلة الملكية لأدرار، أولاد عيدة (والزعيم الحالي لهذه العائلة هو يحيى بن عثمان). وأخيرا عمال من إجيل، ويشكلون طائفة خاصة [622] يطلق عليهم اسم أرزاير، وزعيمها الحالي هو سيدي محمد الكنتي الذي يوجد مقر سكناه بوادان. واعتقدنا لمدة طويلة أن أتباع الشيخ ماء العينين ليست لهم أهمية عسكرية، لكن وأكدت البعثة الهامة للعقيد گورو Gourou أن تلامذة ماء العينين أذكياء وحيويون، ثم ذلك أن الصدفة وحدها هي التي أنجحت هجومها على بعثتنا لموريطانيا عندما فاجأت النقيب بابلون Bablone وقبيلته، مما اثار إعجاب البعض. ويمكن أن أؤكد أنه لولا تدخل تلاميذ ماء العينين في أدرار لم نكن لنلق أية مقاومَة ومن مساعدي الشيخ الهرم أبناؤه والمشهور منهم هم:

النعمة: الذي سيأخذ "البركة" فيما بعد، ومكلف بالشؤون الروحية للزاوية، أحمد الهيبة المكلف بالعلاقات مع السلطان، والذي استقبل في فاس في موكب بهي أثناء فشل السفير الأخير الإسباني. والشيخ حسن: الذي قاد عمليات أدرار سنة 1908، وعوض فيه بأخيه الولي سنة 1909 وهو يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة. وأصغر ابناء ماء العينين لغضف: الذي يدير الممتلكات اليومية وخاصة قطعان الماشية. ونذكر أيضا من أصدقاء الشيخ، ولد الخادم، والشيخ العوينة، وولد أحمد أوسالم زعيم آيت ياسين، وولد بلعيد الشام وولد حمان ولد بيروك وحفدته. ويجد الشيخ

ايضا دعما من الركيبات، وأولاد دليم وزعيمها الحمويم. وكان للشيخ ماء العينين اثناء رحلته الأخيرة للمغرب عدة أعداء بواد نون، وسوس وتازروالت. وأبانت تكنة عن معارضتها التامة لنفوذه، وتغيرت الوضعية وأخافت انتصاراتنا الأخيرة في أدرار الشيخ، وانطلقت شمالا: في اتجاه المغرب، وحمل معه خيامه وقطعانه وحسب آخر الأخبار فإنه توقف بتزنيت وهي مدينة توجد شمال تازروالت حيث شكلت له نقطة نهاية مساره [623] سنة 1891. ولا نعرف نواياه، فالبعض يدعي أنه سيذهب للاستقرار بمراكش قرب زاوية الشرادي، والبعض الآخر يؤكد أن سيستقر براس الوادي في أعلى وادي واد سوس. ولدينا الأدلة على أن السلطان مولاي حفيظ هو من بعث في طلب الشيخ ماء العينين، واستضافه وهذا بالضبط بعد الحملة على أدرار عندما هاجمنا أولاد الشيخ وتلامذته، وفي الوقت أيضا الذي وقع فيه السلطان للتو التزاما نهائيا بعدم تقديم الدعم لماء العينين. أنهي هذه المعلومات وأنا أشكر العقيد گورو Gouroud الذي قبل برحابة صدر أن ينقح بعض هذه المعلومات عن مجال السمارة، المحادية لموريطانيا مسرح الحملة المجيدة التي أنهاها. ابانت لي هذه التصحيحات من جديد أن المعلومات المستقاة من أفواه الأهالي تكون بها أخطاء كثيرة ومعلومات غير صحيحة وتخرج أيضا السرعة "اللإشكالية" التي غيرت بها الوضعية السياسية وهذا الفسيفساء المغربي. ومكنتني أيضا من الوقوف على سبب لطلب العذر۔ من كل من سيراقب هذه الوثائق. وهذا النقص في جودة المعلومات تجعلني أشيد بالأعمال الجادة لمستكشفي المغرب من مثل "السيد" شارل دوفوكو charles de Faucaults، واليوم أخ شارل الناسك charles de Jesus, في عمق الصحراء. وهذا ما يجعلني أتنازل بأن أضع هذا الكتاب تحت سلطته الكبرى، وأن يعذرني أن أنشر رسالته التصويبية في الأخير التي تعد بالنسبة لي أغلى مدح وثناء[624] [ثلاث صفحات للرسالة المخطوطة].

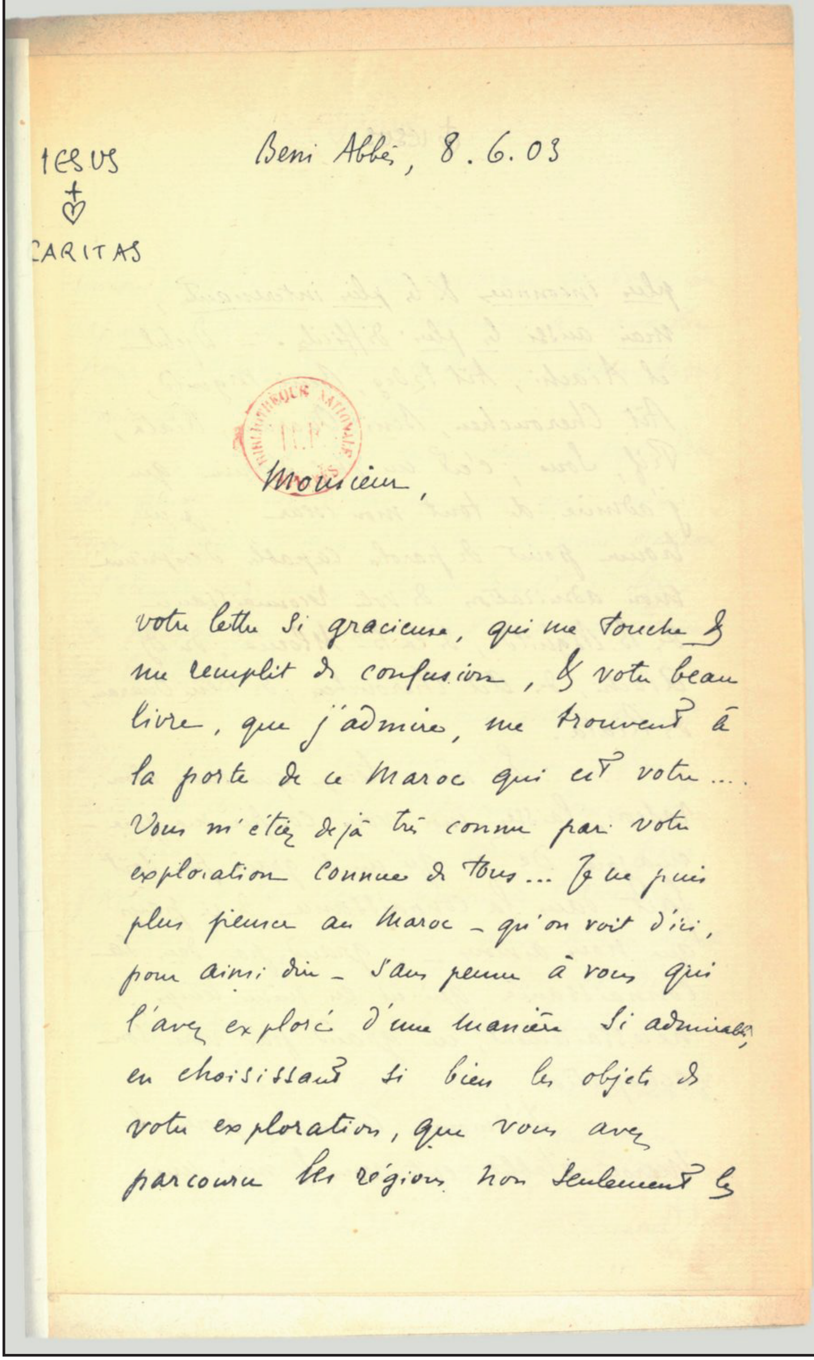
JESUS
✝
♡
CARITAS

Beni Abbès, 8.6.03

Monsieur,

votre lettre si gracieuse, qui me touche & me remplit de confusion, & votre beau livre, que j'admire, me trouvent à la porte de ce Maroc qui est votre.... Vous m'êtes déjà très connu par votre exploration connue de tous... Je ne puis plus penser au Maroc – qu'on voit d'ici, pour ainsi dire – sans penser à vous qui l'avez exploré d'une manière si admirable, en choisissant si bien les objets de votre exploration, que vous avez parcouru les régions non seulement les

✝ Iesus

plus inconnues & les plus intéressantes, mais aussi les plus difficiles. – Djebel el Aïachi, Aït Izdeg, Beni Mguild, Aït Cherouchen, Beni Ouaraïn, Riata, Rif, Sous, c'est un chef d'oeuvre que j'admire de tout mon coeur.. Je ne trouve point de paroles capables d'exprimer mon admiration de votre reconnaissance des B. Mguild, de la Bte Mlouïa, du Dj. Aïachi, des Aït Cherouchen, des Beni Ouaraïn, des Riata.

En même temps que mon admiration, laissez-moi vous confier ma joie – ma joie de ce qu'un si grand pas soit fait dans la connaissance de ce pays que nous aimons –; grand pas dans sa connaissance, qui est en même temps, nécessairement, un grand pas vers son occupation

L'amour commun pour le Maroc établit entre vous & moi une

✝ IESUS

union profonde.. Si j'ose exprimer un voeu, un espoir, c'est que vous continuiez à travailler pour le Maroc & pour la France, pour lesquels vous avez déjà tant fait!

De tout mon coeur je prie Dieu, du fond de mon ermitage, pour que, comme vous le dites si bien, "l'ombre de notre drapeau "s'étende un jour, - s'étende bientôt -" sur les peuples que vous avez tant fait pour donner à la France.

Et comme tout passe excepté Dieu, comme il est une distance infinie entre la créature & le Créateur, comme la vie mortelle ne nous est donnée que pour parvenir à la pleine lumière de l'éternité, je prie Dieu de toute mon âme de vous accorder toute grâce, toute bénédiction, tout don divin en ce monde & le ciel dans l'autre.

Daignez agréer encore l'expression de ma profonde gratitude & veuillez me croire votre très respectueux, reconnaissant, dévoué serviteur dans le CŒUR Sacré de JESUS

fr. Charles de JESUS (Ch. de Foucauld)

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE IMPRIMÉS

نص الرسالة باللغة العربية

بن عباس في: 8/ 1903/6

سيدي:

لقد تأثرت كثيرا بقراءة رسالتكم الشيقة التي جعلتني أقف على أبواب المغرب الذي عرفتموني عن خباياه، بعد أن استكشفتموه وحققت رحلتكم أهدافها بانتقاء جيد للمناطق المستكشفة، ليس فقط المغمورة كثيرا والهامة لكن الأكثر المسالك صعوبة للوصول إليها مثل جبل العياشي، وأيت إزدگ، وبني مگيلد، وأيت سغروشن، وبني وراين، وغياثة، والريف، وسوس، إنه فعلا تحفة ثمينة جدا أجدها، ولا أجد عبارات تفي بإعجابي به، وبمعرفتكم ببني مگيلد، وسهل ملوية، وجبل العياشي، وأيت سغروشن وبني وراين، وغياثة. واسمحوا لي أن أعبر لكم عن إعجابي وفرحي بمعرفة هذا البلد الذي نحبه، والتعرف عليه خطوة هامة من أجل احتلاله. فحب المغرب شيء عميق يجمع بيننا. وإذا كان لي من أمنية هو أن تستمروا في الاشتغال للمغرب وفرنسا اللذان قمت لهما بكل شيء. وأسأل الله من كل قلبي- أن تتحقق كما تقولون –رفرفة علمنا قريبا على أراضي تلك الشعوب التي قمتم بكل شيء من أجل تقديمها إلى فرنسا. وما دام كل شيء هالك إلا الله، فإني أدعوه بكل إخلاص أن يرضى عنكم دنيا وآخرة. وتقبلوا من جديد فائق عبارات تقديري. محترمكم، والمعترف بكم وخديمكم. شارل دو جوزيس.

الفصل الواحد والثلاثون

وثائق

الوثيقة رقم 1 [1]

بعد الحمدلة والتصلية والإشارة إلى خاتم المولى عبد العزيز، موضوع الرسالة:

تحية ال"قايد" حدو بن الحسين البوزيدي والدعاء له. التذكير بضرورة تحصيل واجبات الزكاة انطلاقا من القرآن والسنة، والتذكير بقوله تعالى ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾[2] التذكير بعواقب من لم يؤد واجب الزكاة [625]، والحث على وجوب استخلاص هذه الواجبات. رسالة مؤرخة بسبعة ربيع الثاني 1314 هـ. وكتب على الظرف "القايد" حدو بن الحسين البوزيدي.

الوثيقة الثانية (2)

بعد الحمدلة والتصلية والإشارة إلى خاتم مولاي الحسن. وتحية "القايد" حدو بن سعيد البوزيدي والدعاء له. الأمر بالقيام بحركة بالقوة المناسبة والاستعداد للحرب. رسالة مؤرخة بسابع رمضان الأبرك سنة 1311هـ، وكتب على الظرف العنوان التالي: "القايد" حدو بن سعيد البوزيدي.

الوثيقة الثالثة (ثلاثة)

بعد الحمد لة والتصلية والسلام على الخادم علي بن عبد السلام بن العربي بن علي الحسني الوزان. السلام على كل من "المزارعين" والطلب منهم [626] أن يحسنوا ضيافة ضيفهم وتسهيل مهمته. هذا خاتم علي بن عبد السلام بن العربي الوزاني حفظه الله، ومن أجل تلافي الأخطاء ونحت الشريف خاتما به خطأ إملائي، فمسح الشريف الخطأ بيده عندما وضع كاتبه الخاتم.

الوثيقة الرابعة (4)

بعد الحمد له التصلية وضع على اليمين خاتماً يمكن أن تقرأ فيه:

"الحنفي بن امحمد بن أبي بكر حفظه الله"

- رسالة إلى أفراد قبيلة تاوريرت نتيفلس وبصفة خاصة إلى المقدم المحترم جد أحمد والطالب سي إبراهيم حفظها الله. وطلب معرفة الجديد في أحوال الناس. والتذكير بأنه أرسل عبدا يستحمل ما دأبت عليه زاويتها بعثه سنويا، بعد والسلام خمسة وعشرون ربيع 1313هـ.

الوثيقة الخامسة (5)

بعد الحمدلة، تحية إلى الصديق والأخ: حدو ولآيت إشو بجماعتي [627] آيت بوزيد وأيت مساض. وطلب إعانة أخوانهم آيت تاگلة وآيت النصف. والتذكير أنهم من اللف نفسه. وأن آيت تاگلة تعرضوا لهجوم من گطيوة وأن الزناگي معتقل عند آيت امحمد. وطلب التدخل وإحلال السلم. صالح أورار وأهل الجماعة (حفظهم الله)

1- اشتغل صاحب النص الأصلي على ظهائر ورسائل وعمل على ترجمتها من العربية إلى الفرنسية، أما أنا فسأقتصر على ذكر ما ورد فيها حسب ما جاء في النص الأصلي دونما محاولة إلى كتابتها باللغة الأصلية. لتعذر الحصول عليها ولتقريب مضمونها إلى القارئ المفترض.

2- الآية رقم 43 سورة البقرة.

الوثيقة السادسة (6)

بعد الحمدلة والتصلية. إلى الصديق الأغر "القايد" حدو ولآيت بوزيد والشيخ إبراهيم حفظهما الله جمعيا. طلب التدخل من أجل تسوية الصراع بيننا وبين إخواننا آيت تاگلة. والسلام، وستعرفون من سيحمل الرسالة. "صالح بن محمد أورار من انتيفة (حفظه الله). وستجدون منا التعاون والتفاهم[628]

الوثيقة السابعة (7)

بعد الحمدلة. إلى "صديقنا" حدو من آيت إشو وأخيه عدي. والتوصل برسالة عبر عمي علا. الإخبار بأنكم بصحة جيدة. نحن الآن في حرْكة والممرات آمنة. "القايد" بن المودن ذهب إلى مراكش لرؤية مولاي حفيظ. السراغنة أيضا بمراكش. "القايد" الگلاوي دخل إلى تازرت. وعليكم أنتم أن تقدموا إلينا للتفاهم معه. السلام: صالح بن امحمد أورار (حفظه الله).

الوثيقة الثامنة (8)

بعد الحمدلة والتصلية. والترسل بمولاي إبراهيم. القول بأن هناك أناسا كثرا يدعون أنهم صوفية والواقع أنهم ليسوا كذلك. ومن بينهم الذي نراهم بكثرة [629] في الصفوف الأمامية يستقبلون الهدايا من الناس ومن منازلهم غاصة بالضيوف. صحيح إنا لله وإنا إليه راجعون. ونحمد الله أنك لم تكن على رأس آيت حديدو وعموما وآيت الحسين أشقر علي. أرادوا أن يصبحوا زبيبا قبل أن يكونوا عنبا كذلك الأمر بالنسبة لقارفون، وسيد تادرات واشباههما. لم يجدوا من يساعدهم على محاولاتهم ولم يلجؤوا سوى للأطفال والنساء والرجال الثقاة. والحديث معهم سيكون طويلا. فتشجع وتوكل وعلى الله واستعن بشيخك. وهم بدورهم سيطلبون امتيازات من شيخهم وأن حصلوا على ما يريدون نسوا شكر الله. السلام وحرر بتاريخ 18 صفر سنة 1319 هـ. كلبكم الصغير: علي بن المكي (فرج الله أمره ويسره) [630]

الوثيقة رقم 11 [1]

الحمد لله وحده

من عند ولد الشيخ حمو صاحبك أزناگ فاصدق التاجر أحمد بن امجاهد بعد السلام عليك، نحب منك (بارك) الله فيك أن تعمل معنا الفابور مثل التي عملنا معك. ثلاثة بطاقات أرسلنا لك قبل هذه وما جوبتنا عليهم لا بقليل ولا بكثير والآن توجبني بما كان على يد القونصو فرنصيص لأنني في أرض آسفي أربعة مكاحل متاوع، القرطاس التي قلت عند "القايد" المداني في تلوت والتي جاء على خاطرك لا من قبل امكاحل ولا من قيل مونه، الكتب إلى القونصو في أرض آسفي يدفعه لنا. وأما الماكن انتوعك التي عند ولد بن تابية في أنزور إلى أردنهم نشتريهم من عندهم بدراهم لأن بن

1- هذه الوثيقة كتبت بالعربية وأعدت كتابتها كما جاءت تيسرا على القارئ.

تابية مات وما بقي إلا إخوانه قالوا إلى أردت الحوائج أنتوعك تعطينا فيهمماية ريال، واكتب لنا بما كان، والفابور التي عملناه معك هو تجازينا بأن ترسل إليها بما وعدتنا على يد القونسو أفرنصيص في أرض آسفي والسلام في ثمانية رجب عام 1324. كاتب الحروف ولد الشيخ حمو أزناك فاصدق صاحبك في أرض آسفي.

[النص باللغة العربية الفصحى]

الحمد لله وحده

من عند ولد الشيخ حمو صاحبك أزناگ في أصدف إلى التاجر أحمد بن أمجاح[1] بعد السلام عليك، نريد منك أن تعاملنا بامتياز مثل ما سبق أن قمنا به اتجاهك من قبل. فقد سبق أن وجهنا أليك ثلاث رسائل لكن لم نتوصل منك بأي جواب. وعليك الآن أن ترسل لنا جوابا عبر القنصل الفرنسي لأنني الآن بآسفي بخصوص البنادق الأربع التي ذكرت أنها بحوزة القائد المدني بتلوات. وإذا كان من الممكن أخبر القنصل الفرنسي أن يمدنا إما بالبنادق أو المؤونة. أما إذا أردت أن تحصل على آلاتك التي بحوزة بن تابيا بأنزور فعليك أن تدفع مقابلها نقدا، فقد توفي بن تابيا ولم يترك إلا إخوانه الذين يطالبونك بمائة ريال مقابلها. ولا تتردد في إجابتنا عبر القنصل الفرنسي بآسفي ردا للجميل. والسلام وحرر في 8 رجب 1324. كاتب الحروف ولد الشيخ حمو أزناگ بأصدف صاحبك بأرض آسفي.

الوثيقة التاسعة (9)

خاتم كتب عليه لا إلاه إلا الله محمد رسول الله". بعد الحمد والتصلية. إلى السيدة الفاضلة: رقية آيت تادارن وأولاد أخيها (رحمه الله) محمد اوعثمان وأمه لالة عيشة (حفظكم الله جميعا). وصلت رسالتكم بحمد الله دعواتنا للمرحوم بالرحمة ويطيل عمر الباقين. أحبوا الله يحبكم. لا تتوانوا في ذكر الله في كل وقت. نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه. وادعو لنا وللسلطان (نصره الله) والسلام 2 جمادى الأولى سنة 1316. متواضع المتواضعين وكلب الأوفياء إلى الله العربي بن عبد الله الهواري (كان الله له).

الوثيقة العاشرة (10)

خاتم كتب عليه: لا إلاه إلا الله محمد رسول الله والصلاة والسلام عليه وعلى آله، بعد الحمد والتصلية. إلى سيدنا البركة وصديق الكبير، الفقيه الألمعي أخينا في الله المقدم سيدي امحمد بن الغازي بن تاديغوست. بعد الدعاء له بالحفظ والدعاء له. التذكير بوصول الرسالة وكذلك (الزيارة) والدعاء له. التذكير بأن المحبة بينهما أبدية ولن ينهها سوى الموت. القول بأنه سيبحث له بدواء العيون ويطلب من الله النصر [632]

1- يقصد به ماركيز دو سيكونزاك

"شبيه الوثيقة إثنا عشر"

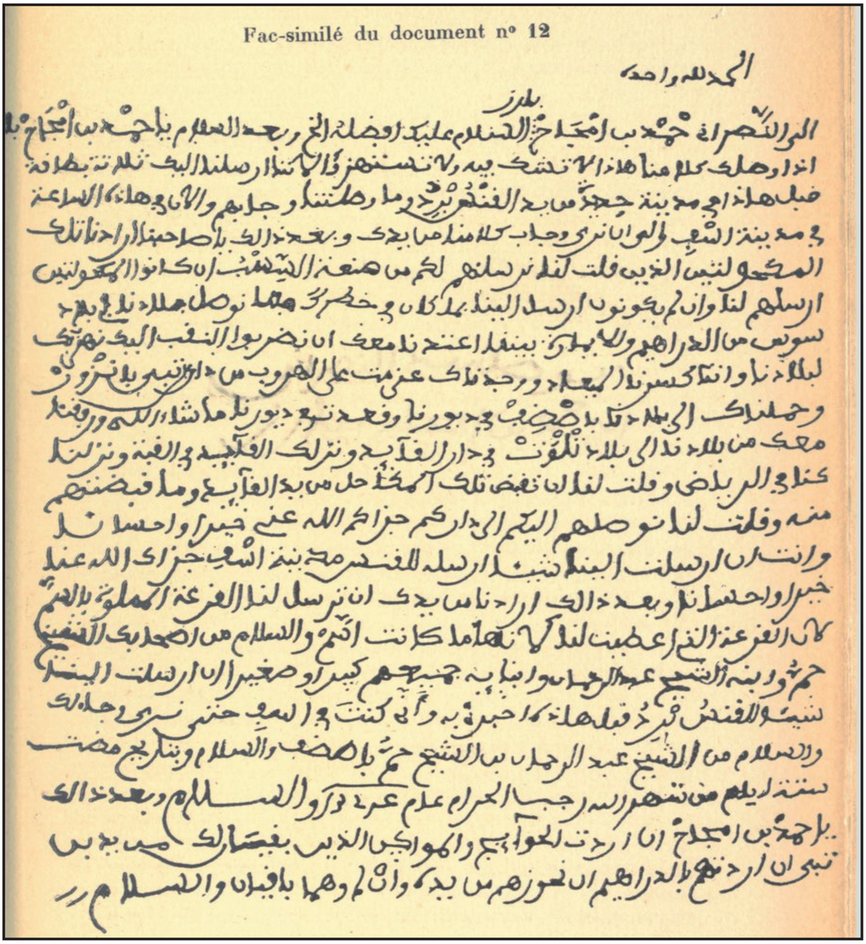

الحمد لله وحده. إلى النصراني أحمد بن أمجاج باريز السلام عليك أفضله، إلخ وبعد السلام يا أحمد بن أمجاج إذا وصلك كلامنا هذا لا تشك فيه ولا تستهزئ لأننا أرسلنا ليك ثلاثة بطاقة قبل هاذا في مدينة جديدة من يد القنس بردر ما وصلتنا وجابهم والآن في هذه الساعة، وفي مدينة آسف وإلى أن نرى وجاب من يدك وبعد ذلك يا صاحبنا أرادنا تلك المكحولتين الذين قلت لنا نرسلهم لكم من صنعه السسب إن كان المكحولتين أرسلهم لنا وإن لم يكونون أرسل إلينا بها كان في خطرك فلما نوصل بلادنا في بلاد سوس من الدراهيم والإمارة بيننا، اعتدنا معك أن نضربوا النقب إليك نهرب بك لبلادنا وإنت كسرت بالميعاد ووجدناك عزمت على الهروب من داربن تابي بأنزور وحملناك إلى إلى بلادنا بأصضف في ديورن وقعدت في ديورنا ما شاء الله ورافقنا معك إلى بلاد تلوت في دار "القايد" ونزلك "القايد" في القبة ونزلنا كلنا في الرياض وقلت لنا أن نقبض تلك المكاحل من يد "القايد" وما قبضتهم منه، وقلت لنا نوصلهم إليكم إلى داركم جزاكم الله عني خيرا وإحسانا، وأنت إن أرسلت إلينا شيئا

أرسله للقنس مدينة أسف جزاك الله عن خيرا وإحسانا وبعد ذلك أرادنا من يدك أن ترسل لنا القرعة المملوءة بالسم، لأن القرعة التي أعطيت كما أنها ماكانت السم. والسلام من اصحابك الشيخ حم وابنه الشيه عبد الرحمان وابنائه جميعهم كبيرا وصغيرا إن ارسلت إلينا شيئا للقنس يرد قبل هاذه أخبره وأني كنت في أسف حتى نرى وجهك. والسلام من الشيخ عبد الرحمان بن الشيخ حم باصضف. والسلام وبتاريخ مضت ستة أيام من شهر الله رجب الحرام عام 1324 والسلام وبعد ذلك يا أحمد بن أمجاج إن أردت الحوائج والمواكين الذين بقيت لك من يد بن تابي إن ردتهم بالدراهيم أن نحوزهم من يده وإن لم وهما باقيان، والسلام وكتب على الطوق، توصل بيد النصراني أحمد أمجاج ببارت.

[الوثيقة باللغة العربية الفصحى]

الحمد لله وحده،

إلى النصراني أحمد بن أمجاح بارز، السلام عليك أفضله وبعد : السلام يا أحمد بن أمجاح، لا تشك ولا تستهزئ بكتابنا هذا . فقد سبق أن بعثنا لك ثلاث رسائل من قبل بمدينة الجديدة عبر القنصل بردو لكن لم نتوصل منك بأي جواب عنها. أنا الآن بمدينة آسفي ولم نتوصل بأي جواب منك. يا صديقنا نريد منك الحصول على البندقيتين اللتين وعدت بإرسالها لنا من نوع ساسبو، وإذا لم تتوافر عليها فابعث لنا ما طاب لك ونحن في طريقنا إلى سوس وأنت تعلم أننا سبق أن اتفقنا معك على تهريبك من دار بن تابيا إلى بلادنا، لكن لم تف بذلك، ووجدناك قد عقدت العزم على الهروب، وحملناك إلى منازلنا ببلادنا بأصضف وأقمت عندنا مطولا، ثم رافقناك إلى بلاد تلوات بدار القائد الذي أنزلك في الغرفة الفخمة، ونزلنا نحن في الرياض، ووعدتنا بالحصول على البنادق من يد القايد وما حصلت عليها. وطلبت منا أن نوصلها إلى داركم خيرا وإحسانا. وإذا أرسلت لنا شيئا فأرسله للقنصل بمدينة آسفي جازاك الله عنا خيرا وإحسانا، وإذا أردت بعد ذلك أن ترسل لنا القنينة المملوءة سما فافعل لأن القنينة الأولى لم يكن بها سم.

من أصحابك : الشيخ حمو وابنه الشيخ عبد الرحمان وأبنائه جميعهم كبيرا وصغيرا. إن أرسلت لنا شيئا للقنصل بردو قبل هذا أخبرني به، لأنني كنت بآسفي وأردت أن أنقل إليك التحية والسلام من الشيخ عبد الرحمان بن الشيخ حمو بأصضف. والسلام، وبتاريخ ستة أيام مضت من شهر رجب الحرام عام 1324 والسلام. وإذا أردت يا أحمد بن أمجاح الحصول على معداتك وآلاتك التي بقيت عند آل بن تابيا فعليك الدفع مقابلها بالدراهم، وإلا احتفظنا بها، والسلام.

الوثيقة الثالثة عشرة (13)

يجري الواد المسمى أم الربيع في اتجاه الغرب (في اتجاه السهم)

←

صنف هذا النهر توجد مدينة كيات أحمد أو آيت أحمد واللغتان صحيحتان، ويوجد في كايت آيت أحمد (في اتجاه السهم) يوجد ضريح الولي الصالح سيدي يوسف بلدة آهلة بدراسة

العلم والقرآن. وتليهم مدينة شقرن، وهنا يوجد ضريح سيدي علي أمهاوش وذريته وعلى البعد من شقران نجد آيت إسحاق وهنا توجد زاويتها الكبرى وأولاد سيدي سعيد وسيد يعقوب أحد الثلاثة ال وشرقا: الذين هم إخوة (انظر ممتع الأسماع)

وبعد آيت إسحاق يوجد آيت أم فخت ويليهم آيت أبرا حيث يوجد آيت سعيد

[سهم في اتجاه اليسار]

واد ملوية يجري في اتجاه الشرق وهو أقرب الأودية للجبل وتجري في هذا الاتجاه

يجري واد العبيد في اتجاه الغرب السهم إلى أن يلتقي مع واد أم الربيع.

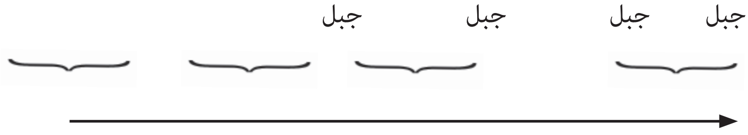

الحمد لله

وصف القسم من جبل غيلام. [634] الأصل العربي للخطاطة.

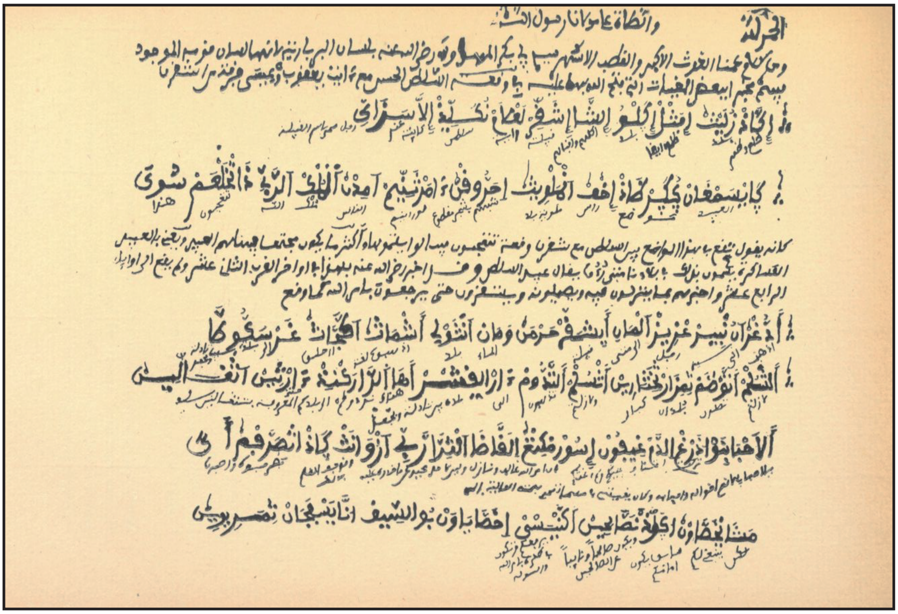
الحمد لله والصلاة على مولانا رسول الله
ومن كلام عمنا الغوث الأكبر والقطب الأشهر سيدي سي بكر المهاوش رضي الله عنه بلسان البربارية لأنها لسان قومه الموجود فيهم مخبرا ببعض المغيبات التي فتح الله بها عليه في وقعة السلطان الحسن مع آيت يعقوب وعيسى فرقة من اشقرن

الحمد لله والصلاة على مولانا رسول الله

ومن كلام عمنا الغوث الأكبر والقطب الأشهر سيدي سي بكر المهاوش رضي الله عنه بلسان البربارية لأنها لسان قومه الموجود فيهم مخبرا ببعض المغيبات التي فتح الله بها عليه في وقعة السلطان الحسن مع آيت يعقوب وعيسى فرقة من اشقرن.

إكاد[1] زليت[2] أفتل[3] إكلو[4] الشنا[5] اشقر[6] لعلام[7] نكليد[8] اسراك[9] كايسمكان[10] ككر[11] طاد[12] إخف[13] أملويت[14] أجروض[15] أمارتينم[16] أملان[17] الملك[18] الربى[19] ذاتخلمم[20] سوى[21] كأنه يقول: تقع في هذا الواضع بين السلطان مع شقرون

وأكثر ما يكون مجتمعا فيها بهم العبيد ويعني بالعبيد العساكرة يسمون بذلك في بلادنا.... يقال عبيد السلطان وقد أخبر رضي الله عنه بهذا في أواخر القرن الثاني عشر ولم يقع إلى أوائل الرابع عشر وأخبرهم بما ينزلون فيه ويصيلونه ويستقرون حتى يرجعون بأمر الله كما وقع أدُّغران[22] نبير[23] عزيز[24] المان[25] ايشقرن[26] حرمن ومان[27] انتدلي[28] اشمات اكجات نمد اسكوطا أتْسُلْم أتوضم تمزار تختارين أتْسُلْم التدوم ءار ايقشر أها الرّاركند ءار ثين اثغسالين ألاحبا بنواذرغ الدم عيفون اسور مكتع الغاضا.

ملاحظة هامة : حذفت من ترجمة الكتاب فصلا خاصا بعدة ملاحظات فلكية يمتد من الصفحة *637* إلى *695* لاعتقادي الشخصي لأنه لا يضيف شيئا هاما للقارئ في هذا الباب. إنما أشرت على ذلك لكي يشتغل عليه من يهمه هذا المبحث.

1- طلع وظهر.
2- بعد.
3- طلع ايضا.
4- بلد.
5- أكلهم وافناهم.
6- قبيلة.
7- راية.
8- السلطان.
9- رجل سمي باسم قبيلة.
10- العبد.
11- أغو.
12- اضع.
13- رأس.
14- ملوية بلد.
15- شبههم بشجر مقطوع.
16- موارنيم.
17- الناس.
18- ملك.
19- راس.
20- تتعجبون.
21- هذا.
22- اذهب إلى.
23- بير.
24- رجل.
25- إلى متى.
26- قبيلة.
27- الماء.
28- بلد.

القسم الثالث

أبحاث في الجيولوجيا والجغرافية الطبيعية
لويس جانتي

تركزت أبحاثي خلال هذه البعثة، على قسمين منفصلين من المغرب. في البداية عملت على استكشاف الجزء الشمالي منه، ما بين طنجة وتطوان وجبل كلتي (جبل آنا المشار إليه في الخرائط البحرية)، وركزت كل جهودي بعد ذلك على الأطلس الكبير للمغرب، أو على الأقل جزئه الغربي، بما في ذلك السفح الجنوبي إلى هوامش الأطلس الصغير.

وسأفصل انطلاقا من ذلك، فيما سيأتي، ما بين منطقتين من المغرب، بأنه ليست لهما أي قواسم مشتركة.

I. شمال المغرب

تطورت رحلاتي بشمال المغرب في الأراضي الإفريقية الشاسعة التي تتقدم في اتجاه إسبانيا، والتي يبدو أن لها تماثلا في الجهة الأخرى من مضيق جبل طارق نفسها.

انطلقت من طنجة، ثم مررت بمنطقة فحص أنجرة، على طول السلسلة المحاذية لهذه القبيلة الكبيرة، في الشرق، والتي تفصلها عن حوز سبتة. وتشعبت بعد ذلك في كل الاتجاهات مقتربا من تطوان، محاولا الوصول إلى أقصى الحدود جنوبا، في اتجاه جبل كلتي. وقمت في الأخير ببعض الزيارات الميدانية لقرى منطقة طنجة إلى حدود رأس سبارتيل. وكان من الممكن أن أكوّن من كل ذلك فكرة عن جبال هذا الجزء من المغرب. جمعت بعض الوثائق الجيولوجية الهامة التي توضح بشكل كبير بنية الريف، عند انفتاحه على المضيق، بشكل خاص. وتمكنت من وجهة نظر علماء الجبال من أخذ فكرة مبسطة عن هذا الجزء من القارة الأفريقية.

تتطور سلسلة جبلية تمتد من الشرق لترسم منحنى منتظما شيئا ما إلى حدود جبل موسى، أحد أعمدة هرقل، الذي ينتصب متماثلا مع صخور جبل طارق، الواقعة على الجانب الآخر من المضيق.

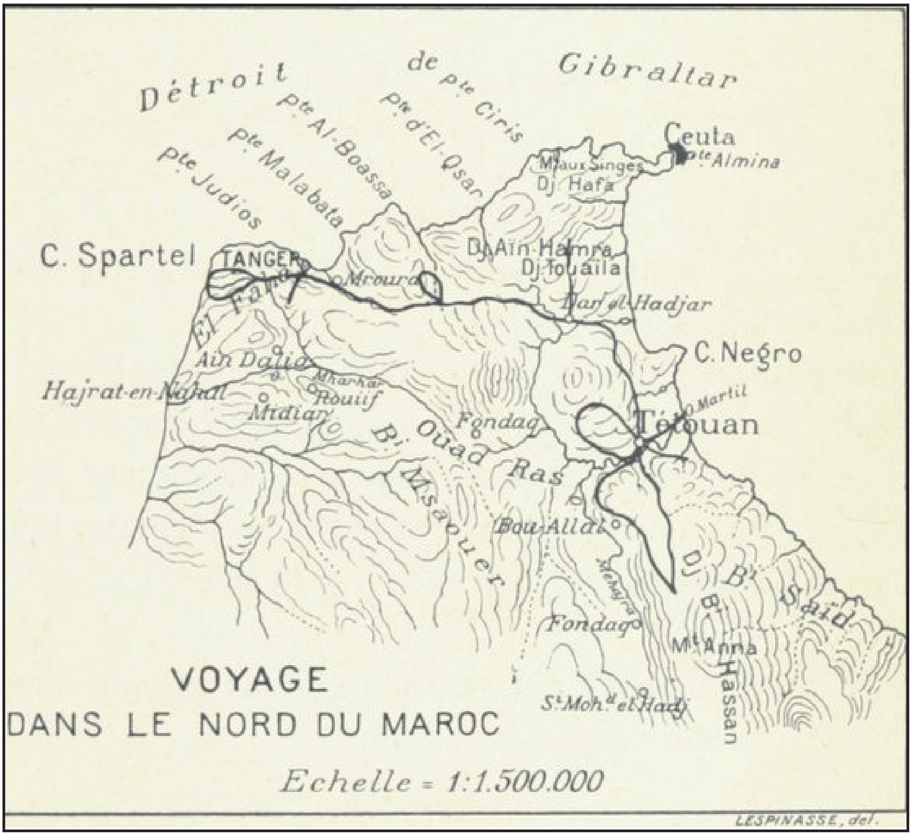

تشكل هاته السلسلة، التي أطلقت عليها سلسلة أنجرة عند الجزء الممتد ما بين تطوان والمضيق، في مجموعها الريف. وهي سلسلة تشرف بقوة على البحر، حيث يوحي في الوهلة الأولى بوجود انهيار (حوض انخسافي) بالبحر الأبيض المتوسط الغربي. وتمتد على النقيض من ذلك في اتجاه المناطف الداخلية، وإلى حدود ما بعد فاس سفوح ما وراء طنجة الداخلية. وكان هذا التناقض ما بين جانبي سلسلة الريف، واضحا مرة بشكل كبير، وهو ما سيظهر من خلال هذه الدراسة، حيث كانت حدة انحدار الجرف القديم تشغل موضع البحر الأبيض المتوسط شمالا، والتي تميل نحو الاندثار بفعل التعرية النشيطة جدا بهذا السفح، وكذا بالجانب الجنوبي لهذه السلسلة.

نشر العديد من الرحالة أعمالا ملخصة حول جيولوجية المنطقة، لكن يظل من بين كل هاته الأعمال واحدا ذا أهمية كبرى، على اعتبار غنى المعطيات الاستراتيغرافية التي يوردها من جهة، والأفكار التي يقدمها حول بنية سلسلة أنجرة. إنه عمل Coquand 1847، الذي يعتبر عملا شاملا، على عكس الأعمال الحديثة التي تبدو جد مركزة، إضافة إلى أنه يعد بمثابة نقطة انطلاق الخلاصة التركيبية لمؤلّف "وجه الأرض". ورغم أن ملاحظاتي الاستراتيغرافية لم تكن سوى تأكيد للتصورات العظيمة للباحث Suess، فإنها في المقابل، وفي مجملها، لا تتطابق مع تأويلات Coquand.

وتعود الأراضي القديمة التي تبرز في الريف الغربي للعصر السيلوري، والمشكلة من تعاقب واضح لصخر الشيست الأسود، الغني بالكربون أحيانا، مع رقائق (أرصفة) من الكوارتزيت، حيث يمثل الكل حقبة الزمن الأول لـ "شيست منطقة ترارا" والتي اعتبرها J. POUYANNE أساسا أو قاعدة لتكوينات الزمن الأول. وحدد عمر هذا الشيست في نهاية المطاف مع اكتشاف مجموعة النقوشات "الغرابتوليتات" التي وجدتهْا في الأطلس الكبير، وهو موضوع سنعود إليه لاحقا. ولم أتمكن للأسف من إيجاد الكلس الأسود Spirifer، الذي ذكره سابقا كثير من الباحثين. ولا يوجد، في هذه المرحلة، سوى الشيست برقائق من الكوارتزيت المغطاة بكلس يعود لحقبة اللياس.

قارب Coquand بشكل خاطئ أهمية التشكيلات المكونة أساسا من الرقائق، والحُث والطين الأحمر، والتي تعلو شيست الزمن الجيولوجي الأول والحجر الرملي الأحمر (Old Red Sandstone). وكل هذه الإرسابات النهرية أو البحيرية، هي حديثة في حقيقة الأمر؛ ويجب أن تفصل عن الديفوني للتوضع عند مستوى البرمي، وبشكل أقرب يجب، على ما يبدو، أن تضاف إلى قاعدة الترياس. هذه الطبقات الحمراء هي، بدون أدنى شك، تلك المماثلة ل "رقائق بني منير" على الحدود الجزائرية، وكتلة بني يزناسن... إلخ، المنتمية للبرمي. وتم تأكيد هذا التماثل عند Ed. Suess، وكذا بعثة الخريطة الجيولوجية العالمية لأوربا. ولم تعمل ملاحظاتي الميدانية سوى على تأكيد ذلك؛ ومكنتني لأشير، للتطبق الواضح لهذه الأراضي ذات اللون الحديدي، وكذا الصخور البركانية المتنوعة التي يمكن دراسة المزيد منها بالأطلس الكبير.

وتم العثور على بعض الأنسجة الفحمية في وقت لاحق داخل الحُث الأحمر، باستخدام تقنية الكاشف Oskar Lenz، وأعطت هذه انطباعا بوجود أراضي كربو- فحمية قديمة، إن لم تكن فحمية.

وسمحت لي أبحاثي بإيجاد آثار نباتات مشكلة أساسا من الإبر الصنوبرية، التي تؤكد، على ما يبدو، عمر الترياس الأسفل الذي أعطيته لهذه التشكيلات؛ لكن ليست نباتات فحمية.

وتتوضع الطبقات الحمراء للترياس الأسفل فوق الشيست السيلوري، حيث تتوضع بشكل غير متطابق مع الكلسالكتلي، الذي يبتدئ غالبا بأساس من الرصيص، والذي أرى انه ينتمي إلى سلسلة اللياس. ويتوضع الصلصال- الكلسي فوق ذلك حيث ينتمي جزء منه، على ما يبدو، للياس أيضا، ونجد بعده تعاقبا لأسرة كلسية، وكذا لأرصفة دولوميتية مع وجود صلصال، وطين متنوع، يعلوه الدولومي الكتلي، والكلس الصواني الذي يدخل في بنية جبل درسا، الذي يطل على مدينة تطوان.

يربط Coquand الكلس الأبيض، الموجود في قاعدة هذه التكوينات، بالكلس الأركوني لـ la basse province، ويعلل ذلك بما جمعه، بمنطقة أنجرة، من عينات حلزونية. واضطررت للاقتناع- بعد عدد كبير من الملاحظات الميدانية، التي قمت من خلالها بمعاينة عدد من المقاطع- بكون الكلس الذي وجده هذا العالم الجيولوجي داخل المستحثات المذكورة سابقا، والذي يعود إلى الكريطاسي

يوجد، في الواقع، تحت جوراسي جبل درسا، وهو الأمر الذي وصل إليه Coquand نفسه. ويستنتج من ذلك كون فكرة وجود الحلزونيات داخل كلس منطقة أنجرة يمكن اعتبارها فكرة مدحوضة أوغير صحيحة. إننا في الواقع، أمام وجود لياس كلسي، يعلوه صلصال- كلسي وسلسلة الجوراسي. ويبدو جليا - مع ضرورة استخراج الدلائل المستحاثية – على أننا هنا، كما هو الشأن بالنسبة لغرب الجزائر، أمام انتشار اللياس الأوسط المشكل أساسا من سلسلة الجوراسي التي تتطور داخل كتلة جبل فلاوسن وبني إزناسن. حيث هناك تشابه كبير لتعاقب سحنات هذه الأراضي المنتمية للزمن الثاني، وهو تشابه اتضح خصوصا مع ملاحظاتي الحديثة بالمنطقة الحدودية الجزائرية- المغربية.

ويبدو أن عمرها -رغم أني لم أحمل عينات من الكلس الكتلي الذي يشكل قمة سلسلة أنجرة، جبل كلتي، وبصفة عامة، كل الحافة الكلسية للمنطقة المركزية للريف - عود لحقبة اللياس أمر مشكوك فيه.

وتمتد هذه الحافة الكلسية إلى حدود البحر، مشكلة بذلك كتلة جبل موسى ويبدو من الصعب تنصيب، على طول امتداد هذه المنطقة، صخرة جبل طارق. ودرس Ramsay وGeikie طبيعة الكلس الموجود بأعمدة هرقل من جانبي المضيق، وأكدا معا عمره المنتمي لزمن الجوراسي، لكن W. Kilian وجد، في مجموعة Verneuil، بمدرسة المناجم بباريس، سلسلة من Rhynchonelles وبقايا الصدفات المتحجرة، اعتبرها كائنات تنتمي إلى اللياس. وأثار هذا التشابه الحاصل ما بين الأعراف الكلسية لسلسلة أنجرة، والأعراف اللياسية لسلسلة التل بالجزائر، انتباه زميلي M. Brives.

يتطور الكلس الصلصالي مع الصاصال الشيستي فوق الجوراسي، على الجانب الغربي لسلسة أنجرة، بالمحار، ثم نجد الشيست بشذرات من الكلس، ممزوجا بصدفات بحرية اهتم بها Bleichera. إنها توضعات السينوماني (Cénomanien) والسينوني (Sénonien) التي تطبع الانتقال من المقعر الدينانسي (dinarique) والذي يمكننا متابعته داخل السلسلة التلية بشمال افريقيا. ونجد هذه التشكيلات التي تبرز بأنجرة وبالنواحي القريبة من طنجة؛ مغطاة بالإيوسين (L'Eocène).

وتتشكل توضعات الإيوجين (éogène) بالمنطقة الموجودة مابين رأس سبارتيل، وطنجة وتطوان، ويبتدئ تعاقب سميك، عموما بالكلس الصلصالي، رمادي إلى أبيض اللون، يعلوه السجيل (الطين الشيستي) (argile schisteuse) مع طبقات من الكلس أو الحث. وتنتهي هذه السلسلة بحث سيليسي، سميك أو دقيق، غالبا ما يكون هشا، تتخللها طبقات من السجيل ذات لون أحمر أو أخضر. وتتجاوز هذه التشكيلات في مجموعها 400 متر. ونجد في هذا الفليس الإيوسيني نسبا قليلة من الأحفوريات. والحطامات المرتبة الوحيدة التي نصادفها هي تلك الموجودة إما داخل الكلس الطفلي في القاعدة، أو عند المستوى المرتفع للحث الأعلى.

ويحتوي هذا الكلس الطفلي على آثار كثيرة، أشار إليها Bleicher، حيث يظهر جبل ستيتويرا، داخل الحث الأعلي للسلسلة التي تهمنا، عدسات كلسية داخل العينات التي جمعتها، مصقولة من عدة جوانب، وهي في مجموعها عينات عرضت على زميلي Jean Boussac.

- يظهر الجزء المركزي والجانبي دعامات مرتبة على شكل حلزوني، وشبكات حبيبية بكميات مستعرضة، وهي في مجموعها دلائل لا يمكن أن تنتمي إلا لهذا النوع.

- Orthorphragmna، انواع كثيرة وصغيرة ناعمة ومحببة.

ويكفي حضور Nummulites fabianii لنُظهر أن الأمر يتعلق بكل تأكيد بالبريابوني حيث كثير من orthophragmina ذات أحجام مختلفة متشابهة مع تلك التي نجدها في البريابوني، ونضيف إلى ذلك الغياب التام لأصناف Nummulites الكبرى.

وهذا الاكتشاف هام، على اعتبار أنه يحمل بعض التدقيق حول عمر هذه التشكيلات من الحث النوبي أو الحجر الرملي النوميدي لشمال إفريقيا، والتي تنتمي على الأرجح ليس فقط للأيوسين الأعلى، بل أيضا إلى قاعدة الالگوسيني. وتمتد هذه التشكيلات في شمال المغرب بشكل كبير غرب سلسلة أنجرة إلى حدود رأس سبارتيل وفي اتجاه الجنوب- الشرقي، ب col du foundaq، عند جبل حبيب والى حدود القصر الكبير.

تمت الإشارة إلى أراضي النيوجين في موضع على ساحل الريف، تبعا لاكتشاف موقع أحفوري بضواحي مدينة تطوان، بواسطة المستكشف Oskar Lenz. ومكنت المواد التي نقلها، ودرسها عالم الحفريات Th. Fuchs، من مقاربة الحياة البرية لتطوان بتلك الموجودة بـ Lapugy (هنغاريا الجنوبية)، والتي تنتمي إلى مستوى الميوسين "المستوى الثاني المتوسطي". ذات لون أصفر.

ونلاحظ في المناطق المحيطة مباشرة بالمدينة، داخل وادي بوصفيحة، دعامات كتلة الزمن الأول والجوراسي لجبل درسة:

1. أرصفة بسمك 2 الى 3 أمتار تتخللها بعض المستحثات، من بينها l'Ostrea Velaini Mun، والتي تظهر محفوظة بشكل جيد.
2. طين أزرق، رملي، بسمك يتراوح ما بين 20 إلى 30 متر، بصفوف رملية متعاقبة، تحتوي على مستحثات حيوانية، وحيث الهيمنة الشبه الكلية لصنف الرخويات، التي نجدها بوفرة ومحفوظة داخل الرمال.
3. حث كلسي أصفر، هش في الغالب، بسمك يصل لحدود 20 متر، يحتوي على بعض المستحثات من بينها Pectunculus bimaculatus:

وأخذت عددا كبيرا من العينات للأنواع الحيوانية الموجودة بالطين الأزرق، أساسا بحرية، وغنية. تعرفت على 300 نوع منها..

سلسلة الأنجرة

جبل درسة على مشارف تطوان

ولا يمكن لهذه الأنواع الحيوانية - كما كان يعتقد Fuchs- أن تصنف في "المستوى الثاني المتوسطي"؛ فهي تنتمي بدون شك إلى البليوسين. ومن جانب آخر، هناك مجموعة أخرى تميز الطبقات السفلى لهذا الجزء من النيوجين؛ حيث نسجل وجود البليسونسين.

ويتركز البليوسين الملاحظ بتطوان أساسا عند الجهة الشرقية لسلسلة الريف. ويشكل حزاما ساحليا يسمح ببروز الحث الأعلى، بحوز سبتة، إلى حدود رأس طارف (Ras Taref). ويبرز الطين الأحفوري أساسا على مقربة من السلسلة من خلال ظهور القشرات على هوامش الحوض وتزايدها. ويتوغل البليوسين عميقا في اتجاه الغرب حتى حدود أزيد من 15 كيلومتر من المحيط، عند واد بوصفيحة، ويظهر أن سلسلة الريف كانت من هذه الناحية متشعبة جدا منذ بداية البليوسين. من الضروري أن نعترف أن البحر البليسوسيني توغل، كما هو الشأن في مالقا وميلاس، داخل خليج ضيق بشكل هام على حواف الموقع الذي تصل إليه، حاليا، مآذن مدينة الريف المقدسة.

ونستنتج من التقديم الاستراتغرافي السابق، أن تغيرات كبيرة طرأت على الرسومات الجيولوجيية التي جمعتها وأعدتها بعثة الخريطة الجيولوجية الدولية لأوربا والمهتمة بسلسلة الريف، وهي رسومات مستوحاة أساسا من أعمال Coquand. وسوف تفسح المسحة الخضراء للكريطاسي، خصوصا، المجال لتكوينات اللياس والجوراسي، وسيستبدل البليوسين بالميوسين.

ومن وجهة النظر التكتونية يتمثل القطاع المهيمن من بنية الريف الغربي في وجود هذه الطبقات وتوافرها على شكل قباب محدبة ومقعرات. وإذا تتبعنا محور هذه السلسلة فسنمر باستمرار، في الواقع، بطيات محدبة، حيث تعطي الطبقات امتدادا جانبيا حول نقطة مركزية، ونمر من جهة أخرى، بمقعرات التي غالبا ما تخفض من ارتفاعات السلسلة، وعلى الرغم من أنه، في الحالة الأولى، الطبقات السفلى الضخمة للياس هي من الكلس الناشئ، فإن الحوض يظهر في الحالة الثانية على شكل طبقات علوية من الناحية الاستراتيغرافية كالكلس للياس الأعلى أو الدولومي، الصلصال النضيدي (السجيل) للجوراسي.

ويمكننا أن نسرد عدة أمثلة من هذه الخصائص التكتونية للريف الغربي. ونجد من بين المحدبات جبل "توالا"، والحافة الكبيرة، وجبل تسورنت، وربما أيضا جبل موسى بسلسلة الأنجرة؛ وجبل بوزيتون وجبل كلتي، و جنوب تطوان ؛ ومن بين الطيات المقعرة، فج مخناخ وتلدجا، داخل الأنجرة؛ ويمكننا أيضا إبداء الملاحظة حول واد بوصفيحة، بتطوان، الذي نشأ انطلاقا من حوض مقعر حيث نلاحظ هنا، خصوصا، على مستوى جبل درسة، التوضعات الأكثر ارتفاعا للجوراسي قد تهدلت بشكل كبير. ويبدو أن البنية نفسها موجودة في الجهة الأخرى من المضيق.

ويؤكد ذلك، سواء من وجهة نظر تكتونية أو استراتيغرافية، فكرة سويس Ed. Suess، التي تقول بامتداد سلسلة الريف، مرورا بمضيق جبل طارق عبر سلسلة بيتيك (Bétique). ويتناسب الدرع البحري الذي يربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط أيضا مع الانهيار الذي أنتج بالمرتفعات المشكلة عند الجزء الغربي للريف.

يبدو أن هذه البنية الملاحظة بالجزء الغربي، هي نفسها بنية كل السلسلة وخصائصها. ويمكن أن نستشف، في الواقع، وجود الطيات المحدبة أكثر في اتجاه الغرب، بجهة طنجة، والكريطاسي (السينوميني، السينوني) الذي نصادفه بجنوب المدينة، إلى حدود البحرين وعين الداليا، حيث يبرز بفضل توافر تكتونية مناسبة.

ولن أكون مندهشا من كون جبل سرسار لديه بنية مماثلة؛ وسمحت لي مؤخرا التنقيبات الأخيرة بمعرفة كون الجزر الجوراسية الصغيرة لجهة فاس توافق طيات محدبة تفصل بينها مقعرات، التي كانت في جزء منها مغطاة بتوضعات النيوجين التي تعود للميوسين الأوسط والأعلى (1). في الشرق، بالقرب من الحدود الجزائرية، نجد كتلة بني يزناسن حيث تظهر، مرة أخرى، البنية نفسها (2)؛ لكن ليس مؤكدا بعد أن هذه الكتلة تنتمي إلى الريف.

وهناك حقيقة أقل وضوحا وهي المتعلقة بالتراتبية الدورية لسلسة Rif- Cordillère Bétique، عند أقصى الجزء الغربي للحوض المتوسطي التي انتبه إليها Ed. Suess، وتظهر أكثر وضوحا إذا تنقلنا، كما فعلت سابقا، إلى قمة مرتفعة كجبل بوزيتون، وهو الشيء الذي يسمح بنظرة شاملة للامتدادات الهامة للسلسة. نستنتج إذن أن المنحنى الذي يرسمه الكلس اللياسي للمنطقة المركزية هو في انتظام كامل. وينحني الريف، في البداية باتجاه غرب- شرق، في اتجاه الشمال قبل غمارة ويتبع تقريبا خط الطول عند المنطقة التي تفصل الأنجرة عن منطقةسبتة (سلسلة الأنجرة).

كما أن خرائط الباحثين السابقين، خصوصا خريطة M. de Flotte قليلة، لا تعطي فكرة كاملة عن المنحنى المنتظم الذي يرسمه الريف في أقصى جزئه الغربي، وحاولت أن أصحح هذا النقص في الأشكال التضاريسية بالمغرب.

ويمكننا آخر انتهاض تكتوني وبعلاقة وثيقة بموقع جبل طارق، من أن نستشف، في الواقع، أن سلسلة الريف تنخفض بسرعة مع الاقتراب من جبل موسى، حيث -وانطلاقا من جبل كلتي (2201 متر)- نجد تراجعا بأكثر من 1200 متر على امتداد ضعيف نسبيا يصل لحوالي 60 كيلومتر. وكما هو الشأن، في ما وراء صخرة جبل طارق، نجد ارتفاعا سريعا لسلسة البيتيك la chaine Bétique، انطلاقا من ذلك يمكن استخلاص كون منطقة جبل طارق تتطابق مع الجزء المنخفض للسلسلة الممتدة للسلسلة الجبلية الريف- بيتيك، أو بعبارة أخرى هناك خسف لطيات هذه السلسلة انهيار مضيق جبل طارق يطابق إذن الجزء المنخفض لهذا الخسف. وتشكل أخيرا إشكالية العمر الجيولوجي للمضيق الحالي لجبل طارق وانفتاحه أهم الظواهر في تاريخ غرب البحر الأبيض المتوسط.

ونحن نعرف منذ وقت بعيد أن هذا الممر لم يوجد في موقعه الحالي عند حقبة الميوسين، ويعتبر هذا من بين أهم استنتاجات أعمال البعثة الفرنسية بالأندلس. ويبدو أن هذا الأمر تم تأكيده باكتشاف، عالم الحفريات فوش Th. Fuchs، للميوسين الأوسط بتطوان، حسب العينات التي حملها أوسكار لانز Oskar Lenz. يمكن أن نستشف، في الواقع، على أن ذرعا بحريا للمستوى الثاني المتوسطي من المحتمل أن يكون قد مر بمجرى واد بوصفيحة، وقام بتقطيع سلسلة الأنجرة حتى حدود المحيط الأطلنتي. وتظهر ملاحظاتي أنه من الواجب عدم الأخذ بهذه الفرضية لأننا لا نجد في تطوان سوى بقايا خليج قديم من البليوسين.

وسمحت لي البعثات المتتالية التي قمت بها منذ سنة 1905 بتجميع عدد معين من الملاحظات التي تسلط الضوء على إشكالية انفتاح ممر جبل طارق، وتؤكد، خاصة، الفكرة التي عبر عنها بوضوح مونيي شالماس Munier-Chalmas، انطلاقا من ملاحظات M. Bergeronالتي تعود إلى بداية البليوسين.

وقمت بدراسة كثير من النقط في المحيط المغربي، خصوصا في المحيط الأطلنتي، انطلاقا من مغارة هرقل (رأس سبارتيل). وأجد في كل الأمكنة حزاما يقل أو يزداد امتداده، يعود إلى المستوى الحديث للبليوسين، وهو مستوى نجده في تطوان، وأصيلا، والشاوية، وآسفي، موگادور.... ومن المدهش

أن نرى شواطئ إسبانيا بمنطقة قادس، تظهر حسب ماك فيرسونMac- Pherson، طبقات بوحيش متشابه جدا، وأن البليوسن بمنطقة لسبون يميز التكوينات نفسها لتلك التي نصادفها في حفريات المغرب. ونصل انطلاقا من ذلك، وبدون شك، إلى غياب ارسابات الميوسين في غرب البحر الأبيض المتوسط.

وأظهر العالم الجيولوجي الشهير Ed. Suess أن الاتصال ما بين المحيط والبحر الأبيض المتوسط عند النيوجين، قد تم في حقبة "المستوى الأول والثاني" عن طريق مضيق شمال- البيتيك. وأغلق هذا الممر شيئا فشيئا، وكما تظهر ذلك الحفريات، فالتبادلات ما بين البحرين الكبيرين لم تنقطع أبدا، في حين نجد أن مضيق جبل طارق المكون من تكوينات نسبيا حديثة، يلزمه ممر آخر ما بين المحيطين، وهو ممر انفتح خارجا. ويمكننا في هذا الإطار التفكير في كون هذا الممر يوجود جنوب سلسلة الريف.

سبق أن أثرت الانتباه إلى هذه الإشكالية، وأبرزت في كثير من المناسبات الأهمية الكبرى التي يمثلها، بالنسبة للجيولوجيين، المقطع الرابط بين وجدة وفاس. وسيأتي يوم للقيام بهذا السفر، الذي يبدو مستحيلا في الوقت الراهن.

وبينت، علاوة على ذلك، بالمنطقة الجزائرية- المغربية، طغيان الميوسين الأوسط وانتشاره في اتجاه الغرب بشمال كتلة بني يزناسن؛ وكذا الغمر التدريجي لمياه البحر الأبيض المتوسط الفيوجيني في اتجاه الغرب انطلاقا من جنوب السلسلة الريفية وقد تأكد ذلك باكتشاف وحيش للميوسين الأعلى عند حدود الكيس من خلال المواد والإرسابات التي تم تجميعها بمنطقة أدجرود.

ووجدت حديثا إضافة إلى ذلك بجهة فاس، بقايا هامة من توضعات الميوسين المتعلقة بردم المضيق الجنوبي- الريفي القديم ؛ لكن لم أتمكن من رؤية آثار لتوضعات البليوسين. كذلك، يجب انتظار العثور على أدلة عن مرور البحر، أثناء الميوسين الأعلى، بعتبة تازة، لكن لا يمكننا، في هذا الإطار، ملاحظة ذلك إلا عند حدود عاصمة المغرب، حيث وجود تواصل أو اتصال عند البليوسين، على اعتبار أن تازة توجد على ارتفاع أكثر من 400 متر.

ويجب أيضا التخلي عن فكرة إمكانية العثور على دلائل ممر أو مضيق بالبليوسين بأي نقطة من المجال الممتد من شمال المغرب نحو اسبانيا، في حين أن تقرير Th. Fuchs، إذا كان قد تم تأكيده، سيمكن من النظر في إمكانية وجود تواصل في الميوسن عند عرض تطوان. على أن توضعات البليوسن، تبقى في الواقع، محدودة في هذه الشبه جزيرة، حيث هي عبارة عن حزام ضيق جدا لا يصل أبدا في سطوحه المرتفعة مستوى 100 متر، بينما لا نجد في المنطقة الغربية القصوى بسلسلة الريف فجا يتموقع على أقل من 400 متر.

وتقود الدراسة المتمعنة للخرائط الطبوغرافية، والجيولوجية لجنوب إسبانيا، إلى الاستنتاجات نفسها، ونصل أيضا إلى استخلاص أنه في حقبة البليوسين لا يمكنه أن يكون إلا عن طريق مضيق جبل طارق، وهو مضيق كان متسعا، بدون شك، لكنه كان يشغل عند بداية البليوسين، المجرى الحالي، والمنحصر بين أعمدة هرقل.

وفيما يخص وجهة النظر الأخيرة هاته، هناك مصادفة غريبة تجب الإشارة إليها، وهي كون المضيق القديم الجنوب- ريفي، بجهة فاس، تشرف عليه جزر صخرية وهي: زرهون وزلاغ. ويبدو أن هرقل أراد في الأسطورة الإغريقية أن يفتح قليلا المضيق الذي يجمع القارتين، ما بين جبال كالبي وأبيلا، من حيث استعادة الصخرتين التي "تحرس" مدخل المضيق بفاس؛ لأنه قام بوضع، عند مصب غرب البحر الأبيض المتوسط، العمودين الذين يحملان اسمه (أعمدة هرقل)؛ جبل القردة على الساحل المغربي، وصخرة جبل طارق على الشواطئ الإيبيرية، وواضح في كل هذه النقط التماثل مع جبل زرهون و زلاغ.

إذا ألقينا نظرة على الخرائط، وإن كانت رديئة، بخصوص الريف، نفاجأ بالاختلاف الارتفاعي الكبير الذي يوجد بين منابع المجاري المائية التي تصل إلى حدود البحر عند الجبهة الشمالية للسلسلة؛ في حين نجد أن هذا الفارق الارتفاعي أقل في الجهة الجنوبية للسلسلة الجبلية وتظهر المجاري المائية للسلسلة الأولى إذن بعيدة عن مقطع التوازن الملاحظ في السلسلة الثانية. ويبدو من جهة أخرى أن هذه المجاري هي أكثر عرضة للأمطار بحكم تقابلها مع البحر. أيضا، ولهذين السببين، تتجه أودية الجبهة الشمالية لها اتجاه نحو قطع الأودية الموجودة بالجبهة الجنوبية، محدثة بذلك هجرة لخط أعراف سلسلة الريف في اتجاه الجنوب. وهكذا فانحدار السواحل المتوسطية الناتج عن انخساف البحر الأبيض المتوسط الغربي يميل نحو الزوال، كما أشرت إلى ذلك أعلاه. وسأنهي هذا العرض، الذي يهم شمال المغرب، بملاحظة تخص الجغرافية البشرية بهذه البلاد ونفاجأ، عند منطقة الأنجرة المشكلة من الكريطاسي والإيوسين، بالعلاقة الثابتة التي توجد بين موضع القرى واستراتيغرافية المنطقة. كما أن

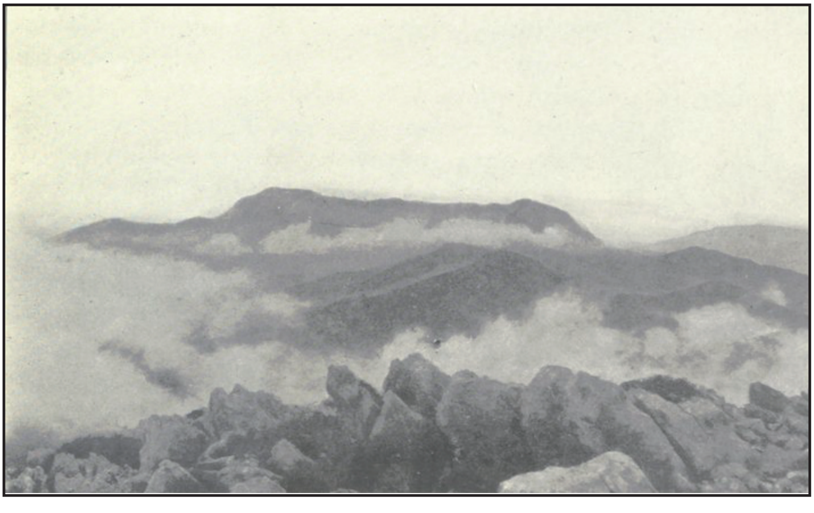

القبة الجوراسية لجبل كلتي

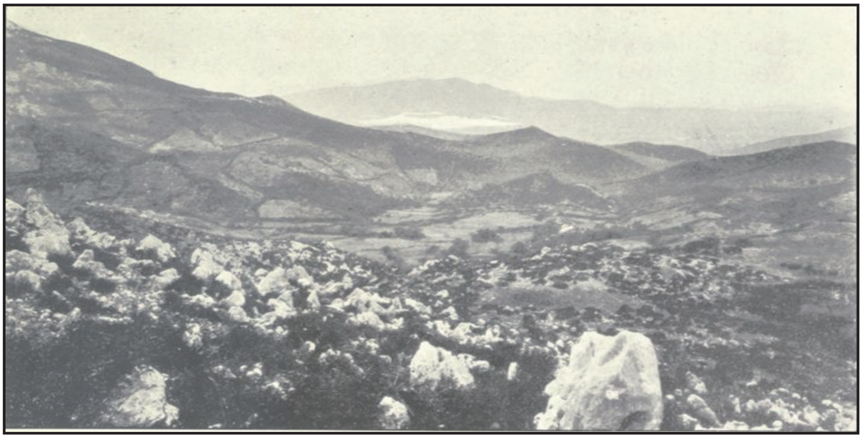

وادي واد كيتان في اللياس

التجمعات السكنية تتموقع تقريبا بشكل دائم عند قدم الأجراف الحثية (الحجر الرملي)، وهو ما يستدعي البحث في أسباب هذا التوزيع. من بين ذلك أن الحث للزمن الثالث، في الواقع، يشكل عند نقطة اتصاله بطين الكريطاسي أو الإيوسين، الذي تتموقع فوقه التركزات، مستوى مائيا هاما. و نجد من بين التفسيرات كذلك تراكب الكلس اللياسي لسلسلة الأنجرة فوق الشيست غير النافذ للزمن الأول. وتنتشر تجمعات بشرية هامة نسبيا على جنبات السلسلة، عند حدود اللياس والشيست وهي: قرى دار الحجر والعلونية Alonia، على السفوح الغربية، الكوف ودار زردجون Zardjoun، على السفوح الشرقية، وكلها تتموقع وتتغذى ببروزات وفيرة تتدفق تبعا لخط تصريف هذا المستوى الهيدرولوجي الهام، وهي موارد تتساقط عبر شلالات عند المنحدرات الجبلية الوعرة.

وسيفاجأ الجغرافي بالعلاقة الوطيدة التي تربط التوزيع المجالي للتجمعات السكنية ببعض المعالم الجيولوجية في اليوم الذي ستنجز فيه الخريطة الجيولوجية لشمال المغرب بكثير من الدقة والتفصيل.

II. الأطلس المغربي

حاولت في الجنوب المغربي أن أتتبع سلسلة من المسارات التي يمكن أن تعطيني فرصة الخروج باستنتاجات عامة. ومن بين المشاكل العديدة التي عانيت منها أثناء أبحاثي، يظهر أن أهمها هي تلك المتعلقة ببنية الأطلس الكبير.

وأثار هذا الإشكال الجيولوجي والجغرافي الطبيعي، فضول جل الباحثين الذين سبقوني مثل: بلانسا، وهوكر، وفون فريتش، وطومسون Balansa, Hooker, von Fritsch, Thomson،... إلخ. لكن إذا كانت الجهة الشمالية للأطلس الكبير، فوق مراكش، موضوع اهتمام جل المستكشفين المغاربة، فإن الجهة الجنوبية لهذه السلسلة المرتفعة لم تكن أبدا موضوع أي استكشاف جيولوجي.

ولهذا اقترحت تجميع أكبر عدد من الوثائق الممكنة التي تعنى بالموضوع، وقمت بقطع الأطلس الكبير ست مرات مابين ساحل المحيط الأطلنتي، ومنطقة دمنات، وهو ما يمثل امتدادا

يقارب 300 كيلومتر . وعملت أكثر على التوجه نحو جهات غير معروفة، متجنبا، قدر الإمكان، المناطق التي زارها الباحثون السابقون.

ونستشف أولى المعلومات عن هذه السلسلة الكبرى من الفينيقيين الذين عملوا، في حدود 1150 قبل ميلاد المسيح، على بناء علاقات تجارية مع سكان الساحل الإفريقي. وتوصل اليونان عن طريقهم إلى الأفكار الأولى عن الأطلس، حيث أخذ هذا الاسم شكلا خفيفا على أفواههم لإسم أدرار الذي يعني، "بالبربرية"، الجبل. وشكلت رحلة حانون (500 قبل ميلاد المسيح)، التي نعرفها عبر المائة سطور المنقوشة على معبد قرطاج، -ولوقت طويل- الوثيقة الوحيدة الدالة على جغرافية هذا الجزء من إفريقيا.

في حين لايوجد خلال الاحتلال الروماني، الممتد بشمال المغرب، سوى آثار قليلة عن المعارف الجغرافية؛ لكن خريطة بطليموس الموضوعة في حدود سنة 160 بعد ميلاد المسيح، تعطى فكرة عن شكل المغرب. وكان للأسف غير معروف في أوربا في العصور الوسطى، ولم تنشر مخطوطات العالم الفلكي الشهير ألكسندران، التي عثر عليها في نهاية القرن الرابع عشر، إلا مع بداية القرن الخامس عشر، وحيث يعود تاريخ الطبعة الأولى الطبعة الأولى إلى فلورنسا سنة 1403.

وظهرت في القرن الرابع عشر خريطة أنجلينو دوليرت (Angelino duleert 1339) وخريطة كاطالان (catalane 1375)، التي أنجزها البحارة الإيطاليون والكطالانيون، ويظهر أن الأطلس ينطلق من المحيط لينتهي عند سيرت متميزا بجرف في جزئه الغربي الغربي يسمى باب ديرا. ونجد إشارات لهذا الممر البحري، بعد وقت طويل، في الخرائط الحديثة.

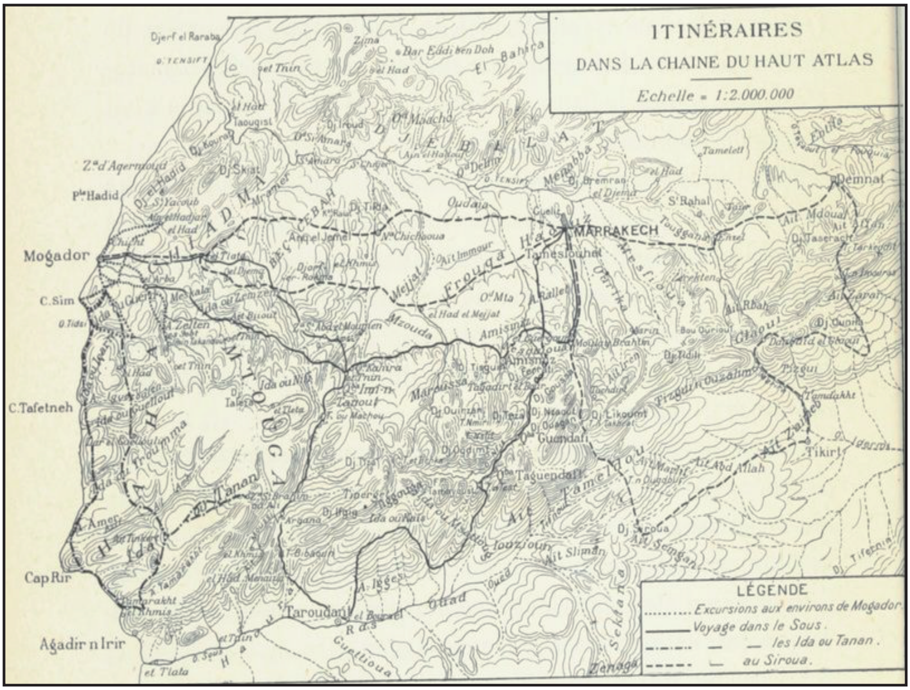

وترك لنا أشهر الجغرافيين العرب: ابن سعيد، والإدريسي، وابن خلدون، وابن بطوطة، وليون الإفريقي، ما بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر وثائق كثيرة، وذكروا أسماء الأماكن، والمجاري المائية، والمدن.

لكن الجغرافية النقدية لإفريقيا، وبعد ذلك للمغرب لم تظهر بعد في المغرب، فقد بدأت مع بورغينيون دانفيل Bourguignon d'Anville، حوالي القرن السابع عشر، الذي أنجز الخرائط الأولى التي تعطي، في تلك الحقبة، فكرة رائعة عن سلاسل الشمال الغربي لإفريقيا.

ويعتبر القرن التاسع عشر البداية الحقيقة لمرحلة جديدة مع الإسباني باديا Badia، تحت إسم علي بك العباسي، والذي "زار" كل شمال إفريقيا. و بين، على عكس رأي دانفيل، أن الأطلس منفصل عن الريف بواسطة أخدود عميق. وقطع بعده روني كيي René Caillé الأطلس عند تيزي نتلغمت Tizi n Telr'emt، أثناء عودته من تمبوكتو؛ ونجد الإنجليزيين بعد ذلك : واشنطن وأغليت، اللذان زودانا بوثائق هامة عن الأطلس الغربي. لكن الاستكشاف العلمي الحقيقي للبلدان المغاربية لم يبدأ إلا في سنة 1860، مع الرحالة الألماني رولف Rohlfs، ليستمر مع البعثات الأنجليزية لكل من هوكر وبال Hooker et Ball، وطومسون، وكذا البعثات الألمانية ل بون فريتش وغان Fritsch et Rein، واحسن هذه الاستكشافات تلك التي قام المستكشف الفرنسي الكبير دي فوكو de Foucauld. وأعطت أسفار الماركيز سيگونزاك Marquis de Segonzac، خلال العشر سنوات الأخيرة إلى بلاد السيبة، مكانة هامة بين الرحالة الأفارقة.

ويمكن أن نستشف من ليون الإفريقي المؤشرات الأولى عن تربة المغرب. لكن الملاحظات التي لها طابع جيولوجي حقا لا تتعدى فترة الكشوفات العلمية بالبلدان المغاربية، أي ما بعد سنة 1860. ولا يشير رولف (1863) إلى أمور مضبوطة أتى بعد ذلك روهفلس سنة 1867 من واد غيغاية بالشيستت الأردوازي الذي يحمل علامات نباتية التي أرجعها بومل Pomel بعد ذلك إلى العهد الكاربوني (لكولم) Culm.

وتمثل بعثة هوكر (1871)، الخطوة الأولى في اتجاه المعرفة الجيولوجية لسلسلة الأطلس. ولخص الجيولوجي ماو المنتمي للبعثة مجموع هذه الملاحظات، وتلت مذكراته هاته عملية الوصف عند إثيريدج (Etheridge)، مشيرا إلى نوع جديد من الحفريات والمتمثل في (القنفذيات) المنتمية إلى بليوسين آسفي، *Rotuloidea fimbriata* ويشير بون فريتش وغان خلال البعثة الألمانية (1872) إلى بعض الحقائق الهامة. ويورد المستكشف أوسكار لينز، خلال سفره المتميز من طنجة إلى تومبوكتو (1879)، -بعد ان قطع الأطلس في هذه الجهة- إلى وجود الحث الأحمر، والمنتمي على الأرجح إلى الترياس، وتظهر بعد ذلك، بوادي درعة، بقايا حيوانات تنتمي إلى الفحمي.

وتشير تقارير دو فوكو (1880-1882) دائما إلى معرفته العميقة بالوثائق الحاسمة حول موقع سلسلة الأطلس، وتساعد المقاطع التي يقدمها كثيرا على فهم التضاريس الجبلية للمناطق التي يمر بها، لكن كان يهمل بمقابل ذلك بشكل كلي تقريبا الجوانب الجيولوجية.

وتعتبر نتائج بعثة الانجليزي ج. طومسن Thomsson هامة فيما يخص الأطلس الكبير الغربي. وكان له قلق دائم بخصوص نشأة هذه السلسلة، وقدمت الأفكار التي يضعها حول هذا الموضوع بالرغم من أن معظمها تم التخلي عنها، على الأقل خدمة كبيرة فيما يتعلق بدراسة الأطلس. ونشر أول خريطة جيولوجية التي يوضح من خلالها الامتداد الهام للكريطاسي؛ كما يقدم ست مقاطع مستعرضية للأطلس الكبير. ويشير المقطع الأول إلى الاتجاه ش ش ش، ج ج غ، بالنسبة للالتواء الهرسيني.

وستأخذ الدراسات الجيولوجية قبل نهاية القرن الأخير، (التاسع عشر) شيئا فشيئا الشكل العلمي الحقيقي الذي دشنه طومسون، وخلفه فيه ثيوبالد فيشر Ficher، الذي جمع، عن المنطقة الموجودة شمال الأطلس، ملاحظات قيمة.

وللرحلات الأولى لسيگونزاك (1901 - 1903) أهمية جغرافية رفيعة. فقد جمع هذا المستكشف البارز، علاوة على ذلك، عددا من العينات الجيولوجية الهامة لمناطق ما زالت مجهولة عند الجيولوجيين، خصوصا بالأطلس المتوسط.

واطلعت أسفار بريفBrives، بنظرة جيولوجية خاصة، وجاءت بحقائق هامة حول استراتيغرافية الأطلس. منذ سنة 1905، كما أشار هذا الجيولوجي إلى عدد من المستويات من بينها مستويات الزمن الأول، والترياس، وبعض المستويات من الكريطاسي والإيوسين. ويؤكد من وجهة نظر التكتونية وجود الالتواءات الهرسينية التي اكتشفها طومسون وفيشر، كما وضع بخصوص تطور بنية الأطلس، بالتتابع عدة تصورات ومفاهيم.

وقام مختص آخر، بول ليموان Lemoigne، في أعقاب رحلته إلى جبل حديد (جبل الحديد) ومراكش وتلوات، بالتعريف بعدد من الحقائق الجديدة حول استراتيغرافية السلسلة حيث يشير إلى وجود الجوراسي بجبل الحديد وإلى بعض الحقائق الهامة حول التكوينات الكريطاسية. ويعترف من حيث التكتونية، في الوقت نفسه- كما بينت شخصيا-، بوجود التواءات ألبية، وهي حقيقة نفاها منذ البداية بريف.

وسيعطي العرض التالي فكرة عامة عن الحقائق الجديدة التي أتيت بها فيما يتعلق بجيولوجية الأطلس، كما سيتضمن هذا العرض تركيزا وتطوير البعض ملاحظات الباحثين السابقين.

التطبق أو الطباقة

← تكوينات ما قبل السلوري: تظهر توضعات ما قبل السلوري متطورة أكثر في المنطقة الوسطى من السلسلة. مكونة أساسا من الشيست الطين - السليسي، يتخلله أحيانا الكلوريت، والكلس الشيستي الذي تقطعه غالبا عروق من الكوارتز.

وتشكل هذه المجموعة مركبا هاما، حيث يصعب حاليا تقدير سمكها الإجمالي، لكن من المؤكد أنها ضخمة. وبدون شك يجب إرفاق ذلك بجزء كبير من الشيست المتحول (الميكا شيست، الغنس....)، الذي يبرز على امتدادات هامة.

← السلوري: يلعب السلوري دورا هاما في بناء الأطلس، وهو مكون أساسا من الشيست مع الكوارتزيت والتي ينضاف إليها، على ما يبدو، الكلس، وهو ما أشار إليه بريف، ويظهر أيضا أن شيست تيسليت الذي أشار إليه بول ليموان، بمنطقة تلوات، يشكل جزءا من هذه التكوينات.

ونفاجأ في هذا الإطار بالتشابه الليتولوجي (الصخاري) الكبير الذي يطبع الشيست الحجري، الفحمي أحيانا، والمصاحب بالكوارتز الأبيض، الوردي أو البني، والذي يبرز بالمنطقة، وهو شبيه بذلك الذي تعودنا على رؤيته في الجزائر، بمنطقة زكار بمليانة وأيضا بكتلة ترارة (وهران)، والذي يعود إلى السلوري. ويتشابه هذا الشيست، المشار إليه باسم شيست ترارا، كثيرا من الناحية الصخرية مع شيست الحفريات ذات الأصل الحيواني الموجودة بسردينيا، وسمحت لي أبحاثي بوهران، -وهي ليست أكثر من الباحثين السابقين-، بأن أؤكد عدم وجود أي آثر لهذه الحفريات هناك. وكنت جد مسرور في المغرب، حيث انه بالرغم من أني لم أجد شيئا في الريف الغربي، فاني وجدت ثروة جيدة عند اكتشاف حقول هامة من الحفريات ذات الأصل الحيواني (Graptolithes)، على بعد أربعين كيلومتر من جنوب دمنات، في الجزء الأوسط من الأطلس الكبير، عند منطقة آيت مديوال.

ويظهر بالقرب من فج آيت مديوال شيست الزمن الأول بلون أسود، مشحونا بالمواد الفحمية (غني بالكربون)، ومختلطا بصفوف صغيرة من الكوارتزيت. ويحتوي على عدة آثار من (حيوانات مائية)، وقمت بتجميع عدد من العينات التي حددت من خلالها الأصناف التالية: *Monograptus, Salteri Gein, Diplograptus, Priodon peregrinus Barr*. وتحولت كل هذه الكائنات إلى مادة فحمية. ويبدو من الصعب تحديد بعض الأشكال بسبب حالتها السيئة، لكن وحده تعايش الثلاثة أصناف المشار إليها أعلاه يكفي لتحديد خصائص عصر السيلوري الأسفل. وتحتل هذه الكائنات موقعا مرتفعا داخل تكوينات الشيست الفحمي، والذي يظهر عند المحذبات الحادة ويعلو، بشكل متطابق، الكوارتزيت على شكل رفوف سميكة يمكن مقارنتها بالتكوينات المتماثلة ليتولوجيا، والمتمثلة في الشيست الجرابتوليتي الموجود بحوض البحر الأبيض المتوسط، خصوصا في منطقة البرانس (Pyrénéen). ويمكننا إذن تصنيف هذا الحث السليسي ضمن الأوردوفيسي.

ويعتبر الموقع الأحفوري لآيت مديوال ثالث منجم/ حقل للجرابتوليت تم التعرف عليه لحد الآن في إفريقيا. فقد أشار إلى الأول Munier-Chalmas داخل عينات من الشيست الأسود التي جلبها المستكشف الشهير F. Foureau من تندداست وقام G. B. M Flamand بوصف منجم رائع لهذه الكائنات بمنطقة حاسي الخنگ، على بعد 400 كيلومتر شمال غرب المنجم الأول، التي تنتمي كما هو الحال لكائنات الأطلس الكبير إلى قاعدة الڤتلندي (التسمية القديمة للسيلوري).

ولن أتردد، بعد اكتشافاتي بمنطقة آيت مديوال، أن أضع داخل السيلوري الأعلى (الڤتلندي) عددا هاما من بروزات الشيست التي تتشابه صخاريا مع المنطقة المحورية، بالريف الغربي، وبشمال الجزائر؛ كما لن أتردد داخل الأردوفيسي بإدخال الكوارتزيت والشيست بشكل متتابع. ويظهر الشيست والكوارتزيت المنتمي للسيلوري في عدة نقط من الأطلس الكبير الموجود ما بين آيت مديوال وفج بيباوم.

←الديفوني: أفاد بون فريتش بوجود طبقات داخل الأطلس التي يعتقد أنها ترجع إلى الديفوني، لكن دون أن يقدم دلائل مستحثاتية. بالنسبة لبريف الذي يعتبر أن ما ينتمي إلى هذا المستوى يتمثل أساسا في الرصيف، الحث والحث الحُمَامي (Grauwackes).

ويربط بول لوموان بالديفونيين التكوينات نفسها إضافة إلى الكلس المرجاني الموجود بكدية أردوز، بحوز مراكش. ولاحظت في كثير من المواقع بسلسلة الأطلس، خصوصا عند واجهته الجنوبية بوادي منتاگة، وجود الحث الأخضر، والمٌحمر عن طريق عملية الأكسدة السطحية، يتخلله الطين- الشيستي الحامل للون نفسه. والحفريات الوحيدة التي صادفتها هي عبارة عن آثار لبعض الرخويات وكذا ذوات الصدفتين (رخويات بحرية). لكن هناك تشابه ليثولوجي واستراتيغرافي مع الحث البني الديفوني المؤرخ بواسطة الأحفوريات، والذي يغطي مساحات شاسعة بالصحراء.

وأظهرت أبحاثي الحديثة علاوة على ذلك وجود الديفوني، ليثولوجيا متشابه، بالمسيطا المغربية التي تحتوي على حياة وحيشة غنية. ونصادف الديفوني بالأطلس الكبير الغربي تحت فج بيباوم، بوادي منتاغا وفي الشرق، بسهل وادي تساوت.

←حث تكريت: سأضعه بتحفظ، في حقبة الزمن الأول نفسها، وهي تكوينات حطامية قوية تبرز على مساحات شاسعة بالحوض الأعلى لدرعة، جنوب الأطلس.

وتتشكل هاته التكوينات، والتي أسميها مؤقتا حث تكريت، من حث سيليسي، صلب وكوارتزيني، ومحمر عن طريق الأكسدة السطحية، وتنتصب على شكل أفرشة منتظمة يتخللها الطين الشيستي باللون نفسه. ويصل سمكها على الأقل إلى 200 متر. وتبتدئ غالبا برصيص، كما هو الشأن بآيت تماسين.

يبدو من المستحيل عدم قول شيء إيجابي عن عمر هذه الارسابات والتي لم أجد بها أي آثار لحطامات منتظمة؛ لكن سأحتفظ بها مؤقتا داخل حقبة الديفوني، نظرا لتشابه هاته التكوينات مع هذه الحقبة. وتظهر امتداداتها كبيرة، انطلاقا من تيكريت حتى تقترب من كتلة سروا، أنها تغطي مساحات شاسعة من الأطلس الصغير. الأمكنة، وتعطي تحت المناخ الجاف تربة خالية من الغطاء النباتي.

أعالي وادي واد تساوت تطابق البرمي مع الفحمي، ويبدو الجبل البركاني لأنرمر عن بعد

"ديكات" بركانية بجبل سروا

← النظام الفحمي (Carbonifère): قدم عالم النبات بالنسا، سنة 1868، الدليل الأول عن وجود النظام الفحمي في المغرب. وأعطت الآثار النباتية داخل الشيست بوادي غيغاية (واد تحناوت) فيما بعد لبوميل مؤشرات عن نباتات متفحمة Flore Culm.

تبدو تلك المؤشرات التي أعطاها بريف بخصوص الشيست والكلس البلوري مع آثار لأحفوريات بمنطقة إدا ومحمود، بوادي إردوز، غير كافية لإثبات عمرها ويربط كذلك بول لوموان، بدون دليل مستحثاتي، الشيست بمنطقتي مولاي ابراهيم وشيست منطقة تلوات بهذه الحقبة من الزمن الأول. وكانت إشكالية النظام الفحمي بالأطلس واردة منذ انطلقت في جل أبحاثي. ولاحظت تكوينات الفحمي تغطي مساحات شاسعة في الشرق، واستطعت أن أؤكد، باكتشاف وحيش هام، إسناد شيست بالنسا إلى الكولم (الفحمي الأوسط)

ويتكون الأطلس، أعلى سهل سكورة، من توضعات فحمية مررت عليها انطلاقا من فج تيزي ن إيمودراس، عند قدم جبل أنزمر إلى غاية السهل. ونلاحظ هنا، من القاعدة إلى القمة، تتابع الحث الغني بالميكا، والشيست برفوف كلسية غنية بمستحثات الحيوانات البحرية، والشيست الغني بالسليكس الأسود، لننتهي بكلس حثي أصفر. ويتجاوز السمك العام لهذه التكوينات 450 متر. ويحتوي الشيست والكلس الغني بمستحثات الحيوانات البحرية، على مجموعة من أنواع حيوانات بحرية أخرى.... إلخ والمميزة لحقبة الفيزيان Viséen.

وتبرز هذه التوضعات على الجهة الجنوبية للسلسلة بمنطقة آيت إكرنان، وآيت مغران... إلخ. وتستمر هذه التكوينات بعيدا في اتجاه الشرق، ولم أفاجأب استمرارها بشكل مواز مع تلك الموجودة بمنطقة بشار الخاضعة للاحتلال الفرنسي (الجزائر)، كذلك بالجزء الشمالي للمنطقة الحدودية، داخل وادي إسلي، وحيث جمعت حديثا أحفوريات لحياة برية تعود لحقبة الفيزيان Viséen. وهي أحفوريات غنية بمجموعة من العناصر. ويظهر شيست مولاي إبراهيم بالمنطقة الجبلية لسلسلة الأطلس، على حواف سهل الحوز. ويشكل كتلة مجزأة بقوة بفعل وادي غيغاية، حيث تمتد شمال

زاوية مولاي إبراهيم. ويقطع واد غيغاية منطقة الخوانق ذات السفوح الحادة المكونة من الشيست الطيني القاتم السواد والذي يصل سمكه لحوالي 500 متر على الأقل..

ووجدت في المنطقة التي تعلو هذا الشيست آثارا لنباتات غير محددة لسوء الحظ. بدون شك في هذا المستوى جمع بالنسا عناصر الحياة النباتات المنتمية للفحمي الأوسط (Culm). على أن ما يثبت ذلك ليس فقط حطام النباتات غير المحددة التي وجدتها، بل ما يؤكد ذلك أيضا هو الاكتشاف الهام الذي قمت به، والمتعلق بوجود ؛ وحيش بمستوى استراتيغرافي أقل ارتفاعا من هذا الشيست المشار إليه سابقا. وليس لدي أدنى شك في أن الشيست نفسه المنتمي للحقبة الفحمية يمتد بشكل هام داخل الأطلس الكبير، وأنه ينتشرخاصة بوادي النفيس ووادي أوريكا وبمنطقة گلاوة.

← البرمي والترياس: وصف بون فريتش، تحت إسم حث وانسيرو، الحث الأحمر الذي ر يبرز داخل وادي غيغاية و واد نفيس.

واعتقد فيما بعد إدوارد سويس، في خلاصته التركيبية الرائعة، "وجه الأرض"، أن هذا الحث يتطابق مع عصر البرمي. بينما يشير بريف الى الشيست البلق المحتوي على micacés والبرفيريات (صخور منصهرة) المنتمية للبرمي. في حين يصنف بول لوموان داخل عصر البرمي الشيست – المحتوي على الميكا والرصاف الذي تعاقب البرفيريات والديوريت (صخور منصهرة).

تناسب الترياس الجبسي كما أشار إليه بريف، وتعرف عليه أيضا بول لوموان، مع الترياس البحيري في الجزائر. ويتمثل البرمي والترياسي، والأطلس الكبير الغربي بتعاقب بتعاقب هام، قاري وبحيري. وتبتدئ هذه التكوينات عموما برصيص، يعلوه الحث الطيني - السيليسي والطين الحثي، يحتوي أحيانا على شرائح من الميكا البيضاء خالية تماما من الكلس. ولازالت هذه الطبقات تتميز بالوجود الدائم للهيماتيت (l'hématite) التي تمنحها لونا أحمر، وأحيانا لونا قرمزيا (cramoisie). ويشكل الرصاف رصيص القاعدة للطين الحثي الأحمر أو المنقوش ذو اللون الأخضر، يحتوي احيانا على الشيست.

ولا يمكن فصل هذا التعاقب، ذو الأصل القاري على ما يبدو، عن التوضعات البحيرية التي تعلوه، والمكونة أيضا من الحث والطين الشيستي المتعدد الألوان، لكن مع وجود الجبس والملح الصخري الذي يظهر بشكل واضح. وتبرز هذه الطبقات الملحية، في اتجاه الشرق، مختلطة مع الكلس المنغنيزي، وهي في مجموعها تذكرنا بالترياس البحيري في الجزائر وتونس.

وتشكل كل التكوينات القبلية المتتالية، في بعض النقط، تراكمات بعدة أمتار، ظلت للأسف حتى الآن خالية تماما من الأحفوريات. ولم تتم الإشارة إلى أي فتاتة منتظمة قبل الاستكشافات التي قمت بها، ولم أكن مسرورا كالذين سبقوني لأن النتائج التي توصلت إليها هي مجرد تتبع لآثار النباتات داخل حث زمن البرمي. إنها بعض شظايا الأغصان والإبر الصنوبرية، غير المحددة، والتي استخرجتها من الحث الأحمر بفج بيباون. ورغم هذه الندرة من حيث الوثائق التي تعنى بالمستحثات، يبقى من غير الممكن الشك في العمر البرمي - الترياسي لهذه التجمعات، وذلك على

اعتبار أنها توضعت فوق مستوى فحمي أحفوري، ومغطاة بالتوضعات الجوراسية. ويؤكد حضور المقذوفات البركانية من جهة أخرى داخل الطبقات الحمراء تشابه هذه الأراضي مع التكوينات المماثلة بالجزائر والتي تم إرجاعها إلى زمن البرمي.

لا يمكن إلا أن نندهش من المرور غير المحسوس للطبقات الحمراء إلى التوضعات البحيرية والتي يجب أن تمثل، باعتبار التشابه الذي يوجد في باقي أرجاء شمال افريقيا، مما ينتج مستويات عالية للترياس (الترياس الأعلى)، ونستخلص من ذلك أن الرصيص والحث المنحدر ينتميان إلى البرمي وقاعدة الترياس ونستخلص من ذلك أن الرصيص والحت المتحدد ينتميان إلى البرمي وقاعدة الترياس مستذكرين أيضا التكوينات المشابهة بمنطقة شمال البريني، والتي يجمعها ليون بيرتراند تحت اسم البرمي- ترياسي.

ولهذه الأراضي دور رئيس في الكتلة القديمة للأطلس الكبير باعتبار انتشارها الواسع وكذا السمك الكبير للإرسابات. ويجعل أخيرا لونها الأحمر والقرمزي أحيانا، من السهل التعرف عليها.

يمكن القول: توجد هذه الإرسابات تقريبا في كل الأماكن داخل الامتدادات الهامة لهذه السلسلة. ونجدها عند آيت مديوال وآيت إكرنان، في الشرق، تغطي بكيفية متنافرة الشيست الجرابتوليتي، والمغطى نفسه بالكلس الجوراسي.

ويمتد الرصاف والحث الأحمر، مع الصخور البركانية، إلى حدود جبل أنرمر djebel Anr'mer. حيث يتوضع على تكوينات الديناتي لتيزي نمورداس في هذا الجبيل ذي الطبقات الحمراء لها سمك لا يقل عن 400 متر؛ وتستمر إلى حدود جبل أكورزكا، بمنطقة آيت مغران. ويستمر البرمي، على ما يبدو، فوق قمم السلسلة إلى حدود گلاوةالتي يتطور فيها بشكل كبير، حيث يعلوه الشيست يتولى المعطى نفسه بالجبس الملحي بوادي تلوات كما تبينه ملوية واد إمغران.

ويتطور البرمي بشكل هام على الواجهة الشمالية من السلسلة، بصخور بركانية، بمنطقة فطواكة وغجدامة ويبدو أن الترياس يعلوه عند آيت ملاح. وتبرز هذه المجموعة بشكل ومستمر مع تكوينات البرموترياس بمنطقة مسيوة (Mesfioua).

وتشكل هذه التكوينات في اتجاه الغرب عتبة تفصل واد نفيس عن واد غيغاية، وهي المنطقة التي يتقارب فيها هاذان الوادان بشكل كبير. وتستغل التوضعات العليا، هنا، لاستخراج الملح. وقد أعطى في هذه المنطقة كذلك بون فريتش von Fritsch اسم حث وانسرو grès de Wansero للطبقات الحمراء، المنتمية للبرمي خصوصا.

ويظهر كل من واد سراتو وواد آيت موسى، انطلاقا من هوامش تيزي وماشو، تطورا كبيرا للطبقات الحمراء المنتمية للزمن الأول، والتي تتميز بسمكها الكبير عند هذا الفج، وكذا عند أعالي فج بيباون، عند عالية نزالة أرگانة.

ويتطور الرصاف بشكل كبير على مقربة من إفرد، وحيث يبرز بعاليته الشيست والكوارتزيت السيليري وقد عثرت على بقايا نباتية ترجع غلى البرمي بين لأفرد وأگلو. وتبرز أخيرا بقايا هامة من

البرمي مع صخور بركانية بمنطقة إدا أوتنان في منخفض أنكلوت، في حين يتطور الترياس البحيري، بشكل خاص، بمنطقة إدا وزيكي، وبالمنطقة الساحلية، تكركرة، بمنطقة إدا واسرن، إلخ..

←الأراضي الجوراسية: أشار بول لموان إلى وجود الجوراسي أول مرة بجنوب المغرب، بجبل الحديد، الذي يقع على بعد 25 كيلومتر شمال موگادور، وهو موقع زاره كثير من الرحالة. ولمّح فون فريتش في هذا الإطار إلى وجود الجوراسي والكريطاسي، في حين أشار طومسون إلى الكريطاسي. أما بول لوموان فقد جمع داخل الصلصال- الكلسي لجبل الحديد، مجموعة من الصدفيات لذوات القوائم الذراعية وكذا البلطيات، ولاحظ أن دراسة هذه الحفريات تعطي نتائج تدعم انتماءها للجوراسي.

في حين يدعم بريف أولا، رغم الدلائل الحفرية التي جاء بها لوموان، فكرة انتماء كلس جبل حديد للكريطاسي الأسفل، واعترف حديثا بانتماء هذه التكوينات للجوراسي.

وسمحت لي أبحاثي بالأطلس الغربي، ليس فقط بتأكيد الإسهام الذي أتى بها لوموان فيما يخص انتماء كلس جبل الحديد للجوراسي، لكن أيضا بإضافة توضيحات أكثر حول الحفريات التي درسها لوموان، والتي تعود لذوات القوائم الذراعية.

واكتشفت أيضا، في عدة نقط من جنوب موگادور، حفريات داخل الصلصال - الكلسي، تعود لتاريخ سابقتها نفسه وتنتمي لفصيلة ذوات القوائم الذراعية، وهو اكتشاف لم يدع مجالا للشك حيث حسم بشكل نهائي في المسألة.

واكتشفت الجوراسي عند الحدود الغربية للأطلس الكبير، وشرقا، وراء واد غدات. في المنطقة الساحلية، ويبرز الصلصال- الكلسي لجبل الحديد في شكل ثلاث أشرطة مستقلة تؤدي إلى البحر، عند رأس تفلني، رأس غير، وعالية أكادير نغير (أگادير أوفلا). واستطعت أن أقطع الشريط أو الحزام المنتمي لرأس غير، الذي يعتبر شريطا هاما بشكل كبير.. ويشكل الجوراسي جبهة الكاب "الرأس" حيث نرى الكلس الرمادي، برفوف منتظمة ومتعاقبة مع الصلصال الحامل للّون نفسه.

ويعطي جبل تازناخت، مقطعا رائعا نحو الشرق، بسمك واضح يتجاوز 250 متر، بالتكوينات نفسها؛ حيث تتعاقب أشرطة الكلس مع الصلصال الشيستي ذو اللون الأحمر أو الأخضر.

الگور الكريطاسي لسيدي عبد المومن بهضبة بسيدي بوزرگون

شجر الأرگان لسهل هوارة ويبدو الأطلس عن بعد

ويبرز الجوراسي أكثر، نحو الشرق أيضا، بالمنطقة المرتفعة لإداوتنان، على مساحات شاسعة إلى حدود إدا وزيكي. ويظهر على هامش منخفض أنكلوت، الصلصال- الكلسي الذي يتوضع فوق البرمي ويحتوي على حفريتين، لذوات القوائم الذراعية أيضا وحتى في تيزي نمكتي حيث جمعت عدة مستحثات.

يظهر الأطلس بجنوب دمنات أعرافا كلسية، أشار إليها طومسون والذي لم يعط أي إشارة عن عمرها. ولم أعثر -لسوء الحظ - على حفريات على الطريق التي قطعتها عند السلاسل المرتفعة ما بين مدينة دمنات وسهل سكورة، لكن لاحظت أن هذه التوضعات الكلسية والصلصالية توجد، بشكل غير متطابق، فوق الحث الأحمر البرمي أو فوق الجبس الترياسي، ولاحظت ذلك بوادي دمنات وبالأودية الجنوبية، والتي كانت مغطاة بشكل متطابق بالحث والرفوف الكلسية أو الصلصال الذي يعود للكريطاسي الأسفل.

يظهر بدون شك، من جهة أخرى، أن هذه السلسلة الثانوية، الممتدة على سمك يصل لحدود مئات الأمتار، تحتوي على عدة مستويات جوراسية. ويعتبر وجود المستويات الأكثر ارتفاعا بهذه المناطق نتيجة لإرسابات متواصلة ومتعاقبة مع الكريطاسي الأسفل. ولم أفاجأ بكون هذه الارسابات تبتدئ بالسلسلة اللياسية على شكل كلس كتلي كما هو الشأن بالمنطقة الحدودية الجزائرية- المغربية. لكن يبقى كل ذلك مجرد فرضية على اعتبار أني لم أحمل معي ولو عينة واحدة من اللياس، والتي يجب البحث سواء في هذه المنطقة من الأطلس أو عند الحدود الغربية من هذه السلسلة، بالمنطقة الساحلية.

وتظهر حقيقة أكثر وضوحا، تتعلق بكون التكوينات الجوراسية، الضحلية (néritique) أولا، وتصبح شيئا فشيئا قعيبية (bathyal) كلما ارتفعنا داخل هذه السلسلة.

← الأراضي الكريطاسية: أشار بومل سنة 1870 إلى وجود الكريطاسي بالجنوب الغربي، حسب عينات المحار التي جلبها من ساحل موگادور. وكان لطومسون الفضل الكبير في إظهار-أثناء بعثته المشهورة- الامتداد الكبير لأراضي الزمن الثاني والتي مثلها في أول خريطة جيولوجية نشرت عن

المغرب. وأثار كل من تيوبلد فيشر وبون بفايل ملاحظات هامة حول كريطاسي السفوح الشمالية للأطلس وكذا المنطقة الممتدة شمال هذه السلسلة.

ويؤكد بول لوموان في الأخير بعض المعطيات المأخوذة من الباحثين السابقين، ويبين بدقة مستويين جديدين: المستوى الباريمي والمستوى الأبتي.

وسمحت لي أسفاري بسوس وإدا وتنان من ملاحظة وجود سلسلة كاملة من الكريطاسي بالجزء الغربي من سلسلة الأطلس الكبير. وكما يظهر ذلك المقطع الجيولوجي المرافق لهذا العمل، فإن توضعات الزمن الثاني تشكل غطاء لنهاية سلسلة الأطلس الكبير حتى المحيط الأطلنطي، والمستويات المعروفة هي، في معظم الأحيان، مشهورة بغناها من حيث التنوع في كائنات حية؛ وتمكنت أيضا -رغم الظروف المتواضعة لأبحاثي-، أن أجلب مواد وفيرة سمحت لي باستكشاف عدد هام من الأصناف المميزة بشكل قطعي للمستويات الاستثنائية للكريطاسي الأسفل والأوسط (1).

يتمثل المستوى الأول في الهاتريفي (Hauterivien)، وهو مستوى جد منتشر. الهاتريفي الأسفل، في جزئه الضحلي (غير العميق)، يتميز بأصناف كبرى من ذوات القوائم الرباعية (brachiopodes) وكذا بأصناف الأمونيت التي تذكرنا بأشكال مناطق الجوراء القرمي، وكذا المناطق المنتمية لشبه جزيرة القرم.

ويبدو من غير الممكن تأكيد تعاقب هذه الأزمنة، داخل التكوينات المشار إليها سابقا، بواسطة محددات أحفورية، على الأقل على حد معلوماتنا الحالية، لكني وجدت، في الطبقات العليا، مجموعة كلسية، حيث يمكن ان يتم الفرز بينها بسهولة عن طريق استعمال حامض الستريك.

أما بالنسبة للسينوني Sénonien، الذي لم يحدد بعد على الواجهة الشمالية للأطلس الكبير، فنجده ممثلا بمجموعة من الصدفيات الموجودة بشكل خاص على الحدود الغربية لهذه السلسلة بمنطقة أگادير. ووجدت، في الواقع، هذه الدلائل داخل الحث الهش ذو اللون الأصفر- البرتقالي الباهت، وهي أحفوريات تنتشر بشكل خاص بوادي أسيف أسرسيف على الضفة اليسرى لأسيف تمراغت، على مسافة "هامة" من أكادير.

←أراضي الزمن الثالث: لأراضي الزمن الثالث دور أقل أهمية في استراتيغرافية الأطلس الكبير الغربي. ويشير بريف لأحفوريات داخل الكلس والصلصال الأزرق بسيليس أسود، والموجودة بمجموعة من النقط شمال السلسة، وهي أحفوريات يرجعه بريف إلى الإيوسين الأسفل... ولا أشك في وجود الزمن الثالث الأسفل بشمال الأطلس الكبير بما أن زميلنا وجد دلائل احفورية عبارةعن نمليتيات Nummulites، لكن هذه التوضعات تستحق تحديدا مستحثاتيا دقيقا.

ولاحظت من جانبي في بعض النقط، خصوصا على الضفة اليمنى لواد إكرونزار، وجود الصلصال والكلس الأبيض السيليسي فوق تكوينات كلسية سميكة، تنتمي على ما يبدو إلى المستوى الأسفل للإيوسين، لكن لم أعثر في هذا الصدد على أحفوريات تؤكد ذلك. ومن المرجع أن زميلي قد اكتشف من داخل هذه التكوينات أحفوريات النمليتيات والرخويات.

ويتقدم النيوجين أولا بحث كلسي حجري يحتوي على محار بحجم كبير من نوع Ostrea crassissima، والمتجمع ما بين موگادور وأگادير على ارتفاعات تتعدى 300 متر. وتنتمي هذه التوضعات إلى المستوى الثاني المتوسطي. (الهالفتي – الطرطوني)

أما بالنسبة للبليوسين، والذي تتضح معالمه من خلال وفرة قنافذ البحر في بعض النقط، فإننا نجده يتخصص ببعض الأحفوريات المتمثلة أساسا في المحار والأسقلوبات (Pectinidés) التي تميز بليوسين المحيط الغربي للمغرب. وتتشكل هذه الأراضي من الحث الكلسي، في بعض الأحيان، والممتد على طول المحيط إلى حدود أگادير، ويشكل في بعض الأماكن درجات بارتفاعات هامة تقارب 200 متر.

وننحني نحو الأسفل، على ارتفاعات تتراوح ما بين 100 متر ومستوى البحر، بشكل متدرج في اتجاه الشواطئ القديمة، المحتوية على الأصداف أحيانا، وهي شواطئ تميز مختلف مستويات البليستوسين ولا يمكن تحديد انتمائها، كما فعلنا سابقا، الى الميوسين.

الصخور الاندفاعية والمتحولة

هي صخور متبلورة، كتلية أو شيستية، تشكل عند الجزء المحوري للأطلس الكبير بروزات شاسعة. أشار إليها- خصوصا الصخور الگرانيتية- الرحالة الذين سبقوني: هوكر، وطومسون، وبريف.

وتغطي المنطقة البلورية بجبال بوغيول وتيديلي، إضافة إلى كل الواجهة الجنوبية للأطلس ما بين أسيف إمغران وأولوز، داخل سهل وادي سوس. وسندرس لاحقا بقايا البراكين وهي أيضا متبلورة.

وصادفنا صخورا گرانيتية، جمعت من بينها: گرانيت البلق الأسود والتوناليت، والمنتشرة بشكل كبير بواد تيفنوت (سوس الأعلى) وكذا بآيت تملدو. ومن بين الصخور المتحولة نجد الميكا- شيست، والكلورو- شيست، و يظهر في هذا الإطار أن الشيست الأمفيبوليه هو المهيمن.

ومن المستحيل أن لا نقول أي شيء عن عمر هذه الصخور على اعتبار أن درجة التحول بها شديدة، كما أن الملاحظات حول هذه المنطقة تبدو غير كافية. وقد فكرنا في السيلوري الذي رأيته في أماكن أخرى.

وتنحدر على الواجهة الشمالية من السلسلة، بمنطقة امزوضة، والمجاري المائية الصغيرة من الأطلس، خصوصا عند واد آيت بورد، محملة بموادمن الگرانيت، حيث وجود صخور واضحة في مناطق تماس، وهي صخور آتية من كتلة السيليري الموجودة قليلا نحو السافلة.

وتلتقي صخور الگرانيت الأمفيبولية، والديوريت، وحبيبات الفلسبار البوتاسي، حبيبات التورمالين، وصخور التماس، على شكل حصى مدملك، عند وادي النفيس بالواجهة الشمالية للأطلس الكبير، وبواد تلگجونت وواد منتاگة، في الواجهة الجنوبية، وهي في مجملها تكوينات تؤشر على وجود أراض هامة تحتوي هذا النوع من الصخور البلورية بالمنطقة المرتفعة من الأطلس الكبير.

←براكين البرمي والترياسي: كان جنوب المغرب خلال حقبة تكون الحث الأحمر عند البرمي- ترياس، مسرحا لانفجارات بركانية كبرى، حيث حافظت سلسلة الأطلس على شواهد جد هامة أحيانا عن ذلك. وقد تعدى سمك التدفق الصهارة عدة مئات الأمتار في بعض الأماكن من السلسلة الأطلسية، وعلى المرتفعات الجنوبية لجبل تمجوت وجبل ليكومت، وأُقدر قوة البقايا البركانية الاندفاعية بأكثر من 1500 متر.

يورد طومسون هذه الصخور، في كثير من الأحيان، كعروق بازلتية؛ ويصر كذلك على تصدعها بفعل الصقيع بالمناطق المرتفعة للسلسلة. ولا يعطينا في هذه الصدد أي مؤشر حول عمرها.

ويشير بريف إلى الصخور الاندفاعية بعلاقة مع توضعات البرمي. وتظهر مجموعات كبيرة من الحجر السماقي (Porphyres) البيترو - سيليسي، داخل الشيست الأرجواني المنتمي لهذه الحقبة حسب بريف، بقدم جبل ويرزان المشكل أساسا من كتلة كبيرة من الحبيبات الدقيقة.

وتشكل مقذوفات براكين حقبة البرمي أو الترياسي التي رأيتها، سلسلة من الصخور العصيبليرية (Microlitiques) أو الصخور الخامة الخضراء، التي تحتوي غالبا على فلدسبار تَلُوف (Feldspaths plagioclases)، حامضي أو قاعدي، مصحوب أحيانا بالزبرجد الزيتوني (Olivine)، لكنها تنتمي كلها لأنواع صخرية جد مختلفة عن تلك التي أشار إليها بريف.

ونجد هذه الصخور جد متفسخة للأسف، كما نجدها مختلطة بالكلوريت، والكالسيت؛ والفلدسبارت المتحلل جدا، ونجد أيضا المادة الزجاجية متبلورة، إلى حد يجعل تحديد نوعية هذه الصخور أمرا صعبا دائما.

الأنواع الرئيسة التي يمكن أن أشير إليها هي بالأساس: صخور الأرتوفير حيث تظهر المضرات الحديدية للزمن الأول متحللة بالكامل، وحيث الطبقة الخارجية تؤشر عن تعدد عصيبليري microlitique مصحوب بمضرات صعبة التحديد. ويتضمن التكوين الكميائي لهذه الصخور رواسب الصخر الصواني، وتكوينات دقيقة من البوتاسيوم، الألومنيوم، المنغنيزيوم الحديدي والكالسيوم الدقيق. ويشكل هذا الصخر تدفقات عند فج تيزي تعرارت.

وتبدو الشظايا البركانية البرمي –ترياسية أكثر نحو الشرق، ما وراء تلوات،- أقل حامضية. إنها سماقيات حمضية أو قاعدية، نجد أيضا الأنديزيت واللابرادوريت التي تنتقل باعتبار بنيتها، إلى DIABASE OPHITIQUE. ويوجد هذا النوع الصخري الأخير أساسا داخل الركائز أو العروق الصخرية. واحدة من هذه التكوينات، بالقطاع الأعلى لواد تساوت، تظهر بلورات من الأوجايت أو سيليكات المغنيسيوم. يفيد التحليل الكتلي لهذه التكوينات يفيد بوجود صهارة گرانيتية- ديوريتة، ميكا- بوتاسيوم، ميزو- ألومينيوم، المغنيزيوم والميزو- كالسيوم.

نستنتج من هذه اللمحة الموجزة حول تركيبة الصخور البركانية البرمي- ترياسية، أنها تنتمي إلى نوع فلسباريتي متنوع عصيبليري أو من نوع الرخام الأخضر الداكن، لكن باستثناء تام لصخور

الكوارتزيت، والرخام السماقي البترو- صواني، وصخور الديوريت التي أشار إليها بريف داخل هذه البراكين القديمة.

وركزت على امتدادات شاسعة بمئات الكيلومترات، ما بين وادي غيغاية ومنطقة عيون واد تساوت وتحتية. ووجدت أيضا الأنواع البتروغرافية نفسها عند الحدود الغربية للسلسلة بمنطقة إدا وتنان، خاصة بمنخفض أنكلوت. كما وجدت أن المقذوفات البركانية البرمي- ترياسية تمتد على كل الأطلس الغربي.

وتتشكل إلى الشرق عند أيت إگرنان هذه المقذوفات السفح الجنوبي للأطلس من تاكولاست إلى حدود نواحي سهل سكورة. وتوجد تشعبات الشبكة الهيدروغرافية لواد تساوت في غالب الأحيان متعمقة داخل هذه الصخور الخضراء التي تظهر قمما هامة.

ونجد التدفقات و الفيلس السماقي مفصولين بوضوح داخل الحث الأحمر للنظام البرمي - ترياسي. ونستشف في كثير من الأحيان عدسات الطبقات الحمراء نفسها معزولة داخل الصخور ذات الأصل الناري (البركاني).

ويعد مقطع جبل أنرمر، الذي يرتفع شاهقا فوق فج تيزي ن ايمودراس، هو الأكثر أهمية في هذا الصدد، لأن هذا الجبل يصل في ارتفاعاته لما يقارب 4000 متر. لم أتمكن من الصعود إليه بسبب انعدام السلامة والأمان في هذه المنطقة الوعرة، لكني تخطيت هذه الصعوبةبالالتجاء إلى منطقة بأكثر من 180° وهي المتمثلة في جبل أنرمر. ورأيت أن زمن الدينونتيني الأحفوري مغطى بشكل غير متطابق بالتكوينات التالية: رصاف الزمن الأول، والحث والصلصال الرملي الأحمر، مع الصخور البركانية المقحمة داخل الجبل والمشكلة من الصهارة نفسها والفليس السماقي، بسمك يتجاوز 400 متر.

وتستمر المواد البركانية مع الحث الأحمر الذي ترتبط به، بالمناطق المرتفعة للأطلس انطلاقا من جبل أنرمر إلى حدود جبل تلوات. ونراها تبرز في الواجهة الجنوبية للأدرار ن إري، بسمك يتراوح ما بين 200 و300 متر.

وتشكل هذه الصخور على الواجهة الشمالية دكات سميكة، انطلاقا من وادي غدات إلى ما وراء دمنات. كما أشار إلى ذلك طومسون. شاهدت ذلك وأدركت بروزها على الواجهتين، لطية ذات اتجاه شرق-غرب ومتآكلة على شكل منخفض، ويبين انقطاع واد تساوت وتحتية عند زاوية بن داود أجرافا بازلتية.

وتوجد في الغرب، قمم جبل ليكومت، توبقال وتامكوت، مكسوة بالمقذوفات البركانية البرمي - ترياسية. ويصل سمك الصهارة والفليس المتراكم، جانبا، إلى أكثر من 1500 متر. كما نجد هذه التكوينات فوق الركيزة الگرانيتية المتبلورة فوق سطوح الزمن الأول.

ونرى أيضا، على الجبهة الجنوبية للسلسلة، عددا هاما من العروق من صهارة الصخور البركانية المتحولة، والسماقية، والتي تقطع القاعدة لتستمر مع المقذوفات السطحية هذا البركان الكبير. وليس هناك شك بأننا بصدد وجود قنوات، وممرات مردومة بالصهارة في هذه المنطقة.

وتؤشر دراسة مجموع هذه المواد عن العلاقة البتروغرافية القوية للطفح الصهاري/الحميمي مع العروق العميقة نسبيا الموجودة جنوب السلسلة العالية. ونلاحظ، من جهة أخرى، أن هذه العروق أصبحت تظهر متزاحمة/ متداخلة أكثر فأكثر عند قدم جبل ليكومت وتوبقال، ويمكننا القول بوجود مراكز انبعاث هامة تتناسب مع سمك أكبر مقذوفات هاته البراكين الشبه -هوائية (Subaérien).

وتعتبر المساحة المكسوة ببراكين البرمو- ترياس حسب ما رأيناه سابقا جد هامة. وتغطي كل الأطلس الكبير الغربي، انطلاقا، على الأقل، من آيت إكرنان إلى حدود المحيط الحالي، على اعتبار أني وجدت أنقاضا بارزة بإدا وتنان تؤشر عن ذلك.

ولا نعرف في اتجاه شمال السلسلة أي شيء عن حدود هذه الطفوحات القديمة، لكن لا يمكن أن نشك في امتدادها على جزء هام من ميسيطا المغرب، ولاحظت علامات هامة يبدو أنها تنتشر على كل المنطقة المسطحة التاتجة عن تعرية السلسلة الهيرسينية.

- بركان سيروا: يشكل جبل سروا كتلة هامة جنوب الأطلس الكبير، تفصل الوادين الكبيرين: واد سوس وواد درعة. وتوجد في منطقة اتصال مرتفعات سلسلة الأطلس الكبير بالأطلس الصغير. حيث يمكن ان تصل الارتفاعات إلى حدود 3300 متر، واكتشفها رولف على امتدادات شاسعة سنة، 1862 وكذلك الفيكونت دي فوكو سنة 1882، ويحكي الرحالة الأنجليزي هوكر سنة 1871 عن رؤيته من بعيد للقمم العالية لجبل تيزا، وهي السلسلة التي أعطاها إسم الأطلس الصغير. ويلتقط فون فريتش (1872) من جهته، وانطلاقا من تيزي ن تغات "أعراف جبلية مرتفعة مكسوة بالثلج"؛ لكن فوكو هو الذي شاهد جبل سروا على مسافات تتراوح ما بين 60 و100 متر، وأعطى معلومات هامة حول هذا الجبل وأعطاه الاسم الحقيقي.

ولا يمكن إغفال الأهمية الجغرافية لجبل سروا، فهو يشكل ملتقى جبليا واضحا وهاما، بارتفاعاته الهامة التي تشرف على سهلي درعة وسوس، وكذا بموقعه عند تقاطع الأطلس الكبير والأطلس الصغير. ولم يحدد هذا الموقع بدقة من جهة أخرى. وكان من حسن حظي، بسبب الظروف التي سردتها أثناء مجريات رحلتي، أن أقطع هذه المنطقة كاملة، مرورا بالحوض الهيدروغرافي لواد درعة وحوض واد سوس، عبر فج تيزي ن أوگدور غير البعيد عن أعالي سروا، حيث تصل الارتفاعات لحوالي 3300 متر.

ولم أحمل من جهتي فقط معارف حول هذا الجزء من المغرب الذي ظل إلى حدود الآن بعيدا عن تحريات الأوروبيين، بل استطعت إظهار التركيبة الجيولوجية لكتلة سروا والتي تشكل، بموقعها التضاريسي، في الواقع، أهم النقط الجغرافية الاستثنائية بالقارة الإفريقية. ويشكل جبل سروا، في الواقع، بركانا شاسعا لا أتوفر على معطيات دقيقة حول عمره، بسبب غياب تكوينات أراضي الزمن الثالث في منطقة اتصاله، لكن أعتبره، تكوينا حديثا بسبب شكله، وكذا الحالة الجيدة التي يوجد عليها.

وتمتد سطوح آيت خزامة، على مساحة شاسعة تصل على الأقل في شعاعها إلى 20 كيلومتر، مقذوفات سميكة من الصهارة متداخلة مع الفليس، تقطعها عروق، وحواجز صخرية تشكل، أحيانا، أعمدة مشوهة لفوهات بركانية قديمة.

وتصل مقذوفات جبل سروا إلى سمك يتعدى 1000 متر، وتنتمي إلى أنواع صخرية يمكن تجميعها في وحدتين أساسيتين: الأولى هي القُبية (Trachytique) والوحدة الثانية هي الظنانة (Phonolitique).

ويتضح جليا أخيرا أن بركان سروا يوجد، كشبيهه بمنطقة أوفيرن Auvergne (بفرنسا)، فوق كتلة گرانيتية وبلورية ينتمي للأراضي المسطحة لآيت خزامة، حيث التكوينات في جميع المنطقة شبيهة بقاعدة بركان أوفيرن، بالهضبة الوسطى لفرنسا.

الكرطغرافية الجيولوجية

أنجزت الخريطة المرفقة لهذا التقديم الاستراتيغرافي والبيتروغرافي حول الأطلس الكبير الغربي، اعتمادا على المقاطع التي أنجزتها، وعلى الوثائق التي نشرها باحثون سابقون. ولا يمكن التفكير، أنه خلال هذا الوقت الوجيز الذي خصصته للبحث في الأطلس، أنني أستطيع إنجاز خريطة كاملة لهذه الأراضي الشاسعة. وكنت مضطرا أن أحدد في مساري، بدقة، الملامح الجيولوجية التي قطعتها، وأن أرفق ذلك برسومات تسمح لي ببسط أكثر، يمينا ويسارا في طريقي، "لبروزات" مختلف الأراضي.

واعتقد-بالرغم من أن رحلاتي لن تكون نهائية بالتأكيد- أن عمليات المسح الجيولوجي التي قمت بها يمكن دائما استعمالها بشكل متناسب مع التطور والتحديث الذي يقع على الخريطة. يكفي، في الواقع، تعديل رحلاتي بعدد من الوقفات المحددة لوضع ملامح جيولوجية نهائية للمنطقة.

ودعمت المعطيات التي حصلت عليها بالرسومات الجيولوجية التي نشرها باحثون سابقون مثل : "طومسون"، و"بريف"، و"بول لوموان"، أجريت بعض التعديلات على هذه التجارب خصوصا الخريطة الأولى لـ "بريف". واحترمت بصرامة آثار زميلي بمنطقة الأطلس، لم أتمكن شخصيا من زيارتها، لكن أعتقد أنه ينبغي، في هذه المناطق، تتميم هذه الخطاطات أو تعديلها عندما تكون خريطته غير متناسبة مع النص الذي يسرده.

واستخدمت أيضا المعطيات التي نشرها بعض المستكشفين البارزين أمثال: "فوكو"، و"طومسون"، و"دو سيگونزاك"؛ ولم أهمل أبدا، وأنا أقطع أسرة المجاري المائية النازلة من أعالي السلسلة، جمع كل الصخور والأحجار المتدحرجة داخل الأودية. ولم تكن هذه المنهجية هامة كما لم تكن سيئة كما يبدو، إلا أنها أعطتني بعض النتائج الهامة؛ لأن هذه الصخور الرسوبية المتدحرجة يمكن أن تعبر عن خلط كبير من ناحية وجهة نظر الكرطغرافية، في منطقة حيث السحنات نفسها توجد غالبا في مستويات مختلفة، على النقيض من ذلك فالصخور الاندفاعية والمتحولة التي جمعتها لا تترك أحيانا أي شك محتمل عن الموضع التقريبي لأصل هذه الصخور، بسبب موقعها شبه الدائم بالجزء الأكثر ارتفاعا من سلسلة الأطلس.

ولا تزال أيضا بالأطلس الكبير الغربي بعض المناطق التي لا يمكن إعطاء خريطة جيولوجية ولو مختصرة عنها ؛ لكن هذا الخصاص عولج بشكل شبه كلي بالكتلة القديمة، وقد رأيت تمثيلها بلون يشير إلى أن "الزمن الأول غير محدد".

التكتونية (البنائية)

وردت أولى الإشارات حول تكتونية الأطلس الكبير عند أعضاء البعثة الإنجليزية لهوكر، بال وخاصة ماو -جيولوجي البعثة-، الذي أنجز مقطعا يمتد من الجبيلات، مرورا بسهل الحوز وصولا إلى مرتفعات تيزي نتغات حيث يظهر منه أن الكلس والصلصال الكريطاسي أو المنتمي للزمن الثالث للسهل يشكل أكمات دائريةا.

وتعد ملاحظات ج. طومسون هي، من وجهة نظر بنية الأطلس، هامة كثيرا. ومن أولى ملاحظاته إشارته، بمنطقة الجبيلات وبمقدمة التلال الأطلسية، إلى وجود الشيست ذو ميلان عمودي باتجاه شمال، شمال، شرق (السلسلة الهرسينية)؛ ويعطي بعد ذلك سلسلة من ستة مقاطع عرضية، ما بين خط طول دمنات وماغوسة، وهي مقاطع قادرة على التأسيس لأكبر خلط من وجهة نظر الاستراتيغرافية، لكن على النقيض من ذلك فهي تعطي فكرة تقريبية عن شكل الطبقات، حيث تظهر اتصالا بواسطة انكسار بين الكريطاس والزمن الأول على السفح الشمالي؛ ويصر طومسون هو أيضا في هذا الجانب على بنية الأطلس الكبير. وحسب بلانك هورن وأوسكار لينز فإن الالتواءات بأطلس المغرب بدأت على ما يبدو منذ الزمن الأول وانتهت، في معالمها الرئيسة، عند حقبة الزمن الثالث. ويجزم ثيوبالد فيشر بوجود طيات الزمن الأول باتجاه شمال، شمال، شرق، وهي الطيات التي اشار إليها طومسون في ما أسماه بفورلاند الأطلس الكبير.

ويشير بريف أولا إلى امتداد الطيات الهرسينية الملاحظة بأقصى الشمال كما ذكر طومسون وفيشر، لكنه ينفي وجود أي أسلوب التوائي آخر؛ ثم يعترف بوجود أربع طيات محدبة، موازية بدقة داخل المنطقة الساحلية الكريطاسية وحيث يعطيها اتجاه غرب - شرق أو شمال- جنوب، وينطبق الشيء نفسه على طيات الجهة الشمالية للأطلس الكبير.

وتحمل الرحلات التي قمت بها و بول لوموان في الوقت نفسه بسلسلة الأطلس الكبير هذا المفهوم الجديد حيث تتراكب الطيات الهرسينية مع طيات حقبة الزمن الثالث.

ولا يعتقد بول لوموان أن الزمن الأول أسهم في حركات حديثة، ويضع فرضية كون الدرجة الأولى للأطلس تتناسب مع طية نائمة (أو مستلقية)

ويُلح بريف بعد ذلك على دور الانكسارات التي أشار إليها طومسون، ويرجعها، في أغلب المناطق، إلى الانهيارات المحلية الناتجة عن تحلل الجبس الترياسي، لكن يظهر أنه لم يكن على علم بملاحظات الباحثين السابقين؛ ويعترف هذه المرةبطيات الزمن الثالث، ويخلص بالرغم من عدم مروره بالجهة الجنوبية للسلسلة، إلى أن "الأطلس الغربي عبارة عن هورست قاوم اللإلتواء الألبي،

وكان من نتائج هذه المقاومة هو تحوله إلى انكسارات، عند اتصال هذه الكتلة بطيات الكريطاسي أو الزمن الثالث والتي تتلاقى في الجهة الشرقية". وقد أكد المؤلف نفسه هذا الاستنتاج في عمل حديث جدا.

- الحركات الأولى للزمن الأول : تؤرخ الحركات القديمة جدا المعترف بها بشكل واضح بالأطلس، وسوف نعمل على التحقق منها، بالكربوني/ الفحمي الأعلى. وحاولت في مختلف التحركات التي قمت بها داخل السلسلة، أبحث عن عدم وجود آثار التواءات ما قبل العصر الديفوني، في وجهة النظر هاته، أنا مرتبط بملاحظة تطابق/تراكب السيلوري والديفوني.

ولسوء الحظ، فإن اتصال هذين المستويين غالبا ما يكون اتصالا غير عاد، لكن أدهشتني حقيقة كون الكوارتزيت الأردوفيسي والشيست يبدوان أكثر التواء من توضعات الديفوني والدينونيتي، ثم إن السيلوري والديفوني يحدثان أحيانا على مسافات قليلة، كما هو الحال عند فج بيباون وعلى الجهة الجنوبية للسلسلة، التواء في اتجاهات مختلفة..

وسوف يتأكد وجود سلسلة كاليدونية تفصل هذين المستويين كما أشار بريف، إلى الحث عند القاعدة في منطقة سيدي فارس، وفي واد أوريكا، برصاف يبدو انه يتميز بوجود رصيص القاعدة عمرا بحريا وتنافرا زاويا للديفوني على السيلوري. لكن هذه المعطيات تبقى لحد الآن غير موثوقة بالنسبة لنا كي نؤكد حركة ما قبل العصر الديفوني التي أدت إلى تشكيل هذه السلسلة الأولية. ويكون من السابق لأوانه الحديث عن سلسلة كاليدونية في الأطلس، فمن الواضح، عكس ذلك، أن السلسلة الهرسينية تركت آثارا واضحة هنا. ونجد دلائل كثيرة شرق فج بيباون وإلى ما وراء تلوات عن تكون سلسلة قديمة تعود للزمن الأول. وقد تأثر السيلوري، الديفوني والكربوني/الفحمي الأسفل (الدينونيتي)، بالانتهاض التكتوني آنذاك.

ويظهر السيلوري في كل الأنحاء ملتويا جدا، على شكل طبقات جد مائلة إلى عمودية وفي كثير من الأحيان منقلبة يخترقها الكواررتزيت والأردوفيني التحتي. وأجد طبقات الديفوني أيضا ملتوية في كل الأماكن وتعطي غالبا، مع الدينونتي الذي يعلوها، وثيرة السيلوري نفسها.

ونرى هذه الالتواءات التي نصادفها في كل الأماكن، حيث تبرز أراضي الزمن الأول للكتلة القديمة للسلسلة، أكثر وضوحا شرق فج الگلاوي، حيث يظهر الزمن الأول مغطى بالجوراسي.

وكانت الرحلة الاستكشافية التي قمت بها ما بين دمنات وسهل سكورة ذات أهمية قصوى إذ سمحت لي بملاحظة واضحة تنافر التوضعات الرملية للبرمي فوق الدينونيتي الأحفوري. ويظهر هذا التنافر غالبا ما بين القمم الأخيرة للسلسلة والسهل، خصوصا عند آيت إغرنان. نرى البرمي يبتدئ برصراصة في القاعدة تتوضع فوق طبقات كلسية جد مائلة، مؤرخة بواسطة حيث Productus pustulosus. حيث ترجع إلى الفيزي ويتميز شست مولاي ابراهيم في الغرب بحفريات تعود للحياة البرية، وهو شست مغطى، بدوره، بلا تطابق واضح مع البرمي الذي يبتدئ أيضا، عند واد رغاية برصاف قاعدي.

وجدير بالملاحظة من جهة أخرى، كون توضعات البرمي - ترياسي لم تكن أو كانت على الأقل معنية بالنتهاض التكتوني الأخير للسلسلة الهرسينية. وانحصرت الحركات الأساس لهذه السلسلة إذن ما بين نهاية الدينونيتي ومستوى برمي -ترياسي، وهو مستوى لا يمكن تدقيقه إلا باستكشافات مستحثاتية لاحقة.

ويمكن على العموم، أن نستنتج أن السلسلة الهرسينية لجنوب المغرب هي سلسلة معاصرة مقارنة مع سلسلة العصر الفحمي بأوربا الوسطى والغربية.

وتتخذ طيات العصر الفحمي بالجزء الغربي للأطلس الكبير عموما اتجاه شمال، شمال - غرب، وهو الشيء نفسه الذي أشار إليه كل من طومسون، وبريف ثم بول لوموان، وأشرت شخصيا أيضا إلى ذلك في السلسلة المحورية العليا. لكن هذا الاتجاه بالنسبة للطيات بعيد عن التناسق الذي أعطاه إياه بريف. وهكذا يعدل هذا الاتجاه بنواحي فج بيباون نحو الشمال بل أكثر من ذلك نحو الشمال الغربي. وتتخذ هذه الطيات في مجموعها اتجاها هرسينيا (ش ش ش ج ج غ)

تأخذ هذه الطيات شرق فج الگلاوي اتجاها هرسينيا واضحا، وتتوافق القياسات التي قمت بها ما بين دمنات وسهل سكورة، خصوصا عند آيت ميدوال Mdioual، لتعطي لسلسلة العصر الفحمي لهذا الجزء من الأطلس اتجاها يقارب اتجاه شمال- غرب، جنوب- شرق.

وتتجه الطيات الأولية في منطقة وسطى بأيت زينب غرب تيكيرت من الشمال نحو الجنوب، إلى درجة تبدو معها مختلف فروع السلسلة الهرسينية متقاربة جدا في اتجاه نقطة نتوء تشمل تقريبا المنطقة غير المعروفة من جبل بو غيول وجبل تيديلي غرب تلوات. وبالرغم من كونها غير معروفة، يظهر أن هذه المنطقة متحولة جدا استنادا إلى كثرة الحصى المدملك الآتي من مرتفعات كل أودية جهتي السلسلة، والتي كنت مهتما جدا بدراستها؛ علاوة على ذلك، فالامتداد الجنوبي لهذا الجزء من الأطلس، داخل آيت تماسين، متحول كليا. ولا يمنعنا أيضا هذا من شرح هذا التحول الشديد وربطه بالتقاء طيات السلسلة الهرسينية.

ويبدو جليا أننا هنا في نقطة ضعيفة من القشرة الأرضية، ظلت حتى وقت متأخر نتيجة للأحداث بركانية هامة في حقبة البرمي والترياس ثم، في حقبة الزمن الثالث. ويبدو أن نشأة البراكين الكبرى بسروا له علاقة بتقارب الطيات الهرسينية لجبل بوغيول، كما سنرى ذلك لاحقا. يظهر لي أخيرا من الهام الإشارة إلى كون طيات السلسلة الهرسينية، في العموم، انقلبت نحو الجنوب، بمعنى نحو جنوب- شرق السلسلة المنتمية للعصر الفحمي. ويلاحظ هذا الانقلاب بوضوح، خاصة، عند الجهة الجنوبية للأطلس الكبير، ما بين فج بيباون وأحد منيزلة؛ ثم بجنوب تيزي ن تاست، وأخيرا بآيت أملي، الواقعة جنوب فج آيت ميدوال.

ونجد أن التعرية -بعد رفع السلسلة الهرسينية- التي بدأت أصلا منذ بداية تكون هذه السلسلة، عملت تدريجيا على خفض خطوط الأعراف، مما أدى إلى تكون سطيح عام ممتد على مساحات شاسعة، تغطي كل الموقع الحالي للأطلس الكبير الغربي في كل الميسيطا المغربية في الشمال.

وسطحت التعرية أيضا السلسلة القديمة، تاركة مساحة موحدة تقريبا، مما أدى إلى بروز صخور صلبة مثل كواتزيت السيلوري. وعرفت هذه السطوح تحولات جيولوجية أو جيومرفولوجية عميقة بالمنطقة المحورية للأطلس الكبير، لكن يبدو أنها ظلت محفوظة جنوب الأطلس.

وتعتبر هضبة آيت خزامة، وسهل آيت تماسين، ومنطقة آيت مارلي وآيت عبد الله، حيث تصل الارتفاعات حوالي 2000 متر، جزءا من هذه السطوح. وتستمر في اتجاه الغرب بمقذوفات براكين الزمن الثالث لجبل سروا، في حين نجدها تختفي شمالا تحت الحِمم والصخور البركانية، والمؤرخة بأواخر الزمن الأول، أو بداية الزمن الثاني.

ويستمر تسطيح الزمن الأول شمال الأطلس داخل كل الميسيطا المغربية، التي تشكل الخاصية الجيومرفولوجية لهذه المنطقة. وتظهر بمنطقة صخرة أولاد سعيد، بنسليمان، والمداكرة (الشاوية)، وتستمر أيضا عبر أراضي زعير إلى حدود قدم الأطلس المتوسط وآخر تجاعيد الريف. ونجد هذه السطوح في أماكن أخرى مغطاة بنظام منضدي كريطاسي، كما هو الشأن بالنسبة لحوز مراكش أو الميسيطا المغربية، أو مغطى بنظم الزمن الثالث النيوجيني، كما هو الشأن بالمنطقة الساحلية.

وتكونت توضعات البرمي، الحطامية أساسا، والسيلية أحيانا، تحت مناخ مداري، بمواد آتية من تفكيك السلسلة الهرسينية؛ في حين لازلنا نستشعر الحركات الانتهاضية (Orogénique) التي أفضت إلى ذلك بشكل طفيف جدا.

وفي الواقع، فإنه من المستحيل أن نعترف، مع بريف - الذي صَور البرمي وكذا جميعالطبقات الأخرى للزمن الأول بالسلسلة العليا، كأحزمة متوازية بانتظام بياني إلى حد ما - كون التوضعات الحمراء لنهاية الزمن الأول تعرضت للإلتواء في حقبة الفحمي نفسه : فاللاتطابق الزاوي الواضح جدا، والثابت في الزمن الأول يبرهن عن التناقض التام مع تلك الملاحظة التي أتى بها بريف.

وما يمكن أن يعطي شبه حقيقة لإدعاء زميلي من الجزائر، هو كون التوضعات الرملية بقاعدة البرمي - ترياس قد ملأت، في بعض الحالات، المنخفضات المقعرة للسلسلة الهرسينية أو الأودية ما بعد الدينونيتي وحيث الحفر كان موجها، في بعض النقط، بتكتونية هذه السلسلة القديمة؛ وحيث الطبقات تبدو ظاهريا خطية وفق طيات الفحمي. لكن إذا كانت ملاحظة هذه الظواهر تبدو صعبة بعض الشيء في السلسلة العليا، فإنها، عكس ذلك، تبدو واضحة بالميسيطا المغربية وحيث تاريخيا لا يمكننا فصلها عن الأطلس الغربي، لا سيما بمرحلة الزمن الأول التي تهمنا في هذه اللحظة. ونرى عند وادي أم الربيع، خصوصا بنواحي مشرع الشعير، الطبقات الحمراء للبرمي- ترياس متموجة قليلا، بتناقض مع الاتجاه المتقلب جدا للأراضي التحتية في بالالتواءات الكبرى لسلسلة الفحمي. بينت، زيادة على ذلك، أن الحث الأحمر المختلط بالكوارتز الهرمي يتشابه كثيرا مع الترياس الأعلى، و الذي يعلوه، على العكس، الترياس الأعلى الأحفوري، ذو الاتجاه الأفقي. هذا يعني أن تسطيح الميسيطا المغربية، وبالتالي أيضا الأطلس الكبير الغربي الذي يوجد على امتدادها، قد تشكلت قبل نهاية الترياس. ومن المحتمل جدا أيضا أن نشأته كانت قبل بداية الزمن الثاني.

1. حركات الزمن الثاني: يبدو من السابق لأوانه جدا الحديث عن حركات الزمن الثاني في هذا الوقت من ملاحظاتنا داخل الأطلس الكبير. لكن تدعونا بعض الحقائق إلى أخذ هذه الحركات بعين الاعتبار.

وإذا ألقينا نظرة على الوصف الجيولوجي المرافق لهذا العمل، سنفاجأ بالغياب الكلي للجوراسي ما بين واد آيت موسي وواد ردات، على امتداد يتجاوز 120 كيلومتر. لكن لا يمكننا بالتأكيد أن نعلن أن بعض الأجزاء من توضعات الزمن الثاني، داخل هذا المجال، تنتشر على الجوانب أو على قمم السلسلة، ويرجع ذلك إلى غياب خرائط جيدة، وكذا عدم كفاية المقاطع والملاحظات الجيولوجية؛ لكن هل اختفى الجوراسي كان دائما منعدما بشكل تام بهذا الجزء من السلسلة قبل توضعات الكريطاسي. غير أنه، في أي مكان أصادف فيه الجوراسي سواء في الشرق، ما وراء فج تلوات، أو بالمنطقة الساحلية على الحدود الغربية للسلسلة، تظهر هذه الأراضي (أراضي الزمن الثاني) بنفس السحنات؟

نستنتج من ذلك كون التكوينات الجوراسية غَطت كل الأطلس الغربي ولا يمكن تفسير وجود هذه التوضعات إلا بإبراز الجزء التابع للسلسلة. والذي يدعم فرضية الحركات الجوراسية هو السحنات البُحيرية أو الساحلية للكريطاسي الأسفل على واجهتي السلسلة؛ في حين نجد هذه السحنات ضَحلة، أحيانا قَعيبية، عند الحدود الغربية، بمنطقة إدا وتنان. ويمكننا ملاحظة طغيان السينوميني في كل الأماكن، و يظهر هذا المستوى بُحيريا حتى الآن في بعض النقط من الجهة الشمالية للأطلس الكبير.

2. حركات الزمن الثالث: تتابع الطيات الهرسينية بشكل واضح على طول الأطلس مع طيات الزمن الثالث، أحيانا بشكل جد ملحوظ، وتظهر كثافة هذا التتابع بالجزء الواقع شرق واد غدات؛ وهي ليست أقل وضوحا ما بين هذه المنطقة من گلاوة والمحيط الأطلنتي. أخيرا كانت لحركات الزمن الثالث تداعيات على شمال وجنوب سلسلة الأطلس. وإذا قمنا باجتياز السلسلة المرتفعة من الشرق نحو الغرب، سنلاحظ أولا سلسلة بارزة من المحدبات والمقعرات الجوراسية. وقد تتبعنا في ذلك في مقطع أنجز بين دمنات وسهل سكورة، لا تجاه خطوط الطول تقريبا، ويظهر هذا المقطع بالتتابع:

1. محدب دمنات: حيث القبة الجوراسية والكريطاسية محفورة بالتعرية من دمنات إلى حدود ما وراء واد غدات في اتجاه الغرب، لتسمح بظهور الحث البرمي- ترياسي مع الصخور البركانية. ونلاحظ أن هذه الطبقات الحمراء لها تقريبا اتجاه التواء الزمن الثاني نفسه الذي يغطيها. وتظهر الجبهة الشمالية لهذه الطية أكثر ميلا من الجبهة الجنوبية.

2. محدب إغيل أنصور: مفصول عن المحدب الأول بالهضبة المقعرة لإيفيري، والتي تُظهر الجوراسي مغطى بالكريطاسي الأسفل. ويظهر وادي إغيل أنصور، تبعا لمحور هذه الطية، البرمي مع صخور بركانية.

3. محدب تيريلي: يظهر وادي تيريلي بالكامل الشيست السيليري وكدا رِصاف وشست البرمي، داخل نواة طية جوراسية. يبدو لي أن البرمي- ترياسي لم يتأثر بالتواء آخر غير ذلك الوارد في الجوراسي.

لأن السفوح الشمالية لهذه الطية لها قوي أكثر من الجهة الجنوبية من الجبهة الجنوبية، وهي منفصلة عن محدب إغيل أنصور بطية انكسارية اخترقت الصلصال المُلون والجبس الملحي للترياس البُحيري.

4. المنطقة المحدبة لآيت مديوال: ونجد الجوراسي إلى ما وراء واد تيريلي وإلى حدود القمة الأخيرة للأطلس التي تُشرف على سهل سكورة، يشكل محدبا شاسعا حيث الجبهة الشمالية تَظهر عند مخرج خوانق السهل الأعلى لواد تيريلي، وهي جهة أكثر ميلا، ممتدة ومنفصلة عن محدب تيريلي بطية انكسارية. وتُظهر هذه المنطقة المحدبة عدة طيات جوراسية.

هناك خاصية مشتركة ما بين كل الطيات الموازية للاتجاه العام للأطلس، تتمثل في قوة الميلان الواضحة للجبهة الشمالية مقارنة بالجبهة المُقابلة، وكذا تراكب الطيات وتداخلها، يدل كل ذلك على دفع عام نحو الشمال خلال الزمن الثالث.

وتتكون الأجزاء العليا من السلسلة ما بين فج تلوات وفج بيباون أراضي الزمن الأول استثناء، كما توضح ذلك الخريطة الجيولوجية المُرفقة بهذا العمل، ولم يكن هذا الحدث ليخفى على ملاحظ فَطِن كطومسون. على النقيض من ذلك، فإن هذه المنطقة، الأكثر بروزا بالأطلس الكبير، محاطة في جميع الجوانب بأراضي الزمن الثاني؛ وتمثل -نوعا ما- الكتلة الوسطى التي تتقاسم في الوقت نفسه الخصائص الاستراتيغرافية والتكتونية لأراضي الزمن الأول. لكن هذه الأراضي تحمل أيضا بصمة حركات الزمن الثالث، التي تمكنت من تغيير الاتجاه العام للطيات الهرسينية.

وإذا ركزنا بشكل خاص اهتمامنا على وتيرة الحث الأحمر للبرمي والترياس وخصائصه، فسنجد أنفسنا، في الواقع، مذهولين برؤية هذه التكوينات تمس اتجاهات تتقاطع بشكل واضح مع طيات تعود صراحة للفحمي.

ونجد البرمي داخل وادي غيغاية – ترياس ملتويا باتجاه شمال، شرق، شرق - جنوب، جنوب، غرب، بمعنى أنه يأخذ اتجاها موازيا للاتجاه العام للسلسلة؛ أيضا، وعلى الحدود الغربية للكتلة الوسطى للأطلس، وتحمل هذه الطبقات الحمراء آثارا لطيات باتجاه شرق- غرب، يظهر أنها تستمر تحت الغطاء السميك لأراضي الكريطاسي بالمنطقة الساحلية.

يتقدم إجمالا، البرمي - ترياس، داخل الكتلة الوسطى للزمن الأول، كما هو الحال في الشرق حيث وجدنا تأثره بالتواءات الزمن الثالث، على شاكلة التوضعات الجوراسية نفسها ؛ وتختلف فقط حدة ظاهرة الالتواء.

وتبين الحدود الغربية للأطلس سلسلة من الالتواءات تعود للزمن الثالث وهي التواءات رفعت الجوراسي وأحيانا البرمي - ترياس عبر الأراضي الكريطاسية. ونجد من بين هذه الطيات، أن بعضها ينتمي للأطلس الكبير، وأخرى تنتمي للنظام المنضدي للكريطاسي وإيوسين شمال السلسلة.

ونجد محدب رأس إغير في أولى الانحناءات من مرتفعات الأطلس إغير، ثم محدب بحواشي أگادير ن إغير، ثانيا.

- محدب رأس إغير: يظهر هذا المحدب بشكل جلي داخل الصلصال- الكلسي. ويُظهر جبهات أحادية الميل منفصلة بواسطة جزء شبه أفقي يشكل قمة الطية. وتمتد توضعات الكريطاسي شمالا وجنوبا، تاركة المجال لبروز الجوراسي على مساحات شاسعة كلما ابتعدنا عن الساحل؛ في حين تقودنا الحدود الغربية للطية نحو رأس أفرني أو رأس غير. وتُشكل هذه الطية سلسلة أزور التي يبرز بعدها جبل تزناخت، جبل أكوركا ثم جبل توكرو... إلخ. ويُظهر منخفض أنكلوت، تبعا لمحور الطية، الحث الأحمر للبرمي - ترياس مصحوبا بالصخور البركانية التي تأثرت بالحركات نفسها. وتعتبر الجبهة الشمالية لمحدب، والمتجهة بشكل محسوس باتجاه شرق- غرب، أكثر ميلانا بل ومتجهة نحو الشمال في نفس الوقت.

- محدب أگادير ن إغير: الواقع أقصى الجنوب، يتخذ ظروف المحدب السابق نفسها، لكن الصلصال الكلسي للجوراسي، الذي يبرز في عالية وادي تامراغت، وجبل لگوز، لا يصل لحدود الساحل بل يغور تحت توضعات الكريطاسي (السينوميني) على بعد كيلومترات شرق أگادير. بينما يبدو اتجاه هذا المحدب شمال- شرق- شرق، جنوب – غرب - غرب.

إنه من الهام الإشارة إلى كون طيات كاب غير وأگادير تُظهر انخفاضا محوريا بأكثر من 2000 متر، وهو انخفاض أكثر شدة انطلاقا من مرتفعات إدا و زيكي؛ حيث نراها تغور تحت مياه المحيط. ويشكل هذان المحدبان امتدادا لسلسلة الأطلس الكبير، التي ينبغي اعتبارها مُنخسفة تحت الأطلنتي، ما بين رأس غير وسهل سوس. ويمتد مقعر شاسع ما بين هذين المحدبين وعميق شيئا ما، وحيث يظهر تطور توضعات الكريطاسي، منذ الهاتريفي (Hauterivien) إلى حدود السينوني. ويتميز الخط المهيمن لتكتونية المنطقة الواقعة مباشرة شمال مرتفعات السلسلة بالتناضد الواضح، بطبقات أفقية إلى حد ما، للكريطاسي والزمن الثالث الأسفل. ويلاحظ هذا التناضد أساسا في أقصى المنطقة الغربية للسهل الكبير لحوز مراكش، وهو ما يعطي لهذه المنطقة من المغرب خاصيات المناطق ذات الهندسة المنضدية. وسبق أن لاحظت هذا التناضد الأفقي للكريطاسي، والذي أشار إليه هوكر، وبعده طومسون، وأكده بريف وبول لوموان.

الوادي الفحمي لتامزيرت وجبل أنرمر

سهل الگور الكريطاسي لآيت زينب (أعالي واد درعة)

ويمكن لطبقات الكريطاسي الأكثر ارتفاعا (الكلس)، في بعض الأحيان أن يعلوها الإيوسين الأسفل الذي يظهر على شكل أرصفة كلسية مغطاة بتوضعات البليستوسين القليلة السمك، كما يمكن أن نجدها بارزة على مساحات شاسعة. وتمثل أيضا درجات معزولة عن طريق التعرية على شكل تَبْرة (Gou)، وهو أكمة مسطحة ذات أجراف حادة وتوجد هذه التَبْرات بوفرة بسهل سيدي عبد المومن، وهي تشكل أيضا جبل تلدا؛ لكن المنطقة المنضدية ليس لديها هذه الانتظام في جميع أنحائها، حيث تقطعها مجموعة من الطيات. ويخرج محدب بوزركون فجأة من السهل ويشكل السلسلة الصغرى والتي أعطيتها إسم تلال بوزركون. ويزداد ميلان الكلس الكريطاسي الذي يبرز بالسهل ليصل إلى 45° ليأخذ، في قمة الطية، موقعا شبه أفقي في الجهة الأخرى للسلسلة.

ويبدو هذا المحدب الذي يأخذ اتجاه شمال -شرق، جنوب- غرب، أنه ينتهي بغوص هامشي للطبقات في الاتجاه الشمالي الشرقي، ليرتبط، في الجنوب الشرقي، بالهضبة المنضدية لإداوثاللث. ونجد طية، على الأرجح، متشابهة التكوين بمنطقة أولاد بوصباح، والتي تشكل محدب مرامر. وتترافق هاتان الطيتان بعدد من االقبت المحدبة الضيقة داخل المنطقة الكريطاسية.

وينبغي أن نربط بالمنطقة الساحلية من بين هذه الحوادث، محدب تَگرگرة حيث السفوح تتكون أساسا من الكريطاسي (السينوميني... إلخ) والتي تعطي الفرصة لبروز، تبعا لمحور الطية وبفعل التعرية بواسطة واد تَگرگرة، الصلصال المنقوش والذي يعود للترياس.

وإذا اتجهنا أكثر نحو الجنوب يظهر محدب رأس تَفتنش، الشيء الذي أدى لبروز الصلصال-الكلسي الجوراسي لجبل أمسيتن من خلال توضعات الكريطاسي الأسفل. وتأخذ هذه الطية نشأتها من منطقة إإمگراد لتتجه بشكل محسوس باتجاهٍ شرقي- غربي نحو رأس تَفتنش. وتُظهر في مركزها تكوينات الترياس الملحي لإدا وإكرن. وتعطي بنية بوزركون نفسها وحيث سفوحها الشمالية أكثر ميلانا للطبقات بل منقلبة أحيانا. وتشكل قمة هذه الطية هضبة تگانت.

وتتشكل أخيرا بالشمال الغربي للمنطقة المنضدية التي تضم جبل حديد وجبل كورات، قببات محدبة متشابهة مع تلك التي درسناها من قبل.

ويعتبر بريف كل ذلك نتيجة تِشكل عن طريق طبقات صدفية، في حين يعترف بول لوموان، بدلائل، بالعمر الجوراسي للكلس المشكل لقمة الجبل.

وإذا قمنا بمقطع مُستعرضي لجبل الحديد نرى الكلس يشكل محدبا يتجه نحو شمال، الشمال الشرقي، حنوب - الجنوب - الغربي، وحيث السفح الغربي، كما أشار إلى ذلك بريف، جد مائل إلى الحدود العمودية لينقلب في اتجاه الشمال الغربي. وتشغل محور الطية، الذي ينتهي في الجنوب الغربي لجبل حديد وفي الشمال الشرقي لجبل كورات بانخساف هامشي لهذه الطبقات تحت تكوينات الكريطاسي، تكوينات الحث الأحمر والترياس الملحي. في الشرق، نرى طبقات الجوراسي لهذا المحدب، تعلوها طبقات الكريطاسي الأسفل و الأوسط، وتتصل بانثناء مع الطبقات المنضدية

لأولاد بوصباح. وترافق الهندسة التي قمنا بوصفها بشمال الأطلس انكسارات، مشابهة لكل الأراضي ذات الهندسة المنضدية.

فوجئ طومسون بوجود انكسارات بالجبهة الشمالية للأطلس، باتجاه عام مواز لاتجاه السلسلة. وهي انكسارات يُوردها في مقاطعه التي تحمل أيضا معطى هام حول بنية الأطلس الكبير.

وأهمل بريف في البداية دور هذه الانكسارات في مقاطعه الأولى وكذا في الخريطة التي قدمها حول كريطاسي غرب المغرب؛ و عمل على تصحيح هذا الإهمال في عمله اللاحق حيث أولى اهتماما خاصا لانكسار ماروزا.

واندهشت في يناير 1905 بوجود هذه الانكسارات الكبرى، ويتضح ذلك من خلال رسائلي الموجهة إلى أستاذي القدير هوك. لم أتعرف فقط على انكسارات الجهة الشمالية للسلسة ولكن لاحظت أيضا في السفح المُشرف على سهل سوس تشققات عديدة لا تقل أهمية عن هذه الانكسارات.

وتتشكل أولى التلال السفحية للأطلس، بحواف السهل الكبير للحوز، من الأراضي الكريطاسية والتي تشكل حزاما ممتدا شيئا ما، بما يقارب عرض 15 كيلومتر، وبارتفاع ينحصر ما بين 1200 إلى 2000 متر. وينتج اختلاف مستوى أراضي الزمن الثاني مقارنة بالسهل، إما بطيات أحادية الميل، تبعا لنزول بدون انقطاع للمناطق المتهدلة، أو بانكسار. وتبقى الحالة الأولى هي السائدة.

وتتكون مقدمة الأطلس من طبقات الكريطاسي عند هواش سهل الحوز التي تتخذ ميلانا قويا، ثم تتخذ بعد ذلك وضعا أفقيا في اتجاهها نحو محور السلسلة الجبلية، ويتم تماسها مع القاعدة الأولية من طريق الانكسارات كما هو الشأن لانكسار ماروزا الذي أشار إليه طومسون. يعمل هذا الانكسار على قطع واد غيغاية وواد غدات ويبدو أنه يستمر، في الشرق، عبر الطية - الانكسارية التي تحد جنوبا محدب تيريلي.

ويجب أن يكون مدى هذا الانكسار الكبير هاما لأننا نرى من بعيد انحدارا فجائيا بارتفاع يصل لمئات الأمتار، يشكل، بآيت إيرن/إيغن، التلال السفحية لجبل ليكومت. ولن أفاجأ بكون هذه الجدران المرتفعة تمثل المرآة الجنوبية للانكسار الكبير لماروزا.

وتعطي الجهة الجنوبية للسلسة بنية متجانسة. فبالنسبة للكريطاسي فإنه يشكل حاشية مشرفة على سهل سوس ترتفع فوق هذا السهل بلَيّ هذه الأراضي المنتمية للزمن الثاني. وتظهر على الضفة اليسرى لواد تالكجونت، هذه الأراضي تتابع لطيات متداخلة ومُنقلبة نحو الشمال. ولا يزال الكريطاسي متاخما ومحاذيا بواسطة انكسار للكتلة القديمة، ويظهر أن هذا الانكسار الكبير يستمر في الشرق، بواسطة عالية وادي أكونديس، وقد أشار لهذا الامتداد أيضا طومسون. أسفل جبل ليكومت حيث يعطي هذا الانكسار إشرافا أو فارقا ارتفاعيا يصل ألف متر فوق سهل أيت خزامة.

ويستمر هذا الانكسار ربما إلى حدود منطقة تلوات؛ لكن من هذا الجانب يظهر على الأرجح أن الكريطاسي يتوضع، فوق الزمن الأول ليَميل في اتجاه سهول درعة حيث يأخذ، كما هو الشأن بالنسبة للحوز، وضعا أفقيا.

ونصادف النظام المنضدي نفسه، بتُبراته (Gour) المتميزة، ويبدو أنه يمتد على امتدادات شاسعة في اتجاه المناطق الصحراوية وتافيلالت.

ويبدو من المحتمل جدا كون جبل صاغرو، -الذي اعتُبر امتدادا للأطلس الصغير في اتجاه الشرق- ينتمي إلى هذا النظام المنضدي للكريطاسي ولا يمثل سلسلة بل هضبة أو سلسلة من الهضاب.

ومن الممكن أن نستشف من الحقائق السابقة، بعض الاستنتاجات العامة:

- تكوّن سهل التسطيح، بدأ في نهاية العصر الفحمي منذ رفع السلسلة الهرسينية، وتلاه تجزء هذه السلسلة بشكل متزامن مع انفجارات بركانية مهمة، بدأت خلال البرمي واستطاعت أن تمتد إلى حدود حقبة الترياس؛ في حين نجد أن المنطقة الواقعة في الشمال ظلت على حالها وبرزت عند نهاية الرِيتي لتشكل الميزيتا المغربية.

وكان الموقع الحالي للأطلس الكبير قد اجتاحته بِحار الجوراسي حيث تظهر الرواسب، الضَحلية أساسا، تشكيلات قَعيبية (Bathyale) قبل نهاية هذه الفترة.

وبرز كل ذلك في هذا الوقت، إما بحركات عند بداية الكريطاسي، وإما بتشويه التوضعات الجوراسية، وسُوِي تماما مع المجال الواقع ما بين فج بيباون وفج تلوات. وكانت هذه الجزيرة البارزة -التي أسميتها الكتلة الوسطى للأطلس- محاطة، على الأقل في جهاتها الثلاثة، ببحار الكريطاسي الأسفل التي خَلفت في جزء كبير مجموعة من التوضعات الرملية، أحيانا ساحلية وغالبا ما تكون بحيرية. ويجب التنقل إلى الحدود الغربية أو إلى الشمال الغربي من السلسلة للعثور على التكوينات الضحلية، الغنية بالرخويات والشوكيات، وهو أمر يُظهر اتجاها قَعيبيا في بعض النِقط، خصوصا في العصر الأبتي (المستوى الرابع من الكريطاسي). ويبدو جليا أن بقايا الحيوانات البحرية المنتمية للكريطاسي الأسفل، والتي قمت بتجميعها من هذه المناطق وحيث أن الدراسة قد أنجزت بشكل دقيق من قبل M. W. Kilian، تتطابق بالحواشي الجنوبية للقعور الذي يحيط، في الغرب، الميزيتا المغربية لكي يتصل بالقعور الكتلي البركاني وحيث الآثار (السينوميني، السينونيني)، تعتبر غير قابلة للجدل بجهة طنجة حيث يتأسس الاتصال مع التوضعات المشابهة للتل الجزائري.

وقد غطى الطغيان السينوميني المظاهر الأولى للأطلس، في حين نجد مع بداية التيروني (Turonien) أن بحار الكريطاسي تعيش حالة التراجع.

وكان مهيأ لاتجاه طيات الزمن الثالث عن طريق تجزيء السلسلة الهرسينية وهو الأمر نفسه الذي رسم الخطوط العريضة للأطلس. وفي الواقع، ستقطع الطيات الحديثة للسلسلة الحالية طيات العصر الفحمي تحت زاوية تصل أو تتعدى °45، والمناطق قليلة في العالم التي يمكن التحقق فيها بشكل واضح من القاعدة التي صرح بها Ed. Suess، والتي جاء فيها "اتجاه حواشيها المنكسرة ليس هو اتجاه الطيات القديمة المُحددة لاتجاه الطيات التي بعدها والحديثة جدا". وهذا يعني أن البدايات الأولى لسلسلة الأطلس الكبير تعود إلى نهاية الأزمنة الأولى.

وكان من أثار الحركة الكبرى للزمن الثالث إعادة تنظيم الطيات القديمة وكذا التأثير بقوة، في الاتجاه نفسه المنطقة الشرقية والحدود الغربية للأطلس، على الارسابات الحمراء للبرمي التي تكونت في حدود نهاية الحركة الكبرى الهرسينية. وقد أُحدث كذلك نظام من المحدبات والمقعرات الموازية للاتجاه العام للسلسة والذي، ببنيته، يُذكر، خصوصا بالمنطقة الساحلية، بالنظام الملتوي للسلسلة الصحراوية التي وصفها بدقة E. Ritter.

وتظهر طيات مماثلة إلى حدود مسافات معينة شمال المنطقة المنضدية للسهل الكبير للحوز، والتي تبين ارتدادات حركات السلسلة خلال الزمن الثالث .

إن الصلة أو العلاقة التكتونية للسلسلتين الإفريقيتين لا يمكن تفريقهما: الأطلس الكبير بالمغرب يتبع السلسلة الصحراوية مثل الأطلس الصغير، أو الريف، والذي يمثل امتدادا للأطلس التلي.

دُفعت طيات الزمن الثالث للأطلس الكبير الغربي بشكل واضح في اتجاه الشمال وتشكل غالبا أحزمة من الطيات المتداخلة خصوصا في الشرق، ما بين دمنات وسهل سكورة، بسهل سوس، إلخ، في حين نلاحظ بالمنطقة الساحلية طيات محدبة منفصلة، لكن دائما منقلبة في اتجاه الشمال. وتلاحظ القاعدة نفسها بمحدبات المنطقة المنضدية لحوز مراكش والمنطقة الساحلية، مباشرة شمال السلسلة.

صورة مأخودة من عين مديول (شيست وأعراف جوراسية)

مضيق بيباون وسط الشيست والكوارتز السيلوري

وهكذا يبدو أن قلب الأطلس الكبير مكون من قاعدة قديمة ملتوية في انقلاب مع انقلاب لطياته في اتجاه الجنوب وكذا غطاء يعود للزمن الثاني، الجوراسي والكريطاسي، الذين يمثلان قعورا بالجزء المقعر، الذي عرف لاحقا حركات في الزمن الثالث والتي أنتجت بشكل معاكس، في اتجاه الشمال. وتمكننا هذه المراحل من التاريخ الجيولوجي لأطلس المغرب من توضيح التقارب مع البرانس بعد أن وضح ليون بيرتناغ المراحل الكبرى.

وتمكن اتجاه طيات الزمن الثالث لهذه السلسلة الافريقية الكبرى أيضا من توضيح تقارب آخر مع الألب بفرنسا، وحيث نقلت الطيات المدفوعة بقوة هامة في اتجاه الهضبة الوسطى. في حين يبدو بشكل واضح أن طيات الزمن الثالث بالأطلس كانت تتجه نحو التحطم قبالة الميسيطا المغربية القديمة، والذي يميز الألب عن الأطلس المغربي من وجهة النظر هذه هو ضعف قوة الحركات الانتهاضية في الأطلس.

وحدث بعد المراحل الالتوائية الكبرى للزمن الثالث -بواسطة قوى تخفيف جانبية- اندكاك على السفحين، من كلا جانبي "الكتلة الوسطى للأطلس" التي رسمت معالمها عند بداية الكريطاسي. وهكذا تشكلت المناطق الانهيارية ذات الهندسة المنضدية لحوز مراكش في الشمال، ولسوس ودرعة في الجنوب.

ونتج عن ذلك، كذلك، تخفيف للضغط على الجزء المركزي للسلسلة مع اتجاه نحو بنية الطيات المروحية التي أُعيد تشكيلها، خصوصا بمنطقة محدبات آيت مديول في الشرق، وبالكتلة الوسطى للأطلس، مع الاحتفاظ بانقلاب جد حاد في اتجاه الجنوب.

ونرى اذا قمنا بقطع الأطلس الكبير بشكل طولي من الشرق نحو الغرب، أن طيات الزمن الثالث، خصوصا البارزة بالأراضي الجوراسية والعابرة للكتلة الوسطى للزمن الأول، والتي تخلصت اليوم عن طريق تعرية توضعات الزمن الثاني التي تغطيها بشكل متوالعلى الأقل في حقبتين مختلفتين، الجوراسية ثم الكريطاسية، لتميل في الجزء الأقصى الغربي للسلسة مع انحناء محوري جد واضح لتنخسف أخيرا تحت مياه المحيط.

ويجب اعتبار محدبي كاب غير وأگادير كشكل امتدادي للسلسلة المرتفعة، التي تنخسف تحت المحيط الأطلنتي لتظهر من جديد بجزر الكناري، في حين تتموقع القِبب المحدبة التي تنشأ في أقصى الشمال، إلى حدود جبل حديد، خارج الأطلس.

والقناة التي تفصل المحيط الجنوبي- الغربي للمغرب عن أرخبيل الكناري، شبيهة بمضيق جبل طارق الذي يطابق، كما أوضحت ذلك، إغراقا لطيات السلسلة الريف- الرَعنية (Cordillière). يبقى الآن معرفة في أي حقبة أُنتجت بالانخساف مساحة إغراق طيات الزمن الثالث ؟ بمعنى آخر في أي وقت أنتج انفصال الجزر الاسبانية عن القارة الإفريقية ؟

ويقتضي حل هذا المشكل أولا معرفة عمر طيات الزمن الثالث أو، وهو الشيء نفسه، معرفة عمر الأطلس؛ لكن الوثائق التي تخص هذا الإشكال الهام هي في جزء كبير منها ناقصة أو تشوبها عيوب. أما أنا فأعتقد فقط أن الأطلس المغربي يمثل سلسلة حديثة جدا (Très jeune).

ولاحظت، في رحلتي الأخيرة، على طول المحيط الأطلنتي، ما بين موگادور وأگادير، حث طرطوني، سابق لطيات الأطلس المنتمية للزمن الثالث. ونجد إضافة إلى ذلك، حزاما شبه متصل يعود إلى البليزانسين، والمتميز بغناه من حيث الحفريات الحياة البرية، وهو حزام يوجد على أطراف ساحل طنجة؛ وتمكنت من متابعته إلى حدود سهل سايس. ونشاهد البليوسين الأسفل يرتفع انطلاقا من مستوى البحر، على الجبهة الشمالية لمحدب كاب غير، ليغطي حتى حدود أگادير الهضاب الساحلية بمتوسط ارتفاع يصل لحدود 200 متر. ويبدو جليا على أن هذه الأراضي قد تأثرت بالحركات الخيرة للسلسلة؛ وتوجد هذه الالتواءات المنتمية للبليزانسيان واضحة إلى حد الآن في القِباب المحدبة المنطقة الساحلية والتي تُبرزُ من الكريطاسي المنضدي، كما هو الشأن بجبل حديد.

وتؤرخ البراكين القُبية التي وجدت بجبل سيروا، جنوب الأطلس الكبير، تقريبا بنفس الحقبة.

وإنه من المفيد إبداء الملاحظة، من ناحية أخرى، أنه توجد على مشارف الحواف التواءات هرسينية تُدعم بالتالي، على شاكلة بركان الزمن الأول، هذه المنطقة الهشة من سطح الأرض؛ لكن ذلك لا يمنعنا من ملاحظة العلاقة التي تربط ما بين وجود هذا البركان النيوجيني والانكسارات الكبرى التي أعطت تهدل منطقة سوس ودرعة.

يُستنتج مما سبق كون أطلس المغرب رغم ما يشكله من تشابه، أشرت إليه سابقا، مع سلسلة البرانس الإيوجينية، يمكن الفصل من وجهة نظر عمره ليقترب من الألب دو التكوينات النيوجينية؛ وكون انفصال أرخبيل الكناري عن القارة الإفريقية سيؤرخ بتاريخ حديث جدا، نهاية البليوسن أو بداية الرباعي.

سهب أيت خزامى وجبل سروا

وادي في الجبل البركاني لسروا

3 - اعتبارات تضاريسية

بناءا على الدراسة السابقة تبرز بعض الاستنتاجات المفيدة حول الانتظام التضاريسي للسلسلة الكبرى.

أثار طومسون الانتباه في الأطلس الكبير إلى الجزء الواقع جنوب فج بيباون، باعتبار العمر الحديث، الكريطاسي في نظره، للأراضي التي توجد هنا وأيضا باعتبار وتيرتها المنتظمة إلى حد ما؛ وهي كلها تجتمع تحت تسمية هضبة حاحا. ويؤكد كذلك كون الأطلس لا يصل إلى حدود المحيط، حيث يتوقف عند مرتفعات إدا ومحمود ويوجد منفصلا عن البحر بسلسلة من هضاب الزمن الثاني. وسايره في هذا عدد من الرحالة الذي خلفوه، وبول شنيل، في مؤلفه الرائع حول الأطلس المغربي، قبِل بشكل طبيعي تأويل الرحالة الانجليزي الشهير، وهي تأويلات مبنية على حقائق جيولوجية ظاهرية. وسلّم بريب أيضا بعد رحلاته الأولى، كون الأطلس مُنفصل عن البحر بمنطقة أطلق عليها اسم الهضاب الغربية.

"بصفة عامة، كما يقول، المنطقة تتقدم على شكل تعاقب لهضاب هامة إلى حد ما، متدرجة بعضها فوق البعض الآخر، وترتفع إلى حدود 2000 متر. في كل هذه الدرجات المتتابعة، تظهر الطبقات بشكل أفقي نسبيا".

وأوضحت في حينه كيف أنه لا يمكن حصر الأطلس في حدود 80 كيلومتر من المحيط؛ ضرورة الامتداد إلى حدود المحيط الأطلسي تأتي من استمرار الطيات الألبية للسلسلة. وأسرُد منذ هذه الحقبة طيات رأس تافتنة، وكاب إغير وأگادير ن غير، وركزت على هذه الحقيقة في كثير من أبحاثي. رغم ذلك يقر زميلي من الجزائر، من دون الإدلاء بوثائق جديدة، وبما أنه لم يَزر حتى الحدود الغربية للسلسلة، في مؤلف بحجم كبير حول رحلاته إلى المغرب، بتواجد الطيات الألبية التي أشرت إليها؛ لكنه يحتفظ بالأطروحة القديمة لطومسون.

وتظهر الدراسة التكتونية، المشار إليها أعلاها بشكل موجز، وواضح أنه يجب التخلي عن التفسير الذي قدمه المستكشف الإنجليزي إذ الخطأ ناتج عن هذه الظروف التي لم تجعله يُقطع الحدود القصوى للسلسلة، لأنه ينبغي حصرها من هذه الجهة بمحدبين: محدب رأس إغير وأگادير ن غير.

أكثر من ذلك، يظهر اختفاء طيات رأس إغير وأكادير ن غير، تحت القناة التي تفصل المحيط الجنوبي المغربي عن جزر الكناري، استمرارية هذه الطيات الألبية والتي ينبغي أن نجدها ما وراء أرخبيل الكناري، في جزر الرأس الأخضر ومجوعة جزر الأنتيل قبل الالتحاق عن طريق أمريكا الشمالية، والهيمالايا والقوقاز، بسلسلة الألب بأوربا.

وتؤكد ملاحظاتي الحديثة جدا إذن بصفة حاسمة فكرتي الأولى المتعلقة بكون الأطلس الكبير ينزل إلى حدود المحيط الأطلنتي. ويجب الرجوع إلى فكرة الجغرافيين القدامى، والذين اعتقدوا كون الأطلس يصل إلى رأس إغير. ولم تدعم هذه الفكرة بأية حقيقة علمية، يبدو أنها نتجت من المظاهر التضاريسية التي أبهرت الرحالة القدامى والذين مروا من المنطقة الواقعة ما بين موكادور وسوس، حديثا يبدو أن الملازم الأول W. Arlett، وملاحظاتي الجيولوجية أكدت هذه الفكرة بشكل نهائي.

ويمكن العمر الحديث، الرباعي على الأرجح، للقناة التي تفصل الساحل الإفريقي عن جزر الكناري أن يعيد التساؤل عن تاريخ الأطلنتيس أو المملكة المفقودة، ولهذه الأرض الشاسعة التي تَكلم عنها بلاتون والتي أُغرقت تحت المحيط لمدة عشرة آلاف سنة قبل عصرنا هذا، بعدما أرسلت في القارة القديمة غزو شعب الأطلنتي، والذين تولدت عنهم الشعوب الأوروبية الأولى.

وإذا كان، على عكس رأي الفلاسفة الذين علقوا على كتاب بلاتون وكذا الرأي الذي عبر عنه هومبولت في "كوسموس"، تاريخ الأطلنتي والأطلنتيس ليس بأسطورة، فإنه يجب التوجه إلى الجيولوجيين لتسليط بعض الضوء على هذا السؤال الهام.

ولاحظت في الواقع على الشواطئ الجنوبية للمغرب، ما بين موگادور وأگادير، بقايا الشواطئ القديمة، والمرتفعة بما بين 0 و100 متر، والتي يجب أن يكون لها مقابل بالأرخبيل الإسباني. ويبدو أن دراستها بشكل دقيق، يمكن أن تسمح بإعطائها العمر نفسه وكذا تدقيق الحركات الأخيرة للسلسة، ومن تم إمكانية استخراج بعض المفاهيم الدقيقة حول عمر انهيار (أو انخساف) القناة، هذه الدراسة يمكن أن تُبين كذلك، هل، حسب أطروحة الأطلنطي، مجموعة جزر الكناري لم تكن تنتمي إلى جزيرة أكثر شساعة والتي تجزأت بانخساف أو مجموعة من الانخسافات.

ولفت نظر دي فوكو، وهو يعبر فج الگلاوي، الارتفاع الضعيف نسبيا لهذا الممر (ما يقارب 2600 متر)، وقد اعتَبر تيزي ن تيلوات كنقطة طبوغرافية واضحة تتناسب مع انخفاض كبير للسلسلة.

ولم يغفل الرحالة القدامى أهمية هذا الممر. وتشير الخريطة الكاتالونية للقرن الخامس عشر الميلادي وخرائط أخرى بشكل مُبسط إلى الأطلس مع وجود فجوة يشار إليها باسم "باب درعة"، وهي التي مكنت التجار من التواصل مع بلاد النيجر. الدراسة المتأنية للوثائق التي خلَّفها الجغرافيون العرب، خاصة عند ليون الإفريقي، تظهر على أن "باب درعة" ليست شيئا آخر غير فج تيلوات الذي ينفتح على "بلاد درعة".

ونجد بعد رحلة الفيكونت دي فوكو بقليل، أن طومسون له الانطباع نفسه، لكن يضيف الى الدور التضاريس لتيزي ن تيلوات أهمية كبرى متعلقة بالتطبق، بكون هذا الممر يفصل بين جزئيه

من الأطلس على أساس العمر والبنية وقد ميز بين الجهة الغربية القديمة، والجهة الشرقية الحديثة.

لم يتم المرور أبدا من الجزء الشرقي للسلسلة أثناء حقبة استكشافات طومسون، لقد تم تجاوزه، إن صح القول، رولفس ودي فوكو في اتجاه تيزي ن تلغمت ؛ واستطاع في وقت لاحق الماركيز دي سيگونزاك الوصول الى عاري عياش L'Ari Aîachi وقطع في سنة 1903 السلسلة، في المنطقة نفسها، بفج تونفيت.

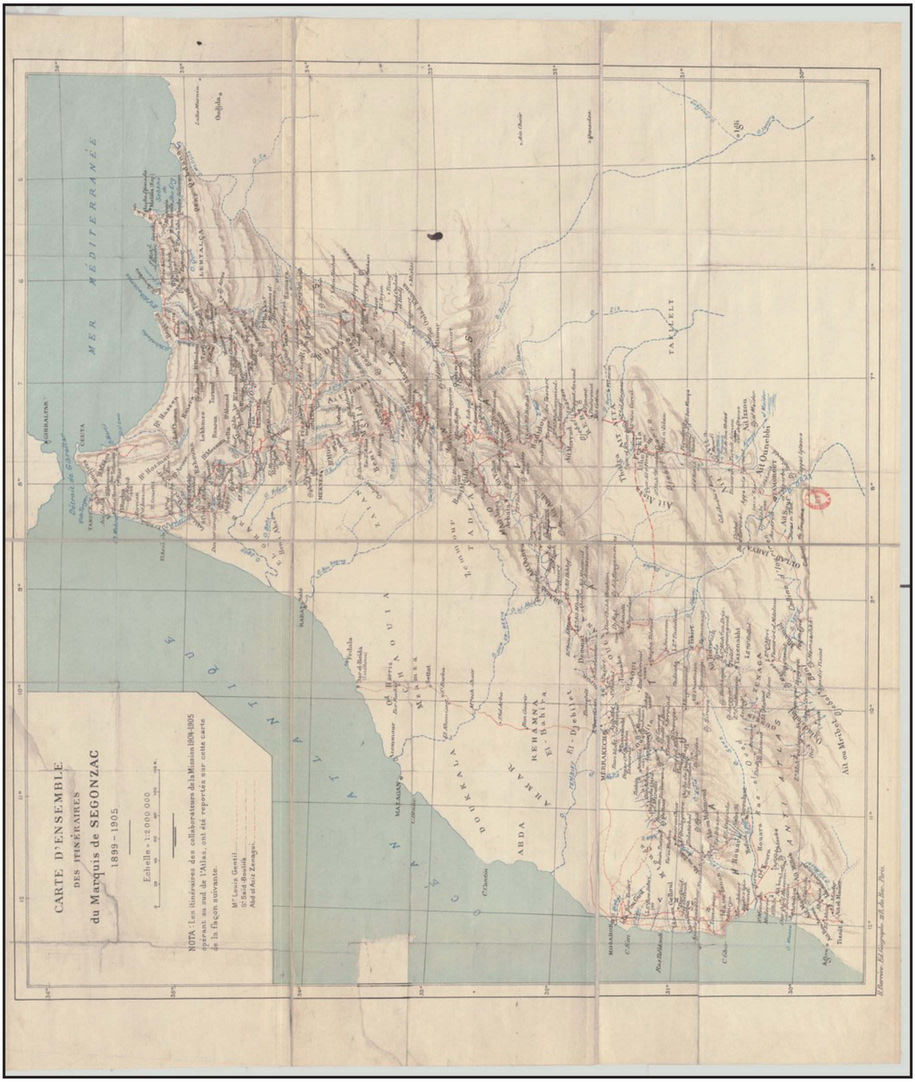

خريطة جيولوجية للأطلس الكبير الغربي

الفهرس

مقدمة المترجم... 5
تقديم.. 9
تقديم.. 11
مقدمة... 13
الفصل الأول: من الصويرة إلى دمنات....................................... 15
الفصل الثاني: من دمنات إلى واد ملوية..................................... 27
الفصل الثالث: من واد ملوية إلى واد درعة................................. 63
الفصل الرابع: من واد درعة إلى زاوية سيدي امحمد أويعقوب........ 91
الفصل الخامس: من زاوية سيدي امحمد أو يعقوب إلى أنزور (اعتداء واعتقال)............ 121
الفصل السادس: من أنزور إلى تازرت 165
الفصل السابع: خاتمة.. 187
الفصل الثامن: يوميات طريق عبد العزيز الزناكي - موكادور – تارودانت 203
القسم الثاني: معلومات سياسية، واقتصادية، وإحصائية، وسوسيولوجية، ودينية 211
الفصل الأول: الوضعية الاقتصادية للمغرب الجنوبي و"ثرواته"........ 213
الفصل الثاني: التنظيم السياسي للجنوب المغربي.......................... 221
الفصل الثالث: التنظيم الديني للجنوب المغربي 227
الفصل الرابع: التنظيم الاجتماعي للجنوب المغربي 231
الفصل الخامس: عادات "البربر" وتقاليدهم من خلال روايات شفوية لمخبرين أمازيغ 237
الزواج عند إمازيغن (الأمازيغ): الاستعدادات، والخطوبة، والشروط، والاحتفالات،
ومراسيم العرس.. 238
الولادة: الوضع، والتسمية، وحفلة ظهور الأسنان الأولى، والختان 243
الطلاق: سلطة الرجل، وحالة الخيانة.. 247
المرض: "الخوف"، والعلاج، والشعوذة، وطريقة خاصة لمعالجة مريض.......... 248
الحرب: طرق الحرب عند الأمازيغ، والأسلحة، وخطف الميت، والجنائز، والحفلات....... 250
أحيدوس 258
الأعياد الدينية عند الأمازيغ : العيد الصغير(عيد الفطر) 273
العيد الكبير (عيد الأضحى) 276
عيد عاشوراء.. 278

عيد المولود (عيد المولد).. 282
الصوف : الجز، والغسل، والتخييط، والصباغة، والنسج 283
الزيتون/ الزياتين: الغرس، والجني، والعصر 287
الفصل السادس: حاحا (إحاحان) 295
الفصل السابع: إداوتنان 301
الفصل الثامن: أگادير نيغير... 305
الفصل التاسع: الشياظمة ورگراگة.. 307
الفصل العاشر : أولاد بو السبع.. 321
الفصل الحادي عشر: دكالة... 323
الفصل الثاني عشر: عبدة والواليدية.. 331
الفصل الثالث عشر: احمر... 337
الفصل الرابع عشر: الرحامنة 341
الفصل الخامس عشر: السراغنة.. 347
الفصل السادس عشر: قبائل الأطلس الكبير.. 353
أيت مرغاد.. 354
آيت عطا... 354
الفصل السابع عشر: "قيادة" الگلاوي 357
الفصل الثامن عشر: دائرة تامصلوحت، الشراردة.. 366
أولاد دليم.. 367
الوداية (قبيلة مخزنية) 367
حربيل (قبيلة مخزنية)... 367
المنابهة.. 367
الفصل التاسع عشر: قيادة الگندافي.. 369
الفصل العشرون: قيادة متوگة 375
الفصل الواحد والعشرون: إقليم سوس 379
الفصل الثاني والعشرون: "قيادة" المنابهة (راس الواد) 385
الفصل الثالث والعشرون: أولاد يحيى ومسگينة.. 393
الفصل الرابع والعشرون: قبائل الأطلس الصغير.. 397
إلالان (إلالن) 398
الفصل الخامس والعشرون: اتحادية اشتوكة 403
الفصل السابع والعشرون: أگلو وأراضي ماسة.. 419
الفصل الثامن والعشرون: اتحادية آيت باعمران 423

الفصل التاسع والعشرون: اتحادية واد نون 429
الفصل الثلاثون: زاوية السمارة والشيخ ماء العينين 435
الفصل الواحد والثلاثون: وثائق 443
القسم الثالث : أبحاث في الجيولوجيا والجغرافية الطبيعية 451
لويس جانتي 451
I. شمال المغرب 452
II. الأطلس المغربي 462
3 - اعتبارات تضاريسية 492
الفهرس 495

يوثق هذا الكتاب لرحلة استكشافية قام بها المؤلف إلى جبال الأطلس خلال سنتي 1904 و1905. وهو يحفل بكمّ هائل من المعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية، والسوسيولوجية والأنتربولوجية، والإحصائية، والجيولوجية المميزة والفريدة، المبنية على الملاحظات الميدانية الدقيقة. وهي من بين المعطيات التي ستبني عليها فرنسا قراراتها العسكرية والسياسية والإدارية...، ونجده يصف الحياة الاجتماعية اليومية للأمازيغ بطريقة فريدة فاقت في دقتها كتابات شارل دو فوكو، وإدموند دوتي، وإديث دو لاشاريير، وروبير مونطاني في بعض المواضيع. وبهذا يشكل الكتاب خزانة وثائقية هامة لكل الباحثين في بعض جوانب المغرب في بداية القرن العشرين.

Ce livre relate une expédition menée par l'auteur dans les montagnes de l'Atlas au cours des années 1904 et 1905. Fondé sur des observations de terrain précises, l'ouvrage recèle des informations historiques, géographiques, économiques, sociologiques, anthropologiques, statistiques et géologiques spécifiques et uniques. D'ailleurs, la France fondera ses décisions militaires, politiques et administratives sur plusieurs indications de l'auteur. Il décrit la vie sociale quotidienne des Berbères d'une manière unique qui semble surpasser, en exactitude et en détails, les écrits de Charles de Foucault, Edmond Doutté, Edith de La Charrière et Robert Montagne, notamment sur certains sujets. Le livre constitue ainsi un important trésor documentaire pour les chercheurs sur des aspects du Maroc au début du XXe siècle.

إدوارد ماري روني دوسيكونزاك، ويسمى أيضا ماركيز دوسيكونزاك، وإدوارد ماري روني باردون دوسيكونزاك (1867–1962). فرنسي من عائلة ميسورة، مستكشف، وعسكري (ملازم خيالة 1891–1901)، تلميذ سابق بالمدرسة العسكرية سان كري (Saint-Cry)، قضى سنة بمدرسة الخيالة بساومور، وكانت أول رحلة استكشافية قادته إلى ساحل العاج سنة 1892، ثم أصبح طيارا برتبة قبطان سنة 1915، وقائد سرب الطيارات سنة 1919. قدم خدمات هامة لبلاده عسكريا خلال الحرب العالمية الأولى، وحصل على عدة أوسمة. كانت له رحلات متعددة إلى المغرب، خاصة إلى المناطق الجنوبية منه، وألف عنها مصنفات أهمها هذا الكتاب الذي نضعه، مترجما، بين يدي القارئ الكريم.

95 درهم